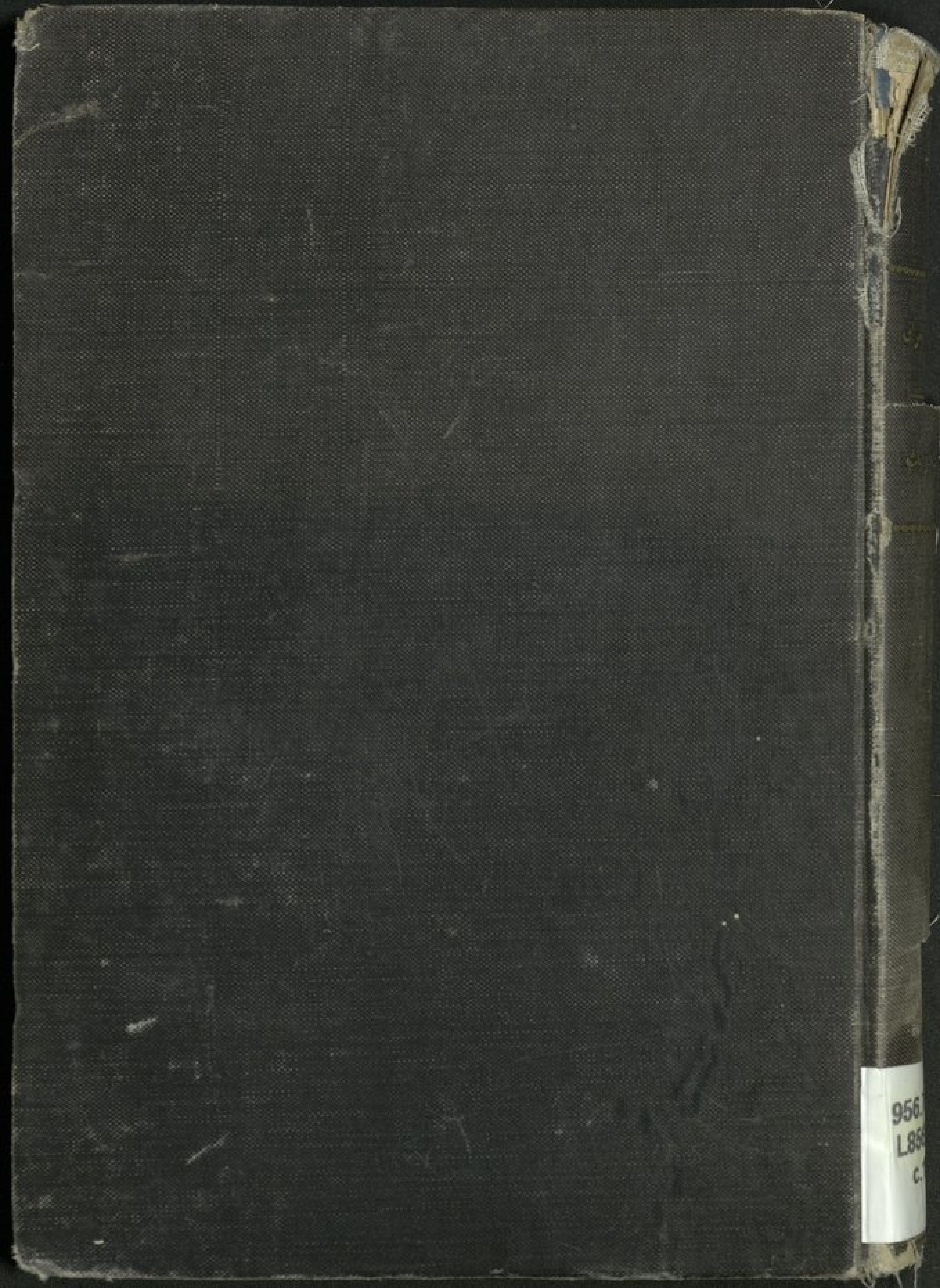
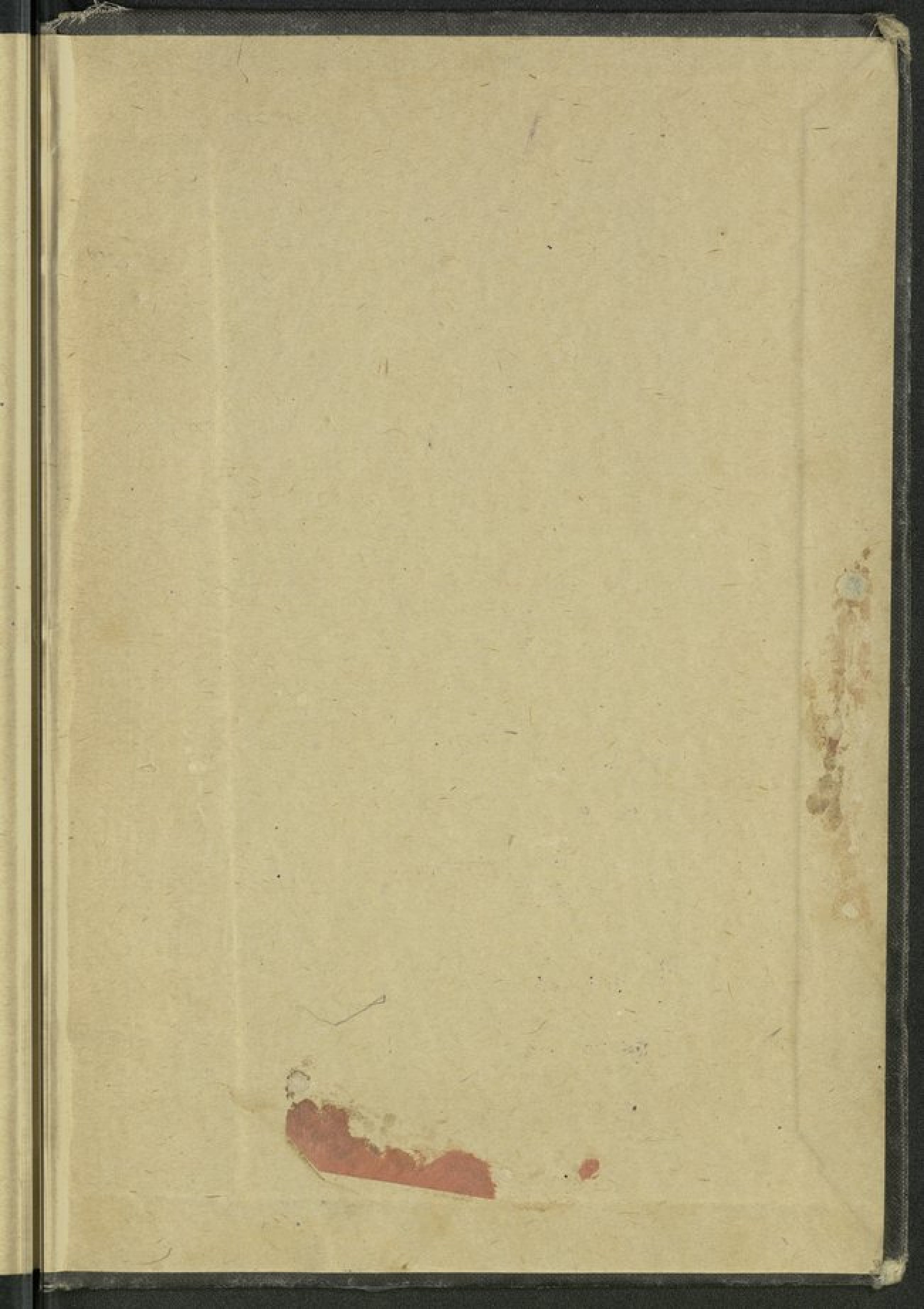




اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث

كتاب بحث عن تاريخ العراق في العصور المظلمة

ألفه بالانكليزية

المستر ستيفن همسلي لونكريك

المفتش الاداري في الحكومة العراقية سابقا

ونقله الى العربية

جعفر خياط

M. Sc., B. Sc. (كاليفورنيا)

مدير التعليم الثانوي بوزارة المعارف

مطبعة الفيض الاهلية - بغداد
١٩٤١م - ١٣٦٠ﻫ

مقدمة المترجم

عصفت ريح الخراب في العراق وكبا جواد العرب فتدفقت على هذه البلاد سيول من قبائل التركمان ملأت الاغوار والانجاد واكتسحت القرى والبلاد • وظلت تعيث فتكا في الارض وفسادا في البلاد وتجهز بوحشيتها على بغداد عاصمة الاسلام وحصنه الحصين حتى انطفأ نور الخلافة العباسية منها فغمرها ظلام دامس لا تستبين العين فيه الا نار الخراب التي اشعلتها يد الجور الاثيمة ولا يسمع فيها الا انين مدنية سارت بذكرها الركبان • واذا بهذا الانين ينقطع فيعقبه صمت الموت الرهيب فتدخل هذه البلاد من اقصاها الى اقصاها في سبات عميق ظلت تغط فيه طوال قرون عديدة حتى استفاقت على صوت المدنية الحديثة وهو يدوي في الآفاق •

وقد بقيت البلاد خلال هذه العصور المظلمة نهبا بأيدي الامراء التركمان ردحا من الزمن تتقاذفها اطماعهم وتستعر في ميادينها حروبهم حتى قضى بعضهم على بعض وابتلعتهم هذه الارض كما ابتلعت الفاتحين من قبلهم • وتبع ذلك نزاع الترك والايرانيين على بغداد المهيضة الجناح وكانت تلوح للفريقين بمجدها الذاهب وعظمتها السالفة واسمها الذائع الصيت •

وقد نزلت بالبلاد في اثناء عهد النزاع بين الايرانيين والاتراك عليها طول القرون الاربعة الاخيرة كوارث جسيمة وحدثت فيها حوادث عظيمة وعظات بالغات ملؤها عبر • فلم يدون اكثرها ، وانما دون قسم منها هنا وهناك مبعثرا متناثرا • وبقيت احوال هذه الحقبة الطويلة مطوية في سجل الزمان وفي طي الغموض والنسيان حتى عصرنا هذا حين اتجهت الانظار من الغرب الى بلاد الشرق ، والى هذه البلاد خاصة لما فيها من ثروة طبيعية ومركز جغرافي ممتاز يلوح للطامعين من بعيد ومن قريب •

وكان من حسن حظ هذه البلاد ان ينبرى للاهتمام بتاريخها رجل انكليزى فاضل اشتغل فيها عدة اعوام في عدة مناصب حكومية مهمة فخبر الامور فيها وسبر اغوارها واطلع على ما خفي منها وما ظهر ، ذلك هو المستر ستيفن هيمسلي لونكريك مؤلف هذا الكتاب • وكان من الآثار الحسنة لاهتمام المستر لونكريك بتاريخ البلاد هذه ان اتحف عالم المطبوعات بكتابه « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » هذا ،

فطبعه واتقن اخراجه فظهر اول مرة سنة ١٩٢٥ • ولقد سد بأخراجه هذا الكتاب فراغا كبيرا فى التاريخ لم يكن فى وسع احد ان يسده الا بعد الجهد الجهيد والكد الطويل • لان تاريخ الحقبة الطويلة من العصور المظلمة المنحصرة بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٩٠٠ للميلاد لم يسبق ان كتب بصورة جامعة شافية فى العربية ولا فى اللغات الاجنبية ، ولذلك اصبح الكتاب يعد حلقة جديدة ، كانت معدومة ، لسلسة تاريخ هذه البلاد الحافل •

ومن الغضاضة على هذه البلاد ان ينبرى لكتابة تاريخها رجل اجنبى ثبتت فى سبيل اخراجه للكتاب عقبات اللغة وندرة المراجع وعقم الروايات الكثيرة فيخرجه بمثل هذه الحلة القشيبة • وكان من المؤسف ان يخرج مثل هذا التاريخ بلغة اجنبية ، وهو على جانب عظيم من الاهمية ، فيبقى اعواما طوالا من دون ان ينقل الى العربية فيطلع عليه ابناء هذه البلاد واحفاد الذين يبحث عن تاريخ اسلافهم واجدادهم • هذا هو الشعور الذى كان يخالجنى ويملأ نفسى عند ظهور الكتاب بالانكليزية وقراءتى اياه بكل اقبال وامعان • وقد مرت السنون والاعوام وسنحت لى الفرص واذا بى مندفعا لتحقيق ما كنت افكر فيه • فاقدمت على ترجمة الكتاب برغم كل ما تصورته من المتاعب والمشاق متوكلا على الله ، ثم أقدمت على طبعه بعد ان هممت بذلك مرارا عديدة حتى اخرجته بهذه الحلة من الطباعة •

يعد هذا التاريخ سجلا حافلا بالحوادث المروعة التى وقعت فى العراق فى عدة قرون فطبعت طابعها عليه وأثرت فيه آثارها البينة الظاهرة للعيان حتى الآن فى شتى المناحي والمرافق • ومن يتطلع فيه وفى تاريخ العراق القديم واحواله حتى السنين الاخيرة يجد ان تاريخ العراق ، وهو ذو الثروة الكامنة والموقع الجغرافى المهم ، ما هو الا تاريخ سلسلة من تناضل الشعوب والامم القوية عليه طمعا منهم فى كنوزه وحبا لموقعه • فقد تقاتل عليه منقديم الزمان الايرانيون والرومان والعرب والتركمان وتناحر عليه الايرانيون والاتراك عدة قرون ، ثم طمعت فيه فى العهد الاخير الامم الغربية المختلفة مما لا يخفى أمره على احد • وها ان العراق يهب الآن لتكوين كيانه فى وسط هذا العالم المصطخب ، الذى تتضارب فيه المصالح والمنافع وتستعر فيه نيران الاطماع ، وله من ماضيه القريب ، وغير القريب ، الحافل بالفتوح المفعم بالدسائس والمؤامرات وبالكوارث التى انزلتها به الطبيعة ، من طاعون يتكرر حدوثه وامراض متأصلة وغرق البلاد من فيضان الرافدين

فى كل عام ، ما يدل بايضاح تام على المشاكل التى تحيط به والعقبات الثابتة فى سبيل تقدمه . وكتابنا هذا صفحة ناطقة خطت فى هـــذا السهل الواسع ، الممتد فى وادى الرافدين ، وهى تبحث فى هذه المشاكل بكل تفصيل واسهاب وتشير الى ان هذه البلاد التى تقطن فى القسم الكبير من ارجائها العشائر العربية والكردية ، فى السهل والجبل والاهوار والبطائح ، ويجرى فى عروق سكان مدنها خليط من دم اقوام مختلفة يجب ان توضع الخطط القويمة لحكمها وترسم الرسوم الصالحة لتسيير سكان الامور فيها . على ان يعتبر بالعبر البالغة التى يزخر بها تاريخ هذه البلاد وتدونها كل صفحة من صفحات هذا الكتاب .

ومما يزيد فى قيمة الكتاب التاريخية ان المؤلف رجل محايد لا يمت بصلة الى اية جهة يبحث فيها ، سوى ما لاحظناه فيه من الانتصار لقوميته عند البحث عن علاقات امته بالبلاد ونشوء مصالحها شيئا فشيئا ثم تعاظم ذلك مما لا يخفى أمره على الجميع . على ان ذلك لا يعنى انه يغفل الحقائق التى قد يعد ذكرها تحاملا على امته او بنى جنسه . ولهجة المؤلف فى الكتاب يستفحل فيها التهكم اللاذع ، فهو يسرد الوقائع حقائق مرة على ما فيها من صحة ومطابقة للواقع .

وقد توخيت ان تخرج ترجمة الكتاب ترجمة حرفية بقدر الامكان لتكون اقرب ما يمكن الى آراء المؤلف وافكاره . وعلى هذا فالمؤلف وحده هو المسؤول عما جاء فى الكتاب ، وعليه العهدة فيه وما انا الا ناقل لذلك .

وهنا يدعونى الواجب الى الاشارة بالشكر العطر للصديق الفاضل الدكتور مصطفى جواد لما تفضل به فى مراجعة الكتاب ولبعض التعليقات القيمة التى علقها فى الحاشية وقد اشير لها بحرفى « م. ج. » ، مضافا الى ذلك مساعدته فى احتساب السنين بالتقويم الهجرى الذى رأينا من الضرورى ادراجه مع حساب السنين بالتقويم الميلادى فقد ذكره المؤلف وحده .

ولابد لى فى الختام ان اسجل هاهنا اعجابى بجلد المؤلف وتعبه وبقابلية استقصائه ،

واعداده المراجع الكثيرة بشتى اللغات ، تلك القابلية التي لولاها ما ظهر الكتاب بهذا المظهر ، وان انوه بالشكر له على تفضله بالموافقة على ترجمة الكتاب ، فقد رحب بذلك بكتاب خاص منه ارسل به الي .

واني لشاعر ، اذ أخرج هذه الترجمة ، باني قد أديت جزءا من الواجب المحتم على في سبيل خدمة العراق . وآمل اني قد وفقت للقيام بذلك ، سدد الله الخطا ووفقنا تعالى لما فيه خير الوطن .

بغداد — ٧ رجب ١٣٦٠
١ آب ١٩٤١

جعفر خياط

مقدمة المؤلف

ان القطر الذي يبحث في تاريخه هذا الكتاب خلال القرون الاربعة الاواخر هو القطر الذي يتكون ـ مع اختلافات في التفصيل فقط ـ من الولايات التركية : بغداد والموصل والبصرة في شكلها الاخير . وان تسمية هـذه الولايات باسم العراق قد يعتورها شيء من الاعتراض ، لان هذا الاسم لم يكن يكثر استعماله ولم يكن على مثل هذا المقدار من الاهمية في أثناء زمن طويل من هذه الحقبة الطويلة ، كما ان هـذا الاسم كان يطلق احيانا ليدل على قطر مختلف عن هذا تماما . غير انه ليس هناك من الاسماء ما هو اكثر التئاما وانطباقا على هـذه الولايات في نظر جمهور اصبح متعودا لذلك الآن مثل اسم مملكة العراق في الوقت الحاضر .

ولو وجد المؤلف تاريخا معتدلا شافيـا للبلاد في العصور الحديثة ـ منذ اوائل القرن السادس عشر الى نهاية القرن التاسع عشر ـ ما اقدم على دخول هذا الميدان . فلم يكتب مثل هذا التاريخ من قبل باللغة الانكليزية ولا باللغات الاوربية الاخرى سوى رسالة واحدة لا تفي بالمرام . كما ان الكتب المطبوعة في لغات آسية الغربية ـ ولا الكتب المخطوطة ـ ليس بينها ما يمكن ان تسد ترجمته الفراغ الموجود في هذا الشأن . فان المدونات في تاريخ العراق القديم ، والعراق في القرون الوسطى ، قد اصابها منذ زمن طويل ولا تزال تصيبها عناية الآثاريين والمؤرخين ، تلك العناية التي تليق بمهد حضارة الانسان ، وبمركز يعد من اقدم مراكز الانبراطوريات القديمة ، وباصقاع مر بها كبار القادة من الاغريق والرومان ، وبمشهد مجد الاسلام ومفاخره في زمن العباسيين . الا ان هـذه الشهرة القديمة قد خابت في ان تستجلب نظر العطف المثير للاستطلاع على التقلبات التي تلت تلك العهود والاهوال التي كابدتها البلاد نفسها . فان عصر الفقر والفوضوية والاهمال الطويل الذي حل بعد دخول المغول الى البلاد قد نفر مؤرخي عصر حمورابي وسرخس وسلوقيوس وخسرو وهارون على حـد سواء . وقد غمرت تاريخ العراق ظلمات مختلفة الدياجير منذ الساعة التي انطفأ فيها نور الخلافة حتى القرن الحاضر . فمنذ فتح هولاكو الى بزوغ فجر ايران الصفوية يوجد ، في الحقيقة ، الشيء الكثير مما يتعلق بهذا التاريخ مدونا بين طيات التواريخ

الغامضة للمغول والتاتار والتركمان ، ولذا لم يتطرق مؤرخ الكتاب الى هذه النواحي من البحث . وانما اقتصر بحثه على الحقبة الاخيرة التي لم يصبها الا نزر يسير من البحث والتنقيب .

بيد ان ما يســوغ له كتابة صفحات كثيرة مثل هــذه ، وهي متعبة في كثير من الاحيان ، لا ينحصر في المجد والمفاخر المتضائلة في القدم منذ مدة بصورة خاصة . وانما ينحصر ذلك في بحثه عن تاريخ اصقاع مترامية الاطراف مهمة بموقعها كانت عظيمة الثروة ولا تزال عظيمة بثروتها الكامنة ، وعن احوال طبيعية واجتماعية ثابتة تستحق الدرس بكونها من ممهدات التاريخ سواء أكانت فريدة في بابها ام لم تكن ، وعن تاريخ بلاد يتعلق ماضيها الاخير بحياة الالوف من ابناء بلادنا ومصايرهم ، هــذه الالوف التي يكون مستقبلها الآن معضلة تستثير أشد الجدل . واعتمادا على هذا يخاطر المؤلف اذ يأمل كون اخراج هذا الكتاب قد جاء في وقته ، وان الكتاب نفسه ، بما فيه من الحقائق التاريخية المجردة المطابقة للواقع ، سينزل منزلة القبول عند اناس ستكون حقائقه اساسا في تكوين آرائهم .

وفي المدونات التاريخية للعراق منذ ايام سليمان القانوني شخصيات بارزة كانت محتجبة عن الانظار ولم تحل محلها اللائق بها في التاريخ ، ووقائع خلو من القيمة التاريخيــة او الدراماتيكية ، ومواد كافيــة لانارة موضوع مهمل ، الا وهو موضوع الولايات الآسيوية من انبراطورية السلطان في اوجها وفي انحطاطها . ففي هــذه الحقبة يجد مؤرخ بلاد العرب وجها مهما من وجوه حياة القبائل البدوية ، وهو البحث عن « المجددين »[1] الشرسين في البوادي والواحــات . ويجد مؤرخ ايران النزاع الديني المر الممتد طوال العصر بين « الرفض » و « السنة » حيث استولى ابطال شهيرون من الانبراطوريتين ، مرة وثانية ، على همذان والوديان الكردية وبغداد . ويجد مؤرخ الاكراد تعامل دويلات الوديان الجنوبية مع اتباعها وفيما بينها . كما يجد هنا مؤرخ المشاريع البريطانية نشوء اول المؤسسات البريطانية المتواضعة واتجارها مع البصرة ، ثم تعاظمها البطيء واستحالتها الى سيطرة ديبلوماسية واقتصادية .

وان المؤلف الذي يطمح مثل هذا الطموح ليفيد غيره من المؤلفين ورجال الدولة

---

(١) يقصد الوهابيين . (المترجم)

والمستشرقين قد جابه واجه هذا فى احوال يكتنفها شىء كثير من الانشغال ويحيط بها طقس قاس وتبعد فيها عنه المكتبات والمراجع . وهو لا يمكنه ان يأمل ستر بعض التقصير عن نباهة القارىء المدقق . على انه يشعر فى الوقت نفسه بان كون عثوره على المراجع محدودا ، وافضلية المساعدة التى يحصل عليها من المطلعين المحليين ، واقامته الطويلة فى العراق (الضرورية لمعرفة الاحوال المحلية والطوبوغرافية واللغات) اضطرته لاخراج كتاب لا يستسيغه الا القليل من الناس . وهو يرحب بالفرصة التى يظهر فيها كتاب تدبجه يد مؤرخ ابرع من يده ، ليحل محل هذا الكتاب ، وعندئذ سيكون فى متناول تلك اليد استقصاءات المؤلف نفسه .

ولا يمكن ان يعترف هنا اعترافا مفصلا بالمساعدات الكثيرة السخية فى تقديم المواد المخطوطة ، واعارة الكتب التركية النادرة ، وفى الامور الكتابية التى قام بها لى كثير من الاصدقاء العراقيين .

غير انه يكون من غير اللائق ان تهمل الاشارة بالشكر الى حمدى بك بابان (احد افراد الاسرة الشهيرة الوارد ذكرها فى الكتاب) ويعقوب افندى سركيس ومحمود بك الشاوى وحسن بك فى الحلة وداود بك الحيدرى والشيخ احمد باش أعيان . وقد قدمت للمؤلف معلومات قيمة فى التاريخ الاخير لبعض الاماكن الخاصة من الحاج عذار فى البصرة والحاج شكرى بك فى الحلة وحميد خان فى النجف وعبدالمجيد بك اليعقوبى فى كركوك وكثير غيرهم . وان الاعمال الكتابية التى قام بها زاهد افندى وعبدالجبار افندى ويوسف مالك قد سهلت مهمة جمع المراجع والمعلومات تسهيلا كبيرا .

بغداد ــ شباط ١٩٢٥ م .

س . هـ . ل .

(المؤلف)

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الصفحة

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الاول

العراق والفتح التركي

البلاد في سنة ١٥٠٠[1]

ليس بين البلاد المشهورة قديما بلاد اختفت عن انظار العالم المتأخر واصبحت اخبارها في طي الغموض والنسيان كالبلاد التي كانت في وادي دجلة والفرات في اوائل القرن السادس عشر • فقد دهمتها موجات بشرية من الشرق الاقصى ، وتولت فيها عدة سلالات مالكة فسقطت وأدى كل ذلك لزوال المجد القديم لهذه البلاد ذلك الذي اصبح في عداد الاساطير • وقد سها الغرب في ذلك العهد عن العراق وشغلته عنه شواغل النهضة الاوربية الحديثة ، وعالم كولومبس الجديد ، وخطط ملوك اوربة النابهين التي كانت ترمي الى انشاء قوات جديدة من أمم متكتلة • وقليل من الناس من كان يفكر في بابل ونينوى وبغداد عادا اياها مراكز في العالم المعمور • وأقل من هؤلاء من كان يفكر في الاتصالات الدبلوماسية التي قلما كانت تجري بين ولاة العراق وبلاطات اوربة •

ثم ان قصص السياح كانت قليلة وغير حقيقية • ولم يهتم بالبلاد الواقعة في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط سوى حكومات اوربة الجنوبية البحرية ، لان هذه البلاد كانت مصدرا مباشرا او طريقا لمصادر الحرير والتوابل والابازير التي كانوا يحصلون عليها بالمبادلة البضائعية من سورية ومصر • ومن جراء هذه الحاجات والحوائج كانت السفرات البحرية لدياز ودوغاما قد عجلت الاهتمام بالبلاد الهندية وما جاورها • فمخرت اساطيل البرتغال عباب البحار الهندية قبل انتهاء القرن الخامس عشر ، وشيدت في الخليج الفارسي قلعة هرمز العظيمة في سنة ١٥٠٧[2] • وكان تجار البندقية وجنوة يسلكون باستمرار الطريق البري الذي هو بمقام جسر ارضي يربط البحر الابيض

---

(١) توافق سنة « ٩٠٦ » الهجرية • (٢) تقارن سنة « ٩١٣ » الهجرية •

المتوسط بالسواحل الايرانية . وكانوا فى طريقهم هذا ينزلون فى حانات بغداد او « بابل » ويشاهدون النجف او يتلبثون ايام مرورهم فى الزبير .

على هذه الشاكلة بقى ذكر العراق خاملا فى العالم من قبل ان يعود به ، فيجعله قبلة الانظار من جديد ، ظهور الصفويين الذين كانت شهرتهم آخذة بالنمو ، ومن قبل فتوحات سلطان الترك الشرقية ، وتوسع تجارة الامم الغربية ومغامراتها .

غير ان العراق فى ذلك الدور لم يكن فيه ما يثير طمع جيرانه . فقد كانت البلاد ، على عظمة تاريخها والثروة الكامنة فيها ، قد تقادم فيها عهد الخراب من جراء الجور المبيد فاصبحت قفرا موحشة تسود فيها الاحكام الفوضى من القلعة الصخرية فى ماردين حتى شط العرب . وكان المسافر اذا مر بالبلاد سالكا الطرق ، التى كونها استطراقها منذ القدم ، يلقى اضطراب احوال الجو ومشاق السفر الخاصة بكل قسم من البلاد . فقد كان يمكن المسافر ان يمر من جنوبى العراق الى وسطه فى نهر الفرات حتى الحلة . او فى الفرات والغراف[1] ودجلة الى ايوان كسرى . واذا ما سلك المسافر الطريق المذكورة فهو يبدأ من الجنوب بشط العرب فيمر بذلك الطريق الزاهر ثم يخترق اهوار الحلفاء والبردى ويدفعه « ادلاؤه » على طول جداول قد غطت جانبيها النخيل فى مواضع ، والصفصفاف فى اخرى وتتفرع ثم تلتقى دائما . واذا مر من هناك فقلما يصادف قطعا من الارض مزروعة بالذرة او الشعير ، ويشاهد قطعان الجاموس وقرى المعدان المتألفة من الخصاص « بيوت الحصران القصبية » او بيوت الشعر التى يأوى اليها الرعاة بعد ان يدفعهم جفاف البادية الى ضفاف الانهر . وفيما فوق البصرة برج الدير العظيم ، وفيما فوق القرنة الى صدر الغراف يشاهد نهر عنتر والمنصورية وكوت المعمر وهى اكثر المناطق سكانا واثبتها من بين ما يقارب ألف مجموعة من مجموعات المنازل العشائرية المماثلة لها . اما على الغراف فلم يكن أى بلد من البلدان الحديثة سوى الحى الواقعة فيما يقرب من واسط القديمة . ولم تمصر حينذاك على

---

(١) كانت اكثر مياه دجلة تسيل فى الفرات منذ ايام الساسانيين حتى سنة ١٥٠٠ ، وكان القليل منها يسير مارا بالعمارة الحالية فالقرنة . وفى ١٥٧٥ انقسمت مياهه بين هذين الطريقين الى قسمين متساويين . وفى ١٦٥٠ رجعت المياه كلها الى الطريق الشرقى . ويدعى فرع الغراف الآن شط الحى .

دجلة العمارة والكوت والبغيلة (النعمانية) والعزيزية والصيرة • وكان الفرات الاوسط يمر من العرجة والسماوة وململوم وحسكة (الديوانية اليوم) وكثير من القرى المأهولة الواقعة بين بساتين النخيل الى الحلة • وتقع الى الغرب ، فى ارض تتعرض للفيضان فى الربيع ، الرماحية والكوفة والعتبات المقدسة • اما البالاكوباس - أعنى - فرع الهندية من الفرات فقد كان جافا مطمورا مهجورا • وكانت بلدة الكفل (كما هى بلدة العزير على دجلة) من اماكن اليهود المقدسة • ولم تكن طويريج قد مصرت بعد ، والمسيب كانت تكثر فيها الحركة لوقوعها على طريق زوار كربلا • ومن هناك بمراحل ثلاث ومن الحلة بمراحل اربع يصل المسافر الى بغداد عن طريق البر •

على مثل هذا كانت المناظر والبلدان فى العراق الجنوبى • وهى وان كانت تشابه وضعها اليوم فانها كانت تختلف كثيرا عن المناطق الشمالية •فلم تكن مجارى الانهار مثلها اليوم ، وكانت الاهوار تمتد الى الشمال اكثر مما تمتد اليه اليوم وتغمر مساحة اوسع ، وكانت الفيضانات فى الربيع مستفحلة بالكلية • وكان فى هذه البلاد القليل من الزراعة والاقبال على تربية الحيوانات التى يقوم بها البدو • وكان الصفصاف والغرب اللذان يقل وجودهما اليوم يكسوان ضفاف الانهر حينذاك • ثم ان مظاهر العظمة السالفة كانت اقل اندثارا •

وقد ارتفع مستوى الارض اليوم وتبدلت طبيعتها فيما فوق الفلوجة وسامرا الى ما وراء جبل حمرين • فلم يبق اثر فيها للاهوار وشجر الغرب ، ولا للمعدان والجاموس ، ولا للانهر الطائشة التى ليس لها ضفاف ثابتة • وقد استبدل الغرين بالحصباء والصخور ، وتبدل الانبساط بالتعرج ، ثم ظهرت علامات الثروة المعدنية فى الارض • وقد حلت عند الفلاحين القليلين هناك الدواليب المائيـة والمطـر الغزير فى محل الترع الفائضة والكرود ، كما حلت فى محل الخيمة والكوخ القصبى الاكواخ المبنية من الطين • ثم اخذت قطعان اكبر من الاغنام والابل تقود رعاتها متجولة فى مراع اوسع واقل شحا فى عشبها •

وكان الطريق الى سوريا يعبر الفرات فى الفلوجة ، ثم يحاذيه متجها نحو الشمال الغربى مارا فى المراحل المعروفة فى كل عصر • وفيما عدا الرمادى كانت قرى الفرات الاعلى مثلها اليوم اسما واتساعا وحالة كما بقى على حالته هواء البادية النقى والبرارى الجافة المرتفعة •

وقليلا ما كان المسافرون يطرقون دجلة فيما فوق بغداد • فمن قبتي الكاظم وأبي حنيفة الى حمام علي ، ينبوع الموصل ، لم يكن المسافر ليمر ببلدان كثيرة سوى السميكة ، الواقعة على نهر الدجيل ، وسامرا وتكريت • وكان طريق الموصل المستطرق بكثرة ـ الذي لم يتبدل اليوم في تخطيطه ووقفاته ـ يمر بوادي الخالص ثم يعبر جبل حمرين • وفي ضواحي بغداد الشمالية كان يتفرع طريقان بزاوية حادة ، يمر الشرقي منهما في خان سماه الترك اخيرا ـ اورطه خان ـ ثم يصل الى معبر ديالى في بهرز ومن بعد ذلك يحاذي بساتين قرى بعقوبة الاثيثة وقلعة شهربان ويمر بين تلول منخفضة فيخترقها الى خانقين ومن هناك الى كردستان • وكان هذا طريق العباسيين القديم الى خراسان • وفي شرق بعقوبة قرية على نهر الروز هي محطة نصف الطريق الى مندلكن حيث يتخلى العرب الى اللر ويلتقي جفاف الارض المنبسطة بانهار التلول السريعة • ويمر طريق الموصل بقريتي الاعظمية والخالص ثم يعبر الخالص في بليدة دلي عباس • وبعد ان يمر بالغرفة ومن فيها من البدو يميل الى اليسار فيمتد في الجبل في ثنايا وعرة ومن ثم يشرف على سهول قرة تبة المتعادية[١] • وكانت زنكباد الوقفة التالية التي يمر بها الطريق الى موقع كفري القديم ثم الى طوزخرماتو وطاووق واخيرا الى كركوك • ومن شمال كركوك يخترق الطريق سلسلة منخفضة من الجبال مارا بمجموعة آبار من الزيت الخام ومخترقا سهلا واسعا الى الزاب الصغير في آلتون كوبري • ويمر الطريق من اراضي القمح المتحدرة الجميلة التي يمر بها اليوم الى الزاب الكبير فقوش تبة وقلعة اربيل القديمة • وكان هذا النهر يعبر من معبرين ومن ثم تأتي الموصل بعد مرحلة اخرى • وعلى هذا القسم من الطريق عدة قرى مسيحية ودير قديم • وكانت الموصل الباب الطبيعي للعراق الشمالي • وكان يمكن الوصول اليها من الشمال ومن الغرب بطريقين رئيسين • فكان احدهما يؤدي الى مدينة ماردين الواقعة فوق قمة التل من حلب عن طريق اورفة ومن ثم يمر بقره دير الى نصيبين ويخترق السهل الى دجلة فيما تحت جزيرة ابن عمر • ويمر الطريق الآخر من مدينة ديار بكر العظيمة وقلعتها الى جزيرة ابن عمر ثم الى الموصل عن طريق زاخو والقوش •

---

(١) اي المتفاوتة في العلو والخفض غير المستوية وأهل العصر يسمونها « المتموجة » وذلك خطأ .

بمثل هـذه المسالك كان يمكن المسافر من الاناضول او سـورية ان يصل الى سواحل الخليج • والبلاد التى كان يمر منها هى عراقية الطبيعة تماما ـ وهى المنطقة العليا والمنطقة السـفلى للسهل الطويل الممتد بين النهرين • ولولا الضرورة القاضية بالبيان اولا عن الاراضى المتاخمة للعراق من جميع الجهات لانتقلنا بهذا الوصف الى البيان عن احوال البلدان والعشائر التى كان بوسـع المسافر ان يصادفها فى طريقـه المذكور • فان البلاد المجاورة للعراق مصاقبة ، مهما اختلفت عنه فى المظهر والمجتمع ، لا يمكن ان تختلف عنه من الوجهة التاريخية • ففى قسم منها تمتد الطرق الرئيسة المؤدية اليه • وخضع القسم الآخر منها لتابعية حكامه او ناوأهم فأبى الخضوع لهم • وكذلك كان قسم آخر من هذه البلاد المجاورة جزءا من ولاية بغداد باستمرار • وكان جميع هؤلاء الجيران على اتصال دائم بسـكانه وخضعوا بأجمعهم للتأثيرات الخارجية التى خضع اليها العراق نفسه •

وكانت البـادية العظيمة فى غرب الفـرات ـ وهى تختلف عن العراق جغرافيا وثقافيا على عدم وجود حاجز بينهـا وبينه ـ تقوم بدور ثلاثى بالنسبة للعراق • فانها كانت تبعد التأثيرات السورية عنه ، وتقوم بمقام المادة التى تجهزه بالقبائل العربيـة لتملأ اية بقعة من المراعى القابلة للاستثمار ، وتجعل الحدود الغربية من جيل لآخر مهددة وغير آمنة • فمن العبث ان تتكهن باسماء الفروع التى لا تحصى من القبائل التى جولت فى مراعيه او غزت اصقاعه • وليست لنا حاجة تدعو للبحث عن تاريخ هـذه القبائل واحوالها السياسية لان ذلك لا يخرج عن نطاق البحث عن البداوة واحوال الجزيرة فى كل عهـد • اما القبائل النائية فى واحات نجد والاحساء وسواحل الخليج فسوف يكون من الممكن لنـا الخوض فى بحثها عندما تدعو الحاجة لذلك فى صـدد الكتابة فى حوادث السنين المتأخرة • واما الخليج نفسه فقد سبق منا ان اشرنا بالقول الى دخول البرتغاليين الناجح فى المياه التى لم يمخر عبابهـا غير قرصان البحرين وغواصى اللؤلؤ من سكانه ، والتجار الساحليين من سكان عمان وموانىء البلاد العربية وفارس الصغيرة • وسوف يذكر بتفصيل اوفى استبداد البرتغاليين الطويل فى هـذه البحـار •

وفى اراضى عربستان المرزغية المنبسطة كانت قبيلة بعد اخرى من العرب زارعى

الرز ومربى الجاموس تضرب ضرائب على المواصلات النهرية وترعى حيواناتها من دون معارض على طول حدود اقلقت فى الاخير القوات العظيمة فى العالم . وكان حاكم هؤلاء والى الحويزة وسليل بيت عربى قديم[1] تضائلت اصوله فى الاساطير . وكانت سطوته تمتد الى القرنة والشط من الغرب . ثم ان نشوء دويلته ربما كان قد اعقب سقوط أتا بكى القرن الرابع عشر فى خوزستان . وقد عظمت شوكة هـذا الوالى بتذبذبه الحاذق ما بين البرتغاليين والفرس وعرب البصرة ، وحافظ على سلطته بوعورة بلاده وفقرها .

وفى الغرب من منطقة الوالى وشرقها كانت القبائل وامارات الوادى التى انسلخت عن مملكة الاتابكيين المنهارة . فكانت خوزستان وديار البختاريين تكون « لورى بزرك » القديمة أى لرستان الكبرى . وقد تجزأت هذه الآن الى حكومات عشائرية أنائف[2] صغيرة منفصلة بعضها عن بعض . وبقيت علاقاتها بالجيران وبالمسيطرين عليها غير متبدلة الا قليلا حتى هـذا اليوم . وكانت الاحوال الاعتيادية ترمى الى تجزئة المجموعات الكبيرة الى اجزاء صغيرة تتجمهر احيانا اما لشخصية رئيس جذابة قوية ، واما لدرء خطر عام شامل . اما لرستان الصغرى الممتدة على طول الحدود العراقية الواضحة ، فى جهتى الزاغروز ، فقد بقيت خاضعة للسلالة الاتابكية القديمة التابعة لملك الملوك . وكان حكمها ممتدا الى مسافة بضعة اميال فى السهل الكائن فى غرب تلولها ضاما بذلك جصان وبدرة من القرى ويكثر فيهما السكان اللريون حتى الآن .

والى شمال بشت كوه اى جنوب نهر سيروان (ديالى) وبعبر الطريق بين بغداد وكرمنشاه كانت تقطن جمهرات قبائل كلهور الكردية القديمة . وعلى هـذا تكون البقية الصغيرة الباقية منها اليوم فى البقعة نفسها قد عاشت فى مكانها منذ اقدم العصور . وتنقسم البلاد التى فى شمال بلاد الكلهور وشمال غربهـا الى مناطق ثلاث . وهى منطقة « البـلاد الحارة » بين سلسلة قرەداغ والطريق الممتـد بين زنكباد والزاب ، واودية شهرزور ، واصقاع اردلان (كردستان الايرانية الآن) . وكان يحد المنطقتين الاولتين من الشمال نهر الزاب الصغير كما كان يفصلهما عن بلاد اردلان جبل الاورمان

(١) ربما كان ينتمى الى ربيعة بواسطة فرع « الباوية » . (٢) الانائف جمع (الانوف) وهى الابية .

والحدود الدولية الحديثة • وكانت تحكم هذه القطعة الكبيرة من كردستان فى القرن الثانى عشر السلالة القديمة المعروفة بسلالة « بنى اردلان » • وتحيط بهذا الاسم اساطير متناقضة • ومن المحتمل ان هذه السلالة تفرعت من بيت نبيل فى ديار بكر حين هاجر احد ابناء هذا البيت الى قسم كوران من بلاد الكلهور • فامتدت سطوته بسرعة وسيطر على قبائل شهرزور والوديان التى فى شرق الاورمان • فصادقه جنكيز خان على حكمه • واخذ ابنه كالول اتاوة من اربيل نفسها • وبقيت هذه الدويلة آمنة موحدة على طول عهد اميرين آخرين من الاسرة نفسها • وقد صادف فى اوائل القرن الرابع عشر ان نهوض الجلائريين فى العراق كان على عهد أمير ضعيف من بنى اردلان ، فلذلك اضطر للتخلى عن القسم الشمالى والقسم الغربى من امبراطوريته • وخاب الجلائريون فى جميع المحاولات فى الحصول على اكثر من ذلك • وتعزى تلك الخيبة لشجاعة حسن الحاكم الاردلانى التالى ولحكمته • واستعيد بعد ذلك فى القرن الخامس عشر ، على عهد حكومة مأمون الحازمة ، القسم الشمالى من الامبراطورية فاصبح الزاب الكبير من جديد الحدود الشمالية ، وحصنت رواندوز • وليس بين جيران العراق ، فى حقبتنا التاريخية هذه ، من الامارات ما يمكن مقايسته بامارة اردلان من وجهة الثقافة او الحكم الملكى •

ولم يكن فى شهرزور حتى هذا الحين سوى عدة من قبائلها واسرها المتأخرة • فان الزنكنة والهماوند والجاف كانوا لا يزالون فى ايران • كما ان مؤسسى الطرق الدينية كالشيخانية والطالبانية والجبارية لم يكونوا قد اصطبغوا بالصبغة العشائرية بعد • وان حملة الفرمانات من تركية الذين استوطنوا اراضى الزوهاب والدوودية لم يظهروا فى الوجود الا بعد هذا العهد بعدة اجيال • وكانت الوديان الواقعة فى شرق كركوك بحوزة اخلاط من طبقة الفلاحين الاكراد المتجمهرين هنا وهناك بجمهرات تفرقت منذ مدة واصبحت منسية فى قرى خاملة الذكر لا يمكن تعيين مواقعها • وان آثار القلاع المبنية على التلال وعدة اسماء للمواقع تعيد اليوم ذكرى المعيشة الزاهية التى لم تخل من مدنية ، والانانية القاسية فى كردستان القرون الوسطى التى لا تذكر الا قليلا مع عدم تبدلها كثيرا فى هذا اليوم • فقد كانت درنة وبنجوين ، الواقعتان على ممرات الحدود الاخيرة ، وكوى وحرير ورواندوز بين الزابين ، وعقرة على الزاب الكبير كلها من الدويلات المحصنة ذوات القلاع •

وكان للعمادية ، فيما فوق الزاب الكبير ، تاريخ طويل حتى هذا الحين . فكانت توابعها عقرة ودير ودهوك وزاخو احيانا . وكانت تعد قسما من ممتلكات الاردلان من القرن الثانى عشر الى القرن الرابع عشر . واعقبت هذه التابعية بتابعيتها للجلائريين حتى انتهى امرهم هم ايضا . ومع عدم تحقيق المدونات القديمة لهذا المكان نستدل من السكان الباقين ومن التقاليد على ان اسرة ارستقراطية مبجلة ـ اسرة الباحدينان ـ بدأت تحكم الاكراد الهكاريين الفلاحين فى اواخر القرن الرابع عشر . ومنذ ذلك العهد حتى عهدنا هذا كان يتولى المدينة ابن بعد آخر وبذا كانت تقاوم جيوش الآق قويونلى المعتدين ، غير انها خابت فى التملص من حكم الاردلانيين .

وتقطن فى شمال ممتلكات الاردلانيين (فى ايران) وفى شرق رواندوز وعبر الحدود الحديثة جمهرة قبائل المكرى . ولم تتوفق هذه الجمهرة من القبائل على اعتزازها بعراقتها فى القدم لتوحيد قبائلها ولا الى انجاب بيت مالك قوى . وكانت تقرن باسم المكرى مملكة كردية قديمة ـ ربما كانت فى ايام السلجوقيين ـ ، غير انهم فى هذا الدور لم يكن يربط بينهم الا رابط وهمى وبذا لم يملكوا انفسهم ان وقعوا فى حكم الاردلانيين . وكان فى زمن متأخر أعنى فى حدود سنة ١٧٥٠ ذكر لبك من المكرى . مع ان مثل هذا اللقب كان منحصرا فى اسرة واحدة ليس لنا من المدونات ما يدلنا على حقيقة سلطان هذه الاسرة وتسلسلها . وكانت مقرات هذه الجمهرة العشائرية فى سوج بولاق[1] .

ويضاهى المكرى شهرة فى صفاء عنصرهم وعراقتهم فى القدم اندادهم الهكاريون . فكان مد هؤلاء يعلو وينخفض فى منطقة تمتد شمالا الى بتليس وشرقا الى منخفضات أرمية وجنوبا (شرق دجلة) لمسافة كانت تختلف بحسب حركة نفوذهم . وما تاريخهم القديم الا تاريخ فرع بارز من فروع العنصر الكردى الذى تحكمه اسرة مالكة سلجوقية . وكان امير بتليس فى القرون الوسطى اقوى الامراء الاكراد . وقد توفق امراء من هذه الاسرة فى اجيال متعاقبة فى تكوين سلالات مستقلة فى جزيرة ابن عمر وجولمرك . على ان هؤلاء لم يبق لهم نفوذ الامير الهكارى عند انتهاء القرن الخامس عشر . فقد كان لكل منهم سلالة منفصلة ، وكان يطلب كل واحد منهم معاملة خاصة من المسيطرين المتعاقبين عليهم لينشر نفوذ بيكه على اوسع ما يمكن بين القبائل وعلى القرى المحيطة به .

---

(١) ان قبيلة البشدر العظيمة وأسرة سوران كانتا من المكرى .

العروق والمجتمع

كانت سهول العراق محفوفة ، على هذه الشاكلة ، ببلاد تختلف عنها بوجه ارضها وسكانها . فنظرة واحدة تنظرها الى العرب الخلص من بدو بادية الشام وسكان شواطىء الخليج وعلى اللر والكور فى الشرق والشمال تؤكد بايضاح سيادة اللغة الواحدة وتناسق الطبيعة فى العراق الاصلى . فكانت العربية ، فى الحقيقة ، ينطق بها الجميع من الموصل الى كارون . وكانت تقاليد البلاد ، فى هذا الزمن ، هى التقاليد العربية ، كما كان الاسلام عاما تقريبا . وكان يوجد الكثير من وحُدة المناظر العامة والثقافة الواحدة . وكانت الانهار تربط الشمال بالجنوب . غير ان التناسق الظاهرى فى الدم والديانة ووحدة المجتمع كان يضم اختلافات مفعمة بالاهمية .

فلم يكن العراق بلادا عربية من الوجهة العنصرية . اذ اضافت موجة بعد اخرى من الفتوحات ، من السومرية الى المغولية ، عناصر جديدة الى دمه . ولم تك هذه فى فجر تاريخه عربية ولا سامية . وكانت قوميته العربية ذات منشأ متأخر نوعا ما ، فحفظت هذه القومية ذكرى قسم من الفاتحين الكثيرين . على انها من وجهة اخرى تمثل العنصر الذى غطى على العناصر الباقية منذ زوال عظمة الخلافة . وعلى هذا لا نجد تناسقا فى الجنس ، واذا ما وجدنا جمهرة تدعى الاصل الواحد فيكون ادعاؤها هذا لا اساس له فى التاريخ . على ان من القبائل غير الموطنة وقليلا من العوائل فى المدن يمكنها وحدها ان تفاخر بهذا النقاء العنصرى الذى حافظت عليه تقاليد الزواج الاسلامية . وفيمن عدا هؤلاء كان العراقى فى ذلك العصر كالعراقى فى هذا العصر ، فلم يكن الا وارث شعوب عديدة .

واكثر من هذا انه كانت توجد عدة من المجتمعات فى عرض البلاد وطولها لم تقو الصبغة القومية العامة ان تسود فيها . واستوطن الايرانيون فى العتبات المقدسة والهنود والعبيد فى البصرة . وكان الصابئة – صاغة الفضة الوادعون فى القرى الواقعة على النهر – متفرقين فى جنوبى العراق . كما كانت الاسر الكردية والتركية قد سكنت منذ مدة طويلة فى الموصل وبغداد حيث يعيش اليهود الوفا مكبين على مزاولة الحرف التى عرف بها عنصرهم . اما النصارى فكانوا من اصول وطوائف عديدة .

وقد كونوا فى الموصل قسما كبيرا من سكان المدينة وانتشرت قراهم الا هلة فى التلال المنخفضة فى الشمال • وتجمعت فى انحاء كردستان مجتمعات مسيحية صغيرة حول دير من الاديرة وحافظوا على كهنوتهم • واستوعب جبل سنجار ، مع الجهات ذات التلال شمال شرقى الموصل ، اليزيدية الغلاظ الذين وقفوا فى وجه كل انسان وكل حكومة • وكانت بقايا الهجرات القديمة من التركمان متفرقة فى تلعفـر وفى خط طويل من القـرى على طـريق الموصـل من دلى عباس الى الزاب الكبير ، وتمركزت اكثريتهم فى كركوك • وكان الاكراد من العشائر والمدن يطلون من تلالهم على منخفضات الشمال من العراق • وكان لر بشت ـ كوه منتشرين فى القرى القريبة من الحدود الشرقية • وكان البدوى الاصيل ، من الغرب ، يزدرى القبائل التى استوطنت الاراضى المرواة والفلاحين ويعدها عنصرا منحطا مختلفا عنه •

ولا يتطرق تاريخنا هذا الى النزاع الدينى ـ الخلاف الدائم بين الطائفتين السنة والشيعة من المسلمين ـ الا بقدر ما يؤثر ذلك النزاع فى التاريخ • وسوف يبحث فى هذه الناحية ـ الحيوية فى السياسة العراقية فى الداخل والخارج ـ فى موضع آخر بعدها كمشكلة دائمة يلاقيها حكام العراق باستمرار • وهناك تباين شديد كثيرا ما يحدث المشاكل للحكومـة وهو التباين بين المدن والقبائل • ففى المناطق المناسبة ـ الفرات الاوسط ووادى الخالص وديالى السفلى وقرى الحدود الكردية وبساتين البصرة ـ نرى ان عدة من المجتمعات كانت تجمع بين الطرفين • فسكانها فلاحون من منشأ عشائرى غير منسى وهم مستوطنون اصحاب حرف وصناعات وصلة بالارض • وفيما عدا هـذا كان الفارق بين البلدة والعشيرة واضحـا فلا يتفقـان الا فى الندرة • وكان رجـل القبيلة ينهب قافلة التاجر وحيوانات الفلاح على السواء • ولم يكن يحتاج الى شىء من منتوجات البلد وغلاته وثمارها سوى الحبوب والتمر فقد كان يحصل عليها سنويا بمبادلة أبله الصغيرة • كما ان ابن المدينة كان يحتقر البدوى ويخشاه عادا له وحشا مخربا • على ان العلاقات على هذه الشاكلة لم تعدم فى بعض الاحيان شفاعة جماعة من سكان المدن لصديق من القبائل او دعوة القوات العشائرية وجعلها عونا فى ثورة او فتنة داخل اسوار المدينة •

كانت المنازل النهرية نصف الدائمة فى العراق الجنوبى قبائلية من جميع الوجوه

الاساسية وكان يسيطر عليهـــا هذا الشيخ الحاكم او ذاك ممن يعين نفسه بنفسه . اما غير هذه فالبلدان العراقية لها مناشيء مختلفة ولكنها بسيطة . فالتناسق ، الواضح جدا ، فى المسافات التى تفصل البلدان بعضها عن بعضها يدل على ان اصل اكثر البلدان كانت منازل للقوافل . ومنها ما نشأ فى محلات عبور الانهر التى كانت على الطرق الرئيسة . ومنها ما هو ناشيء عن تجمع الناس حول قلعة فى مركز عشائرى ، وهذه تشير الى قيادة احد الشيوخ المنسيين او سخائه . ثم ان عدة من البلدان كان نشوؤها حول قبة او عتبة مقدسة واتسعت بتوارد الزوار اليها . والحاجة لسوق يباع فيها الصوف وثمار البستان والحبوب والجلود قد ساعدت فى عدة اماكن على تشييد الدكاكين والمناثر (مخازن الحبوب) مع جامع وحمام ومقهى . اما البلدان الكبيرة فبالامكان ان يذكر فيها اكثر من هذا . فبصرة العصر الذى نصفه كانت يحيط بها مع البساتين والارض الغامرة سور من الرهص (طين البناء) مرمم ترميما ناقصا . ولم يكن فى ضاحيتها على شط العرب سوى قليل من البيوت . وكانت البلدة نفسها ثغرا قليل الشأن غير عاطل يضم ما يقارب عشرة آلاف دار كانت أغلبها اكواخا من القصب يعيش اصحابها عيشة صلتها بالمدنية واهية . كما ان عدة من الابنية الشاخصة كانت تواجه النهر وتبعد بمسافة ميلين عن الشط . وبعد هذه المدة ببضع سنوات ألفاها رجل انكليزى[1] (اول انكليزى يزورها تقريبا) « بلدة ذات تجارة عظيمة بالتوابل والاباريز والعقاقير التى تأتيها من هرمز وفيها ايضا منثر (مخزن) كبير للقمح والرز وينمو فيها التمر الذى يجهز لبابل وسائر انحاء البلاد والى هرمز وجميع اقسام الهند » .

وكانت الحلة على صبغتها فى الوقت الحاضر سوقا واسعة للعشائر ومركزا لمبادلة منتوجاتهم ومركزا من مراكز الحكومة . اما بغداد هذا التاريخ فكانت « بلدة عظيمة بعض العظم لكنها آهلة جدا بالسكان . وفيها حركة متسعة للغرباء بوقوعها على طريق ايران وتركية وبلاد العرب . فمنها كانت تخرج القوافل الى هذه الاماكن وغيرها » . وفيها جسر من الزوارق ، « مربوط بسلسلة عظيمة من الحديد تتحرك بسرعة فى كلا جانبى النهر » يصل الجهة الشرقيـة بالجهة الغربيـة من المدينـة . وقد سورت الجهة الشرقية وحصنت بطريقة خاصة وبقى الكرخ بلا سور » . وكانت أبرز الابنية فيها

---

(١) رالف فينج .

قصر الوالى وثكناته والحمامات العامة والجوامع والاسواق المسقفة . اما بقية المدينة فكانت بيوتا حقيرة قذرة ذات طبقة واحدة تسورها جدران بلا شبابيك فتحجزها عن الطرق الملتوية الضيقة . وكان يجلب اليها التمر والرز من جنوبى العراق والصوف من العشائر المتنقلة وراء الكلأ والخشب من كردستان والحبوب من الموصل . وكانت تجلب البضائع من البصرة ، وبضائع سواحل البحر الابيض المتوسط من حلب عن طريق عانة ، والبضائع الايرانية من كرمنشاه عن طريق خانقين . ولم تكن الثقافة معدومة بمرة ، وكان الامن لا بأس به داخل السور ، والحكومة متقلبة تلعب بها الاموال ، والصناعة والحرف فى أحط دركاتها ، والجمل الدينية ترددها الأفواه دائما وابدا .

وقد أعجب الرحالون بكركوك فوصفوها بانها « مدينة جميلة عظيمة »[١] حيث كان النطق السائد بالتركية المتفسخة والكردية الشهرزورية . وكانت القلعة فيها قوية بدفاعها ومسيطرة على مسالكها المبنية بالكلس . وكانت المحلات الواقعة فى شرق المبزل[٢] الواسع غير مبنية حينئذ . وكانت اربيل - المشابهة بكل وضوح لكركوك بطبيعة بنائها وبعناصرها - بعيدة عن قريبتها البلدة العربية[٣] بمقدار بعدها عن جيرانها البلدان الكردية . ويقع بالقرب منها دير نصارى . وكانت الموصل ، العاصمة الطبيعية للجزيرة وقاعدة مدن كردستان الوسطى ، تمتاز بكثرة مواد البناء من كلس وحجر واخشاب . وكانت اسوارها البارزة متداعية من الخارج لعدم اصلاحها وترميمها من الداخل . وكانت الخانات والحمامات لا يهتدى لها بسهولة وكانت الجوامع قليلة . وكانت تجارة المنتوجات الكردية المهمة - الجوز والزبيب والصمغ - بيد التجار الاكراد الموطنين فيها . وكانت التجارة ناشطة غير ان الزراعة كانت مهددة بالمحل والجراد باستمرار . وقد غطت شدة المنازعات بين الطوائف النصرانية على المنازعات المزمنة بين الاسر فى الموصل .

ونحن فى غنى عن الاشادة باحوال المدن فى هذا الزمن بأوفى من هذا التفصيل لعدم الحاجة اليه من جهة وعدم امكان ذلك من جهة اخرى . فلم يكن فى مدن القرن

---

(١) راوولف .

(٢) وهو « شاى » كركوك المعروف (المترجم) .

(٣) لعل المؤلف يقصد مدينة الموصل (المترجم) .

السادس عشر هذه ما يبهر سائح القرن العشرين من حيث المصالح والافكار واللغة وطبيعة البلاد • وفيما بين القبائل لم يحدث تغيير كثير في الامور الجوهرية • فان الاحوال نفسها كانت تولد التغييرات في امور المعيشة والاستيطان نفسها • وكان جل ما يهم هذه المجتمعات من امور الحياة الجمل عند ناس والغنم عند غيرهم والجاموس عند الآخرين • وكان بناء المجتمع العشائري ولا يزال ، بما فيه من المثل العليا وقانون الحرية المطلقة وعـدم تحمل النظم الاخرى ، الصعوبة العظمى التي يلاقيها الولاة المتعاقبون • وان كانت تلك الصعوبة قد خف شيء منها في القرون الاربعة الاخيرة بتزايد توطن البدو فقد ثقل حملها بتسلحهم بالاسلحة النارية وسهولة حصولهم على الاهداف ـ سكك الحديد والتلغراف وطرق السيارات ـ المعرضة لعبثهم في الوقت الحاضر •

ولو حاول المؤرخ تسمية حتى اعظم الجمهرات القبائلية المنتشرة في العراق في سنة ١٥٠٠ لكان ذلك بلا نفع عظيم له • فالضغائن والمحالفات والغزوات وعصيان هذا او ذاك وشخصيات الشيوخ واخلاصهم لحكام المدن او عدوانهم عليهم قد اسدل عليها ستار النسيان الى الابد • وسوف تزحف اسماء القبائل الحديثة الى مثل هذا المآل واحدا بعد آخر • فمنها ـ قشعم وربيعة والموالي ـ كانت في « ديرتها » الحالية منذ ذاك الحين ، وسوف نبحث في صفحات متأخرة عن اول ظهور قسم من القبائل العظيمة • وليس بوسعنا الآن الا ان نتجاهل الاسماء والاماكن ونؤكد على التشابه العام في القبائل التي احاطت بالمناطق العراقية المستوطنة فعزلتها بعضها عن بعضها وبزتها بعددها •

الماضي القريب

على مثل هذه الحال كانت البلاد التي يتعقب هذا التاريخ مصيرها منذ فجر القرن السادس عشر حتى آخر القـرن التاسع عشر • ووواجب مقابلة ما حل بهـا من الخراب في هذا الوقت بايام الثروة والغنى في عهد العباسيين يلوح لنا بالالتفات الى الوراء على مجرى التاريخ الاخير الذي سبب خراب البلاد وشلها • وسيكون بالامكان توضيح السهولة التي بسببها وقعت البلاد فريسة بيد الفاتحين من الايرانيين والاتراك اذا راجعنا بسرعة تاريخ من تقدمهم •

بزغ فجر القرن الثالث عشر فوجد بغداد لا تزال مدينة الخلفاء المقدسة ، والعراق

ما برح جنة الحبوب والبساتين كما كان فى عهد سارغون وسلوقيوس والرشيد • ومع ان أمير المؤمنين كان فى القرون الثلاثة الاخيرة العوبة بيد حرسه وحكامه ، ومع تقلص امبراطورية هارون الوسيعة واقتصارها على صقع واحد كان الخليفة لا يزال فوق الحكام والامراء الذين كانوا يتواطأون مع امراء المغول البعيدين على جيرانهم المسلمين • وبقى ممسكا زمام امور لما لا يحصى من الترع والانهار والقرى الآهلة بالسكان والثروة الباذخة والثقافة ، ومسيطرا على الصناعة فى بلاده بلاد ما بين النهرين التى سارت بذكرها الركبان • ومع تجمع القبائل التركستانيـة فى الشرق ، ونشوء الامارات العديدة فى شمال وغرب القياصرة المضمحلين على ضفاف البوسفور ، بعد تشتت الجيوش السلجوقية ، بقيت دار السلام جذابة غنية مهيبة الجانب ، لكنها خائرة القوى وأقرب الى الخيال من الحقيقة لا حول ولا طول بيدها ، تتنعم بعظمتها الخالدة • وسرعان ما عصفت بها ريح الخراب فدهمها فى سنة[1] ١٢٥٨ هولاكو ، حفيـد جنكيزخان ، فثل عرشها واطفأ نار الخلافة فيها حتى الابد واستباح غنائمها التى لا تحصى وكنوزها العظيمة ، وذبح شعراءها وتجارها وفرق طلابها وعلماءها وفقهاءها فاستحالت فى يوم واحد من مركز السلطة الاسلامية الذى لا ند له الى مركز حقير من مراكز الامبراطورية الايلخانية • وتقسم فترة القرون الثلاثة الواقعة بين هـذه الحادثة المفجعة واستيلاء سليمان العظيم على بغداد الى اربعة ادوار • فغدت بغداد حكومة من حكومات امبراطرة المغول فى ايران مدة ثمانين سنة • وظلت لمدة سبعين سنة اخرى العاصمة الجنوبية لمملكة انفصلت عن الامبراطورية المذكورة على يد احد ولاتها بعد ان خارت قواها • وفى عام[2] ١٤٠١ وقعت بيد سـلالة من سلالات القبائل التركمانية حتى اغتصبها الاقرباء المعادون • وفى سـنة[3] ١٥٠٨ تشربتها مملكة الصفويين الايرانية التى كانت آخذة فى النمو •

ولم تكن الامبراطورية الايلخانية ، التى استولى على عرشها مدة قرن واحد ابناء أسرة واحدة ، محبوكة النسج وكانت سيئة الادارة • ولم تكن مؤسسة على الثروة ولا

---

(١) تقارن سنة ٦٥٦ الهجرية • (٢) تقارن سنة ٨٠٤ الهجرية (٣) تقارن سنة ٩١٤ الهجرية •

على الوئام بل أسست على حيوية متفوقة لابد ان تفسح فى المجال لاعظم منها . فقد كان المغول ممن اولع بالفتح وليس بتأسيس الامبراطوريات . ولم يكن لهم الاستعداد للادارة ولا اللباقة بها . ولذا طبعت قوتهم العظيمة بطابع عدم الثبات وعدم الاستقرار . وبانت نقاط ضعفهم هذه بوضوح عند حكمهم فى العراق . ففى حكومات بغداد والبصرة والجزيرة - التى اصبحت وحدات مختلفة - تدل تعيينات الامراء الملكيين على ان المناصب كانت من نوع الشرف . ودل تقدم المقربين الدساسين على الاسس الواهية لمثل هذا الحكم . كما ان اعمال البر والاحسان النادرة ، كفتح الجداول وتعمير المساجد ، دلت على ان الذين تسنموا العرش لم يكونوا مجرد وحشيين . فقد كان غازان خان ممن افادوا بغداد عن حب واخلاص . فان اصلاحاته للقانون والحكومة ، وورعه الشيعى ، وتردده الكثير الى العراق كانت كلها من الامور التى تبعث الامل فى الاحياء والتجديد . غير ان هذا الامل قد ضعف واصبح صعب التحقيق . لان سطوة الايلخانيين لم تتعد حدود المدن . فلم يكن تأمين الطرق ممكنا . وقليل من كان يزرع فى ارض فيحصد زرعه منها الآخر . وكانت أعظم الاعمال التهديمية التى ارتكبها هولاكو هى التخريب المتقن فى السدود والانهار ونواظم الاسقاء التى كان تشييدها المحكم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة فى البلاد . وقد تعذر القيام باصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطراب فى البلاد وفقدان روح العمل ممن بقوا احياءا من السكان القليلين بعد تلك المذابح والتخريبات الهائلة ، وهو الامر الذى أدى الى اهمال الانهار وتردى الحالة فى مجاريها بتراكم الغرين وتكاثر الطمى بحيث غدت الانهر مطمورة لا تستوعب الماء الكافى ولا يمكن ضبطها عند الطغيان . ولم يصبح من الممكن ان تستعاد الحالة الى سابق عهدها فى البلاد حتى يومنا هذا . وأخذت قبيلة بعد اخرى من البدو المنتشرين فى سهول نجد والجزيرة تعبر الفرات الى مراعى العراق . وكانت تعين اراضى المرعى لقبيلة دون اخرى بالحروب القبائلية التى لا تنتهى . واصبح العراق من تلال بلاد اللر الى سنجار مظنة البلدان القليلة والصغيرة التى تحيط بها وتفصل بينها الاراضى التى تسيطر فيها القبائل وترعى حيواناتهم بها .

وسبب موت غازان خان فى سنة[1] ١٣١٤ اضعاف اسرة هولاكو بصورة قاضية .

---

(١) تقارن سنة ٧١٤ الهجرية .

فدب فى تلك السلالة الاضمحلال مع وجود الرخاء القليل الذى كان يسببه توارد التجار والزوار الى بغداد • واستمرت بعد موت أبى سعيد ، آخر الملوك الاقوياء ، الذى لم يخلف ولدا حرب أهلية • فقد رشحت كل واحدة من الولايات الكبيرة فى ايران مرشحها للعرش اى العوبتها بيد الطامعين من رجال الحاشية • وكانت نتيجة عدة شهور من القتال ان انجلى الميدان لاثنين من المتخاصمين • وفى خلال هذا كان والى بغداد يبعث بالجنود لمساعدة هذا الامير او ذاك او يؤاوى الفارين من وجه المنتصر • وبذا كان مصيره معلقا • وفى الاخير وقعت بغداد ، بانقسام الامبراطورية ، حصة لحسن الجلائرى وهو امير مغولى (أسلم الآن) من ذوى أعلى المراتب • وغدت بغداد فى[1] ١٣٣٩ العاصمة الشتوية للحكومة الجلائرية •

ولم تكن هذه فى ايام عظمتها من الامبراطوريات الحقيرة • فقد كانت بيد حاكمها ولايات الجزيرة واذربايجان والعراق والجبال • وكانت تبريز عاصمته الصيفية • وكان حكام هذه السلالة الاولون عسكريين طماحين لكنهم كانوا متدينين وغير جانفين عن الانسانية • فاعادوا للعراق شيئا من الاحترام الذاتى ان لم يكونوا اعادو قليلا من الرخاء • ووطدت حكومة حسن الكبير وولده اويس ، لاكثر من جيل واحد ، السلام والطمأنينة كما شجعت شيئا من ممارسة الفنون • وكان حسين ، ثالث حكام السلالة ، اضعف ممن سبقه فى الحكم ولذا لاقى المشاكل العظمى لامبراطورية كان يهددها اعداء طامعون • فاذعن لشغب حصل فى بلاطه نفسه ولاغتصاب الملك على يد أخيه على • على ان هذا لم يكن بوسعه الوقوف ببغداد فى وجه السلطان أحمد ، الاخ الباقى ، فانه ادمجها فى ١٣٨٣[2] بتبريز من جديد فكون حكومة واحدة ومهد لها عشر سنوات من السلم تحت ظل ولاته •

غير ان القدر كان يخبأ افجع الكوارث النازلة منذ ايام هولاكو • فان قره يوسف حاكم مملكة القرهقويونلى التركمانية فى وان قد استغل موقفه وقوى مركزه فارتقى من كونه تابعا من توابع الحكومة الجلائرية الى صيرورته حليفا قويا من حلفائها • وكان تيمور الاعرج ، آخر المغول واعظمهم ، يمر من فتح الى فتح على رأس جيوش جرارة

---

(١) تقارن سنة ٧٤٠ الهجرية • (٢) تقارن سنة ٧٨٥ الهجرية •

من الشرق . وفي سنة[1] ١٣٩٣ ظهر على ابواب بغداد ، فانحنى الجلائرى فيها للعاصفة حتى مرت فاعتدل من جديد وطرد الحاكم المغولى . وفي سنة[2] ١٤٠١ وقعت الكارثة . فالتجأ السلطان أحمد وقره يوسف الى بلاط يلديرم بايزيد رابع سلاطين العثمانيين . ووقعت بغداد بسهولة بين ذراعى تيمور . فذبح الالوف من الناس ، وهدمت الجوامع والمدارس والمساكن . وان كانت المناظر اقل هولا والخراب اقل شدة فى هذه المرة من الخراب الذى جرى من قبل فازال الخلافة فانما ذلك يعزى الى ان بغداد فى ١٤٠١ لم يكن لها بمقدار ذلك الكبرياء وتلك العظمة لتحط وتهان ولم يكن فيها من أهداف العبث والتشنيع مثل ما كان فيها من قبل .

على ان موت تيمور في[3] ١٤٠٥ سبب رجوع الجلائريين والتركمان الى عروشهم بصدف تعد نادرة حتى فى الشرق . فنظم العراق من جديد واعيد تحصين بغداد باسوار بقيت واقفة بكل سلام حتى القرن التاسع عشر بعد ان جربت بعدد غير قليل من الحصارات . غير ان تملك تبريز التى يحتاج اليها الجلائريون وتركمان القرهقويونلى على السواء كان من الدواعى العديدة التى أدت الى التحاسد اولا ثم الى الحرب بين الطرفين . فاضاع السلطان أحمد حياته وامبراطوريته بعد ان انهزم فى حرب شعواء . وبذا خمد الاسم الجلائرى ولم يسمع بعد . فدخل ابن قره يوسف الى بغداد ، وبالطريقة الخشناء المألوفة حينذاك باع حاكمياتها او انعم بها وتقبل خضوع القبائل او تحمل عبثهم .

ولم يختلف سادة العراق الجدد عن الجلائريين من وجهة الثقافة الا قليلا . فانعموا على الولاية المهولة الحائرة جيلا كان يعد من اجيال السلم . وقد حكم الشاه محمد مدة ثلاث وعشرين سنة . الا ان آخرته كانت عاصفة بالهزيمة والقتل . وحكم خلفه من بعده مدة عشرة اعوام اخرى حتى عام ١٤٤٤ . وفى السنين الاخيرة من هذه المدة صادقت الحرب التى قامت بين ورثة قره يوسف وامبراطور ايران (الذى أدعى السيادة) على كون القرهقويونلى من توابع تيمور . غير ان موت الشاه رخ فى ١٤٤٧ سمح لجهان شاه بتوسيع امبراطورية القرهقويونلى من تبريز الى شط العرب ، وبأن

(١) تقارن سنة ٧٩٦ الهجرية . (٢) تقارن سنة ٨٠٤ الهجرية (٣) تقارن سنة ٨٠٨ الهجرية .

يخلع أية تابعية للتيموريين من عنقه ويضيف فارس وكرمان لمملكته . وبذا اصبحت قبيلة القرهقويونلي امبراطورية واسعة غنية بعد ان كانت قبيلة مجهولة . غير ان هذه الامبراطورية لم تكن ثابتة . واحتفظت بغداد بمركزها أي كونها عاصمة للعراق العربي وهو احد الولايات العديدة مثله .

على ان عهد جهان شاه الذهبي هذا كان قصير الامد . اذ كلفته حروب الحدود مع التيموريين خسران نفوذه واراضيه . ولم يكف القواد والتابعون عن الثورة في ولاية بعد اخرى . وحذا ولده بيربوداق ، الذي كافأه بحكم العراق لموالاته ، حذو هؤلاء بعد بضع سنين ، فأعلن استقلاله . غير ان سنة من الحصار اعادت المدينة الى جهان شاه في ١٤٦٥ . لكن امبراطوريته المتعثرة كتب لها نفس المصير الذي آل اليه الجلائريون على يد قره يوسف . فقد نشأ عداء مر بين سلالة القرهقويونلي وخصم آخذ بالنمو ، يشابهها في الاصل والعنصر ، وهي حكومة الآق قويونلي في ديار بكر . فقد ورث اوزون حسن ، حفيد المؤسس (ضابط تركي من ضباط تيمور) ، طموحا وحقدا لم يستطع قمعهما جهان شاه ولا سيده التيموري . وحصل الصدام في ١٤٦٧ . فدحر جهان وقتل ، وساء حظ أبي سعيد التيموري في الحرب والسياسة . فانتشر حكم الآق قويونلي في العراق وايران . وقاومت بغداد مدة قليلة من الزمن وهي بيد حاكم من حكام القرهقويونلي ، لانه دحر القائد الذي بعث به اوزون حسن . وحضر حسن بنفسه فوجد ابوابا مغلقة فتحت له بعد حرب وحصار . فقتل الوند ، وعين حسن الحكام للعراق العربي والجزيرة والجبال واختفت سلالة القرهقويونلي الى الابد .

لم يؤثر هذا التبدل في العراق الا قليلا . اذ مزقت المنازعات التي كانت تغذيها الاطماع ولايات الآق قويونلي كما مزقت ولايات القرهقويونلي من قبل . فقد كان حاكم العراق وقواته في شغل مستمر بخصومات أبناء اوزون حسن وتطاحنهم في سبيل العرش . فكان الامير يذهب تلو الامير كما كانت المكايد مع العنف تمزق بالامبراطورية المرتخية الهائجة . وشغلت قوات استانبول وديار بكر واصفهان وسياستها مع هذه الجهة او تلك . لكنه لم يكن بوسع احد ان يؤمن السلم او الضبط . وعندما توصل الكل الى اتفاق متقلقل في ١٤٩٩ بين أبناء العم المتحاربين قدر له ان يمزق (الى الابد) ليس بأيديهم بل بيد ملك جديد ظهر في ايران التي اعيدت اليها الحياة .

الاحتلال الايرانى والتهديد التركى

لم يتأخر الصفويون[١] الذين تعاظمت قوتهم بسرعة عن تهديد دولة التركمان الحائرة والاستيلاء عليها . فقد قاد الشاه اسماعيل فى سنة ١٤٩٩ الجيوش الى شيروان والحقها بمملكته . وبذا اصبح مصاقبا للوند حاكم الولايات الشمالية من مملكة الآق قويونلى . فانكسر التركمانى انكسارا تاما فى واقعة نخجوان الخطيرة . ثم نزل الفاتح على تبريز وهى مركز العرش الذى قدر لاسرته ان تتسنمه مدة قرنين ونصف . وفر المدحور الى ارزنجان فبغداد ثم الى ديار بكر حتى ازاله الموت عن طريق الشاه . وما مرت سنة واحدة حتى كانت ايران الغربية بأجمعها الى الخليج للصفويين ، وفى كل بلدة منها قسم من ضباطهم . وفى خلال سنتين اخريين انتشرت سطوته عظيم انتشار فى آسية الصغرى . وكان مراد ، امبراطور الآق قويونلى المذعور الذى ما برح ممسكا العراق بيده ، يتشبث بطلب المعونة من جميع الجهات . وفى سنة ١٥٠٧ انهزم مع حلفائه ، ففر والتجأ لبلاط السلطان التركى . وغدا العراق تحت سلطة قريبه السلطان يعقوب شبه الاسمية . وكان بارك حاكما فى بغداد . غير ان الشاه الذى كان يعجل بنصر بعد آخر بعث لالا حسين لفتح المدينة ، فكان له ما اراد بسهولة . وبذا خضعت بغداد فى اواخر ١٥٠٨ وطويت صفحة اخرى من صفحاتها .

ولا نرى فى نفسنا حاجة للتنويه ، بعد كل هذا ، بأن العراق قد مضت عليه مدة طويلة وهو فريسة الاضطراب والفقر وبقى عرضة للانقلابات وسفك الدماء وحكم الاجانب . واستمرت هذه الحال فيه مدة اجيال ثمانية يغطس فى كل عام منها فى

---

(١) كان جد الصفويين ، الشيخ صفى ، وهو شيعى ورع من اردبيل ، يرجع بنسبه الى الامام السابع . وكان تيمور الاعرج يقدر ابنه خاصة . وقد زادت تعبد الابناء المتعاقبين – على وابراهيم وجنيد – ووطنيتهم فى سمعة الاسرة . وقد طرد الشاه جهان الابن الاخير (جنيد) واضطر للالتجاء الى أوزون حسن . فى ديار بكر ، فهناك زوج ابنته هايدو لابن جنيد وأصبحت فيما بعد والدة الشاه اسماعيل . وعلى هذه الشاكلة قابلت الاسرة الايام العاصفة التى مرت عليها . واخيرا ، رجع اسماعل وهو شاب متعلم فجمع شتات اتباع أسرته فى كيلان (١٤٩٧) . فوقعت بيده باكو وشاماخاه . وأصبح ، بعد ان كان رجل دين ، قائدا لجيش مخلص عقدت عليه الآمال . وبذا بدأت حملاته على مملكة الآق قويونلى .

لجج القلاقل والاضطرابات والاستيلاء الجديد . وكان كل شهر من تلك المدة حافلا بسقوط السلالات المختلفة والاسر المالكة العديدة . وعلى هذا المنوال كان حكام بغداد يتجددون الواحد تلو الآخر . وما كان يخلو يوم من عصيان جديد يقطع به اللصوص الطرق او يغتصب به بعض رؤساء القبائل بلدة نهرية . وبذا لم يلق لالا حسين غير الترحيب الفاتر الذى بات يتكرر بين يوم وآخر .

وبامكاننا ان نرى نحن ، احسن من الملالى والتجار فى ذاك اليوم ، ان هذا الحادث كان عظيما . فلم يكن بوسع الفاتحين منذ دخول هولاكو حتى هذا العهد ان يثبتوا الحكم . فقد كانت تلعب بهم كلهم الضغائن كما كان جماعة منهم من رجال القبائل التى لم تتحضر الا قليلا . اما الامبراطورية الصفوية ، الفتية التى ما زالت فى دور النمو ، فقد كانت تاجا ظاهرا للبعث الدينى الوطنى العظيم . وكان هذا البعث دليلا على خلق ايران الحديثة . فقد كان مبنيا على الايمان الشيعى القوى المفعم بالثقافة والمدنية . وبذا كتب له ان يدوم تسعة اجيال . ولو لم تجمع الصدف توسع العثمانيين نحو الشرق ونهوض ايران القوية هذه فى القرن نفسه لم يكن لنا من شك فى ان العراق كان يظل ايرانيا منذ ذاك العهد حتى يومنا هذا .

ان دخول العراق فى حوزه العرش الشيعى الجديد جاء بالشاه مسرعا لزيارة العتبات المقدسة . فوصل الى بغداد وهدم ما كان فيها من قبور أئمة السنة وذبح جماعة من علمائهم . فسرت على اثر ذلك شائعة فى البلاد التركية بان مذبحة عظيمة اصابت السنة فى بغداد على يد الصفويين . ثم ان الشاه عامل غير المسلمين بصرامة اكثر من هذه وزار العتبات المقدسة فى الفرات واصلح نهرا من الانهر فسماه باسمه « نهر الشاه » . وشيد بناية فخمة على قبر موسى الكاظم . وبعد ان جعل ابراهيم خان حاكما على العراق عاد الى فتوحات اخرى . وبعد ان اضاف الموصل الى امبراطوريته اصبح فى ١٥١٠ سيد ايران والعراق الذى لا يسأل عما فعل .

وفى السنين المنحصرة بين زيارة الشاه اسماعيل للعراق ووفاته فى ١٥٢٤ مر على العراق نصف جيل من السلم والهدوء . وكانت تأثيرات العتبات المقدسة القوية تؤيد الحكم الجديد . فتقاطر التجار الايرانيون على بغداد . وجذب نفوذ الصفويين الدينى حتى العشائر النهرية المتمردة . وكان احد الحكام العرب فى البصرة يدفع اتاوة سنوية

الى الشـاه ، ثم ندب احد الخانات ليحكم الموصل • وكان بامكان ايران ان تدعى فى كردستان بتحالفها الاسمى مع جميع الدويلات الجبلية ذات القلاع • وبقيت الحال على هذا المنوال حتى طرق الباب خصم جديد ومدع اعظم •

كان خلع السلطان با يزيد الثانى عن العرش العثمانى قد وضع حدا لجيل من الهدوء النسبى فى الممتلكات العثمانية • وخلفه على العرش فى سنة ١٥١٢ ابنه سليم ، الموهوب له ما يستدعى العجب والدهش من المواهب المتناقضة كالثقافة والشراسة ، وبسالة الذكى مع جمود الغبى • وقد اتاحت له السلم التى كانت سائدة ايام نشأته ان يدرس العالم ، وان يرثى للاسـلام من الزندقة التى كانت تنال منه ، وان يسمع من باشـوات الحدود أخبـار العظمة الجديدة فى ايران الشيعية • واثرت مذبحة العجم للسنيين فى بغداد تأثيرا اليما فى نفسه • ولما كان السلطان لا يزال غير حامل للقب الخليفة بعد ، لم تكن تركية تعد اذ ذاك حامية للدين الاسلامى الحنيف ، وان كثيرا من الامـور كانت متوفرة لخلق الخصومة بين اسـتانبول وتبريز • ولذا كانت بطولة القضية السنية اول حجة يتذرع بها سليم لاعـلان الحرب • ومهما كان الامر فان التصادم بين الدولتين كان لا بد منه • فان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران لم يبق فى حيز الامكان تجاهله ، ولم يكن لدولة الآق قويونلى الحاجزة أى وجود • كما ان الدويلات الكـردية والقبائل التركـية فى جبـال طوروس الصغرى والاقليـات المسيحية فى ارمينية كانت كلها من ممتلكات الشـاه بحسب ادعاء الايرانيين • فاعلن سـاسة استانبول ان ايران قد خرقت الحدود العثمانيـة بضمها العراق وكردسـتان وارمينية زيادة على انها آوت اخيرا اخوة سليم الفارين نفسه • وكانت عند هذا السلطان الشاب اطماع تناسب معرفته العالم • وقد خلد الاشهر الاولى من حكمه بالذبح المتقن لجميع الشيعة اينما وجدوا • ومن ثم تدوولت فاتحة الرسائل الخشنة بينه وبين البلاط الايرانى حسب الامر المعتاد • فلم يثمر ذلك شيئا ، وكان لابد من القاء التبعة لاعلان الحرب على الترك • وبعد اعدادات واستعدادات محكمة بدأ سليم بحملته •

وادت الحرب العنيفة التى وقعت فى قالديران بالقرب من ارمية الى انتصار سليم ونكوص الشاه مجروحا من ساحة القتال • فدخلت القوات الحربية التركية الى تبريز ، غير ان المرض الذى كان متفشيا فيها والاحكام الفوضى السائدة منعاهم من التمسك بها •

فأثرت هذه الحملة فى حال الاكراد تأثيرا بينا • فلقد خفت بتليس واردلان والعمادية وجزيرة ابن عمر والتوابع الصغيرة لكل منها للتعاقد مع سيد مقبل • ومع ان امتلاك الاتراك لكردستان الوسطى وشمالى العراق - النتيجة الاسمية لغزوة سليم الكبيرة - لم يتضمن اكثر من توزيع البزات والفرمانات وقبول الطاعة والهدايا فان الحكم الايرانى هناك كان قد انتهى أمره • فنصب الحكام الاتراك فى ديار بكر وماردين والموصل ووضعت حامية ومسالح قوية فى منطقة وان • وفيما عدا ذلك فان انتقال الحكم الحقيقى ، والوحدات المنظمة ، والاخلاص الثابت ، وغير ذلك من مظاهر الاحتلال والحكم كانت كلها مفقودة • فقد سمعت القبائل المختلطة فى الجزيرة الشمالية بالقادمين الجدد الى الموصل والرقة • وفقدت الموصل الخان ففازت بالباشا • وصار فى امكان الامارات الكردية يومئذ ان توازن بين الثقافة الايرانية والعقيدة السنية ، وتراوغ متملقة او رائغة دولتين عظيمتين بدلا من واحدة • وقد حاول الشاه طهماسب انعام لقب « خليفة الخلفاء » على حاكمه فى بغداد فلم يفلح • وكثرت الرسائل من بغداد الى البوسفور حينما كان الخان فى تلك اللحظة محافظا على نفوذه فى العراق الاوسط بعض الحفاظ •

وكان آخر دور من ادوار الاحتلال الايرانى ، واحسنها تدوينا ، دور اغتصاب ذى الفقار الملك ، ذلك الذى لم تعرف بوضوح مقدمات تقلده زمام الحكم فى بغداد ولا كيفية حدوث ذلك • ومن المحتمل انه كان ينتسب الى اسرة لرية على الحدود ، وانه حصل على معاضدة الجمهور من قبائل كلهور القوية • وحدث ان سار الخان من بغداد [1] قاصدا التلول فى الحدود ليلتحق بالشاه • وفى اول ممر هناك هاجمه ذو الفقار ليلا فذبحه ، ثم سار مسرعا الى بغداد فدخلها وامتنع وتحصن فى القلعة • وبذا وقعت بغداد فى يده القوية غير المحبوبة • فمارس السلطات الحكمية • ففقدت بذلك ايران بغداد بضربة واحدة واصبح ذو الفقار سيد العراق الاوسط غير المنازع • غير ان هذا الوقت لم يكن ملائما للحكام الصغار فى مواقع معرضة للخطر مثل هذه • فأمر ، بكل حكمه ، الناس بان ينطقوا بالتابعية للسلطان فى صلواتهم وينقشوها

---

(١) أتبعنا هنا رواية كولشن • غير انها ملأى بالمشاكل • اما المراجع التركية (فردى وبشاوى) التى يتبعها الفون هامر (المجلد الخامس ، الكتاب الثامن عشر ص ٢٠٤) فانها تعد ذا الفقار واليا اعتياديا من قبل طهماسب •

على نقودهم . ووصلت الى استانبول الرسائل مسترحمة السلطان فى قبول التابع الجديد وحمايته .

اما طهماسب ، الذى كان لا يزال فى السادسة عشرة من عمره ، ولو كان قد تقلد الحكم منذ ست سنوات ، فقد سمع بخبر انسلاخ العراق وازعجه ذلك كثيرا . وفى سنة ١٥٣٠ سار على طريق كرمنشاه الى بغداد . فلم تجده شيئا هجماته العديدة ، فقد كان ذو الفقار جلدا فى الدفاع كما كان مقداما فى الاستيلاء . ولكن هنالك نجحت الخيانة فى مقام خاب فيه سلاح الصفويين . فان الشاه اغرى اخوى المغتصب به وحقق امكان اغتياله . فمات ذو الفقار وهو يدافع اعداءه عن نفسه بكل جرأة فى بيته الخاص . وبذا انتهى أمد حكمه القصير وانتهت معه تابعية استانبول . ثم اجزل الشاه الاخوين المكافآت ، وسلم حكومة بغداد الى محمد خان وهو من ولاية تكه فى الاناضول . وعين الشاه ايضا الضباط المخلصين لحاكميات كركوك والحلة ومندلى والجزائر والرماحية ورجع هو الى قزوين .

على ان النهاية كانت باليد . فان السلطان لم ينس عرائض المدينة الذائعة الصيت التى استرحمته لبلوغ حمايته . وبذا كان السلطان القانونى وسيد عصره العظيم قد بدأ بمسيره اليها .

السلطان سليمان [1]

ذعر البلاط الايرانى فى شتاء ١٥٢٥ يوم سماعه بالاستعدادت الحربية الواسعة النطاق فى استانبول . ثم ان السلطان كان قد استعمل عبارات الوعيد فى آخرات رسائله التى بعث بها لتهنأة الشاه طهماسب الصبى يومذاك . فاتصل المشاورون الصفويون بملك هنغاريا وامبراطورها ليعاونهم على العدو المشترك . فانتقم سليمان

---

(١) المراجع : ان « نشرة » السلطان سليمان تعد أهم مرجع لحركاته . اما باقى حملاته فى ١٥٣٣ و ١٥٣٤ فقد جمعها الفون هامر (المجلد الخامس ، الكتاب الثامن عشر . ص ٢٠٢) من جلا لزاده وبشاوى وفردى . ولا بأس بما كتبه نولز (ص ٦٤٩ — ٥٣ طبعة سنة ١٦٠٣) . وأخذت المعلومات فى شؤون بغداد الداخلية من كولشن وهو المنبع الوحيد كما يقول هوارت (حاشية ص ٣٨) . واما المصادر الايرانية التى يرجع اليها مالكولم وسايكس فهى عقيمة . كما ان الحوادث ذكرت مختصرة فى المراجع العراقية القلى أهمية .

لنفسه من اجل ذلك باعدام نفوس الاسرى الايرانيين الذين كانوا معتقلين فى غاليبولى حينذاك • وبات فى حكم المقرر عنده توجيه حملة على ايران • غير ان القوة التركية هذه حولت مكان ذلك نحو هنغاريا • وبقى العراق ، كما رأينا ، ايرانيا فى ادواره (عدا دور ذى الفقار) مدة تسع سنين اخرى •

على ان وصول الصولة التركية الى اوج عزتها العدائية واتساع الشقة فى الخلاف بين الشيعة والسنة ، وبقاء التوسعات الشرقية التى قام بها سليم غير كاملة كلها كانت تدل على ان الحرب المزمعة على ايران يمكن تأجيلها لا تركها • اما الاسباب المباشرة لها فحوادث الحدود تكفل خلقها • وكان خان بتليس قد آثر اطاعته للايرانيين على اطاعته للترك ، حينما كان اولاماه بك ، المذبذب بين الامبراطوريتين ، يقبل فى هذا الحين الايدى فى استانبول • فعين بكلربكى لحسنكيف[1] • الا ان حكام الولايات التركية المجاورة الذين امروا بنصبه خابوا فى الدخول عنوة الى الولاية امام جيش شريف البتليسى • ونضيف الى هذه الاهانة التى لحقت بالقوات العثمانية تضرع سنة بغداد طالبين انقاذ انفسهم • وبذا كان من السهل الحصول على فتاوى تحل الحرب وتدعو لقتل الشيعة المارقين من دون تفريق •

وفى اوائل خريف ١٥٣٣ سار ابراهيم باشا الصدر الاعظم الى بتليس • وما ان وصل حتى وجد ان المهمة التى جاء من اجلها قد قضيت • فقد توفى شريف بك ، فعين ابن اولاماه حاكما • ثم رجع الوزير الى حلب ، ومن هناك قوض خيام معسكره فى نيسان ١٥٣٤ • وبعد ان عبر الفرات فى بيرهجك وصل الى ديار بكر فى ١٤ أيار • وهناك تريث ستة اسابيع • وبعثت اليه وان مع كثير من القلاع الكردية الاخرى على الحدود بالمفاتيح • وفى اوائل تموز ترك ابراهيم باشا ديار بكر • وسار السلطان من اسكدارى فى نفس اليوم • ودخل الوزير الى تبريز من دون صعوبة ولا سفك دماء • وثبتت الفتح الحملات على الاصقاع الجبلية من اذربايجان • وفى اواخر ايلول التحقت قوات السلطان بقوات الوزير • وخلد المكوث القصير فى تبريز بذل العطايا بسخاء ، وتقبل الخانات والبكات الوافدين بعرض الطاعة بحفلة عامة •

وكانت بغداد الهدف التالى • فقد بدأ بالسير اليها فى ايام الخريف الاول • ومر السلطان بميانه الى زنجان ثم الى السليمانية • وهنا بلغته الانباء مفيدة له ان القوات

---

(١) الظاهر ان حسنكيف هى المعروفة فى كتب التاريخ بحصن كيفا « م. ج » .

الايرانية التي كان يتوقع هجومها قد انسحبت وان كثيرا من اتباعها مستعدون للنكوص . وبذا اصبحت المسافة بين الجيش وهمذان خالية من عدو . غير ان برد تشرين الثاني وامطاره والممرات غير المطروقة فى المئة الميل الاخيرة من الجبل جعلت مرور الجيش صعبا وباهض النفقات . فان الجداول الفائضة جرفت قسما من المدفعية ، وتركت مئات من الحيوانات . ثم قل الحلم وخشنت الطباع حتى أهين الضباط الكبار . واحرقت عربات المدافع فدفنت المدافع نفسها لئلا يستفيد منها العدو فائدة . واخيرا اطل السلطان من بعيد على التلول اللرية ومن ورائها سهول العراق فارتاح لذلك عظيم ارتياح .

اما بغداد فكان يسودها الانقسام . فان اولاماه بك الذى تركه السلطان فى الشمال كان قد بعث الى محمد خان « التكلي » برسائل الاغراء والخداع طالبا منه بها ان يستجيب لداعي عنصريته ، ولولاء جديد صحيح ، وخشية منه لبأس السلطان . الا ان الخان اجابه بأجوبة التحقير واعد العدة للدفاع . وكان قوى الجنان بعزمه هذا بعد ان وصلت اليه رسالة من الشاه طهماسب ، غير ان عزيمته قد ضعفت بانسحاب الشاه واقتراب السلطان . فصمم على الهزيمة ولكن الى ايران . فأظهر انه وصلت اليه دعوة من الشاه وجمع ضباطه فعرض عليهم الخطة . فرفض التكيون ، وهم انصاره الحقيقيون ، مطلبه وتمردوا . الا ان الخان بقى مؤملا استعادة ايران بقوة قبيلة اخرى . وهنا وصل اليه رسول من الشاه يحمل اليه اوامر تدعو للعمل نفسه . فقويت فى البلد اشاعة وصول المدد الملكي ووصول الشاه نفسه الى خانقين . فاجتمع التكيون من جديد ورفضوا ثانية مغادرة المدينة . فأوعز محمد خان للمنادين بان ينادوا ان على الذين يحبون سيدهم ان يتبعوا الخان وعلى الذين يفضلون البقاء لتحصن غير مثمر ان يتأخروا . فتبعته سبعمائة اسرة . اما سواد الشعب فلم يعبأ الا قليلا بكل خان او سلطان يذهب او يأتي . وعندما نوشد التكيون لآخر مرة بأن يتركوا المدينة خلعوا من اعناقهم طاعة خانهم المحتضر ونظموا صفوفهم فاستولوا على المدرسة المستنصرية القديمة وجعلوها قاعدة لهم وحصنا .

وعندئذ رمى الخان آخر قوس فى كنانته ، بأن جمع رؤساءهم وصرح لهم بعدوله عن نياته الاولى وبأنه عزم ان يرحب بالاتراك ويدعوهم . فكان الجميع من الموافقين والمتشوقين . فغادر الرؤساء المدينة حاملين المفاتيح هدية لسليمان ، وبقى اتباعهم وراءهم من دون قواد . وبذا نجحت مكيدة محمد خان تمام النجاح . فجمع امتعته

واثاث بيته بسهولة وعبر الى الضفة اليمنى من دجلة ، ثم وصل الاراضى الايرانية بعد التفافة طويلة نحو الجنوب .

وصلت انباء فراره من المدينة التى لا دفاع لها الى السلطان وهو على بعد عدة مراحل من بغداد . فارسل الصدر الاعظم قبله ، فدخل من دون مقاومة واغلق الابواب منعا للنهب الذى قد يحدث ثم ارسل يدعو سيده . وقد خيم الجيش المنهوك فى شمال المدينة ، ثم دخل سليمان القانونى الى بغداد بأبهة وسهولة . وبذا دخل دار السلام خليفة جديد بعد انتظار طويل .

واضطرته الحاجة الى ان يريح قواته حتى الربيع ، ان لم نقل انه فعل ذلك لتنظيم الولايات الجديدة ، والى ان يبقى عدة شهور فى العراق . فاعلن الحاق البلاد الدائم بممالك العرش بصورة رسمية . وعرض له الطاعة جميع الوجهاء ورؤساء القبائل ، ثم انعم بالمكافآت الجزيلة والترفيعات على ضباط الجيش المنتصر . وعرف اعيان بغداد عن كثب أبهة بلاط السلطان التامة مدة شهور عديدة . فقد كان مقره فى المعسكر خارج المدينة وبذا كانت الرسوم رسوم مخيم لا بلاط . وصار فى امكان البغداديين القلقين وغيرهم من المستطلعين الوافدين من جميع اصقاع العراق واطرافه الجبلية ان يقدروا ثروة سادتهم الحديثين وماكنتهم العسكرية التى لا تقهر من الدانوب الى شط العرب . كما انهم رأوا فى اعدام عدد من اعداء الصدر الاعظم مقدار الوسواس والجشع اللذين لم يخل منهما سليمان نفسه .

ومما لا شك فيه ان مثقفى بغداد لم يدخروا وسعا فى افهام ضيوفهم ما كان لمدينتهم من تاريخ مجيد حقيقى . وان الآثار التى كانت اقل اندثارا من الآن ، وضفاف القنى ، والابنية العظيمة المتهدمة ، والخزف المتناثر الدال على مدن عظيمة لابد من انها قد أثر منظرها فى نفس السلطان وغيره وذكرتهم بأنهم يقفون الآن بين اطلال مدنية عظيمة . كما ان كثيرا من الالسنة المتملقة ربما تفاءلت بين يدى السلطان بأنه سيجدد العهد الماضى المجيد او يفوقه فى عهده . ثم ان ضربهم على وتر الدين كان اكثر وقعا ، خصوصا بعد ان مر على نقل لعبة الخلافة من القاهرة الى استانبول مدة ثلاثين سنة . وفى الحقيقة ، ان انشاء مدنية اسلافه الروحيين وبلادهم انشاء جديدا كان قد احدث فى قلبه هزة عنيفة .

فلبى داعى الشعور الدينى تلبية طيبة ، واتقدت على عهده شعلة الاسلام اتقادا لامعا . ولما كان السابقون له من الصفويين على جانب عظيم من السلطة الدينية كان عليه ان لا يكون اقل منهم فى هذا الشأن . فزار باجلال حقيقى ضريح عبدالقادر الكيلانى وقبة موسى الكاظم ومحمد تقى[1] . وامر باكمال بناء الجامع الكبير الذى بدأ به الشاه اسماعيل ، ثم اوقف مقاطعات مغلة للمقاصد الدينية ، الشيعية والسنية على السواء . ولم يشغله من الواجبات الدينية أمر اكثر من تعرف موقع قبر أبى حنيفة واعادة بناء ضريحه ، وهو مؤسس احد المذاهب السنية الاربعة . وكان الفاتحون من الشيعة قد هدموا القبة والضريح ودنسوا الرفات نفسه . غير ان القيم (الكيلدار) القديم اهتدى باعجوبة لمعرفة الجسم المقدس محفوظا بصورة كاملة . وقد صانته القدرة الالهية من الايدى الشيعية غير المؤمنة . فبنى السلطان فى ذلك الموقع قبة فخمة اصبحت مزارا سنيا عظيما على مدى العصور .

وكانت عنايته الثانية ان يزور العتبات المقدسة فى الفرات الاوسط ، وان يفعل هناك اكثر مما فعله الزائر الصفوى فى العهد الاخير . فوجد مدينة كربلا المقدسة حائرة فى حائرها بين المحل والطغيان . اذ كان الفرات الفائض فى الربيع يغمر الوهاد التى حول البلدة باجمعها من دون ان تسلم منه العتبات نفسها . وعند هبوط النهر كانت عشرات الالوف من الزوار يعتمدون على الرى من آبار قذرة شحيحة . فرفع مستوى « روف السليمانية » - وهى سدة لا تزال نافعة - لوقاية البلدة من الفيضان . ثم وسع الترعة المعروفة بالحسينية وزاد فى عمقها لكى تأتى بالماء مستمرة ولاجل ان تجعل الاراضى الخالية المغبرة حولها بساتين وحقول قمح . وصارت هذه الترعة تنساب فى ارض كان الجميع يظنونها اعلى من النهر الاصلى . فاستبشر الجميع للمعجزة واقتسم الحسين الشهيد والسلطان التركى جميع الثناء والاعجاب . وبعد ان زار سليمان قبر الامام على فى النجف رجع الى بغداد .

قارب مكوثه الانتهاء . وهنالك خف الشيخ العربى[2] الذى كان يحكم البصرة

(١) ربما قصد المؤلف بهذا الاسم الامام محمد الجواد لانه لقب بالتقى ايضا (المترجم) .

(٢) ان اوقات وتواريخ تسلم حكام البصرة هؤلاء الحكم مدرجة فى التقويم وفى باش اعيان وفى كولشن . وقد وفقنا فى هذا الكتاب بين الثلاثة .

حتى تلك الايام فبعث ولده راشدا يحمل المفاتيح والرسائل التواضعية الى السلطان . فالحقت البصرة ، على هذه الشاكلة ، بالممتلكات العثمانية بسهولة واصبحت درجتها اسميا اياله . وعين راشد نفسه حاكما فيها . واوصى بان يتلقى الاوامر من الباشا فى بغداد ، وان يكون الشرع قانونه فى الحكومة ، وان يذكر اسم سيده الحديث فى النقود والصلوات العامة . وجاءت وفود مشابهة بالطاعة من منطقة الجزائر والغراف ومن التلول المرية واهوار الحويزة من القطيف والبحرين [1] البعيدتين ايضا . فارسلت الحاميات الى اشهر البلدان فى الولايات ، وكانت تعرف حينذاك بمراكز السنجق بكى . ومنحت هذه الدرجة ودرجة المقاطعات التى تدانيها ، كل منها بحسب قابليتها الاقطاعية ، الى الجنود الذين اظهروا كفاية فى الحملة الاخيرة [2] . وكذلك امر السلطان بوضع خارطة للولاية الجديدة ، وجباية ضرائبها الزراعية بصورة معتدلة .

تهيأت وحدات الجيش لمسير الرجوع الطويل وقوضت خامها . وجعل سليمان باشا حاكم ديار بكر السابق اول وال عثمانى فى بغداد . وترك معه الفا من حملة البنادق الخفيفة ومثلهم من حملة البنادق الثقيلة [3] . فترك السلطان سليمان بغداد سالكا طريق الخالص وساقالتونان . ولم نر فى المدونات الباقية شيئا عن حوادث هذه الرحلة الطويلة الى مراغة وتبريز . وكانت الموصل خارج خط المسير . على ان ذلك لم يمنع من منح الوحدات الاقطاعية [4] فى ايالتها والانعام بحكومتها على رجل مجرب من الرعايا وهو السيد أحمد من اهل جزيرة ابن عمر .

---

(١) ويضيف نولز (ص ٦٥٣ من الطبعة المشار اليها آنفا) ان السفراء « وفدوا عليه من هرمز البعيدة ، مدينة على مصب الفرات (كذا) فى الخليج الفارسى » .

(٢) سوف نرى فى غير هذا المجال ان نظام الاقطاع هذا ، الذى ادخله السلطان سليمان فى مثل هذه الاصقاع من العراق التى تمكن من ضبطها (الفون هامر ص ٢٢٠) ، لم يستقم كما استقام فى ولايات اخرى . وقد قسمت بحسب قانون‌نامة سليمان سناجق بغداد السبعة وهى : الحلة وزنكباد والجزائر والرماحية وجنقوله وقره‌داغ وسنجق آخر الى وحدات اقطاعية ، وبقيت الاحد عشر سنجقا الاخرى فى الايالة غير مقسمة .

(٣) لا يمكن التوصل لمعرفة قوة الحامية الحقيقية ، التى كان من المؤكد ان تضم الانكشاريين والسباهيين النظاميين والمدفعية ، من مرجعنا المختصر عن هذا البحث وهو « فردى » .

(٤) ويذكر اوليا افندى ان هذه كانت ستا وستين زعامة والفا واربع تيمارات . وبالنظر لتسقيماته كانت الموصل تضم ثلاثة سناجق فقط .

الفصل الثاني

القرن السادس عشر

آمال العراق ومخاوفه في زمن الحكم التركي

كان من المعقول ان تنتعش الآمال بالحكم الجديد الذى دخل فيه العالم العربى ، وفى ضمنه العراق ، بجهد قليل اثناء زمن التوسع العثمانى العظيم • فقد مرت قرون على هذه البلاد كانت محرومة خلالها نعم الحكم الامبراطورى • لان الحكومات المحلية كانت جائرة فى وقت قوتها • وكان انتهاء امدها كافيا لاعتبار السلطان منقذ البلاد • ويزاد على ذلك ان هذه امبراطورية عظيمة اخرى ظهرت للوجود فى آسية الغربية ولا يتحقق الامل الحزبى الضعيف للحصول على حكومة ابوية ثابتة الا بالانضمام اليها • وبفضل ثقافة العاهل العظيم الذى كان يحاكى ملوك اوربة اسست ادارة حسنة جديدة ، فاصلحت القوانين واعطيت الحقوق اهلها • واصبحت الضرائب معتدلة معدولا فيها • وعوملت الاقليات غير المسلمة بتسامح وقليل من التعصب • وجىء بالقوات لحفظ الامن والنظام من الانكشاريين المعروفين الذين ما زالوا حتى ذاك الحين يعدون اقوى كتلة عسكرية فى العالم • وكان انتشار الاسر الكثيرة التى يجرى فى عروقها الدم التركى فى الولايات الجديدة من الامور التى تضمن الاخلاص والولاء فيها • ثم ان تقلد سليم المخيف لاقدس المناصب فى الاسلام كان قد أكد ان العالم السنى اجمع لن يمكنه ان يتوجه لغير استانبول ما دام سكانه متمسكين بدينهم •

بمثل هذا كان يمكن للمفكر تعليل حقيقة الوضع فى البلاد العربية المفتوحة حديثا • بيد انه كانت يومذاك عوامل ـ على مثل ما ذكرنا من القوة ـ تدل على عكس ذلك ، واسباب تشابه تلك وجاهة تعرب عن ان الآمال التى عقدت على الانضمام الى الامبراطورية العثمانية بطية خاطر سوف تتحطم • وليست بنا حاجة الى اكثار الادلة على ان مجرد فكرة الامتلاك التركى تقضى على المحكومين بالحكم الانانى المتحيز • فقد كانت الامبراطورية موجودة وكان يجب ان تتوسع دوما لمجد السلطان الاعظم ، ولنشر

الديانة الحقة ، وملء الخزينة ، وتمشية امور الوحدات الاقطاعية ، وتجنيد القوات التابعة لها • ولم يكن يخطر على بال « القانونى » نفسه ــ ولا على بال ولاته الطامعين ــ ان الحكم يجب ان يكون فى مصلحة المحكومين وان الوزراء يجب ان يكونوا وزراء حقيقيين •

فبدت فى صيف عظمة الامبراطورية ومجدها الشامخ ، فى منتصف القرن السادس عشر ، اول علامات خريفها • اذ كان سوء الاستعمال ، الذى قضى على الدولة التركية اخيرا ، معروفا حتى فى هذا الدور • وكان الترفيع بغير هدى لخصى من الخصيان او لاحد المقربين يعرض بغداد او القاهرة لان يحكمها حاكم يعد امكان ليق المنصب به ضربا من السخرية • فجعلت الفرص العديدة للاثراء الذاتى فى الباشويات النائية الحكم فيها من المشاريع التجارية • وكانت سلطة جباية الضرائب ، اى حكومة الولاية ، لا تسلم الا الى أعلى المتزايدين • ولذا كانت الهدايا الثمينة الضرورية للاحتفاظ بالكراسى الوثيرة لا تدفع الا من عرق جباه المحكومين الذين لا يكابدون سوء الاستعمال فحسب بل يدفعون المال لشراء الحكم السيىء ايضا • وبالنظر لبعد الولايات عن استانبول كان تعدى الحكام وجورهم مستورا ، كما ان ايصال اخباره كان اصعب من الكشف عنه • وعلى هذا ما كان الولاء ينمو بسرعة فى شعب لم ير من بأس السلطان الا حواشيه ولم يشعر الا بوطء موظفيه الخشن • كما ان هؤلاء الموظفين كانوا هم يعدون ابعادهم الى العراق او فلسطين من الواجب المكروه او الفرصة المؤاتية • ولم يكن بين السكان وحكامهم الحديثين ما يجمعهم فى صعيد واحد • وقد كشف الاختلاط بينهم عن اعظم الاختلافات فى العقلية • فالعرب بماضيهم الطويل بحياة البداوة وعدم صبرهم وثباتهم ما برحوا اقوى الشعوب الخاضعة شكيمة • كما ان الشخصية التركية ــ غير المدركة وغير المرنة ــ ابعد ما تكون عن تقدير اهوائهم او فهمها • وان مجرد مظهر الاغوات من الترك واخلاقهم ولغتهم يبين غريبا اجنبيا فى عيون العرب وآذانهم •

كانت هذه الشكوك والمخاوف تنطبق بحذافيرها على العراق ، وكان يعظم تأثيرها بسبب الاحوال الداخلية فى الولاية • فقد كان شمالى العراق وكردستان سنيين وكانت بغداد منقسمة ، بينما كانت المناطق الوسطى والجنوبية منه شيعية قحة وجلة من نبات الخليفة الحديث • وكان يشع من العتبات المقدسة نفوذ قوى الوقع ذو حالين : معاد

للسلطان وودى للشاه • ولذا كان العراق مسرحا طبيعيا لنزعات هذين الخصمين كما اثبتت القرون الثلاثة من بعد • وكان امل الوئام الدينى او الحدود الهادئة ضعيفا • وكانت الاحوال فى الولاية نفسها على هذه الشاكلة • فجوبه الحكام الحديثون باقليم قاس غير مألوف وبمشاكل السهول القاحلة والاهوار التى لا مسالك فيها ، وبطرق للمواصلات طويلة وغير مخفورة • اما البلدان فكانت تطلب القليل وتنفر بسهولة كما كانت مترددة وغير موالية • وكانت قضية القبائل مشكلة الحكومة التى لم تحل ولما تحل حتى اليوم • فانها كانت تنتشر فى طول البلاد وعرضها وهى قوية بعددها ، تتحرك دوما ولا تغلب بتراجعها ، لا تصبر على الضيم بطبيعتها وتقاليدها ، شيخية بحكمها وتابعة لنظام البادية الذى لا يتفق مع اى قانون كان • ولذا لم تهدأ هذه القبائل فى ظل الباشوات ولم تتخل عن حريتها المطلقة التى امسكت بموجبها زمام تسعة اعشار البلاد التى يدعى بحكمها آل عثمان فى هذا الدور •

داخلية العراق فى سنة ١٥٣٤ — ١٦٢٠ [١]

تعد اول ادوار الحكم التركى فى العراق مهمة جدا لاسباب عديدة • فقد كانت الامبراطورية قد بلغت اوجها • ولم يكن لها فى ولاياتها ماض تحيا به بل كان لها من السمعة ما يؤهلها لذلك • واصبح لها فى العراق مجال جديد تقيس به مقدرتها على الحكم • غير انه من المؤسف ان لم تتوفر المصادر الكافية التى يمكن ان يستمد منها ما يساعد على اثبات صورة حقيقية لنجاحها او خيبتها • والمعلومات القليلة المتوفرة التى ستسرد ربما لا تفيد التاريخ اذا غيرت النسب فأكدت ما لا يستحق التأكيد من الحوادث • على ان احسن الادلة عندنا على هذا الدور الاحوال الثابتة فى العراق والاستنتاجات المستمدة من تاريخ تركية آنئذ • وليست اخبار الرحالين اليسيرة بشافية فى معرفة هذا العهد ، ولا قسم من التقاليد الباقية رغما عن سقوط بغداد واسترجاعها فيما بعد •

كان الوضع العام فى الاصقاع العراقية وضع الممتلكات النائية من ممتلكات

(١) ان مصادر هذا البحث شحيحة • وقد اعتمدنا على ما كتبه كلشن وباش اعيان فى اضطرابات البصرة وعدة من الحقائق الاخرى • واعتمدنا على ماكتبه الفون هامر (الكتاب السابع ص ٢١٩ — ٢٢٠) فى حوادث جيغالا • اما الرحالون الذين رجعنا لكتاباتهم بصورة خاصة فهم روولف وسيدى على وفيج مع رفقائه وبالبى وتكسيرا •

السلطان . فمصطلحات الحكومة التركية وتشكيلاتها بقيت سائدة ولم تتبدل . وكانت الجرائم يقمعها الجند ويحكم فيها القاضى المعين من استانبول . وكان الذين يحبذون استسلام العراق الى الحكم التركى بالكلية الطبقة البوروقراطية الجديدة والحاميات وملتزمو الاقطاع وقسم من رجال الدين . وكانت على الضد من هؤلاء القبائل والشيعة والتأثيرات الفارسية والاطماع المحلية التى كان يروقها ضعف الحكومة او عدم وجودها ، ثم خصائص البلاد نفسها .

وكان الطابع الذى طبع هذا العصر طابع الخصومات[١] غير المنقطعة بين الامبراطورية وايران ، ذلك الامر الذى أثر تأثيرا بينا فى الجمهور والحاميات العراقية الى حد كان من الصعب تقديره . ومن المؤكد انها قد أثرت فى توارد الزوار الى العتبات المقدسة وتبادل التجارة مع اصفهان وتبريز . كما استدعى ذلك دعوة الانكشاريين وملتزمى الاقطاع احيانا للمشاركة فى عمل الجيوش الامبراطورية فى الشمال . وبدىء بجمع الحبوب وحيوانات النقل . ومن الحوادث المعروفة فى العراق عن هذه السنين الفزع من خطر يهدد اسوار المدينة ، وانقلاب الامراء الاكراد المذبذبين ، والوليمة الملكية المولمة لسفير ايرانى مر فى طريقه الى البوسفور . وان كانت حروب القرن السادس عشر لم تستوجب دعوة باشوات العراق ووحدات التيمار فيه ليأخذوا دورا رئيسا فى تمثيله كما حدث فى الحروب الايرانية العظيمة التى اشتعلت نيرانها فى القرن الثامن عشر ، فان من الادوار المهمة منها ما كان يثير فى البغداديين شيئا اكثر من الاهتمام الفاتر . ففى سنة ١٥٨٦ تقاطر على المدينة خمسة آلاف من التركمان اللاجئين الفارين من وجه حمزة مرزه الباسل . وبعد ذلك بقليل وقعت حرب عوان بالقرب منها بين فرهاد باشا القائد التركى العام وقوة ايرانية جبارة بقيادة قواد كبار . وتذكر هذه بالرسائل المضحكة المتبادلة بين القواد وبالغنائم الغنية بالغلمان والجوارى التى مهد النصر

---

(١) ان هذه الاحوال مدونة باسهاب فى التاريخ التركى والايرانى العام . وتعرف مراحلها الرئيسة بصلح ١٥٥٥ الذى استقام مدة عشرين عاما ، وبهدنة عقدت فى ١٥٧٨ فنقضت بسرعة ، وبصلح آخر فى ١٥٩٠ وطال أمده حتى ١٦٠٣ . واعقبت ذلك خصومات جديدة دامت حتى ١٦١٨ . وكانت الاطماع والاحقاد والحجج موجودة لدى الطرفين ابدا . وكان العثمانيون حتى نهاية القرن هم المعتدون ، ومن بعد ذلك انتقل الاعتداء الى الصفويين . وقد أثر تعاقب الحكام الضعفاء فى تركية وحلول عهد عباس العظيم فى ايران تأثيرا بينا فى رجوح كفة النجاح .

للباشا ان سيده بها . وفى ١٦٠٤ شن الرئيس الايرانى الله ويردى خان غزوة مفاجئة اسر فيها ثلاثمائة أسير خارج اسوار بغداد نفسها ونشر الذعر فى داخلها . ثم حوصرت المدينة جزئيا فى السنة التالية[1] . وفى سنة ١٦١٦ نهبت مندلى قوات[2] ايرانية ، غير انه استعادها بشدة وسرعة . وسيذكر عن تأثير هذه الاحوال فى الدويلات الكردية الشىء الكثير فى صفحات متأخرة . وتنشأ الميزات الاخرى لهذا الدور عن الخطر الايرانى من جهة ، وعن الاحوال الداخلية فى العراق نفسه من جهة اخرى . فقد جلب له موقعه كولاية على الحدود فائدة وضع الحاميات الكبيرة لتؤثر تأثيرها فى البلدان والقبائل ، كما عوده ذلك ان ينظر دوما لمنبع حمايته البعيد . ومن جهة اخرى كان السلطان يرى بغداد عزيزة عليه لعظم اسمها ووضعها المتقلقل . اما فى الداخل فقد كان طابع هذا العصر وكل عصر يليه قلق البدو والقبائل نصف المتوطنة وعدم احتمالها الاذعان لاية حكومة من الحكومات . وفى هذه الايام المبكرة ، على الاخص ، كان سخط القبائل على حكامها شيئا مألوفا ، كما ان الحوادث الكافية الدلالة تدل على ان المدن والبلدان كانت فيها حكومات ضمن حكومات ، وان الحكم الامبراطورى كان غير معمول به فى مكان ويشاركه الرؤساء المحليون فى مكان آخر . وبينما كانت الموصل وبغداد تمشى فيهما الامور بصورة اعتيادية بكونهما مراكز ايالة فان ولايتى البصرة وشهرزور المنفصلتين قد صينتا لايا بلاى[3] من الانفصال التام عن الامبراطورية .

ولا نعلم من خلف سليمان باشا الوالى الاول فى بغداد . على ان الحاكم فى سنة ١٥٤٦ م (٩٥٣ هـ) كان اياس باشا . وقد وقع على عاتقه واجب اتعب باشوات بغداد من بعده مدة تمتد حتى القرن السابع عشر ، الا وهو واجب اخضاع البصرة وقبائلها المتمردة . فان الحكومة التى قلدها السلطان سليمان راشد المغامس فى جنوبى العراق لم تستقم الا عشر سنوات . وكانت علاقته خلالها بزملائه الشماليين باشوات بغداد المتبدلين دوما علاقة تمشية حال من دون ان يأخذ او يعطى شيئا . غير ان الاتصال

---

(١) ان مالكولم وسايكس يجعلان جميع العراق يخضع لايران فى ١٦٠٥ بعد انهزام سيكالا فى موقعة ارمية . وهذا حقا غير صحيح .

(٢) ديلافال (الرسالة الاولى لسنة ١٦١٧) .

(٣) لايا بلاى هو المراد بقول العامة من الكتاب « بالكاد » قال الشاعر :

فلايا بلاى ما حملنا غلامنا   على ظهر محبوك شديد مراكله

حصل بالتدريج • فان التعرف على حكم السلطان انتج الاستخفاف به • ولذا كان الهاربون من اواسط العراق يجدون في الميناء ترحيبا ومأوى • وكان طلب الباشا لهم قد ذهب عبثا • فأمر السلطان الثاني بتجريد حملة على البصرة والحاقها بصورة جدية • وفي ١٥٤٦ ترك اياس باشا بغداد على رأس حملة كبيرة • وسارت ارتال الجيش على طريق دجلة[١] بينما كانت ثلاثمائة سفينة شراعية تنقل الذخائر والمؤن • وتقدم حاكم البصرة شمالا حتى منطقة[٢] الجزائر ولكنه رجع مدحورا تماما • فدخل اياس البصرة واعلن الغاء الضرائب التي كان يجمعها الحاكم العربي واحل مكانها الضرائب التي يأمر بها الشرع • فأثنى الناس على اعماله الخيرية الحكيمة ثناءا حسنا وتضرع الجميع بالدعاء للخليفة • ثم بقي اياس في البصرة حاكما عليها[٣] •

غير ان العمل بقي مبتورا • فقد قطع قبائل اهوار البصرة جميع الطرق المؤدية للبلدة • وبالنظر لان باشا البصرة لم يشارك في الحملة التي جردت بعد هذا كان من المحتمل انه كان قد اضاع مركزه • فلقد صدرت اوامر السلطان القاضية بتأديب الثائرين الى علي باشا تمرد رئيس انكشاريي بغداد (وربما كان حاكمها) • واخذ مكانه في بغداد محمد باشا بلطجي ، مير ميرن سيواس ، الذي جلب معه جماعة صغيرة لحمايته • وبعد ان اكمل علي باشا استعداداته سار فتوقف في الغراف وانضم اليه فيه علي بك وكان سنجق بكي لتلك المنطقة • فنزل الجيش الموحد الى الفرات نفسه ، ثم حاصروا المدينة وهي مقر عليان رئيس الثوار • وفتحت المدينة بعد هجوم دام ثلاثة ايام فكسرت حماسة القبائل ، وفر عليان مع اتباعه متفرقين • غير ان هؤلاء لم يتركوا المقاومة وانما استمروا على الغزو وقطع الطرق • واشاد علي باشا الاستحكامات القوية لضبط المواصلات المائية • وفي آخر الامر كملت عملية التهدئة ، اسميا وموقتا ، ورجع الى بغداد •

---

(١) هذا ما ذكره باش اعيان . الا ان كولشن يذكر ان المسير كان على طريق الفرات كما يذكر زيارة الجيش للنجف .

(٢) ان رواية كولشن تقول بان راشدا بقي في البصرة لاجل ان يفر منها بسهولة اذا خسر الحرب في حين ان الذي ذهب لمقاومة اياس هو شيخ قشعم فانهزم وذبح .

(٣) يذكر تقويم البصرة في ص ٦٢ ان « الوزير اياس باشا » كان واليا في ٩٥٣ للهجرة . وهذه الرواية تجمع بين روايتي كولشن وباش اعيان .

وعندما زار البصرة الاميرال المؤلف الشهير سيدى على فى ربيع سنة ١٥٥٤ م (٩٦٢ هـ) وجد حكومة اعتيادية فى المدينة . الا ان الاسطول كان به حاجة للاصلاح . فاعطيت له خمس عشرة سفينة قديمة مضعضعة . وكانت العلاقات مع هرمز جيدة بحيث مكنته من محاولة تجهيزها ، بغير نجاح ، من هناك . وتآزر مع حاكم البصرة مصطفى[1] باشا بخمس من هذه السفن على الاعداء المحاربين فى الانهر فى عربستان[2] . وكان بين جنود حامية البصرة انكشاريون من مصر . وقد سبب نكوص هؤلاء فشل الحملة عن الظفر مع خسران مائة رجل .

وكان والى البصرة يعيش فى الفترات الهادئة بأبهة مبنية على واردات كمركه (مأصره)[3] الاكيدة الغزيرة . على ان حكمه ، من جهة اخرى ، لم يتعد خندق المدينة الا قليلا . وكانت الحاجة ماسة لكثير من القلاع النهرية الساحلية لتحافظ على حركة الشحن من عبث لصوص الخويزة ، ثم ان سكان الاهوار فى دجلة والفرات الجنوبيين لم يظهر منهم ما يدل على امكان التعاقد معهم بصورة دائمية ". .... ومنهم من كان الترك لا يستطيعون اخضاعهم لانهم كانوا متحصنين فى جزر تقع وسط الفرات وليس بوسع الترك اخذها منهم . ولذا كانوا كلهم لصوصا ليس لهم مسكن معين .... "[4] . وقد عورض حاكم البصرة ، اكثر من زملائه فى اماكن اخرى ، بشىء من الشعور القومى فى معرض مقاومة الحكومة حسب العادة . ولم يعارض التجار اية حكومة تستطيع توطيد الامن ، الا ان رعاع المدينة مع بعض الطبقات الدينية كانوا يعارضون الاتراك ويعدونهم من الاجانب . وقد بذلت المحاولات للتوافق ، ومنح قوم منهم الامتيازات كما استعملت العقوبات المؤثرة . غير ان التأثيرات المحلية هذه ، كما سيذكر فيما بعد ، قضت فى الاخير على الحكومة التركية بكمالها بعد حياة مرتعشة قصيرة .

وفى هذه الايام كان أمر انفصال شهرزور واسترجاعها سائرا فى طريق مختلفة .

---

(١) لا يوجد هذا الاسم فى قائمة الولاة المدرجة فى تقويم البصرة . غير ان القائمة غير كاملة حسب الظاهر لان الاسماء مأخوذة من ذكر بعض الحوادث فى تاريخ باش اعيان .

(٢) يذكر سيدى على « جزيرة حويزة » وربما تكون هذه جزيرة بيد هؤلاء الاعداء ، الا اذا كان يقصد بالجزيرة معنى آخر . واذا كان الامر كذلك فكيف تتعاون السفن اذن ؟

(٣) الكمرك عند العرب هو « المأصر » .

(٤) هذا ما يذكره رالف فيتج (فى هورتن رايل ص ٦٣) .

اذ كانت كركوك واربيل وآلتون كوبرى قد حفظت بقوة • والحقيقة هى ان حكم السلطان كان مرغوبا فيه هنا اكثر من اى منطقة اخرى فى العراق • ولم تكن الحكومة اسمية ولا متقلقلة ولم توجد المعارضة الا فى الجهات الشمالية والشرقية من الولاية • وسوف يمس بحثنا المتأخر عن احوال جيران العراق هـذا الموضوع وذلك بالبحث المختص بحكومة اردلان المجاورة له •

بقيت فى بعض الحقائق المجردة حاجة للتدوين لما يختص بحكام بغداد فى هذه السنين • وفى صفحة متأخرة سوف نذكر طرد على باشا تمرد واحلال بلطجى محمد مكانه ، وكذلك ارسال باشا حلب للقيام بامور الحدود الكردية • ومن المحتمل ان الذى خلف درويش على ، الذى وطد النظام فى البصرة سنة ١٥٦٧ م (٩٧٥ هـ) ، كان مراد باشا وهو ممن عينهم سليم الثانى[1] • وقد خلد اسم مراد باشا بالمنارة الفخمة المشيدة فى المرادية المؤرخة بـ ٩٧٨ للهجرة • وكان راولف قد شهد الباشا فى ١٥٧٥ م (٩٨٣ هـ) ، ولم يذكر اسمه ، وهو الذى استهداه هدايا • وبعد سنتين او ثلاث اخذ المنصب رجل مشهور فى زمانه ، وهو الوندزاده على باشا • فأصابت العتبات المقدسة لكلا الطائفتين اعمـاله الخيرية • فانه جدد بناء قبـة الحسين العظيمة فى كربلا وصحن عبدالقادر الكيلانى فى بغداد • واشاد الشعراء فى ايامه بعدل الحكومة وحكمتها • وكتب المؤرخون فى حملاته على جيران الولاية المقلقين لها ، وكانت واحدة منها على حكومة الحويزة المجاورة لولايته[2] •

وقد ذكرت حملة فرهاد باشا العظيم بالقرب من بغداد حوالى ١٥٨٩ م (٩٩٨ هـ) • ولم يكن هو من حكام بغداد • غير ان المنصب كان تشغله يومذاك ، شخصية من اعظم شخصيات العصر ، وهو جيغالزاده المعروف فى اوربة باسم « سيكالا » [3] • ولا يمكننا

---

(١) يجب ان ينسب الى هذا الزمن ايضا الحادثة المبهمة التى جمعها راولف من احاديث الدواوين الغامضة وهى غزوة شنها الفرس على بغداد فوقع ابن الشـاه اسيرا فيها ثم استنقذ بالفدية • وقد يشير هذا الحادث لبعض قلاقل الحكومة بسبب اللر او الكرد •

(٢) ان رسالة تركية تدعى « هنر نامه » لنيازى مما لم يعثر عليها المؤلف تبحث عن هذه الحملة فى سنة ٩٩٢ الهجرية (١٥٨٤ الميلادية) لكن خلاصتها موجودة باسم « ظفر نامه » •

(٣) يرجع فى اخبار حاكميته فى بغداد الى كتاب الفون هامر ، الجزء السابع ص ٢١٩ و٤٠٩ والجزء الثامن ص ٣٨ •

تدوين سيرته الرومانتيكية هنا ، الا ان المناصب الرفيعة التى تسنمها من قبل فى طول الامبراطورية وعرضها تدلنا على أهمية ولاية بغـداد التى عين هو حاكما لهـا . فقد عرفت ايام تقلده الحكم باصلاحاته المهمة . فهو الذى نبه اولى الامر فى استانبول الى الاخطار التى كان يتعرض لها الحجاج عند اختراقهم البـوادى العربية بلا انتظام . فاقترح تنظيم حملات مسلحة مؤيدة لترافق قوافل الحجاج الخارجة من بغداد ودمشق بقيادة حكام المدينتين . وصادف فى ايامه ان قل الماء فى عتبات الفرات الشيعية وتركها الزوار من اجل ذلك ، لان الجدول الخيرى الذى حفره من تقدمه من الولاة قد طمرته كثرة التقن[1] فيـه فاستحال من اجل ذلك جريان الماء فيه . فحاول جيغالزاده احياء الانهر ورجع الماء والزوار الى هذه العتبات . فلم تثبت مشاريعه لكنها دلت على روح محسنة وعقل راجح . وكونت حملاته فى ايران الجنوبية قسما من النزاع الذى كان قائما اوانذاك فانتهى بصلح سنة ١٥٩٠ م (٩٩٩ هـ) . وقد ساعده نزاع اخوة حدث من اجل حكومة مدينـة دسفول على ان يتدخل بصورة حاسمة ، فوقعت بقبضة يده دسفول والقلاع المجاورة لها ودحرت قوات الاقطاع الايرانية . وبقيت سطوته نافذة ردحا من الزمن فى داخل بلاد البختياريين .

وتولى الباشوية فى بداية السـنوات العشر الاخيرة من هذا القرن سنان باشـا جيغالزاده[2] فاغناها بتشييد خان[3] للمسافرين وبنايات اخرى عرفت باسمه مدة طويلة . ولذا امتد الوقت الذى كان يقترن فيه اسـم جيغالزاده العظيم ببغداد ، على ان ذلك سيجدد فيما بعد . وخلد ايضا عهد باشا آخر حكم فى هذا الزمن بواسطة البنايات وهو حسن باشا . وكان حاكم بغداد فى السنة الاخيرة من القرن رجل يدعى دلى حسين . وهو مذكور عرضا بانه اخو الثائر المشهور عبدالحليم قره‌يازجى الذى افزعت ثورته

(١) التقن على وزن شبر هو الطين الـذى يبقى فى الجدول والمسيل والنهـر ثم يجف فيتشقق حتى ييبس فيصير صلصالا .

(٢) يجب ان لا يلتبس اسـمه بأسم « فاتح اليمن » . ثم ان كولشن لا يذكر باشوية جيغالزاده نفسه ، ولم يعلم بأن سنان الكبير كان باشا الموصل فى ١٥٩٤ م (١٠٠٣ هـ) .

(٣) هو المعروف قبل سنوات باسم (خان جغان) وقد جعل اسواقا للصاغة والبزازين وكانت على بابه كتابة تاريخ بنائه واسم سنان باشا المذكور والتاريخ هو « ٩٩٩ هـ » وذكره ياسين العمرى فى الدر المكنون فى حوادث سنة ١٠١٣ هـ « م . ج » .

في آسية الصغرى الامبراطورية العثمانية . اما مقدار مشاركة دلي حسين في الامر وتوريطه جيوش العراق وتفريطه في مصالحه فذلك شيء مشكوك فيه . ومن المحتمل ان سكان الولايات العراقية لم يكونوا الا من المتطلعين على بعد الى ثورات الاخ المخطر .

حل القرن الجديد من دون حادث يستحق ان يذكر . وكان الحاكم حينئذ وزير حسن باشا[1] الذي حفر لحماية الكرخ خندقا عميقا عريضا وانشأ باشورة « سدا ترابيا » ثم زينه ببضع بنايات . ولا يمكننا ان نعلم بالضبط الباشوات الذين جاءوا من بعده . وفي بداية ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) منح المنصب قائم مقام استانبول السابق قاسم باشا . ولم يجاوز هذا ينيشهر حتى انضم الى قوات الثوار ، ولم يصل الى بغداد مطلقا[2] . فجاء مكانه مصطفى باشا صارقجي فكانت مدة بقائه فيها قصيرة . وفي خريف ١٦٠٤ م وصل الى العراق موكب حكومي مؤلف من خمسة عشر « قبوجيا » ومعه البزة والفرمان ، والسيف والسلسلة الذهبية الدالة على تعيين خصي جركسي يدعى يوسف باشا . وفي عهده حدث هياج مهم في كربلا قتلت فيه الحامية التركية ونهب اموالها الاهلون[3] .

وأهم الحوادث المدونة في تاريخ هذا الزمن والتابعة لتاريخ تركية العام سلسلة القلاقل الداخلية الواسعة النطاق التي جهز لاستئصالها الصدر الاعظم مراد باشا جيوشه بعد صلح سيلفاتورك . ففي ١٦٠٧ م (١٠١٦ هـ) استأثر بالسلطة العليا في المدينة رجل يدعى محمد بن أحمد الطويل احد الرؤساء الانكشاريين في حامية بغداد في ظروف لا تزال غامضة[4] . فارسلت الدولة بالتفصيلات المقتضية لاخضاعه الى نصوح باشا الصدر الاعظم السابق وحاكم ديار بكر يومئذ . فسار قاصدا الجنوب في ١٦٠٨ م (١٠١٧ هـ) مع ٤٠،٠٠٠ مقاتل . وفي اول معركة انهزم نصوح باشا بسبب خيانة

---

(١) كتاب تكسيرا ص ٦١ من الطبعة المشار اليها ففيها ذكر باسم Acem Baxa

(٢) يذكر كولشن انه بقي في بروسه وفيها قتل .

(٣) تكسيرا ص ٥٣ من الطبعة المشار اليها .

(٤) مذكورة بايجاز في « غاية المرام » وتقويم بغداد وباش اعيان وبصورة مفصلة فيما كتبه الفون هامر (المجلد ٦ ص ١٣) واكثر تفصيلا في كولشن . وهناك تناقض غير جوهري في المرجعين الاخيرين . كذلك توجد عدة اشارات الى الحادث فيما كتبه ديلافال .

جيشه اياه ، وذبح والى باشا الذى كان يصحبته . فتلت ذلك هدنة شائنة اعترف بها رسميا بمحمد كباشا فى بغداد . ومع سقوطه بعد ايام قليلة صريعا بخنجر احد اعدائه كان توليه الحكم يقتضى ان يخلفه اخوه الاصغر مصطفى . غير ان مثل هذه الوراثة لم يستسغها احد . وكان محمود بن جغالزاده الكبير فى المشتى فى اورفه حينئذ . فمهدت له علاقات اسرته بالعراق وولاء ابى ريشة واسرة سوران الكردية وقبيلة قشعم وغيرها من القبائل العراقية الامور التى ادت الى تعيينه حاكما فى بغداد . وطلب منه ان يعيدها الى حوزة الامبراطورية التى ازدرتها . فجرد من الموصل حملة غير مقاتلة بارساله الرسائل السرية الى ملازمى الانكشاريين ورؤسائهم فى بغداد يناشدهم فيها قلب الحكم المؤدى الى الانقلاب . فعملت عملا حسنا واثرت التأثير اللازم . حتى حوصر مصطفى فى القلعة ، واخبر محمود فخف لها بأقصى سرعته حتى وصل الى بغداد فى منتصف صيف ١٦٠٩ م (١٠١٨ هـ) . غير ان المدافعين[1] وكانوا المتفوقين قاوموا محمودا بشدة واظهروا ولاء غير منتظر لقائدهم . وبعد اسابيع من الشدة والاهوال وصل الطرفان الى توافق ما . فقد وافق مصطفى على تسليم الحكومة الى ابن جغالزاده ، وتسلم هو نفسه سنجق الحلة الغنى . فأعيد السلم والطاعة الى نصابهما . وقد قدر لمحمود جغالزاده ان يكون حاكما فى بغداد مرتين ، وهو يذكر باسم البلدة المسماة المحمودية التى اسسها على بعد مرحلة من جنوب بغداد . وكانت مدة حكمه هذه قصيرة . وفى ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) اهديت بغداد الى على باشا قاضى زاده ومن بعده الى غيره ممن لم يدون سوى اسمائهم او القابهم كديلاوير ومصطفى وحافظ أحمد وسوف نذكر الشىء الكثير من اخبار الاخير فيما بعد .

تبدأ اخبار الموصل[2] بالالف السنة الثانية من الهجرة فقط . فنستدل من الاصطلاحات التى يذكرها احد الاوربيين فى الموصل على ان باشا « قره حمت » (قره عميد ، ديار بكر) كان نفوذه فى الموصل نفوذ جار قوى يفوق نفوذ بغداد . ولو

---

(١) ان كولشن يغالى بتقدير هؤلاء بمقدار ٢٠,٠٠٠ بين فارس وراجل ، فان القلعة لا يمكن ان تسع نصف هذا العدد .

(٢) المراجع : تقويم الموصل الذى يحوى قائمة باسماء الولاة ثم « المعلومات التاريخية » . ويذكر حسن توفيق صاحب « المعلومات التاريخية » ان « منهل الاولياء » يشير الى انه لا ذكر للباشوات قبل سنة ١٠٠٠ للهجرة .

صح الامر لكان اتجاه ايالة الموصل فى القرن السادس عشر مختلفا عنه فى الثامن عشر لان طمحات الحاكم فيها كانت تتجه شمالا لا الى الجنوب نحو زميل قوى هو بمقام السيد له تقريبا . ويؤثر لنا حدوث زلزال شديد ، حدث فى اذربايجان فى ١٥٧٢ م (٩٨٠ هـ) ، سرى تأثيره جنوبا حتى الموصل . وفى السنة نفسها ملأ كسوف شمسى السماء بالنجوم فى رائعة النهار . ثم ان المحل العظيم الذى حل فى العراق الاوسط من ١٥٧٤ م (٩٨٢ هـ) الى ١٥٧٦ م - بان مر ثلاثون شهر بلا مطر - احدث حركة فى المواصلات النهرية بين بغداد والموصل لنقل الحنطة . واول باشا يذكر هو أمير حسين والثانى بياله باشا . ولم يذكر عن هذين سوى مدة حكمهما بالضبط . وفى ١٥٣٩ م (٩٤٦ هـ) تولى حكومة الموصل[1] لمدة عشرة اشهر سنان باشا . وقد جاء بعدهم موظفون لم يحفظ عنهم اى تفصيل . وكانت مدة حكم كل منهم اشهرا قليلة ، عدا حسين باشا ، المعين فى ١٥٩٤ م (١٠٠٣ هـ) الذى حكم مدة ثلاث سنوات تقريبا . وفى ١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) ، اعطيت الولاية الى حسن باشا حاكم العمادية . ولا غرو فى ان السلطان سليمان كان يقدر الاسرة البحدنيانية كثيرا ، ولم تكن نزاعاتهم الداخلية الا من فعل فرهاد باشا . وان كانت الموصل قد اعطيت فى ١٥٥٣ م (٩٦١ هـ) الى أمير الجزيرة فلم يكن ما يمنع من ان تعطى الى بك العمادية فى سنة ١٦٠٠ م . فبقى فى منصبه اربع سنوات تقريبا . ولا يعرف عمن جاء بعده شىء سوى اسمائهم . وكان من الجائز لموظف ما ان يرجع لنفس الباشوية مرة ثانية او ثالثة . وفى الاخبار ما يدل على تنقل الموظفين بين الولايات العراقية وتشكيلاتها التابعة لها . فلقد عين فى ١٦١٧ م (١٠٠٢ - ٧ هـ) محمد باشا ، الذى تولى متسلمية البصرة ، واليا للموصل . وبعد سنوات ثلاث انعم بالمنصب ، وربما كان اول مرة ، على مرشح محلى . فقد كانت الاسرة العمرية المعروفة قد جىء بها فى هذه المدة عل قدسيتها تهدىء الزلزال المفجع الذى هز المدينة . على ان بكر باشا لم يكن عمريا . وقد عين فى ١٦٢٠ م (١٠٣٠ هـ) وبقى سنة واحدة ثم نقل لباشويات اخرى . ثم رجع بعد خمس سنوات عندما كان الايرانيون قد دخلوا بغداد . ويدل تعيين أحمد باشا شقيق احد موظفى بغداد فى ١٦٢٣ م (١٠٣٣ هـ) على ان استانبول كانت ملزمة فى تفضيل اعيان الولاية نفسها .

---

(١) ان الوصف المدرج فى تقويم الموصل يطابق وصف سنان باشا الكبير . ويسكت المؤرخون الاتراك عن ذكره . اما التقويم فبعد ان يذكر انه هو فاتح اليمن يكذب ذلك على الحاشية . على ان الوصف والتعبير يجب ان يقبلا بصورة عامة .

الاطراف

هذه هي الحقائق الشحيحة الباقية من اخبار الدور الاول للحكم التركي في العراق الاصلي . ومن المناسب للموضوع البحث ، على حدة ، عن تاريخ توابعه المنعزلة وجيرانه الاقربين .

فمن جهة البادية ، غربي الفرات وجنوبي غربه ، كانت قبائل نجد بواحاتها لا تزال شديدة الاختلاف وخاملة بحيث لم يكن بوسعها اقلاق المراكز العراقية ، وذلك قبل التجديد الديني العظيم في القرن الثامن عشر . وكان التعرض الوحيد الذي قد يحدث لا يخرج عن كونه غزوات متعاورة في المراعي الربيعية . وكان بنو خالد في الاحساء (لم يكونوا من القبائل العراقية يوما ما) قد عظم شأنهم في بلادهم[1] وبدأوا يتحرشون في بعض المواسم بأبعد الخيام التابعة لقبائل الفرات . غير ان قوات البادية التي يهمنا أمرها اكثر من هذا كانت لا تخرج عن ان تكون حلفين بدويين يمر من مناطقهما المسافرون من الخليج الى حلب بعدة مراحل من طريقهم . فكان المير ناصر ـ أعني ـ ناصر بن مهنا في ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) « ملك » القسم الجنوبي الممتد من النجف الى الفلوجة . وكانت بلدة النجف ، ذات العصبية الدينية الدائمة التي افقرها انقطاع الخيرات عنها منذ موت الشاه طهماسب ، معترفة بسلطة حاكم البادية هـذا . وكانت كربلا ، وهي اوسع واكثر حركة وليست بأقل من اختها تعصبا ، مركز « ديرته » . وكان يلاقي المسافرون من بغداد الى الفلوجة ، على بضعة اميال من العاصمة ، وكلاءه الذين يقبضون الاتاوة « الخاوة » له . وقد اعترف ناصر ، وهو احد افراد سلالة من الشيوخ ـ موالي او عنزة ـ مسيطرة في ذلك العهد ، بولائه للسلطان . ومن المحتمل ان شيئا من الهدايا التي كانت يرسل بها بين حين وآخر للباشا يذكره بهذا العبد الحقير !

---

(١) ان الواضح في سجلات الحكومة على عهد سليمان هو ان استانبول كانت تدعى بتابعية الاحساء لها (كما ادعت بالحبشة) . ويذكر اوليا افندي انه لم يكن هناك انقطاع وبعد ما كان حكامها بدرجة بكلربكي اصبحوا الآن يحكمون بسلطة مطلقة ويرسلون الهدايا فقط الى حاكم بغداد . وان كان شيوخ القطيف والبحرين قد رحبوا بالسلطان سليمان في ١٥٣٤ فانما ذلك بعيد عن الخضوع الحقيقي . وبالاختصار نقول كان الادعاء بالاحساء غير حقيقي ولا اساس له ، على الطريقة التركية ، ولم تدعمه التواريخ .

غير ان اوتوقراطيته في البادية ، وجمعه للخاوة ، والشدائد التي كان يصادفها المسافرون المارون من ديرته ، وارهابه للزوار كانت تقص لنا قصة اخرى . وكانت الحاميات التركية الصغيرة تقيم بحسب العادة في العتبات المقدسة غير ان مكثهم هناك لم يكن الا بسماح من الشيخ . وفي ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) كانت عاقبة الحامية في كربلا - كما قيل - وخيمه[١] .

والى شمال منطقة ناصر وغربها كانت سطوة أبي ريشة المشهور سائدة[٢] ، وربما كانت بين المنطقتين اراض وعرة خالية واسعة . وكان هذا الاسم وراثيا يطلق على اعظم شيخ ، من جمهرة القبائل . وكانت عانة قاعدة حكمه . وكانت ديرته ممتدة من هيت الى بيرهجك واطراف منطقة العشائر السورية . وكانت طيبة ومسكنة له . وكان ابو ريشه اسما مخيفا لباشوات ديار بكر وبغداد وحلب . وقد وجدت سلالته قبل ظهور القوات العثمانية في سورية والعراق . فوجد التركي - الجاهل لسياسة البادية - فيه عدوا لا يغلب وخصما مغرورا قلما كان يخضع . وفي ١٥٧٤ م (٩٨٢ هـ) كان « ملك بلاد العرب » هذا قد تعرض مرارا لموظفي السلطان . ولما كان قد نصب ابنه في حصن نهري ساحلي في غالانتزا[٣] قبض عليه جند الدولة وارسل به الى استانبول فقطع فيها رأسه . على ان هذا لم يخضد من شوكته ولم يعدل به عما تعوده من الغزو وجمع الخاوة . وقدم اليه قنصل البندقية في حلب الهدايا مرة . كما ان المسافرين والسياح كانوا يعدونه ملكا . واعترف الاتراك بامارته في عانة فأدخلوه في ضمن طبقتهم البوروقراطية كسنجق بكي[٤] لمنطقته . وكانت الرسوم الكمركية المجبية في مراكزه تشاركه الخزينة التركية فيها اسميا ، كما ان القوة الحقيقية التي كان في امكانها ان تفتك بالمسافرين او تحميهم كانت قوته وحدها . ولقد تقرر باتفاق عقد قبيل ١٥٧٥ م (٩٨٣ هـ) ان يدفع له السلطان سنويا ٦٠٠٠ دوكة وان يعترف بحكمه الوراثي .

---

(١) تكسيرا (طبعة سنكلبرونير سنويا كوسن) ص ٥٣ .

(٢) وقد ذكر ذلك جميع السياح تقريبا . فانظر تكسيرا ايضا (حاشيه ص ٨٤) للحصول على مراجع فيه . وما كتبه راولف مهم ايضا .

(٣) الظاهر ان هذه الكلمة هي اسم محل نقله المؤلف من كتابات السياح الاوربيين . (المترجم) .

(٤) يقابل هذا بمعاملتهم لامراء جزيرة العرب بعد قرون ، فقد اعطوا السنجق حكام نجد والكويت في القرن التاسع عشر كما انعموا بلقب قائم المقام على ابن هذال .

وفى سنى القرن الاول كان الامير المالك أحمد (او حميد) ، وكان ابناء اخيه الثائرون يتمادون فى عبثهم الذى اعتادوه بالامن تهاونا بسطوته .

كانت قوافل الجمال تستغرق فى رحلتها بين بغداد وحلب خمسين يوما وبين البصرة او الزبير وحلب سبعين يوما . وكانت الاحوال العامة فى سفر البادية هى الاحوال السائدة فى كل عصر . وكان من الممكن للبضائع ان تصل بغداد واحدة بعد اخرى بقليل من الخطر اذا حصل الاتفاق الخاص مع البدو فى البادية . فلقد كان كل رئيس لعشرين من الابل دليلا متحكما والحد الكمركى السيار . وكان دفع الرسوم المقتضاة لبدوى ما وعرضها على آخر او عدم القيام بهذين الامرين احيانا من نظم الطريق السهلة الغالية . وقد تمكن الاتراك بالحملات حينا ، وبالاقناع والمراعاة ، وبحفر الآبار فى البادية من عمل شىء لفتح الطريق . غير ان هذا الواجب كان صعبا عليهم مدة اربعة قرون ، كما ان السلطات التركية فى المراكز النائية كانت شبيهة بالعرب طمعا ونهبا . وكان التجار النصارى على الاخص ، الذين كانت عدة منهم يتاجرون بين سورية وايران وهرمز حتى الهند ، عرضة ، لكثير من الضرائب الجائرة ..... والخسران والتلف ، وربما كانوا يعتقلون بسهولة متهمين بالتجسس .

ذكرنا فى صفحات سابقة استيلاء البرتغاليين على الخليج فى اواخر القرن الخامس عشر وتأسيس دى البوكرك فى ١٥٠٧ م (٩١٣ هـ) لقلعة هرمز . وفيما عدا هذه القلعة (التى اجبر المذكور على التخلى عنها ثم استعادها بسهولة فى ١٥١٥ م (٩٢١ هـ)) ترك هو بعده خيطا من المراكز التجارية ممتدا على سواحل الخليج . وكانت قباب هذه المراكز فى مأمن من تعديات السكان الساحليين . وكانت المعارضة الضعيفة تفصح عن وجود استياء عميق من جراء تدخل البرتغاليين وخشونتهم . غير ان خصما مزعجا كان على ابواب الزمان . فقد استولى سليم المخيف فى ١٥٢٠ م (٩٢٧ هـ) على مصر واليمن وبدأ الترك يرون لانفسهم طريقا فى البحر . وفى ١٥٢٩ م (٩٣٥ هـ) دخل اسطول تركى الخليج ، فلم يقابل مقابلة ودية . لان حاكم ذلك الثغر اتفق مع البرتغاليين بان سمح لهم فى مقابل معونتهم له على خصومه من القبائل . وقد زار ضابط بحرى برتغالى البصرة وتوغل شمالا فى الانهر . فأبى الحاكم العربى حسب المعتاد القيام بتنفيذ مساومته ، واحرق البرتغاليون عدة من القرى القصبية ثم انسحبوا . وفى ١٥٣٨ م (٩٤٥ هـ) غزا الساحل الهندى اسطول تركى كبير من مصر . وفى

١٥٥٠ م (٩٥٧ هـ) طردت القطيف حاكمها واستنجدت بالاتراك الذين كانوا فى البصرة لحمايتها من البرتغاليين • فاحتل مراد بك القطيف غير ان اهل القطيف اخرجوه بعد ذلك وتعقبوه الى شط العرب • فجازاهم الترك على ذلك بأن غزوا مسقط وقشعم وهددوا هرمز • فقطع رأس قائد هذه الحركة بيربك فى استانبول • ولم يستطع خلفه مراد بك ان ينجز شيئا • وقد دحر قائد بعده يدعى على جلبى فى موقعة سنة ١٥٥٣ م (٩٦١ هـ) ، على ان التهديدات بقيت موجهة نحو المراكز البرتغالية • وفى ١٥٥٩ م (٩٦٧ هـ) رسا اسطول تركى ، حاملا الانكشاريين ، فى البحرين التى كان يحكمها يومئذ شيخ تابع لهرمز • فسوعد الحاكم المحلى بقوة ايرانية وساعده البرتغاليون ثانية من هرمز • فاستسلم الاتراك بشروط مهينة • وفى ١٥٨١ م (٩٨٩ هـ) استولى الضابط البحرى التركى على بك على مسقط غير انه لم يثبت فيها • وعلى هذه الشاكلة ، كان الخليج غير مفيد لحكام البصرة التى لم يقم القبطان باشا فيها بقتال المعتدين حسب الظاهر •

وكان الجار العربى الآخر للعراق والى الحويزة القوى • وما كانت سفارته التى بعثها للسلطان سليمان بالخضوع الا مجاملات احتياطية فى تلك الايام • كما كانت علاقاته المربوطة بسيده الايرانى ، مدة القرن ، تتذبذب بين العبودية والاستخفاف وبين دفع الاتاوة وابتزاز المال • وتمادى اتباعه البرمائيون فى اللصوصية والقرصنة فى شط العرب من دون ان يعبأوا بالقبطان باشا او بالبرتغاليين • وسرعان ما كان المسافرون فى شط العرب يلاحظون التحرز الشديد تجاه هذه الوقاحة • فيقول احدهم[١] : « ارسينا فى قلعة كانت فى حكم الاتراك •••• وعندهم كثير قلاع غيرها لاجل ان يحموا ارضهم وسفنهم هناك من هجمات العرب » • ولم يكن والى ذلك العهد ، مبارك ابن مطلب ، اقل انفعالا من جيرانه الترك • فقد تركت اراضيه النهرية بورا وضعف الامل لادعائه بحكم البصرة نفسها رغم اصرار العرب على ذلك • على انه ما زال ينتظر الدور الذى سيلعب فيه بشؤونها •

شهد القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر توثيقا فى علاقات باشوات العراق المربوطة بالنواحى الكردية واللرية الواقعة فى حكمهم • ففى جزيرة ابن عمر لم تطل ايام البيت الحاكم العظيمة اكثر من عمر السيد أحمد الذى عهدت اليه الموصل

---

(١) تكسيرا ص ٢٧ من الطبعة المشار اليها قبلا .

نفسها . وحكم ابنه بسلام وطمأنينة . غير ان النزاعات العائلية التى حدثت على عهد المير ابراهيم ، الذى جاء بعده ، قد أدت حسب المعتاد لفرار الخصوم الى القوات المعادية . فقد فر احدهم الى فرهاد باشا في وان لينجده ، والتجأ الآخر الى طهماسب شاه . فتدخل الشاه وقبض على المير فذبحه . غير ان حكم الجزيرة وتابعتها كوركيل كان لا يزال منتظرا توطيده بالفرمانات التركيـة لان كونهـا فى طريق رئيس ابقاها فى ضمن النفوذ الحكمى العثمانى . وقلما كان يحدث تدخل فى شؤون الاسرة المحلية اذا كانت لا تتعدى حدودها . ثم ان خضوعها لبتليس قد نسى منذ امد بعيد .

وبمثل هذا مزقت الفتن دويلة العمادية . اذ كان حسن ، اميرها البحدينانى ، قد خضع للشاه الناهض بصورة مبكرة ونال حظوة عالية منه . وبهذه المناورة قضى على البقية الباقية من الاعتماد على الاردلانيين . وبنفس الطريقة حافظ البحدينان على حالهم بانضمامهم للسلطان سليم عند اول ظهوره . واستطاع الامير التالى ، حسين ، ان يقوم بخدمة خاصة للسلطان سليمان فحافظت الدويلة بذلك مدة من الزمن على مقام الايالة . غير ان وفاة حسين زجهـا فى غمرات الحرب الاهلية . فلقد فر بيرم احد الولدين ، قباد وبيرم ، الى الشاه طالبا النجدة . واذ ذاك طردت قبائل المزورى قباد ونصبت مـكانه ابن عمه سليمان . فتدخل يومذاك أمير الهكارين زينب بك وتوسط لدى الشاه فى ان يسرح بيرم . اما قباد فقد فر الى اسـتانبول ونال عطف الصدر الاعظم فأصدر له فرمانا بحكومة العمادية . وفى الوقت نفسه نصب بيرم بك فى زاخو وسليمان فى العمادية . فوصل قباد والفرمان بيده الى دهوك فشغل نفسه بازالة اعدائه عن طريقه . غير ان سليمان تمكن من القبض عليه وتشتيت اتباعه بقوة من المزورى . فخف بيرم من زاخو الى دهوك وشيع سليمان الى القصر ، فى العمادية ، وفيها تسلم الحكومة . وفر ابنا قباد ـ سيدى خان وآخر ـ الى استانبول . فتولى مراد الثالث قضيتهما . فأعطيت العمادية الى سيدى خان وخول فرهاد باشا الاتصال بباشوات بغداد وكركوك وامراء كردستان التابعين ليساعدوه فى نصبه . وفى ١٥٨٥ م (٩٩٣ ـ ٤ م) تمكن فرهاد باشا من تسليم العمادية الى سيدى خان وذلك بتحريك عدو على آخر ، وبالدس والرشـوة ، وبمحاكمة مصطنعة بين يدى قاض للشـرع . فحكمها سيدى عدة سنين .

اخذت هذه الحوادث ، على عدم اهميتها ، من اخبار ذلك الزمن لاجل ان تتمكن

من توضيح اهم مزايا التاريخ الكردى بصورة مبتسرة • تلك المزايا التى تنطبع بالمنازعات التى لا تنتهى بين الاخوة على عروشهم الحقيرة ، وبالتجائهم السريع الى القبائل والاتراك والايرانيين • ولو توفرت المواد التاريخية وساعد المجال لامكنا ، بدون شك منا ، سرد القصة انفسها ، مع تغيير فى الاسماء والاماكن ، فيما يختص بزاخو ودهوك وعقرة وزانية وحرير وغيرها • ففى كل واد وفى كل قرية جبلية كانت نيران نفس الانقسام تشتعل بالاطماع الفردية الذاتيه وتشب بالوقود عينه من الدس والعنف • وكان الدور التركى فى هذا النزاع دور المنعم بالفرمانات احيانا والقابل للخضوع الاسمى والمجهز للقوات العسكرية • على ان من البكات الاقوياء من تمكنوا من امور حتى من صد هذه عند ما كانوا يحافظون على النغمة الصحيحة • فلم يكن هذا من الحكومة بشىء ، غير ان التجربة الحديثة تجد من الصعب النزاع على منطقة وعرة اجنبية ليس للسلطان منها فائدة بمثل هذا المستمسك الضعيف • وكانت الخطة التركية العامة المتخذة للدويلات الكردية خطة السكوت عن الاخطاء وقطف ثمار الامبراطورية اذا اينعت من دون جهد • وهى خطة كان على اى حكومة ان تتبعها ان كانت بمثل هذا الحال • وكان فى امكانها ان تنجح اكثر من هذا لو كان يدعمها من الخبرة وحسن النية اكثر مما كان يدعمها من قبل ، ولو درس الاباء والتذبذب الكرديان ، وفيما لو لم تكن هناك امبراطورية معادية تحاول باستمرار ان تستعيد متبوعيتها •

ويبرز اكثر من هذا تصادم الجوع التركى والايرانى للارض فى اودية شهرزور • فهنا لا يقاوم الامراء المحليون المستقلون الادعاءات التركية ، بل الادعاءات المقابلة من البيت الملكى الاردلانى هى التى تقاوم • فقد كان نفوذ الاردلانيين فى شهرزور مضاعف القوة • وقد ادعوا السيطرة عليه قبل ان يظهر الترك والصفويون • وكان الامير الاردلانى تابعا مواليا لتبريز منذ قيام اسماعيل شاه الا فى فترة سليم المخيف القصيرة ، وقد كان يدعى بكون كردستان الجنوبية الشرقية يومئذ له ولسيده • فعمت سطوته الجنوب والغرب الى الحدود من دون ان يصدها شىء وسيطر على بلاد شهرزور • فالزاب الصغير والاورمان والشهربازار وقره داغ وحتى « البلاد الحارة » تملكها نفوذ مأمون المبهم • وكان هذا الوضع لا يتناسب مع ادعاءات العثمانيين ووجود الحامية الانكشارية فى كركوك ومع الحاجة لضبط الطرق المؤدية الى الشرق • وكان التصادم المحلى مع موظفى الاردلانيين ونفوذهم لابد منه • وكان والى اردلان بنظر

السلطان سليمان جارا قويا غنيا ومثلا سيئا للدويلتين العمادية وبتليس الاليفتين . ولذا بعث فى ١٥٣٨ م (٩٤٥ هـ) بقوة يقودها حسين باشا لحرب مأمون فكان مع الباشا كثير من البكات الاكراد وممن كان فيهم البجدينان . وكان مقصد هذه الحملة الاستيلاء التام على شهررزو ان لم يكن ذلك على مريوان وسنه ايضا . فقاوم مأمون[١] مقاومة شريفة . وتراجع اخيرا الى قلعة « الظلم » ، فتلا ذلك التحصن . ولما وجد مأمون انه قد اضاع كل شيء فر الى استانبول ، ففيها اعتقل وعد كاسير . فخرب الاتراك ما وجدوه وانسحبوا . وهنا جدد سرخاب ، عم الهارب ، موالاته للشاه وفر من بقى من الاسرة الى تركية . عندئذ سرح مأمون واقطع الحلة الغنية ثم ارسل لمرافقة جيوش السلطان المحاربة لاعادته .

وفي غضون ذلك بعث على باشا حاكم بغداد رسوله الى العاصمة ، فاستغرب الجواب الذي ورد اليه . اذ تضمن عزله وترفيع محمد بلطجى ، الذى ذكر قبلا ، كوكيل لحاكم بغداد فى ١٥٤٩ م (٩٥٦ هـ) . على ان حملة شهرزور لم تعهد اليه بل عهدت الى عثمان باشا فى حلب فبعث لقيادة المشاة النظاميين والجيوش الاقطاعية من عدة ايالات . وارسل بلطجى محمد ، المنصب فى سراى بغداد تلك الايام ، جيشا كبيرا جهز جيدا بالمدفعية ليلتحق بقائد حلب . وجهز الرؤساء الاكراد الموالون قوات لمساعدة الباشا فى الاحاطة بقلعة سرخاب . فخابت مدافع عثمان باشا فى احداث فجوة . وكانت قوته قليلة بالنسبة لما يقتضيه الحصار الكامل . فمات من التعب والخيبة وتشتتت قواته[٢] .

---

(١) يختلف كولشن خلفا مع الشرفنامة فى : (١) جعله مأمون مجرد رهينة (١٥٣٥ ؟) اخذها السلطان سليمان من ابيه ليؤمن ولاء شهرزور . وبعد ان اشتغل مأمون فى الوظائف التركية سكن فى الحلة و(٢) حصر البحث فيه فى سنة ١٥٥٢ - ١٥٥٤ وفى البحث عن « حصارات » شهرزور من وجهة نظر بغداد فقط . ولم يذكر اردلان قطعا . و(٣) فى قوله بان الشهرزور الحقت بالامبراطورية العثمانية بعد ١٥٥٤ . اما البحث فى الكتاب فهو غالبا من الشرفنامة لكنه يأخذ من كولشن اذا لم يوجد تناقض .

(٢) هذا ما يذكره كولشن فى حملة عثمان باشا . وتتفق معه الشرفنامة فيما يختص بالقائد التركى وبالنتيجة غير الموفقة . على انها تضيف بأن القلعة المحاصرة هى قلعة الظلم وان الحصار قد سبقته حرب وانه دام مدة سنتين . وازيل الحصار بعد ذلك بقوات بعثها طهماسب بقيادة حسين بك ، ومات محمد بك الامير الاردلانى الهارب فى اليوم الذى مات فيه عثمان باشا .

وهنا يختلف مرجعانا اختلافا تاما • فيمحو المؤرخ التركى خيبة عثمان بحملة موفقة تليها تماما ، ويجعل شهرزور ولاية تركية على طول النصف الثانى من القرن • وفى روايته هذه خول محمد بلطجى فى استعادة شهرزور • فسار تاركا وراءه سهيل بك ، حاكم سنجق الرماحية ، قائم مقام بغداد • واول حملة جردها البلطجى كانت حملة ديبلوماسية ، فأمليت الشروط وفتحت ابواب القلعة على مصراعيها وترك سرخاب البلدة بأمان • وبذا اعيدت شهرزور لامبراطورية الخلفاء • فوضع الحرس الكافى مع والى بك المعين حاكما • وبهذا اعترف بالايالة ، التى انتظمت اول مرة فى ١٥٥٤ م (٩٦٢ هـ) فى ضمن الممتلكات التركية بمعاهدة ١٥٩٠ م (٩٩٦ هـ) •

اما راوية اردلان فلا يذكر مثل هذا ، فان سرخاب - على ما روى - يحفظ لنفسه اردلان ، بعد ان ينقذه سيده من ايران ، مدة طويلة كان اثناءها موضع الثقة الغالية للبلاط[1] الصفوى • وكان خضوع شهرزور لتركية ، فى هذه الرواية ، بادارة حاكم اردلانى متأخر يدعى تيمور • وذلك انه لما تحقق ضعف حكام ايران نقل ولائه الى استانبول وحصل على الفرمان والخلعة من مراد الثالث • ومنذ ذاك الحين اعترفت مملكته بأجمعها بسيادة الخليفة فى حين ان كانت اودية حرير وبازيان وشهرزور تدار امورها مباشرة من ادارة كركوك • وبذا اخذت شهرزور مكانها بكونها ولاية[2] تركية فى العقد الثامن من القرن ان لم يكن ذلك من قبل ، وظلت اردلان من ممتلكات السلطان ذات المقام العالى • وكانت منطقة تمتد لعدة اميال حوالى كركوك بدير امورها منذ البداية السنجق بكى المولى على ذلك المكان •

وفى ١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) تبدلت الرياح من جديد • فقد حاول خليفة تيمور الاستقلال ، غير انه خضع مكان ذلك للشاه عباس • وفى ١٦٠٥ (١٠١٤ هـ) اعتلى عرش الحكومة الملكية فى « سنة »[3] خان أحمد خان بكونه ملكا من الملوك التابعين لايران • واستخدمه فى الوقت[4] سيده لمضايقة القبائل الكردية التى تميل الى تركية • وكانت اول اعمال خان أحمد غزو جمهرة قبائل المكرى والبلباس وتأديبها • وفى السنين التالية لتلك اخذ رواندوز والعمادية ووضع ضباطه فيهما وفى كوى وحرير •

(١) ارسل ابنه بهرام حاكما لرواندوز فأسس فيها سلالة ثبتت مدة قرون ثلاثة •

(٢) ربما لم تكن ايالة الا بعد ذلك فى عهد سليمان القانونى •

(٣) بكسر السين • (٤) اى وقت اعتلائه العرش •

غير ان زوال حكم السلالات المحلية كانت مدته قصيرة . وكانت العشرون السنة الاولى من سنى حكم خان احمد خان مجدا اردلانيا عظيما وحظا موفقا . فقد كان يتمتع بثقة الشاه عباس المستدامة وبذا استعاد تقريبا ممتلكات اردلان القديمة . وكان ، بكل تأكيد ، مصدر خوف وحسد للباشوات فى الموصل وبغداد . وينفى المؤرخون الترك والعراقيون بسكوتهم استيلاءه الناجح على الاراضى العثمانية . على ان الحقيقة هى ان الوسائط ، التى نفرق بموجبها بين الغزو والتملك ، مفقودة . فربما لم يكن خان أحمد خان قد سلب من السلطان اراض كانت تدار امورها مباشرة من ادارة كركوك . فتحرش بتابعية الدويلات المذبذبة نصف المستقلة وبادل الفرمانات بالهدايا امراء كانت موالاتهم لا قيمة لها على كل حال . وكثير من هؤلاء من كان يحتفظ - ولا نشك فى ذلك - بكتب السلطان والشاه معا .

كانت السنون الاخيرة من القرن السادس عشر فى لرستان سنى ثورة أدت لسقوط الاتابكين . فقد كان الاتابكيون فى فارس ولرستان الكبيرة « بزرك » قد تخلوا عن الحكم منذ مدة للخانات المحليين . وفى ١٥٨٥ م (٩٩٣ - ٤ هـ) كان آخر الاتابكين فى لرستان الصغرى لا يزال حاكما . وكان هذا شاه ويردى خان الذى هاجمه تيمور خان الاردلانى فى تلك السنة . غير ان هذه السلالة لم تقو على ان تعيش امام حكم الشاه عباس الصارم ورغبته الخاصة بتامين الاتباع المخلصين على حدوده الغربية . فخلع الاتابكى فى السنين الاخيرة من القرن ونصب مكانه حسين خان وهو رجل ذو شخصية عظيمة ويعد ابرز الرؤساء اللريين . فكسبته اعماله فى الحرب والامور السلمية لقب « بزرك » اى العظيم والكبير .

الحكومة

أشير من قبل الى مشاكل العراق الخاصة من حيث الحكم وعلاقته بالقبائل والاديان ووضع الحدود . ثم سوئل بأى الآمال والشكوك كان يمكن ان ينظر الى سادته الحديثين . اما وقد قيل ما أمكن قوله فى القرون الثلاثة الاولى التى مرت على الحكم التركى فيجب محاولة وجدان جواب عن هذا السؤال : اى نوع من الحكم سوف ينتج الاتراك ؟

كانت الحياة فى بغداد آمنة غير ضنك مع فقدان ملطفات الحياة التى نعرفها اليوم

من مرافق الانس والمدارس وتنسيق الشوارع والمستشفيات • ولم تفقد اعظم المدن في التاريخ احوالها الصحية بمرة • فقد كانت الشوارع الضيقة المظلمة بمقام نصف الاحتياطات المتخذة للاحتماء من شدة القيظ • وكان السكان الموطنون في العراق يعتزون في جميع الادوار بمدنهم وقراهم ، ويودون الاختلاط الاجتماعي المؤنس الساذج • ولم تكن البلديات التي على أحدث الانماط قد وجدت بعد ، غير انه كان يوجد في كل مكان مجلس غير رسمي مؤلف من السكان البارزين • وكان زعماء الطب السادة الذين كان دواؤهم الوحيد القرآن ، والحلاقون المستعدون بمواسيهم ومباضعهم ، والفالون الايرانيون الذين يصفون للمرضى الاعشاب احيانا • وكانت التربية يتلقاها الطلاب تحت اقدام الملالي في مدارس الجوامع التي أسسها السلطان او التي عانت ما عانت في سبيل البقاء • وكانت واجبات الشرطة على عاتق الحامية الانكشارية التي يساعدها الحراس الخاصون ممن يعينهم التجار • وكان القاضي ، وهو الوحيد للامور الجنائية والشرعية ، لا ينظر في حكمه الا الى القانون الشرعي اعني الفقه • فلم يكن عجيبا ان يكون التفسخ والحالة هذه عاما • غير ان ما نسمعه من الرحالين[1] من وجود الشرطة الشهمين الشفقاء يدلنا بلا شك على وجود النادر من القضاة العقلاء النزهاء • وفي مثل هذه الامور كانت نغمة الخدمة العامة تتبع بتدقيق شخصية الباشا المتولي وقتيا •

وعلى هذا كان الحكم في المدن سلفيا (محافظا) ان لم يكن تقهقريا • وكان الضغط الديني هنا أقل منه في اى مكان آخر في تركية • وان كان قد وجد شيء من الارهاب والاغتصاب فلم يكن ذلك مختصا ببغداد ولا بتركية ولا بذلك العصر • وكان اليهود والنصارى يدفعون جزية معتدلة لملتزم الضرائب • اما المسلمون فكانت ضريبتهم تؤخذ من الكمارك والدخوليات التجارية والرخص ومن حاصلات التمر والغنم ثم من المكوس ورسوم السوق على الوزن والبيع • ولم يكن الباشا اقتصاديا ولا كانت الضريبة على اية قاعدة كانت سوى قاعدة الحد الاعلى والحاصل المقصود •

وليس عندنا الا القليل من البراهين الدالة على وجود الحكومة بين القبائل • وان تمرد القبائل البصرية مما نجده مدونا يدل على احوال تشابه الاحوال السائدة في القرون المتأخرة • وربما كان ذلك اكثر شدة لان الذى كان يحاول ضبطها كان غريبا • وكان المسافرون من سورية يدفعون من الرسوم اكثر مما كانوا يدفعونه

(١) تكسيرا ص ٦٧ في بحثه عن ١٦٠٤ •

للحكومة وهم على علم بأن التذمر كان شيئا لا تحمد عقباه . وكان عطف الباشا او الاغا هنا وهناك ـ بالخلعة او منح الالتزام او المعونة بحرب قبائلية ـ يقصده بعض الشيوخ فى الديرات النائية . ولم تكن الوعود ولا المعروف يكلف شيئا حتى نحو من هو بعيد فى السهل او الهور . غير انه كان من الخطل البحث عن الطاعة النظامية والخضوع بولاء .

وكانت الحامية العسكرية فى هذا القرن تختلف باختلاف العلاقات مع ايران . فقد كان التوقيع على ميثاق الصلح فى ١٥٥٥ م (٩٦٣ هـ) وفى ١٥٩٠ م (٩٩٩ هـ) يتلوه تسريح الجنود المستأجرة ، ورجوع سريات الانكشاريين او السباهيين الى استانبول ، وصرف الجيوش الاقطاعية الى مكانها . اما فى سنى السلم فلم يكن احد من الباشوات ينفق ما فى خزينته فى اصلاح الحصون . الا ان القوات المسلحة كانت المعين الناعش للحكومة فى جميع الاوقات . ولاجل فرض شىء من السلطة وقمع الحركات العشائرية كانت الحاميات ضرورية لكل بلدة . وكانت البلدان بأجمعها مهما كان حجمها بها حاجة الى سور طينى قوى فيه ابراج منقبة . وكان عند كل من حكام المدن العواصم الاربع ثلة من المرافقين الشخصيين المسلحين وكتيبة او اكثر من الحرس المجند محليا والمسلح بالبنادق التى كانت موجودة يومذاك . وكان هؤلاء دائمين ويتقاضون الاجور ، غير انهم كانوا من الجيش المحلى ولا ينتمون للجيوش الامبراطورية[1] . وكان يكثر من هذه عند الحاجة اليها رؤساء التيمار[2] . ولاجل تجريد حملة ما كان يجند الجند المأجور موقتا من العرب المدنيين والاكراد القرويين . وعلى ملتزمى الاقطاع المتجمعين فى سنجقهم ان يقدموا المساعدة المفروضة عليهم . على ان قوام كل هذه التشكيلات كان

---

(١) ان الاسس العامة للقوات العسكرية التركية تميز بين الجيوش الامبراطورية والمحلية . فالاولى وهى الـ « قبو قولى » كانت وحدة مركزية تعار او تعين موقتا فى الولايات . وكانت هذه من الانكشاريين ومن هم احط منهم رتبة من الصكبانيين والبستانجيين وغيرهم ممن ضم الى الانكشاريين مؤخرا . ومن النظاميين (لا الاقطاعيين) كالسباهيين والطوبجية والجيبهجية والسقائين . اما الجيوش البلدية فقد كانت تضم الحرس الشخصى والجنود المأجورة والوحدات العشائرية لاحد الباشوات . ثم القوات الاقطاعية ايضا من الوجهة العملية مع ان صبغة هذه امبراطورية فى الحقيقة .

(٢) راجع قائمة الكلمات الغريبة فى آخر الكتاب (المترجم) .

جيش السلطان المدبر الذى يدير اموره ضباط السلطان نفسه لا ضباط الباشوات . وكان المدفعيون الامبراطوريون هم الذين يعتصمون بأكبر الحصون فيزيدونها قوة كما كان المشاة الامبراطوريون - الانكشاريون - موجودين فى كل سنجق . وكان هؤلاء بنظر العراقيين اقوياء بتدريبهم واسلحتهم ومكروهين من جراء جورهم ونزاعهم . وكان واجبهم فى الولاية ان يدعموا الحكومة . فقد كانوا هم الشرطة فى البلد والرسل الرسميين وجباة الضرائب حين تدعو الحاجة للقوة والاضافة ، زيادة على كونهم الجيش الموجود فى كل مكان . ولم يجرب الاختصاص المتقن فى الوظائف . الا انه لم يحن فى ذلك العهد اليوم الذى يعيش فيه الانكشارى باى مكان وجد وعلى اية حالة كانت مع كونه منخرطا فى سلكه . ومن المحتمل انه كان فى بغداد ، فى هذا الوقت ، الف او الفان منهم ، وفى مراكز الايالات الاخرى نصف هذا العدد . وكان يزاد عددهم او يبدلون احيانا بالوحدات التى هى اذل منهم منزلة كالصكبانين وغيرهم . وكانت الجيوش الامبراطورية تتقاضى اجورها ، كالمحلية ، من خزينة الباشا ولكن باسعار امبراطورية .

وكما كانت الحكومة الامبراطورية ملكية اوتوقراطية موافقا عليها موافقة دينية كانت الحكومة فى كل ولاية حكومة مطلقة . وكان فى الولايات النائية على الاخص قليل مما يمنع الباشوات الحاكمين من « الحكم حسب اراداتهم واهوائهم » كما يقول احد السياح . ولا غرو فى ذلك فاذا فقد المبدأ الحكومى الحقيقى الرحيم ، واذا انعدمت الرغبة فى حكم شعب خاضع بمصلحته فان روادع الحكم الجائر لاجل الغنى الشخصى تكون قليلة . وكان فى الامكان ان تستعمل الموافقة الدينية سببا لمعاملة الاجانب معاملة قاسية . وكان الباشا مسوقا بدافع نفقاته الباهضة لديوانه الى الضغط على الشعب عامة بطريقة جائرة . على ان هذا لا يعنى انعدام الوازع البتة . فقد كان وجود القاضى المعين سنويا الراجع الى العاصمة بعد انقضاء المدة شاهدا دائما بأساليب الباشا وطريقته فى الحكم . وكان الدفتر دارية ، على نفس الشاكلة ، يعينون من استانبول واليها يعثون بحساباتهم ، الا انهم من حيث العمل يجدون انفسهم مدفوعين لمساندة الباشا الذى حياتهم بيديه . ولم تكن استغاثة جماعة من التابعين انفسهم بالسلطان غير مجهولة . على ان الديوان كان يستشار احيانا ولا يستخف به تماما . فتشير المصادر التاريخية الى ان موظفا دائما فى بغداد وحلب كان يبعثه السلطان نفسه ليشرف على مصالح التجار ، كما انه كان

فى امكان تجار البصرة ان ينصفوا باستعداء الوكيل البرتغالى فى العاصمة على من ظلمهم • واخيرا كانت حالة الانكشاريين نصف المستقلين تحدد تصرفات الباشا الذى لم يجدوا ما يبعثهم على مجاملته • وكان اقوى هذه الروادع كافة الحد الاقصى الذى كان يصل اليه تحمل الشعب • ولم يكن هذا ببعيد على بلاد ملأى من القبائل الشرسة الشابة عن الطوق • وكذلك لم يكن بوسع اى باشا كان ان يقف تجاه ثورة عامة وقفة المقاوم •

كان تعيين الباشا يتجدد معنويا كل سنة ، الا ان الوجهة الصورية فى الامر هى ان الموظفين الكبار كان لا يمكن تبديلهم لان قسما منهم كانوا موالين ومفيدين وقسما آخر كانوا يشترون المناصب لمدة اطول من المعينة • وكان السبب الاخير هو الاعتبار السائد فى مثل هذا الشأن • فان تعيين بكلربكى لحكومة عظيمة ـ القاهرة او بغداد او تبريز ـ كان امرا مشرفا وعظيم الفائدة • ويحدث فى كثير من الاحايين ان السلطان لا يقوى على مقاومة المرشح الذى دفع مبلغا جسيما من الواردات سلفا • وبذا كان الانتقال سهلا من هذه الى الرشوة الصريحة ، وكانت نتيجتها النهائية فى الحكومة لا تخرج عنها • فكان هم الباشا الجديد ، خلال مدة تزيد على الثلاثة قرون ، ان يقسم الاراضى فى ولايته الى العدد المعتاد من المقاطعات القابلة للزراعة فيؤجرها أعلى المزايدين • ولم يكن الفرق واضحا بين الحكام والزارعين ، حتى انهم احيانا كانوا يجمعون بين المهنتين • فكان هذا السنجق بكى او ذاك ، وذلك الاغا او الضابط يأتى بمائة من انكشاريته الى الحلة مثلا ويؤجر اراضيها وضرائبها ثم يستعمل قوته فى اجبار الناس على الدفع او يضمن الضرائب الى الجباة القاسين •

والواقع هو ان الادارة فى الولاية كانت فى دور انتقالى بين اصلها بكونها مجموعة اقطاعية ، ومصيرها الاخير بانها حكومة اعتيادية • فقد كانت علاقات الحاكم المربوطة بسيده السلطان من حيث جمع القوات تحت لوائه كعلاقة البكلربكى القديم • فهو يدعو السناجق التابعة له وتدعو السناجق نفسها الزعماء ورؤساء التيمار ثم ان هؤلاء يدعون اغوات البلدان الصغيرة والشيوخ المطيعين • غير ان الباشا فى هذا العهد كان اكثر من رئيس للجيوش الاقطاعية المؤجرة • فكان جابيا لواردات السلطان ايضا ، وسادن العتبات المقدسة واوقافها ، وسيد القصر وجماعة الوزراء ، ورئيس مجلس • وهو المسؤول عن جميع الاعمال ، حتى الطفيفة منها ، تلك الاعمال التى تقوم بها حكومته الملكية والعسكرية • وهو يعيش من اول دخوله المهيب الى حين تبديله او تحويله عيشة الامير المستقل •

الفصل الثالث

الصوباشي والسلطان مراد

بكر الصوباشي

ان كان العراق قد وقع في هذا العهد ، بعد مرور سبع وثمانين سنة على فتح سليمان القانوني له ، فريسة للانفصال السلمي من جهة وللخيانة المنتهية باحتلال فارسي ثان من جهة اخرى فان سبب ذلك يجب ان لا يبحث عنه في الولاية نفسها فقط . فان بعده ومشاكله الخاصة به توضح لنا قسما كبيرا من الاسباب . كما ان ضعف الامبراطورية العام لم يكن اقل تأثيرا في تمهيد الامر لذلك الوضع . لان التوقيع على معاهدة الصلح في ١٦١٩ م (١٠٢٩ هـ) مع ايران لم يعقبه سلم في تركية . وكان السلطان مراد الرابع في تلك الايام لا يزال طفلا ، ثم ان اسلافه الضعفاء سمحوا للفوضوية انتجمع قواها من كل جهة .

« وكان الثائر اباظة سيد آسية الصغرى وطاغيتها . وكانت القبائل اللبنانية في عصيان علني . وكان حكام مصر وسائر الولايات مترددين في ولائهم . واصبحت حاكميات البربر في حكم المستقلة .... وظهرت اساطيل القوزاق السلابة ... حتى في البوسفور وعاثت نهبا في ما جاور العاصمة نفسها . وفي القسطنطينية نفسها كانت خزانة بيت المال فارغة ، ودار الصناعة معطلة ، والعملة النقدية لا رواج لها ، والمخازن خاوية ، والسكان جياعا ، والجيش مشتتا »[١] .

وفي بغداد ، وكانت الزاوية النائية من الامبراطورية المرتبكة ، كان اغتصاب الصوباشي للحكم ممهدا لتسليم العراق الى الشاه مدة نصف جيل[٢] . ومن اجل هذا

---

(١) ما كتبه كريس ص ٢٤٦ .

(٢) ان الدور الذي قام به الصوباش هو أشهر الادوار في تاريخ العراق الحديث . واخباره بكل تفصيل في ما كتبه كولشن وفي المراجع التي استعان بها الفون هامر (الكتاب التاسع ص ٥) وهذان المرجعان مستقل احدهما عن الآخر ويختلفان كثيرا في التفصيل . راجع ايضا كتاب « رحلة الشرق » لمؤلفه ر. ب. فيليب ص ٨٧ – ٨٨ . وفيما يخص ايران راجع « تاريخي اعلاى آرائي عباسي » لمؤلفه اسكندر بك تركمان .

وحده اصبحت الحادثة الشهيرة هذه مهمة . اما فى تاريخ البشرية فهى تستحق ان تكون اسطورة من اساطير الخيانة الغريبة .

كان بكر من انكشاريى بغداد . فاوصله الترفيع الى درجة صوباشى[1] ، او ملازم فى الشرطة . ثم صار رئيسا فى سريته ، وصار له من بعد ذلك مقام ممتاز فى الحامية . وقد اجتمعت ثروته ومحالفاته بطموحه الذى لم يكن يعرف الرحمة فعظم شأنه كثيرا .

---

(١) ان هذا اللقب مهما كان اصله او معناه الذى يؤدى معنى « موظف رى او محافظ على ماء فقد أصبح على ذلك العهد لقبا من القاب الشرطة . انظر ما كتبه الاب انستاس حاشية (ص ١٧٩) ، وما كتبه تكسيرا (ص ١٠٣) ، وما كتبه هارت ص ٤٨ . (المؤلف) قال مصطفى جواد : صوباشى تحريف سباشى الكلمة التركية القديمة قال الخوازمى فى كتابه « مفاتيح العلوم » : « سباشى هوصاحب الجيش » .

وكان هذا الاصطلاح اللقبى لرئيس الجيش فى عهد البويهيين ايضا قال ابن الاثير فى حوادث سنة ٤٠٨ هـ من الكامل :

« وفيها توفى الحاجب ابو طاهر سباشى المشطب وكان كثير المعروف » وذكره الصفدى فى « الوافى بالوفيات » فقال :

« سباشى التركى ابو طاهر الحاجب الملقب بالسعيد ذى الفضيلتين مولى شرف الدولة أبى الفراس بن عضد الدولة أبى شجاع الديلمى ... كان كثير الصدقة متفقدا للفقراء قال محب الدين ابن النجار : حتى ان اهل بغداد الى يومنا اذا رأوا على احد ثوبا جديدا قالوا : رحم الله السعيد ، كان يكسو المساكين وهو الذى بنى قنطرة الخندق ... وسد بثق الخالص وحفر ذنابة دجيل وساق منها الماء الى مقابر قريش (الكاظمية الآن) وعمل المشهد بكرخ زادويه قرب واسط وحفر المصانع (خزانات الماء) عنده وفى طريقه وله آثار بطريق مكة ... وتوفى سنة ٤٠٨ ثمان واربعمائة » .

وللمحقوسق يعقوب سركيس كلمة ايضا نشرها فى مجلة الشهباء الحلبية رد بها قول من قال ان السباشى هو رئيس مزودى المدينة ماء « وابان انها وظيفة انضباطية كوظيفة مدير البوليس اليوم (كذا) معتمدا على دائرة المعارف الاسلامية والدكتور والتر الذى طبع كتابه سنة ١٨٦١ وغيرها وذكر ان اهل الحلة اليوم يسمون الوكيل فى البستان « شوباصى » . وهى عندى تحريف « سوباغى » اى رئيس البستان لا من اصل « سوباشى » .

فكان الف ومثنا عزاب [١] طوع اشارته . وفى ١٦١٩ م (١٠٢٩ هـ) تعالت سلطته فتفوقت على سلطة الحاكم الضعيف يوسف باشا . وبذا كان ملك بغداد غير المتوج الذى يوحى بالاخلاص او بالكراهية ، والمعرض لدسائس الحساد . ودفعت به شؤونه فى ١٦٢١ م (١٠٣١ هـ) مع قوة من العزابين والانكشاريين الى منطقة الفرات الاسفل . فى حين ان كان موظفو بغداد يرقبون حركته الى هناك برؤوس منغضة ، وكان لهم متسع من الوقت يتأملون به اطماعه وجوره وحالهم من ورائه . وكان رأس المتذمرين خصم له قديم هو محمد قنبر . وكان فى امكان قنبر ان يعتمد على تأيد قوى فى كراهية هذا القرظ « الحديث النعمة » . ولذا دعى الضباط واشراف المدينة الى اجتماع سرى . وهناك اتفق الجميع على خلع الصوباشى . فنقلت اخبار هذا الائتمار الى كهيته عمر والى ابنه محمد [٢] . فلم يكن فى وسع عمر ان يعترف بما كان يكنه من ولاء للصوباشى ، فتظاهر بان يعرض قضية عزله على الباشا . على ان هذه الاعترافات الظاهرية لم ترج على المتآمرين ، فقد كانوا يشعرون بان عمر هو يد الصوباشى اليمنى ويجب ان يكون اول من يقضون عليهم . فلازم قنبر بنفسه يوسف باشا . فافهمه باحزاب بغداد ، وبأن عمر مع اتباعه الكثيرين يجب ان يعتدوا من حزب بكر ، وان اطماع بكر لا يمكن ان تقف عند الباشوية بل تجاوزها . فاغرى يوسف باشا به ، غير انه حاول بكل سخافته ان يغنم عمر بأن يدر عليه شتى الانعامات . فاضيع الوقت الثمين . وجمع حزب الصوباشى اتباعه بقيادة عمر ومحمد ، ثم اغلقوا الابواب وحاصروا الشوارع واستولوا على ابنية ذات مواقع تعبوية . وكابدت قطع جيش الباشوية المخلص ، المتجمعة فى الميدان والقلعة ، خسائر فادحة . وأدى خروج رجال الباشا هاجمين الى نشوب معركة حامية فى الشارع انتهت بانتصار الثائرين . وشدد نكير الحصار على القلعة .

واذ ذاك رجع قنبر الى تدبير آخر . فارسل بصحبة رسول سرى مسرع كتابا

---

(١) هذه ثلة من الجند وكلت اليها مخازن البارود أصلا . لكنها هنا تدل على قسم من الجيش المستأجر الخفيف الاسلحة والحركات .

(٢) ان الدور الذى قام به ابنه محمد مشكوك فيه . وتذكر الروايات التى اعتمد عليها الفون هامر انه شريك فى المؤامرة ثم قائدا للهجوم الذى شن على يوسف باشا فى قلعته . غير ان كولشن يعتقده مواليا لابيه . وهذه هى الرواية التى اعتمدنا عليها فى هذا الكتاب . ومن المحتمل ان ما كتبه الفون هامر كان مستندا الى خيانة محمد الاخيرة .

لابنه الذى كان فى الحملة مع بكر ، وطلب اليه فيه ان يقتل بكرا . غير ان الكتاب وقع بيد الصوباشى وكانت حملته على العشائر قد انتهت بالنصر . فسار مذعورا الى بغداد ، وعبر دجلة تحت وابل شديد من نار القلعة التى ضعفت فيها آمال المحاصرين بالتدريج ، ثم تلاشى رجاؤهم بالكلية عندما قتلت رصاصة طائشة يوسف باشا .

فاستسلم قنبر لخصمه القديم بعد ان وعد بسلامة روحه . ولم تبق جيوش بكر المتدفقة الى داخل القلعة شيئا ولم تذر . وفر قليل من جند الحامية الى الشوارع والى البادية ووقع الكثير منهم فى الاسر . وأبدى بكر لقنبر وابنيه منتهى الكراهية والانتقام القاسى . فقد قيدوا بالسلاسل ووضعوا فى زورق مملوء من الكبريت والقار ثم احرقوا فماتوا أشنع موتة . وبذا شفى بكر غليله بقتل اعدائه برؤية العين وسمع الاذن حتى غطست آخر ذرة من الرماد فى دجلة . ولاقى سائر الاسرى مثل ذلك من سوء المصير . فرددت ألسنة الناس يومذاك اسم هولاكو وتيمور . وكان بين الضحايا البشرية مفتى بغداد الموقر . وغدا الصوباشى سيد بغداد غير منازع واعتمد على خزائن السراى .

على ان هذه لم تكن النهاية ، فان استانبول لم تسمع بهذه الوقائع . وفى غضون هذا أبرز بكر فرمانا مزورا وأعلن تعيينه للباشوية . وراسل فى الوقت نفسه حافظ احمد باشا ، بكلربكى ديار بكر ، والسلطان نفسه . وقد ذكر بكتبه هذه انه أنقذ بغداد من الانشقاق والعنف وخلص الامبراطورية من الخائن يوسف باشا ، وطلب حاكمية بغداد مكافأة له . وبينا كانت رسله لا يزالون مجدين فى السير نزلت على المدينة ضربات قوية . فقد سبب الخوف هروب كثيرة من الفلاحين الى البادية ، وشحت الامطار ، فحلت المجاعة . وتقاطرت من نجد الالوف الجائعة مما زاد فى شدة وطأة المجاعة المميتة فى اواسط العراق . وتلا نهب مخازن الذخيرة كل انواع المنكر . ولم يخل الحال من أكل الناس اللحم البشرى . وبعد اسابيع مفعمة بالتعاسة انفرجت الازمة . فقد تزودت بغداد الطعام من القطعان الواردة من ايران وما حمل على الاكلاك المشحونة من الموصل .

ووصل فى ذلك الوقت رسل الصوباشى الى ديوان السلطان . ولم ترج تدابير الصوباشى على الصدر الاعظم المير حسين ، فأنعم بحاكمية بغداد على سليمان باشا . ثم أرسل رجلا يدعى على آغا بوظيفة متسلم ليتسلم بغداد ويحفظها حتى وصول الحاكم

الحديث ، وبعث بالاوامر الى حافظ احمد فى ديار بكر ليساند سليمان باشا بجيوشه . فوصل على آغا الى بغداد ، غير ان الصوباشى لم يتورع عن قتله .

ووصل فى تلك الايام سليمان باشا الى ديار بكر حيث كان حافظ احمد قد جمع باشوات الموصل وشهرزور ومرعش وسيواس . وكانت قوته مؤلفة من عشرين ألف مقاتل . وانضمت اليه قطعات البكات من الاكراد . وفى مجلس حربى عقد بعد ذاك فى ديار بكر شرح ضباطه اوجه الخطر فى الحملة . فاستدل حافظ احمد على فساد تلك التحذيرات وأمر بالمسير . ثم تريث الجيش فى الموصل ، فاستعرضت فيها القوات الكردية . ووصلت قطعات العمادية وسيواس ، وانتظر طويلا وصول قطعات اورفة ومرعش . وبدأ الجيش فى الموصل يعانى وطأة المرض . وبلغ حافظ احمد ان الناس فى استانبول بدأوا يتهامسون بانه نكص عن بغداد خوفا من المتمرد او ارتشاء بذهبه . فلم يسعه – والحالة هذه – ان يتأخر اكثر مما تأخر . فتحرك الى كركوك ، ومن هناك بعث قبله جيشا مع سليمان باشا وبستان[1] باشا وبصحبتهما رؤساء آل سوران الشرفاء . وبعد وقفة فى بهرز وصل هؤلاء سور بغداد وخيموا فى شمال المدينة بالقرب من الاعظمية[2] .

اما الصوباشى فقد بقى داخل السور فى اول الامر ، ثم هجم هجمة مفاجئة على محاصريه ففرقهم وازاحهم الى معسكر ابعد من الاول . وانتهت معركة عنيفة وقعت فى اليوم الثانى بانتصار الثائر . ثم انسحب الى داخل السور ، وجمعت قوات السلطان شملها فخيمت بالقرب من ديالى . وبعد ايام قلائل انضم اليها حافظ احمد وقسم كبير من الاتباع الاقطاعيين الذين كان فيهم جميع الحكام الوراثيين للدويلات الكردية . وكبس السردار بهجومه حالا ، وبخدعة مدبرة استدرجت حامية المدينة الى الفضاء . ثم دام القتال بين الجيشين مدة يوم وليلة تخلصت بعدها الحامية راجعة الى داخل السور وتاركة ورائها فى الميدان اربعة آلاف بين قتيل وجريح . وحرض الرؤساء الاكراد قائدهم على متابعة الهجوم الى الداخل حيث امتلأت المدينة من البكاء والعويل . غير انه

---

(١) والى الموصل فى (١٦١٩ م ١٢٩٦ هـ) (تقويم الموصل) .

(٢) وفيما يختص بالحركات التالية ترجح رواية الفون هامر (المبنية على روايتى نعيما وبشاوى) على رواية كولشن التى تتضمن اشكالات طوبراغرافية ووقائعية .

رفض هذه المشورة الصائبة ورجع الى معسكره . وأظهر صرامة حكمه للمدينة التي حكم فيها مدة من قبل بذبح الاسرى ذلك الذبح الطائش وبقطع رؤوس الموتى . وأضاف الى اشمئزازه الشغب الحاصل بين اتباعه غير النظاميين فأزاله بسخائه بعد شق النفس .

وكانت المفاوضات قد جرت من قبل بين القواد من الطرفين . فلم يقنع بكر من شروط الصلح بغير الباشوية ، ذلك الامر الذي لم يدر في خلد احد . ثم قل الطعام في بغداد وضعفت الحامية . فالتجأ الصوباشي لدوره الرفيع في الخيانة ، بان بعث رسلا الى ايران حاملين مفاتيح المدينة الى الشاه عباس . فقوبلوا بزائد السرور . ثم أرسل بالاوامر المستعجلة الى حكام كرستان وأردلان وافشار التابعين للشاه بالانضواء تحت لواء صفي قلي خان حاكم همذان . فكون منهم جيشا سار به بسرعة فوصل الحدود ، ولم يدخر اي وسع في اغتنام هذه الفرصة ، التي نزلت من السماء ولم تكن في الحسبان ، لاستعادة العراق وعتباته المقدسة .

وبينا كان اول جيش ايراني على مقربة من شهربان بقيادة قرجغي خان ، ورسول الايرانيين قد وصل بغداد واستقبل فيها ، اتصل الصوباشي بقائد القوات المحاصرة وطلب اليه الاتفاق على دفاع العدو عن بغداد وهو العدو المشترك . فكرر ارسال المتفاوضين بينهم . الا انه لم يكن في وسع حافظ ان يعترف بهذا المغتصب كبكلربكي على بغداد ، كما لم يقنع بكر بأقل من ذلك . فتأيد الخطر الايراني حينما كانت الجيوش المحصورة في الداخل قد نهكت قواها وتقرحت اقدامها . ثم وصل رسول من قرجغي الى المعسكر التركي معلنا ان « بغداد قد اصبحت ايرانية ، فهل للباشا ان ينسحب من جوارها ليدوم السلم بين الامتين ؟ » فرد عليه السردار يقول « ان هذه ليست بارض ايرانية ونحن نقوم بواجب هو تأديب ثائر ما » . فعاد الايراني الى سيده مرددا كلمات الوعيد .

وكان لابد من وجدان حل للوضع المتأزم لتقاطر جيوش الشاه الواردة من الشرق . فعقد المجلس واستقرت الآراء على منح بكر الباشوية . ونظم بعد ذلك حافظ احمد - السياسي التركي الصميم - فرمانات بمعنى مخالف ، وهي تسمية بكر حاكما للرقة . غير ان حامل هذه الوثائق الى الصوباشي قوبل بهياج ونكير ، واستطاع بعد لاي ان

يهرب ليخبر مرسله بالرفض الشديد . وبقى السردار على امتناعه من الاجابة الى الامر الاخير لولا انه وصلت اليه انباء لم تطل له فرصة الرفض . فقد جاء جاسوس او هارب بانباء مفادها ان بكرا أخذ يسك النقود بأسم الايرانيين . فانجلت خيانته وصارت واضحة للعيان ، على ان الوضع لم يكن اقل حرجا من ذلك . اذ بات من الواجب ان تصد جيوش الشاه . وبذا قلد خائن رذل باشوية بغداد العظمى .

الاحتلال الايراني الثاني

كانت بعثة صفى قلى لا تزال فى بغداد . ولما كانت توجس خيفة من العدو المرابط فى الخارج أصرت على حصول جواب نهائى من الصوباشى . فما كان منه ، بعد ان حصل على الفرمان بيده ، الا ان أملى رسالة ملأى بالاغراق فى التحقير والتهكم . فوصلت الى صفى قلى الذى قرأها باندهاش وغضب . ثم أرسلها الخان الى الشاه الذى دعا قواته من كل ولاية لتوافيه على الحدود . وفى هذه الاثناء كان الصوباشى يصلب الايرانيين منكسين الى اسفل من اسوار بغداد بقسوة متناهية . اما حافظ احمد فقد قفل راجعا الى الموصل .

ظهر قرجغى خان امام الاسوار فطلب الاستسلام . غير ان بكرا أجاب بكل طلاوة ورقة بأنه مستعد لدفع نفقات الحملة الايرانية ليس الا ، وليس من الممكن تسليم بغداد . فوصل الشاه الى بغداد والموسم الحار لسنة ١٦٢٣ م (١٠٣٣ م) كان قد بدأ منذ حين . فوجد ان جيش الحامية قد اندحر بشدة عند اول اشتباك . ولم تجد الرسائل اليائسة التى بعث بها الصوباشى الى ديار بكر واستانبول آذانا صاغية . وأخذت المجاعة شكلا مروعا فى المدينة . اذ أكل لحم الكلاب والاطفال وجثث الموتى . فضغط الحصار بشدة وامتلأ الجو بدوى الالغام المتفجرة .

بدأ الشهر الثالث للحصار . وكان الهاربون من المدينة الى المعسكر الايرانى يتسللون ليلة بعد ليلة ، وكان من جملتهم اقارب الصوباشى نفسه . وبواسطة هؤلاء فتح محمد ابنه ، الذى كان دفاع القلعة مناطا به ، مفاوضات سرية مع الشاه . فوعد بولاية بغداد جزاء للخيانة الدنيئة التى كان يفكر فيها . وفى الليلة الثامنة والعشرين من شهر تشرين الثانى لسنة ١٦٢٣ م فتح الابواب . فدخلت منها الى المدينة الالوف من

الجنود الايرانية[١] . وما حل فجر تلك الليلة حتى كان كل سطح وكل منارة ترتفع فيها اصوات الطبول الايرانيـة . فنودى بالشاه ، ووعـد بالامان ، وازيل الرعب ، وفتحت الاسواق .

وان كان احد يستحق الموت الشنيع فانما هو الصوباشى نفسه . فما ان جيء به مكبلا بين يدى الشاه حتى رأى ابنه محمدا جالسا بانتصاب الى جنب الشاه فانصت الى تقريعه وتأنيبه . ولم تترك اية وسيلة وأى نوع من القسوة فى تعذيبه وقتله فى وقت كان محمد ابنه يرى ذلك رأى العين ويساعد فى تنفيذه .

لم يكن الامان الذى وعدت به المدينة الا خدعة . فقد طلبت جميع الاسلحة وقبض على جميع الجنود وآلاف من السكان السنيين ، واستعمل التعذيب للاغنياء . وان مئات

(١) قوله « وفى الليلة الثامنة والعشرين من شهر تشرين الثانى سنة ١٦٢٣ فتح الابواب فدخلت منها الى المدينة الالوف من الجيوش الايرانية » نقول فيه ان ياسين بن خير الله العمرى قال فى الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون قال : « وكان باكير قد ترك بالقلعة ولده محمد بك فلما رأى محمد الغلبة أرسل للشاه عباس يطلب الامان لنفسه ويسلمه القلعة فأمنه وفتح محمد باب القلعة ليلا وادخل عسكر الشاه اثنين اثنين حتى امتلأت القلعة ولما اصبح الصباح دقت طبول الشاه بالقلعة فأيس المسلمون من الحياة ودخل الشاه عباس بغداد ووضع السيف فى المسلمين وقتل الخبيث باكير واخاه على اغا القاضى والنائب السيد محمد وقتل من أهل بغداد ما يزيد على اربعين الف نفس ثم نادى الشاه بالامان وجمع كتب أهل السنة والقاها فى الدجلة حتى مشى عليها الناس ثم أمر بهدم قبة الامام الاعظم وقبة الشيخ عبدالقادر الكيلانى وملك بغداد ... » .

فقول ياسين العمرى « ادخلهم اثنين اثنين » يستوجب ان يكون ضيقا وقد اوضح حقيقة الادخال المؤرخ البغدادى احمد بن عبدالله البغدادى فى تاريخه « عيون اخبار الاعيان ممن مضى فى سالف العصور والازمان » فقال : « فقام بكر باشا بحفظ القلعة أحسن قيام لكن ابنه درويش محمد بعث خبرا الى الشاه عباس : انى اسلمك البلاد ان انعمت بها على . فوعده الشاه بذلك ففتح له « باب السر » التى فى جانب الشط فدخل منها نحو عشرة آلاف شخص وضربوا البوق وقت السحر فلما تمكنوا من البلاد مسكوا بكر باشا وقتلوه اشر قتلة وقتلوا القاضى نورى افندى وقتلوا من اهل السنة والجماعة خلقا كثيرا ولقد رأيت جما غفيرا ممن ادرك هذه الوقعة وكانوا يقولون : ما سلمها درويش محمد للبلاد طمعا فيها ، بل لما رأى من القحط والغلاء حيث اكلت الناس الكلاب . ثم ان الشاه اخذ درويش محمد الى العجم وعين له مرسوما يعيش به فبقى هناك الى ان هلك » فالدخول كان من باب الشط السرى ولا تزال آثاره باقية . « م . ج » .

ترك الواجب . ولم يصادف خسرو باشا فى خريف ١٦٣٠ م (١٠٤٠ هـ) نجاحا أحسن . وبقيت الحالة على ما كانت عليه حتى قيض الله لبغداد ان فتحها بادشاه مخيف بعد ان سار بنفسه الى العراق مع خيرة القوات الامبراطورية .

بقى حافظ احمد مدة طويلة فى ديار بكر ولم ينفك عنها منذ تعيينه فيها ، حتى ان براءة الصدارة العظمى التى تقلدها وصلت اليه وهو فى ولايته هـذه . وفى ايار ١٦٢٥ م نصب مخيم جيشه خارج ديار بكر ، ذلك الامر الذى دل على عزمه فى السير الى بغداد . وضربت الضربة الاولى من بعد ذلك عند ارساله جركس حسن لمناوشة الايرانيين فى كركوك حيث هزمت قـوة صغيرة من الجركس العشـرة الآلاف من الايرانيين واحتلت كركوك . وبذا طهرت اودية شهرزور من قوات الشاه ان لم نقل من نفوذه ايضا . وتولى بستان باشا ثانية حكومة الولاية .

وقضى جيش الوزير الرئيس الصيف فى المعسكر حيث وردت انباء تفيد ان جند حامية بغداد رخص لهم فى زيارة النجف بمناسبة احدى الزيارات الكبرى ، وبذا ظلت المدينة مفتقرة الى معظم المدافعين عنها . وبناء على هـذه الاخبار ارسل الياس باشا ، بكلربكى الاناضول ، مع قوة خفيفة ليقطع طريق ما بين بغداد وكربلا بغية منع المدافعين عن الرجوع . ففشلت المحاولة ، غير انه مما لا شك فيه ان ذلك العمل اضاف الى ضعف ثبات الايرانيين فى الفرات وطرد حاميتهم مدة من الزمن . وفى هذه الاثناء عقد مجلس حربى فى معسكر ديار بكر فلم يسر فيه تفاؤل الوزير الا قليلا . فقد صرخ قائلا « ان مفاتيح بغداد بيدى » ، حينما كان جنوده الحذرون مترددين فى الثقة بالموسم الذى ستجرى فيه الحملة ، وبخفة المدافع التركية ، وبقوة الحامية فى بغداد . غير ان المسير قد بدأ . وعلم فى كركوك ان امدادات قوية قد افلحت فى الدخول الى بغداد بقيادة الرئيسين الايرانيين صارى خان ومير فتاح . واذ ذاك بعث القائد الايرانى نفسه رسالة يناشد فيها الوزير التركى ، بلهجة تهكمية ، ان يؤخر احتلاله بمقدار الايام القلائل التى سيستغرقها الشاه نفسه للوصول الى ميدان الحرب . فكانت هذه الحاسمة . اذ اعيد باشـا الموصل ليجمـع الذخيرة فيحملهـا على الاكلاك الى الجنوب ، وترك بستان فى كركوك . وسار الجيش الرئيس فى الطريق المعروف الذى يمر بزنكباد وبهرز الى اسوار بغداد وهو غير مستند الى مدفعية كافية ، ولا مجهز بالذخيرة اللازمة ، ولا مدبر بالقيادة والذكاء .

وبينا كان رتل من الجيش يقوده مراد باشا يكتسح البلاد جنوبا الى الفرات أخذ حافظ احمد مواقع حصاره • وفي مدة اثني عشر يوما كانت الخنادق والطوابي والمتاريس كاملة باجمعها • فحشدت الخنادق بقطعات كرمان و روم‌ايلي والاناضول وسيواس ومرعش • وصف باشا حلب جناحه على دجلة في حين ان ضغط على المدينة خسرو باشا بحصاره حتى قارب الباب الشرقي • وجد في الحصار مدة شهرين • فانفجر خمسون لغما فيما وراء السور • غير ان الجيوش الايرانية المحتشدة لم تبرح مكانها في ابراج السور • وكانت في الليل الالوف من المشاعل تجتاح الظلام ، بينما كان الحراس اليقظون يوالون اغانيهم كل في مرقبته ولذا لم يجد المهاجمون مجالا للاستفادة من مدفعيتهم القليلة ولا من جذوع النخل التي كانت ترمى بغية عبور الخندق المحيط بالسور • وكانت تحرس الاراضي الخالية الواقعة في داخل السور الشرقي دورية الخيالة الايرانية • وفي اليوم الثاني والسبعين شن هجوم جرىء استبسل فيه الابطال وحصل الخسران الفادح من دون جدوى • ووصلت في اليوم التالي انباء جيش مسعف ، بعث به الشاه ، اختلف في تقديره فكان بين ستة آلاف وثمانين الف مقاتل • وقد قطع في شهربان الطريق على فريق مؤلف من ثلاثة آلاف تركي ذهب للرعي والعلف • فعقد مجلس حربي ثانية ، وعرضت بايضاح للبحث قضية الرجوع • فلم يرق ذلك الانكشاريين ، وتقرر تجديد الحصار •

وكان الملل يزداد من عدم تبدل الحال كلما ضعفت الآمال وقلت القوة الروحية • وحاول طيار محمد ازاحة زينل خان (قائد جيش النجدة) عن معسكره على ضفة ديالى حيث كان نصب جسرا من الزوارق فلم يفلح • ولم يكن مراد باشا اكثر حظا في القتال من زميله • وأخذ الضبط في الانحلال • وبذا توفق جلبي علي ، ابن قاسم خان الذي سلم الموصل الى كوجوك احمد من قبل ، من اختراق الخطوط التركية والوصول الى بغداد • ومن الاعراض الاخرى الدالة على تفسخ القوة الروحية قصة عمر باشا ضابط اعاشة الجيش ، الذي شاع عنه في المعسكر انه باع الذخائر من العدو • ثم ان صراخ المحاصرين في الداخل ابتهاجا بقرب قدوم الشاه لم يحسن من تلك القوة الروحية الخائرة شيئا • الا ان دقيقة بعثت على الارتياح مرت عند ما وصلت قافلة ايرانية تحمل المال والعتاد الى المعسكر العثماني خطأ لانها اضلت الطريق •

وحدث بعد مرور ستة اشهر على الحصار فى صبيحة احد ايام الصيف لسنة ١٦٢٦ م (١٠٣٦ هـ)[١] عندما كان حافظ احمد مع هيأة اركان حربه يتمرنون على لعبة الجريد كعادتهم ان علا الغبار فى الافق • وبعد دقائق قليلة ركب رسول من الشاه ومعه رسالة الى الباشا • وعند وصوله قرأها الباشا وكان لا يزال راكبا والرمح بيده • ثم استمر اللعب • ومن بعد ذلك أعيد الرسول بمهمته يحمل رسالة شفهية يقول فيها « اقدم لتسلم الجواب بعد ان تضع الحرب اوزارها » فأعدت القوة وتهيأت للحرب ، على انه لم ينتج شيء من اول اصطدام بين الجيشين سوى مكابدة اتلاف[٢] قليلة واخذ بعض الاسرى • وفى الوقت وصلت عن طريق الماء اكلاك الذخيرة المشحونة من الشمال • ثم بدأ الايرانيون ، الذين قطعوا جميع المسالك فى الضفة الشمالية ، يهددون معسكر الباشا ويضيقون عليه الخناق لشل حركته وذلك بازعاج جماعات من الجند كانت ترعى الحيوانات وتوردها الماء وسلبهم باستمرار • وقطع طريق عمر باشا الذى كان ارسل الى الشمال لجمع حيوانات نقل ، ثم وقعت قافلة غنية بايدى الايرانيين الذين كانوا قد استولوا على رأس جسر الفلوجة ايضا •

وفى غضون ذلك تبودلت الرسائل بين القيادة الشاهية وقيادة الوالى • وقد طلب الشاه فى احداها فصل بغداد عن السلطة العثمانية رسميا ليكون منها ولاية لولى عهد ايران • وفى اخرى انب الترك على فقدانهم الحمية فى الحرب والديبلوماسية معا ، والا اعلنت الحرب او عقد الصلح • فأخذ الباشا قلمه وكتب : « ان الصقر اذا عقب الحمامة لا يعبأ بالزاغ ولا بالغراب ، وان نباح ابن آوى لا يقلق الاسد » • فوقعت حرب ثانية بالقرب من اسوار المدينة ولم تنتج شيئا اكثر من سفك الدماء • وخابت محاولة حرق ابواب بغداد الخشبية •

وهناك اصبح الاتراك فى غمرة من اليأس • والواقع ان الحالة كانت فى داخل المدينة مضطربة ايضا ، فقد جرد كل شيء حتى النخيل عن سعفها وحيل دون وصول

---

(١) أخطأ الفون هامر (الكتاب السابع ص ٧٢ ـ ٧٤) بذكر تاريخ هذا الحادث وتاريخ الحرب الثالثة من وصول الشاه ١٦ كانون الاول ١٦٢٧ و٢٧ ايار ١٦٢٧ على التعاقب لانه يخالف بذلك كولشن والمراجع الايرانية ثم انه يناقض بذلك روايته نفسها •

(٢) الاتلاف جمع تلف كأطراب ومفردها طرب واوجاع ومفردها وجع •

قوافل المؤن عن طريق النهر او البر . على ان هذه الغنائم اليسيرة ما كانت لتنقذ جيوش الباشا من جوعها . فقد كانت قد احاطت بها من جميع الجهات قوات البادشاه التى صارت حولها كطوق منيع بمدده وروحيته وعدته . وتفشى مرض الروح والجسد معا بين ظهرانيها . فاشتبك الطرفان بحرب عظيمة ثالثة فى اواخر ايار ١٦٢٦ م . وهجم الايرانيون من جهات ثلاث فى وقت واحد . وكان هـذا الاشتباك اعنف اشتباكات الحملة بأجمعها . وهجم باندفاع أعلى القواد مرتبة من كلا الفريقين على رأس قواتهم . واستوحى الايرانيون اثبات من علمهم ومن وجود الشاه كما استوحى الاتراك ذلك من شخصيات باشواتهم البارزة وتقاليد كتائبهم المعروفة . فكر مراد واياس وخسرو مرة بعد اخرى وعبأوا قطعاتهم ، كما ان حافظ أحمد لم يظهر اقل من هؤلاء بسالة ، فأنقذ المعسكر . وابيدت خلال الموقعة « عصبة مقدسة » عن آخرها متألفة من ألف وخمسأة ايرانى بعد ان ابلت بلاء حسنا لا يصدق . ثم ارتد الفريقان تاركين فى حومة الوغى جثث القتلى مكدسة بعضها فوق بعض .

وبعد مضى اسبوعين اقترح الشاه عودا على بدء الدخول فى مفاوضات . فبعث حافظ أحمد رئيس مرافقيه وجماعة من الضباط الآخرين الى المعسكر الايرانى . ثم عادوا مع سفير الشاه فجدد الايرانى ادعاءه ببغداد ، وفى جلسة متأخرة جلسوها قبل ابقاء بغداد على الترك اذا اعطى النجف مكانها . فكان جواب الوزير ان كل حجر من النجف يعادل عنده الف انسان ، وما بغداد الا حماها . ولم يجد بحث التوافق نفعا فى تقريب وجهات النظر . على ان تحمل الترك كان قد بلغ منتهاه ، فاندلعت نيران الشغب وادى ذلك لقلع خيمة الوزير الاكبر . وعلى مشهد من السفير الايرانى جعل الباشا نفسه سجينا فى قبة أبى حنيفة . وبعد ساعات من الفوضوية اعيد شىء يشبه الضبط الى نصابه . ثم نصبت خيمة جديدة وجىء بالوزير اليها . فسألهم : « ماذا تعنون بذلك ؟ » ثم صاح « اين ابطالى الذين يفتحون بغداد او يموتون دون ذلك ؟ » . غير ان صوته غرق فى لجة الاصوات المتعالية الطالبة للنكوص . ولم يبق فى وسع الانكشاريين اليائسين ان ينصتوا للاوامر ولا للاقناع . ولذا ترك امر ادامة الحصار .

واستطاعت القوة التركية ، لاهمال العدو ، ان تتم مسيرها للرجوع فى اليوم الاول من دون تعرض الايرانيين لها . وفى الوقفة الثانية ركب فصيل من الايرانيين

فى طلب سفيرهم وكان احتفظ به الوزير فسلم اليه . وفى الليلة الثالثة هاجمت القوات الايرانية المؤخرة فردت بعد شق الانفس . وكان الرجوع عن طريق يحاذى دجلة ، وهو طريق لا يطرق الا قليلا . ولم يكن من الممكن وجدان الذخائر فيه لتشترى او تغتصب . ولذا ابقى القوة فى قيد الحياة شيء من المشحونات المغتصبة من النهر فقط . وغدا القوت يباع فى المعسكر السيار بأسعار باهضة من رجل لآخر . ثم قتلت حيوانات النقل واكلت . ثم انه لم يكن من الممكن ان يحاذى سير القوة نهر دجلة المتعرج دائما ، فسبب ذلك اضافة العطش الى التعب والجوع . فساد حكم الغوغاء حتى عبر الزاب الصغير ، فهناك امكن الحصول على بعض الازواد من الحبوب . وفى الاخير وصل الجيش الى الموصل ، والى الرخاء النسبي . فأعطيت حكومتها قره‌بكر وعهدت الحامية الى جركس حسن .

فترة وخيبة ثانية

توجه حافظ أحمد الى مقره الشتوى فى حلب . ثم قبلت وفادته الى استانبول وكافأه سيده بخلعة الشرف جزاء له على اخلاصه . غير ان هذا كان كالسم بالنسبة لاعدائه الذين كان فى انفسهم حاجة الى جميع قوى السلطنة والى جميع الالفة القديمة بين الوزير والسلطان ليقدروا مثل هذا التقدير . فحرك ذلك ساكنهم وكادوا له فعزل من الوزارة ، الا انه لطف بالانعام عليه بزواج اخت السلطان نفسه .

وقد شغلت خلفه خليل باشا الاضطرابات الداخلية فحالت دون زحفه الى بغداد . وفى اوائل ١٦٢٨ م (١٠٣٨ هـ) وصل سفير ايرانى الى استانبول رسميا ليطلب بغداد بغية نصب ولى العهد الايرانى فيها ، وليطلب عقد معاهدة للصلح . فلم تنتج تلك السفارة شيئا . وفى ١٦٢٨ م ايضا حل مكان خليل فى الصدارة العظمى خسرو باشا البشناقى الصارم الذى كان نشاطه الفعلى قد رفعه من مصاف الجنود الاغمار الى هذه المرتبة . ثم تقضت سنة كاملة قبل ان يتحرك الجيش الى الشرق من معسكره فى سكدارى .

وعلى هذا تمتعت بغداد واواسط العراق بسنتين من السلم . وكانت فلول جيش حافظ احمد المتراجعة قد تركت من الذخائر ما أمكن نهبه على مهل . ثم زرع خلال

هذه المدة زرعان وحصدا . واستمر صفى قلى على حكمه الطويل فى بغداد . واستعيدت حاميات البلدان الفراتية . بينما كانت القبائل متمسكة بهيت وما فوقها . وكان نفوذ الخان من الفلوجة الى عرجة فى حالة مد وجزر ، وكان قليل من الضبط يسود فى انحاء دجلة الواقعة فى جنوب ديالى . وكانت البصرة لعدة سنين خلت حكومة[1] مستقلة لا تعبأ بمصاير الامبراطوريات فى شمال الاهوار الا قليلا . ولم يسد فى كردستان الجنوبية نفوذ احد بل كان يتنازعها النفوذان التركى والاردلانى ، وتعمل فيها دسائس البكات الذين كانوا يجاملون الفريقين ولا يخدمون احدهما على الحقيقة . اما الموصل فقد كانت فيها حامية النظاميين الاتراك . وكان باشا كركوك قد تخلى عن مكانه لخان ايرانى من جراء ضغط الجيوش الايرانية فى الجنوب وحاكم اردلان المقدام فى الشرق .

كانت هذه شهورامن الانتظار المقلق لزوبعة اخرى كانت تتوقعها مقتضيات الحال . فكان نعى الشاه عباس فى اوائل سنة ١٦٢٩ م (١٠٣٩ هـ) قد أحزن الخان فى بغداد وأفرح المعسكرين فى سكدارى . وبالغ حفيده وخليفته الشاه صفى فى سفك الدماء بغير مراعاة للعمر ولا المزايا ولا الخدمة ، فكان ذلك مدعاة لخراب بلاده واضعاف شأن أسرته . وكان الشاه عباس قد حكم مدة اثنتين واربعين سنة ، وتوفى بعدها فى السبعين من عمره . ولولم تعاجله المنون ، وحكم مدة عشر سنين اخرى لكانت قضية بغداد لا تحل الا بنضال عنيف بعد ذلك بين بطلين مغوارين . وبذا تخلص التاريخ من مشهد النضال العنيف الذى كان لابد من ان يقع بين اعظم الملوك من الفرس ومراد الرابع ذى النباهة القاسية .

بدأ خسرو باشا بزحفه فى ايار ١٦٢٩ م . وقد عرف طريق آق شهر وقونية الى حلب بصرامة القائد وشدة بأسه . وأمر عند عبوره الفرات فى بيرەجك بصنع الشخاتير[2] الكبيرة لنقل التجهيزات الى الفلوجة . وجرت وقفة فى ديار بكر فاضيفت فيها الى جيوشه اول قطعات البكات الاكراد . ثم انضمت الى الجيش بعد ذلك فى الموصل مدفعيته التى كانت آلاف من الثيران قد سحبتها على طريق آخر .

---

(١) ان الفصل الخامس من هذا الكتاب يبحث فى هذه .

(٢) وهى الشخاتير المنبسطة القعر المعروفة على طول العصور ولا تزال تستخدم من بيرەجك الى المسيب .

على ان الموسم[١] كان خارق القساوة . فجعلت الامطار والفيضانات من اواسط العراق بلادا لا يمكن ان تسير فيها وسائط النقل . وتراكم الثلج بعمق عدة اقدام حول ديار بكر ، ولم يشهد شيوخ البلد على طول ايام حياتهم مثل امطار هذه السنة شدة فى الموصل . فلم يدر - والحالة هذه - التقدم الى بغداد فى خلد احد . على انه اجريت الترتيبات اللازمة فى هذه الاثناء للتجهيزات واعدت الاكلاك للنقل . وزحف الجيش الى الشرق والجنوب عابرا الزاب الكبير . وعقد مجلس حربى فيما يقرب من اربيل وكان فر حاكمها الايرانى مع زميله حاكم كركوك الى بغداد . وحضر المجلس الحربى جميع قواد الجيش النظامى التركى ورؤساء التيمار والجنود المستأجرة وعدد من البكات الاكراد وعدة من شيوخ العرب من سكان سقى دجلة . وقد لاح ان الحملة الى الجنوب كانت غير ممكنة نظرا لحالة الطرق الموحلة من جهة ولوجود الضغط الاردلانى المعادى من الخلف . فتقرر ان توجه اول حملة على التابعين الايرانيين فى بلاد شهرزور وما وراءها[٢] .

وكان خان أحمد خان الاردلانى حينئذ لا يزال عبدا مخلصا للشاه[٣] . وكان قد أظهر جدارة فى حملات العراق على عهد الشاه عباس الكبير . على انه كان بين اقاربه كثير ممن يمالئون امبراطورية السنة . ولم يضيع هؤلاء وقتا فتقدموا الى الصدر الاعظم بهداياهم . وعند ما توجه الجيش من كركوك نحو الشرق حضر كثير من بكات مملكة اردلان وعشرون من خانات كردستان غيرهم لتقبيل يدى الوزير . وما تقدمت القوة التركية الى المسالك العالية حتى توقفت فى كولعنبر[٤] وفيها عقد مجلس مهم ، بحث فيه

---

(١) منتصف شتاء ١٦٢٩ - ٣٠ م .

(٢) ان المرجعين اللذين يذكران هذه الحملة هما نعيما والحاج خليفة . لكنهما لم يصفا بايضاح الطرق ولا احوالها ولا موقف الاكراد من الحملة مع ان الحاج خليفة نفسه كان بصحبة الجيش .

(٣) يقول المؤرخون الاتراك انه (١) كان بعدد خسرو عددا و (٢) قد خضع مع أخيه السنى عندما عبر الجيش الزاب الصغير ثم (٣) فر من قصره فى حسن آباد عند وصول الترك . ان هذه المتناقضات لا يمكن ان يعتمد عليها . غير انه من المؤكد ان خان احمد خان اخذ يعادى الشاه لانه سمل عينى ولده فى عهد متأخر من هذا الدور .

(٤) وهى المسماة اليوم خورمال (المترجم) .

قضية تجديد الحصن القديم الواقع على الحدود الذى كان سليمان القانونى قد بناه فهده الشاه عباس من بعده • فتغلبت العاطفة وقضت بضرورة تجديده فتكامل بناؤه بعد عمل استغرق سبعة اسابيع • على ان هذا العمل كان من دون فائدة وفى غير اوانه ، لان مثل هذه الحصون الجبلية المنعزلة فى هذه البلاد الوعرة لا يمكنها ان تؤمن حدود السلطان •

وبعد ان أضاع الوزير هذا المقدار من الوقت بعث طليعة جيشه على بلاد اردلان ، وكان اول هدف له قلعة مهربان المنيعة ، فسقطت فى ايدى الجيش ووضعت فيها الحامية • وبينما كان الجيش الرئيس متريثا فى شهرزور كان زينل خان القائد العام للجيش الايرانى وخان احمد خان الاردلانى قد تحركا بسرعة من همذان مع جيش مؤلف من اربعين ألف مقاتل • وبعد ان صدفا عن سماع المشورة الصائبة القاضية بالسير قصدا الى شهروز (فبذلك يقطعان الاتراك عن قاعدتهم) بدآ بالحرب فيما يقرب من مهربان ، فجرى نضال طويل وحشى • وقد وصلت الامدادات من خسرو فى احرج الاوقات • فتراجع زينل خان بعد ان بلغت خسراناته من الرجال عدة آلاف • وكان ينتظره الموت العاجل فى معسكر الشاه جزاء له على فشله • فتولى القيادة بعده رستم خان ، وتحرك الشاه فى جهة اصفهان •

اما خسرو باشا ، فبعد ان اكمل بناء قلعته واخمد فتنة كانت قد نشبت اقام مهرجانا عظيما للانتصار فى مهربان ، ثم توغل فى اردلان • فنهب حصن خان أحمد فى حسن آباد نهبا فاحشا • ولم ينج الفارون والمتأخرون من قسوة هـذا القائد العثمانى • وبعد السير فى بلاد غنيـة آهلة بالسكان وصل الجيش الى همذان فى حزيران ١٦٣٠ م (١٠٤٠ هـ) • ولا يدخل فى تاريخ العراق وصف التخريب الشنيع الفظيع ، الذى أصاب هذه المدينـة العظيمة . وبعد ان قضى الجيش ستة ايام دموية نارية توجه الى دركزين عن طريق قزوين ، فوصل اليها وخربها • وبقى بين هذه البلدة وقزوين المقصودة عشر مراحل لا ماء فيها • غير ان آراء اخرى سادت فى مجلس عقد هناك وتقرر الرأى على ان بغداد هى المقصودة اولا وآخرا • اما قزوين واردبيل وان كانتا غنيتين ومغريتين بالنهب لما فيهما فانهما بعيدتان عن الطريق الذى أمر السير فيه البادشاه[١] •

---

(١) ويذهب كولشن الى ابعد من هـذا ويقول بان امرا ملكيا وصـل الى الوزير فى دركزين « دركوزين » يأمره فيه بالتوجه الى بغداد •

وكان الصيف قد حل وتقدمت ايامه ، وبذا كان العراق فى مثل هذا الوقت سهلا مصحبا • فولى الجيش شطره نحو الغرب •

ولم يعرف من اخبار هـذا الزحف الطويل الامـد الى الحـدود العراقية حادث يستحق الذكر سوى مناوشات موفقة جرت مع الخانات اللريين • وما وصل الوزير الى سهول ديالى الوسطى حتى وجد ان النجدات كانت تنتظره من الموصل مع المدفعية التى كانت خير عون مرحب به • ولذا استغرق سير الجيش الى بغداد وتحصنه فى مواقع الحصار شهرا واحدا • وبدأ الهجوم فى تشرين الثانى •

وقد قدر للهجوم ان يحبط • ولا يجدينا نفعا ان نكرر وصف كل وجه مشكوك فيه من اوجه الحصار • فقد كانت نيران المدافع غير منقطعة من الفريقين • وتمكنت المدفعية التركية مع الالغام التى انفجرت تحت ابراج السور من احداث ثلم وثقوب مخطرة ، الا انه لم يكن الدخول من احدها الى المدينة ممكنا • وكانت المشاعل تضىء السور فى الليل كله • ولا غرو فى ذلك فقد قدم عهد صفى قلى وحذق اساليب الدفاع ، وكان بمعيته امير جمال وامير فتاح من حكام اصفهان القديمين • فقدم خسرو باشا ، بطيش خال من التروِ ، معسكره قريبا من السور بحيث اصبح غير بعيد من نيران المقاتلة•

وفى منتصف تشرين الثانى ١٦٣٠ م استنفد معظم عتاد الجيش التركى • وغدا الوضع بحيث ان ادنى التحام يؤدى الى منعة المحاصرين فى الداخل • وبعد ان رأى خسرو باشا ان السور فى كثير من المواقع قد هدم حتى وجه الارض أمر بهجوم عام • وفى اليوم الاربعين من بدء الحصار حاولت طليعة مؤلفة من خمسمائة مقاتل ان تجتاح الخندق من احد الاماكن وان تعبره على ممر من تراب الطابوق المتجمع من السور المهدوم • فما احتشد فوقه اكثر الرجال حتى انهار من تحتهم فساخ بهم الممر فغاروا وامطرتهم اسلحة النيران حاصبا من السور ، فمات معظمهم وبينهم أعلى ضباط الجيش رتبة • ولم يفلت احد من حرس خسرو الذى كانت تبقيه شجاعته الجنونية فى الامام دائمـا •

وبعد مضى خمسة ايام قرر مجلس حربى كامل النصاب ان ينسحب الجيش • وكان التراجع من بغداد منتظما بحيث كان جميـع المدافع والذخائر بحالة جيـدة • فوصل الجيش الموصل فى اوائل ايام ١٦٣١ ، ولبث هناك اسبوعا • وبينما كان الوزير

هناك استولى خان احمد خان الاردلانى على ما كان مستوليا عليه من قبل فى كورة شهرزور • وقد فر خمسة من باشوات الاتراك على عجل الى الموصل • وهناك قوبلوا بالبشاشة والهدايا ثم اخذوا الى حجرة ثانية كان ينتظرهم فيها السياف ، فلم يبق على احد منهم •

وكان الوزير قد بعث ، قبل ان يبدأ بالانسحاب ، رتلا من جيشه لفتح الحلة • وهذه الفكرة وان كانت عديمة الفائدة وسببا للتطويح والاسراف - كما كانت قضية تشييد الحصن فى كولعنبر من قبل - فانها كانت ترمى لتأمين قاعدة ملائمة للجيش فى حملته المزمعة الثانية على بغداد[1] • فأحتل خليل باشا حاكم ديار بكر الحلة بعشرين الفا من الانكشاريين وغيرهم • فأعدت البلدة للدفاع الذى كانت بها أمس الحاجة اليه • الا ان رستم خان بعد أتم عمله فى كردستان ورجعت المياه الى مجاريها هناك أصبح فى وسعه معالجة قضية الحلة • فتوجه اليها وخيم بالقرب منها • ثم بدأت المناوشات الاولى فكانت تدل على خسرانه • فانهيت انباء ذلك الى الشاه صفى ، فخف الى الموقعة مسرعا[2] • فصمدت الحلة للحصار مدة اربعة اشهر تقريبا • ورأى خليل باشا بعد ذلك ان قوى غير متعادلة مثل هـذه لا يمكنها ان تتحمل النضال • ولذا ركب وحده فى ليلة ظلماء واخترق خطوط الايرانيين والسيف بيـده ونجا بنفسه • فاستسلمت قـواته بشروط واستتبع ذلك النهب والقتل فداما ليلة واحدة حتى مطلع الفجر وذلك حين نادى المنادون باعلان الهدنة • ثم وضعت رسم خطة لقلعـة كبيرة وانجز بناءها وغرم عليهـا مبالغ باهضة • وبعد ذلك رجع الشاه الى بلاده بعد ان زار العتبات المقدسة • وأعيد وضع الحاميات فى الفلوجة وغيرها •

وكان آخر جهد بذله خسرو باشا فى الموصل ارسـاله حملة صغيرة من الخيالة لتأديب مطلق أبى ريشة • اذ لم يكف امير البادية العظيم هذا عن التذبذب بين المصالح

---

(١) يقول نعيما ان رتلا قويا قاعدته الموصل وقائده باشـا طرابلس غـزا سقى الفـرات الاوسط فى اوائل ربيع ١٦٣٠ حينما كان خسرو فى شهرزور ، فهددت المدن المقدسة وهددت الحاميات الايرانية الصغيرة التى كان يساندها ناصر المهنا ، وغزوة بعيدة ومنفصلة كهذه ترينا تعبئة تستدعى الاستغراب ولم يشر اليها فى كولشن .

(٢) هكذا ذكر فى كولشن . الا ان الرواة الاتراك لا يذكرون هذا . والظاهر ان مجىء الشاه من اصفهان للحملة على الحلة أمر مشكوك فيه .

الايرانية والتركية ، فانه كان ينهب الفريقين ويناوئهما ولا يخدم احدا منهما . فخلع واعطيت الامارة سعد بن فياض من الاسرة نفسها واختص بكر باشا بحكومة الموصل التي وضعت اذ ذاك تحت الاشراف العام لطيار محمد باشا ديار بكر . ثم رمم سورها ، وجيء بالبنائين والعمال من ديار بكر واورفه خاصة له . وقضى خسرو الشتاء في ماردين .

وقبل ان تهدأ زوابع حملة الوزير على العراق اضاعت بغداد حاكمها[1] الحديث المحارب . وكان صفي قلي ، المتعصب العسافي بنظر اعدائه ، قد خدم سيده خدمة جليلة . وقد اعتمد الشاه صفي في تعيين خلف له على علم النجوم لا على فطنة البشر . وذلك بأن قرأ طوالع كثير من رجال دولته ، فاستقر الرأي في الآخر على تعيين بكتاش خان الارمني وكان شرسا عنيدا ، وشجاعا مقتدرا . ودامت ولايته على بغداد بدوام سلطة دولته عليها . فحكم خلال الخمس عشرة سنة التي حكم فيها الايرانيون العراق حاكمان فقط . وكانا يقابلان في الاستقرار والقابلية باشوات السلطان الذين لم يحكموا طويلا . وفي عام ١٦٣٥ دهم العراق الطاعون فاهلك منه جماعات عظيمة .

السلطان مراد ١٦٣٨

وفي خلال الحوادث الاخيرة كان السلطان مراد قد بلغ اشده ، وكان قد قضى صباه في جو مفعم بالدسائس والفتن ، وبكل ما من شأنه تفسيخ الدولة والقضاء عليها . وقد عرفت الايام الاولى من حكمه الصارم بميله الى العسف والاذلال . اذ تمرد السباهيون في السراي نفسه وطلبوا المحارب القديم حافظ أحمد نفسه . فلم ير السلطان بدا من تسليمه والتضحية به . ومنذ ذاك اليوم تسلم مراد زمام حكمه فبرهن على ما في نفسه من شدة البأس والاقتدار والثقافة والشدة ، وبذا كان المعيد الحقيقي للصحة والحياة في جسم امبراطوريته . على انه كان ايضا مغرورا لا قيمة للحياة عنده ، وسفاكا يقتل من شعبه عشرات الالوف بمرة . ثم اقبل بعد ذلك على اعتياد الدعارة وادمان السكر . بيد انه « ... مع جميع ما اقترفه من سوء قد انقذ بلاده . فلم يتساهل في

---

(١) تافيرنييه (ص ٨٤) يذكر رواية طريفة لكنها غير تاريخية في انتحار صفي قلي متأثرا من جعل حاكم آخر مكانه .

اية جريمة غير جرائمه . وتوقف بسيطرته عسف المستبدين المحليين فى مختلف الانحاء . وكان ذلك اكثر المصائب شرا ... وكان اسوأ العسف الذى قام به هذا الطاغية وحده اهون شرا على الامبراطورية من الفوضوية العسكرية التى قضى عليها . فأعيد النظام ورجعت التابعية الى نفوذه الحديدى . وحينئذ استتب النظام فى المعسكرات وحكم بموجب العدالة الثابتة فى المحاكم . ثم جبيت الواردات بانصاف الرعية وجرى امرها بكل عفة »[1] .

وبينا كانت امبراطورية عثمان قد تنفست الصعداء وظفرت بالحكم الصالح المرهب لم يبق فى امكانها احتمال بقاء بغداد خارجة من حكمها . غير ان الحال قد قضت ان تتصرم اعوام سبعة ما بين خيبة خسرو وظفر السلطان النهائى . ففى ١٦٣٣ ركب مراد بنفسه وجول فى الاقسام القريبة من ولاياته الاسيوية . وبعد سنتين سار من سكدارى الى اريوان فاسترد تلك القلعة العظيمة من الشاه . واثبت نفسه بذلك انه قائد بالفطرة للجيوش فى اثناء العمل ومفتش لا يرحم موظفى ولاياته اذا قصروا .

وفى التاسع من مارت ١٦٣٨ رفع لواء السلطان فى اسكدارى ثانية . وفى الثامن من ايار كانت قد اكملت جميع الاستعدادات وعبىء كل موظف ومذخر ورتب حق الترتيب ثم قوض الجيش خيامه ذاهبا للزحف الى بغداد . وقد قسم الطريق الى مئة وعشر مراحل . وكانت تأويب كل نهار وتعريس كل ليلة يجريان بحسب الترتيبات المحسنة حق الاحسان . وكانت عدة اماكن للنزول قد عدل عنها مراعاة للاحوال العارضية التى كانت تتطلب التأديبات او الاصلاحات او افعال الاحسان . وفى حلب ، منتصف الطريق ، استراح الجيش ستة عشر يوما . وهناك شهد الرحالة الافرنسى تافير نيه عرضاهيا للجيش . ووجه من بيرهجك بالاحمال الثقيلة من الذخيرة على الماء ليلقاها مراد فى اواسط العراق[2] . وقد توفى بيرم باشا ، الصدر الاعظم ، فى دولاب فتولى بعده طيار محمد . واوقف الجيش فى ديار بكر مدة ستة ايام حظى الوزير الاعظم الجديد خلالها بالمثول بين يدى سيده بعظيم أبهة . ومن هنا ارسلت قطعات

---

(١) كريسى ص ٢٥١ ـ ٢٥٣ .

(٢) تافرنييه ص ٥٩ .

جيش الطليعة والنفائض الى الموصل . وقد كانت مؤلفة من قطعات حلب وطرابلس وقائدها درويش باشا ، ومن هجانة البادية التابعين لابى ريشة . وكان ينتظر السلطان فى الموصل سفير من الهند ومعه هدايا غريبة . وانزلت مدفعية الجيش فى الاكلاك فى دجلة واحدرت الى الجنوب بعد ان بقى مع جمهرة الجيش عشرون مدفعا . ثم كوفئت الجنود باجزال العطايا لهم . وقد نقح نظام المسير لقرب الدخول فى بلاد معادية . فجعل باشا مرعش على المؤخرة وتولى باشا ديار بكر أمر الطليعة ووكل الى باشا حلب امر المدافع . وسار الجيش بحسب جدول الاوقات الموضوع فى اول الامر فعبر الزابين : الاكبر والاصغر فدخل كركوك واجتازها فسار وانحدر من جبل حمرين الى الخالص ثم سار فخيم حول بغداد وذلك فى الخامس عشر من تشرين الثانى سنة ١٦٣٨[١] .

كانت هذه آخر زيارة يقوم بها سلطان من آل عثمان الى العراق ، كما كان عمله آخر مأثرة من مآثر آخر الملوك المحاربين العظماء فى الاسرة . وكان التقدم العظيم الذى حصل فى ممتلكاته واتمه مراد فى هذا الزمن قد طبع الامبراطورية بطابع لم يمح حتى يومنا هذا . فلم يزل اسم السلطان مراد معروفا ومرعيا لدى الفلاحين والقبائل وفى كثير من اساطير الرعاع ، مع انه نسى كثير من ملوك جاءوا من بعده فحكموا اكثر مما حكم . وان الحصار القصير الامد الذى بدأ فى هذا العهد انتهى بالانتصار ، بعد ان خابت خطط حصارات ثلاثة ، وأمن مستقبل العراق فى القرون التالية .

نصبت خيمة السلطان على مرتفع قليل يطل على دجلة فيما يقرب من تربة أبى حنيفة الذى اقسم السلطان ان لا يدخله حتى يجعل الظفر منه رجلا يليق بتقديس تربة الامام . وقد قضيت اولى ساعات الوصول فى تنظيم وضع القوة ، وفى اختلاط السلطان بالجنود واثارة حماسة الضباط بالخطب الرائعة . ووزعت ذخائر الحصار كما اخذ كل رزقه وعينت الواجبات . فكان المعسكر وقوات السلطان الخاصة به فى موضع يقابل القلعة والجهة الشمالية الغربية من السور . ووضع أغا الانكشاريين مع ابكلربكى للروم أيلى فى الجهة الشمالية الشرقية اى فيما يقابل الباب الابيض الذى طالما عرف

---

(١) يرجع كريسى زيادة على المراجع المذكورة الى كتابات هلم . اما الفون هامر فيذكر (الجزء التاسع ص ٣٣١) دولوار (باريس ١٦٥٤) .

اخيرا بباب الطلسم[1] • ورابط شرقا فيما يقابل باب الظلمات فى الطرف الجنوبى الشرقى القبطان باشا وقائدان عامان من قواد الانكشاريين ثم باشا الاناضول وباشا سيواس • اما المحاصرون داخل السور فقد كانوا بكتاش خان وخلف خان ومير فتاح • ولم تتأخر المدافع الموزعة بين قواد كل جبهة عن اطلاق النار ، واذ ذاك ربكت المدافعين ربكا عظيما بنارها غير المنتظرة قوة ارسلت لتعبر النهر فتقصف القلعة من الجانب الايمن •

وكان السلطان بين رجاله لا يفارقهم فى كل خندق ومترس • وكان يراقب كل وجه من اوجه الحصار من برج اقيم امام خيمته • وكان يؤاسى الجرحى ويهدى اليهم الهدايا • وكانت خطبه المتوالية تشجع الضباط الذين كان كل منهم يخاف سيده اكثر من خوفه جميع جيوش ايران الف مرة • وكانت تدابير الحصار واعلاف الحيوانات وتوزيع الارزاق والاستخبارات تنال كلها القسط الاوفر من عنايته الخاصة • كما ان روحية حب الانتصار وتعظيم هذا القائد المخيف شجعت الجنود الذين كانوا يشيدون المشيدات الترابية فى غبار غير منقطع ، ودفعت هؤلاء الاغمار الى اقرب ما يمكن من الخندق المحيط بالسور • وكان الرمان المجلوب من بساتين شهربان والمؤن العظيمة التى جىء بها على ابل أبى ريشة وتقدير عددها عشرة آلاف بعير تشدد منهم العزائم • اما الايرانيون فقد قويت معنويتهم بالاخبار التى تؤذن بقدوم الشاه • فانه كان قد وصل فى الحقيقة الى خانقين مع قوة ضئيلة قوامها ١٢٠٠٠ مقاتل ، وكان يتحرى الطريق فى سيره مخافة ان تصيبه كارثة تقضى عليه بين حين وآخر وهو يتقدم نحو بغداد • ففصل السلطان عن الجيش باشا طرابلس وباشا حلب مع المقاتلة غير النظاميين من البادية وبعثهم للقاء الشاه الذى كان فى طريقه • فتراجع الشاه • ووصلت اذ ذاك الى معسكر مراد مدافع جديدة على الماء فى دجلة •

كان برج الباب الابيض اول برج خضع لمدفعية الصدر الاعظم • ثم ان ابراجا اخرى فى تلك الجهة من السور دكت حتى وجه الارض بسرعة • واحدثت فجوة عرضها عدة ياردات كشفت عن داخل المدينة ، غير ان الارض كانت مملوءة من الخنادق والحواجز وهو الامر الذى أخر القيام بالهجوم المزمع العام • فووصل تهديم

---

(١) باب الطلسم كان فى الجهة الجنوبية الشرقية فلعله اراد الباب الوسطانى « م • ج » •

الاسوار بقصف كل البطاريات له حتى امتلأ بالتدريج ذلك الخندق الوسيع من انقاض الابراج المتهدمة وبأكياس الرمل التى كان يلقيها جنود مقدمة المهاجمين .

اقتربت النهاية ، وشن هجوم عنيف فى اليوم الثالث والعشرين من كانون الاول . فصد ، الا ان السلطان رأى الخندق قد امتلأ ولم يبق ما يحول دون الهجوم العام ، وانب وزيره على تأخيره . فأجاب طيار محمد بكلمات تنم عن روحية الولاء الحقة قائلا « ان يشأ الله ان تؤخذ بغداد لكم فسيتم ذلك بسهولة مع تقديم حياة عبدكم طيار لخدمتكم » . فأمر بالاستعداد للهجوم فى اليوم التالى لذلك . وما تبين فجره حتى شن الهجوم . وكانت فجوة طويلة مفتوحة بين ايدى المهاجمين فى وسط الجهة الشرقية من السور . فهجم الصدر الاعظم تتبعه خيرة الجيش التركى فأردى بحسامه المسلول اول من صادفه من الايرانيين ، واستمر على الهجوم حتى اصابته كرة مدفعية فأردته قتيلا فى الحال . فحمل الى سيده فكان حزنه عليه صميما ومرا . وعندئذ تسلم خاتم الصدارة العظمى مصطفى باشا ، وفى اللحظة التالية حل محل طيار فى قيادة الهجوم . فوقع عن يمينه وعن شماله رجال الحاشية والضباط الكبار . وضغط بالهجوم حتى استولى على الفجوة وبدت المدينة مكشوفة من ورائها .

تقبل السلطان مراد فى يوم عيد الميلاد من سنة ١٦٣٨ (المصادف لليوم الاربعين من الحصار وهو اليوم الذى تقضت فيه مائة سنة على فتح سليمان القانونى جزيرة ردوس) خضوع المدينة العظيمة التى فى حدود امبراطوريته والموطن القديم لعظمة الاسلام ، وغاية النضال الذى دام خمس عشرة سنة بعظيم المرارة والخسارة . فبعث بكتاش خان رسله لعقد شروط الاستسلام واوفد السلطان الضباط الكبار الى بغداد ليقتادوا الخان الى حضرته . فاقتيد بين سماطين من الحرس الاشداء مصطفين من خيمة الصدر الاعظم الى الديوان الذى جلس فيه مراد بكل ما له من مظاهر العظمة والابهة . فقبل بكتاش خان ما بين يدى السلطان وطلب العفو عن مقاومته الطويلة . فلم تعدم روح الفتوة من نفس السلطان . فعفا عنه بسهولة وانعم عليه بالهدايا الثمينة على ان يسلم المدينة فى الحال . فكتب بكتاش الى ضباطه ليتركوا مواقع الدفاع والمدينة على الفور ، ولكل منهم ان يذهب حيثما شاء . وحذر الوزير من وجود بعض الالغام التى لم تزل مدفونة مخشيا انفجارها .

على ان الهدنة التى قصد بها تحقيق الفتح من دون سفك للدماء قد اخل بها بسبب جهل البقية من الحامية الايرانية وولائهم الشديد . فدخل الجنود الاتراك ولكن اطلاق النار لم يخمد . وسادت الفوضوية فى باب الظلمات حيث تقاطر الايرانيون الى الخارج زرافات زرافات . وكان يطلق النار على غير هدى من أعلى السور المقهورون الحقد[1] . فبعث ذلك على مقابلة الشر بالشر . وبذا لم يمنع التأمين العام الذى ازمع عليه السلطان مع كل المجهود الذى جهده الوزير انتشار العسف والنهب بسرعة . وازهقت فى معارك الشوارع ارواح عديدة لكبار الضباط على مرأى من الوزير . وكان غير قليل من الجند الاتراك يتهبون بالانتقام هذا لاخ وذاك لابن مفقود . ورفض مير فتاح والضباط الذين كانوا معه الجلاء والاذعان . ونصبت المدافع على آخر مترس من متاريسها حتى ذبح عشرون الفا من الحامية فهدأت فى الاخير المدينة وهى مضرجة بالدماء ومخضبة بها وبذا اصبحت فى حكم الصدر الاعظم[2] .

اعلن العفو والامان بأمر من السلطان لجميع السكان المدنيين . وعقد مراد ديوان ظفره فى جامع الاعظمية ثم بعث رسله الى اوربة . ومات بكتاش خان فجأة بالسم[3] . واسندت حكومة المدينة الى حسن باشا (كوجوك ـ الصغير) . ووضعت حامية مؤلفة من ثمانية آلاف جندى[4] بقيادة بكتاش أغا . ورسم للمفتى يحيى ان يعيد بناء قبة

---

(١) الحقد جمع حقود .

(٢) لم يكن من السهل لتحقيق التام يومئذ ان يميط اللثام عن مجرى الحادث والقاء التبعة على مسبب معارك الشوارع هذه والمجزرة البشرية بعد الاستسلام . والرواة الذين شهدوا الحادث باعينهم مجمعون على نيات مراد السلمية . غير ان ازمة الحملة تبعها اختلال النظام عند الفريقين وكانت العوامل للعسف والفوضوية كثيرة مثل اشتداد وطيس الحرب والكراهية العنصرية والمذهب وحب النهب وضيق الطرق فى بغداد ونفسية الجماهير وموقفها فى اراقة الدماء . اما كولشن فيؤكد ان السبب كان استمرار مير فتاح على المقاومة فى غير محلها .

(٣) هذه هى الحادثة التى يؤكدها تافرنييه . اما نورى والفون هامر (التاسع ص ٣٤) فيعزوان هذا الموت بالسم الى زوجة الخان . ويعزوها كولشن للانتحار .

(٤) ان الوصف الاتم الذى يصفه كولشن هذا نصه : « وجند جندا محليا نظاميا يكفى للدفاع عن الولاية وألف لحامية المدينة جيشا منتخبا يتألف من سبعين فصيلا تقريبا انتقاه من بين السباهيين النظاميين وانكشاريى العاصمة ومن مدفعيي الجبهجية » وان التفريق بين الجند الامبراطورى لحامية المدينة والجند المحلى للاشتغال فى الخارج مهم .

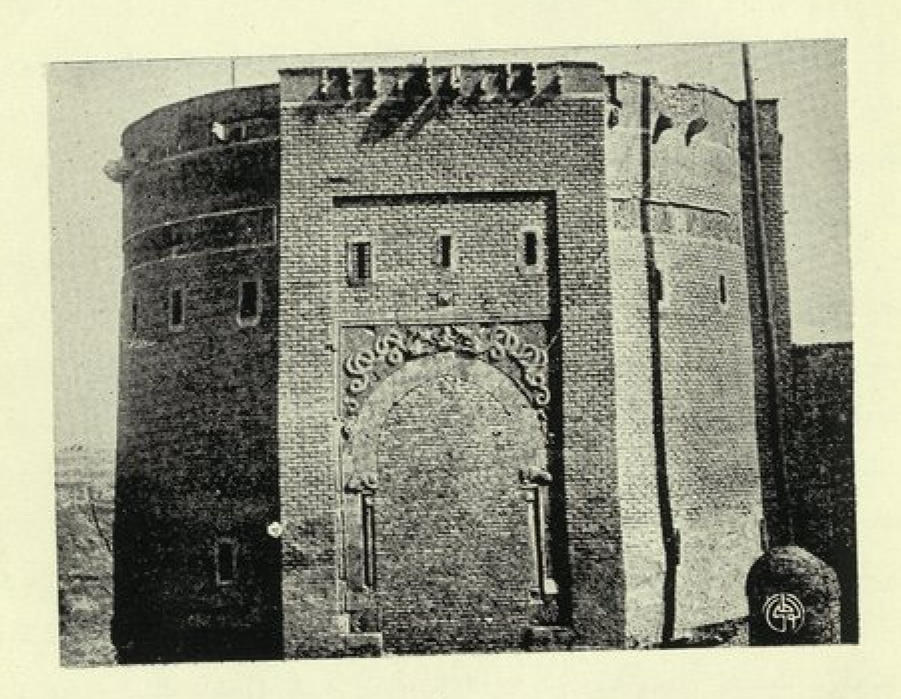
الشيخ عبدالقادر الكيلاني واوقفت لها اوقاف كثيرة ، معظمها من املاك الشيعة ، لتنفق على ادامتها . وادى فيضان فجائي فيدجلة الى تدفق الماء فيالخنادق خارج السور ، وبذا انمحت آثار حصارات اربعة . وبقى مراد ناصبا ديوانه حيث نصبه من قبل في ضاحية المدينة الشمالية مدة ستة اسابيع ، وجدد قبة جامعها الكبير .

على ان حادثة مفجعة حدثت فجددت المشاهد الدموية ، في المعسكر وفي المدينة بعد ان استعادت حيويتها ، وتراءى للجميع انتهاء تلك المشاهد . فقد احترق مخزن البارود في بغداد وانفجر فجأة . فسبب اضرارا وضياع نفوس كثيرة وكان بين الموتى من ذلك الحادث والخسرانات الحادثة منه ما أصيب به الاتراك خاصة . فأمر مراد بذبح جميع الايرانيين[1] اينما وجدوا وكان الكثير منهم قد التجأ الى المعسكر العثماني . فقتل الجميع وكان بين المقتولين ثلاثمائة زائر كانوا قد عبروا في تلك الايام لزيارة الكاظمين . وجيء بألف من الاسرى التاعسين بين يدي السلطان ، فأمر بقطع رؤوسهم فقطعت حالا . ولم يترك اى ايراني حيا لا في المعسكر ولا في حواليه ولا في المدينة نفسها . ومن المحتمل ان هذه المذبحة لم يفرق فيها جيدا بين العرب والفرس لان عدد المقتولين كان عظيما يقدر بثلاثين الفا حسبما كتبه مؤرخو الباب العالي . وبذا روت هذه المذبحة الاخيرة ، مع ذبح عدة من رؤساء المدينة مشكوك في أمرهم ، عطش السلطان الفاتح للدماء .

وترك السلطان مراد بغداد في السابع عشر من شباط ١٦٣٩ قاصدا الى تبريز . وخرج مع جيشه من باب الطلسم وأمر باغلاقه فبنيت فتحته . وبقى على حاله حتى القرن العشرين ولم يشرفه بالمرور منه اى سلطان آخر .

---

(١) ان ما ذكره كريسي (ص ٢٥٦) في خبر « مذبحة في سكان المدينة » يقودنا الى غير الحقيقة . فان اكثر المراجع الاصلية تنص على ان اوامر الذبح كانت موجهة نحو الايرانيين مع ان غيرهم ربما كان قد تضرر بهم .



باب « الطلسم »

وقد بنيت فتحته كما أمر به السلطان مراد الرابع

(تقابل الصفحة ٨٠)

الفصل الرابع

القرن السابع عشر

خصائص التاريخ العراقي في ١٦٣٩ — ١٧٠٤

ظل اسم بغداد قبلة الانظار فى السياسة الامبراطورية منذ ان اغتصبها الصوباشى حتى استعادها السلطان مراد بتوفيق عظيم • ثم عادت فخمل ذكرها وأصبح تاريخها ، فى القرون التى يبحث فيها هذا التاريخ ، ظاهر التشابه فى حوادثه ووقائعه • وفى كل مئة سنة كانت الوقائع العظيمة والحوادث الجسام ، التى كانت تجرى فى النضال الواقع بين السلطان والشاه ، تعيد العراق الى الظهور فوق مسرح السياسة التركية • وقد حلت بعد استيلاء السلطان سليمان القانونى الاول فى ١٥٣٤ ، فترة تسعين سنة من الزمن يسودها الخمول والهدؤ • ومنذ ١٦٣٩ الى زمن تحارب الايرانيين والافغان والافشار تقضت فترة اخرى طولها ثمانون سنة ، كان تاريخ العراق خلالها ساكتا ليس فيه ما يستحق الذكر • ومرت مدة ، بين آخر الحروب مع نادر شاه ونهاية القرن التاسع عشر ، والعراق لا يخرج تاريخا عن عزلته فيحتل الموقع الاول فى الامبراطورية الا فى الربع الثانى من القرن حين تتجه الانظار لاصلاحه كما تصلح بقية انحاء الامبراطورية • اما اولو الشخصيات البارزة الذين كانوا يشيرون الى أهم الادوار من هذه القصة فهم السلطان سليمان والصوباشى ومراد الرابع ونادر شاه واحمد باشا وداود باشا وعلى رضا •

رأينا ، فى آخر ما ذكرنا ، ان بغداد قد احتلت ثانية • وفى اثناء المدة التى استغرقتها الحملة كانت كل عين فى تركية وآلاف من العيون فى اوربه كأنها ترمق من بعيد جيش السلطان متجها الى العراق • وبعد هذه المسيرة التاريخية باربعين يوما احرز السلطان انتصارا مبينا • فرجع بعده الى عاصمة ملكه فاستقبلته استقبالا رائعا يشير الى ظفره العظيم • وقد ظل الصدر الاعظم فى بغداد بضعة اسابيع بعده ليشرف على ترميم السور والابنية الحكومية ، ثم تبع السلطان الى العاصمة وترك البلاد وشأنها • ومنذ ذلك الحين حتى ستين سنة بقى تاريخ العراق لا يلمع بحوادث جسام ولا بشخصيات تاريخية شهيرة • ونحن لا يمكننا ان نبحث عن تاريخ هذه المدة الا بذكر بعض تفصيلات تاريخية

فى سيرة حكام بغداد ، وفى تمرد القبائل وهجرتها ، وفى انفصال البصرة • غير ان عدم وجود خصم قوى او عدم ظهور متمرد جبار يستدير الى نفسه الانظار فى هذا الدور جعل المدونات التاريخية شحيحة بتفصيل الاحوال •

وفى امكان المؤرخ العام ان يدرك ان هذا الدور لم يكن الا دورا خاملا أدى الى تثبيت تقاليد سوء الحكم التركى فى العراق • فأن اطراد الامور فى ديوان الباشا ، وشكل الحكومة واسماءها ، والجيش المحلى والامبراطورى ، والطبقة البوروقراطية التركية القليلة الخاملة بتفكيرها وثقافتها التى كانت تمسك سكان الامور من أجلها وبواسطتها أصبحت كلها فى العراق شيئا اعتياديا بحيث لم يبق من يفكر فى نوع آخر من انواع الحكم وذلك لبقاء مثل هذه الظواهر ثابتة غير متبدلة مدة سنين عديدة • وكانت هذه المدة هى التى مهدت للحكم التركى ان يمد جذوره ، وهو المؤيد بالتصديق الدينى المدعوم بالسلفية المتأصلة • وكانت الحكومة الامبراطورية يومئذ تعتبر الولايات العراقية ممتلكات بعيدة غير مثمرة قد تكون فى بعض الاحيان منبعا للانباء المزعجة • حتى ان فخر امتلاك بغداد قد صيره مر الزمن شيئا تافها ، لاسيما انه لم يكن هنك اى خطر ايرانى •

ولم تكن مشاكل الولاية الخاصة مجهولة عند احد وهذه العصيانات المتكررة فى جنوبى العراق تذكر الناس بها • على ان عراق هذا العصر ، مع احواله هذه باجمعها ، اصبح أسهل حكما من مصر وسورية ونصف ولايات آسية الصغرى • حتى انه لم يكن مقلقا بقدر العاصمة نفسها التى كانت تتمخض بالعنف والشغب • ولم تفتأ باشويات العراق ومحاكمه العدلية تحكم بحسب المنفعة او المحسوبية او الرشوة •

وكان يرى المقيم فى العراق الاجيال يتلو بعضها بعضا من غير خطة معينة للحكم ، لان مثله العليا لم يكن لها وجود • وكان الذى يؤيد الحكم الاخلاص الطنان للدين والدولة الذى كانت تستقى منه الحكومة سلطتها ، ولم تكن تدانيه فى الاهمية الثقافة ولاحسن النية ولا الخبرة فى الحكم • يرى ذلك كما كان يرى الجوامع تؤسس من دون ان يرى فتح طرق ولا تأسيس مدارس ولا تشييد المستشفيات • ثم انه كان يرى ان الضرائب تزاد او تعدل بلا قانون عام تجبى بموجبه • وكان يرى ايضا تعين القضاة والضباط من دون ان يرى من يهيمن عليهم او يراقبهم فى اعمالهم • وكانت تحل مشكلة بعد اخرى من مشكلات العشائر بالعنف الشديد او الاستسلام الناشىء عن الضعف •

وبذا لم يكن هناك من يجرؤ على درس مشكلة العراق الاساسية وهي مشكلة ادخال العشائر في حظيرة الدولة . وكانت هذه وامور كثيرة غيرها مثل نزاع الموظفين الكبار الذين يستندون الى القوة العسكرية ، والاصلاحات المالية والاجتماعية التي لم يقصد بها الا طبقة خاصة ، وشخصيات الحكام المختلفة المعينين بتأثير شتى المؤثرات النفعية في استانبول كلها من الظواهر التي كانت غير خافية على رعايا السلطان في العراق .

هذا وستقتصر فصول متأخرة من كتابنا على حكم العراق الطويل الذي حكمت به العراق أسرة انفصلت بحكمها تقريبا عن الامبراطورية نفسها . ونحن نعجب كيف لم يؤد سير الاحوال حسبما ذكر وما يأتي ـ من استبداد محمد الاحمد وبكر وعصيانهما في بلاد نائية متفككة ـ الى الانفصال التام او العصيان . غير ان شيئا آخر غير الاحوال العامة المؤاتية في امكانه ان يؤدي الى نتيجة ما في التاريخ . فقد تكون الفرص مؤاتية على حقارتها او تفاهتها ، ولابد لاولي الشخصيات من اغتنامها دائما . فالابراج تبقى طويلا قبل سقوطها ، ويظل المريض يعارك من أجل الحياة ويقاوم الاوجاع قبل ان يموت . بمثل هذه العبر والاقوال المأثورة يمكننا تفسير ارتباط هذه البلاد بالامبراطورية مدة طويلة في عصر كانت فيه هذه الامبراطورية واهنة ضعيفة مضطربة نائية عن العراق موطن السكان الاجانب عنها الذين لا يقر لهم قرار ولا يخضعون لحكومة ، وكأنهم قد اجمعوا على منابذة تركية .

الخارطة القبائلية في القرن السابع عشر

حاولنا في صفحات متقدمة من الكتاب ان نراجع بايجاز جغرافية العراق في ايام الصفويين الاولى ، فبحثنا فيها بصورة عامة عن احوال القبائل . على ان ذلك البحث لم يتوغل بالتفصيل الى الاسماء والامكنة . وفي الفترة الواقعة ما بين ذلك القرن ونهاية القرن السابع عشر حدث عدد عظيم من التبدلات في ديار القبائل وتجمعها او تفرعها وفي تشتتها واندماجها مما أدى لتعديل الخارطة القبائلية . فكم من فقير او مجازف قد التفوا حول سيد او حول صبي من ابناء الرؤساء فكونوا قبيلة تسمى باسمه . وربما زادت في عدد خيام هذه القبيلة الاحوال او الحرب او عقد الصلح او قوة الشخصية او كل هذه العوامل فأدت لتوسع القبيلة وانقسامها الى اقسام ينتمي كل منها الى ولد او أخ من ابناء المؤسس الاول او اخوته . وقد تتدخل الاساطير لتؤكد الأصل او تقوم

الفتن والاحقاد فتولد عداوات ومحالفات جديدة • وكانت المراعى الجديدة والمجارى المتغيرة وضغط المجاورين كلها من العوامل المؤدية الى النزوح والهجرة التى لم تكن عواقبها لتستقر وتكمل • وبذا قد يجرى فى موضع حلف يضم عناصر مختلطة من الهور والبادية والاراضى المزروعة ، وقد يفرق فى موضع آخر انفصال طويل او تصادم بين اولى الشخصيات من الفروع التى تمت الى اصل او اسم واحد • وقد تحمل اسم قحطان العظيم او تميم جماعة من الرعاة ، او قد تتكون قبيلة قوامها عشرة آلاف خيمة من وحدة كانت تتألف بالامس من قبائل عدة • وما كانت تمر سنة دون ان يتعدل خلالها انتشار القبائل او تجمهرها • على انه مع ذلك كله كانت القبائل كلها غير مختلفة فى جوهرها ومصالحها وعقليتها • وكانت مدنيتها وسياستها وقواتها واحدة ثابتة • وهذا هو الذى يسمح للمؤرخ ان يتغاضى عن الخوض فى البحث عن مثل هذه التبدلات العديدة فضلا عن سماح فقدان المصادر له • وما اشبه جسم القبائل بالجسم الحى الذى يبنى ابدا ويهدم دوما • وليس بوسعنا الا ان ندرس امثال تلك العملية معينين الاسم والتاريخ للقليل من الخلايا التى لا حصر لها •

رأينا قبلا كيف كان نفوذ ولاة الحويزة مطلقا لا منازع له • الا ان قوة جديدة غيرها ظهرت للوجود فى اواخر هذا القرن • فقد كان بنو كعب[1] من قبائل عربستان السفلى[2] التى تزرع الرز وتربى الحيوانات • ومن المحتمل ان ظهور هذه القبيلة كان قد سبقه تبدل فى ديرتها ، وليس فى الامكان الجزم بان موطنها الاول كان فى شرق شط العرب او غربه[3] او ان تابعيتها الاصلية كانت ايرانية او تركية • على ان أقدم مقر لها عقيب ظهورها كان فى قبان • وكان ضعف الوالى وظهور شخصية قوية فى بنى كعب قد أديا الى سرعة التوسع فى نفوذهم • بينما كان الفريقان موجودين جنبا الى جنب عدة سنين •

---

(١) راجع لتاريخ بنى كعب ما كتبه نيبهر (الرحلة ، والتفصيل) ، وكتابات راولينسن ، وكتاب لايارد (ولاية خوزستان) •

(٢) عربستان عند القدماء من وصاف البلدان « خوزستان » « م• ج » •

(٣) قال القلقشندى فى « نهاية الارب فى معرفة انساب العرب » ص ٣٢٩ ما صورته « بنو كعب بطن من عامر بن صعصعة والى بنى كعب هذا العدد والعدة » فهذا يدل على ان موطنها كان فى غربى شط العرب « م• ج » •

شهد الفرات الاسفل في اوائل القرن تكون اتحاد قبائلي قوي • فكانت القبائل السائدة في الغراف الجنوبي ، وهو النهر الرئيسي جنوبي السماوة ، وحوالي بحيرة الحمار بنو مالك والاجود وبنو سعيد • وكان مع هؤلاء وتحت سيطرتهم مئة من الفروع من الجمالة ومربي الجاموس • على ان هذه الجمهرة كلها لم يكن لها أسم عام ولا رابطة معنوية تربط بين اجزائها سوى تشابه الحال بين الجميع وقرب بعضهم من بعض • فنشأ عن قدوم شريف من اشراف مكة فارا من الحجاز ، وعن حكمه في النزاع الذي كان محتدما بين الاجود وبني مالك ، وعن قتله فيما بعد وفرار بني مالك بابنه وهو طفل الى البادية ، وعن رجوعهم به بعد ان شب وكبر واصبح رئيسهم للقضاء على خصومهم ، من تاريخ كهذا بل اسطورة مثل هذه[1] ظهرت أسرة آل شبيب المالكة التي قدر لها ان تحكم مدة قرنين جمهرة القبائل المتحدة الآن المسماة بـ « المنتفك » الاسم الشهير • وبوسع القبائل الاخرى في العراق ان تباهي هذه القبائل بأصل انقى او بتمسك أشد في نظم البادية ، الا انها لا يمكنها ان تدانيها في رهبتها لحكامها ، ولا في خضوعها لحكومة واحدة نشأت من بينها مدة طويلة ، وفي اشتهارها في العالم •

وفي السنين المتوسطة من القرن حدث حادث عظيم في الجزيرة الواقعة في غرب الفرات ، وهو هجرة القبائل التي يمكننا ان نذكرها بايجاز مع ان هجرتها جرت بصورة تدريجية واستغرقت مدة طويلة • فكانت احوال البادية كاحوالها في جميع العصور • غير ان الذي يعرف حياة البادية اليوم ويعلم ان الرئيس الذي يبلغ عدد خيام اتباعه الالف لا يملك السجاد ، ويجلس على ارخص الحصر ، وليس عنده من الوسائد سوى رحال الابل قد يعجب اذا قرأ ما كتبه الرحالة تافيرنييه من وصف البذخ الذي كان عند عدة من القبائل في هذا العهد • وكان يلقب كل من رؤساء البادية الشهيرين بلقب الامير او السلطان • وان « ... الكجاوات المغطاة بقماش قرمزي مزركشة حواشيه بالحرير » والخدم والخصيان ، « والعدد العظيم من الخيول الجميلة المسرجة بأحسن السروج » ، ثم « الخيام المصنوعة من القماش القرمزي الغليظ المزين بالقياطين الغالية الزاهية » ، كلها تدل على مقدار الثروة يومئذ بالنسبة لمقدارها بين القبائل في العهود المتأخرة • وكان الامراء العرب في الفرات الشمالي قد استوطنوا في امكنتهم منذ ايام

---

(١) جمعت من المعلومات المحلية المأثورة ومن « مرآة الزوراء » •

سليمان القانونى • وكانت فى هذا الحين عانة ودير الزور تابعتين لهم • على ان أهم حادث فى هذا القرن كان هجرة شمر • فلا يخفى ان تاريخ العالم العربى هو تاريخ موجات بشرية متتالية تحركت من قلب الجزيرة ، وان هذه الموجات هى السبب فى وجود القبائل العربية فى العراق • وعلى هذه الشاكلة جرت هجرة قسم كبير من شمر فى ١٦٤٠ م (١٠٥٠ هـ) من نجد الى الشمال وكان قائدهم الشيخ فارس •

وكان من السهل عليهم فى اثناء هجرتهم ان يهددوا الحاميات القليلة فى البلدان الفراتية فيطلبوا المال منها • وقد خربت تدمر ، واخضعت القبائل الصغيرة بسهولة • ثم استمرت الحرب مع الموالى الاقوياء مدة عشرين سنة • وغدا المستولون سادة فى المراعى الخصبة • ويروى فى هذا الحادث ان المدافعين عن انفسهم — وهم الموالى — قد اقترفوا أعظم عار فى عرف البادية الا وهو قتلهم رسل اعدائهم الشمريين فى خيمة الضيوف نفسها • فانتهى أمر الموالى ، بان تراجعوا الى الحدود السورية ، ولم يعودوا من القبائل السائدة • اما عنزة التى لم تكن فى بادىء الامر أشد من غيرها وقوفا لمضادة الدم الجديد المتدفق من نجد فقد استعادت عزتها وجمعت قواها فحفظت موقعها وهى تشن الغارات المقابلة على العدو مدة قرن تقريبا • وقد وفقت فى النتيجة للظفر ، ودفعت شمر عبر الفرات الى الجزيرة • ولا تزال الاساطير تروى فى خيم الضيوف مخلدة الفتح الشمرى العظيـــم •

وكانت القبائل فى سقى دجلة الوسطى والجنوبية تتحرك على الشاكلة نفسها الى مواطنها الحالية • وفى هذا القرن ورد فى الروايات تأسيس قبيلة البو محمد التى أسسها زائر جاء من ديرة اخرى • وفى هذا العصر ايضا ، او فى حدوده ، تخاصم حافظ — وهو حفيد لام الاصغر — وبراك سيده من سلالة الحويزة (وهم بطن من ربيعة) فاسس قبيلة بنى لام فى اراضيها الحالية التى احتقرت الزراعة فيها ، وخاصمت جيرانها اللريين ، ثم حصرت ديرة ربيعة فى مفترق الغراف عن دجلة •

وكان آخر مثال يدل على نمو القبائل وتبدل عالمها فى هذا العصر تأسيس سلالة كردية • وهذا التأسيس يفوق قابلية القبيلة الواحدة ، ويتعدى بنفوذه حدود السهول العراقية • فقد سبق ان ذكرنا شيئا فى أسرة البيكات السورانيين القديمة النبيلة فى كردستان الجنوبية • فقد كانت تنتسب هذه الاسرة الى جمهرة قبائل المكرى قبلا ، الا

انها كانت تمت بالصلة القريبة الى قبيلة بشدر . وكانت بلادها في الاودية الواقعة الى شمال كوى سنجق وشرقها . اما صلة الاسم « بابان » بسوران وبشدر فغير واضحة . غير ان الواضح هو ان رجلا اسمه احمد الفقيه ظهر فى اوائل القرن السابع عشر فى بلاد البشدر فحمل اسم بابان لاسرته ، واورثه سلالته من بعده . وقد جمع حوله فى ايام حياته اتباعا كانوا ينهضون باظهاره حق الاظهار بين جيرانه . وقد ساعدت ابنه ماوند دعاواه المختلفة في شرف أصله ، ومهدت له شخصيته ونجاحه توسيع نفوذه على شهربازار والأصقاع المجاورة . على ان المؤسس الحقيقى لمآثر أسرة بابان العظيمة هو سليمان بك بن ماوند . فما حل النصف الثانى من القرن حتى كان هو صاحب الشخصية البارزة الوحيدة في شهرزور . وكانت فرصة وجود والى اردلان الضعيف المنهمك فى اللذات قد مهدت توسع حكمه . اذ استولى سليمان بك (الذى شحذت اطماعه قصص طيش سنه وتفسخها ، وكان وهو فى اوديته النائية لا يعبأ بالسلطان ولا بالشاه) على اردلان فى ١٦٩٤ م (١١٠٦ هـ) واحتل عدة مناطق . وقتل اثنين من الحكام المحليين . على ان قوة ، قيل انها تعد ٤٠٫٠٠٠ مقاتل ، ارسلها الشاه فى السنة الثانية لمساعدة الامير الاردلانى فتمكنت من دحره بعد ان اخسرته الوفا من رجاله بين قتيل واسير . فالتجأ سليمان بك[1] الى استانبول وفيها قوبل بحفاوة بالغة ، واعطى سنجق بابان الذى ضم رسميا الى باشوية كركوك . وكان مقره الخاص فى قرية قره جولان . وجاء فى اساطير ايامه حادثة تعرض جرت فى احمد كلوان واشتهرت طويلا فيما بعد ، لان اثنى عشر رجلا - بحسبها - من اتباع البابانيين قضوا على قوة من الايرانيين تبلغ عدتها آلافا .

---

(١) ذكرت عدة من المدونات التاريخية ان اندحار سليمان بك (اى « بابا سليمان ») كان بتأثير القوات التركية والايرانية معا . وذكرت مدونات اخرى ان الاتراك اكتفوا بارسال « ايلچى » للامير الكردى يلح عليه فى لزوم التعجيل فى عقد الصلح مع الايرانيين قبل ان يستفحل أمرهم فيتوغلوا فى الاراضى العثمانية .

وربما كان تعديه الى داخل ايران قد حدث بعد ذلك فى سنة ١٦٩٤ م ، وكان اندحاره على ايدى الايرانيين سنة ١٦٩٥ م (١١٠٧ هـ) . ومن المحتمل ان حملات الترك عليه كانت بعد هذا الحين اى فى ١٦٩٨ م و١٦٩٩م وكان سببها بلاشك خوف الاتراك من استفحال أمره وعدم احترام جيرانه الترك . فعين والى بغداد « سر عسكر » وأخذ معه باشا ديار بكر وحلب .

ان مجرى هذه الحوادث غير واضح غير ان نجومه الاول وتحديه لايران وتأديبها له ، واعتراف الاتراك به ، وظهور نفوذه بعد ذلك واضح تماما .

ووقع قسم كبير من ولايته بعد وفاته في ايدي الزنكية والقبائل الاخرى وترك قسم منها لابنائه . فتنازع فيها هؤلاء وآل النزاع الى ان يتولى بكر بك بعد تيمور خان . على ان ذلك لم يحدث قبل ان تؤدي مشاحنات الابناء الى حلول سنوات شعر الجميع خلالها بصرامة الحكم التركي الذي جاء به باشا شهرزور . ثم تلاشى النفوذ التركي هذا ، فظهر بكر واصبح نفوذ آل بابان سائدا بين ديالى (سيروان) والزاب الصغير ، في جميع البلاد الهضابية الكائنة في شرق طريق كفري - آلتون كوبري . وبذا صار في وسع البك البابانى ان يضاهي حكام اردلان ، وان يرحب بقبيلة الجاف ويحميها عادا لها قبيلة تابعة له عندما هاجرت من جوانرود الى منطقته . وقد نمت هذه الدويلة في ظل البك الحاكم وزادت مناعة بقوته . ولاشك ان علامات الثقافة العالية ، الممزوجة بقوة التضحية والاخلاص ، التي عرف بها احفاده من بعده كانت قد ظهرت من قبل .

بغداد وحكامها في ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) - ١٧٠٤[1]م (١١١٦هـ)

كان الهم الاول لحسن باشا الصغير ، عند تعيينه حاكما لبغداد بعيد سقوطها في يد مراد ، ان يرمم العتبات والابنية الحكومية ، وان يجتذب الى بغداد السكان الذين التجأوا فزعا الى القبائل ، وان يعتني ببساتين القصر ومرافق الانس فيه . وكان الباشا البانى الاصل مشهورا بالشجاعة . غير ان الصدر الاعظم قره مصطفى ، عندما ترك بغداد في اوائل مايس ، كان يرى فيه غير الشخصية القاسية التي تحتاج اليها مثل هذه الولاية . فحل محله في الحكم درويش محمد ، فلم يستحسن اندفاعه ولا قوته حتى في الامور التي استحسنت فيها الطمأنينة الناشئة عن تأديباته العاجلة . وكان هذا الرجل عجيبا في طوله وقامته ، كما كان شارباه العظيمان متدليين الى ما يقارب المحزم . وكان اشباعه لرغبته في الترف باختلاس الاموال أول من اشباعه لها بالمضاربة في بيع الحبوب والحيوانات بمقياس واسع ، وكان منصبه كحاكم يساعده في الحصول على ارباح طائلة بهذه الطريقة . وقد حدث في ايامه الاولى ان تام مهنا شيخ الخزاعل في منطقة السماوة فنشر الفوضوية في كل فج الى ما وراء الجزائر وذلك بسلطة الشاه التي كان يدعي بها . فبعث له

---

(١) راجعنا في سبعة اثمان معلوماتنا في هـذا البحث كولشن . ومن النقاط ما راجعنا فيه كتاب تافيرنييه واوليا افندي وغودينهو وثيفنو (الرابع طبعـة ١٧٢٧ م) وسور دوفال . وذكرت مراجع البصرة على حدة .

درويش محمد كهيته على اغا ، ففرق جموعه من الثائرين معه بسهولة وقتل منهم خلقا كثيرا ، ثم بعث الى بغداد بستمائة رأس من رؤوسهم . ونكون غير مخطئين اذا تصورنا ان حوادث مثل هذه كانت عديدة خلال السنوات الثلاث التى قضاها درويش محمد فى الباشوية ، وان الامن كان مستتبا أحسن الاستتباب .

وتلاه فى الحكم حسن باشا نفسه فحكم مرة ثانية ، وهو المتوثب المتحمس والمحبوب الرحيم . فحكم سنتين فلم تضطرب البلاد خلالهما ولم يحدث فيها ما يستحق الذكر ، سوى زيارة امام قلى ملك تركستان لبغداد وهو فى طريقه الى الحج فى مكة . وقد عززت مراكز الدفاع فى قلعة بغداد بابراج اكثر منعة . واعقب حسن الصغير حكام لا يعرف عنهم شىء الا نبذ عن صفاتهم وسجاياهم . فقد حكم حسين باشا ، وهو رفيق السلطان مراد المرح المسمى « المجنون » لشذوذ طباعه ، مدة خمسة اشهر . فكان يعرفه من جاء من بعده بانه مشيد[1] جامع قمرية ، كما عرفه معاصروه بجولاته الليلية متنكرا فى الشوارع والازقة ، ومتجسسا على كل عابث ومخالف ليعاقبه هو بنفسه . وبذا انتشر الرعب فى الخارج ، ولكنه كان رعبا مؤديا الى سلامة الاسواق والجوامع المكتظة . وكان خلفه محمد اغا رابط الجأش من اغوات الانكشاريين ، فحكم سنة واحدة . وقوبل تحمس خلفه موسى باشا ، المعين فى ١٦٤٥ م (١٠٥٥ هـ) والذى حكم سنة واحدة ، وعدله بالثناء الحسن والاستحسان . وسوف نبحث عن تاريخ الصدام الذى جرى له مع امير البصرة فيما بعد .

وكان ابراهيم باشا ، المعين فى خريف ١٦٤٦ م (١٠٥٦ هـ) ، جذابا بصباه وشكله الا انه كان مغرورا عنيدا ، فسببت له سجاياه هذه الفتن والقلاقل . ندب الخلاف بينه وبين اغوات الحامية . وقربت الازمة عندما انتشر نبأ وفاة صالح باشا الصدر الاعظم الذى كان يستند اليه باشا بغداد هذا . فلم يصدق ابراهيم بالاشاعة ، غير انه صالح الانكشاريين وواصل سيرته الهادئة . وظهر على حين غرة وكيل خلفه ، اى متسلم او مندوب موسى باشا السمين[2] . غير ان وحدات الجيش المحلى تجاهلت هذا العزل وأيدت

---

(١) الصحيح انه مجدد بنائه لان هذا الجامع بل المسجد كان من مبانى الدولة العباسية فى اوائل القرن السابع للهجرة (م. ج) .

(٢) استقيت القصة التالية من كولشن ، ويؤيدها بصورة عامة النون عامر (الكتاب العاشر ص ١٤٠) .

الباشا الذى سجلهم فى الخدمة ودفع لهم الارزاق. ورجح الانكشاريون الامبراطوريون ان يتبعوا نيات سيدهم السلطان ويمنعوا وقوع النزاع بين الخصمين فى بغداد . فالتقوا فى الميدان . وارسل ابراهيم ، وقد طلبوا حضوره ، نائبا عنه غير انهم أصروا على وجوب حضوره بنفسه. فأذعن الابله الاخرق لهم وأجاب طلبهم ، فاحاطوا به واعتقلوه . الا ان القوات المحلية ما زالت تأبى الاعتراف بخلعه ، وبقى الحال معقدا ثلاثة اشهر يتخللها عراك فى الشوارع وفوضوية منتشرة . فوصلت اخبار هذه الاحوال الى الباب العالى ، فكانت حجة مترقبة لمناوئى ابراهيم الاقوياء للقضاء عليه فاوفد رسول سلطانى الى بغداد يحمل حكم الاعدام . فأعدم ابراهيم ، ووضع نائب فى منصبه حتى يصل الباشا الحديث . وكان موسى باشا ، وهو من خصيان البلاط الامناء ، قد اشتهر بالبدانة المفرطة . ولما كان غير قادر على الحركة وعرضة لمزاج حاد أحاط على نفسه أحط انواع المشاورين . وكان يحكم بالاعدام - على ما جاء فى المعلومات نصف الصحيحة - على اناس زعم انهم اعوان ابراهيم ، كما أخرج جمعا غفيرا من المدينة . وهرب الكثيرون ، من مجرم وبرىء ، الى منفى وبيل فى ايران مخافة ان يصيبهم غضب الحاكم العصبى السمين . وفى نفس الفترة اتخذت التدابير اللازمة لزيادة الحامية فى بغداد ، لان هذه الحامية لم تعرب عما يرضى بعددها ولا بصفاتها فى المنازعات الاخيرة لذلك العهد . فتسلم باشوات ثلاثة من الولايات المجاورة الاوامر ببعث قسم من قواتهم للعراق . ومما بقى طويلا فى ذاكرات الناس فى بغداد بهذا العهد سفارة محمد قلى سفير الشاه الذى قدم فى ١٦٤٨ م (١٠٥٨ هـ) ومعه عدة فيلة هدية من سيده الى السلطان . ثم عزل الباشا السمين فى الايام الاول من سنة ١٦٤٩ م (١٠٥٩ هـ) عندما تسلم خصمه القديم مراد باشا منصب الصدارة العظمى .

وتولى الباشوية من بعده لسنة واحدة احمد باشا وكان ورعا محبوبا ، يلقب « الملاك » . فقد جاء الى بغداد من ديار بكر ، وتركها بعدئذ ليصبح صدرا اعظم . وصار بوسعه ان يقوم وهو فى منصبه الاخير بالخدمات الجلى للعراق . فقد علم ، عندما كان حاكما فى الولاية ، خطأ طريقة الضرائب وسوء الاستعمال فى تطبيقها . فأمر وهو الصدر الاعظم بوجوب تطبيق طريقة الجباية المقطوعة « الضمان » ، واعطاء الضرائب بالمعاملة والالتزام . وكانت النتيجة الاولى لذلك ازدياد الواردات فاستفادت الخزينة

الامبراطورية منها فوائد عظيمة . غير ان جمع هذه الواردات - على عكس ما توخاه الوزير من رحمه - أدى الى ظلم أشد مما قبله كان ينزله في الناس مئون من الجباة العاسفين الذين كان واجبا على السلطة الملكية تأييدهم . وقد حكم بغداد لاقل من سنة واحدة مالك احمد (١٦٤٩) . وكان كاتبه المدعو غني محمد حقوقيا وحاسبا ذائع الصيت .

وقصر أمد حكم ارسلان باشا الحازم الممتد ستة اشهر بوفاته بداء المغص . فدفن تحت القبة في تربة أبي حنيفة . ثم تلاه في الحكم شاطر حسين باشا ، فكان شبيها بمالك احمد شخصية وسلوكا . وقد جلبت له عنايته بالامور الدينية وبالاعمال الخيرية احترام الجميع ، وكانت شخصيته المؤنسة حديث الناس في الاندية . فمات في الباشوية وهو في ريعان شبابه ، ودفن في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني . وكان العرف ، في كل حادثة تتضمن موتا فجائيا ، ان ينتخب « متسلم » من ديوان الباشوية ليقوم باعباء الحكومة حتى يصل الخلف الحديث بعد شهرين او ثلاثة . وعين في صيف ١٦٥١ م (١٠٦١ هـ) قره مصطفى باشا . فقدر له ان يتقلد الباشوية ثلاث مرات لما كان يتصف به من جاذبية شخصية وتواضع وثقافة وذكاء . فألغى خلال تقلده الباشوية المرة الاولى - وقد دامت سنتين - التدابير المالية السيئة التي أمر باتباعها مالك احمد .

كان مرتضى باشا شخصية بارزة من شخصيات هذا القرن . فقد عين لبغداد في ١٦٥٣ م (١٠٦٣ هـ) بعد ان حكم ولاية دمشق وولاية ارضروم . وكان منبع شخصيته خياله الحي . فكان طوال مدة حكمه صديق الفقراء والجهال بتحمل مفرط وعطف حي . كما ان مزاجه العنيف في اوقات اخرى لم يسلم منه البشر ولا الحيوان . وكان يشبع ولعه بالبذخ والتجمل النزق والفضيلة بالاحتفالات الدينية ، وبتوزيع العطايا بصورة جذابة للنفوس ، وبعرض الوان مخزية من الفحشاء . الا ان أمن الولاية كان مستتبا . فقد اضاع في ايامه الموظفون الكبار حياتهم لادنى شك يشك فيهم او أقل ريبة يرتابها بهم ، وكان يعقب أقل تلويح بالفتنة ببطش وتمثيل . ومن جهة اخرى كان يحدث في عهده ان كل رجل من قبائل البادية كان بوسعه ان يدخل القصر من بين الحراس النيام فيقلق راحة الباشا بقصة مهيجة لخطأ طفيف ، فيجد منه اهتمام الاب الشفيق . ونرجىء البحث عن حملته على البصرة وتوفقه فيها بعض التوفق الى صفحات غير هذه . وبعد عودته منها وجد ان الفوضوية قد ضربت اطنابها في المدينة وفي جميع

اواسط العراق . وكان في نيته ان يجدد الحملة على البصرة ،غير ان الباب العالي لم يؤيده في ذلك فبقي في بغداد يقضي اياما مفعمة بالكآبة والغم . وبعد سنتين[1] نحي عن حكومة بغداد ونقل الى حلب .

وكان محمد باشا الابيض ، الذي حكم بغداد سنة واربعة اشهر ، مقداما رياضيا ، لكنه كان عليلا في صحته . وأتاحت له فتنة وقعت بين الجيوش المحلية ان يلقي درسا مفيدا في الطاعة . فقد استدرج بخدعة الخبيث الفاسق رأس الفتنة الذي قاد هؤلاء الى الحضور بين يدي الباشا ، فلم يبق رأسه على مقيله دقيقة واحدة كاملة . غير ان احلافه اجتمعوا للانتقام له والثأر به . ففكر الباشا ، وهو الباشا الابله ، ان يفرقهم بظهوره بمظهر غير الخائف . فخرج يوم الجمعة على حصان له ومر في الشوارع الى الجامع ، ثم وصل الى الفضوة التي كان المتمردون مجتمعين فيها . فرماه الاوغاد الذين كانوا كامنين في المقاهي بالحجارة ورموا حاشيته معه . فقتل جنديان من اللاوند ، وقمعت الفتنة بسهولة . وعلى هذا نال الباشا بشجاعته الصريحة لقب « آق » اى ابيض . وهناك حادث آخر يذكر عن هذا اليوم نفسه فيدل بايضاح على حالة الموظفين الاتراك ، وهو قدوم آغا حديث من اغوات الانكشاريين الى بغداد ووصول خطاب من الباب العالي بعده يأمر باعدامه . فنفذ الحكم في الحال ، وأعيد الآغا السابق .

وهنا يمكننا ان نقطع البحث عن الباشوات المتعاقبين لننظر نظرات اخرى الى عاصمة ولايتهم . فان عدد الاوربيين الذين مروا ببغداد قد كثر ، وترك قليل منهم مذكراته لزيارته هذه . فقد وجد مسافرون افرنسيون في ١٦٤٩م و ١٦٥٢ م و ١٦٧١ م و ١٦٩٥ م ، كما وجد النديم التركي اوليا افندي في ١٦٦٦ وجزويتي برتغالي في ١٦٦٣ . ولم ينعدم وجود جماعة من الآفاقين « المتشردين » الاوربيين بين الاغوات انفسهم . وجيء الى اسقفية بابل الكاثوليكية الافرنسية المؤسسة في ١٦٤٨ م بالرهبان ، وكان ايضا واحد او اثنان من تجار الولايات الايطالية يقيمان في بغداد ويترددان الى البصرة وحلب . وغدت مراكز دفاع المدينة في سني القرن الوسطى هذه بحالة خراب مألوفة

---

(١) يذكر كولشن ان حكمه انتهى في ١٨ تموز ١٦٥٥ م (١٤ رمضان ١٠٦٥) . غير ان اوليا افندي (ص ٣٩٢ من الجزء الرابع طبعة ١٣١٤) وصل بغداد في ربيع الاول ١٠٦٦ فوجد مرتضى باشا فيها .

فى زمن السلم • كما ان المدافع ، الصغيرة والقديمة ، على كثرتها صارت غير مخيفة • وبقى الجانب الايمن غير محصن • وكانت الحامية فى القلعة ، كما وصفها سائح[١] لبق :

« متألفة من ثلاثمائة انكشاري وقائدهم الاغا • وكان يحكم المدينة باشا يكون غالبا ذا درجة وزير • وداره على جهة النهر ، ولها منظر جميل • وكان فى تصرفه فى اى وقت كان ستمائة او سبعمائة حصان • وهناك ايضا اغا يقود ستمائة او سبعمائة سباهى • وعندهم ما عدا هذه صنف من الخيالة يسمى « جنكوليلى » اى رجال الشجاعة يقودهم اغوان اثنان • وفى المدينة والبلدان المجاورة بحسب العادة ثلاثة آلاف من هؤلاء • وتعهد مفاتيح ابواب المدينة وباب الجسر الى اغا آخر فى أمرته مائتان من الانكشاريين • وهناك ايضا ستمائة من الرجالة الذين لهم اغا خاص بهم ، وحوالى الستين مدفعيا فى ذلك الوقت ١٦٥٢ م (١٠٦٣ هـ) ورئيسهم فنى مختص كان يدعى السنيور ميكائيل وكان يعد تركيا على كونه مولودا فى كاندى • وكان قد وضع نفسه فى خدمة السنيور الكبير عندما ذهب لحصار بغداد فى سنة ١٨٣٨ م (١٠٤٨ هـ) » ••• « اما فى حكومة بغداد الملكية فقدكان قاض يقضى كل الامور ويتوكل حتى عن المفتى ، مع دفتردار يتسلم واردات السنيور الكبير • وكان يوجد فيها خمسة جوامع اثنان منها كانا حسنى العمارة مزدانين بالقباب المغطاة بالآجر[٢] المصقول بشتى الوانه • وكان فى المدينة ايضا عشرة خانات كلها غير عامرة الا ان اثنين منها كانا أحسن من سائرها • وكانت المدينة من حيث الحكم العام غير عامرة كما كانت خالية من مظاهر الجمال عدا الاسواق المسقفة بالطوق ، ولولا ذلك ما أمكن التجار ان يتحملوا الحرارة • وكان من جارى العادة ان ترش ايضا ثلاث مرات او اربعا فى اليوم ، ويؤجر لذلك جماعات من الفقراء تدفع لهم الاجرة من الحساب العام • والمدينة ملأى بالتجارة ، وأقل من امتلائها منها فى عهد ملك ايران ، لان الترك عندما تسلموها قتلوا كثيرا من اغنياء التجار • ومع هذا ففى المدينة مجتمع عظيم لناس من جميع الجهات ، والا ادرى أكان ذلك من أجل التجارة او للتدين • نضيف الى ذلك انه كان على كل من يرغب فى الحج الى مكة على طريق البر ان يمر ببغداد ففيها يجبر كل حاج على دفع اربعة قروش الى الباشا » • وكان هذا من أعم منابع الاصطدام مع الشاه • على ان

---

(١) تافيرنييه ص ٨٤ من الطبعة المشار اليها آنفا •

(٢) لعله اراد الكاشى « م• ج » •

معظم المسافرين والتجار كانوا لا يعتدى عليهم الا قليلا ، كما ان منهم من كان يثنى على اساليب رجال الكمرك المتقنة .

وقد عاش النصارى واليهود فى ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كانه فى الولايات الاخرى . فان بغداد كانت عالمية (والمذاهب الاسلامية نفسها مفترقة جدا) الى حد انها لا تشجع شيوع التعصب . وعلاوة على ذلك ان هذه الطوائف ذوات الاقليات من السكان كانت تسلك سلوكا اخلاقيا حسنا ، كما كان الناس قد ألفوهم نظرا لطول اقامتهم ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقى السكان . الا انه كان من المنتظر ان يكون بينهم ما يفرقهم عن غيرهم كما كان الامر فى دمشق والقاهرة . فربما كان من المحذور عليهم ان يمتلكوا الرقيق الابيض او يركبوا الخيل ، لان حصتهم من هذه الاصناف كانت العبيد الزنوج والحمير . ثم ان التحقير الاعظم ، الذى كان يقضى بعدم الركوب مطلقا او بالنزول عند مرور سيد من السادة ، كان لا يؤتى الا قليلا .

وكانت الطوائف النصرانية هى نفسها كما وجدت فيما بعد . فقد كان للنسطوريين كنيسة خاصة بهم وكانت الدرجات ممثلة للكبوشيين والكرمليين . ولم يتدخل الاتراك فى ترددهم الى الكنيسة ولا فى اقامتهم للشعائر النصرانية بأكثر من فرض رسم للدخول عند ذهابهم لكنائسهم ، او ان يتدخلوا مضطرين فى شراء اطفالهم عبيدا ارقاء عندما كانت نفقات مأتم كبير تفقر عائلة ما لهذا الحد من الافقار . على ان أثقل حمل كان يثقل كاهلهم - ويشترك فى ذلك فى الحقيقة القس مع المسلم العامى والزائر الايرانى مع الراعى او الحمال - هو التجاؤهم الى استعطاف الحكام العابثين الجهال الذين كانوا يلتهبون بحب المال وبالتعصب الدينى تجاه الاقليات الضعيفة الغنية .

جاء بعد محمد الابيض محمد باشا الخاصكى فى اواخر ١٦٥٦ م (١٠٦٧ هـ) بعد ان تولى حكومة مصر وحكومة دمشق . ولم يغط سخاؤه بلاهته الصبوية[1] التى كانت تظهر فيه فى تصريف الامور ، ولا الاساليب البالية وحب الابهة .

وعلى هذا سرعان ما انحل أمر الضبط بين الجيوش المحلية وتسربت الخمرة والنساء الى الثكنات العسكرية . وشبت فى خريف ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) ثورة عشائرية فى منطقة

---

(١) الصبوية منسوبة الى « الصبى »

الجزائر فاقتضى ذلك ارسال رتل من الجيش للتأديب • غير ان الفتنة نشبت بين افراده قبل الوصول الى الجهة التى اتجه اليها ، فهب الجنود القدماء لقمعها واعادة الضبط بين الافراد فلم يفلحوا فى مسعاهم وماتوا شهداء واجبهم • فترك أمر الحملة وتشتت الجيش ورجع الى بغداد • اما خاصكى محمد فقد أزعجته انباء ذلك ، ودعا كبار الاغوات من انكشاريه الذين كان جل تعويله عليهم • فقرروا ان يسدوا ابواب المدينة في وجه الفلول الراجعة حتى يسلموا اليهم رؤوس الفتنة • فأغلقت الابواب ثلاثة ايام وخيم المتمردون فى اثنائها فى الخارج • وما كادت الخطة تنجح حتى حدث ما نقضها من اساسها • فقد هيج المتذمرون من الانكشاريين انفسهم خلسة في ليلة ظلماء جميع احلافهم ، وأعدوا قوتهم فكانوا على استعداد عند الفجر • فاقتحم السراى وطلب الثوار ثلاثة من الموظفين الكبار فى مقابل انسحابهم • فقبض احد هؤلاء السيىء الطوالع واعدم فى اول يوم جرت فيه معارك الشوارع • وصرخوا مطالبين بدم الثانى ، وهو رجل برىء تماما ، فى اليوم الثانى • فلم يستطع الباشا تسليمه ولا حمايته ، فطلب اليهم ان يفتشوا عنه بأنفسهم • فوجد وذبح فى الوقت الذى تعالى فيه صوت المؤذنين من كل مأذنة يدعون فيه الناس للصلاة • اما الفريسة البشرية الثالثة المأمول افتراسها فقد فر من بغداد والتجأ الى العشائر ، فنهب بيته مع بيوت كثيرة اخرى الرعاع •

الا ان الشدة قد انتهت واستطاع كبار الانكشاريين ، الذين خابوا فى الحيلولة دون حدوث التمرد اولا ، تهدئة الثورة فى هذه المرة • وكان الباشا قد فر الى خارج المدينة • كما ان مطاليب العصاة الاولى كانت قد وقعت بأيديهم • فتجهم لهم الرأى العام • ونظم اغوات الانكشاريين استعراضا للقوة ، فرجع الكل الى مراكزهم وكونوا وحدات مخلصة • اما الجيش المحلى ، الذى اصبح الآن متشوقا للانضمام الى الانكشاريين فى العرض فقد رفض وطرد افراده من ساحة العرض • واما الباشا فى الخارج فقد خف الى بغداد عند سماعه بتحسن الحال من الكاظمية ، وكتب بلهجة شديدة الى الانكشاريين الذين اصبحوا الآن من المخلصين بتسليم كبار المحرضين ، فسلموهم اخيرا • فأعدم اكثرهم اعداما مستحقا وعوقب الآخرون بقطع الرواتب وبحرمانهم الامتيازات • وبذا انتهى دور تعس بعد ان دام اربعين يوما •

وكانت حاكمية خاصكى محمد تذكر بحوادث اخرى أقل أهمية من حوادث سوء الحكم • فقد مرت من بغداد قافلة حسين اغا سفير السلطان الى البلاط المغولى فى

الهند . وشيع رسول ايرانى ، بعثه الشاه عباس الثانى مع هدايا نفيسة الى استانبول ، عند مروره بالعراق . وعاد اسماعيل اغا بعد ان رد الزيارة الى اصفهان بسفارة ملكية ، ثم مات فى بغداد . وعرفت سنة ١٦٥٦ م (١٠٦٧ هـ) بالفيضانات . فانتشرت المياه كالبحر فى سهول العراق ، وخربت ضفاف الجداول القليلة وملأتها بالغرين والتقن ، ثم جرفت منازل القصب والطين بأجمعها . كما تصدع سور المدينة تصدعا عظيما عندما امتلأ الخندق المحيط به ماءا وتسرب الماء الى اسسه . فلم يدخر الباشا فى ذلك مالا ولا جهدا . فعزى الفضل اليه مدة طويلة من بعده فى اصلاح ابراج السور وانشاء المسالك المتقنة على طول الطرق الموحلة . ولاجل ترميم مواقع الدفاع ببغداد ـ وقد دل التاريخ العاصف على عدم امكان بقائها من دونها بالنسبة للمدن الاخرى ـ اصدرت اوامر السلطان الى باشوات الموصل وديار بكر وكركوك بارسال القطعات . فبقيت مخيمات هؤلاء تحيط بالمدينة حتى امروا بالرجوع على وجه السرعة لمحاربة وزير الاناضول السارق اباظة حسن . وكان خاصكى محمد ، وهو المتدين من الطراز القديم ، قد بعث بالذهب الى المدينة لتحسين حالة القبة ، ثم اضاف منارة الى مشهد النجف ، وقوبل بثناء اعظم عندما هدم كنيسة نصارى ليشيد فى موقعها جامعا[1] . وانتهى حكمه الممتد لثلاث سنين فى منتصف صيف ١٦٥٩ م (١٠٧٠ هـ) . وتلاه مرتضى باشا الذى تسلم حاكمية بغداد ثانية .

كان مرتضى ، منذ ان ترك بغداد ، قد أبلى بلاء حسنا فى قتال الثائر اباظة حسن . اما الآن فقد قدر بغداد بتفضيله الخدمة فيها عودا على بدء على خدمته فى ديار بكر ، وقبل حكومتها على شروط معلومة وهى : اعادة حفر الدجيل الذى تراكم فيه الغرين ، وجمع الواردات الرئيسة لخزانة الدولة ، والارسال بمائتى كيس من الذهب سنويا الى استانبول مع كمية من البارود . فبادر وهو فى مخيم سلفه خارج بغداد ، الى فحص حسابات الايالة . واعلن دين الحكومة الباقى فى ذمة محمد خاصكى فكان ستمائة كيس ، فصادقت استانبول على المبلغ . غير ان تضرعات المديون خفضت ذلك الى خمسمائة كيس ، لكن مناوئة الصدر الاعظم محمد كوبريلى له حالت دون التمادى فى

---

(١) يعنى بذلك « جامع الخاصكى » المعروف اليوم ببغداد ولا شك فى ان ارض الجامع هذا كانت من دار الخلافة العباسية ومباءة الامامة الهاشمية ـ بحسب علم الخطط ـ والقديم على قدمه «م . ج » .

التنزيل . وبعد ان دفع شيئا من الحساب او لم له خلفه وليمة ملكية . ثم انصرف مرتضى للقيام بواجبه الثانى وهو تطهير الدجيل . فأنجزه بالعمل المنظم خلال ثلاثة اشهر . وتلت ذلك اصلاحات مالية مهمة . فقد شطبت بعض الهبات الحكومية المقطوعة والغيت العائدات شبه الرسمية التى كان يتقاضاها موظفو المالية علاوة على رواتبهم . وبعد ذلك اجريت الترتيبات الثابتة لتلافى مسؤولية بغداد الجديدة نحو العرش ، وهى دفع الجراية السنوية الى الخزانة الامبراطورية مع مقدار من البارود . غير انه لم يجمع من الديون المعلقة الا القليل ، لان تفسيرا بارعا للتقويم اظهر عدم وجود كثير من الدين[1] . وأمن الباشا على مركزه هو بالهدايا الوفيرة للسلطان فى استانبول .

كان حكم هذا الوالى الشاذ محمودا لتوطيده دعائم الامن باخماده العاجل للحركات القبائلية ، وبطوافه الليلى فى انحاء عاصمته بين حين وآخر . على ان هذا الحكم كان ممقوتا بسبب التشدد الذى كان يقوم به جباة الضرائب ، والفقر العام الناشىء من ارتفاع الاسعار ، والتفسخ الاخلاقى الذى كانت اعماله هو خير مشجع له . وقد فاقت ثروته ومظهره كل شىء يتذكره الاحياء . فان عدد حرسه الخاص وعددهم كان يذكر الشعب الساذج بجيوش الفاتحين الشهيرين . وبقى مأثورا ادعاؤه بعلم الغيب ، والحوادث التى كانت تؤيد ذلك ، وظلت تتناقله الافواه مدة طويلة . وبعد سنين ثلاث نقل فى ١٦٦٢ م (١٠٧٣ هـ) الى كريت . ومن المحتمل ان ذلك كان سببا فى تأثره نفسيا ، ففكر فى ان ولايته الصغيرة الجديدة كانت بمثابة فخ يصطادونه به ، ففر ملتجئا الى الاكراد الجبليين . ولكن صادفه التوقيف بدلا من ان يجد هناك ملجأ يحتمى به . وبأوامر من السلطان سجنه والى ديار بكر ثم نفذ حكم الاعدام فيه ، فقضى بعد ان كان الحاكم المهيب .

وانتقى خلفه على بغداد انتقاء جيدا ، فقد كان جنديا محترما[2] خدم فيها مدة جيل وهو رئيس من رؤساء الجيش الانكشارى . وقد تضاعفت قيمة حكومته الحازمة الهادئة بعد الاضطراب الذى كان سائدا على عهد مرتضى . ووجد منه المفترون والمنتقمون فتورا

---

(١) يقول كولشن ان ذلك تم عن طريق الفرق بين التقويم القمرى الاسلامى والتقويم الشمسى الرومانى ـ اليونانى ، اما كيفية تدبير ذلك فليست معروفة عند المؤلف .

(٢) عبدالرحمن باشا .

وابتعادا . لكن الفلاحين وعامة الشعب استحسنوا منه الغائه للرسوم البغيضة ورفع امتيازات الموظفين . ومع اعتداله وثباته في الحكم ، وهو رجل مسن ، كان هو نفسه من مدمني الخمرة ، وعرضة لاستشاطات نفسية وحشية . وقد حكم ما يقارب السنتين . وكان الفرق بينا من جميع الوجوه بينه وبين خلفه وهو شاب شرس عديم البصيرة . فقد بقي عقلاء بغداد مدة ستة اشهر ينغضون رؤوسهم بسبب مشاوريه ولهوه وجشعه الذي لا رحمة فيه . وفي الاخير ازال الموت مصطفى باشا بداء المغص غير مأسوف عليه ، ودفن في صحن الشيخ عبدالقادر .

ثم جاء قره مصطفى باشا لهذا المنصب ثانية ، بعد ان قضى دهرا كانت سيرته فيه سيرة المجازف الذي يصيبه التقدير والخسران ، وتتناوب عليه الهزيمة والرفعة ، وهذا هو الامر الذي اوصله الى منصبه هذا في العراق الذي سيحكم فيه مرة ثالثة ايضا . وتردد ذكرى السنين المتأخرة ، من باشويته في هذه المرة ، الافراح المسرف فيها المقامة في يوم ختان ابنه . وجاءت السنتان اللتان تقلد خلالهما ابراهيم باشا الطويل زمام الحكم بحملة اخرى على البصرة سوف يذكر الكثير منها في بحث آخر ، وانتهت بتعيين قره مصطفى مرة ثالثة ، وفي هذا العهد ايضا تملأ اخبار القلاقل في جنوبي العراق التاريخ الذي لا يحفظ غيرها من الاخبار على طول العهد الممتد اربع سنين . ثم مات في البصرة بعد سنة . وكان الحاكم الذي جاء بعده ، حسين ، قد تورط في المشكلات الناشئة عن العداء المستعصي بين كبير ملازميه وكبير ملازمي قره مصطفى . هذه وحدها ، مع اعمال خيرية وتحسينات يسيرة اخرى ، قد سجلت في اخبار عهده . فان عدة جوامع وسوقا واحدة بنيت او رممت بايعاز منه . ثم اصلحت التخريبات التي سببها الفيضان في الاعظمية باشرافه وبالمبالغ المرسل بها من استانبول . وقد تقلد الباشوية من ١٦٧١ م (١٠٨٢ هـ) الى ١٦٧٤ م (١٠٨٥ هـ) .

وكان سقوطه لحد ما نتيجة الاخطاء التي ارتكبها الموظفون الذين كان يعتمد عليهم على العمياء ، وعن الرعب الخاطيء الذي دب في استانبول خاصة . فقد تفشت شائعة بصورة مفاجئة - قد يكون سببها اعتداءات الم على الحدود التركية - هي ان خطرا جديدا اصبح يهدد بغداد . وكان ذلك كافيا لتجديد الفوضوية في حاميات العراق ، وحافزا لاولي الامر في اوربة للتعجيل بايفاد أغا مجرب من اغوات الانكشاريين

يدعى عبدالرحمن باشا . فأعاد هذا الادارى الفطن المعتدل النظام بين جيوشه ، ورد على التخويف الايرانى باصلاح نقاط الدفاع . ثم ملئت مخازن الحبوب والسلاح ملأ[١] جديدا ، وأعيدت الثقة ، واعقب الوالى هـذه باصلاحات فى ماكنة الضرائب وبضربات نظامية انزلها بأسوأ الحكام المحليين . ومن الاشغال العامة التى قام بها اعادة بناء قبة الشيخ معروف الكرخى والاستمرار فى الاشتغال بسدة الفيضان العظيمة التى بدىء بها قبله . غير انه مع الكلف الباهضة ومشاق عمل السخرة لم تدم السدة من بعده . وحل محله فى الحكم بعد انقضاء عشرين شهر قبلان مصطفى باشا ، فكانت حكومته اشبه بحكومة سلفه نزاهة وحكمة واحسانا . واستطاع الحاكم الحديث ان يصمد بجدارة لهياج آخر قام به الانكشاريون المتعسفون الذين بدأوا يسيئون استعمال قوتهم من دون خجل فى كل ولاية من الامبراطورية . ومما دل على تدين قبلان الفطن انشاء رصيف باهظ الكلف فى الاعظمية ، وترميمات اجراها فى قبة محمد القدورى[١] ، وزيارته لكربلا .

وكان عمر باشا الذى تلاه فى الحكم قد حكم من قبل فى ولايتين هما مصر وديار بكر ، ودام حكمه فى بغداد اربع سنوات تقريبا . وتذكر الاخلاف من بعده مختلف المشاريع التى قام بهـا وهى التحسينات التى ادخلها فى تربة أبى حنيفة وقبر أبى يوسف ، وجعل مدرسـة ملحقة بجامع قمرية ، ثم بناء خان للقوافل ومخفر فى خان أزاد . وفى آخر سنة لحكمه فى بغداد شبت فتنة اخرى بين الانكشاريين كان يقودهم فيها اناس وصلوا حديثا من استانبول ، ودبرت حملة ناجحة على بنى لام . وفى ١٦٨١ م (١٠٩٢ هـ) نقل من ارضروم الى بغداد ابراهيم باشا ، وهو أغا عسكرى قديم . فأثنى على همته ثناءا حسنا فى قمع عصيان حدث فى حاميته ، وفى تأديب شرطة المدينة المتفسخة الجائرة . وكانت خدماته العمرانية العامة انشاء رصيف وجامع وسكة يدوية على جسر الزوارق . وبعد ثلاثة اعوام ونصف رجع عمر باشا الى المنصب ثانية فاستقام فيه ثلاث سنين . وتولاه أحمد باشـا سنة واحدة ، ثم تلا ذلك رجوع عمر مرة ثالثـة . وبذا تصل بنا الاخبـار (التى اصبحت شحيحة فى مرجعنا) الى سـنة ١٦٨٩ م (١١٠١ هـ) .

---

(١) الظاهر انه « احمد القدورى » الفقيه الحنفى المشهور فى عهد بنى العباس وقد دفن بالجانب الغربى من بغداد ـ كما فى الوفيات ـ « م. ج » .

واقلقت حكم حسن باشا[1] الهادىء المجاعة الشديدة التى كانت ممسكة بخناق اواسط العراق عند توليه الحكم • اذ ملئت ازقة بغداد بجثث الموتى • وقصد رجال القبائل من الكرد والعرب تجار المدينة للحصول منهم على الخبز بعد ان خابوا فى الحصول عليه من حقولهم هم انفسهم • وتبع المجاعة الطاعون حسب المعتاد ، فقضى على آلاف كثيرة • وتعاونت الفاجعتان وسارتا فى سيرهما حتى اضعفتا بغداد وافقرتاها • ولم يكن فزع الباشا من فراغ الخزانة بأقل من فزعه من انباء كردستان السيئة • فقد جار مير سليمان[2] ومير حسن ، الرئيسان الكرديان ، فى شهرزور على رعاياهما الحقيقيين بحيث اضطر دىلاوير فى كركوك ان يتدخل فى الامر • فأخسرته الحملة حياته من دون ان ينجز شيئا • وعندئذ خطت ولاية شهرزور خطوة ذات اهمية فى توجيه نداء الى الباشا فى بغداد استرحم فيها ارسال حاكم لهم • فأوفد متسلم ، وكانت هذه المرة الاولى التى تعترف بها كركوك او الموصل بسلطة بغداد عادة لها اكبر من ولاية جارة نديدة ، ثم تنحى حسن باشا عن الحكم برغبة منه فى ذلك ، غير ان قضايا نشأت عن حساباته ادت الى اعتقاله فى القلعة • ومات خلفه أحمد بزركان مريضا بعد اشهر قلائل ، فاغتنم سكان بغداد الفرصة وسرحوا حسن باشا الذى كان لا يزال معتقلا • فترك الباب العالى هذا الحادث يمر من دون تعقيب ، لكن الولاية اعطيت الى احمد كهية عمر باشا الوالى الاسبق • فمات فى اوائل ١٦٩٤ م (١١٠٦ هـ) •

واضطر خلفه ، وهو حاج وسمى لسابقه ، ان يهتم لتفاقم الحالة فى المنتفك بقيادة مانع • وقد افرز أمر البحث عن هذه القلاقل وغيرها مما يختص بأواسط العراق فى فصل مستقل • وابدى على باشا المعين فى ١٦٩٦ م (١١٠٨ هـ) صرامة فى معالجة قضايا القبائل الكبيرة الاخرى • فقد قضى على شرذمة من شمر كانت تغزو عبر الفرات بالقرب من الفلوجة ، وبعث شيخ الموالى بمهمة تأديبية اخرى ، وانتقم هو نفسه من زبيد وبنى لام • وفى ١٦٩٨ م (١١١٠ هـ) عين لبغداد اسماعيل باشا حاكم مصر السابق • فكانت ، لسوء الحظ ، قابليته للحكم الحر العادل ممزوجة بمزاج اندفاعى حاد •

---

(١) يعد نيبهر (الرحلة ص ٢٥٣) فى قائمته لاسماء الباشوات حسن باشا هذا نفس حسن باشا الذى حكم فى ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) (او كما يقول ١٧٠٢) ويقبل ذلك منه اوليفييه (ص ٣٤١) • غير ان هذا يجب ان يرفض تماما بالنظر لمعلوماتنا الحقيقية فى سيرة حسن باشا الاول •

(٢) من الصعب ان يكون هذا غير سليمان بك بابان •

وكان قد تقلد من قبل مناصب عالية مثل أغا الانكشاريين ، وحاكم الروم ايلى ، ونائب الصدر الاعظم . وقد تبع فتنة نشبت فى حامية كربلا نهب المدينة المقدسة ، الامر الذى حدا الشاه ، من حيث انه بطل الشيعة ، ان يعجل بأخبار استانبول بالامر . فنقل اسماعيل الى وان بعد شهرين من حكمه . غير انه ادرك ان تحويله هذا كان يهدد سلامته فادهش الجميع بفراره الى ايران وفيها مات فى ١٧٠٠ م (١١١٢ هـ) . وكان حاكم بغداد الحديث ، دلتبان مصطفى ، صربيا عنيفا مستبدا ، وأميا لكنه كان مندفعا . فرفع بعد حملته على البصرة واصبح صدرا اعظم خلفا لحسن كوبريلى العظيم . ولم يذكر ما يستحق الذكر عن حكم خلفيه فى بغداد : يوسف باشا وعلى باشا .

وفى السنة الخامسة من القرن[١] الجديد عين حسن باشا لايالة بغداد . وبذا يكون قد حكم قبله فى سراى بغداد منذ احتلال السلطان مراد سبعة وثلاثون باشا فى مدة خمس وستين سنة . ولم ترنا هذه الفترة فى العراق الاوسط الا القليل من الشخصيات اللامعة او الحوادث التى تسترعى انتباه العالم . ونظرة واحدة تنظر الى شمالى العراق الشرقى لا تدلنا على اكثر من ذلك ، لان المدونات التاريخية شحيحة فى اخبار هذا العهد . الا ان الحالة فى المناطق التى هى اكثر انبساطا وحرارة ، الواقعة فى شمال الخليج كانت تتمخض بتاريخ حافل بالاطماع والخيانة وأخذ الثار .

العراق الشمالى[٢]

كانت باشويتا الموصل وشهروز (وعاصمتهما كركوك) على طول هذه المدة مستقلتين عن الباشا فى بغداد ، الا عندما كانت تصدر الاوامر السلطانية بالتعاون والتآزر . كما ان نفوذ ديار بكر على الموصل ، الذى لم تؤيده بعض الادلة فى القرن السادس عشر ، قد زال . ثم ان تدخل بغداد فى شؤون كركوك كان محصورا فى

---

(١) هذا ما يذكره كولشن ، اما نيبهر (ص ٢٥٣) فيذكر ذلك فى سنة ١١١٤ الهجرية (١٧٠٢ م) جاعلا مدة ٢١ سنة تنتهى فى نهاية ١٧٢٣ . ويتبعه بهذه الفون هامر (الكتاب ١٤ ص ٧٦) وكذلك اوليفييه . اما حديقة الوزراء فيذكر السنة ١١١٧ الهجرية اى بتأخير سنة واحدة ، غير ان كولشن أهم المراجع .

(٢) المراجع : تقويم الموصل ، تافرنييه ، اوليا افندى ، سليمان الصايغ .

حادثة واحدة فى ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ) • وقد حدث مرة واحدة - ١٦٤٠ م (١٠٥٠ هـ) - ان كان باشا واحد يمسك زمام الحكومتين فى العراق الشمالى • وتدل العلاقات الاخيرة فيما بين الولايات العراقية على ان موقف كل منها كان يتطور تطورا مستمرا ، خاصة فى ظهور الشخصيات الفذة بين الحكام الذين كان ينتشر نفوذهم بحسب شخصياتهم وفعاليتهم • اما الاسس العسكرية فى الادارة فكانت تقضى بأن كل وزير او بكلربكى كان فى وسعه قيادة اى مير ميران او اى سنجق بجواره • وكان مجرد حكم الولاية دليلا على ان ذلك بمقام مكافأة لخدمته المرتضاة • ولذا كان يتحتم على الولايات وسكانها احترامه وائراؤه ، ثم ترضيه وترضى الباد شاه معا •

وبينا كانت الوحدات الكبرى رخوة على هذه الشاكلة كانت الوحدات الصغرى فى طور التبلور • وكلما كانت القبائل تستوطن اماكنها الحالية بالتدريج ، وكلما اصبحت القيمة للحدود الطبيعية واضحة ، كانت الايالات تتجزأ الى وحدات يكثر شبهها بوحدات القرن التاسع عشر • فان حدود البقاع القبائلية المعروفة على مر الزمن ، او المقاطعات الوراثية او الوديان او مساكب المياه أصبحت حدودا للنواحى والاقضية المقبلة • واعترف بها حتى فى هذا الوقت ملتزم الاقطاع واغا الحامية والدفتردار مع ضامنى الضرائب التابعين له •

وكانت الايالتان تضمان مناطق تحكمها الحكومة نفسها ، وحكومات كردية محلية فى المدن ، وقبائل تحكم بنفوذ ضئيل • ولم يبق لنا شىء من السجلات مما يدلنا على تاريخ الاقسام المسكونة والمحكومة من ولاية شهرزور • على ان مدينة كركوك الجميلة لم تتبدل كثيرا فى القرنين الاخيرين ، كما لم يتبدل خط القرى التركمانية الممتد على طول الطريق الاعظم ، ولا القرى العديدة التى يقوم سكانها بالزراعة الديمية « الديم » • وكان النفوذ التركى يتغلغل فى الاماكن التى يكثر فيها الدم التركى، وتنتشر فيها اللغة التركية والمذهب التركى اكثر مما كان يتغلغل فى سهول العرب وجبال الاكراد • ولم يبق من المدونات شىء فى اخبار الباشوات المتعاقبين ولا عن حوادثهم وايامهم •

وكانت الانطباعات النفسية فى الزائرين الاوربين القليلين عن حال الموصل سيئة • فقد كانت عناصرها المختلفة والعداوات من الاسباب الثابتة لا يقاد نار الفتنة واثارة المنازعات المرة فى المدينة • ولم يتبدل سورها وبناياتها الحقيرة ، ولا شوارعها القذرة منذ

غزاها السلطان سليم المخيف واستولى عليها • وبقيت التجارة تتناول المنتوجات الكردية المصدرة الى حلب وديار بكر ، واللوح والقمح الذى كان يؤتى به جنوبا الى بغداد على دجلة ، كما كانت تتناول قليلا بيع المأكولات والملابس للقبائل العربية المجاورة • ثم ان القماش الموصلى « الموسلين » المشتهرة صناعته فى الموصل قد اوشكت حياكته فيها ان تنقطع • وكان المسافرون يلتجئون الى خانين غير عامرين • وكانت فيها اربع طوائف نصرانية تختلط وتتنازع بعضها مع بعض • وظلت جماعة من الاخوان الكبوشيين فى بناية تطل على النهر حتى اخرجهم منها الباشا لعلة من العلل • اما فى الجانب الآخر ، الموصول بالاول بجسر من الزوارق ، فكان جامع النبى يونس كعبة الزوار القاصدين اليه • وكانت تتألف الحامية فى ١٦٤٤ م (١٠٥٤ هـ) من الانكشاريين والخيالة الاقطاعيين ، ويبلغ مجموعها كلها ٣٠٠٠ رجل •

على انه من السهل ان نتصور قضايا حكومة الموصل الرئيسة ، تلك القضايا التى لم تكن لتخرج عن امور اليزيديين المتذمرين فى سنجار ، وجماعات الاكراد الغازية من سفوح الجبال ، والجراد ، والمحل ، والبدو الذين لا تتبدل احوالهم • لكن السجلات شحيحة بذكر الاخبار ، فهى لا تكفى للتطرق الى البحث فى تلك الامور • فلا يمكن ان يعرف الا الشىء القليل من احوال الباشوات الذين حكم منهم ثمانية واربعون فى الفترة المنحصرة بين ١٦٣٨ م (١٠٤٨ هـ) ونهاية القرن • فقد كان عدد منهم من الوزراء ، كما كان اكثرهم ممن هم برتبة الميرميران وهى أدنى من الوزارة • وان قسما منهم كانوا قد نقلوا اليها من ايالات اخرى مثل وان وقارص والبصرة وبغداد وديار بكر • ويظهر ان منزلة ايالة الموصل كانت مشرفة ، وكان فى وسع الباشا الذى يحكم فيها ان يقود قوة لمساعدة زميله فى جنوبى العراق • واعتلى المنصب فيها مرشحون من الاسر الموصلية فى بعض الاحيان ، وذلك مثل محمد امين بن بكر باشا المذكور من قبل • فقد أمسك زمام الايالة لبضعة اشهر فى وقت كانت فيه بغداد خاضعة للحكم الايرانى • وكذلك كان زينى باشا فى ١٦٧٤ م (١٠٩٥ هـ) الذى حفظ التاريخ من تقلبات اطواره وخشونته عدة اسطورات • وتقرن بأسم كل من الباشوات الآخرين حادثة واحدة على الاكثر ، كالاسر الطويل الذى قضاه مصطفى باشا « الاسير » فى اوربة ، وصرامة على باشا (والى بغداد فيما بعد) مع عصابات اللصوص ، والنزاع المر الحادث بين ابراهيم باشا وزعيم العمريين يومئذ وما أدى اليه الامر من موت الاثنين • وكان

هؤلاء الولاة الثلاثة قد تولوا الحكم فى ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ) و ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) و ١٧١٢ م (١١٢٤ هـ) • وجاء فى الاخبار من حوادث السنة الاخيرة ثورة رشوان زاده خليل باشا ، الذى جمع قوة من الاوباش وادخل الرعب فى المدينة واطرق • فأمر والى الرقة ، طوبال يوسف باشا ، بان يعيد الامن الى نصابه • فزحف الى الموصل واشتبك مع الثائر فذبحه ، ولاجل ان يسبغ رونقا خاصا على مهمته قطع رأسه فبعث به الى استانبول •

وفى البلاد الجبلية الواقعة فى شمال الاصقاع الداخلة فى حكم الايالتين وشرقيها كان صلح ١٦٣٩ م (١٠٤٩ هـ) قد آل اخيرا الى انقسام الاكراد بين السلطتين الشيعية والسنية • فظلت قبائل الكلهور واردلان تتجه بصورة أكيدة الى ايران • وانقسم المكريون فوقعت شهرزور فى ضمن الممتلكات التركية • وترك أمر عدد من المراكز – ساكيس وزهاب ودرنه – لتتنازع عليها الاجيال المقبلة • وكانت هجرة القبائل التى لا تزال يومئذ فى طور البداوة ، والغزو المتبادل بين الاعداء على جهتى الحدود مما يجعل الحدود شيئا مجهولا • ولم تضيع السلطتان اية فرصة فى الحصول على نفوذ فى شؤون جارتها ، كما لم يتردد المتعادون فى ضمن الولايات والقبائل الكردية فى تقديم المساعدات الممكنة للجهة التى كانوا يطمعون فيها • على ان القرن السابع عشر بوجه عام قد شهد رسوخ النفوذ التركى فى تلك الجهة من كردستان التى يعود البحث عنها لتاريخ العراق •

والى أبعد من هذا شمالا ، كانت العمادية والجزيرة قد حافظتا على وضعهما فى الاستقلال غير الكلى • ولم تكن الجزيرة فى الحقيقة ، وهى بلدة صغيرة غير عامرة ، الا سوقا مهمة يلتقى فيها التجار ، ومرحلة من مراحل الطريق العام ، وموقعا لجسر من الزوارق • ولم يعترف البك فيها بأية سلطة عالية تسيطر عليه سوى تابعيته التركية • اما العمادية فقد صانها موقعها الطبيعى الدفاعى وبعدها عن الطريق العظمى من التدخل التركى • وكان بوسع البك بها فى ١٦٦٠ م (١٠٧١ هـ) ان يجمع ثمانية آلاف الى عشرة آلاف من الخيالة ، ومن الرجالة قوة أعظم من اى قوة يمكن ان تجمعها بلاد مجاورة لها • وكان من شروط تابعيته ان يقوم بخدمة عسكرية عند الطلب • وعلى هذا شاركت قواته فى ١٧٠١ م (١١١٣ هـ) قوات الموصل وديار بكر فى اخماد العصيان الذى

حدث فى جنوبى العراق . وكان الرئيس يومئذ رباد باشا . وكانت رتبة الميرميران[١] تمنح احيانا ، ان لم يكن اعتياديا ، الامير الحاكم فى العمادية ، كما منحت فى الاخير الى البابانيين .

وكان لكوى استقلال مشابه فى حكم بيكاتها السورانيين . اما البلدان الصغيرة مثل زاخو ودهوك وعقرة ورانية فقد كانت تبذل شيئا من الطاعة لبيكات جيرانها الذين هم اكبر منها . وكانت رابطتهم الحكمية هذه تتضمن المساعدة العسكرية ، وتأدية بعض الجراية اى حقوق الارض ، ووجوب تقديم قضايا المنازعات للبت فيها . على ان فعالية هذه الواجبات كانت تتوقف على شخصيات الساعة ، وفرص الحصول على استقلال اوسع ، وأمل المساعدة فى هذا الشأن من الجيران الترك او الاكراد .

وكانت ايام العز للخان احمد خان ، فيما وراء الحدود فى اردلان ، قد انتهت بعد وفاة الشاه عباس . لان الشاه صفى اضطره الى الارتماء فى احضان الترك على اثر معاملة قاسية عومل بها وذلك فى معرض اصرار الشاه على الفتك بأحسن مؤازريه . فقابله السلطان عثمان بترحيب عظيم ، ويظهر انه استوطن الموصل[٢] . فأخذ مكانه فى اردلان سليمان خان المنتسب للعائلة نفسها ، وذو الزلفى لدى البلاط الايرانى . وقد ذكر تحرش اردلان الآخر بممتلكات السلطان ، فى السنين الاخيرة من القرن ، فى معرض البحث عن نهوض البابانيين .

---

(١) وهذا يحمل لقب باشا .

(٢) تقول الرواية الاردلانية انه « حكم » الموصل وكركوك وشهرزور سبع سنوات .

الفصل الخامس

امير البصرة

اسرة افراسياب[1]

لم يذكر اسم البصرة فى هذه الصفحات الا قليلا منذ بحثنا عن جدها العاثر فى القرن السادس عشر . فقد رأينا كيف زال حكم رئيس قبيلة فيها فحل محله حكم باشا ايالة ، وكيف تجبر الباشا فى حكمه بسبب الفوضوية التى كانت سائدة فى البر والنهر ، خارج ابواب المدينة ، للتبرم الحاصل من الحكومة الاجنبية فى الداخل . يضاف الى ذلك ما بحث فيه من سيطرة البرتغاليين على ما وراء مصب شط العرب من اليم ، ومحاولة الاتراك الجريئة لاحلال رايتهم محل الراية البرتغالية . وتظهر فى تاريخ البصرة فى القرن السابع عشر تلك الظاهرة نفسها ولكن بترتيب مخالف . وسنرى كيف وقفت البصرة نفسها موقف المتفرج فى حين ان تنازعت السلطات الاجنبية النفوذ فى الخليج . فتحل من جديد حكومة تركية من الطراز الاعتيادى محل أسرة محلية فى الحكم . فيجد الحكام الترك عودا على بدء ان مهمتهم فى الحكم شاقة وأصعب من ان يستطيعوا حل مشكلتها . ومن حقنا ان نسأل كيف تمكنت البصرة ان تقف معتزلة ، وهى فى منطقة لم تنفصل رسميا عن الامبراطورية ، فى اثناء النزاع التركى الايرانى على امتلاك بغداد مدة خمسين سنة ؟

شهدت السنون الاولى من القرن السابع عشر ضبط الباشوات الاتراك لحكومة البصرة يتضاءل شيئا فشيئا . فكان عصيان محمد الاحمد الطويل فى بغداد قد قرب العصيان فى البصرة من اذهان الناس فيها . اذ كان فيها النبلاء العريقو الانساب ورؤساء القبائل الاشداء وفى نفوسهم اطماع كثيرة واحترام قليل لموظفى السلطان . وفيما يقارب منتصف السنوات العشر الثانية من القرن تولى الحكومة احد سكان البلد المسمى

---

(١) المراجع : تافيرنييه ، « زاد المسافر » للشيخ فتح‌الله الكعبى ، مالكولم ، بيترو ديلا فال . اما بحث الخليج فالمراجع فيه كالسابقة .

افراسياب . ونرى فى السجلات ان الباشا قد اجاب الى ترك البلدة وشأنها بسلام بعد ان اضطرته لذلك غزوات القبائل المستمرة واشتباكها مع الحامية التركية اشتباكا دائما. وبلغ الامر فى الاخير الى ان السكان العرب فى البصرة لم يستطيعوا بعدما مضى احتمال وجود الحامية الاجنبية فى القلعة .

« وكما ان الحامية كانت تركية وسكان البلد من العرب الذين لا يتحملون الاستعباد كان هؤلاء السكان فى نزاع وكان النزاع كثيرا ما يؤدى الى الاصطدام مع الترك . فيخف اذ ذاك عرب البادية لاسعاف السكان ، فيحاصرون الباشا فى الحصن . ولم تهدأ الحالة فى الاخير ولم يتفق الفريقان على شىء . ومل الباشا - واسمه « ايود »[1] - من الغزوات والتأديبات فعزم على بيع حكومته الى احد اغنياء المدينة باربعين الف قرش . واجرى ذلك ، وجهز ذلك الغنى المشترى اجنادا لتهدئة الناس . وسمى هذا الرجل العظيم بأسم افراسياب باشا ... » .

وقد تمكن « ان يخلع عن نفسه النير التركي وان يلقب نفسه امير البصرة . اما الباشا الذى باع حكومته فقد شنق ساعة وصوله الى القسطنطينية » . وليس فى هذا الوصف[2] ما لا يحتمل وقوعه . ويشرح قيام افراسياب مصدر آخر[3] ، ولكن باختلاف فى التفصيل فقط . فكان افراسياب على هذه الرواية[4] :

« كاتبا للجند المحافظ فى البصرة فاتفق رأى أهل البصرة على هجر الحاكم الرومى وكان اسمه على باشا فقلت مداخله وعجز عن ارزاق الجند المحافظين معه فباع البصرة من افراسياب المذكور بثمانية اكياس رومية والكيس ثلاثة آلاف محمدية على ان لا يقطع الخطبة من اسم السلطان ... » .

ان المعلومات التى تصف حال افراسياب بأحسن من هذا غير واضحة . فأن علاقته بالسلطان وبالوزير فى بغداد ، وماهية قواته من حيث كونها تركية او محلية ، ومعاضدته

---

(١) هكذا ورد فى النص ، وربما كان الاسم قريبا من اسم ايوب (المترجم) .

(٢) تافيرنييه . (٣) زاد المسافر .

(٤) اقتبسنا النص الاصلي بجمله من كتاب زاد المسافر من ص ١٧ من طبعة مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٩٢٤ (المترجم) .

او مناوئته كلها غير أكيدة . فقد قيل[١] ان أباه كان من دم سلجوقي قديم ، وان أمه كانت امرأة عربية من الدير[٢] . وكانت قدرته على جمع القوة تدل على مؤازرة القبائل له ، لان مجازفة تقلد المنصب وتحمل المسؤولية بهذه الصفة لم يكن في وسع احد ان يتحملها ان لم يكن من رجال القبائل الاقوياء . كما ان أخذه لقب الباشا ، او الانعام به عليه من حكومة كانت تتشوق الى الابقاء على ولائه مما يدل على حال أقل من الاستقلال . ولاشك في انه كان يعلن برسائله الى الخليفة (الذى اعترف فى الاخير بأبنه بفرمان وخلعه) بالولاء ، ذلك الخليفة الذى كان يتحمل انفصال البصرة النصفى على عهد الوالد . ومن المؤكد ان افراسياب وحكومته لم يدفعا الجراية ولم يبذلا الطاعة لبغداد ولا لاستانبول . ولذلك لم تكن البصرة فى حوزة الحكم التركى ، لكنها ما كانت خارجة عن منطقة نفوذه . وعرفت حكومة افراسياب بالامن والقناعة .

واستطاع ان يوسع حكمه ويوطد دعائم النظام فى خارج المدينة وضواحيها حتى شمل ذلك قبان والدورق وغيرهما من جزر ومواقع شط العرب . وفيما عدا ذلك كانت علاقاته الخارجية تنحصر فى امور ثلاثة . فقد استنجد به والى الحويزة التابع لايران طالبا مؤازرته ومعاضدته فى ان يذب عنه ولاءه للشاه . واظهرت قبائل البادية والاهوار ، حتى لحاكم محلى مثله ، اكثر المشاكل التى كانت تسببها لمن كان قبله ولمن جاء بعده . اما فى الخليج فقد ميزت اواخر سنى حكمه حوادث جسام .

ومنذ ١٥٨٠ م (٩٨٨ هـ) أخذت منزلة البرتغاليين الممتازة تتدهور . فقد قدر للبرتغال نفسها ان تكون هدفا لحكومة الاسبان المتعصبة الطامعة مدة ستين سنة . وبغضتهم الى الناس فى كل جهة من جهات الخليج قسوتهم وخشونة طباعهم . ولما أخذ وصول الامداد الى حامياتهم يقل شيئا فشيئا صار فى وسع البحارة من الايرانيين والعرب ان يقوموا ثانية برحلاتهم ، وتجرأوا على اغلاق موانيهم وكلاأاتهم[٣] بوجه « الدوم » . وفى هذه الاثناء بدأت عيون اوربية اخرى تنظر نحو الشرق . فكانت انكلترا ، قبل

---

(١) زاد المسافر .

(٢) وهذا نص زاد المسافر : « وذكر عبد على بن رحمة الحويزى فى كتابه « قطر الغمام » انه من آل سلجوق ملوك الروم وان أهل الدير اخوال لافراسياب » . (المترجم)

(٣) الكلاء على وزن شداد مرفأ السفر ومنه كلاء البصرة وهو العشار الحالى .

واقعة الارمادا ، قد ارسلت أيلدرد ونيوبرى وفيتج ليرتادوا طريق الفرات ويدرسوا وضعه ، ثم شكلت بعد ذلك فى ١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) شركة الهند الشرقية اول مرة . كما ان الهولانديين كانوا قد دخلوا المياه الهندية ، لا الايرانية ، فى السنين الاخيرة من القرن . وعلى هذا شهدت العشرون سنة الاولى من القرن السابع عشر بقاء البرتغاليين فى حال مسيطر قد دب اليه الوهن والضعف . ولـم يذعن ملك ايران القوى مطلقا لاحتلالهم موانيه ولا لجورهم على رعاياه . وفى ١٦٠٢ م (١٠١١ هـ) اخرجتهم قواته من البحرين ، وفى ١٦٠٨ م (١٠١٧ هـ) تمكن من الضغط بشـدة على قلعـة هرمز العظيمة . وبعد ذلك بأربع سنين احتل البرتغاليون بندر عباس[1] ، وهى محطة أسسها الشاه لتضاهى هرمز وتزاحمها . غير ان القوات الايرانية طهرت المكان فى ١٦١٤ م (١٠٢٣ هـ) من البرتغاليين فلم يسترجعوه من بعد .

على ان الضربة القاضية على سطوتهم فى هذا المكان لم تكن لتأتيهم من الخصوم المحليين ، بل كانت من اوربة . فقد وقعت حادثة فى ١٦١٦ م (١٠٢٦ هـ) قدر لها ان تضعف نفوذ هرمز اكثر مما كانت تضعفـه العراقيل التى كان يضعهـا الايرانيون او العمانيون . فقد رست الباخرة « جيمس » التابعة لشركة الهند الشرقية فى جشك . اذ جاءت الشركة فى هذه المرة ، بعد ان أصبحت ثابتة المركز فى سوراة ومتصلة بالشاه عن طريق السفارات ، تجرب جدها فى التجارة بالحرير . فنتجت هذه البعثة الى الخليج نتائج مهمة . فصدر فرمان مملوء بالجمل الملائمة مكافأة لجهود المستر ادورد كونوك رئيس الشركة الذى لم يكن له سند . ثم وصلت الى جشك فى اواخر ١٦١٧ م باخرة ثانية للشركة . واستمرت المفاوضات مع الشاه ، فنجحت على اساس انتقال قسم من تجارة الحرير الى البواخر الانكليزية ، وتبادل المراسلات الرسمية بين ملك الانكليز وملك ايران ، وبرواج الطرق والاساليب الانكليزية وتقدمها على البرتغالية . وعلى هذا تواردت البواخر التجارية الانكليزية بكثرة على جشك من ١٦١٨ م (١٠٢٨ هـ) الى ١٦٢٠ م (١٠٣٠ هـ) .

واذ ذاك قضى على هرمز بالاضمحلال . فقد كان الشاه فى اوج قوته . وكان العداء التجارى مثيرا للاصطدام الدائم بينه وبين البرتغاليين ، وغدا أمر هرمز منه كشوكة قديمة فى جنبه . غير انه كان يعوزه وجود اسطول . وكانت الشركة راغبة فى تجهيزه

---

(١) المعروفة لدى الاوربيين طوال القرن باسم غومبرون .

اليه بشروط وضعت بتحرز • ثم حسمت قضايا امتيازات سابقة ولاحقة فى اجتماع عقد بين وكيل الشركة وحاكم فارس • وفى كانون الثانى ١٦٢٢ م (١٠٣٢ هـ) احتل الاسطول الانكليزى حصن قشم البرتغالى المنيع ، وبدىء بالهجوم على هرمز فى اوائل شباط • فأحتلت قوة ايرانية البلدة بسهولة وبدأت بمحاصرة الحصن ونسفه بالالغام • غير ان الدفاع كان عظيما ، مع ان قوات الشاه كانت ضعيفة خائفة • واغرقت فى الميناء البواخر البرتغالية واحدة بعد اخرى وكانت بواخر الشركة تنزل الى الجزيرة جماعات المدد للقوة المحاصرة • ومع امتداد الحصار الى نيسان لم تكن نتيجته الا واحدة • فقد سلم البرتغاليون بشروط ، وتخلوا عن البلدة فنقلوا الى مسقط • وتخطف غنائم الحصن ، خلافا للشروط المتفق عليها ، اول القادمين من الحلفاء غير الصميمين •

تحمل البرتغاليون بهذه ضربة ساحقة ولكنها ليست مميتة اماتة تامة • وحصل الانكليز على سوق اكثر ملائمة من جشك ، وبرعاية الشاه الذى سمح لهم بالنزول فى بندر عباس من دون ان يحصنوها • غير انهم سرعان ما علموا انهم لا يمكنهم ان يحصلوا من الايرانيين على العدل ولا على التعويض • كما لم يجدوا انفسهم قادرين بسهولة على عدم الاجابة الى طلبات الشاه باستنجاد الاسطول لمكافحة بقايا البرتغاليين والاتراك فى البصرة • الا ان هذه المحن كانت شيئا طفيفا بالنسبة لظهور قوة اوربية جديدة ، تحت ستار الحلف لمضادة العدو المشترك • اذ كان الهولنديون ، فى ذلك العهد ، قد نفذوا من المحيط الهندى الى هذه البحار الضيقة • فحطوا فى بندر عباس فى الوقت الذى حط فيه الانكليز ، وبنوا هناك معملا شامخا ، وضموا سفنهم الى سفن الشركة لتعمل معا فى مضادة البرتغاليين • وكان البرتغاليون فى هذه الايام وهم ثابتون فى مسقط اقوياء بحيث كان فى وسعهم ان يشنوا غزوات قرصنية ، بقيادة اميرال ذى جسارة خارقة • فجرت مصادمات فى شباط ١٦٢٥ م (١٠٣٥ هـ) فى مياه بندر عباس كابدت فيها القوات الثلاث الهولاندية والانكليزية والبرتغالية خسرانات فادحة • وعقد فى السنة نفسها صلح بين البرتغال وايران تنازل فيه البرتغاليون عن جميع مطاليبهم فى منازلهم القديمة فى الاراضى الايرانية •

اما افراسياب فى البصرة ، فقد كانت علاقات البرتغاليين به ضعيفة حتى سقوط هرمز • ومنذ هذا الحادث كثر اتصالهم بالبصرة ، وكانت الحماية التى يقوم بها حاكمها

لهم سببا في امتعاض الشاه منه . ومما يذكر هنا ان البصرة لم تهددها الجيوش الايرانية التي طهرت بغداد من الصوباشي ، كما لم يهددها قرجغي خان من بعد ذلك . لانها لم تكن تضم بين جدرانها عتبة شيعية ، ولا ارضا قابلة للزرع . الا ان تابعيتها للسلطان وحمايتها للتجارة البرتغالية كان يجب ان يوقفا عند ذلك الحد الذي بلغاه . فاصدر الشاه في ١٦٢٤ م اوامره الى خان شيراز امام قلي خان بمعالجة هذا الازعاج الذي نقض حركة بندر عباس التجارية جهارا . فطلب الى افراسياب ان يتخلى عن تابعيته التركية ويتقبل التابعية الايرانية . وان يسك النقود بأسم الشاه ، ويذكر اسمه في الصلاة (وذلك خير دليل للولاء) ويتخذ الازياء الفارسية في الملبس . ويكون في مقابل ذلك واليا وراثيا لا يقدم شيئا من الجراية ، وله ملء ما تسع الصلاحية المحلية .

فرفض ذلك افراسياب وكان يدعمه البرتغاليون . فسيق اليه جيش من شيراز عن طريق ششتر . وفي قبان ، تابعة البصرة ، قصفت البواخر البرتغالية الجيش الهاجم فصدته . وفي الفترة التي تبعت هذه الموقعة توفي افراسياب فخلفه ابنه علي باشا[1] .

فأخبر استانبول بتوليه الحكم ، وأعلن ولاءه لها ، ثم طلب المعونة . الا ان أمله للمعونة كان ضعيفا لان الايرانيين كانوا قد قطعوا طريق دجلة والفرات . ولكنه وصلت اليه قوة غير منتظرة تتألف من خمسة آلاف من اتباع والي الحويزة الفارين من امام قلي . وما حل مارت ١٦٢٥ م (١٠٣٥ هـ) حتى كانت البصرة تنتظر هجوم الخان وهي عالمة زحفه من الحويزة ، وكانت قوة علي باشا صغيرة حديثة . واعار البرتغاليون للباشا خمس سفن مسلحة بعد ان دفع لهم ما ارادوا . ثم أعلن التجنيد العام في المدينة وكانت قد تعالت اصوات الوطنية فيها . وجند اشراف البلد القوات المتطوعة فمشت الى معسكر الباشا وفي عدادها الصابئة المسالمون ايضا ،وقسمت القوة البحرية ، فرافقت ثلاث سفن منها علي باشا الى القرنة حيث كان من المتوقع ان يحاول الايرانيون العبور ، وانحدرت اثنتان الى الجنوب لوقف تقدم قد يحدث من تلك الجهة . غير ان مخاوف هذه الحملة القصيرة والاستعدادات لها انتهت بصدفة غريبة . فقد انسحبت القوة الايرانية فجأة تاركة

---

(١) يذكر الشيخ فتح الله ان حكومة علي باشا استمرت ٤٥ سنة ابتداء من ١٦٠٣ م . غير انه من المؤكد ان افراسياب عاش حتى سنة ١٦٢٤ . ومن المحتمل ان عليا كان يقوم بمهام الدولة في حياة والده حتى مات . ولم يتول افراسياب حكومة البصرة الا حوالي ١٦١٢ .

كل شيء حتى آلات المعسكر من دون ان تطلق اطلاقة واحدة . ومن المحتمل ان سبب الانسحاب كان حدوث اضطراب في شيراز او ورود أمر من اصفهان . فانقذت البصرة على كل حال . وبعد ايام قلائل (مايس ١٦٢٥م) وصل الى على باشا من استانبول على طريق البادية ، الفرمان مع الخلعة والسيف . وبذا ثبته انتصاره وشهرته فى حكومته . فأعيد بناء مراكز الدفاع في القرنة وهى المركز الطبيعى لطليعة الجيش . وفى ١٦٢٩ م (١٠٣٩ هـ) حاول امام قلى محاولة اخرى ، فلم يبق من الممكن فى هذه المرة توقع المعجزة التى أنقذت المدينة من قبل . فاضطر على باشا لطلب المساعدة من قبائله ، ثم استعملت فى الدفاع خدعة رأى التاريخ تكرارها عدة مرات من بعد . فقد كسرت السدة التى تحفظ المدينة من الغرق ، وغمرت بالماء البطاح المنبسطة اميالا عديدة حولها . وفى الوقت نفسه سمع الايرانيون ، وهم ضعيفون فى المواصلات المائية وممتحنون بهذه الاحوال الغريبة ، بوفاة الشاه عباس فانسحبوا . فبذلك ترك على باشا حرا فى تسيير سكان حكومته الحرة الرحيمة . وكانت القبائل الشديدة البأس فى منطقة الجزائر ، التى لم تكن خاضعة للحكم التركى منذ مدة طويلة ، قد عقدت حلفا كانت البصرة وبغداد عاجزتين عن عمل شيء مضاد له كائنا ما كان . كما كانت قبائل الفرات الاسفل ودجلة السفلى ، الشرسة الطباع المزدرية للموت ، مكونة دولة فى داخل دولة . حتى ان افراسياب كان يتحاشى اثارة العداء على شجاعتهم العنيفة ومناعتهم العظيمة . غير ان على باشا ، فى هذا الحين ، أخذ على عاتقه الواجب . فزحف بجيشه طولا وعرضا مخترقا الاهوار الموحشة ، وبذلك « خضد شوكة سكانها الذين صار خضوعهم منذ ذاك الحين مضربا للامثال »[1] . وأخذت كوت معمر من حكومة بغداد . وأصبح بلاط على باشا يقايس ببلاط هارون الرشيد نفسه . فأزدهرت الفنون والعلوم برعايته ، ووجد المعلمون ملجأ وملاذا عنده ، كما ان الاقتصاد الحكيم والعدل المصون أديا الى سكينة لم يكن يتوقعها الا القليل من الناس . وكان أديب ذلك الزمان والمكان الشاعر الشهير الشيخ عبدالعلى الرحمة[2] .

---

(١) هذا ما يقوله فتح‌الله الكعبى . ولا يعرف شيء عن هذا المثل ، كما ان اخلادهم للسكينة لم يدم طويلا .

(٢) نذكر فيما يلى نص رواية الشيخ فتح‌الله بجمله : « وكانت ايام على باشا شبيهة بايام هارون الرشيد من بنى العباس فى الرفاهية وطلب العلم والآداب والشعر وأمن السبل فهابته الملوك وانقادت له . وفتحت فى ايامه الجزائر بعد ان عجز عنها عسكر السلطان . وفتح كوت معمر من يدى حاكم بغداد ... وقد مدحه الشيخ عبد على بقصيدة ... » (المترجم) .

وفي غضون ذلك كان قد حدث تبدل في الحويزة حيث كانت دسائس منصور غير خافية على سادته الايرانيين • فكان امام قلي ، عند سيره من شيراز للانضمام الى الشاه في بغداد سنة ٦٢٣ م ، قد طلب خاصة مؤازرة القوات الحويزية ، وبقي ينتظرها ، فلم يأت شيء منها • ثم ان الشاه كان قد طلب حضور الوالي الى اصفهان مرات عديدة فلم يكن ذلك الطلب الا مردودا • وفي الاخير بان عدم اطاعته ، بعد أن لم تخفه رسائله الملأى بالخضوع ، واضحا • وعلى هذا فقد عرج امام قلي ، عند زحفه الى البصرة في مارت ١٦٢٥ م ، على الحويزة لطرده منها • فهرب مع كثير من اتباعه الى البصرة ، فنصب الخان ابن أخيه محمد بن مبارك • ولثقته بولائه لم يترك امام قلي حامية في الحويزة • فرحب علي باشا بمنصور في البصرة واختصه بأقرب الاراضي من موطنه القديـــم •

الخليج في ١٦٢٢م (١٠٣٢ هـ) — ١٧٠٠م (١١١٢ هـ)

ظلت السطوة البحرية في الخليج الفارسي مدة اجيال ثلاثة ، بعد سقوط هرمز ، منقسمة بين الهولنديين والانكليز والبرتغاليين وعرب عمان • ولم يكن في وسع الاتراك ان ينقلوا شيئا من البصرة ، كما لم يكن للايرانيين اي صيت بحري • وتساعدنا مراجعنا في تاريخ هذا الدور على ان نتعقب اوجها للحياة في الخليج بتفصيل كثير • غير انه لا يمكننا هنا ان نحاول شيئا من ذلك اكثر من استخلاص اخبار التسابق بين هؤلاء المتزاحمين لما بقي من القرن •

فقد كانت جهود البرتغاليين منـذ ١٦٣٠ م (١٠٤٠ هـ) منحصرة في تثبيت اقدامهم في عمان ، وفي محاولة استرجاع مركزهم في هرمز • وقد نجحوا في تثبيتها في عمان مدة عشرين سنة تقريبا ، لكنهم خابوا في الحصول على أمنيتهم في هرمز • فلم تردعهم معاهدتهم التي عقدوها مع الايرانيين في ١٦٢٥ م (١٠٣٥ هـ) ، ولم تردع الايرانيين ايضا عن تعقيب غاياتهم واطماعهم • وفي ١٦٣٢ م (١٠٤٢) طلب ضباط الشـــاه بالحاف المساعدة البريطانية ليهجموا على مسقط • على ان ذلك لم يجر ، ورد البرتغاليون على تلك المحاولات بالتمادي في التحصين • وكانت مسقط والشحر من مواقعهم الموقتـة الوحيدة ، عدا ما كان لهم في البصرة من محطة ـ وكانوا يرمقونها بعد سقوط هرمز ـ ومركز في كونك • وتضاءل شأن رايتهم فأصبحت غير محترمة بل مكروهة ابدا •

وفى ١٦٤٣ م (١٠٥٣ هـ) اسلموا الشحر لقوة عمانية ٠ وفى ١٦٥٠ م (١٠٦٠ - ١٠٦١ هـ) عقدت مسقط نفسها شروط الاستسلام ٠ وكانت كونك تحتضر كما كانت البصرة - التى كانت دائما مركزا نائيا أكثر منها قاعدة - بعيدة وغير مسندة ولم تكن ، على كل حال ، تغنى التجارة الايرانية نيلا ٠ وكانت المصالح البرتغالية بعد ١٦٥٠ م فى كونك وفى رحلات اسطول « جوا » نصف القرصنية ٠ وكانت علاقات البرتغاليين بالايرانيين علاقات متنافرة بقدر ما يقتضيه جشع الموظفين الايرانيين وعدم اخلاصهم ٠ اما علاقاتهم بالساحليين وقرصان عمان فقد كانت لا تخرج عن كونها صراعا وكفاحا ٠ اما الانكليز فقد عقدوا معهم صلحا رسميا فى الحقيقة فى ١٦٣٤ م (١٠٤٤ هـ) ، وتأيد ذلك الصلح فى جوا فى ١٦٣٦ م (١٠٤٦ هـ) ٠ غير ان عداءهم للهولنديين ، والدسائس المتقابلة بينهم ، فى البصرة بقيت كما كانت ٠ وكانوا يعتقدون ان غزوات القرصان العرب كانت بتحريض من البريطانيين ان لم تكن بقيادتهم هم انفسهم ٠ وتمكنوا من اثبات ذلك فى ١٦٨٩ م (١١٠١ هـ) عندما سلبت معملهم فى كونك سفينة بريطانية خاصة ٠ وبمثل هـذه الحقارة قضت نحبها قوة البرتغاليين البحرية فى الخليج غير مأسوف عليها ٠

وفى الامكان الاطلاع بامعان على تصرفات الشـركة فى تلك المنطقة بسجلاتها الغزيرة ٠ على انا هنا لا نعبأ بذكر تجارة الشركة فى غير العراق ٠ فقد حافظت على معملها فى بندر عباس وعلى فرعين له فى شـيراز واصفهان ٠ وكانت الوفيـات بين مستخدميها عالية ٠ وكانت تتردد القوافل بين الخليج وسوراة ، ولو كان ذلك بمقدار قليل ٠ وكانت الصعوبات التى تلاقيها الشركة فى اثناء اشتغالها مؤدية - ولا ريب - الى تقليل سيطرتها وارباحها[1] ٠ وكان جمع كل تومان ، من نصف واردات كمارك بندر عباس المتفق عليها ، يستدعى مشقة وعناء ، وكان لابد من بقاء المبالغ الجسيمة متأخرة فى

---

(١) كانت الاختلافات واضحة بين التجار البريطانيين ومعروفة فى العالم ٠ وفى العقـد الخامس من القرن قاوم احتكار شركة الهند الشرقية التجار المتفرقون من الانكليز ٠ وقد ألفوا جمعية لم تتورع من تحريض الشاه على الشركة ، ولا عن منافستها بالمزايدة فى بندر عباس ٠ على ان الاتحاد قد ساد بينهم فى ١٦٤٩ م ٠ وأقلق مخاطرو التجار الشركة عودا على بدء من ١٦٥٤ الى ١٦٥٧ م حتى أمر كروميل بايقافهم عند حدهم ٠ وفى السنين الاخيرة من القرن تشكلت شركة جديدة عملت على اكتساب جميع امتيازاتها الاولى ٠ وبعد نزاع مر فى الهند والوطن ادمجتا احداهما بالاخرى فى ١٧٠٠ ٠

هذه العملية . وكانت الامتيازات والحقوق المكتسبة هناك بها حاجة الى ان يجددها كل شاه حديث . وكان طلب الحرير فى انكلترا مختلفا ، كما كان تجهيزه فى ايران يتأثر بمقدار الكميات المصدرة على طريق تبريز او الموصل .

وقد أظهر الهولنديون مهارة فى التجارة اكثر من مهارة البرتغاليين بأساليب ليست محمودة ولكنها غير عنيفة . فقد هاجموا السوق الايرانية بكل سلاح اقتصادى يتضمن الرشوة والدعاية والمضاربة المغرية . وجازفوا بتحمل اوائل الخسرانات فى سبيل المنافع المتوقعة التى كانوا يأملون الحصول عليها . وكانت ارسالاتهم بمقدار اوسع وسفنهم أحسن من السفن البريطانية واوسع منها . وكانت فى بندر عباس ، والحالة هذه ، اسباب غير منقطعة للاصطدام . واصبحت الحالة خطرة بحيث بعث الوكيل البريطانى فى ١٦٤٥ م (١٠٥٥ هـ) بضائعه الى البصرة فى وقت اجتاح فيـه الهولنديون قشما وحصلوا من الشاه امتيازات جديدة . وفى السنين التى تلت ذلك باتت تجارتهم اكثر توسعا . واستولت قوافلهم المرسلة الى البصرة على تجارة الايراد والجلب الى شط العرب ، وقد أدى طرد البرتغاليين فى ١٦٥٠ م (١٠٦٠ هـ) من مسقط لزيادة نفوذهم . وبقيت حالة الهولانديين فى تعال مطرد حتى نهاية السنوات العشر من العقد التاسع من هذا القرن حين طرأ بعض الهبوط على نفوذهم التجارى وظهر الفلاح فى جانب البريطانيين.

وسارع البرتغاليون بعد ١٦٢٢ م الى تأسيس بيعة برتغالية فى البصرة (أهم ما يهمنا فى هذا التاريخ) ، والى مساعدة الباشا فى دفاعه وصده الهجمات الايرانية . وكان اول ظهور التجارة الانكليزية هناك وصول الباخرة « بينيس » بحمولة قليلة فى ١٦٣٥ م (١٠٤٥ هـ) لما كانت الخصومة البرتغالية تسمح بالمبيعات بصورة معتدلة . على ان هذا التزاحم اصبح بعد مرور خمس سنوات شيئا كثيرا بالنسبة الى مجازفتهم الثانية. فقد وصل اسطول برتغالى من مسقط ، فأنزل حمولته وملأ منها الاسواق قبل وصول باخرة من بواخر الشركة البريطانية تماما . وفى ١٦٤٣ م (١٠٥٣ هـ) أسس معمل ثابت صغير ، ونجح مدة وجيزة انتهت بوصول أيدى الهولانديين الطويلة الى الشط . فقد نقل فى ١٦٤٥ م ، كما لوحظ سابقا ، وكيل الشركة بضائعه المخزونة فى غومبرون الى البصرة ، وفى اواخر السنة نفسها ، حينما كانت الحرب التجارية معلنة ، تبين بأن اسطولا هولنديا مؤلفا من ثمانى سفن ، انزل حمولته فى المناوى[1] فتدهورت السوق البريطانية

---

(١) ضاحية البصرة المطلة على النهر فى رأس نهر العشار .

فى يوم واحد ، ووهنت التجارة . واذ ذاك أهينت الشركة ، التى كانت قد تحررت من تدخل البرتغاليين ، لاستهانة مزاحميها التجار بها ، ثم تغلب عليها الهولانديون فباعوا متاجرهم بأقل من اسعار تلك الشركة . وفى ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) أغلق الباشا معملها بعد ان بلغته قصص مؤذية مؤذنة بافلاسها . غير ان عدة من السفن بقيت تتردد الى البلد قادمة من بندر عباس وسوراة ، ولكن المعمل لم يعد تأسيسه فى هذا القرن .ولم يتضح لنا فى التاريخ بقاء الهولنديين فى البصرة باستمرار خلال هذه السنين ، ولا مقدار محاولتهم لنشر التجارة فى العراق .

وكانت الامتيازات الشهيرة قد امضيت فى استانبول عام ١٦٦١ م (١٠٧٢ هـ) ، فقدر لها ان تنقح وان يصادق اصحابها عليها بعد اربع عشرة سنة . وبذا عينت الضريبة الكمركية على البضائع الانكليزية فأصبحت ثلاثة بالمائة . غير ان وصول الوزراء والايلجيين والاتفاقات المدونة كانت تقتضى سفرة تستغرق نصف سنة من ضفاف البوسفور الى الخليج . وحلت نهاية القرن فلم تقطف ثمرة تلك الامتيازات فى تحديد الضرائب الكمركية ولا فى العلائق الاخرى . ولذا كان التجار الاجانب مضطرين يوما بعد يوم ، عن طريق الهدايا او التملق او اية طريقة اخرى تنفعهم نفعا آنيا ، الى الاتفاق مع الحكام المتعطشين الى الذهب الذين كانوا يحرضون وسرعان ما ينخدعون ، وهم الطامعون او المشفقون حسبما يصادفه الحظ .

سقوط اسرة أفراسياب [1]

كوفىء على باشا ، امير البصرة منذ ١٦٢٤م (١٠٣٤هـ) ، على مقاومته للخطر الايرانى مرتين بحكم مزدهر دام مدة خمسة وعشرين عاما . فكانت منزلته بالنسبة للسلطان مختلفة التقدير . فقد كان يعد نفسه اميرا مستقلا ، قانعا بالاعتراف الرسمى الذى كان يأتيه من الخليفة الاسطورى البعيد . وكان يأمل التجار الانكليز فى البصرة ان يحتموا بالراية التركية . فى حين ان كان المسافرون بطريق البر الى هناك يعتبرون انفسهم مارين باراض تركية . وقد رضى الاتراك بهذه الحال حقيقة ، كما رضوا بها فى

(١) المراجع : تافيرنييه ، زاد المسافر ، بولى لكوز ، كودينهو ، سور سيور دوفال ، ثيفنو ، وتفصيل كثير فى كولشن ، فون هامر (الجزء العاشر) . والظاهر ان الوصف فى كتابات باش اعيان وفى غاية المرام مستقى من كولشن .

كردستان من قبل • ومع ان البصرة بحالها هذه لم تفدهم شيئا لم تكن لتكلفهم شيئا ايضا ، او قد برهنت على قابليتها للدفاع عن نفسها • وكان ما تستند اليه أسرة افراسياب محليا ضئيلا بالنسبة لتحقيق استمرار الحكم • فقد كانت قوتها العائلية التي تستند اليها قليلة ، ولم يكن لها تقاليد النبلاء نصف المقدسة • بل كانت حكومتها حكومة صدفة تمكنت من تسيير الامور الاعتيادية للبصرة وتجارها مدة نصف قرن ، وتحقيق السلم بشرف للسلطان •

ولم يساعد[1] امير البصرة الجيوش التركية في كفاحها خارج بغداد حقبة من الزمن• ولم يشارك في حملة السلطان مراد الاخيرة ايضا ، على ان السلطان لم يفكر في ورود المعونة منه • وقد راجت اشاعة في البصرة ـ التي مر منها امبراطور المغول ـ حاصلها ان الامطار الهاطلة في منتصف الشتاء هي التي انقذت البصرة من جيوش مراد • على ان ما نسترجحه نحن هو ان شروطا خفيفة للتابعية كانت قد عرضت فقبلت • ذلك لان البصرة النائية المغرية للشاه ، كانت بها حاجة لمعاملة رقيقة ان كانت النية متجهة الى عدم تكرار الحوادث المماثلة لخيانة الصوباشي وانفصاله المعلوم[2] •

على هذا المنوال استمر حكم علي باشا من دون خصم له ولا سؤال عنه طوال مدة الاحتلال الايراني لبغداد ، ولمدة اثنى عشر عاما بعدها • على ان ذلك لم يكن ليخلو من وجود اصطدام مع الباشا المجاور • فقد وصلت منذ ١٦٤٠ م (١٠٥٠ ﻫ) عريضة لبغداد من سكان عرجة ، وهي بلدة كانت تحت يد امير من عرب البادية ثم أخذها امير البصرة ، على حدود امارة البصرة طالبين فيها الانضمام لباشوية بغداد • ففكر درويش محمد في ان تلك البلدة تستحق ان ترسل لها قوة تضمها ، فكان ذلك ، ووضعت فيها حامية بأمرة حاكم تابع له • وفي ١٦٤٥ م (١٠٥٥ ﻫ) أخذ علي باشا قلعة على الحدود تدعى قلعة زكية[3] • فبعث اليها موسى باشا الصغير حملة منظمة ، مع مدافع ووسائل

(١) يذكر كولشن ، في بحثه عن حصار حافظ احمد لبغداد ، ان مدفع حصار ضخم كان قد أمر الوزير بصنعه في البصرة • وهذا يطابق ما ذكره نعيما ان قوات بقيادة قره‌بكر كانت قد أرسلت شمالا للنجدة (حاشية ص ٦٣) • ولا يوجد اي شيء آخر مما يدل على المساعدة •

(٢) يذكر بولي لكوز في ١٦٤٩ ان هذا كان مفتاح السياسة التركية مع أسرة افراسياب (ك ٢ ص ٢٩٧) •

(٣) هذا ما يذكره زاد المسافر • اما كولشن فيدعوها قلعة دكه •

نقل نهرية ، فرقت الحامية البصرية واحتلت المركز وغيره من المراكز فيما وراء الحدود .

كان تولى حسين باشا البصرة بعد وفاة والده فى ١٦٥٠ م (١٠٦٠ - ١٠٦١ هـ) مدعاة لتعقد علاقات البصرة . لان حسين باشا لم يكن له مثل الكياسة التى كانت تحبب والده ، لكنه ورث شخصيته القوية وطموحه عنه . فسبب له عنفه ، وجوره فى بعض الاحيان ، وجود كثير من الاعداء . كما انه ، بتساهله على التجار الاجانب والاقليات النصرانية الضعيفة ، كان قد نفر ابناء بلاده . ثم انه ازدرى باشا بغداد وبدأ بجمع « الكودة » عن اغنام القبائل المعترف بتابعيتها لبغداد وجاموسها ، كما ابقى موظفيه فى اوسع قراها . وفيما يلى وصف تافيرنييه لحالة السلم التى كانت سائدة قبل حملاته التى تضت بها اطماعه :

« تحالف امير البلصرة[1] مع عدة امم غريبة بحيث اصبح يرحب بكل من يأتى اليه . وكان فى البلدة من الامن والحرية ما يجعل التجوال فى شوارعها غير مخطر طول الليل . وكان الهولانديون يأتون الى هناك بالتوابل كل سنة ، كما كان الانكليز يأخذون الفلفل وشيئا آخر من التوابل . اما البرتغاليون فلم تكن لهم تجارة قط . وكان الهنود يأتون بالاقمشة والنيل وسائر انواع البضائع . والخلاصة كان فى البصرة تجار من جميع البلاد . فمن استانبول وازمير وحلب ودمشق والقاهرة وجميع انحاء تركية كان التجار يتواردون لاشتراء البضائع المستجلبة من الهند فيحملونها على الابل التى كانوا يشترونها من البلد نفسه ايضا اذ يأتى بها العرب من البادية لابياعتها . اما من كان يقصد البصرة من ديار بكر والموصل وبغداد والجزيرة وبلاد آثور فكانوا يبعثون ببضائعهم على ماء دجلة ، لكن ذلك كان يطوقهم نفقات ويكلفهم مصاعب . وكانت رسوم الكمرك فى البصرة بمقدار خمسة بالمائة . وكان فى الامكان التسامح بصورة عامة من الكمرك او من الامير نفسه بحيث لا تتعدى الرسوم اربعة فى المائة . وكان امير البصرة حسن التدبير حاذقا بحيث كان يوفر ثلاثة ملايين ليرا فى السنة . وكانت أهم موارد ماله اربعة اشياء : النقود والخيل والابل والنخيل . اما النخيل فكان مصدر القسم الاعظم من ثروته » .

وكانت ضريبة التمر « ثلاثة ارباع اللارين اى تسعين سنتا افرنسيا » . وكانت الفائدة من الدراهم تحصل عن طريق تبديل « ريالات » جميع التجار الغرباء فى البصرة

---

(١) هكذا كان يكتبها السائح (المترجم) .

بـ « لارينات » فيستفيد من ذلك بمقدار ثمانية فى المائة . وكانت تجبى رسوم الكمرك البرية على الحدود ، وفى القرنة عن طريق النهر ، وكذلك فى الميناء . وكان الذى يمارس الاحكام العدلية قاض لا يعين من استانبول بل يعينه الباشا نفسه . وقد كانت فى البصرة اقليات نصرانية . فقد بقيت بيعة الكرمليين الايطاليين ، وتركت بيعة البرتغاليين « اوستن فريرز » عند انقطاع التجار البرتغاليين عن البلد . وعين رئيس الكرمليين فى ١٦٧٩ م (١٠٩٠ هـ) قنصلا افرنسيا على كونه غير افرنسى الجنسية .

حكم حسين باشا فى هـذه الاحوال المؤاتية مـدة اربع سنوات جاءت له بعدهـا بالمشكلات والقلاقل الخارجية افعاله العسفية فى الداخل . فقد اساء معاملة أحمد بك وفتحى بك ، اخوى والده على باشا ، ففرا الى استانبول وحصلا هناك فرمانين بتعينهما لسنجقين من سناجق ايالة البصرة[١] . فتسلحا بهذين الفرمانين ورجعا الى البصرة وفيها قابلهما بكل تأدب رسمى ابن اخيهما . على انهما سمعا بعزمه على اغتيالهما فدافعا عن انفسهما دفاعا مجيدا حتى اكتفى بنفيهما الى الهند . فأبحرا اليها ، الا انهما نزلا فى القطيف على احد معارفهما القدماء محمد باشا ميرميران الاحساء[٢] . فكتب المنفيان من هذا الملتجأ الى الباشا فى بغداد يصفان حالهما الحرجة ، وهذا الازدراء للبادشاه .

فبادر مرتضى باشا ، وكان والى بغداد منذ ١٦٥٣ م (١٠٦٤ هـ) لدعوتهما بالحضور عنده . ولما حضرا لم يكن كلامهما فى مصلحة ابن اخيهما بل على الضد من ذلك ، فكانت الفرصة سانحة لمرتضى . فجمع جيشه وبعثه جاعلا عليه الكهية رمضان اغا قائدا ، ثم تبعه من بعد ذلك بنفسـه وانضم الى القوة فى عرجة . فسقطت القلعتان القريبتان - الجلوجية وعقارة - بسهولة . وناصرت القبائل الجيش الذى جاء ينقذها من حاكم قوى كان يحكمها . فاعتمد فى النقليات والتجهيزات والادلة والجواسيس وحسن النية على قبائل الجزائر . وسقطت القرنة من دون ان تضرب . وفر حسين باشا الى ملتجأ فى عربستان[٣] . فدخل مرتضى البصرة وجعل أحمد بك حاكما فيها .

---

(١) ان عجز السلطان عن مثل هذا التعيين لم يكن شيئا مهما فى استانبول التى كان اولو الامر فيها لا يرغبون فى الاعتراف بانفصال البصرة . ويذكر ثيفنو (ص ٥٦٧) ان احد العين قد عين باشا للبصرة وعين الآخر باشا للقطيف والاحساء .

(٢) كانت تعد بلاد الاحساء فى هذا الزمن تابعة لامارة البصرة لكن ذلك كان اسميا فقط .

(٣) يقول زاد المسافر انه التجأ الى بهبهان (المترجم) .

على هذه الشاكلة اعاد زحف موفق حقا البصرة الى الامبراطورية بعد شبه انفصال دام مدة نصف قرن . وقبل ابن من ابناء افراسياب المنصب فبقى العوبة بيد الباشا فى بغداد . ولاح ان ايام امير البصرة قد أخذت فى الافول . لكن الحقيقة هى ان حسين باشا كان من حظه ان يحكم اربع عشرة سنة اخرى ، وذلك بفضل شخصيته النافذة ونقاط ضعف مرتضى الكثيرة . فقد تقبل مرتضى ، بعد ان أصبح سيد المدينة ، هدايا الاشراف الثمينة الدالة على الزلفى ولم يكتف بها . فأمر بالتضييق فى حراسة اموال الاسرة المالكة وباشاباتها فى قائمة . فكان ذلك بمقام اول مرحلة للنهب الذى لم يستبق احدا من اغنياء البصرة حتى خزائن الحكومة . ثم جرى اعدام البارزين من الاشراف بعد ان صودرت اموالهم . وبذا انغمرت البصرة فى لجة من الحزن والخوف بعد ان فرحت باستقبال المنقذ . فهبت المدينة والعشائر معا من هدوئها وولائها وهاجت ثائرة لاعدام احمد وفتحى الفجائى . وثارت قبائل الجزائر فهاجمت القرنة ، فعجل مرتضى بارسال المدد الى هناك من البصرة . وكانت المناوشات غير المنظمة التى وقعت فى الاهوار وبساتين النخيل تدل على ثبات القبائل اكثر من ثبات جيش الباشا . وكابدت افواج بغداد افدح الخسرانات . فبدأ الارتداد التدريجى ، وتراجعت سرية بعد اخرى الى بغداد ، ووجد مرتضى باشا نفسه غير قادر على حفظ موقفه فى البصرة . فتركها فجأة صفر اليدين[١] ، وانضم بقسم من جيشه فى عرجه ، ثم وصل الى بغداد بعد مروره فى مناطق العشائر التى اصبحت معادية عاتية . وعندئذ عاد حسين باشا الى حكومته فى الحال ، فاستقبل استقبالا تجددت فيه حرارة الولاء فى نفوس اتباعه الذين كانوا قد عرفوا قدره بعد ان جربوا غيره . فتابع حكما رحيما ومنورا بصورة عامة ، كثير العضد للتعلم ، وحكيما بالخضوع الاسمى للسلطان[٢] ، ولكنه كان ملوثا باخلاقه السمجة وطمعه الجشع . وقد وصف مسافر جزويتى برتغالى[٣] البصرة فى ١٦٦٣ م (١٠٧٤ هـ) بانها : « أعظم سوق تجارية فى هذه البحار » واعجب « ببيوتها الجميلة خارج البلد ، وبجنائنها وبساتينها ، وبسهولها الزاهرة التى كانت تسقى بعدد كبير من الترع » .

---

(١) يقول كولشن انه ترك غنائمه وفر وحده ، ويذكر الفون هامر (ص ٣٧٧) انه أخرج من البصرة ، ويذكر ثيفنو (ص ٥٦٨) انه ترك بعد ثورة عامة مع اكثر ما تمكن من حمله .

(٢) يذكر زاد المسافر ما نصه : « ثم انه أرسل هدية الى السلطان واشترى تاج الوزراة » (المترجم) .

(٣) غودينهو .

غير ان تصادما قاضيا آخر مع الامبراطورية المسيطرة كان ضروريا لا يحتمل تأخيره عدة سنين • وكانت الفرصة المؤدية لذلك التصادم اطماع حسين باشا ومنافسته لزملائه انصاف المستقلين فى الخليج • فقد كان نصب نائبا عنه فى القطيف من قبل • وبادر الآن (١٦٦٣ ـ ٤) بارسال قوة قبلية ـ بنى خالد ورئيسهم الامير براك ـ لاحتلال الاحساء • فلم يجد براك صعوبة فى تسلم الحكومة من محمد باشا ، غير انه رأى من المناسب ان يحفظ الاحساء لنفسه بدل ان يرجع • وبحملة بحرية سريعة احتل حسين الولاية الثانوية التى كان يطمع فيها ، مع ان محمد باشا هرب الى استانبول[1] • فاجتمع تجبر حسين الى قصص العنف المروية عن الاحساء فأثار الغضب الملكى • فأعتمد على ابراهيم « الطويل » ، باشا بغداد الحالى المحترم فى استانبول ، فكانت جميع الاحوال مناسبة لايقاف البصرة عند حدها • فانصت الى محمد باشا بكل انتباه ، واصدرت الاوامر باعادته الى منصبه • فعهد هذا الواجب الى ابراهيم الذى اخبر بان يجمع جيشا من نواحيه ومن قطعات ديار بكر وحلب والموصل والرقة وشهرزور فيسير به لعقاب آل افراسياب • فتحشد الجيش فى الحلة ، وكانت اول خطوة خطاها الباشا هى ان يوجه بخطاب رسمى الى حسين يدعوه فيه الى الاستخذاء والاسترضاء • فكان الجواب عن ذلك جواب رجل سليط •

وبذا كان امير البصرة قد انذر طويلا • فبادر لتقوية التحصينات لعاصمته والقرنة ، وكذلك بنى مركزا بعيدا فى الكميت • واشتغل خلال عدة اشهر باخراج جميع السكان العاجزين عن القتال من البصرة • فلاقى بذلك مقاومة تغلبت عليها تهديداته وشراسته ، وتضمنت العملية مناظر ومآسى تنشق لها القلوب • فقد كان ضباطه ، العبيد الاحرار ، لا يرحمون احدا فى اخراج المسنين والضعفاء • واتخذت

---

(١) ان هذه القصة موجودة فى جميع المراجع ، ويذكر صاحب زاد المسافر وكولشن ان الفظائع التى ارتكبها رجال حسن باشا فى الاحساء هيجت غضب السلطان • (المؤلف) • وهاك نص رواية زاد المسافر : « ثم وجه عسكرا الى الاحساء فافتتحها ... وكان فتحها عنوة بالسيف وقتلوا منها خلقا كثيرا واستباحوا بها فروجا واموالا • وكان هذا الفتح هو السبب فى غضب السلطان عليه لان حاكم الاحساء المعروف بمحمد باشا بن على باشا انهزم الى السلطان وشكا حسين باشا ... » (المترجم) •

تدابير مشابهة لتلك فى المناطق المحيطة بالمدينة حتى جعل من الصعب على الباشا الطويل الوصول اليها •

بدأت قوات السلطان بزحفها الى البصرة فى تشرين الثانى ١٦٦٥ م (١٠٧٦ ﻫ) • ومع ان رايات باشوات سبعة وما يقارب العشرين من البكات التابعين كانت ترفرف فى الفضاء فان الترتيبات والتحضيرات المقتضاة كانت قد اهملت • والا ما تمكنت مراكز دفاع حسين ان تصمد فى وجه مدفعية المحاصرين • فان ابراهيم الطويل ، المبالغ فى الثقة المخدوع بالمشورة السيئة ، كان يتوقع استسلاما عاجلا ، ولذا كان يتوقع كل يوم تسلل الرسل للوصول اليه • فبلغ الجيش الرماحية ولم يصل اليه شرط من الشروط التى ظن انها ستعرض عليه ، ثم تجوهل انذار اخير وجه به الى حسين • فدخل الجيش ولاية البصرة وخيم فى المنصورية • وهنا بدأت بمقاومته قوة من قوات حسين غير النظامية مع عدة قبائل ، لكنه شتتها من دون جهد وسار فى طريقه • ثم نصب جسر لعبور النهر فى المنصورية ، فعبر عليه الجيش متوجها الى القرنة حيث كان حسين يدير امور الدفاع بنفسه • فتطاولت الايام الى اشهر ولكن القلعة بقيت صامدة للهجوم •

وفى غيابه عن البصرة اضاعت له الفتن عاصمته بصورة وقتية • فقد وجد ابراهيم باشا الوسائل لتوهين اخلاص البصريين الاقوياء وولائهم • وحدث فى اواخر حصار القرنة ان اضطر حسين من قلة الارزاق (او دفعته مطامعه المحيرة) لاغتصاب سفن مشحونة بالمؤن من شط العرب • ولم يعد الى اصحابها الا قشور سفن مهشمة فارغة • فسارع هؤلاء بدافع الغيظ للانضمام الى الناقمين • واجتمع هؤلاء فبعثوا بكتاب الى الباشا الطويل فى خطوطه الحربية فى القرنة يخبرونه بأن البصرة اصبحت فى فوضوية من الحكم ومعرضة للاضطراب ، ورجوه ان يرسل حاكما عنه لينقذ الميناء من سيدهم • فأرسل سولاق حسين مندوبا عنه • غير ان الشيوخ والتجار كونوا حينئذ سلطة موحدة وفضلوا ان يحتفظوا هم انفسهم بالحكم على ان يسلموا المدينة الى غريب لا سند له • وفى كلتا الحالتين اضاع حسين المدينة •

فعرض عليه معتمده القديم محمد بن بوداق ان ينظم حركة معاكسة لهم على شريطة ان يجهزه حسين بما يقتضى لذلك • فكان جواب حسين له ان يمضى فى الامر ، ووعده بامداده بالرماحة من العرب • فجمع محمد اتباعه المخلصين له وان كانوا اقلاء

وهاجم البنايات التى كانت تشغلها الحكومة الوقتة • فجرى بينهم نضال انتهى بانكساره وموته ، وبذا تسنى لسادة البصرة الوقتيين ان يطوفوا فرحين فى شوارعها الهادئة المضرجة بالدماء • غير انهم سهوا عن ايسر الاحتياطات ، وهو تركهم الابواب مفتحة • فدخلت منها الى المدينة القوة التى بعثها حسين للمدد • فتمكنت فى بضع ساعات من تغيير الحال ، فأنحلت حكومة اشراف المدينة • ونهبت بيوت جماعة منهم ، كما أعدم اثنان منهم وأجبر الآخرون على الاستتار او الهروب • واعترفت البصرة بحكم اميرها عودا على بدء وكان مواطنوها المذعورون قد تشتتوا •

تطاولت ايام الحصار فى القرنة ، وصد حلفاء حاكم البصرة من القبائل حلفاء ابراهيم باشا عنهم • ولم يتوصل الانكشاريون الواصلون مددا من بغداد لتحسين الحال الحرجة • اذ لم تنفك المقاومة ، ولم تنفع هجمات القوة الهاجمة المتفوقة فى العدة ولا اغراءاتها • بل حوصر المحاصرون هم انفسهم محاصرة نصفية من جانب العصابات المنتشرة المؤلفة من عشائر الاهوار الذين كانوا يزعجون الخطوط الحربية بلا هوادة • فقلت التجهيزات ، وأدت اشهر الخيبة لهبوط القوة الروحية • وفى الاخير ، فاوض باشا ديار بكر الامير ، من دون ان يشاور القائد العام ، فنظمت الشروط بسهولة • وكان مفادها ان تبقى حكومة البصرة بيد الاسرة نفسها على ان تنتقل من حسين الى ابنه افراسياب وعلى ان ينسحب حسين نفسه الى مكة • وان يرفع الى السلطان الاعتذارات الرسمية ، ويعاد محمد باشا الى الاحساء ، وترجع الغنائم الى السكان ، وتدفع جراية التابعية فى الحال ثم مسانهة الى الخزينة الامبراطورية • وقد ارضى هذا الاعتراف التام بضعف الاتراك حسينا حق الارضاء • فرضى ابراهيم باشا بالمفاوضات • وأرسل محمدا الى الاحساء ، وتراجعت جيوش ابراهيم وزملائه •

عاقبة حسين باشا

نجا حسين باشا النجاة الثانية بفضل دهائه ومتانة سياسته • ورجع الى البصرة فى حكم ابنه الصغير بالاسم ، او لتولية الامارة بصورة عملية مرة ثالثة • ولم يكن اذ ذاك ما يدل على ان الترتيبات الاخيرة ستدوم طويلا ، لان قلب المعارضة ما زال قويا • فتحملت تقاليد هذه الحكومة المستقلة مدة نصف قرن الصدمات العنيفة ، كما ان حقيقة اخلاصه وطاعته لاستانبول بقيت تحتمل الشك •

ثم أرسل يحيى اغا - وزير حسين وقريبه - الى ادرنة مع الكتب والاكياس . فلقى هناك وفدا من البصرة على غير اتفاق . وكان ذهابه الى هناك لمصلحة حسين ، اما وفادتهم فكانت غايتها افهام البادشاه بجوره وعتوه . غير انه تبعت ذلك اللقاء محادثات خاصة ، واذ ذاك كانت الخيانة وليدة الاطماع ايضا . فقبل يحيى معروضات الوفد البصرى على ان يكون هو المرشح للولاية . فهيج السلطان بتصويره له خطر حسين ، وبالوعد بارسال جراية اكبر من جرايته . وعلى هذا وصلت الاوامر الى قره مصطفى باشا - الذى كان يحكم بغداد يومئذ مرة ثالثة - بالقضاء على اسرة افراسياب ، وبنصب يحيى . فأعطى قيادة قوات شبيهة بالقوات المذكورة من قبل ، وانضمت الى معسكره الجيوش من ديار بكر وشهروز والموصل والرقة وكثير من القوات الاقطاعية . فبعثت طليعة الجيش مع الامتعة والمدفعية الثقيلة على دجلة الى الجنوب ، ثم ترك قره مصطفى بغداد مع جيشه الرئيسى في الرابع والعشرين من تشرين الثانى ١٦٦٧ م (١٠٧٨ هـ) . وتخللت سيره البطىء وقفة للزيارة فى النجف ووقفة اخرى فى عرجة . وانضمت اليه فى كوت المعمر ثلة قوية من المنتفكين[١] .

كانت القرنة اول هدف للجيش ، وكان عليه ان يعبر ما لا يحصى من الجداول قبل ان يصل اليها . وفى دار بنى اسد[٢] اصطدم الجيش وثلة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل من اتباع حسين المدججين بالسلاح ، فكسرت شر كسر وكابدت خسائر فادحة بعد قتال دام عدة ساعات . فتفرق رجال القبائل بمشاحيفهم بين آجام البردى العالية فى الهور . فشيد قره مصطفى منارة من رؤوس قتلى العدو تشديدا لعزم رجاله . ثم استؤنف الزحف الصعب ، وفى اواخر كانون الاول من ١٦٦٨ م (١٠٧٩ هـ) أصبح الجيش محيطا بقلعة القرنة ، فرتب ترتيبات الحصار[٣] .

سمع حسين باشا انباء هذه الخيانة وهذا الخطر الذى بات يهدد عرشه فكان وقعها أليما فى نفسه . فثار ثائره وصب جامات غضبه من دون خشية على رعاياه المذبذبين ، وعقب فى المدينة جماعة من المشبوهين ولم يسلم من ذلك احد حتى سكان البصرة

---

(١) كان المنتفكيون مع حسين فى الحملة السابقة .

(٢) المظنون ان ذلك كان فى المحل الحالى للعشيرة المذكورة حول الجبايش .

(٣) ان رواية كولشن لاخبار هذه الموقعة هى رواية شاهد عيان .

المحترمون والحرم المصونات . وبعث بنسائه وعياله الى متلجأ فى عربستان ، ثم خرب قصره[١] . وبعد ان اتخذ جميع الاحتياطات رمى بنفسه فى قلعة القرنة المنيعة ، التى كان قد حصنها من قبل .

غير ان مقاومته الناجحة فى الحملة الاخيرة لم يكن من الممكن ان تتكرر . فبدأ الحصار سريعا فى شباط وطال مدة شهر . وقد نفذ هذه المرة بحذق اوفر وفطنة اكثر . وكانت أحسن مدفعية الحصار يدير أمرها مدفعيون جاؤوا من استانبول . وقربت المدافع من القلعة شيئا فشيئا ، فافزعت نارها الفجائية المدافعين . وقد احاط اذ ذاك باشا ديار بكر مع ثلة من الجيش بجهة من جهات القلعة لم تكن سهلة المنال من قبل . فكان الخطران شيئا حاسما . ففر حسين باشا ليلا الى المكان الذى أعده لتراجعه فى بلاد الحويزة . وانتقض الدفاع ، فهرب الجند والقبائل الذين كانوا فى الحامية كل على رسله وبقدر ما يستطيع فمنهم من التجأ الى الاهوار ومنهم من قصد الالتحاق بحسين فى مكان آخر . ففتحت القلعة واحتلت ، ثم أعلن فيها العفو عن البائسين الباقين من الحامية . ودخل من بعد ذلك الجيش الامبراطورى البصرة من دون مقاومة بل صادف أحسن ترحيب ، مع ان بعض شاهدى العيان[٢] يذكرون التأديبات القاسية التى أنزلت بالمدينة جزاءا لها على خيانتها الطويلة . ثم رفع يحيى الى الباشوية ، وعوهد بأوثق العهود . وابقى فى الحامية الف وخمسمائة انكشارى ، وسجل ثلاثة آلاف من الجنود المرتزقة . ورممت القلعة مع خزانة الاسلحة واعيدتا كما كانتا . وكذلك نصبت ماكنة الايالة الرسمية . وبذا نبذت البصرة امتيازاتها الخاصة وتخلصت من الاخطار التى كانت تهددها فدخلت فى حظيرة الادارة الامبراطورية .

وعلى هذا قدر لحسين ان لا يعود لبلاده مطلقا . وحاول بلا جدوى فى شيراز ان يقنع الشاه بشد أزره .

« ومن بعد ذلك سافر الى الهند مع ابنه على بك ، الى بلدة « اوجين » وهناك وكل اليه ملك البلاد ادارة مقاطعة ما . ومن ثم وقعا معا فى حومة الوغى دفاعا عن الملك

---

(١) وضيف كاريه (ص ١١٣) قائلا انه عرض حكم البصرة على الايرانيين (وربما كان عرضه اياها على والى الحويزة) طلبا لمساعدتهم له ، فرفض طلبه .

(٢) الشيخ فتح‌الله الكعبى .

وحفظا لمصالحه بعد ان صاهرا من جهة النساء عائلة من الدورق لا يزال نسلها فيها[١] •

وبذا اختفت عن العرش وعن البلاد امارة بيت افراسياب •

جيل من التقلبات

لا يزال امام البصرة ، التى استرجعت للسلطان على هذه الشاكلة ، جيل من الجد العاثر • فقد قدر لها ان تخضع ايضا لمستبد محلى • اذ كتب لها ان ينهكها الطاعون فتقع فريسة بيد مغتصب من العشائر يسلمها ، بعد ان يحكمها ردحا من ازمن ، الى تابع من تابعى ايران • وتبقى على تلك الحال حتى يطلع فجر القرن الجديد فتقع ايضا بيد باشا يعين لها على جارى العادة • وكانت الحكومة التى سمحت بهذا الانفصال المتكرر ، التى لم تحسن استعمال رأس الجسر هذا المؤدى الى الطريق البرى بين سورية وبلاد الهند ، غير معنية يومئذ بمناضلة ايران ولا باستبداد حكامها فى بغداد • على اننا ان اردنا ايضاح تساهلها فى هذه الامور فيجب علينا ان لا ننظر الى ابعد من المشكلات الاصلية كوعورة المسالك وبعد المسافات ، وشراسة السكان من العشائر ، ومستوى الضبط المنحط ، وسوء الادارة المزمن ، مع الانحطاط العام الذى طرأ على الامبراطورية اذ ذاك •

كان انضمام البصرة يتضمن قيودا لم تستطع اطماع يحيى الشخصية احتمالها • فقد كان فى وسعه ان يحتمل وطأة الجيوش الامبراطورية والقاضى الذى يعين من استانبول ، لكنه سرعان ما اصطدم بشدة مع الدفتردار • وانتهى النزاع ، المألوف بين كبار الموظفين ، بتجبر يحيى العلنى • فأمر المحاسب بان يتدخل فيما لا يعنيه ويؤخر دفع رواتب الانكشاريين • فثاروا ، وفر يحيى الى خارج البلد • وتبين اول وهلة ان الموظفين الامبراطوريين قد افلحوا ، ولكن ذلك كان شيئا وقتيا • فقد باغت يحيى المدينة بعد ان عجل بجمع جيش من الجنود الاجيرة والقبائل وأحكم اثارة الشعور على الاتراك بين القبائل وطرد آخر جندى من جنود السلطان وآخر كاتب من الكتبة وجعل الحكومة مطلقـــة •

وتبع ذلك تسابق فى الاستيلاء على القرنة • اذ سبق ان استولى عليها الانكشاريون الذين أمدهم باشا بغداد على عجل بسريات من الجنود النظامية وبقطعات اكراد بجلان

---

(١) ذكر الحبر مينيون نقلا عن الشيخ فتح‌الله ، غير ان قسما من هذا يكاد يشبه الاساطير •

وتركمان البيات • فوصلت هذه القوة القرنة وانقذت المعتصمين بها الذين خاب المجهود العظيم ليحيى فى محاولته زحزحتهم عن مواقعهم • فرجع شذاذ جيش يحيى وانتقم لخيبته من سكان البصرة البائسين • وفى غضون ذلك كان السلطان قد عين حاكما حديثا للبصرة ، وهو مصطفى باشا رئيس الحجاب ، وطلب من سميه فى بغداد ان ينصبه فيعيد المياه الى مجاريها • وعبئت الجيوش من الايالات المجاورة مرة اخرى • وبينا كانت هذه الجيوش تنتظر برد الخريف سار المصطفيان معا بعدة سرايا من الجنود الاجيرة فى أحر ايام تموز • فكانت فى ذلك الكفاية • فقد فر يحيى وأبحر الى الهند[1] • وبذا اختفى عن المسرح خائن عظيم آخر • فرجعت قطعات الايالات الاخرى الى أهلها • ثم تقدم قره مصطفى الى البصرة ونصب سميه فى الحكومة وترك له ما يحتاج اليه من الجيش والمال •

غير ان رئيس الحجاب ، غير المجرب بالحكومة الملزم بواجب جمع الواردات فى ولاية تفسخت فيها القوة الروحية وتعودت عدم الدفع ، استقال من منصبه • فطلب الى والى بغداد ان يزور الميناء ثانية من غير ان يضيع ولايته الحالية • فوصل الى شط العرب فى ١٦٧٠ م (١٠٨١ هـ) ، وتوجه وكلاؤه لكل سنجق وكل ديرة قبلية لتدقيق النظر فى حسابات الايالة جمعاء • وبعد ان ختمت السجلات بختمه ترك نسخة منها فى خزينة البصرة وارسل اخرى الى استانبول • وبذا اضيفت البصرة الى بغداد كمتسلمية ، وسرعان ما عين لها قره مصطفى نفسه الذى عين مكانه فى بغداد (كما رأينا آنفا) حسين باشا • وكان تعيين قره مصطفى للبصرة كايالة مستقلة ، فمات فيها فى ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ) •

وتلت ذلك عشرون سنة من الحكم الاعتيادى • فتعاقب فيها الباشوات واحد بعد آخر فى فترات طول كل منها سنة او اكثر[2] • وحدث ثلاث مرات ان تقلد وال واحد الولاية مرتين • وعين عبدالرحمن باشا ، الذى كان فى بغداد فى ١٦٧٥ م (١٠٨٦ هـ) للبصرة فى ١٦٨٢ م (١٠٩٣ – ٤) ، فحببت الحكومة للناس ثقافته وديانته وحسن نياته وعزتها • وبعد سنة عين فى محله ذو شخصية معاكسة تماما وهو حسين باشا • فوصلت

---

(١) راجع كاريه فى سيرته فى الاخير (ص ١٢٥) ، غير ان باش اعيان يذكر انه مات فجأة اول فراره من البصرة •

(٢) اسماؤهم وتواريخهم فى تقويم البصرة •

الى استانبول تذمرات من اطماع القادم الحديث ، وأدى ذلك لاعادة تعيين عبدالرحمن . وكان خلفه دفتردارا سابقا فى بغداد رفع فى هذه المناسبة الى رتبة الوزارة .

وفى ١٦٦٠ م (١١٠٢ هـ) تفشى فى البصرة طاعون وبيل اخمد فيها الحياة واخلى شوارعها المكتظة . فقد كان الناس يموتون بمقدار خمسمائة فى اليوم . وتكدست الجثث فى الازقة وبقيت غير مدفونة . وعانت الويلات من وطأته جميع الطبقات ، غنيها وفقيرها ، حتى الحامية الاجنبية فيها . فاغتنمت القبائل فى الخارج ، ولم يكن تأثرها به أقل ، الفرصة[1] . فجمعت قبائل المنتفك والجزائر ثلاثة آلاف خيال تحدت بهم الحكومة وأشرفت على المدينة . فلم يكن فى وسع احمد باشا الا جمع خمسمائة مقاتل قابل بهم القبائل الغازية وقاومها ، فى حرب طويلة فى موقعة الدير ، ففنوا الا القليل منهم . وكان الباشا نفسه بين الموتى . ولم يبق بين اسواق البصرة والعرب الفائزين شىء . غير ان الساعة انجبت رجلا . فجمع حسن اغا الكهية جميع السكان القادرين على القتال ، وجعل واليا بالاجماع ، فنظم مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع رجل واحد من القبائل الدخول الى البلد . وقتل هو ايضا ، فانتخب فى مكانه رجل يدعى حسين جمال . وبذا استقامت الحكومة التركية فى البصرة سنة اخرى .

بيد ان سطوة المنتفكيين برآسة مانع بن مغامس قد عظم شأنها فى تلك الايام وأخذت شكلا يهدد البصرة ويعد خطرا الى حد ما بالنسبة لبغداد . فسقط الميناء بيد مانع فى ١٦٩٤ م (١١٠٦ هـ) . ولم يحصل فى هذه المرة مصادقة ملكية على الاغتصاب . وفى السنة نفسها توجه من بغداد جيش منتقم يقوده خليل وهو شقيق احمد باشا الوالى . وجىء بالجند حسب المعتاد من كركوك والموصل . واصطدمت الحملة[2] مع الجيش القبائلى

(١) ان مرجعنا لاخبار ١٦٩٤ – ١٧٠٠ م هو ما كتبه بايجاز الكابتن الكسندر هاملتون (ص ٨٢) . وهو يذكر ان احتلال الايرانيين للبصرة كان قبل تفشى الطاعون ويذكر تفشى الطاعون فى سنة ١٦٩١ م . وهذا ما قاله : « فشا فى ١٦٩١ الطاعون بشدة بحيث مات ثمانون الفا من الناس ، وفر من بقى منهم الى خارج البلد فبقيت البلدة مدة سنوات ثلاث بعد الطاعون بلقعا تسكنها الوحوش الضارية التى اخرجها من البلدة فى الاخير العرب الشرسون المجاورون » .

(٢) يذكر الفون هامر (ص ٣٩٦) وينحو نحوه هارت (ص ١٣٧) اخبار وسائط النقل النهرية المنشأة بأمر السلطان مصطفى الثانى ، ومهمة حسين باشا فى الرقة بالمسير الى البصرة . غير ان الظاهر ان حسينا مات ولم يتحقق شىء فى الحملة النهرية .

فى منطقة الجزائر . وهناك خذلت الحملة وتفرق الجيش ، ونزع رجال القبائل الخشن بدلات الانكشاريين . واعقب مانع انتصاره هذا باقتراح شروط للهدنة . فأعفى من كل شىء بشرط ان يعد الدولة بالولاء فى المستقبل . واصبح خليل واليا[١] . غير ان مانعا لم يكن قادرا على امساك نفسه فى التهام هذه الفريسة الهينة ، فطرده ثانية واتخذته البلدة والقبائل واليا . ولم يدر بخلد اى باشا غريب كان ان يأمل نفوذا شاملا مثل نفوذه . فقد امتلك قسما من عربستان ، وكان مسيطرا فى السهول والاهوار على ما بين دجلة وعربستان . واطاعته بدرة وجصان ومندلى . وقد غطت سطوته يومئذ على سطوة الحويزة . اما على الفرات فقد استولى على العرجة والسماوة والرماحية .

ويكتنف الغموض الاحوال المحيطة بانتقال منطقة البصرة الى احضان نفوذ الحويزة . ففى ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) بلغ عداؤهما حده الاعلى . ودحر فرج والى الحويزة فى موقعة ما رئيسا كبيرا من رؤساء المنتفك . وقدم اشراف البصرة ، الذين ملوا من تقلبات الحكم العشائرى ، عريضة الى بغداد طلبوا فيها ارسال وال اصولى اليهم . وكان حسن باشا ، المرشح للمنصب ، فى بغداد . فتحقق بواسطة وكلاء خاصين الموقف المناسب فى الميناء ، ثم تحرك اليه . فأحتلت القرنة ، غير انه لسبب من الاسباب خاب فى التقدم الى البصرة ، ففشلت الحملة . وهنا وجد الباشا فى بغداد طريقة سهلة لحل المشكل . فقد وصل اليه رسل فرج الله خان يطلبون رخصته فى اخراج مانع من البصرة . فصودق على الفكرة على كل حال . فطارد الخان القوات المنتفكية من البلدة واحتل القلعة فيها ثم أحتل قلعة القرنة . غير انه (على عكس اتفاقه مع بغداد) أرسل بالمفاتيح الى الشاه . فبادر الشاه حسين ، المعتلى حديثا على العرش ، بارسالها مع الهدايا الفاخرة الى السلطان ، فقوبلت تلك الوفادة بكل تقدير ، وارسل وفد جليل فى مقابل ذلك الى اصفهان .

استمر حكم امارة الحويزة فى البصرة عدة شهور . وظل التجار المحليون يذكرون هذه الفترة بكل خير[٢] . اما العلاقة السياسية بشيخ المنتفك فقد كانت علاقة نزاع وحسد

---

(١) لكنه غير مدرج فى قائمة الولاة .

(٢) يقول الكابتن هاملتون (ص ٨٢) « ان البصرة بقيت عدة سنين بيد الايرانيين الذين شجعوا التجارة فيها ، وبذا انجذب كثير من التجار الاجانب للنزول فيها وخاصة من سوراة فى الهند » .

تتخللها فترات من التحالف . وظهرت في الاشهر الاولى من القرن الجديد عناصر جديدة للفوضوية بحدوث فيضانات عظيمة في الفرات الجنوبي . فعزلت البلدان ، وجرفت القبائل عن منازلها ، وهب الكثير من الرؤساء ليستربحوا ما يمكن استرباحه في هذه الكارثة . فاستولى احدهم وهو ابن عباس ، لعله كان من الخزاعل ، على الرماحية وحسكة وضواحي النجف . وأمسك مانع النهر من السماوة الى القرنة . اما شمالا ، فقد حاصر سلمان الحلة وافزع عباس بني عمير بلاد الجزائر ونهبها . وزادت في الطين بلة الخلافات الناشبة بين خانات الحويزة . فدعا الاتراك ثانية فرج الله ، الذي كان في حرب مع المنتفك ، غير انه بعد ذلك عزله الشاه فصالح مانعا ، وجاء بعده في البصرة داود خان .

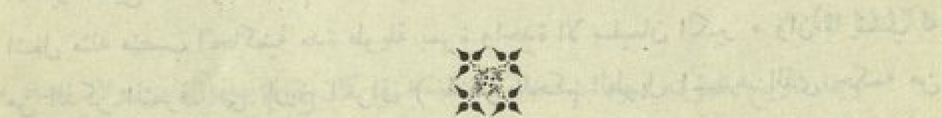
لم يظل السلطان جاهلا بان الاحوال في جنوبي العراق قد أصبحت اسوأ مما كانت في عهد حسين ويحيى . وبات اخراج الايرانيين وتأديب القبائل من الواجبات المستعجلة . فعهد هذا الواجب الشاق الى دلتبان مصطفى باشا حاكم بغداد الحديث العنيف الصارم . فتجمعت قوة ، فانضمت القطعات الكردية الى قوات التيمار الاقطاعية المرسلة من نصف ايالات تركية الشرقية . وانشىء اسطول من وسائط النقل النهرية في بيره‌جك وعهدت قيادته الى علي باشا الحاكم المرشح للبصرة . وأرسلت المدفعية الثقيلة على طريق النهر في دجلة الى الجنوب . ثم سار الجيش ببطء مارا بالحلة وحسكة الى الرماحية .

لم يشهد العراق الجنوبي قوة عظيمة مثل هذه منذ جيل . فخف الرؤساء الذين كانوا لصوصا بالامس لتقبيل ايدي دلتبان متذرعين لذلك بمختلف الذرائع . ثم جرى الاشتباك مع جمهرة من القبائل كانت لا تزال معادية في جنوبي الرماحية ، وذلك في اواخر كانون الاول ١٧٠١ م (١١١٣ هـ) فدحرت تماما . وكونت رؤوس الف من العصاة المقطوعة هرما كالح اللون . وبعد اربعين سنة بقيت رابية أشلائهم ظاهرة للعيان[١] .

وسمع مخيم مانع ، الذي كان قد التجأ اليه فرج الله ، بعظم الجيش الزاحف وقساوته وفزع كل الفزع . فعهد الى شيخ أدنى رتبة باجراء المفاوضات بالخضوع

(١) اوتر (ص ٢٠٠) ، ستيني (ص ٢٣٥) .

السلمى ، وانتهى القتال . وسار مع الجيش الادلاء الخاضعون الى القرية التى لم تقاوم . وسلم فرج الله نفسه ، ثم اعفى مانع او أهمل . كما ان خان البصرة تخلى عن التفكير فى المقاومة وهرب . ورحب وفد من رجال الدين واشربعة بدلتبان فى البصرة التى انهكها الطاعون والفوضوية وتبدل السادة . وتولى الايالة فى اوائل مارت على باشا . وبذا انقضت عشرة اعوام من الكفاح والضنك حسبما يظهر .



الفصل السادس

حروب الابطال[1]

حسن باشا

يدخل تاريخ بغداد فى دور جديد منذ تعيين حسن باشا فى باشويتها عام ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) • ومما يبعث على الارتياح ان نلتفت بالبحث الى حاكم حديث يمكننا ان نسهب فى وصف شخصيته واعماله التى عملها مدة تزيد على عشرين سنة ، بعد باشوات القرن الاخير الذين لا نعرف عنهم الا القليل • فما من حاكم ، ممن تناوله هذا التاريخ ، اشغل مثله منصب الحاكمية مدة طويلة بمرة واحدة الا سليمان الكبير • وان ما ينسب له من الذكر المشرف فى تاريخ العراق (بالنظر للحكم الطويل الشديد الذى حكمه من دون معارض ، ولاعمال البر والاحسان ، والاصلاحات ، وتوطيد دعائم الامن التى قام بها) أول من تشرفه باحتلاله الموفق للاراضى الايرانية ، وفى تأسيسه لسلالة من السلالات المالكة • فقد قدر للباشوية ان يسلمها الى ابنه من بعده ، ولاختانه[2] على بناته ممن تثبتت بهم وفى ايامهم سيادة المماليك فى العراق مدة قرن واحد لم يعرف خلاله غيرهم من الحكام الذين هم من أصل آخر • فأن مضمار الباشوية المبتدىء من حسن باشا المنتهى بداود باشا ما هو الا مضمار سلالى ينحصر اولا فى سلالته ثم فى عبيده اى

---

(١) المراجع لحوادث ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) ـ ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) هى : « حديقة الوزراء » وهى أقدم مرجع محلى ، وقد اعتمد عليه رسول حاوى افندى فى كتابه « دوحة الوزراء » وكذلك سليمان بك فى تأليف « حروب الايرانيين » • وتقل قيمة كولشن فى البحث عما يتعدى ١٧٠٠ من التاريخ • اما شؤون الموصل فأغلب المراجع ثانوية « كالتقويم » و « تاريخ الموصل » لسليمان الصائغ واوراق وشروح فى الكتب • ويرجع الفون هامر فى بحثه عن هذه المدة الى ما كتبه راشد حتى سنة ١٧٢١ م وجلبى زاده لـ ١٧٢٢ ـ ٢٨ وصبحى من بعد ذلك حتى ١٧٤٤ م وعزى لـ ١٧٤٤ ـ ٥٠ • وكتب من الايرانيين مرزا مهدى « جهان كوشه‌ى نادرى » بصورة مفصلة • وليس ما كتبه هانووى مهما ، ويرجع اليه الاب كروسنكى • وكذلك رجعنا الى مالكولم وولسن وسايكس • ومن أهم المسافرين الذين كتبوا لهذه المدة هاملتون واوتر •

(٢) الاختان هنا جمع ختن على وزن قلم بمعنى « زوج البنت » •

مماليكه . وكان تعيين حسن باشا بالنسبة الى استانبول آخر تعيين تمكن من تنفيذه السلطان طوال مائة وثلاثين سنة . لانه هو وابنه ، وهما خادما الخليفة المخيفان فى ولايتهما ، كانا قد رسما خط الانشقاق الواضح عن الامبراطورية .

كان مصطفى بك ، والد حسن ، سپاهيا فى جيش مراد الرابع . وتثقف الابن ، المولود فى اوربة فى حدود ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) ، بثقافة مدارس السراى . فأعجب به الصدر الاعظم ، وبانت عليه منذ الصغر شجاعته فى العمل . وفى ١٦٨٣ م (١٠٩٥ هـ) بدأ بسيرته الرسمية فى وظائف القصر . ثم رفع الى مرتبة وزير فى ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) فتولى ايالة قونية وحلب واورفة . فترك فى كل منها آثار العمل العظيم المفيد . وعين فى ١٧٠٢ م (١١١٤ هـ) حاكما لديار بكر ، ثم خلف على باشا فى بغداد سنة ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) .

ويعد تاريخ باشويته نموذجا للعناية الشاملة التى كان يقوم بها وال من ولاة بغداد . ولم تذلل حملاته العشائرية الاصقاع البعيدة التى تفصل القبائل غير المذعنة للحكومة ولا نكوصها بعد تأديبها بنجاح فحسب ، بل ذللت ايضا التأثيرات الخارجية التى كانت قد أخذت من قبل شكلا معقدا غير محلول . فقد كان لبنى لام علاقات غير منقطعة من حلف او حرب مع القوة المجاورة فى الحويزة . وكانت الجهتان تغرى الجاف والبلباس وغيرهم من قبائل الحدود الكردية والايرانية بالوعد او ترهبهم بالوعيد . وكذلك كان يقلق قبائل الفرات نصف المتوطنة اخوانهم بدو البادية . فلذا سنستعرض حملاته العشائرية استعراضا سريعا قبل ان نلتفت الى امور اخرى اكثر دقة من امور الحكم .

عرفت سنته الاولى بتأديبه الصارم للصوص فى نواحى الزاب الصغير . وانتهت حملة فى الموصل بموقعة حامية جرت فيما يقرب من خان النقطة ، وتلا ذلك توطن القبيلة الثائبة . وسمح الوقت فى السنة نفسها لاول حملة تأديبية جردت على بنى لام . وكانت اكبر حملات ١٧٠٥ م (١١١٧ هـ) موجهة على سلمان ، رئيس الخزاعل ، الذى انضمت اليه بعض جماعات من شمر وعنزة ، ونهب قرى بغداد وهدد الحلة . ولم يكن جيش هذا جيشا قبليا هينا ، لان شيئا من الادارة كان موجودا فيه فأدى لسرعة توسعه . فسار الباشا الى لقائه مارا بالحلة الى حسكة . فتفرقت قواته وطلب العفو . ولما طلب استسلامه بنفسه فر الى خيام مانع شيخ المنتفك .

وفي ١٧٠٦ م (١١١٨ هـ) استدعى حال شمر العقاب • فعبر الباشا الفرات من جنوب الفلوجة ، وبعد تعقيب شديد انزل بها خسرانات فادحة وسلب امتعتها • وجردت الحملة التالية على قبائل الفرات الاوسط كالحميد والسعدة والرافع ، وكانت هذه الحملة اجابة لتذمر شبيب شيخ قشعم ، وبمساعدة قطعات قبائليـة كبيرة • فانتهت الحركات بخضوع العدو • وتلت ذلك حملة على زبيد فطلبوا العفو ساعة وصول الباشا واسلموا اليه رؤوس العصيان • غير انهم سرعان ما استأنفوا الاخلال بالامن لما قفل الباشا راجعا عنهم •

لكن أهم وقائع ١٧٠٦ م ـ التي وصلت اخبارها باول رسالة تسلمها الصدر الاعظم الحديث في استانبول[1] ـ كانت ثورة مغامس المانع والمنتفكيين • وكانت الاسباب القصدية للثورة امور تتعلق بحقوق الارض في جزر الفرات ، ونزاعات لسبب الضرائب ، والمنح التي كانت تطالب بها القبائل • وقبل ان يتولى خليل باشا منصبه في البصرة في ١٧٠٥ م تنازع نائبه مع رؤساء المنتفك • فقابل خليل وكهيته قوات القبائل اربع مرات وتغلب عليهم • ثم عزل الثائر واعترف بالشيخ ناصر شيخـا رسميـا • غير ان مغامسا جمع الاكثرين حوله وشن هجوما مفاجئا ناجحا على خليل • فارتمت بذلك ولاية البصرة بأجمعها الى ما يقرب من اسوار المدينة في احضان فوضوية جديدة • فاستنجد خليل ، ولم يكن ذلك للمرة الاولى ، ببغداد • وأمر السلطان حسب المعتاد بجمع القوة من الباشوات المجاورين ـ في كوتاهيـة وديار بكر وكركوك والموصل ـ مع الخيالـة من البكات الاكراد •

وفي الاسابيع الاخيرة من سنة ١٧٠٨ احتشد جيش عرمرم في بغداد • وتقدم بعد ذلك الى الحلة ومنها الى العرجة ، ومن هناك الى البصرة من دون ان يلقى مقاومة خطيرة • فقد جرى اشتباك خفيف مع العدو فكانت بينهم موقعة غير حاسمة • اذ انسحب مغامس واختبأ ، وانسحبت قواته الى منازلها العاصمة • فعين حسن باشا سميا له حاكما في البصرة ورجع شمالا على طريق بلاد الجزائر فأخذ الرماحية ثم غزا داخل ولاية بغداد بمساعدة من عنزه • فأعد حسن باشا جيشا في الحلة ، وفي الحركات التي تلت

---

(١) على باشا كورلي (الفون هامر المجلد الثالث عشر ص ١٧٤) تولى الوظيفة في اليوم السادس من شهر مايس ١٧٠٦ م •

ذلك عبث رجال القبائل الخفاف بالجيوش النظامية • وكان مغامس يبتعد دائما عن لقاء الجيش حتى اختفى من غير ان يترك اثرا ، وبقى الحال غير محلول • على ان حسن باشا - لا شك فى اقتراحه - قد اعطى ايالة البصرة رسميا ، وكان يحكم عنه فيها متسلم • فدل هذا الحدث على مرحلة مهمة من مراحل الحكم الذى سيتطور بعد هذا •

وفى ١٧١٥ م (١١٢٧ - ٨ هـ) والسنة التى تليها اخذت الحملات التأديبية الباشا من اعالى ولايته الى اسافلها ، والى خارجها ايضا • فعلم البلباس ، وهم اكراد جبليون غلاظ فى شرق اربيل ، درسا فى الخضوع • وكان بكر بك ، ابن سليمان بك بابان او ابن اخيه ، قد اثار حسد اولى السلطات فى كركوك • وفى هذه المرة ازيح عن موقعه ثم اعتقل واعدم • وبذلك رجعت المناطق البابانية الى حوزة النفوذ التركى ، وبقيت كذلك حتى ظهور خانه باشا فى ١٧٢٠ م (١١٣٣ هـ) • وفى الحقيقة تعد حركات حسن فى ايالة شهرزور مهمة لانها تتضمن عملية ادماج كما كانت حركاته فى البصرة من قبل • ثم اعيد النظام الى نصابه فى حرير بعد ان ادى اختلاف وقع بين الاسرة السورانية الى سفك الدماء • كما ابيد مكمن لليزيدية اللصوص من سنجار بحملة افقدت الباشا كهيته وكثيرا من الرجال • وفى السنة نفسها طلب بنو لام ، الذين استولت عليهم قوات عظيمة لعبد الله خان والى الحويزة ، مساعدة الجيش التركى • وفى ١٧١٧ م (١١٣٠ هـ) استولى اكراد ايران على منطقة بجلان فأسرع حسن الى الموقع ، ولكن اوقفه عن تعقيبه للمعتدين خوفه من تخطى الحدود الى اراضى الشاه • وفى ١٧١٨ م احتاج الامر لحملة اخرى تجرد على بنى لام • فكان شيخهم قد عزل وحبس ، وفر ملتجأ الى الحويزة • وعند تقدم جيش بغداد اعتذر عبدالله خان من ايواء الملتجىء وقدم الترضية باكرامه جميع الضباط بسخاء • غير ان القلاقل استمرت بين القبيلة وتولى شيخ بعد آخر ، حتى ان عبدالله خان نفسه كان فى ١٧١٩ م مؤازرا لبغداد فى الامر • وكانت السنة نفسها مفجعة بتفشى الطاعون الذى فتك فتكا ذريعا بسكان ازقة العاصمة المكتظة •

وليس فى الامكان معرفة شخصيات كل مجموعة من القبائل فى هذا الاوان ، ولا الاحوال المختصة بها • ولذا كان مجرد عد الحروب القبائلية يعد مملا وقليل الفائدة • على ان الحياة الحقيقية فى البلاد ما كانت تخرج عن هذا الوصف ، ولا توجد الا اخبار من هذا النمط • وبمنظارها هذا ينبغى ان تنظر الى الحروب الاجنبية

والحوادث التاريخية الحادثة فى هذا الزمن • وكانت النتيجة المباشرة لهـذه الحملات العديدة الارتفاع الظاهر فى مستوى الطاعة للحكومة من سنجار الى الفاو • فوجد اول مرة استمرار الضبط ، وسادت العدالة الخشنة ، وتوفرت الصرامة التى كان يعول عليها الناس عند الحاجة • وبذا نالت « الدولة » ، التى تجاهلتها القبائل من الرعية وازدرتها ، احتراما وقتيا وحبا قليلا • وربط الباشا ـ وهو حاج عابد ـ الديانة بالحكومة بتأسيس الجوامع ومنح الاراضى والامـوال للاغراض الدينية • ولهـذا عرف حتى اليوم بأبى الخيرات أى المحسن • كما انه كان يعنى بأمور الزيارة لعتبات الطوائف جمعاء • وقد برهن على تساهله فى هذا الشأن ان سمح فى ١٧٢١ م (١١٣٤ هـ) بتأسيس دار للبعثة التبشيرية الكرملية • كما ان ترميمه للخانات اثبت عنايته بالزوار والمسافرين • ثم انه شق بقدر ما كان من الجداول والانهر الصغيرة رغبة منه فى اسكان العشائر الحواضر • وزاد على ذلك ان انفق مالا كثيرا على تعمير الجسور فى آلتون كوبرى وغيرها ، وصرف عليهـا مبالغ عظيمة لم تكن تستغنى عنها جيوب الباشـوات الآخرين • ولـم تحقق علاقاته الحسنة المربوطة باستانبول الا بارسال الواردات الى العاصمة بصورة منتظمة • فكوفىء على ذلك ، كمـا مر بنـا ، بالحاق البصرة بامرته ، وبسـيادة غير مدونة على شهرزور ، وبضم ماردين ، وهى حكومة « اويوضة » المستقلة الى باشوية بغداد • على ان هذه التغيرات المهمة كانت شخصية وتختص بحسن باشا ، ولا شك كان يقصد بها ان تكون غير دائمة •

وكانت زوجته عائشة خانم ، وهى بنت مصطفى من رجال حاشية مراد الرابع ، قد دفنت سنة ١٧١٧ م (١١٣٠ هـ) فى قبر زبيدة زوجة هارون الرشيد • واستخدم اخاه على بك مدة طويلة فى عـدة وظائف غير كبيرة • وكانت فاطمة احدى بناته قد تزوجها عبدالرحمن باشا (حاكم كركوك فى ١٧٢٢ م) (١١٣٥ هـ) ، كما تزوج ابنته الاخرى صفية قره مصطفى باشا طرابزون[١] • اما أحمد ، ابنه الوحيد ، فسوف يذكر عنه هذا التاريخ الشىء الكثير • فقد ولد فى استانبول فى حدود ١٦٨٥ م (١٠٩٧ هـ) فى جفلكة بالقرب من استانبول ، ورافق والده فى مختلف الوظائف التى اسندت اليه • ولذا اهمل تثقيفه ، غير ان ذكاءه وشخصيته وقابليته الرياضية قـد جعلت من سيرته

---

(١) وكانت خديجة خانم ابنة صفية خانم ولية أمر مؤلف حديقة الوزراء بصورة من الصور •

شيئا خطيرا . فبعد ان عاش فى بغداد احدى عشر سنة عين باشا لشهرزور فى ١٧١٥ م (١١٢٨ هـ) ، ثم نقل الى قونية ، واخيرا (ربما فى ١٧٢١ م) الى البصرة[١] .

وبلغت حوادث حكم حسن باشا الطويل الامد اوجها فى خريف ١٧٢٣م (١١٢٦هـ) وفى ذلك يتعدى جريانها من العراق الى ايران . ومنذ هذا العهد تستغرق تاريخ العراق لعشرين سنة حملات على ايران كان يقودها ابن الباشا . وهنا نتجه بالبحث التاريخى نحو الحوادث الواقعة فى امبراطورية الشاه المؤدية لاعلان الحرب .

---

(١) ان كتاب « غاية المرام » يجعل اورفة اول ولاية عين فيها ، ويسجل قصته مع والى الموصل ، الذى كان الحصول على عفوه أسهل من الحصول على عفو والده فى بغداد . وكان الحاج مصطفى باشا (بطل القصة) باشا الموصل منذ ١٧٢٠ م (١١٣٣ هـ) . ولذا وجب ان يكون تعين احمد للبصرة قد حدث بعد هذه المدة . ويعتمد على ما كتبه هاملتون فى اخبار البصرة لسنة ١٧٢١ م . وهو يذكر الكثير عن سوء الحكم الذى لا يمكن ان يكون قد حدث على ايام احمد باشا هذا . فقد كان باشا البصرة يومئذ رجلا قد تزوج امرأة من أسرة السلطان ، وكان هذا طماعا جشعا . ولما لم يجد معه كل شىء نفعا رأس المفتى خمسين الفا من سكان المدينة فمشى اليه وخيموا على شط العرب ، وقطعت الارزاق عن البلد . وتبودلت بين المفتى والباشا لغة الشرع ولغة الدولة بشدة ، حتى أذعن الباشا الى التفاهم . فطلب الهائجون ان لا يرجعوا ما لم يسلم اليهم عدة من الموظفين الذين كانوا كآلات بيده فى سوء الحكم . فسلموا وعفا عنهم المفتى ما عدا واحدا . والقصص الاخرى التى يذكرها هاملتون تختص بالقضاء على جماعة من الانكشاريين جامعى الضرائب وخلاعة الآباء الكرمليين . ومن المحتمل جدا ان تعين احمد باشا جاء بعد هذا الحادث .
(المؤلف)

قال مصطفى جواد : ان مؤلف غاية المرام هو المصيب فقد ذكر ياسين بن خيرالله الخطيب العمرى فى حوادث سنة ١١٣٤ هـ (١٧٢١ م) من كتابه « الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون » ما نصه : « وفيها ولى مدينة ارفة احمد باشا بن حسن باشا والى بغداد وهذا اول منصب وليه » وقال فى حوادث سنة ١١٣٥ : « وفيها عزل من ارفة احمد باشا بن حسن باشا وقدم الى الموصل ... ورحل الى بغداد ... ونزل بالدجيل .. فأقام هناك خمسة عشر يوما ... » وقال فى سنة ١٣٣٦ هـ : « سار بالعساكر والى بغداد الوزير حسن باشا وتوجه الى بلاد العجم ونزل على مدينة كرمان شاه وحاصرها ونهب رساتيقها ثم فتحها وتمرض ومات فأخفى موته كتخداه محمد كاهيه وأرسل الى البصرة يستدعى ولده القسور والليث المظفر احمد باشا فقدم على خيل البريد وتولى أمر قيادة الجيش ... » .

فهذا يدل على ان احمد باشا تولى البصرة بعد ولايته لارفة ، وبذلك تتضح مشكلة تاريخية لم يستطيع حلها مؤلف التاريخ هذا .

الحملات الاولى[١] : سنى ضد سنى

كان قد بدأ صلح طويل بين الشاه والسلطان بالمعاهدة التى امضاها فى العراق قره مصطفى ، الصدر الاعظم للسلطان مراد الرابع ، فى العشرين من شهر مايس ١٦٣٩م (١٠٤٩ هـ) . فبقيت ايران مدة اجيال ثلاثة هادئة ثرية لامعة . وكان الفجور والترف المتفشيان فى البلاط مما يدل على الرفاهية المؤمنة ، كما كان الفن والعمران مما يزين الثقافة والتقى . فسلم الشاه صفى الى عباس الثانى ، وهذا الى سليمان ، وهـذا الى حسين جلال العرش الصفوى ونقاط ضعفه المميتة .

ولم يكن سقوطه ناشئا عن جوع الاتراك للتملك ، وحقدهم الدينى ، ولا عن جشع العاهل الروسى الذى كان يتربص الفرص فى الشمال النائى . وانما ثل ذلك العرش على يد فاتح وحشى جاء من بلاد الافغان الجبلية . فقد كان محمود خان بن ويس من قبيلة الغلزاى قـد استولى على كرمان فى ١٧٢٠ م (١١٣٣) فروع ايران والقى الرعب فيها . وبعد شهور قلائل عصفت العاصفة .

ترك محمود قندهار فى اوائل ايام ١٧٢٢ . وسار بجيشه مارا بكرمان ويزد فوصل الى كولنباد وهى من اصفهان على اثنى عشر ميلا . وتدل الحرب المشؤومة التى وقعت هنا بايضاح تام على حيوية الافغانيين المتفوقة . فحوصرت اصفهان وجوعت حتى استسلمت . وتخلى الشـاه حسين عن عرش ايران الى خان الغلزاى ، وبقى هو فى اسر رفه فيه عنه . وبذا سلم الخلف العاشر للشـاه اسماعيل امبراطورية ايران الى الفاتحين البرابرة . فأصبح السلطان والباشا بازاء شاه افغانى سنى . وبقى مدع صفوى للعرش ، وهو طهماسب بن حسين ، مع ان حسينا فر الى الشمال ليجمع اتباعه . فأوحت الاسـابيع الاولى من الحكم الافغانى الآمال الجسام ، غير ان شراسة محمود تغلبت فى اواخـر ١٧٢٣ م على الرأفة التى اظهرها من اجل خطتـه من قبل . ولذا

---

(١) الرواية المذكورة هنا فى تاريخ الحملات الايرانية ـ التركية فى ١٧٢٢ م (١١٣٥ هـ) ـ ٤٥ هى من وجهة النظر العراقية تماما . وجرت حركات الحملات فى قسم واحد من جبهة تمتد من الخليج الى بحر قزوين .

كشف اسرافه فى الفتك اثناء المدة التى بين هذا التاريخ وموته فى ١٧٢٥ م عن كونه رجلا مجنونا .

وكانت معاهدة باساروويتز فى اوربة ، التى حررت الاتراك من كثير من المسؤوليات ، قد جعلتهم قادرين على مداقة اعدائهم بل فرائسهم الحساب فى الحدود الشرقية . وقد اثار الصفويون المتقلقلون والافغانيون المحتلون الحرص والخوف فى استانبول ، غير ان هذا الشعور لم يستبن فى الحال . فبقيت السفارات [١] السلمية المفخمة لمدة ما تأتى بالزيارات بين بلاط الشاه حسين وبلاط السلطان أحمد الثالث ، فيرقبها البغداديون بتحديق اليها . ووصلت انباء خطر مير محمود الاخيرة الى استانبول بيد اسرع ارسل الذين بعثهم حسن باشا قبل سقوط اصفهان . فوصلت اليه فى مقابل ذلك اوامر تقضى باعداد مراكز دفاعه على الوجه الاكمل من دون ان يحتاج اليها . فنظف خندق بغداد واصلح ، ورمم السور المتداعى وألح وكلاؤه فى التردد بين اصفهان وبغداد ، مع انه كان يبعث بكتب التهنئة الى الفاتح الافغانى بطلاقة تهكمية . وكان محمود يجيبه مؤكدا له عقيدته السنية ومبديا احترامه للخليفة الحقيقى . وبذا لم يكن اى لون آخر من الديبلوماسية يخجل الوزراء الذين كانوا يضمرون العداء فى استانبول [٢] اكثر من هذا .

ولا يسمح المكان فى هذه الصفحات للبحث فى المناظرات والديبلوماسيات - الايرانية والروسية والافغانية والتركية - التى جرت فى ١٧٢٢ م - ٢٣ . فقد احتلت القوات العثمانية وجيوش بطرس الاكبر بلاد الكرج وداغستان فى وقت واحد وذلك قبل سقوط اصفهان . وكان السفراء يذهبون ويرجعون بين باشوات الحدود واستانبول ، وبين موسكو والولايات القزوينية . ثم أعلن الاتراك الحرب فى اوائل ١٧٢٣ على جارهم المتدهور ، واثاروا الحماسة والشراسة فى جنودهم بفتاوى رجالهم

---

(١) ترك دورى افندى وصفا لسفارته حين مر ببغداد مرتين . اما سفارة مرتضى قلى فيمكن ان يراجع لاخبارها ما كتبه الفون هامر (ج ١٤ ص ٧٩) .

(٢) هانووى ص ١٧ . ان اوجه حال الاتراك عند اغتصاب الافغان العرش يومئذ ثلاثة وهى : الخوف من ظهور فاتح حديث يهدد العراق والامبراطورية ، وأمل فى الحصول على فرصة يستفاد منها فوائد عند شيوع الفوضى الداخلية فى ايران ، والانزعاج من ان سادة ايران الحديثين اصبحوا من السنة .

الدينيين القطيعة • ووافق الروس فى خريف تلك السنة على نصب طهماسب الصفوى فى العرش فى مقابل اخذهم نصف مملكته • وكانت الدولتان - السنية والنصرانية - قد تحالفتا على الصداقة الدائمة والحلف قبل ثلاثة اعوام ، واخذتا الآن تحكمان ذلك بتجزئة ايران على اتفاق بينهما •

وتبع وصول الانباء الى العراق عن اعلان الحرب على ايران وصول الاوامر بجمع القوات من كل باشوية حتى ارضروم • فاطاعت الحامية والجيوش الاقطاعية فى الموصل الاوامر ، غير ان حسن باشا وابنه فى البصرة فكرا فى شىء آخر • وطلبا من سيدهما ان يعلم ان اواسط العراق ان لم تكن لقمة سهلة للافغانى فهى احسن القواعد التى يمكن اتخاذها لمهاجمته • فوصلت جوابا عن ذلك الاوامر باحتلال ايران عن طريق كرمنشاه ، وعهدت القيادة الى حسن باشا • ولذا وصل الباشا الاوج من سيرته ، وقد بلغ السبعين من عمره وتعود ان ينظر نحو الشرق[1] طوال العشرين السنة الاخيرة • وبعد ان انضم اليه صهره عبدالرحمن مع قوة كركوك سار بكل أبهة فى طريق ايران مارا بخانقين مع مدافعه والويته وقواته التى قضى السنين العديدة فى تحسينها • ولقيه بكات القبائل الكردية ودويلات المدن مع قطعاتهم • فوصل جيشه كرمنشاه ، فسلم اليه الحاكم الايرانى عبدالباقى خان مفاتيح المدينة من دون مقاومة له • فأحتلت المدينة واصبحت منذ تلك الساعة من ولايات السلطان •

بمثل هذا اضاف حسن ايالة الى الامبراطورية • كما انه اتيح له ان يضيف اليها ايالة اخرى ، وان ينال شرف فتح ايالة ثالثة • وكان والى اردلان على قلى خان[2] قد كاتب بغداد من قبل ، فأداه خلع سيده الى ان يطالب الاتراك باسناده • على ان الجواسيس اخبروا حسنا بان مخابرات جرت بين سنه والافغانى ايضا ، ومعنى ذلك ان حيلة مزدوجة كانت قد احتيلت فى اوان واحد • فبعث خانه باشا بابان لاحتلال اردلان • فاستسلم على قلى مع معظم اتباعه ، وأصبحت اردلان من ممتلكات السلطان • وجردت حملة اخرى لقتال والى كردستان على مردان خان الذى التزم بالعهد بتأييد طهماسب ورفض الاذعان

---

(١) تؤكد المراجع العراقية ان مخاوف حسن من ايران منذ ١٧٠٤ ربما كان سببها التصريحات الشيعية غير الحصيفة التى كان يتفوه بها سادة ايران •

(٢) يجعل جلبى زاده الاسم عباس قلى ، وتختلف روايته عن هذه العلاقات قليلا عما نذكره هنا •

للحكم التركي • فاستولى عبدالرحمن باشا مع على بك ، شقيق القائد العام ، على منطقته ودحره دحرا شديدا ، ففر ، غير انه استسلم بعد ذلك فعومل بسخاء •

قضى شتاء ١٧٢٣ م في كرمنشاه • وتوفى[1] حسن باشا قبل حلول الربيع ، وقد بلغ من الكبر عتيا وكانت الحركات الاخيرة قد هدت قواه • فابنه الجيش باجمعه ثم أرسل بجثته الى بغداد فدفنت في جامع أبي حنيفة • فكانت الحاجة شديدة لخلف له • وكان اباشا مع أسرته يشغلون مكانة فوق الجميع • فاسترحمت الرسل المستعجلة الواصلة الى استانبول تعيين احمد باشا • فصودقوا على ذلك • وبعد ان اقام مراسيم العزاء سار الى كرمنشاه ، واسترجع بدهائه وسخائه طاعة اتباعه المذبذبين وجيشه المتنازع • ولم يكن في وسعه ان يعير الاهمية اللازمة التقارير التي كانت ترد اليه في وصف الفوضوية التي ضربت اطنابها في العراق •

وفي ربيع ١٧٢٤ م (١١٣٧ هـ) سارت قواته الى همذان • وركب الرسلية قبل الجيش يطلبون تسليمها • فكان كثير من السكان يفضلون الحاكم التركي على الافغاني ، ورأى الكل المعاملة الطيبة التي لقيها اهالى كرمنشاه عند الفتح • فكتب الحاكم الايراني الى اصفهان مستأذنا في الاستسلام • فلم يرد عليه جواب ، وبدأ الحصار[2] التركي • وكانت المدينة قد خزنت كثيرا من التجهيزات الحربية ، وكانت محصنة باتقان فدوفع عنها ببسالة • فجد الجيش في حفر الانفاق ، الا انه أصيب بانفجار الالغام • وبذا نالت البسالة الايرانية اثناء الحسن من الناس حتى ثناء العدو • غير ان مدفعية الاتراك المتفوقة في القوة كانت في الاخير هي الحاسمة للامر • فأحدثت ثلاث فجوات في السور فجرى منها الهجوم فدام القتال في الشوارع ثلاثة ايام بلياليها • وحل عيد الاضحى فكانت ضحاياه النفوس التي أزهقت في هذه المجزرة البشرية • ثم انتهى القتال بهدنة كانَ من شروطها ان تصبح مدينة همذان وولايتها للدولة العثمانية يحكمها قره مصطفى باشا[3] ،

---

(١) وانعم عليه على وفاته بلقب « فاتح همذان » .

(٢) دوحة الوزراء ، حروب الايرانيين ، جلبي زاده .

(٣) كان قد جيء به الى شهرزور من طوابزون بعدما حول عبدالرحمن من كركوك الى البصرة في اواخر ١٧٢٣ م ، وحل في مكانه في شهرزور عثمان باشا دفتردار بغداد .

وان يذكر فى الصلاة العامة اسم الخليفة[١] . على ان عدة ارتال من الجيش ، كان يقودها الكثير من رؤساء الجيش والتابعين له ، تمادت فى حركتها لان المعارضة لم تكن لتخمد بعد . فهزم الله ويردي خان بعد ان احرز شيئا من الانتصار ، واذاقه والى مرعش خسرانا عظيما . ثم صد بشدة هجوما مقابلا آخر ، كان قد شنه لطيف مرزا الصفوى ، ابراهيم باشا مع خانه باشا بابان . فأسر لطيف مرزا وتشتتت قواته .

واستمر اشرف خان الافغانى ، خلف محمود ، يرسل وفوده الى السلطان لتحتج بكل أنفته على هذه الحرب المستعرة بين السنى والسنى . فكانت حجة الافغانى قوية بهذه ، كما كان الرأى العام فى تركية مجمعا على التأييد . وعرض احمد باشا ، كغيره من كبار الموظفين ، على استانبول أمر دعاية خطرة من هذا النمط كانت تبث فى جيشه . ومن أجل هذا كانت جيوشه مع جيوش زملائه فى الشمال النائى تتدنى قوتها الروحية وتقل طاعتها ساعة بعد ساعة . وفى هذا العهد ، اواخر ١٧٢٥ م (١١٣٨ ﻫ) ، توجه قواده الى فتح لرستان[٢] السهل . ففر الوالى اللرى بعد دفاع غير مجد ، وقبلت قبائل الزاغروز الرئيسة تابعية الخليفة بالاسم وغمرت ممثله بالهدايا . وفى خلال الشتاء توغل رتل من الجيش كان يقوده والى الموصل جنوبا فى بلاد البختياريين . وبعد ان كان على ثلاثة ايام من اصفهان ناوش هناك افغان الحامية السنيين القتال ، وعلم بان المريين من ورائه كانوا قد عبروا الحدود العراقية للتآزر مع بنى لام وزبيد ، فانسحب بقواته المضعضعة الى همذان[٣] .

وفى صيف ١٧٢٦ م (١١٣٩ ﻫ) حملت شؤون مستعجلة احمد باشا على ان يعود الى العراق ، وذلك بعد ان تلاشت العداوات وتوارد رسل أشرف على المعسكر ، وبعد ان وردت الى الشرق انباء المناوشات والفتاوى فى العاصمة . ثم حل الخريف فجاء باكثر الحملات طمعا وأقلها نجاحا . فقد كانت الخطة التركية اغراق الشكوك الدينية بالظفر .

---

(١) لبست استانبول حلة قشيبة بالافراح عند وصول انباء الانتصار ، وكتب الخليفة بيده كتاب شكر الى احمد باشا .

(٢) ومن المحتمل ان احمد باشا نفسه وقد رجع الى العراق فى اواخر ١٧٢٤ م كان مشغولا بتأديب العشائر هناك . وقد اخطأ جلبى زاده بذكره كينونة احمد باشا مع الجيش حيال تبريز فى صيف ١٧٢٥ م .

(٣) يذكر ذلك بالتفصيل هانووى (ص ٢٣٢) .

ولذا وصلت الى أحمد باشا تجدات عظيمة مؤيدة تعيينه سر عسكر لها • وعبئت مرافق تركية الشرقية بأتمها من ديار بكر الى همذان فالبصرة ، وهيأت لقيادته[١] • فكانت جيوشه المجهزة حسب أحدث النظم لذلك العصر لا تقل بعددها عن مائة الف رجل ، مع انه كانت جيوش أشرف تعد بمقدار خمس هذا العدد • وكان يضم الجيش الافغانى قليلا من المحاربين اقندهاريين الذين كانت ذخائرهم غير كافية ومدفعيتهم خفيفة • على انهم كانوا متفوقين بذخيرة الديبلوماسية فقط • فما تقدم جيش احمد باشا من همذان متجها نحو عاصمة ايران حتى توجه أشرف الى مكان هو من اصفهان على اثنى عشر ميلا • وفى العشرين من تشرين الثانى كان الترك قد تركوا همذان وراءهم بمسافة ثمانين ميلا ، كما كانت مسافة اثنى عشر ميلا فقط تحجز بين الجيش العظيم والجيش الضعيف • واذ ذاك بعث احمد قوة خفيفة امامه لتجر العدو الى الحرب فطوقت بالحصار وقطعت عن الجيش الرئيس قبل ان يخف لاسعافها • وكان هجوم أشرف بسلاح أمض • فقد اندس وكلاؤه بين البيكات الاكراد فأفسدوهم بوعودهم بالترفيع والهدايا وبالملك والامارة • وتناقلت الايدى منشوراته الكتابية المتضمنة استنكار الحرب بين الاخوان من السنة • وكانت الرشوة قد جعلت فى اماكنها المناسبة • وفى الاخير حضر بحضور الباشا اربعة علماء محترمين • وبينا كانوا يقرعون الحجة بالحجة تعالت الاصوات بالآذان تدعو الناس الى الصلاة • فنهض الشيوخ الافغانيون بصمت وانصرفوا الى الصلاة فى وسط اعدائهم • فكان لذلك وقع عظيم فى النفوس • ولما رجع الشيوخ الى معسكرهم ترك قسم كبير من الاكراد معهم •

ويومذاك كان هم الباشا ان يبدأ بالحرب توا • وكان جناح الجيش الايمن يقوده احد الباباتيين ، وجناحه الايسر يقوده محمد باشا واثنان من الكوبريليين • وكان أشرف يقود جيشه وهو على ظهر فيل • فتقدم الجيش التركى مع بزوغ الشمس بعد ان آذنت بذلك عشر اطلاقات من المدفع • واذ ذاك ظهرت نتيجة الدعاية الافغانية بأشد مظاهرها • فلم يهجم الا الجناح الايمن لجيش الباشا فصد فى كل هجمة هجمها ، ولم يشتبك جيشه مع العدو مطلقا • فأمر بالتراجع العام بعد الظهر ، بعد ان ترك فى الميدان اثنى عشر الف

---

(١) يشير الفون هامر (ج ١٤ ص ١٣٥ ، ج ١٥ ص ١٥٠) مرتين الى ان سر عسكر همدان كان عارف احمد باشا او نارف باشا فقط • ولم يكن هذا الشخص مع جيش همدان قط •

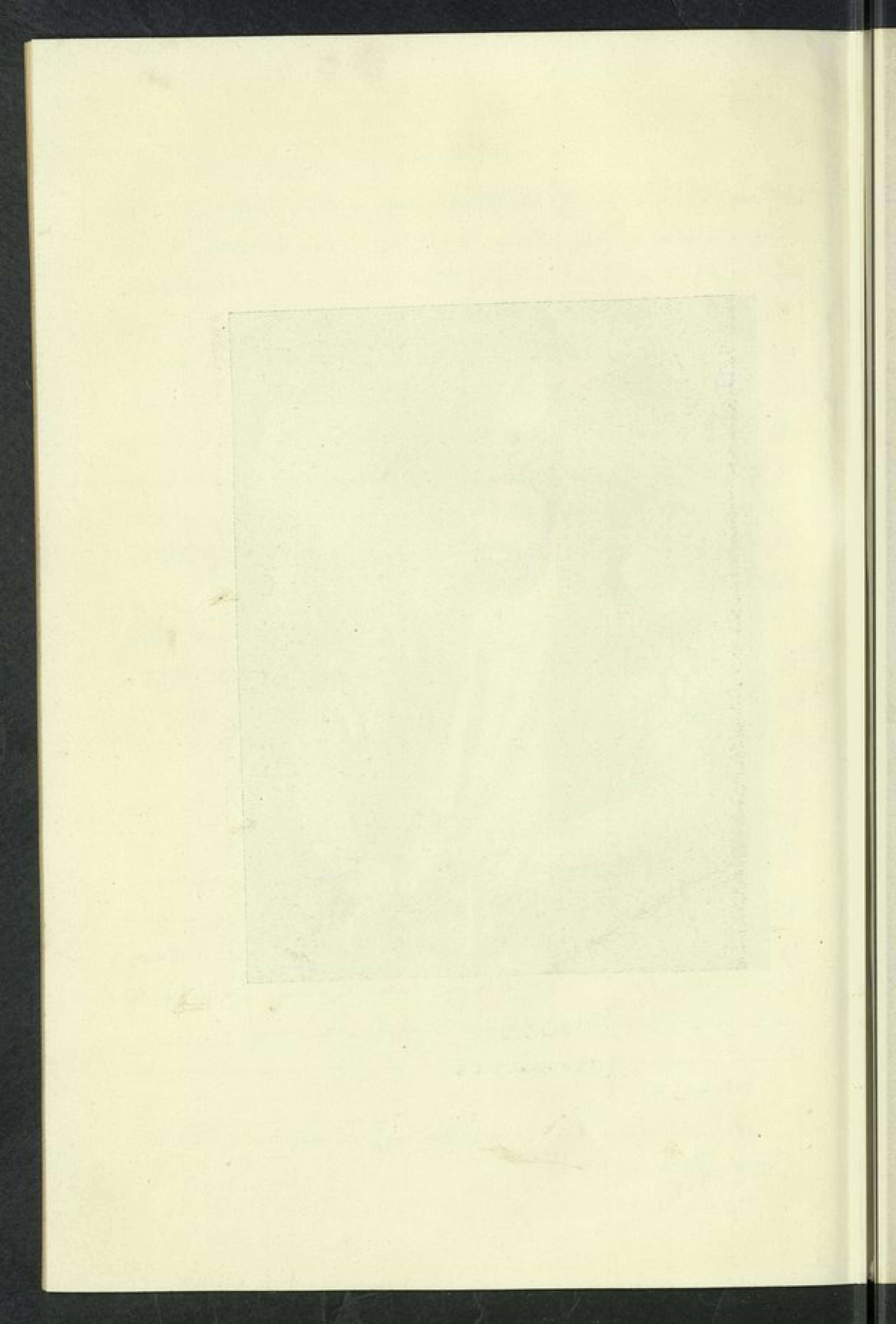
قتيل • وزاد عدد التاركين والمتمردين والمهدئين على هـذا العدد • فقد ترك الجيش الاكراد بأجمعهم تقريبا ، وانتشروا راجعين لمواطنهم • وتراجع احمد نفسه الى كرمنشاه تاركا امتعته الثقيلة • اما أشرف فقد « رافق الجيش التركى حتى باب المدينة » • وهناك سرح لدهاءه وعقله الاسرى الاتراك مع جميع لوازمهم من دون ان يطلب اليه ذلك •

واردف الافغانى هذه الافضلية الروحية والمادية بمعروضات صلح سرية • لان الحرب كانت منذ البداية حربا جوجا لا حاجة لها • بيد ان وجود حزب حربى فى استانبول، ورغبة احمد فى ان ينتقم لنفسه ويتلافى خسرانه حالا دون انعقاد الصلح • فوصلت قطعات حديثة الى بغداد ، وكان قد تراجع اليها احمد من كرمنشاه ، وزاد عدد الانكشاريين والمتطوعين المتوافرين لديه الجنود الواصلون من وحدات التيمار الاقطاعية • وفى اواخر ١٧٢٧ م (١١٤٠ هـ) صار فى وسعه ان يعرض جيشا حديثا يبلغ عدده ستين الفا • غير ان استعادته لكرمنشاه فى ايلول وتقدمه منها نحو همذان لم يكونا نحو حرب وانما كان ذلك فاتحة السلم • فقد وصلت اليه اوامر سلطانية تقضى بفتح باب المفاوضات ، ووصل الديبلوماتيون من استانبول لمساعدته • وقبل ان تضرب اية ضربة كانت عشرة ايام من المداولة والمفاوضة كافية لوضع شروط الصلح والتوقيع عليها • فقضت بأن تكون همذان وكرمنشاه واردلان ولرستان من حصة السلطان • واعترف بكون أشرف ملكا على ايران خاضعا لسيادة الخليفة الروحية • ورجع احمد باشا الى الاحوال المضطربة فى ولايته ، بعد ان بقيت الحاميات التركية فى الممتلكات الجديدة • وعجل أشرف بالرجوع لتهدئة العواصف التى لم يكن فى وسعه التغلب عليها •

نادر قلى وحصار بغداد

كان الافغان قد ظفروا بالتاج بفضل سرعتهم وحيوتهم القبائلية ، وباضمحلال الصفويين • ولاجل المحافظة عليه كانوا بحاجة الى ايران لا قابلية لها فى توليد الخصوم ، والى الاتصال بقواعدهم التى يستمدون منها قوة الرجال فى افغانستان • فلم يتوفر لهم هذان الامران • فاقتربت النهاية ، بعد اقل من عشر سنوات مرت على اغتصاب الحكم ، على يد آخر فاتح آسيوى عظيم عرفه العالم •

ولد نادر قلى فى خراسان سنة ١٦٨٨ م (١١٠٠ هـ) من اسرة • لم تكن نابهة





نادر شاه

(تقابل الصفحة ١٤٥)

ولا حقيرة »[١] وكانت تنتمى الى قبيلة الافشار . فقضى صباه المفعم بالمجازفة راعيا وقاطع طريق ، ثم ضابطا فى جيش اللانظاميين . وكان قبل ان ينضم الى طهماسب قد بلغ مكانة رفيعة فى عشيرته ، فصار له كثير من الاتباع المخلصين . وفى ١٧٢٧ م (١١٤٠هـ) كان وراءه خمسة آلاف محارب من الافشار والكرد لنصرة المدعى بالعرش الصفوى فى فرح آباد . فلما عهد اليه أمر استرجاع خراسان نجح نجاحا باهرا ، ثم حصل فى مدة عدة اسابيع على القيادة العامة لجيوش طهماسب بلقب طهماسب قلىخان ، ووقع على عاتقه واجب عظيم هو انقاذ بلاده من الافغان المغتصبين . فقهر هؤلاء قهرا شديدا مرتين فى سنة ١٧٢٩ م (١١٤٢ هـ)[٢] . واستعيدت اصفهان ، وكان موقفهم الاخير فيما يقرب من شيراز . وهناك تشتتوا بالكلية ، وقبض على اشرف فذبح ، وبذا تلاشت اسرة الغلزاى من ايران حتى الابد . فاعيد الصفوى للعرش ومن ورائه الافشارى الطامع من دون رحمة .

واردف طهماسب توليه العرش بايفاد سفير الى استانبول يطلب اعادة الولايات الغربية . وعلى ضفاف البوسفور هناك كان الوزير العظيم يفاوض الوفد الايرانى يوما بعد يوم . وفى بغداد كانت الانباء التى كانت تردها من الشرق ومن الغرب تؤذن بدنو الحرب .

وكان نادر فى ايران لا يرغب فى تجنب الحرب ولا يتصور امكان ضرب الصفح عنها . وفى ربيع ١٧٣٠ م (١١٤٣ هـ) اشتبكت جيوشه مع الجيوش التركية المستندة الى همذان بسرعة . واضطر عثمان باشا ان يتقهقر الى الحصن حيث انضمت قواته الى قوات تيمور باشا وان . « فقتل نادر قلى الباشوين ، واستولى على مدفعيتهما مع غنائم جسيمة ، ثم دخل مدينة همذان من دون ان يلقى مقاومة واستقبله الاهلون بفرح منهم عظيم ... »[٣] . وعندئذ انسحبت الحامية التركية الى كرمنشاه بعد ان خسرت امتعتها ، ومن هناك عبرت الحدود القديمة الى زهاب وخانقين .

---

(١) جونز (ص ١) .

(٢) يستحيل علينا قبول ما ذكره جهان كوشا وجونز بان جيشا كبيرا من الترك بقيادة حاكم همذان كان فى نصرة الافغان .

(٣) جونز ص ٣٢ .

ووصل الى أحمد باشا ، وقد بوغت بهذه الصدمة الفجائية ، فى الوقت نفسه تقريبا نبأ اعلان السلطان أحمد الثالث للحرب فوجد نفسه سر عسكر مرة ثانية[١] . وبعد ان جعل زهاب قاعدته ومركز احتشاد قواته تقدم الى كرمنشاه فاستعادها من دون حرب . كما رجعت على نفس الشاكلة اردلان الى حوزة الولاء التركى . وكان نادر يومئذ بعيدا عن هذه البلاد فى خراسان[٢] . فوقع واجب مقاومة الجيش الغازى على طهماسب الضعيف الحسود . فخف مسرعا الى اريوان فى الجنوب ليلاقى الخطر . وكان أحمد باشا مخيما قرب همذان . فتراسل قواد الفريقين مراسلات رنانة غير مجدية . فوقعت الحرب فى كوريجان ، وهى من همذان على مسيرة يوم واحد ، فى السادس عشر من ايلول ١٧٣١ م (١١٤٤ هـ) . فاضاع الشاه نصف جيشه بأجمعه ، بينما كانت خسرانات الترك لا تزيد على ألف رجل . وتركت جميع المدفعية الايرانية وجميع الاصقاع التى استردها نادر قلى من قبل . وكان حاكم تبريز وحاكم شيراز الشريفان بين القتلى . ثم احتلت همذان من دون عنف فعهد الى بيك العمادية وبوضة ماردين قيادة الارتال المسرعة لجمع الذخائر المتروكة والاسرى المتفرقين ولتثبيت الحكومة التركية . وعندئذ لم يحاول طهماسب محاولة اخرى للمقاومة ، كما لم يحاول أحمد التقدم . ووصلت لاحمد باشا رسالة شكر وتقدير من السلطان الجديد محمود الاول .

غير ان ازمات التنازل عن العرش والفتنة والخلع التى مرت بها عاصمة الامبراطورية فى اواخر تلك الايام حدت الصدر الاعظم على ان يعجل بالصلح قبل ان يهدد نادر شاه الدولة بساعده القوي تهديدا ثانيا . ووصلت تعليمات ذلك الى أحمد باشا فى مخيمه بهمذان فى خريف ١٧٣١ م . وكان نادر قلى ، الذى كان وحده يأبى الصلح ، غير حاضر لمعاكسته . فاستغرقت الاشهر الاخيرة من سنة ١٧٣١ م والايام الاولى من سنة ١٧٣٢ م المفاوضات فى همذان . وفى اليوم العاشر من كانون الثانى امضيت المعاهدة . فكانت المطاليب العثمانية معتدلة . فقد بقيت تبريز واردلان

---

(١) ان الفون هامر (ج ١٤ ص ٢٥٣) وهو مستند الى اخبار صبحى فى هذا البحث يذكر ان على باشا حكيم زاده كان سر عسكر الجيش . ولا تؤيد المراجع العراقية ولا الايرانية هذا الخبر ، كما لا يتفق ذلك مع روايته فى ص ٢٥١ .

(٢) ان ما يذكره صبحى ويستند اليه الفون هامر (ص ٢٥٤) انه كان حاضرا مع الشاه غير صحيح .

وكرمنشاه وهمذان والحويزة كلها فى حوزة امبراطورية الشاه . وصودق على ديبلوماسية باشا بغداد هذه بعد ان نوقشت بديوان حافل فى العاصمة ، وانسحب هو الى حدود مراد الرابع القديمة .

وان كان فى وسع احد ان يأمل ان معاهدة كهذه سوف تحدد اطماع الافشارى ، فان ذلك الامل كان قصير الامد . لانه لم يكن الا فى بدء عمله .

« لكن معلوما لديكم ، يا باشا بغداد ، اننا نطالب بحق لا نزاع فيه فى زيارة قبور الائمة على والحسين والمهدى وموسى . ونطالب بجميع الايرانيين الذين اسروا فى الحرب الاخيرة .... ونحن سائرون حالا على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ، ولنستريح فى ظل اسوارها » .

بمثل هذه اللهجة خاطب نادر أحمد باشا فى الوقت الذى كان فيه الصيف قد انتهى وقدم خريف ١٧٣٢ م . وكان امضاءه من حيث انه وصى العرش للملك الجديد ، كما كتب بروح الفاتح الحقة . فقد انتهى أمد طهماسب . لان اندحارات حملة ١٧٣١ م ، وضياع همذان ، وعقد معاهدة حقيرة كلها اعطت نادرا الفرصة لذلك . فنقض عهد الصلح لاسباب دينية وسياسية . وانذر السلطان بتهديد جاف فيه انه يحاربه ان لم تعد الولايات الايرانية الباقية فى الحال . ثم خلع طهماسب عن العرش ، وجعل الصبى عباس ميرزا شاها لايران ، على ان يكون الوصى عليه نادر نفسه . وبذا اصبحت بينه وبين العرش الايرانى خطوة واحدة فى امكانه ان يخطوها متى شاء .

اما أحمد باشا فقد احتل ممرات الحدود فى درنة ومندلى وبدرة ، وعزز حامياته فى زهاب وقصر شيرين . هذا زيادة على اصلاحه بكل عناية لمراكز الدفاع ومخازن الحبوب . كما اخبرت استانبول بسرعة دنو الخطر . وبعد ان اتخذ هذه التدابير ظل ينتظر اهوال الحصار . وتحشد اتباع نادر قلى وأشراف مملكته وقواته فى همذان ، فكانت قوتهم تتألف من مئة ألف مقاتل . فسار بهذه القوات الى كرمنشاه[1] ، وبعد ان ترك مدافعه الثقيلة وامتعته فى ما هى دشت تقدم مسرعا طاويا لجبره الى نقطة زهاب .

---

(١) اعيدت كرمنشاه الى ايران بموجب معاهدة ١٧٣٢ م . غير ان هانوى (ج ٢ ص ٧٦) يذكر انها كانت لا تزال تركية ويشرح اخبار حصارها وتسليمها . ومن المحتمل ان الاتراك لم يكونوا قد سلموها حتى ذاك التاريخ .

فدهمها متدرعا ظلام الليل ، فصارت في يده عند الصباح • ثم سار من هناك بجميع قوته فعبر الحدود الى العراق لعلمه باستعداد أحمد في بغداد • وبما انه كان لا يتوقع مقاومة شديدة في شمالي العراق فصل قسما من جيشه فبعثه لتدبير امر كركوك والموصل ، ولقطع اتصالهما ببغداد • فتقدم هذا الجيش ومر بطوزخرماتو وعاث مفسدا بقرى كركوك[1] ، غير انه خاب في محاولته فتح القلعة • كما ان قوة صغيرة بعثت لاستكشاف أمر الموصل صدها بسهولة الحاج حسين الجليلي باشا • وعندئذ انضمت تلك القوة الى الجيش الرئيس في الجنوب •

عبر نادر قلي ديالى من بهرز في اول اسبوع من كانون الثاني ١٧٣٣ • فجرت له مناوشات طفيفة مزقت فيها قوة تركية ضعيفة شر ممزق • كما اندحر اندحارا تاما قسم استطلاعي قوي من الجيش كان قد بعث لتعرف حقيقة العدو وقائده باشا كوي الذي قتل في المعركة • وتلى ذلك تطويق بغداد التام • وكان عشرة آلاف ايراني قد عبروا من قبل الى الجانب الايمن لدجلة من شمال المدينة ليستولوا على ضواحي العاصمة الغربية ، وليقطعوا طريق قوافل الحبوب الواصلة من الحلة والجنوب • وارسلت على هذه القوة ، التي لم يعرف مصيرها بالضبط ، قوة من جنود ديار بكر وحلب[2] • وبينما كان نادر يحتل في الجانب الايسر مواقع الحصار كان أحمد باشا يحاول متماديا منع عبور العجم الى الجانب الايمن • وفي العشرين من كانون الثاني احبط حملة البنادق الخفيفة الذين كان يقودهم الباشا نفسه اول محاولة جرت للعبور • فتمكن اثناء الليل قسم قليل من الايرانيين من العبور ، الا انهم ردوا عند انبلاج الصبح • والح نادر على قطع النخيل وجد في فتل الحبال من خوصها قصد استعمالها في انشاء جسر للعبور ، ولاجل ان يهيء الوقت الكافي لذلك عرض معروضات الصلح • (وهذه انهيت الى استانبول ، وادت بعد نقاش طويل لارسال طوبال عثمان) • وقد انهى المهندس الاوربي الذي اسند اليه انشاء الجسر على بعد عدة اميال من شمالي بغداد • فعبرت عليه قوة يقودها نادر ، كما عبرت قوة اخرى بالزوارق فتألف من ذلك رتل قوي فزحف الى

---

(١) لقد اخطأ صبحي في بحثه عن احتلال اربيل • لان روايته لاخبار الحركات تدل على جهله بطوبرغرافية البلاد •

(٢) وهذه رجعت الى بغداد بناء على طلب احمد باشا لها اثناء الصيف ، اذا كنا نثق برواية صبحي •

الكرخ • وتمكنت جماعة من كشافة جيش أحمد باشا ان تنجو بنفسها بعد لأى لتخبر سيدها بالامر • وبذا كان من المتوقع ان ترتفع الاسعار فى بغداد لانقطاع قوافل الفرات عنها • فأرسل الباشا قوة متألفة من ثلاثين ألف مقاتل الى الجانب الايمن يقودها نسيبه ووالى اورفه • فكانت للمدافعين الارجحية بمدفعيتهم التى لم ينقل مثلها نادر الى مقره هذا • وجرت بعد ذلك مناوشات تلتها حرب عنيفة • فرجحت كفة الاتراك مدة من الزمن حتى خاف الوصى على حياته ، الا ان نجدات ايرانية عبرت بسرعة مفعمة بالجرأة فغيرت الحال • وانسحبت القوة التركية الى المدينة بعد ان كابدت خسرانا • واذ ذاك أمر أحمد باشا بالانسحاب العام الى الجانب الايسر • فخف نادر لاحتلال رأس الجسر فى جانب الكرخ • وبعد ان تمتع بالتسهيلات المتوفرة فى البلد بعث قسما من ضباطه للاستيلاء على المدن الفراتية ، ولتأدية التحية للعتبات المقدسة • واحتفل بعيد النيروز « رأس السنة الايرانى » - ١٩ مارت ١٧٣٣ م (١١٤٦ هـ) - بأفراح عظيمة فى المعسكر • ووصل شيخ الحويزة وشيخ بنى لام ليقدما واجبات الاحترام لنادر • فاستقبلا بلطف وبشاشة وأمرا بمهاجمة البصرة ، الا انهما رجعا الى اوطانهما فتجاهلا ما أمرا به من التعليمات •

اصبحت بغداد مطوقة من جميع جهاتها • وكان الباشا محصورا فى داخل السور يخشى كثيرا من السكان الايرانيين ان ينتصروا للعدو انتصارا لا شك فيه • حتى ان شائعة راجت تؤذن بأن وجوه المدينة كانوا قد استفسدوا بذهب نادر • ومر الربيع ثم انسلخ الصيف بعده فخفتت همسات الانقاذ الذى كان مأمولا من الخارج • كما ان الحامية كانت قليلة العدد فلا تستطيع القيام بهجوم فجائى ، وكثيرة بالنسبة للارزاق المحدودة المقدار • وان ضعف الايرانيين فى المدفعية جعل الاستيلاء صعبا بالهجوم وسهلا عن طريق الحصار الطويل • وكان مع أحمد باشا صهره والكهية وسليمان باشا ونسيبه قره مصطفى وغيرهم من الباشوات ذوى الرتب العالية ، لكن عبء القيادة الذى كان على عاتقه لم يشاركه فيه أحد من هؤلاء • وكان يبين للناظر من اسوار بغداد ما يشابه المدينة من الابنية المقامة فى خطوط المهاجمين • فان كثيرا من الضباط الايرانيين كانت ترافقهم عوائلهم فلذلك بنوا لها دورا متقنة البناء • وكان سوق المعسكر ملآن من السلع الرخيصة باسعارها • وكانت مقايسة هذه الحال بالمجاعة المتزايدة فى الداخل مما يؤثر تأثيرا سيئا فى نفوس المحاصرين • وكانت آمالهم تزداد خيبة بالنجدات التى

كانوا يشاهدونها كل يوم تدخل فى معسكر نادر ، تلك النجدات التى لم تكن فى الحقيقة الا من ارتال الجيش الاصلى التى كان يبعثها نادر ، على سبيل الخدعة ، لیلا لترهب حراس السور . وعلى هذا لم يكن مستغربا ان يتسلل اناس من السكان البائسين الى الخارج زحفا من الباب او رميا بأنفسهم من أعلى السور .

وكان نشاط الباشا قد استخدم كله ، ليس في الحرب بل فى سبيل ادامة المقاومة . فكان يبعث رسلا مخادعة فيأتون من الخارج الى بغداد بأخبار سارة مكذوبة تنبیء بقرب وصول النجدة . كما ان وفدا من العلماء الايرانيين الذين ادخلوا بغداد لمحاجة علمائها عجبوا ساعة رؤيتهم الكثير من الخبز معروضا للبيع بأسعار يستدل منها على رفاهية بعيدة عن الضنك . وما ذلك الا تدبير مخصوص دبره الباشا بأن جمع كل الخبز الموجود فى بغداد وعرضه بهذه الصورة ليخدع العدو . ولما ارسل نادر حملا من الرقى على سبيل الاستخفاف بجوع السكان بعث اليه أحمد بهدية نفيسة من أفخر الخبز . على ان هذه المداعبات ومعروضات الصلح او التراضى غير المقصودة لم تكن لتخفف من ويلات المجاعة[١] الفظيعة التى انشبت اظفارها ، ولم تبعد كثيرا دنو اجل الانقاذ الذى اصبح على قاب قوسين او ادنى فى منتصف الصيف .

حل تموز فأوشكت الآمال ان تفنى . فبقى الباشا وحده رابط الجاش قوى العزم . غير انه هو ايضا كان مترددا بين الامل لوصول جيوش طوبال عثمان التى تأخرت طويلا والقنوط من وصولها . ولو كان هذا القائد العظيم قد تأخر عدة ايام اخرى من ميقات وصوله او كان ضعيفا عند الوصول ، او كانت بغداد تنظر فى محنتها هذه الى قائد اقل شخصية وشهرة من أحمد باشا ، او كان نادر قد اظهر فى هذه الحملة فطنة تناسب ما ابداه فى فتوحاته الاخرى لكان تاريخ بغداد والعراق وتركية قد سلك حقا مسالك اخرى . فلم يكتب لاية مدينة مهددة ان تفلت من عدوها كما كتب لبغداد ، كما لم يكن وصول اى منجد فى الوقت المناسب للانجاد مثل وصول طوبال عثمان .

---

(١) يقول جوزيف امين (ص ٥) ان المسيحيين كانوا يعيشون عيشا حسنا بذخيرة الطعام التى ادخروها بحكمتهم ؛ مع انه كانت الاكثرية المسلمة تأكل الكلاب وادنى من ذلك .

المنقذ الاعرج

لم تظهر على مسرح العراق الحديث شخصية اكثر رومانتيكية من شخصية عثمان باشا الاعرج . فقد ولد في اليونان ، وتثقف في « سراغليو » باستانبول ، وترفع بسرعة الى أعلى المناصب حتى اصبح في الاخير قائدا عاما في اليونان ، ثم والي بلاد الروم أيلي . وكانت الجروح الممضة قد شوهته فبان كأنه مسن ، وقد أثر احد هذه الجروح في رجله فصار يلاقي صعوبة في المشي عليها ، ولذا لقب بـ « طوبال » اي الاعرج . وكان يتحلى فوق الشجاعة والخدمة باخلاص ، بسجايا نادرة . فكان سخيا شريفا غير مطعون عليه رقيقا متواضعا . فلم يكن له اعداء ، بل كان كل جندي صديقا له . وقد حدث ، بعد تقاعده عن منصب الصدارة العظمى توا ، ان شاع الخطر المحدق ببغداد في استانبول . فعين سر عسكر في آسية ليرد الخطر . وخول السلطة التامة في جمع القوات واستخدام الموارد المختلفة في الايالات الشرقية . فزحف بجيش كبير[١] ، واستغرق مسيره نصف سنة تقريبا . وربما دل تأخره عن ميقات الوصول على جهله بحرج الموقف في بغداد . وقد وصل الى الموصل في اوائل حزيران . ثم تسلم في كركوك كتابا بعث به اليه نادر بلهجة الازدراء الصلف . فقد تمنى له الوصي رحلة سريعة نحو حتفه ، وهدده بالقبض عليه كما يقبض على « الطفل في مهده » تعريضا له بالعاهة التي كانت تضطره للركوب في محفة . وكانت تبين على طول البلاد التي مر بها الى بغداد آثار السيف والنار التي اضرمها العدو عند مجيئه . وتأخر جيشه في عبور الزابين . وقبض قرب كركوك على جاسوسين او منهزمين . وبعد ان استحلفهما للاخلاص بعثهما الى أحمد باشا مع كتاب يذكر فيه التريث والانتظار الطويل قبل وصول النجدة . فنفذ الايرانيان ما كان يقصده القائد بعينه وهو ايصال الكتاب الى نادر قلي قصد ايهامه بتأخر وقت وصول الجيش .

وسلك في سيره من جنوب كركوك طريق العظيم . وعند وصوله الى دجلة وافاه كتاب من نادر قلي يطلب فيه ان يختار موقعا لمعسكره وان يستعد للقتال .

---

(١) ان القوات التي كان قد تألف منها الجيش مذكورة بالتفصيل فيما كتبه صبحي (الفون هامر ج ١٤ ص ٢٨٦) . ولم تتعد القوة مائة الف ، كما ان من المعلوم انها وصلت الى الموصل وعدتها ثمانون الف مقاتل .

فاحتبس الرسل والجواسيس من الايرانيين ، ثم سرحهم فى الاخير لينقلوا الى سيدهم اخبارا غير حقيقية دبر امرها خديعة . وكانت برودة عثمان وحكمته وطول اناته مما يبعث الثقة ، فى وقت كانت فيه ساذجيته توجب النقد . وقد بقى مطلعا على كل شىء بواسطة جواسيسه ودوريات الجند التى كان يرسلها للتعرض الخفيف . فرجعوا اليه فى السابع عشر من تموز فأخبروه بان نادرا كان قد ترك معسكره فى بغداد وتقدم عشر مراحل الى الشمال . ولذا كان يحتمل وقوع الحرب فى اليوم التاسع عشر من الشهر . فدعى طوبال عثمان ضباطه وابلغهم آخر تعليماته المفصلة . فوقف الجيش فى اليوم الثامن عشر مع انه كان الايرانيون يكدحون مشيا نحو الشمال للقائه .

نهض طوبال من نومه الهادىء فى ليلة الحرب وطلب من اطبائه جرعة تزيد فى قوته فى يوم الايام هذا ، ثم صلى كعادته . وقد وصفه طبيبه بما يلى :

« وبعد ان انتهى من صلاته امتطى صهوة جواده ، بعد ان لم يكن يركب من قبل طوال مدة سير الجيش لانه كان يحمل فى محفة منذ ان ترك ديار بكر . ولا يمكن ان اعزو القوة التى اظهرها الآن الى شىء سوى روحه العسكرية والنار التى كانت تتأجج بين اضلاعه .... وقد رأيته راكبا كأنه فتى يافع وبيده السيف ، فكانت سيماه تبعث فى الناظرين الحماسة والنشاط ، وعيناه متألقتين وكان يأمر بأوامره بخفة تعجب وفكر يقظ » .

بدأت الحرب مع طليعة الجيش التركى فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التاسع عشر[١] . وكان الضبط متساويا عند الفريقين ، ولم تدع اساليب الحرب يومئذ وانبساط ساحة القتال سبيلا لاتخاذ الخدعة الا فيما ندر . اما عدد الجيوش فقد كان فيه شىء من الرجحان بجانب الاتراك . فاصطدم الفريقان ، وارتدت خيالة الاتراك فقط امام جيش الايرانيين الرئيسى المؤلف من خمسين الف مقاتل بقيادة نادر نفسه . غير ان مشاة الاتراك كانوا من وراء الخيالة المتقهقرة كالبنيان المرصوص . فقد وقع ثلاثمائة رأس من الايرانيين امام السرعسكر ، ولاح ان الظفر كان بين يديه . الا ان ارتداد الفين من اكراد جيشه عكس عليه الحال فصعد مد الايرانيين ، وأخذت المدافع من بولات باشا

---

(١) ان التفصيلات العسكرية الاخرى موجودة فى هانوى (ج ٢ ص ٨٦) ، وفى نيكوديم (فون هامر ج ١٤ ص ٥٢٢) . وهاتان الروايتان تتفقان بصورة عامة فقط .

وابراهيم باشا ، واحدثت قسرا ثغرة فى خط الاتراك بجانب دجلة . فدعا طوبال عثمان جيش احتياطيه المؤلف من عشرين الف بعد ان طوى كشحا عن مشاوريه الذين اشاروا عليه بالرجوع . فاستعيدت الارض والمدافع التى خسرها من قبل . وبذا طغى مد الاتراك بقوة مرة ثانية . وتقدم الانكشاريون من قلب الجيش على طول خطهم . ولم يعد فى وسع نادر ، وقد كلفه تعرضه من دون وجل للمخاطر فقد حامل لوائه وفرسين من تحته ، ان يجمع رجاله . وبعد تسع ساعات من حرب دامية سجال غربت الشمس على الايرانيين وهم مندحرون متراجعون متفرقون . وبذا احرز الباشا الاعرج نصرا مبينا .

ملأت ساحة الحرب الواسعة جثث آلاف من القتلى والجرحى من العدو . وكانت الغنائم تشتمل على جميع المدفعية الايرانية بحجومها المختلفة ، وجميع خيامهم وامتعتهم ، وجميع مؤونتهم بما فيها الثمار الطازجة والحلويات ،وكذلك اعلامهم وآلاتهم الموسيقية وكراعهم (حيوانات النقل) . وبذا اغتنت قوات الباشا المنهوكة الفرحة . اما الباشا نفسه فقد بكى ، فى مجلس عام يضم قواده وضباطه ، من فرحه وتعبه الممض ، شاكرا كل قائد على المجهود الذى بذله وحامدا الله على الانتصار[١] . وقد خسر الايرانيون ثلاثين الف قتيل وثلاثة آلاف اسير . وكانت خسرانات الاتراك اقل من ذلك بقليل . وقضى يومان فى تنظيف ساحة الحرب ودفن الموتى ونقل الجرحى الى الموصل . وقد وجد بين الجرحى الايرانيين حمو نادر قلى وابن اخيه ، فعوملا بالحسنى ثم ارسلا الى الوصى . وأرسلت رسائل الظفر من محل الموقعة الى السلطان والى بغداد والى كثير من حكومات الامبراطورية . وجاء جماعة من الهاربين بانباء مفادها عبور نادر الى ايران من الحدود .

وفى ساعة الانتصار أمر احمد باشا بهجوم مفاجىء الى الخارج من ابواب بغداد ، فجرى ذلك وانقض الاتراك على القوة ـ المؤلفة من ثمانية آلاف ـ التى تركها نادر لتديم الحصار . فأبيدت عن آخرها ولم يسلم منها انسان . وفى الثانى والعشرين من تموز وصل دفتردار بغداد الى طوبال عثمان بكتب التهنئة . وفى مساء الثالث والعشرين ، عندما بان الجيش المنقذ من اعالى السور ، ركب احمد باشا الى المعسكر . فكان اللقاء قصيرا ورسميا على صبغته الدراماتيكية فى تاريخ العراق . وقابل فى اليوم التالى طوبال عثمان الزيارة بالمثل . ولما كان يستهجن المراسيم بعد انتصار كان سببه قوة خارقة ركب

---

(١) نيكوديم (الفون هامر ج ١٤ ص ٥٣٢) .

من دون حاشية ولا أبهة ، فدخل المدينة التي كان أخذ منها الجوع مأخذه وفتك بها المرض ودوى فيها صوت الموت . فانه لم يصل الطعام اليها على اكتظاظها منذ كانون الثاني حتى اواخر تموز . وقد مات من الجوع ما يزيد على المأة الف انسان . فرميت جثث الالوف منهم في النهر ، وبقيت جثث الباقين تملأ الهواء بعدواها فجاءت بالمرض اثر المجاعة . وقد بلغ الوهن والضعف بمن عاش من السكان الذين شهدوا دخول اشرف رجل في عنصره ـ وكان مؤثرا في تواضعه ـ حدا لم يستطيعوا به ان يتذوقوا النجاة والرفاه المقبل[1] . ثم رجع الباشا الاعرج الى معسكره الواقع على بعد عشرة اميال من شمال بغداد ، واستراح ثمانية ايام .

الى هذا الحد كانت حملته مقترنة بالنجاح التام المستحق . وقد جعله انقاذ بغداد بيوم واحد ، وهو الشهير المحترم ، معبود العراق الناجي من الكرب واستانبول على سواء . وقد كان من مصلحته ان يموت بعد هذا الظفر موتة نيلسون ، لان الاندحار والموت ، على العكس مما كان يأمله ، كانا ينتظرانه في الاراضي العراقية نفسها . اذ كان قد أنجز مهمته ، فأنقذ بغداد حقيقة . لان نادر شاه لن يكون في وسعه فتحها على تخييمه حيال اسوارها مرتين فيما بعد .

وبينما كانت بغداد تتماثل يوميا الى الشفاء انسحب عثمان الى الشمال . وقد قل جيشه (بالرغم عن قلته من قبل ووصول حده الى خمسين الفا) شيئا فشيئا بتسريحه الجيوش الاجيرة الى ولاياتها العربية والكردية . ولم يكن في وسعه ان يقيت حتى البقية الباقية من الجيش النازلة قرب بغداد . وقد طلب في كتبه الى استانبول جميع انواع النجدة والتجهيزات . غير ان انباء انتصاره قوبلت في العاصمة بافراح بالغة . وانهالت عليه الالقاب والتفويضات الا ان العدد والتجهيزات التي طلبها لم ين منها شيء ولم يعف من القيادة بحسب ما كان يرغب فيه . فخيم في كركوك خائفا وجلا ، غير مجهز . اما احمد باشا (الذي كان من المأمول ان يتخلى له عن الجيش) فقد توقع مثل طوبال ان الوصي لا محالة معيد الكرة . فرمم سور المدينة واصلح الخندق والقلعة ، ثم ملأ مخازنه من الحبوب التي جمعها من فضلات الحصار السابق .

---

(١) يصف نيكوديم ذلك بقوله « . . . ان الفاتح العظيم ذا البأس الشديد طوبال عثمان وصل مع جيشه المنتصر الى بلد الامام الاعظم فتوافد عليه الاهلون من جميع الطبقات شيبا وشبانا يقبلون اقدامه ويمسحون عنها الغبار » .

وكان استرداد نادر لقواه دالا على عظمته بوضوح[١] . فقد وقف بعد تركه العراق فى همذان ليعيد تنظيم جيشه ويزيد عليه . فتقاطرت القطعات من كل ولاية ايرانية . وما مرت اسابيع قلائل حتى اصبح المتشردون القليلون جيشا قويا دبت فيه الحياة . فسار الى كرمنشاه ، وكانت وجهته الاولى جيش عثمان لا بغداد . لانه ليس من الممكن ان ينجح اى حصار كان وفى ساحات الحركات جيش يقطع على الهاجمين اتصالهم بقاعدتهم . وعلى هذا سار بجيشه شطر كركوك .

وما زالت طلبات طوبال عثمان لجند حديث وعدد جديدة غير مجاب اليها . على انه نجح فى جمع قطعات صغيرة لا من استانبول بل من الولايات المجاورة كسوريا والموصل وديار بكر ، ومن شيوخ العرب . وكانت الشائعات الواصلة الى معسكره بالقرب من كركوك لم تبخس قوات الوصى المنتظرة حقها من حيث العظمة ، ولم تستهن بعددها . فأرسل بولات باشا مع ستة آلاف مقاتل ليقف فى الحدود فيصد العدو ، الا انه فشل فى مهمته وتركها وانسحب . اما الحركات التالية لذلك فكانت غامضة الامر . وانما المعروف ان طوبال عثمان حصن معسكره من جهة ، ومن جهة اخرى كان يبعث بالقطعات الصغيرة من جيشه لتناوش العدو القتال لانه أخذ يتقرب شيئا فشيئا ، فنال بذلك نجاحا بين بين . وفى الاخير كان سهل ليلان ، الممتد من كركوك جنوبا وشرقا بين التلول الواطية الى نهر طاووق ، ساحة قتال فى الحرب الاخيرة . وفى السادس والعشرين من تشرين الاول ١٧٣٣ م (١١٤١ هـ) كان الجيشان قد تصافا وجها لوجه للحرب . وكان لجيش نادر الحديث عظمة جيشه المدحور قبل ثلاثة اشهر واكثر استعدادا منه . اما هو فقد اضاع فى هذه المرة ثقته المفرطة بنفسه . لكن طوبال عثمان كان على أسوأ حال . فقد قل جيشه عما كان عليه من قبل ، مع استراحته ، عدة آلاف ، وكانت حركاته حركات المدافع للابقاء على جيشه لا لانقاذ مدينة عظيمة . فدحر الجيش التركى اندحارا تاما فى الحرب التى وقعت ، ولم ينجح من الجند الا القليل . ولم يكن فى وسع ذلك الباشا الاعرج ان يجمع جنده ، مع ما اوتى من حذق وبسالة . واضطر هو نفسه ان يترك محفته فيمتطى جواده ثم يخر منه قتيلا . فتلاشى جيشه وانعدم . ووقعت فى

---

(١) ان أحسن المراجع للحملة التالية هو هانوى (ج ٢ ص ٩٣ ـ ١٠٠) ، ولا تستحق اخبار جهان كوشا التصديق . كما ان صبحى لا يذكر منها الا القليل . ولا تضيف المراجع العراقية الا بعض النقاط .

يد الايرانيين جميع الامتعة والمدفعية ووسائط النقل ، واسر الكثير من جيش الباشا . وجيء بجثة طوبال عثمان الى محضر الوصي « الذى وقف صامتا مدة من الزمن وهو يتأملها بالخشوع التام » قبل ان يبعث بها محروسة الى بغداد .

وان بين هاتين الشخصيتين المتناقضتين ما يدعو للمقايسة . فقد كانا يتفقان فى خدمتهما لبلادهما فقط . وكان احدهما قد تبدل حب الناس له لقساوته المتعاظمة وجشعه المكروه ، كما كان الآخر سخيا ورقيقا جدا . وكان احدهما يقود رجاله بكبرياء « جسمه المتناسب ، ومظهره الانيق ، وصوته المدوى ، وشجاعته الفائقة مع عزمه .... وذاكرته المدهشة وحيويته الغزيرة .... »[1] . مع ان الثانى كان رؤوفا غير صارم ، ومتقدما فى السن ، لا يستطيع الركوب الا بصعوبة يجدها . وكان نادر ظاهر التفوق بنباهته وقوة مفاجئاته وطموحه . كما كان عثمان باشا متفوقا باخلاصه لبلاده ولمثله العليا بالروحية المثلى .

أحدثت انباء الهزيمة العظيمة رعبا متساوى المقادير فى استانبول وبغداد . وكان الهياج عظيما فى العاصمة الى حد ان وضع فيها حرس اضافى منعا لشبوب الثورة . وكان رجال الديوان الاماثل يفضلون اى صلح كان على متابعة الحرب بازاء قائد نصف ساحر . بينما كان الآخرون يلحون فى تجهيز نجدات اخرى . فصوت على المال والرجال . ثم عين عبدالله كوبريلى سر عسكر فى آسية ، وأمر حكام الولايات بالانضمام اليه .

اما بغداد فلم تكن لتتوقع شيئا ، فجددت التحصن ولها اضعف الآمال فى النجدة . ورفض أحمد باشا ان يسمح لجماعات المنهزمين من جيش عثمان المشتت بالدخول الى المدينة ، لان قوته الدفاعية كانت كافية وكان فى البلدة كثير ممن « يأكل ولا ينفع » . وقد سمح لجميع من رغب فى ترك المدينة ان يتركها ، وبعث هو بعائلته الى البصرة . ولم يتأخر فى انجاز التدابير لدفع ما كان يخشاه من الامور . وقد تقدم العدو المنتظر عن طريق الخالص الى بغداد واقبل على ترميم بنايات الحصار المحكمة . وكان قد بعث من قره تبه قبل وصوله قوة عبر دجلة لتحقيق خضوع المناطق الفراتية وتجهيزاتها . ولم يخش الايرانيون فى هذه المرة قدوم جيش منقذ من الشمال ، ولم تزعجهم حرارة

---

(١) سايكس ج ٢ ص ٢٧٣ .

الصيف التى لم يألفوها . كمـا ان الامل الوحيـد للمحصورين فى الداخل كان فى قائدهم وتدابيره التى اتخذها . غير ان الرياح تجرى بما لا تشتهى السفن . فقد حدث ما لم يكن فى الحسبان . لان نادر قلى ، وهو اللامع الجذاب ، كان قد اطال الغياب عن بلاد لم تخضع الا بعد لاى ولن تهدأ وفيها الاتباع الطامعون . فوافته الانباء بنبأ ثورة مخطرة شبت نيرانها فى فارس لمصلحة الصفويين . ولذا لم يكن فى وسعه ان يستغنى عن الاسابيع التى كان يحتاج اليها لاخضاع بغداد . فكان الصلح لدى الباشا كنجدة نزلت من السماء . فتبودلت الكتب بينهما ، وكانت الشروط تلك التى كان يرجع اليها المتبارزون الكادحون من الترك والايرانيين فى كل فرصة . وهى لا تخرج عن اعتبار حدود السلطان مراد والتسريح العام للاسرى . فعقد الصلح وسرح الاسرى ثم تهادى القائدان هدايا . وارسل اصل المعاهـدة الى استانبول للمصادقة عليها . وبعد ان زار نادر قلى العتبات المقدسة رجع لتدبير شؤونه المستعجلة فى ايران .

نهاية النزاع

أيد الرسل الذين جاءوا بالمعاهدة الى استانبول نفسهم انسحاب جيش نادر قلى التام من العراق . وكان يومئذ عبدالله كوبريلى على رأس جيش قوى فى ارمينية . كما كان اسمه يوحى الثقة الى النفوس عندما تعالت اصوات الاستئثار للبطل الصريع لدى وصول جثة طوبال عثمان الى اسـتانبول . فتغلب رأى الحرب فى ديوان السياسة . فتركت المعاهدة ، المعقودة فى وقت الضيق ، جانبا وانتعشت الآمال عند ابتعاد الخطر . فأبقيت القوات التركية فى الشمال على مرابطها فى شرقى الحدود . ثم نقل أحمد باشا من بغداد ، فدل ذلك على عـدم اعتبار المعاهدة التى عقدها . فتسلم حاكمية اورفه[1] متقبلا اوامر سيده لاسباب معقدة .

شهدت سنة ١٧٣٤ م (١١٤٧ هـ) ، بعد قضاء نادر على الثورة التى رجع من اجلها عن بغداد ، هجماته الجديدة الموفقة على قلاع الحدود التى كانت لا تزال بايدى الترك . فقد حوصرت تفليس وايروان وكنجة . وفى حزيران ١٧٣٥ م كان المسـرح عتيدا ليلتقى فيه بموقعة حاسمة نادر والسر عسكر التركى الذى عززت قواته بكثرة ، وكان

---

(١) كان تحويله الى حلب فى اول الامر ثم نقل الى أورفة بطلب منه .

مستريحا منذ مدة . فوقعت بينهما معركة مخيفة فى بغاوند ، بالقرب من قارص ، اضاع فيها عبدالله كوبريلى حياته وجيشه بأجمعه تقريبا . ثم احتل نادر المدن التى كان قد حاصرها من قبل وتوجه لفتح داغستان وبلاد الكرج السهل عليه .

واذ ذاك ندم اولو الامر فى الباب العالى لرفضهم معاهدة كانون الاول ١٧٣٣ م . فعين أحمد باشا ، الذى كان حينئذ فى اورفة ، سر عسكر برتبة ممتازة فى آسية وخول المفاوضة من اجل الصلح . فتحرك الى ارضروم ، وسار السفراء فوق العادة بين الفريقين . فاشتط نادر بمطاليبه فى هذه المرة ، وطلب الدية زيادة على معاهدة بغداد السابقة . فلم يتوصل الفريقان الى نتيجة ما مدة اشهر عديدة . ورأى نادر ان يترك أمر علاقاته بتركية ، فأكمل استعادة الولايات القزوينية من روسية وبذا قلد وسام « شرف ايران » فى الحادى عشر من شهر مارت ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) . فأوضح فى الاحتفال الذى اجرى لذلك اصلاحاته المهمة التى نوه بها من قبل فى كتاباته الى البلاط التركى . فأعلن تمسك الشيعة بالعقائد الدينية الاصلية وانضمامهم اليها باسم المذهب الخامس وهو المذهب الجعفرى . وقد كان يرمى بهذا الى تسهيل معاملاته مع تركية وايجاد اهمية لعائلته السنية ، ثم توحيد العناصر التركمانية والكردية والافغانية التى فى جيشه ليعادل بهم العناصر الشيعية التى فيه وما زالت مقيمة على ميلها الى الصفويين . فحيا السلطان بارتياح ظفر الديانة الحقة . ثم أمر أحمد باشا فى هذه المرة بأن يعجل فى عقد المعاهدة . فاستمر البحث ، وكانت مطالب الشاه النهائية تنحصر فى تعيين امير ايرانى خاص بالحج ، وتسريح الاسرى ، والاعتراف بالمذهب الجعفرى الجديد وعده مذهبا اصليا . فبحثت فى ثمانى جلسات رسمية من جلسات الديوان الملكى النقاط الدينية والديلوماسية . فعقدت فى النتيجة معاهدة تحتوى على الجمل الضرورية . على ان تكون فيها الحدود تلك التى عينت فى ١٦٣٩ م (١٠٤٩ هـ) ، وعلى ان يعترف باسلام الايرانيين الصحيح .

وبذا انتهت الحرب الناهكة المبيدة التى اضرمها الشره التركى والارتباك الايرانى فى ١٧٢٣ م (١١٣٦ هـ) ، وتوقفت بصلح قصير الامد فى ١٧٢٧ م ، فجددها معيد العظمة الايرانية فى ١٧٣٠ م وعقدت بضعف آخر الصفويين فى ١٧٣٢ . فقد حنث الايرانيون بتلك المعاهدة فشنوا حربا ضروسا حتى الايام الاخيرة من سنة ١٧٣٣ ،

ثم انكر السلطان بسرعة الصلح الذى عقد فى تلك الايام . وها هم قد عقدوا فى الاخير صلحا كان الامل قويا بدوامه ، وذلك فى السابع عشر من تشرين الاول ١٧٣٦م . فأزيل الخلاف الدينى واعيدت الحدود الى خطوطها التقليدية ، ونال نادر مكافأة اطماعه المتعاظمة . ثم توجه الآن من ظفر الى آخر فى الهند ، بينما رجع بطل بغداد الى الحكومة التى رحبت به بعد سنتين[1] قضيتا فى الحكم الضعيف .

جددت بعد ذلك الحرب ، التى لم ترغب فيها تركية ولم تحتج اليها ايران ، وكان سبب تجددها اصرار الشاه الجموح على شروط كان من المتعذر على تركية ان تقبلها . تلك الشروط التى تجعل الفرد يرتاب بوجود خلل فى التوازن العقلى الذى كان منشؤه الطمع المفرط الذى صحبته القسوة الجنونية والجشع اللذان عرف بهما الشاه فى سنى حياته الاخيرة . اذ بعث الى السلطان من قندهار فى ١٧٣٨ م (١١٥١ هـ) بكتب اريد بها بوضوح ان يبقى باب العداوات فى المستقبل مفتوحا على مصراعيه . فطلب ديار بكر وارمينية والح على ان يتخلى السلطان عن حلفه مع المغول فى الهند وان يهد ما اصلح من سور بغداد ، فلم يجبه السلطان . وفى ١٧٤١ م (١١٥٤ هـ) ذهبت سفارة ايرانية طالبة الاعتراف الرسمى بالمذهب الجعفرى . فرفض الطلب وأعلن مروق الجعفريين وكونهم مباحين لابناء السنة . والتقى اذ ذاك الرسل من الترك والايرانيين على الحدود ، ثم عززت الحاميات فى بغداد وارضروم . فرددت الالسن من اقاصى تركية الى ادانيها اطماع الشاه وولاء أحمد باشا الغامض فى بغداد ، الذى ما كان هو ولا غيره راغبا فى حرب اخرى وتحصن جديد .

فعبرت ، قبل اعلان الحرب فى تموز ، الجيوش الايرانية الحدود العراقية فى مندلى وشهرزور وافزعت بغداد بالخطر الداهم لها . فبذل أحمد باشا جميع مجهوده فى تموين عاصمته وترميم سورها وحصونها وسد ثغرات الحصار من جهة ، وساير الوكلاء السريين الذين اوفدهم العدو من جهة اخرى . وبينا كان الزرع اخضر عاليا فى المروج فى ربيع ١٧٤٣ م وصل رسل الشاه الى بغداد . على ان احترام الشاه وتقديره لاحمد جعلاه يرغب فى استمالته بدلا من تهديده مباشرة . فكانت رسالة

---

(١) حكم فى هذه المدة الحاج اسماعيل باشا فنجح قليلا مدة سنة واحدة . ثم خلفه محمود باشا الاعرج سنة ١٧٣٥ م فوجدت فى ايامه القبائل الحرة والحاميات المتمردة مجالا واسعا للعبث .

الشاه اليه كما يأتى : « انا لا ارغب فى ضررك ولا فى الاضرار ببغداد ، انما انا منازع للسلطان ، فسلم الى ولايتك وسوف لا تندم على ذلك » . فشرح الباشا حاله هذه للسلطان ، واطال فى جلساته ومفاوضاته للسفراء الايرانيين حتى حصدت الحبوب من المزارع . وفى الاخير رد جوابا مبهما كان فحواه : « ان اخذت الموصل فسوف أسلم اليك بغداد » . فلم يكن فى وسع الوقت ان يديم الضرب على هذه النغمة .

على ان اعظم الضربات المتوقعة وقعت فى شمالى العراق لا فى اواسطه . اذ تقاطرت القوات الى كركوك على طريق شهرزور وحاصرت حصونها . وفر ضباط الحامية الكبار الى الموصل وما وراءها عندما اخبروا بكثرة عدد القوات الايرانية البالغ عدد المقاتلين فيها ٣٠٠٫٠٠٠ مقاتل . وتبع الجيش النظامى الضباط الهاربون . فغمر جيش الشاه الريف وعاث فسادا فيه ، واعتصمت شراذم التركمان والكلدانيين من سكان المدينة بقلعتها العالية ، وحوصروا فيها مدة اسابيع ثلاثة . ثم استسلموا بشرط ان يؤمنوا على ارواحهم واموالهم . على ان المدينة كانت قد روعت اشد الترويع ، فقتل خمسمائة من المدافعين عنها ثم زحف الجيش الايرانى فعبر الزاب الصغير واحتل اربيل ، ومن هناك سار الى هدفه الثانى : مدينة الجليليين .

كانت الموصل على أتم استعداد . فقد أعد لها الحاج حسين وسميه المحافظ عدة الدفاع اعدادا روحيا وماديا . فكانت الخنادق العميقة مهياة وكان قسم من السور قد بنى بحجارة جديدة وسدت الثلم والثغرات فيه . ثم اعدت آخر الاستعدادات فعينت المراكز للمدافعين ، وملئت المخازن من الحبوب . وتقاطر سكان القرى الى المدينة[١] . وكانت الموسيقى العسكرية ودورات الباشا بين كراة[٢] الخندق وبناة السور المشتغلين باستمرار تلهى الجميع وتحبب اليهم العمل . فتضافرت بذلك مجهودات الجميع من الجليليين الى الشحاذين . فرفض بكل اباء ممكن وفد ايرانى ، قدم طالبا الاذعان بالطاعة للشاه ، وهنا كان الفصل الحامى قد انتهى .

شوهد العدو على بعد ثلاثة اميال فى الايام الاخيرة من ايلول ١٧٤٣م (١١٥٦هـ) .

---

(١) المراجع لحصار الموصل : تقويم الموصل ، وكتابات صبحى فى فون هامر (ج ١٥ ص ٧١) وغيرها .

(٢) الكراة جمع كار للذى يكرى المجارى .

فدوت الاصوات الداعية للاستعداد ، ثم عرضت ثلة قوية من الخيالة المعدة لهجوم فجائي الى الخارج . فخفت وعبرت الى الجانب الثانى من المدينة فهاجمت ، بشجاعة عظيمة ، جنـاح الجيش الايرانى المزدحم . فوقع الكثير من افرادها عند الهجوم . ثم فرقوا واحيط بهم ، غير ان رئيسهم ابدى شجاعة خارقة فانتشل رجاله ورجعوا تحت وابل من رصاص الايرانيين ، فعبروا ثانية ودخلوا داخل السور . واذ ذاك سدت الابواب واتخذت اسباب الدفاع بحذافيرها .

ظل نادر شاه مخيما فى يارنجة مدة خمسة ايام ، ثم عبر وطوق المدينة بجيشه . وبعد استطلاع الحال عزم على الهجوم من اثنى عشر مركزا فى وقت واحد ، ـ أعنى ـ على جميع الابراج التى فى سور المدينة . وشيد من التراب فى كل مركز من مراكز الهجوم اماكن تحتمى بها مدفعيته . وفى اوائل تشرين الاول بدأ قصف شديد من مائتى مدفع على المدينة . وتتصف وطنية المؤرخين المحليين بوصفها اهـوال الاطلاق النارى . فتقول بأن الشظايا المتطايرة كانت تظلم السماء فى النهار وتنيرها فى الليل كما تنيرها الشهب . فأرهقت الانفس عسرا والاموال بشدة ، الا ان ذلك لم يؤثر فى العزائم والقوى المعنوية . وكان الحاج مع ابنيه : مراد وأمين ، يخفون بلا مبالاة الى مواقع الخطر بالليل والنهار .

فتقرب نادر ، وكان بقى مقره فى يارنجه ، الى المدينة . وانزعج من مقاومتها فأمر بمضاعفة المجهودات فكانت النتيجة ان حدثت فجوة فى السور ، فلم تكد الحامية تضبطها الا بعد لاى . وبينما كانت المجهودات العظيمة تبذل فى سد الفجوة هـذه وجمع القوة اليها بانت اول علامات الفزع . فكان مصير المدينة ميزان القدر . ولم يحسن الحال الا وصول الباشا بنفسه . فتمكن بجسارته وحيويته التى لا تنضب ان ينفخ روحا جديدة فى النفوس الهلعة ثم سدت الفجوة . على ان كارثة ثانية حلت بعد ذلك ولم تتحسن الحال فيها الا بشق الانفس . فقد حفر المشاة من الايرانيين انفاقا عميقة تسربوا فيها الى السور . ثم انفجرت اربعة الغام عظيمة ، فضعضعت الثلاثة الاولى منها السور وتركته مصدعا ، اما الرابع فقد سبب سقوط قطعة كبيرة منه مهشمة على الارض . وعزز هجوم ايرانى ابانى بقوة عظيمة من الوراء . فكان الهجوم قد أحكم تدبيره ، وقرب به الفوز . واذ ذاك ايضا يضيق المجال ويتعلق مصير المدينة بخيط واه ،

ثم تنجلى الازمة فتنجح الحامية فى الدفاع بأن تصب اوابل[١] القذائف على الهاجمين الذين فشلوا فى توسيع الثغرة المحدثة فى السور . ثم اضرمت النار بالقرب من الابواب الخشبية فردتها الريح على مضرميها . كما ان السلالم التى أنشبت فى السور طاحت رؤوس المشتغلين لها على اخوانهم فى اسفل السور . وعلى هذا المنوال استمرت معركة حامية الوطيس فدامت عدة ساعات وبذلت فيها المجهودات الجريئة من الفريقين . وفى الاخير أصلحت الثغرة التى تكدست فيها اشلاء الموتى والصرعى ثم سدت سدا محكما .

عندئذ ايقن نادر بأن المدافعين لن يأبوا القبول بشروط خفيفة . فلم تنجح سفارته الاولى اليهم . وجاءت الثانية الى الباشا بشروط خفيفة مغرية بحيث لم يتمكن من ردها. فتبودل المتندبون ، وأهديت الى الشاه اجمل المهار العربية ردا على هداياه الغنية . فلهجت الالسن بالثناء الحسن على الحاج البطل . وانتهت الحملة ، التى انقلبت الى حملة من المجاملة والسخاء ، برحيل الجيش الايرانى . فتدفق المدافعون عن الموصل ، كما جرى لمدافعى أيليوم من قبل ، من الابواب الى الخارج وحفروا القبور لموتاهم وكانوا خلقا كثيرا ثم ابتهلوا بالشكر لربهم الرحيم .

وبينا كانت الموصل تحافظ على كيانها ، كما مر ، شوهدت الجيوش المعادية فى الجنوب . فقد هددت قوة ايرانية البصرة[٢] وكان مصيرها فى الاخير الرجوع بعد ثلاثة اشهر من الحصار غير المجدى . وكان اربعون الفا من جيش العدو يعيثون فسادا فى السواد حوالى بغداد ، وبذا افسدت الحملات العديدة التى جردت لتأديب القبائل ، فى الوقت الذى كانت قوة نادر الرئيسة فى الموصل . وكان اول تأثير لذلك ارتفاع الاسعار فى بغداد ، وكان هذا الارتفاع قد اشتد وضوحا عند ما قطع الشاه فى الشمال طريق شحن الحبوب الى الجنوب . واستمرت هذه الاحوال المزعجة الى ان خاب حصار الموصل . وهنا رد نادر جيشه الرئيس الى كركوك وفيها بقى مخيما .

وكان الباب العالى قد عين احمد باشا من قبل سرعسكر مع اثنين آخرين لقيادة الحرب . الا ان نادرا رفض ان يفاوض غيره ، فخولته البعثة التى بعثها السلطان السلطة

---

(١) الاوابل جمع وابل .

(٢) بريسى ص ٢٤ مقطع ٥٧ واوتر القسم الثانى ص ٣٨٠ . يذكر الاول ان عدد الجيش كان ١٢٫٠٠٠ ويذكر الثانى انه كان ٣٠٫٠٠٠ من الايرانيين .

التامة فى المفاوضة وكان معها عند قدومها اليه هدية من المال وخلعة سلطانية . فكانت المحادثات قد بدىء بها من قبل ، ومع ان مدار الحديث كان أمر الاسرى وضرائب الزيارة وحالة الحويزة كان الخلاف الرئيس خلافا دينيا . ورأى نادر ان يترك جيشه ويتوجه بنفسه جنوبا الى المعظم[١] ، ومن هناك قصد زيارة العتبات المقدسة . ولم تثمر المناقشات الطويلة مع العلماء فى النجف شيئا . وفى الاخير اضطر الشاه ، وقد انتبه لاستفحال السخط والفتنة فى بلاده وللاستعدادات التركية فى الشمال ، الى عبور الحدود والرجوع من دون ان يضرب ضربة ما ولا ان يوقع على شىء من العهود . وقد مر بسنه بعد ان ترك بعض قواته فى كركوك ، فهاجمه الاتراك ودحر بشدة بالقرب من الموقع السابق[٢] .

ولا يعود أمر البحث عن الحملات الاخرى والمناقشات الديبلوماسية التى دامت سنتين كاملتين بعد ذلك الى تاريخ العراق . لان مد الحرب بدأ يعلو من العراق ويتجه الى الشمال . فقد التحم الاتراك والايرانيون فى ساحات القتال السنوية فى ارمينيـة وأذربايجان ، حيث كانت جيوش تركية قوية ثلاثة تقف فى وجه جيوش ايرانية ثلاثة . وتلى حصار الايرانيين لقارص انتصار مبين قضى فى صيف ١٧٤٥ م (١١٥٨ هـ) على يحيى باشا . فأعقب الشاه هذا الانتصار بشروط صلح لا تطاق . فقد طلب الاعتراف بالمذهب الجعفرى ، وتسليم وان وكردستان والعراق بأجمعه وفى ضمنه العتبات المقدسة . ثم تنازل عن قسم منها فى مداولات اخرى جرت فى اوائل ١٧٤٦ م ، لكنه أصر على مطالبته بكربلا والنجف . ولم تصل بشائر الصلح ، المعقود مع الشاه فى معسكره بالقرب من قزوين ، الى استانبول حتى حل شهر ايلول . وبذا أهملت المطاليب الدينية ضمنيا ، واعترف بالحدود التقليدية ، واتفق على تبادل السفراء .

ومن المحتمل ان الموت وحده هو الذى حفظ الامبراطوريتين من انشقاق قاض

---

(١) يبحث صاحب جهان كوشا عن تفصيلات المركب الفخم الذى وضعه احمد باشا لخدمة نادر ، وعن الهدايا المتهاداة بينهما .

(٢) الفون هامر (ج ١٥ ص ٧١ والحاشية) . ان هذه الموقعة ، التى اهمل ذكرها هانوى وجها نكوشا ، لا يمكن ان تكون عظيمة بقدر ما يجعلها الفون هامر . كما يستبعد حضور احمد باشا لها مع مائة الف مقاتل كما يذكر .

آخر متأت عن نقض هذه المعاهدة فيما بعد • على ان هذه المعاهدة قوبلت في جميع انحاء تركية ، وفي بغداد خاصة ، بالحمد والثناء • وعهد الى احمد باجراء ما يقتضيه تبادل السفراء • وكان الرسول الذى انتخبه السلطان قيصريه‌لى احمد باشا احد رجال الحاشية ومن الديلوماسيين المعروفين • وكانت الوفود من الفريقين هذه المرة تفوق فى عددها وهداياها الوفود المتبادلة من قبل • على ان حاشية السفير الفخمة وموكبه المؤلف من ستة آلاف خيال ما تركت بغداد وعبرت الحدود الى اردلان حتى سمعت بنبأ اغتيال الشاه • وبذا لاقت بربريته (العطشى الى الدماء المبدلة عبادة الشعب له نفورا منه وفزعا) حتفها الذى سلمت منه منذ مدة طويلة فى الثالث والعشرين من شهر حزيران ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) • فعاد قيصريه‌لى احمد على طريق سنه وقره جولان الى بغداد • وقد ترك وراءه ايران مقبلة على دور تخبطت فيه بالفتن والقلاقل الداخلية من دون ان تكون لها مدة جيل كامل القدرة الكافية لازعاج الامبراطورية العثمانية •

العراق فى زمن الحرب ١٧٢٢م (١١٣٥ هـ) — ١٧٤٧ م

كانت مدة ربع قرن قد تقضت بين حملة حسن باشا الاولى على ايران ووفاة نادر شاه • وان البحث عن ذلك الجيل الحافل بالحوادث ليبقى مبتورا ان لم نذكر فيه شيئا عن احوال العراق فى الداخل ، وعن الباشا العظيم الذى كان يحكم العراق حينذاك •

لم يكن العراق « أمة مسلحة » بالرغم من انه كان ساحة حرب وهدية عظمى للفائز فى ذلك النضال الطويل • كما انه لم يكن من الوجهة الدينية ليشترك بالكلية مع احد الفريقين المتحاربين ، ولم يكن مهتما من الوجهة العنصرية بالنزاع بين الترك والآريين[١] ، ثم انه لم يكن يتحسس بكليته بالولاء لحكامه يومذاك • على ان حركات الجيوش الاجنبية الظاهرة للعيان ، وجشع الدوريات ، والقطاعات ، والمجالس ، والدسائس الحربية المشاهدة والمنقولة اخبارها كلها كانت من الامور التى ألقت دروسا بليغة عليه • اذ تحرك جيش وبطل قومى للذب عنه • ولم ير العراق نفسه على ضوء التابعية العثمانية فى وقت من الاوقات ، منذ زحف السلطان مراد عليه ، مثل ما رأى نفسه به فى هذا الدور • وبصرف النظر عن الحركات الحربية ، كان يظهر فيه شيء من العزة المدنية عند مرور السفارات البهية منه واليه • وكان الباشا نفسه ، وهو ذو الشخصية البارزة

---

(١) يقصد بذلك الايرانيين (المترجم) •

فى العـراق والمعروفة فى تركيـة ، سلسلة قوية تربط بين الشعور المحلى والشـعور الامبراطورى • وان استقرار الموظفين الاتراك المتعاظم ، وازدياد التجنيد الامبراطورى محليا ، ثم الاختلاط عن طريق التزاوج كلها كانت من العوامل المؤدية لوحدة المصالح • ولم يكن نجاح السلطان فى العراق وقت الحرب ليدل على دخول العراق فى حوزة المواطنة الحقة واكتساب حقوقها • لان ذلك كان شيئا بعيدا عن العقلية التركية • كما ان نجاحه فى ذلك لم يدل على حصول صلة وثيقة بين الولايه والامبراطورية • ولم يأت ذلك كله الا بشيء قليل من الخضوع لحكم السلطان • والواقع هو ان اهوال الحرب المعروفة ، كالمجاعة والطاعون والتخريبات ، وان كانت تنفخ فى الناس روح الالتفاف حول الحكومة والولاء لها ، فقد كانت القلاقل الداخلية الاخرى تعنى شيئا آخر وتدل على مقدار ضعف النفوذ التركى ، وعلى مقدار الوهن والتقلقل فى الاحقية التى كانوا يحصلون عليها بتلك الحروب • فكانت القبائل ، التى هى أبعد ما يكون عن الالتفاف حول راية السلطان ، ترى فى الخطر الذى تتعرض له الامبراطورية فرصة للعبث والازدراء لها • وربما كانت سلسلة التمردات القبائلية والتأديبات المملة المرسلة عليها لا اهمية لها بالنسبة للاجيال المتأخرة ، الا انها تدل بوضوح على ماهية تاريخ العراق حينذاك وعلى الواجبات الشاقة الملقاة على عاتق حكامه • ولذا كان الاعتداء الخارجى ، فى تلك السنين ، الذى يوحد سـكان المـدن ويجمعهم حول حكامهم ، يعـد فرصة سانحة للقبائل لتمتنع بها عن دفع الضرائب ولان يغزو بعضها بعضا ، او تهاجم الحكومة المنشغلة وتتجاهلها •

فبعد عدة اسابيع من زحف حسن باشا على كرمنشاه عمت الفوضى فى اواسط العراق • وبرزت الاطمـاع المنشودة بين القبائل الطليقة ، وبذا كان من الطبيعى ان تكون « حكومة عشائرية » من المدن المقدسة الى ديار بكر • على ان هذه الفوضوية قد ازيلت بزيارة عاجلة للعراق قام بها أحمد باشا من الجبهة فى ١٧٢٤ م • فعوقب بنو جميل بشدة ، ثم صفح عنهم صفحا حكيما • وكذلك أدب بنو لام وطوردوا من دجلة الى الشامية • ثم شتت شمل القبائل المتجمعة فى الفرات الاوسط بواسطة فرقة قوية من الجيش تحركت بسرعة من قاعدتها فى الحلة • فعين الشيوخ الموالون وحددت « الديرات » وعادت الحاميات الى البلدان المختلفة • وفى اوائل ١٧٢٦ م كانت الحالة فى دجلة الوسطى تنذر بالخطر • اذ انضمت القوات الدرية الى بنى لام فأخذوا يعيثون

بالبلاد سلبا ونهبا حتى سور بغداد • وكان باشا البصرة ـ زوج فاطمة خانم ـ مشغولا بتعقيب القبائل المتنفكية • فاستطاع تهدئتهم بصورة وقتيـة • الا ان سليمان باشـا (الكهية[١] اذ ذاك وهو صهر أحمد فى المستقبل) انزل بهم ضربات قوية فى ١٧٢٩ م عندما قام بحركات موفقة واسعة النطاق كان تأثيرها محمودا •

كان لظهور نادر قلى فى الاراضى العراقية وحصار بغداد الطويل ، الذى قام به ، أثر سيء فى حكومة البلاد • وما زال خطر ذلك حتى أدبت شمر بعدما تحالفت مع الايرانيين فجهزتهم بالادلاء ، وقد قامت بتأديبهم فرقة من الجيش سريعة الحركة فى ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) • وفى السنة التالية شتتت البو حمدان (قبيلة قوية فى جنوب الموصل الغربى) فأضاعت أميرها • ثم هوجم الزبيد فى جنوب بغداد فى سنين متعاقبة ، وكان ذلك قبل نقل أحمد باشا من الولاية وبعده • وعند عودته كانت حاجته لتأديب بنى لام ـ مناصرى الايرانيين العلنيين الاقوياء بتحالفهم مع اللريين ـ قـد قادته الى ديرتهم • وقد عرفت هذه الحملة بالنجدات التى جاء القبطان بها من البصرة على طريق النهر ، وبالمبارزات الفردية الهوميرية التى قام بها أحمد باشا[٢] • وعند رجوعه من هناك ترك وراءه قوة خاصة لجمع الواردات • وقد ساعدها هو عند زيارته للمنطقة ثانية فى ١٧٣٩ م عندما كان قادما للصيد • وفى الاشهر نفسها ادبت ربيعة بعدما كانت ممتنعة عن دفع الواردات مدة طويلة من الزمن ، وزادت فى الطين بلة بقتلها أغا ذا رتبـة عالية • فأسفرت النتيجة ، التى لا تختلف عن نتائج مثل هذه الحملات ، عن اندحارها ودفع التعويضات الثقيلة الى الكهية •

وكتب شاهد عيان افرنسى[٣] فى البصرة « ان المنتفكين وبنى لام كانوا يسببون كثيرا من الاتعاب للباشا » • وبقيت قبائل المنتفك هادئة نوعا ما منذ عام ١٧٢٩ م حتى ظهور زعيمهم العظيم سعدون[٤] • وقـد عثرنا على اسمه فى التواريخ اول مرة فى

---

(١) ان سلف سليمان فى منصب الكهية كان محمد باشا ، وهو زوج خديجة ابنة أخت احمد • والظاهر انه خلف عبدالرحمن باشا فى حاكمية البصرة •

(٢) دوحة الوزراء سنة ١١٥٠ هـ •

(٣) اوتر وهو المرجع المهم عن العراق الجنوبى فى هذا الزمن •

(٤) ابن محمد المانع ومؤسس أسرة السعدون من آل شبيب •

١٧٣٨ - ٣٩ م عند حضوره اجتماعا للشيوخ عقد بدعوة من الكهية في حسكه . فسلم كل من الشيوخ هدية ولطفوا بالحديث ، عدا سعدون الذي اوقف واخذ مخفورا الى قلعة بغداد جزاء لطموحه العدائي الذي كان يرمي لـ « سلطنة العرب » . وعين مكانه احد اقربائه المدعو منيخر . ثم سرح سعدون بعد ذلك ورجع لمشيخته بعد ان اخذت منه التعهدات الشديدة . وفي اوائل ١٧٤١ م (١١٥٤ هـ) قام المنتفكيون من جديد فأحاطوا بالبصرة وافزعوا اهلها ثم حاصروا البلدان الاخرى ونهبوا القرى من القرنة الى النجف . فاستطاع يحيى آغا ، متسلم البصرة ، ان يحافظ على المدينة حتى انقذها في نيسان أحمد باشا بعد ان رجع بسرعة من حملة كان قد جردها على كردستان . وبدلا من ان يقاتل سعدون[1] عقدت شروط معه ، فكان ذلك مشجعا له على العصيان بدلا من ان يكون زاجرا له . فحاصر البصرة فلم يستطع احد الخروج من سورها بسلام . حتى ان وكلاء الشركات الانكليزية والافرنسية لم يسلموا من طلبات مخجلة وتهديدات بالعنف . فبعث سليمان باشا بجيش ، وعندما وجدهم هاربين الى البادية النائية دفعته رغبته في انتقام شخصي له بتعقيبهم بمسيرات سريعة . فدحر سعدون ثم قبض عليه وقطع رأسه . فكان حادث قتل أغا مملوك لهذا الشيخ الباسل بدم بارد يذكر طويلا فيما بعد . على ان تأثيره الحسن لم يدم اكثر من خمس سنوات . اذ قامت قبائل المنتفك في ١٧٤٧ م من جديد فكسرت السدود واغرقت سور البصرة فأفزعت الاهالي أهوال الطاعون والغرق والاشتغال « بالسخرة » . وما كانت الامور في الفرات الاوسط احسن حالا . فقد أدبت في ١٧٣٣ م (١١٤٦ هـ) فرقة من الجيش قبيلة قشعم . وفي ١٧٣٨ م سار الكهية فمر بهذه المنطقة من جديد . كما انه وسيده شغلا في السنة التي تلتها بأمور الشامية والبادية الغربية . وكانت الفوضوية قد ضربت اطنابها في ١٧٤١ في ضواحي كربلا والحلة ، فأعاد الامن الى نصابه سليمان باشا وكان قد اصبح حذقا بهذه الحملات .

---

(١) ان هذه وغيرها من المناورات المريبة في العراق الجنوبي أدت الى حكم عام (حسب رأي اوتر) بان احمد كان يستخدم سعدونا لاثارة القلاقل قصدا لاجل ان يثبت للسلطان ضرورة بقائه في الحكم . ويؤكد اوتر وهانوي انه لم تجر حرب في هذه الموقعة . لكن صاحب « دوحة الوزراء » (سنة ١١٥٠) يذكر عن حرب في الاهوار انتهت بعفو الباشا عن سعدون بعد ان بعث له ولده الاصغر للمفاوضة في المعسكر .

على ان تاريخ العراق الداخلى فى هذه السنين كان يتضمن امورا اكثر أهمية من هذه الحوادث ومئات مما يشابهها من حوادث العصيان والتأديب • فقد ثبتت فى الجنوب امة اوربية جذور علاقاتهـا التجارية الى امد طويل • ونشأت فى كردستان سلالة بين الاودية فاصبحت قوية منيعة • واستطاعت اسرة واحدة فى الموصل ان تبز غيرها من الاسر فتمسك الباشوية بيدها ملكا لها مدة قرن واحد •

كان وكلاء شركة الهند الشرقية قد زاروا البصرة من جديد فى اوائل العشرة الثالثة من القــرن ، وفتح معملها محلا دائما له فيها • وكانت مشاكلها ـ زيادة على اوهام موظفيها ووفاة كثير منهم ـ ناشئة عن جشع الحكومة المحلية وتعصبها ، تلك الحكومة التى كانت غايتها الوحيدة الحصول على ربح قاصد من الاجانب اولا وآخرا • فقد فرضت فى ١٧٢٧ ضريبة مغيضة على خدام الشركة الايرانيين • وفى ١٧٢٨ م اوقف مترجم الشركة بدون سبب مبرر • وكان الحكام المتعاقبون يعطون الفرمانات او يمزقونها متى شاؤوا ، وكذلك كانت تطلب الهدايا والديون وتفرض الامتيازات وتبـدل الضرائب الكمركيـة لادنى حادث • وعندما هـدد الايرانيون البصرة فى ١٧٣٥ م[١] ـ من دون نتيجة ـ لم يستطع وكيل الشركة التزام جانب الحياد الا بشق الانفس • وقد تكررت هذه الحال فى حصار البصرة عام ١٧٤٣ م • واضطر الوكيل فى كثير من الازمات التى كانت تحدث فى رصيف الميناء الى استعطاف أحمد باشا فى بغداد ليحول دون جشع المتسلم الجنونى ، فكان استعطافه عبثا فى كثير من الاحيان • اما المعمل الهولاندى فقد استقام حتى سنة ١٧٥٢ م (١١٦٦ هـ) •

وحدثت فى الموصل قبل وقوع الحرب (وفى الحقيقة كان ذلك اعتياديا) فتن داخلية عنيفة • وكانت هذه تدور فى ١٧٢٥ م حول شخصية المفتى الشهير على افندى العمرى • وكان سبب هذا التصادم حسد الوالى له ، لانه كان يتمتع بنفوذ خاص به فى المدينة • فتعاظم النزاع وانتشرت احاديث الثلب والهجاء ، ثم تطورت الى مشاجرات ومصادمات • وبعد ستة اشهر ، كثرت خلالها السرقات وحوادث القتل ، أعيد السلم الى نصابه فتلته نكبات الوباء وهجمات الجراد • وظهر من بين هذه الاحوال المحزنة شخص يحمل اسما شهيرا • اذ حدث فى اواخر القرن السابع عشر ان استخدم فى

---

(١) لم يعرف ذلك الا من رسائل وكيل الشركة الى غومبرون •

بيت الباشا مسيحي[1] من الموصل اسمه عبدالجليل • وقد تتبع المعجبون به من بعده نسب الاسرة الجليلية فوجدوها تتصل باسرة حاكمة قديمة جاءت من ديار بكر الى الموصل في حدود ١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) • وكانت سجايا عبدالجليل العالية ومواهبه ظاهرة من دون انقطاع في نسله من بعده • كما ان ابناءه في عين الوقت كانوا - كما كانت العادة - يتمتعون بنفس الثقافة التي كانت عند مستخدمه • فعظم شأن جماعة منهم ، ان لم نقل كلهم ، واصبحوا متسلمين • وقد برز اسماعيل ، وهو اكبرهم ، بسرعة • فاندمجت له الثروة والشهرة بالقابليات التي عرفت لدى الجميع • وفي ١٧٢٦ م تقلد باشوية الموصل وقد تقدم في السن • وكانت مدة حكمه القصيرة معروفة بالاصلاحات المختلفة وبنشاطه في الحرب • وبذا تأصلت جذور الاسرة الجليلية بعد ان لم يقف بوجهها اي خصم مدة تزيد على القرن • وتسلم الحاج حسين باشا ، اكثر الجليليين شهرة ، باشوية الموصل في ١٧٣٠ م ، تلك الباشوية التي اتيح له ان يتسنمها ثماني مرات •

وتلى تعاظم نفوذ الاسرة البابانية ظهور شخصيتين شهيرتين في اوقات سهل فيها نمو المآثر • اذ تولى خانه باشا ، بن بكر بك ، الحكومة في قره جولان في ١٧٢١ م • وعند احتلال اردلان نصب هو لحكمها ، وبقى اخوه خالد باشا وراءه ليصادق على توليه في سنجق بابان • وكان نفوذ الاسرة حينذاك يمتد من كركوك الى همذان ، ويختلف باختلاف قوتها • ويظهر ان حكم خانه في اردلان استمر اربع سنوات ، ثم تولاه من بعده ابنه • وكان يذكر الاثنان انهما من الحكام العادلين العقلاء • على ان تقدم نادر قلي في ١٧٣٠ م قد انهى سطوتهم في ايران • كما ان حكاما غيرهم حكموا في شهرزور عند ما احتلها الايرانيون (١٧٣٠ ، ١٧٣٣ ، ١٧٤٣ م) • وبالرغم من ان حكم هؤلاء الحكام الاجانب لم يكن طويلا بحيث يقطع استمرار الحكم البابانى ، فان نشوء البابانيين الميالين الى ايران قد بدأ في مثل هذا الوقت • وغدا الشاه واتباعه على الحدود ملجأ للمدعين بالحكومة البابانية ومظنة امل لهم • وقد قبل نادر نفسه اول هؤلاء المدعين وهو سليم باشا ، فنصبه في قره جولان في ١٧٤٣ م • وبقيت ولاية

---

(١) سليمان الصائغ (ص ٢٧٣) • يهمل هذا وحده الاشارة الى ديانته • وقد شوهد قبر عبدالجليل في الكنيسة مدة طويلة •

ايرانية سنة واحدة . وليس من العجيب ان نرى أحمد باشا فى بغداد يساعد ، فى آخر حملاته ، فى اقصاء المرشح الايرانى منهم وذلك فى النزاعات الحاصلة بين سليم وسليمان باشا بن خالد .

زاد فى هـذه السنين تصادم البابانين وجيرانهم الشماليين فى رواندوز ، تلك الامارة الصغيرة التى مددت سيطرتها فى ١٦٠٠ م الى ما وراء فتحتها الشهيرة فى سهل حرير . وحافظ بكات سوران فى كوى على استقلالهم حتى ١٧٣٠ م حين اصبحت على عهد خالد باشا الطويل من توابع البابانيين . وفى نفس المدة نظمت العلاقات بين بك العمادية والاتراك . فقد حافظت اسرة ابناحدينان ، التى كان يقدرها السلطان مراد كثيرا ، على منزلتها الخاصة بها مدة طويلة . غير ان احوالا غير مدونة اخبارها حدثت فى هـذه السنين فحدت أحمد باشا على ان يوفد كهيته فيحاصر العمادية ويأخذها ، فيعقد معها شـروطا بعد تأديب عنيف . ومنذ ذاك الحين كان يرسل اليها من بغـداد سنويا بالفرمان وبخلعة الحاكمية . وكان اعظم حاكم من حكام العمادية بهرام باشا ، ذلك الامير الذى يحدثنا التاريخ كثيرا عن مآثر ذريته .

هـذا وقد ذكر شـيء كثير عمن حـكم العراق خـلال هـذه المـدة الحافلة بالتجـارب والتبـدلات والقـلاقل . فلم يكن عظيـمـا تمامـا ، على ان تواريـخ حيـاة من كان اقل منـه شـأنا تستوعب مجلـدات تمـلأ عـــدة رفوف . فكان يعتبره رعـاياه اولا ابنا لوالـد شـهير فعـال ثم حاكمـا ضروريا للبـــلاد مـدى الحياة . وقد عبر اعداؤه عن عظمته المخطرة بتبديل لقبه بلقب « بادشاه » . وما كانت حاشيته مع خدمه وحراسه لتدل على شيء اقل من ذلك . فاستطاع ان يحافظ على أبهة العثمانيين فى المراسيم والاحتفالات عند مقابلته للديلوماسيين الايرانيين . وبالرغم من انه كان اميا فقد كان يتذوق سماع الشعر . ثم انه كان ذكيا ومتساهلا ورحيما بالرغم من حسده وكبريائه وسرعة تهيجه احيانا . ولم يدون عنـه اى عمل من الاعمـال الهمجية ، وانما دونت عنه اعمال صفح ورحمة كثيرة . فكان بوسعه ان يتآخى مع الصياد او الفقيه او التاجر الانكليزى . وكانت اعمـال الخير والاحسان التى قام بها لا تقل كثيرا عما قام به ابوه المسمى « أبا الخيرات » ، هذا ان كانت اعماله تلك لا تصل الى ما وصل اليه تبذير نادر فى النجف . وكان يعد اول رياضى فى البلاد لبراعته فى ركوب الخيل والصيد ورمى الجريد . وكان سخاؤه نادرا فى الباشوات ومعروفا فى

بلاد يمدح فيها السخاء اكثر مما يعمل به ، ومقنعا فى البادية التى يعد الكرم فيها أحسن الفضائل[١] • وقد اثبت أحمد باشا فى تصرفه ، بسلطته المطلقة على ولاية وسيعة ، مؤهلاته التى قلما كانت تتوفر فى الحكام الشرقيين • اذ كان صارما من دون فتك ، مترويا من غير ضعف • وكان يطلب من جيشه الامبراطورى ، المخيف لاسلافه الباشوات ، الضبط والنظام ، كما انه كان يحافظ على سيادته بخلق قوة محلية فادية ، وبضربات شاطرة سريعة عند الشغب والفتنة • على انه كان اعظم عدو للعدل ولكن من دون طمع • ولم تصل اطماعه حد المبالغة بالرغم من حبه للشهرة والظفر وتعوده الحكم •

ولم يكن منزها عن الخطأ فى علاقاته مع استانبول • فما كان يرسل من بغداد بالاموال الى العاصمة الا قليلا ، او ما كانت يرسل بها البتة • وكان يرفض احيانا مرشحى السلطان للوظائف • ولذلك ما كان يروق اولى الامر فى الباب العالى اعترافهم بعدم امكان تبديله • وكان على حاكم زاده ، خصمه اللدود الصدر الاعظم مرتين ، واحدا من حزب كبير فى استانبول كان يعتقد ان أحمد باشا كان يتعدى بموقفه هذا حدود احد الرعية التابعين • وكان يشاركهم فى هـذا من فى العراق وايران ايضا • وقد رويت فيما يختص به قصص عن وفود سلطانية كانت ترسل الى بغداد[٢] فتختفى عن الانظار • ويقول بعض المطلعين ان الحروب والفتن العشـائرية التى لم تنقطع فى جنوبى العراق لم تكن الا من صنع يده ، وكانت بمقام حيلة مدبرة للاحتفاظ بأيالة البصرة[٣] • وقد ذهب مناوئوه بعيدا فى الظن فتصوروا انه لم يكن يرغب فى الانفصال عن الامبراطورية فحسب بل كان يتواطأ مع ايران ليصبح تابعا لها • غير انه ، والحق يقال ، كان بامكانه الحصول على اكبر امارة لو اراد تبديل الولاء والطاعة للسلطان ، وهو والى بغـداد وبطل الحروب والتحصنات والحصارات الشـهيرة من البلقان الى الهند ، وهو الرجل الذى كان بوسعه فى اى وقت من الاوقات ان يسلم كل شيء الى

---

(١) ان هذا السخاء مبنى على امور اخرى تجب الاحاطة بها (اوتر ج ٢ ص ١٨٥) وهانووى (ج ٢ ص ٢٣٤) • فقد كان المال الذى يصرف بسخاء من اموال الدولة • وكان يجمع ايضا من الغرامات المفروضة على القبائل ومما يستوفى (كما يقال) من اليهود وغيرهم من التجار •

(٢) راجع اوتر على الاخص (ص ٢٦٠) وكذلك هانووى (ص ٣٣٠) •

(٣) اوتر (ص ١٤٤ ـ ٤٧ ، ١٨٣) •

الشاه من ماردين حتى الخليج • وكذلك كان يروى ، عن علاقاته الشخصية بالشاه وعن اعجاب نادر العظيم ببسالته واقدامه ، عدد من القصص •

و كرس احمد باشا حياته الطويلة للدفاع عن ولايته وصد ايران عنها ، ولذلك لم يقدم على اى عمل عام من شأنه ان يبعث الريبة فى النفوس • على ان هذه الريبة كانت موجودة بشكل أمل عذب فى ايران وبشكل خوف وخشية فى استانبول • ومن الممكن تصور ان الباشا ربما كان يفضل ان يبدل تابعيته على ان ينقرض او يمحى • وان الذين راموا هتكه وفضيحته لم يكونوا على حق فى تلقيبه بلقب « نظام الملك » ــ خائن شهير اشتهر فى حملة نادر على الهند ــ لان الحقائق المدونة لا تثبت ذلك • وقد برهن على طاعته للسلطان عندما نقل من بغداد فى ١٧٣٦ م •

وقد حذا حذو ابيه فى داخل العراق ، فاشتغل فى توحيد البلاد • فكان يدير امور البصرة والموصل وكركوك فى زمن ما اقرباؤه • وكانت البصرة تابعة له مباشرة فى كل شيء ، فاضطر الباب العالى الى المصادقة بعد محاولة عكس ذلك مرارا • غير ان الموصل لم تكن راجعة له ، وانما ورث عن ابيه ماردين وحكم العمادية وكردستان الوسطى مباشرة ووطد دعائم الامن فى سنجار • وبذا تضاءلت ايالة الموصل امام نفوذه هذا ، وقلما كانت ترد رغائبه • الا انه لم يعط كركوك الا قليلا من الاستقلال • وكان تقلده القيادة العسكرية العليا مرارا ولمدة طويلة مما سبب ان ينظر هؤلاء الى بغداد فى اوامرهم وان يهدموا مبدأ المساواة القديم بين الولايات الاربع •

وتوفر لديه متسع من الوقت ، عند مغادرة نادر للعراق فى المرة الاخيرة ، ليعيد شيئا من انظام ويتذوق طعم الراحة وقلة العناء ، وليتهيأ للسنين الهادئة • على ان شيئا من ذلك لم يكن • فقد سلم فى حروبه مع الافغان والصفويين والافشار ، وتوفرت للعراق ثلاثون سنة انعدم خلالها تخوفه من الشرق • فأكملت اعماله ، ولم تطل سيرته الطويلة اكثر من سيرة خصمه العظيم نادر شاه الا بمقدار ستين يوما • فقد توفى فى حملته على سليم بابان ، فنقلت جثته الى بغداد حيث دفن الى جنب والده تحت قبة أبى حنيفة •

الفصل السابع

المماليك[1]

:o:

أبو ليلة

أظهر موت احمد باشا الفجائي وضعا في سراي بغداد لم يشر اليه هذا التاريخ حتى الآن الا قليلا • واصبحت الفرصة مؤاتية للسلطان محمود ومشاوريه ـ بعد ان مات نادر شاه وشغلت ايران عن التهديد ـ بان يعيدوا التوازن بين الولايات في العراق ، فيفصلوا ماردين والبصرة وينصبوا فيهما وفي بغداد الموظفين الموالين من العاصمة • فكان وقع هذه العزمة الجديدة معتدلا في العراق ، لانه لم يتذكر فيه الايام التي مرت قبل ان يتولى والد احمد باشا الحكومة الا المتقدمون بالسن في ايام حياتهم الاخيرة ، على انها كانت بالنسبة الى الاقلية البوروقراطية من المماليك شيئا لم يكن بالحسبان • اذ لم يخلف احمد باشا ابنا ولا حفيدا • غير انه كان قد ملأ قصره بالمماليك ذوي العيون السود والبشرة البيضاء ممن كان يضع جل اعتماده عليهم • وكانت اسرته لهم هي السيد والوالد وهي من جاء بهم الى الوجود •

عرف المماليك القوقاسيون منذ اقدم العصور في تركية • كما انهم كانوا قد أسسوا في مصر الاسرة الشهيرة التي ازالها سليم الثاني عن الحكم واستعادت عزتها على عهد خلفائه من بعده • وقد ظهروا في مختلف الازمنة في سرايات استانبول والمدن الصغيرة الاخرى • اما في ايران فقد كان منهم من ارتقى المناصب الرفيعة بالرغم عن عدم اسلامه في بعض الاحيان • وكانوا عنصريا من سكان منطقة تفليس التابعة لبلاد الكرج • على ان قسما من الانسال القوساسية الاخرى والعشائر الهمجيـة القريبة

---

(١) المراجع عن ١٧٤٧ ـ ٧٤ : ان أهم المراجع المحلية في الدرجة الاولى « دوحة الوزراء » وما كتبه ثابت في التركية • وأهمية « غاية المرام » تأتي في الدرجة الثانية • والكتاب الاول استند اليه جودة باشا فيما كتبه عن هذه الفترة في العراق كما استند اليه ثابت ايضا • وكذلك ما كتبه واصف افندي وهو المؤرخ الرسمي عن المدة ١٧٥٢ ـ ٧٤ بعد عزى • ورجع اليه الفون هامر فيما كتبه (ج ١٥ ، ١٦) وكذلك هارت (١٤٨ ـ ٥٦) • اما مراجع الموصل فكما سبق ذكره • وأهم السياح الذين كتبوا هم أيفز ونيبهر وبارسنز • ونيبهر أحسن من كتب عن العراق في جميع الادوار من السياح •

- اللاظ والاباظه وغيرهم - فى موطنهم الاصلى كانت قد انضمت اليهم • وكان جميع هؤلاء من الفروع الفعالة القوية ، لا الغنية المسالمة ، المتشعبة من الاقوام القوقاسية • وقد برهنوا جميعهم فيما بعد على قابليتهم فى الاضطلاع بالشؤون الجسام • كما ان معظمهم كانوا قد لوثوا بالرذائل التى منعت تكاثرهم فى بلادهم الجديدة وقطعت دوام السلالة التى اسسوها فى العراق •

تمكن حسن باشا فى اثناء حكمه الطويل فى بغداد من اتقان الحياة فى قصره على نمط سراى الباب العالى الذى نشأ فيه وعرف حياته ودرجات المستخدمين العديدين فيه من المماليك والاحرار • اذ وجد عند مجيئه الموظفين ، العامين والخاصين ، الاعتياديين الذين تربطهم الروبط الواهية • ثم وجد بلاشك قسما من العبيد الجركس والزنوج • فبدأ يؤسس بالتدريج درجات متتالية من الخدم مرتبين على شكل جماعات • فكان منهم الخواص وامناء الصندوق ورجال المخزن • وبذا فقد كان بامكان شاب من هؤلاء ان يصبح ، بعد ترفيعه من صنف لآخر او من درجة لاخرى ، شخصية من شخصيات السراى • ولما كان بهؤلاء حاجة لتدريب خاص ، كما كان يجرى فى العاصمة وكما تدرب حسن نفسه ، فقد دبر تجنيد الابناء وجمعهم فى مختلف الجماعات والدرجات • فأخذ جماعة منهم من ابناء الموظفين الاتراك فى العراق وغيرهم من ابناء العراقيين المعروفين ، الا ان اكثريتهم كانت تؤخذ من المماليك القوقاسيين الذين كانوا يزدادون بسرعة بدافع هذا الطلب الجديد لهم •

واستمر اتقان الـ « ايچ دائرهسى » اى الديوان الداخلى بالتدريج • وكان شراء الكرج واستخدامهم أمرين غير محصورين بالباشا وحده • وكان تدريبهم الخاص والعناية بأمرهم قد جعلاهم موظفين مدنيين يفوقون بكثير الاتراك الاعتياديين والعراقيين• اذ ان قسما كبيرا منهم كانوا من امهات مقدمات جميلات ، لان اسواق تفليس كان يمكن ان يشترى منها الرقيق الابيض بجنسيه • على ان قسما منهم ، وهم اقلية ، كانوا يولدون ببغداد • وقد نمت ، فى خدمة الباشا وخدمة ضباطه ، العلاقات المناسبة للعبيد والمعتقين منهم • وبذا فقد نشأوا من الخدمة البيتية عند سادتهم الاماثل الى الحرية وتسنم المناصب الخاصة التى تساوى مناصب الاحرار او تفوقها ، عدا منصب سيدهم القديم • فلم يكن من المستبعد عليهم ان يزوجوا بناتهم عبيدهم الذين كانوا يعينون احيانا

حكاما فى مختلف الاماكن . على ان شيئا واحدا كان يطلبه السيد منهم ، وهو الوقوف بحضرته عند حضور أناس مجلسه »[١] .

وكان بامكان الاوربى ان يفسر لدرجة ما استئثار اكثرية من المماليك بالحكم ، او قيام فئة فادية من اجرائهم بانقلاب ما . الا انه كان من المستغرب جدا له ان يرى المماليك المستجلبين من الخارج يتسلمون السلطة المطلقة فى الولاية على مشهد من السكان وبموافقتهم تقريبا . اما فى نظر التركى فان اهمية النسب كانت اقل من اهميته فى اى بلاد من البلاد الاخرى . فلم يكن النبل ولا المنصب وراثيين . ولذا قد ارتقى الكثير من أحط دركات الخمول الى ارفع المراتب . اذ كان جميع المسلمين (الذين دخل المماليك فى زمرتهم بسرعة) متساوين بين يدى السلطان . وكان الرق ، فى الوقت نفسه ، بين العراقيين يعنى معنى مختلفا عما نعرفه نحن . اذ كانت احوال الرق فى جميع العالم العربى ، وفى جميع الادوار ، يسودها التساهل وقد يحسد الارقاء على حظوتهم . وفى الاماكن التى لا يزال نظام الرق معمولا به اليوم يعتمد على العبد اكثر مما يعتمد على الحر ، وقد يكون العبد اكثر تأثيرا من غيره . ولما كان هو جزءا من سيده فانه يعد لسانه المعبر عنه ، وموضع اسراره .

كان بين الكرج الذين اشتراهم حسن باشا وتعهدهم بالتربية مملوك يدعى سليمان اغا . وقد حصل هذا المملوك على حريته بخدماته الجلى لابن سيده العظيم ، وبشجاعته التى اظهرها فى الحصار . ثم تزوج عادلة خانم (البنت الكبرى لاحمد) سنة ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ) ، وغدا كهية للولاية سنين عديدة فأصبح يتمتع بشهرة واسعة ما بعدها الا شهرة الباشا . وقد حببت قسوته ، التى أخضع بها القبائل ، شخصيته لسكان بغداد الذين كانوا يرحبون بالاستقرار . ولما مات سيده فى ١٧٤٧م كانت درجته درجة باشا وميرميران ، بعد ان كان ساعد سيده الايمن مدة خمسة عشر عاما . وعلى هذا كانت تدل القرائن باجمعها على انه هو الخليفة المصطفى بعد سيده .

غير ان السلطان محمود ومشاوريه فى استانبول كانوا على علم من هذا التخليف المقصود ، كما ان وفاة احمد باشا كان ينتظرها الكثيرون . فقد كانت لكثير من الناس

---

(١) أيفز فى ١٧٥٨ . وهو يقول ايضا « حدث ان ارتقى مملوك « عبد » لاحد صانعى الازرار بالبصرة فأصبح حاكما عليها . وبقى المملوك الحاكم متمسكا بتلك التقاليد لسيده القديم » .

بمقام اخبار سارة لانها كانت فرصة حان فيها رجع العراق الى الخضوع التام ، خاصة وقد كانت الامبراطورية العثمانية فى اوربة تتمتع بهدوء طويل بدأ منذ عقدت معاهدة بلغراد فى ١٧٣٩ م . ولذا اصدرت الفرمانات بتعيين والى ديار بكر الصدر الاعظم السابق الحاج احمد باشا واليا على بغداد ، وبتعيين قيصريه‌لى احمد (الذى كان لا يزال منتظرا فى بغداد) الى البصرة . ولما لم يكن من المناسب تخطى سليمان باشا ولا غض النظر عنه فقد طيب خاطره بتعيينه لايالة آطنه . فرحل اليها متلفتا الى بغداد .

تولى باشا بغداد الحديث منصبه فى احوال لا تبشر بالنجاح . اذ كانت جبهة المماليك المتراصة وجماهير الشعب فى بغداد تتمنى تعيين سليمان . ثم أجل القيصريه‌لى سفره الى البصرة . وقد وجد الحاج احمد عند سفره لتأديب العشائر فى الجنوب شعبا فاترا ونظاما منحلا وخزينة خاوية على عروشها . فبادر بفرض ضرائب جديدة للحصول على واردات للخزينة . الا ان ذلك كان سببا لاعلان العصيان بين العشائر التى وجدت ان أمد اخلادها الى السكينة قد طال وان دور الخضوع قد انتهى . ثم اخذ الانكشاريون يضجون مطالبين باجورهم بصلافة . فرفضت معاذير الباشا وبدأ الصخب فى الشوارع . فخضع لهم طالبا امهاله مدة ستين يوما ليحير بتدبير المال اللازم . فلم يتوفق لذلك واعلنت الفتنة عن نفسها . ولم تجد تحفظاته نفعا ، فهوجم السراى ونهب بعد ان عمت الضجة والصخب واضطر للفرار الى الجانب الايمن . فاعلن الانكشاريون خلعه . وبينما كان الجميع ينتظرون اوامر السلطان تولى رجب باشا الولاية بالوكالة .

أذعن اولو الامر فى الباب العالى لطرد مرشحهم من ولاية بغداد ، فنقلوه الى ايجيل التى نقل متسلمها الى الموصل . ثم نقل الحاج حسين الجليلى باشا من الموصل الى البصرة ، كما نقل القيصريه‌لى من البصرة الى بغداد . ويضاف الى ذلك ان السلطان بعث بشىء من المال لدفع رواتب الانكشاريين فى بغداد ، بعد ان جمعه من استانبول ومن املاك احمد باشا[1] . فهدأت العاصفة فى بغداد . لكن الحاكم الحديث ، الديلوماسى البلاطى ، لم يكن بوسعه ان يعمل شيئا تجاه معربدى القلعة . وفى نهاية ١٧٤٨ م

---

(١) بعث مصطفى بك احد رجال الحاشية فى الباب العالى الى بغداد كالعادة لمصادرة ممتلكات احمد باشا .

(١١٦١ - ١١٦٢ هـ) اظهر استياءه[١] منهم بعزل ترياكى باشا ، الضابط الانكشارى القديم ، وعين فى مكانه شخصا آخر ، وبذا اعاد شيئا من النظام .

وهنا كان الوضع مشابها تماما للوضع الذى حصل ما بين تحويل احمد باشا فى ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) ورجوعه بعد سنتين . فقد حاول الحكام المتعاقبون ، الذين كانوا يجهلون الشؤون المحلية ولم يبرزوا كفاية بعد اولئك الحكام الشهيرين ، مدة من الزمن ان يبعدوا المصير القهرى الذى وقع فيه العراق فى احضان السلالة التى تأصلت جذورها هناك . وعلى هذا حاول حكام اربعة تثبيت حكومة السلطان فى المدة الواقعة بين وفاة احمد باشا وتولى صهره الحاكمية فلم يفلحوا بذلك . وعلى الشاكلة نفسها خاب اسماعيل وطوبال محمد منذ ١٧٣٦ الى ١٧٣٨ . وكان سليمان باشا وهو فى آطنه يلح مطالبا بالعراق ، وكانت مطالبته تزيد تأثيرا بخيبة من حكم فى مكانه من بعده . وقد ورطت مكايده فى العراق الباشوات واحرجت موقفهم . وعلى هذا اضطر القيصريه‌لى ، قبل نقله ، لقطع رأس كهيته بتهمة التآمر مع سليمان . اما سليمان فقد التزم بدفع بعض ديون الحكومة من ماله الخاص ، وبتهدئة عشائر المنتفك وكعب المتمردة ان عهدت اليه ايالة البصرة . فقبلت معروضاته ورفع الى درجة وزير . ثم ترك آطنه فوصل الى بغداد ، ودفع ما التزم به من الدين . الا ان العداوة بين سليمان وترياكى ظهرت فى الحال ، وتمكن سليمان قبل ان يترك بغداد ويتوجه جنوبا الى البصرة من ان يلم شعث اتباعه وانصاره القدماء فى بغداد بصورة شبه علنية .

فتبينت فى‌الحال لدى الباب العالى مزاياه الممتازة . اذ اخضع القبائل‌بحملات سريعة عرف بها ، وقادها الى الطاعة التى لم تعرف منذ ان ترك العراق الى آطنه . فدانت له قبائل المنتفك وقبائل بنى لام وعشائر الحويزة وعربستان ، وقضى على عصابات بنى كعب فى منطقة الشط . ثم أوفد الرسل المسرعة بالظفر من البصرة الى البوسفور . الا ان بشائر الظفر هذه سرعان ما أرسل فى مقابلها من بغداد باخبار مفادها ان سليمان باشا انما توفق لذلك تواطؤا مع القبائل العاصية هناك . ولما كان اولو الامر هناك لم تغرب عن

---

(١) يذكر الفون هامر (ج ١٥ ص ١٦٧) ان « مجرد شيوع ترشيح القيصريه‌لى لبغداد دفع امير العرب ، والد زوجة احمد باشا ، الى مهاجمة بغداد ومحاصرتها بالنظر لعدم ترشيح سليمان لها » . ويستبان من هذه الرواية ان احمد باشا كان قد تزوج امرأة من القبائل .

بالهم بعد ايام حسين ويحيى ارسل بالاوامر الى باشوات سيواس وديار بكر والموصل وحلب والرقة ومرعش وماردين للسير الى ايقاف الثائر عند حده • غير ان سليمان لم يقنط بل أكد براءته وألح على الباب العالى بذلك • فاوقف سير الجيش المؤدب ، ثم ارسل رسول ملكى لتدقيق النظر فى الامر • فما وصل الرسول حتى برأ ساحة سليمان ، ولم تنتج هذه الا نتيجة واحدة • فقد صمم ترياكى على مقاومة دخول عدوه سليمان الى بغداد بكل ما أوتى من قوة • فتحرك سليمان من البصرة نحو الشمال حتى وصل حسكة حيث وجد معاضدة بالمال والرجال من على آغا الذى سيذكر عنه اكثر من هذا فيما بعد • وسار ترياكى الى الحلة مع اربعة عشر الف رجل ، فدهمه سليمان بثمانمائة مقاتل • ولم تسفك فى هذا الهجوم الدماء الا قليلا لان انكشاريى بغداد انقلبوا بالجملة مع سليمان ففر ترياكى وحده الى بغداد فوجد ابوابها موصدة بوجهه • وبذا دخل الكرجى المعتق المدينة التى بالغت بالترحيب به • واصبحت بغداد والبصرة مع ماردين وجميع ممتلكات احمد باشا تحت أمرته لوحده •

وقد استقام فى هذا المنصب العظيم مدة اثنتى عشرة سنة • وكان منذ اول يوم توليه هذا المنصب معروفا لدى الجميع ، ومهيب الجانب • ولذلك لم تحدث الفتن ايام حكومته الا قليلا • وكان فى معظم حملاته السريعة الحاسمة (وكان تخفيه فى الليل وخروجه قد جلب له اسم « ابو ليله »)[1] هو المعتدى • ولم يتهاون بأى تعد قبلى كان يحدث ، ولم يعرف عنه انه فشل فى القضاء على مثل هذه التعديات ، بل كان يخرج فيعود غانما مظفرا من كل حملة سريعة يجردها • ولا غرو فقد ألف هذه الصعاب وتعودها منذ ان كان كهية يقود الحملة تلو الاخرى طوال المدة التى بين سنة ١٧٣٣ م (١١٤٦ هـ) و١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) • ولم تخل ايام باشويته من حملات كهذه فى كل بقعة من بقاع ولايته • وبوسعنا ان نقول ان الحكم التركى فى العراق كان على عهده على أحسن ما كان عليه من التدبير ، والاغتنامية القاسية ، والاطلاع التام على الامور ، والتنفيذ الحازم ، والحصول على النتائج المحدودة المباشرة • على ان ذلك كان مصطبغا بالمكر لا بالحكمة • فكانت تعوزه المثل العليا ، ولم تكن تسيطر عليه الا بعض مبادىء الاسلام والانسانية • كما انه كان

(١) يذكر صاحب دوحة الوزراء انه كان يسمى ايضا « أبو سمرة » و « دواس الليل » وسمع نيبهر انه كان يسمى « سليمان الاسد » .

فاقدا لنظم الحكومات ونظرياتها الاساسية ، ومشوبا بكثير من الاخلال وسوء الاستعمال وضياع العدل • على ان حاله هذه لم تؤثر فى سطوته وتلقى الناس له باعجاب واستحسان عند القضاء على المشاكل العديدة من غير بعد نظر • ومن وراء هذا كله كان سليمان « أبو ليله » الحاكم القوى ، الناجح المهيمن على ولاية مترامية الاطراف صعبة المراس • ولم يعكر صفو مملكته ظهور أى عدو كان •

وكان البعض يعيرونه بسيرته الخاصة المطبوعة بحقارة عنصريته ، ولذا كان هدفا لنظرات العطف من جهة والسخرية من جهة اخرى • لان حياته البيتية ما كانت الا « حكما فى ضمن حكم » ، وكان له بسبب ذلك المرتبة الثانية فى بيته الخاص به • اذ كانت سلطة زوجته عادلة خانم أخص الاحاديث فى بيوت بغداد • وكانت هى تستقبل فى بيتها الزائرين من الجنسين ، ثم وسعت تدخلها فأوصلته لشؤون الدولة ، ثم أسست جمعية منظمة لاتباعها المقربين الذين كانوا يعرفون بشارات حريرية خاصة بهم • وكانت هى صارمة فى امور اسبقيتها الشخصية • وقد ذكر فى غير هذا المقام مشاركتها فى قتل سليم باشا بابان ، وعداواتها المرة لعلى باشا خلف زوجها • ويظن ان قتل زوج اختها عائشة بريثا كان بتحريض منها •

اما استانبول فقد كانت علاقات أبى ليلة المربوطة بها جيدة حسب الظاهر • فقد كانت ترد فى كل سنة مواكب « القبوجيين » حاملة فرمانات الحاكمية التى كان يبعث بها السلاطين ، واحدا بعد آخر ، مضطرين لانهم عجزوا عن الاهتداء لغيره فى هذا المنصب • وفى سنة ١٧٥٢ م (١١٦٦ هـ) اهدى اليه سيده هدية من انواع الفرو الفاخر لنجاحه فى حملة سنجار ، وارسل كذلك بهدايا اخرى لكثير من رؤساء القبائل من اتباعه • والواقع هو انه قد برهن فى كثير من واجباته على انه من الولاة غير المخلصين • كما كان غير قابل للتبديل ولا التحويل • ولم يبعث بالواردات لسيده ، وانما كانت نفقاته السنوية على الجيش والتحصين والحكومة بصورة عامة تزيد على واردات الحكومة من الضرائب • وكانت تشيع حسب العادة قصص عديدة عن مكايد السلطان له • فكان يهمس بأن رسلا متعاقبين كانوا يتوجهون من استانبول مأمورين بقطع راسه غير ان رؤوسهم كانت تقطع بدله •

زاد على عهد أبى ليله استخدام الكرج المعتقين فى الوظائف المهمة وبدأ سيل

المماليك يتدفق بزيادة من تفليس فى بلاد الكرج الى بغداد ، لان حاكمها كان منهم • ثم أحكمت ماكنـة تثقيفهم وتدريبهم • فكان مائتا صبى[1] محررين للتدريب المنتظم • وكان المدرسون من مختلف الدرجات يقومون بتعليم القراءة والكتـابة والفروسـية والسباحة • وكان الشاب المتخرج فى هذه المدرسة يصبح من المرشحين لوظيفة من وظائف الـ « كيديكلى » ومن ثم يجوز له ان يكون من اغوات الحاشية • ولم يكتف أبو ليله بتشكيل قوة صغيرة يعتمد عليها من المماليك المدربين ، بل اكثر من استخدامهم فى وظائف الحكومة فكان منهم الكتبة والجباة وقواد الحاميات كما كانوا فى حاشيته ايضا • فأدى ذلك ليس لحرمان الاتراك فحسب بل لحرمان الاسر الكبيرة فى بغداد حصتها المهمة فى شؤون الحكومة • وليس من الممكن ان يذكر ما ولده ذلك الحال من التذمر والسخط فى دواوين البغداديين ، فأنشأ ذلك شعورا ظهر علانية بعد ثمانين سنة فى مضادة المماليك •

وقد اضطر سـليمان ، عند اول توليه الحـكومة فى بغـداد ، ان يترك البصرة للقبطان • وكان يؤمل ان هذا الضابط سيقاوم تعيين غيره فى مكانه بعد ذلك ، الا ان المخاوف لم تتحق • فنصب بسلام متسلم فى اوائل ١٧٥٠ م (١١٦٤ هـ) • وبعد سنة جازف هذا المتسلم (او القبطان) باعلانه استقلال البصرة وأمن ما وعد به من تأييد جماعة من رؤسـاء المنتفك ، ثم حصن ضواحى المناوى • وكانت فى هذا الزمن معظم قوة أبى ليله فى كردستان • وعندما رجعت ارسل الكهية مع ثلة من الجيش الى البصرة • ولما كان المنتفكيون لا يزالون يذكـرون بطش أبى ليله بهم قبل سنة اختفت قواتهم بمجرد ظهور القوة راجعة لمنازلها • فزحف الكهية على البصرة ، وأعطى مصطفى باشا مجالا واحدا للتوبة ، ثم طارده من المدينـة واستولى على اسطوله النهرى بأجمعه • فالتجأ العاصى الى بوشهر • وعهـدت البصرة الى ابراهيم باشا ، وانتهى أمر العصيان الجنونى غير المثمر •

وبقيت قبائل دجلة هادئة منذ تأديبها فى ١٧٤٧ • كما ان قبائل المنتفك التى كان

---

(١) ان نقطتين متعلقتين بالموضوع غير واضحتين للمؤلف ، الاولى : أكان هناك مدرسـة واحدة ام عدة مدارس ؟ ، والثانية : هل كان هذا التعليم مختصا بالمماليك ؟ ومن المحتمل ان اقلية صغيرة من الترك والعرب كانوا يشاركونهم فيه •

يرأسها عبدالله - اخو سعدون - كانت تحت اليد • ولم يبق الا بنو كعب ، الذين لم يعاقبوا من قبل ، يقلقون ويهددون • وقد بقي ولاؤهم للايرانيين او الاتراك مبهما ، فلم يدفعوا الجراية للفريقين كما لم يحترموهما • وفي العشرة السادسة من هذا القرن كان رئيسهم الشيخ سليمان شيخا نشيطا ذا فكر ثاقب • وقد بدأ ينشىء اسطولا فى حدود سنة ١٧٥٧ م (١١٧١ هـ) ، فاصبح ذلك الاسطول فى ١٧٦٠ م يضاهى السفن التركية البالية التى لا تتحرك • وقد بلغ عدوانه وسلاطته فى ١٧٦١ م (١١٧٥ هـ) حدا استدعى معه التأديب العاجل • فأمر أبو ليله متسلمه فى البصرة بالهجوم • فبدأت الحركات ولكن من غير ان يضغط فيها ، وبذا اشترى الشيخ صلحا سهلا •

وكان نفوذ الميناء على حسكة ضئيلا ، ومحتقرا فى بعض الاحيان ، الا انه على كل حال كان اكثر من لا شيء • وقد نتج نفوذ أبى ليله القوى ، ووجود أغا شاذ فى حسكة شيئا شبيها بالحكومة فى هذه السنين على ضفتى الفرات • وبالرغم عن ان ذلك الحكم كان طفيفا ونظريا لدرجة كبيرة فانه كان أحسن بكثير من الكراهية والاستخفاف اللذين كانت قبائل الاهوار تبديهما لحكم السلطان اعتياديا • فكانت البلدان الصغيرة والقرى القصبية تدير شؤونها بالطرق المألوفة من جمع « الخوة » وأخذ الثار والخضوع العام للعرف العشائرى الذى تأصلت جذوره بالحياة الطليقة الحرة فى البادية والاهوار على مدى العصور • وكان الشيوخ مرتبطين فى الحكم بأقرب آغا ومسؤولين بين يديه عن سلوك قبائلهم تجاه الموظفين والعابرين للبلاد ، وكانوا هم الذين يجبون الضرائب « والكودة » فى ضمن ديرتهم • وكان هذا الشكل الحكومى يعتمد على قوة الحكومة فى توطيد دعائم الامن والنظام وتعقيب العابثين بضربات شديدة عاجلة • كما كان أبو ليله فى بغداد مستعدا لمثل هذا على الدوام •

والحق هو ان عدم احتياج الحكومة لتجريد حملات بنطاق واسع على القبائل ، الا فى الندرة ، طول مدة الاثنتى عشرة سنة من حكم أبى ليله كان فضله راجعا اليه • وسوف نرى فى مقام غير هذا كيف جردت حملات مهمة على كردستان وسنجار فى السنة الاولى والثالثة من عهده ، وكيف سحقت فى اوائل ١٧٥٦ م (١١٧٠ هـ) فئة من شمر تصدت للغزو فكان سحقها شيئا يذكر فى مدى سنين طويلة ، وتلته مجاعة[1] مبيدة

(١) ايفز ص ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٢٩ .

فى تلك السنة • وكانت وطأة المجاعة على أشد ما يكون فى اراضى « الديم » من بلاد آثور • فقد خاب الزراع فى ديار بكر والموصل فى حصد زروعهم ليس مرة واحدة فحسب بل مرتين • وامتدت مخالب المجاعة جنوبا فكادت تصل الى بغداد • فتقاطرت الى الجنوب آلاف من الجياع يحملون معهم البؤس والفاقة والجرائم • ثم أمر اثنا عشر الف ايرانى من المقيمين ببغداد بأن يتركوها قبل ان يشتد القحط • بيد ان هذا الامر لم ينفذ لانتفاء الحاجة لذلك وانتهاء الازمة • فأصبحت الموصل واهنة القوى لكنها منتعشة بعض الانتعاش فى ١٧٥٧ م (١١٧١ هـ) • وكانت ديار بكر لا تزال تعانى اشد حالات النزع •

على وعمر

توفى فى الرابع عشر من أيار ١٧٦٢ م (١١٧٦ هـ) سليمان أبو ليله عن عمر يناهز الثمانى والستين سنة • ولم يترك ما يعرف به تعيين خلف له • وعاش بعده ضباط سبعة كان قد نصب كل منهم فى وقت ما فى منصب الكهية • وكان احد هؤلاء عمر آغا زوج عائشة خانم ، وكان الآخر على آغا (فارسى المولد) الذى كان قد ساعد مساعدة جليلة فى تعيين أبى ليله للباشوية ثم تولى بعد ذلك سناجق عديدة منها سنجق البصرة • فسلمت الولاية موقتا الى الدفتردار عثمان العمرى بكونه قائم مقام ريثما ترد اوامر السلطان بالتعيين • ومن بين تلك الاوامر تعيين امين باشا الجليلى (الذى كان فى كركوك) محافظا لبغداد • وما كاد يصل الى العاصمة حتى وصل الفرمان بتعيين على آغا للايالات الموحدة وبترفيعه لرتبة وزير ، وربما كان تعيين على بتأثير الصدر الاعظم راغب باشا او ببذل المال • فترك الباشا الجديد البصرة وخيم قريبا من الحلة ينتظر وصول فرمانه ، ثم دخل بغداد متوليا عليها • ورجع أمين الى كركوك • وقد صودرت املاك الدفتردار ، الذى لم يطغ تدينه على نقاط ضعف مهنته ، وكذلك املاك أبى ليلة ، وحبس الدفتردار نفسه •

وبدأ الحكم الذى تسلمه باستحقاق ، ان لم نقل اشتراه ، كما كان يبدأ به غيره حسب المعتاد • فقد أعدم اكثر الانكشاريين شرا ، واقصى كثيرا غيرهم • وفى ١٧٦٢ م (١١٧٦ هـ) حدث هياج عسكرى اضطره ان يترك بغداد فيخيم فى الجانب الايمن من دجلة • غير ان الثائرين تنازعوا بينهم ، وبعد ايام قلائل تمكن من الدخول الى المدينة ثانية ، ومن اعادة النظام الى نصابه • وقد كان بالرغم من شخصيته القوية لا يملك

الخصال التى يستوجبها منصبه . فما زالت عادلة خانم فى بغداد ، وكان بوسعها ان تتحمل الحكومة التى يرأسها خادم آخر من خدام أبيها على ان يشاورها فى كل شيء . لكن على باشا ، وقد عرفته الخانم صبيا من أصل فارسى مجهول فتصدق والدها عليه فرباه ، فشل فى اتباع هذه الطريقة . وعلى هذا دفعها سخطها المفعم بالحسد الى ان تكثر من الكيد له ، ذلك الكيد الذى كان الباشا معرضا له على كل حال . على ان سخاءه وظرفه قد حبباه للناس ، لكنهما لم يمكناه من الوقوف امام سيل الفوضوية الجارف الذى أخـذ يجرف حتى وصل الى القبائل والحاميات معا ، ولا فى وجه مؤامرات الناقمين عليـه شخصيا والدعاية الماكرة التى كانت تبث عن ايرانيته التى لا تجعله الا شيعيا وخائنا .

وعلى هـذا فقد كانت مدة حكمه القصيرة ملأى بالحوادث . فحملته الكبيرة الاولى على البابانيين ذكرت فى مقام غير هذا . وفى خريف ١٧٦٣ م (١١٧٧ هـ) استولى على منطقة بنى لام فأخضعهم واستوفى منهم غرامة جسيمة . وعند زيارته للبصرة ، وكان يعرف مشـاكلها مذ كان متسلما ، وجـد ان بنى كعب الذين كان يرأسـهم الشيخ سليمان ما برحوا مستقلين ومستمرين على السلب والنهب . فطلب من المقيم البريطانى ، فى مقابل مساعدته عند السلطان ببعض الامتيازات ، ان يسعفه بمعونة سفن الشركة له لضرب الاسطول الكعبى . فكانت مصالح الشركة نفسها هى التى اقنعت المقيم بارسال سفينتين . وعندئذ اذعن الشيخ مفضلا الصلح على متابعة القتال وذلك بعد ان افزعه تقرب جيش الباشا منه .

وفى ربيع ١٧٦٤ م (١١٧٨ هـ) جردت الحملة على الخزاعل حيث كان (كما فى دجلة) الهدوء الطويل الذى وطد دعائمه أبو ليله قد انتهى . فلم ينجز على باشا فى هذه الحملة شيئا ، حتى انه (كما قيل) دحر ايضا . فوصلت اهازيج النصر التى كانت ترددها قبائل الاهوار الى بغداد . وسرعان ما أشـاع الكهيـات المعادون الدساسون و « الام ـ الملكة » عادلة ان قوات الباشا الايرانى الاصل ، القاسية على الاكراد السنيين ، كانت قليلة ورحيمة تجاه الخزاعل الشيعة . فهمس المرجفون باسم الصوباشى . ومات على حين غرة ضابط كبير . فنطقت الخانم « السم » واضافت الى ذلك « لن يكتفى بحياة شخص واحد » ، فزاد الخوف الخصومة وتعالت نيرانها التى لم تستطع اخماها الهدايا

الكثيرة التى بذلها الباشا ، ثم تسربت روح الفتنة الى الخارج • وكان رأس الناقمين عمر باشا • وبعد ان اخذوا القلعة بيدهم اخذوا يقصفون السراى بالقنابر • على ان حذق علي ولطفه انالاه نصرا موقتا • وسرعان ما اتبع الامان والتفاهم اللذين اعلنهما بمعاقبة رؤساء الانكشاريين عقابا صارما • فكلفه هذا الخطأ تجدد الثورة واشتدادها ثم انتشارها • وقد اقسم الكهيات يمين الاخلاص لعمر • ثم استحكم كل شارع ونصب كل مدفع في غرف القصر وحجره • ولما ايقن الباشا بانه قد اضاع كل شيء انسل من مقره متنكرا • غير ان جاسوسا من الجواسيس ظفر به ، فسحب الى السجن وفيه أعدم ، وهو الشجاع السخى المهذب الذى ذهب ضحية للحسد والضغائن الشخصية •

وبينا كان الجند والاهالى راجعين الى بيوتهم فى المدينة التى خلدت الى السكينة انعقد ديوان كبير لانتخاب الخلف • فكانت مؤهلات عمر والاحوال المحيطة به هى الحاسمة • فقد كان قائد الثورة الناجحة وزوج ابنة سيد المخاصمين أجمع • فدبج الديوان كتابا الى السلطان ، محشوا بالاكاذيب الملفقة عن الباشا الاخير ، يسترحمون فيه تعيين عمر • فلم يجد السلطان مصطفى الثالث بدا من مصادقتهم على ذلك • وتولى عمر باشا الحكومة فى ربيع ١٧٦٤ م (١١٧٨ هـ) •

مرت بين تعيين عمر باشا وارتقاء سليمان العظيم حقبة ستة عشر عاما • وكانت هذه المدة متألفة من سنوات عشر من الحكم الضعيف السلمى الذى لم تحدث خلاله غير الحروب القبلية وتضاؤل النفوذ الحكومى • ومن خمس سنوات كان يسود فيها النضال بين حكام بغداد المعرضين للاستبدال بسرعة الذين لم ينفعوا بشيء ، بينما كانت البصرة تعانى حصارا طويلا تلاه احتلال أجنبى • ومن سنة واحدة تخلصت البلاد خلالها من الحكم الايرانى ومن سوء الحكم الداخلى معا ، فى وقت كان الباشا العظيم فى طريقه من الاسر الى الحكم • وكانت منزلة الجراكسة المعتقين من أخص خصائص الحكومة فى بغداد بعد ان زاد عددهم واستتب الاستقرار العام بنفوذهم • وقد بلغ تكاثر هؤلاء المماليك درجة اصبحوا معها يستخدمون حتى فى الوحدات الحكومية التى لم تكن تابعة لبغداد قصدا بعد ، ولذلك ما كانت العيون لتنظر الى غير الباشا المملوك فى بغداد • وخابت محاولة السلطان فى اقصاء هذه السلالة (كما فعل فى اقصاء عمر) كما خابت من قبل فقادت اعظم المماليك قاطبة الى منصب حسن باشا •

حكم عمر عشر سنوات كانت سلطته خلالها تأخذ بالتضاؤل • فأخذ على عاتقه في اول سني حكمه واجب تهدئة القبائل • ولما كان شيخ الخزاعل متماديا في مناوأة الحكومة ارسل عمر باشا اول حملاته عليه • فدمرت لملوم وهي المنزل الرئيس وعين شيخ رشحته الحكومة ، ثم أعدم عدد من الرؤساء • وفر الشيخ حمود ثم ظهر ثانية واعيد للمشيخة بعد ان اعطى العهود التي لا قيمة لها بتحسين الحال • وكان تدبير أمر بني كعب اصعب من ذلك • فقد تآزرت في الحركات عليهم المجهودات البريطانية والايرانية ايضا • ففي ١٧٦٥ م (١١٧٩ هـ) دبر الوصي على عرش ايران ، كريم خان ، حملة مشتركة عليهم • الا ان القوات التركية تأخرت عن اللحاق بالميدان في الوقت المضروب فتمكن الشيخ من النجاة والخلود الى السكينة موقتا • وقاد بعد ذلك متسلم البصرة رتلا مستقلا من الجيش في الجانب الايمن من النهر • على ان الهجوم كان قد بدأ من جانب الشيخ سليمان ، وكان قد استولى على ثلاث سفن من سفن القبطان ، ثم اشترى الصفح عنه في الحاضر والمستقبل بمبلغ زهيد • لكن شيخ كعب لم يكن وحشيا ساذجا • فقد التفت الى الفريق الثالث الذي لم يشمله التفاهم هذا مع الترك • فاستولى على سفن بريطانية ثلاث واحتفظ بها بعد ان سرح ضباطها • وعندئذ ارسلت حكومة بومبي ، وقد غاظها الحادث كثيرا ، اسطولا مؤلفا من ست سفن وكان ذلك في كانون الثاني من سنة ١٧٦٦ م • ثم وصل من بغداد في الصيف محمود آغا ، كهية عمر باشا ، مع قوة من الجيش • فكانت اول حركات الحملة المشتركة مفجعة • فقد احرقت سفينتان بريطانيتان وتسع سفن تركية ، ثم صد هجوم من البر • ورجعت في الاخير قوات الفريقين بعد ان تسلمت من كريم خان كتابا يناشدها فيه ان تنسحب من الاراضي الايرانية • ولم يثأر لهذا الهجوم الكعبي على السفن ، في الاوان ولا فيما بعد ، لكن الضغينة تلاشت بالتدريج •

وفيما عدا الحملة نصف الجدية التي وجهت على عبدالله في المنتفك سنة ١٧٦٩ م (١١٨٣ هـ) ـ لاسباب اعتيادية ، ولكن تفصيلاتها ونتائجها غامضة ـ لم يدون شيء عن حملات اخرى قام بها عمر باشا في جنوبي العراق • غير ان نفوذ حكومته كان يقل تدريجيا • اذ فقد حتى قدرته على عزل الشيوخ الرسميين وخلقهم ممن كان اسلافه يحكمون العشائر بواسطتهم • وكذلك قلت قيمة فرمانه شيئا فشيئا • وغدت الحكومة

لا تأثير لها بالكلية من القرنة الى حسكه من جهة الفرات والى منطقة زبيد من جهة دجلة . وغدا الدس ، الحقيقى او عن الشبهة ، موجها على الباشا . وفى عام حملة المنتفك اوقف عبدالله بك الشاوى[1] فجأة ثم شنق ، وهو من اسرة مشيخة العبيد الكبيرة ومن وجوه بغداد حينئذ . فجمع ولداه سليمان وسلطان قوة من العصاة ثم قطعا كل طريق تؤدى الى المدينة . فساق عمر باشا قوة من البصرة الى الدجيل فقطعت مسافة عشرين مرحلة فى ثمانية ايام . فشتتت معركة قصيرة شمل العصاة ، وفر سليمان . اما سلطان فقد قبض عليه وقتل فى محضر من الباشا ، وكذلك قتل غيره . كما اقصى أغا الانكشاريين الى كركوك وشنق . وزيادة على الفتنة والشغب ، ظهر نفوذ جديد فى ديوان الباشا ببغداد فادى ، لدرجة ما ، الى انحلال الامور فى ايامه الاخيرة . فقد استطاع رجل من أصل فارسى حقير ، يدعى محمد العجمى ، ان يستحوذ بالكلية على الباشا الضعيف . فكان يستخدم جميع فنون « القيادة » ويصرف بأخس العواطف نفس سيده ، وبذا تمكن من الدخول الى اجل المجالس والحلقات . فغدا نفوذه ممتازا عند عمر .

بمثل هذا الضعف وبمثل هذه الخيبة فى الحكم كان المملوك المعتق عمر . وبينا كانت الحكومة على عهده فى اواسط العراق وجنوبيه آخذة بالانحطاط والتدنى شيئا فشيئا كانت الموصل والولايات الكردية تكون تاريخها الخاص الذى طالما عرفت به .

---

(١) ان الذى ذكره ياسين العمرى فى « الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون » لحوادث سنة ١١٨٣ من تاريخ العراق هو قوله :

« وفيها عصت عرب البصرة : بنو لام والخزاعل فسار اليهم بالعساكر والى بغداد الوزير عمر باشا وحاربهم وقتل منهم جماعة ونهب اموالهم واغنامهم وجمالهم وعاد »

وقال فى اخبار الشاويين

« وفيها غضب والى بغداد الوزير عمر باشا على الامير عبدالله بك الشاوى وقتله ثم قتل ولده سلطان باشا وأقام ولده الاكبر الحاج سليمان مقام أبيه وكان المترجم من الاجواد الجياد له صدقات وداره محل الضيوف » . « م . ج »

فقد كان الدفاع المجيد الذى دافعت به الموصل عن نفسها من اخص الحوادث التى عرف بها عهد خامس باشوية تقلدها الحاج حسين الجليلى . وفى ١٧٤٧م (١١٦٠ هـ) نقل منها ثم رجع اليها ثانية بعد سنة . وكان خلفه التالى محمد الترياكى ، الذى عين اخيرا لبغداد ، وطرده منها أبو ليلة . وفى عام ١٧٤٩ م رجع الحاج حسين للمرة السابعة . ومما يذكر هنا ان الحملة التى جردها ابو ليلة سنة ١٧٥٠ م على بلاد الاكراد ساعدته فيها قوات الموصل وعاضدته فى القيام بأعبائها . وبعد سنين ثلاث استدعت غزوات اليزيديين وعنفهم فى جبل سنجار تجريد حملة واسعة النطاق . فقد جاء أبو ليلة بقوة عظيمة الى الموصل ، فعاضده بحملته هذه أمين باشا بن الحاج حسين بخبرته واخلاصه .

عين أمين باشا بتأثير أبى ليلة لحاكمية الموصل ومن ثم عين الي كركوك . وفى ١٧٥٨ م (١١٧٢ هـ) تعين الحاج حسين[١] فى الموصل من جديد حيث تبين ان عدة سرقات ناجحة جريئة كانت تدل على ضعف حكم وقلة موارد الباشوات الذين حكموا فى الفترات الواقعة بين حكم الجليليين . واصبحت حتى المدينة ، التى فرقت بين سكانها الاحقاد والانقسامات العنيفة حسب المعتاد ، غير آمنة . فرجع الحاج المحارب القديم ليعيد النظام الى نصابه والسلطة الى محلها . الا انه ما بدأ بادارة دولاب الحكم فى عدة شهور حتى عاجلته المنون فى مدينته . وبالرغم عن عدم خلوه من الاخطاء - كحب المال وعدم التيقظ فى الحكومة - فقد كثر لدرجة كبرى من نفوذ اسرته ، وهو يذكر الآن فى الموصل بكل خير وبانه بطل الدفاع .

---

(١) قول المؤلف « وفى ١٧٥٨ تعين الحاج حسين فى الموصل من جديد » فيه خطأ فى التاريخ لان سنة ١٧٥٨ م تقابل ١١٧٢ هـ مع ان ياسين بن خيرالله العمرى الموصلى ذكر فى الدر المكنون فى حوادث سنة ١١٧٢ ما صورته : « سنة الف ومائة واثنتين وسبعين ولى مدينة الموصل امين باشا بن الحاج حسين باشا الجليلى الموصلى » . وذلك بعد قوله فى حوادث سنة ١١٧١ :

« وفيها ولى حلب الوزير الحاج حسين باشا الجليلى الموصلى ... ثم عزل ... وولى الموصل ... ودخلها ... وتمرض ومات ومدة اقامته بالموصل سبعون يوما .. وتسلم البلد امين باشا وأخرج عمه واولاد عمه من السجن وصادر امراء الينكيجرية واطلقهم » . « م. ج »

توالى على باشوية الموصل عدد من الحكام ـ ليس كلهم من الجليليين ـ حكم كل منهم بضعة شهور . وفى تعيينهم هذا لم يكن وكلاؤهم فى استانبول اقوى نفوذا فى رغباتهم من رغبات الباشا فى بغداد . والواقع هو ان تقاسم النفوذ فى شمالى العراق بين حكام بغداد والموصل كان مختلفا وعلى غير انتظام . على انه كانت منزلة الباشا الجليلى فى داخل المدينة ، وكانت الحكومة فى داخلها فقط فعالة تماما ، تنافس منزلة زميله فى بغداد . وقد حدثت فى عهد مصطفى باشا شاهسوانزاده[1] فى ١٧٦٠ م (١١٧٤ هـ) اضطرابات عنيفة . وانقسم الجليليون بين معاد له ومناصر ، ثم تطورت الحال فانقلبت الدسائس الى عصيان علنى وحل محل الاهانات اطلاق النار . فكانت تدوى فى شوارع الموصل الطلقات والقنابل اليدوية مدة اربعة ايام ، وانقطعت صلاة الجمعة فى الجوامع ثلاث جمع . وما انفرجت الحال الا عند عودة امين باشا للمرة السادسة .

وكان المتسلم فى ماردين ـ اى الويوضة ان كان لا يزال يدعى كذلك[2] ـ عرضة فى بلدته الجبلية الى فتن ليست اقل من فتن الموصل ، والى الاحوال السياسية بين قبائل طى والملى فى السهل والجبل ، والى البغضاء العنصرية بين العرب والكرد والتركمان ،

---

(١) ان قول المؤلف « فى عهد مصطفى باشا شاهسوانزاده فى ١٧٦٠ م » غير مستقيم فقد ذكر ياسين العمرى فى حوادث سنة ١١٧٤ هـ ما نصه « سنة الف ومائة واربع وسبعين ولى الموصل الوزير سليمان باشا الجانكلى ... ثم عزل عن الموصل ... ووجهت الموصل للوزير مصطفى باشا شاهسوار اوغلو وتسلم له البلد فتاح بك الجليلى الى ان قدم اليها » .

وقال فى سنة ١١٧٥ :

« وفيها وقعت فتنة فى الموصل بين المدن (محلة بالموصل) واهل باب العراق ثلاثة ايام واتفق الوالى مصطفى باشا وفتاح بك مع المدن فضعف اهل باب العراق وهربوا وانطفت الفتنة » .

فهو مصطفى باشا شاهسوار اوغلو لا شاهسوانزاده ، نعم يجوز ان يقال « شاهسوارزاده » . اما « القنابر اليدوية » فغريبة لان الذى ذكره ياسين العمرى قوله « وامتدت الفتنة اربعين يوما وأمر مصطفى باشا بضرب القنبر والمدافع وتعطلت الجمع ثلاث مرات ... » .

« م . ج »

(٢) نعم كان يسمى كذلك قال ياسين العمرى فى حوادث سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) : « وفيها ارسل والى بغداد عمر باشا الامير الحاج سليمان باشا ويوضة ماردين الى الموصل وجعل يسوق بعض الرعية الى شهرزور وبغداد » وذكر ويوضة ماردين فى حوادث سنة ١١٨٥ ايضا .

« م . ج »

والى المشاكسات الدينية بين اتباعه المسيحيين • وكانت هـــذه الولاية الثانوية ، التى لا تدخل شؤونها التاريخية غير المدونة الا قليلا فى ضمن هذا التاريخ ، لا تزال معتمدة على بغداد لكونها من بقايا البناء الامبراطورى الذى شيده حسن باشا من قبل • وكانت نصيبين وديره تابعتين لها ، وكانت الرقة وديار بكر من الايالات ذات الشأن المجاورة لها•

وحافظت الاسرتان النبيلتان الحاكمتان فى حسنكيف « حصن كيفا » والجزيرة على حكومتيهما بعزة واستمرار محليين • فكانت علاقاتهما المربوطة بحكومة السلطان كعلاقة العمادية وقره جولان ولكن بمقياس اصغر • فقد استمر حكم بهرام باشا الطويل الهادىء فى حسنكيف حتى سنة ١٧٦٩ م (١١٨٣ هـ) • اما فى الجزيرة فسيدعونا التاريخ البابانى ان نبحث من جديد ـ لاننا لم نبحث عنه منذ وفاة نادر ـ عن جار العراق من الشرق •

بابانى وايرانى

كان قتل الشاه الافشارى قد زج ايران فى احضان سنين عديدة من الفوضوية • فقد تقاتل من أجل العرش خصوم عديدون • وتلت تتويج احدهم ثورة فى الحال ، وظفر عن طريق الفتك والقتل ، ثم اندحار بالمكر والخديعة • وليس من شأن هذا التاريخ ان يخوض فى البحث عن مختلف انواع الاطماع والبربرية التى كانت عند هؤلاء الامراء والقواد • فقل عدد المتنازعين حتى بقى منهم فى الاخير رئيس من التركمان القاجاريين ، وقائد افغانى من قواد نادر ، ورجل من قبيلة الزند يدعى كريم خان • فوقعت الفريسة اخيرا بيد كريم خان ذى الاصل الوضيع والشخصية المحبوبة • وكان هذا قد دحر مرات عديدة خلال النـزاع الطويل على العرش ، وفاز فى النهاية بحسن طالعـه وشخصيته المحبوبة ، فغدا فى ١٧٥٧ م (١١٧١ هـ) الحاكم الذى لا ينازع • وقد نصب فى العرش شاه اسمى من الصفويين اسمه اسماعيل كالعوبة بيد الوصى • واستمر كريم خان يمارس السلطان والنفوذ بكونه وصيا على العرش مدة عشرين سنة جاعلا شيراز عاصمة للدولة • والحق ان هذا الوصى كان بمقام ملك ينشد السلم ويرغب فى اسعاد شعبه ، كما انه لم يفكر فى مباشرة الحرب مع العراق حتى السنين الاخيرة من عهده • ولذا لم تحدث اية مشكلة مع ايران طول ايام أبى ليله فى الباشوية • بل كان الامر على العكس من ذلك ، لان الخان كان يتحف المماليك بين حين وآخر بهدايا فاخرة •

وفى السنين الاولى من عهد عمر جرى تآزر ، غير ناتج ، مع الايرانيين فى تأديب القرصان من بنى كعب كما مر سابقا ٠

غير ان اسباب الاحتكاك والتصادم كانت تعمل فى طى الخفاء ٠ فقد اثارت ، منذ سنين خلت ، حفيظة الشيعة الايرانيين المعاملات القاسية التى كان يعامل بها زوار العتبات المقدسة فى الفرات ٠ وسمح فى درنه الواقعة على الحدود للبك ـ وهو تابع عثمانى ـ ان يجمع « الخوه » الجائرة ، وكانت فى العتبات نفسها اخطار السفر قد وصلت اوجها بالتعديات المزعجة والتكاليف الجشعة التى كانت تفرض على الزوار ٠ فاحتج الوصى اولا ، ثم هدد ، فلم يرد عمر باشا على ذلك بشىء ٠ وقد حاولت حكومة شيراز استعادة مائة أسرة ايرانية كانت تقيم فى البصرة الى ايران فلم تفلح فى المحاولة ٠ وزاد فى الجفاء عدم اكتراث الاتراك بالجواب عن المطاليب والاحتجاجات ٠ ثم زاد فى الطين بلة انحراف التجارة عن ميناء بوشهر وميناء بندر عباس الى البصرة ٠ وأحس الوصى ، فى الوقت نفسه ، بالتذمر فى جيشه ، ذلك التذمر الذى لا يعالج الا بالخدمة الفعلية التى أنشىء الجيش من اجلها ٠ هـــذا زيادة على الحنين الى كربلا والنجف اللتين كانت ذكرياتهما لا تغرب عن بال كل شيعى ٠يضاف الى ذلك كله ان قره جولان كانت مسرحا مناسبا للاتراك والايرانيين يمثلون عليه ادوارهم متى شاؤوا فيبعثون اسباب الحرب من مكمنهـا ٠

كان سليم ، المرشح الايرانى للحكومة البابانية ، قد استعاد حكومته من سليمان باشا عام ١٧٤٩ م (١١٦٣ هـ) ، وحفظها بالرغم من حملة احمد باشا الاخيرة المنتهية بموته ٠ وبقى مدة عامين يهزأ بحكومة بغداد ويغزو كثيرا من الاصقاع العراقية ٠ فمشى اليه ابو ليله بنفســه فى ١٧٥٠ م ، والتقت القوات التركيــة والكــردية على بعد اربع مراحل من شمال بغداد ، وانتهى الصدام بفرار سليم باشا وتفرق اتباعه ٠ فاستلم سليمان باشا حكومة سليم ، وبقيت فى حكمه زهاء اربعة عشر عاما تخللتها بعض الفترات٠ ولا غرو فقد كان سليمان اعظم سلالته ، وكان جيشه الاقطاعى تابعا للباشا فى بغداد ورهن اشارته فى الطاعة ٠ وظل يتمتع بتأييد دائم من جانب أبى ليلة الذى أنقذه من اشد اعدائه فى ١٧٥٨ م (١١٧٢ هـ) ٠ اما سليم باشا فلم يصفح عنه ، ولم تنس موالاته العلنية للايرانيين ، ولا غزواته وسرقاته ، ولا مراوغاته ٠ ولشفاء غليل عادله خانم ، وما

كان يدور فى خلدها من روح الانتقام ، قدمت له الشروط المغرية وطلب اليه بلطف وبشاشة الحضور الى بغداد ، حيث كان ينتظره الموت المروع والخيانة المزرية . عندئذ لم يبق من ينازع سليمان فى قره جولان ويهدده الا محمد باشا بن خانه باشا الذى تمكن من الاستئثار بالحكومة فى ١٧٦٠ م . فدحره على نهر النارين جيش أرسل لقتاله من بغداد ، واخيرا اعدمه سليمان . وتسلم احمد ، اخو سليمان ، الحكومة مرتين مدة شهور قليلة ، غير انه خاب فى التمسك بها .

ازالت وفاة أبى ليله الضغط الذى كان يجبر الحاكم البابانى على الاخلاد الى السكينة . فانتهى أمر الطاعة لبغداد ، وبدأت الغزوات . وكان انذار على باشا له اولا شيئا بلا فائدة . ثم جرد عليه حملة فسار البابانى للقائها وبمعيته ستة آلاف فارس مع مدافع وثمانية آلاف من المشاة . فوقعت الحرب بالقرب من كفرى ، وانتهت بفرار سليمان باشا مع ثمانين من اتباعه من ساحة الحرب الى ايران . فاستعاد من هناك حكومته بمساعدة جيوش كرمنشاه . على ان هذه التقلبات لم تحرمه النجاح فى حكمه . فقد وسع نفوذ البابانيين الى ما وراء ديالى جنوبا ، ولم يسمح لحكومة رواندوز ان تتمتع بالسلم . وكانت رانية وزهاب تابعتين له ، اما كوى فقد كانت من محمياته بالرغم من بقاء الاسرة المالكة فيها حينئذ . وبينا كان منهمكا فى الاستيلاء على اردلان فى ١٧٦٣ م (١١٧٧ هـ) كسرته قوات الوالى شر كسرة . الا انه تمكن فى السنة التالية من نيل عطف كريم خان عليه فى شيراز ، فأعيد لحكومة سنه . وبعد عام من ذلك التاريخ اغتيل. فخلفه فى اردلان ابنه على بوساطة الوصى فى ايران ، ثم عين اخوه محمد باشا فى قره جولان بالوساطة نفسها .

لكن المنازعات العنيفة بين الاخوة فى شهرزور بقيت مستمرة . فقد كان اولاد خانه باشا الثلاثة ، محمد واحمد ومحمود ، يجمع كل منهم اتباعه نيحارب من أجل امارة كوى وامارة قره جولان . وكانت علاقة المطاحنات هذه بالعلاقات العامة بين ايران والعراق تزداد تقربا ووضوحا كل سنة . وفى ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) تمكن محمد باشا ، بعد هدوء العاصفة البابانية ، من القبض على أخيه احمد (وكان يحكم فى كوى اوائذ) ثم طرد محمودا ففر ملتجئا الى بغداد . وتمادى فى حيله وحذقه فى اثارة حكومة العراق . واخيرا اوفد عمر باشا كهيته لنصب محمود فى حكومة قره جولان . فكانت مهمته سهلة ، لان محمدا فر الى سنه وأطلق محمود لنصب أخيه احمد . وكانت هذه

الحوادث للوصى المترقب فرصة سانحة ، بعد ان كان عازما على الحرب بارسال الاحتجاجات لعمر باشا وبارهابه البصرة . فأرسل جيش عدده اربعة عشر الف مقاتل من الايرانيين بقيادة على مردان الى كردستان وعبر الحدود لاعادة محمد باشا ، الذى كان مع الجيش ، الى مكانه . فوهنت جيوش الكهية ، وقوات البابانى الحاكم أوانئذ ، امام القوات الايرانية فى بادىء الامر ، الا انها تجمعت ثانية فهاجمت العدو ومزقته شر ممزق . فطردت قوات الشاه من شهرزور ، وأخذ على مردان اسيرا الى بغداد فرده عمر باشا الى سيده الشاه بأدب عظيم . وهكذا بدأت الحرب مع الايرانيين من دون ان تعلن رسميا .

الانسان ذئب يفترس اخاه الانسان

ما كانت الحرب لتصيب من الولايات التركية هذه المرة غير العراق ، ولم تجر هذه الحرب فى العراق الا فى ميدانين من ميادين القتال هما ميدان اودية شهرزور وميدان مدينة البصرة ، وسيترك البحث عن ضنك الميناء لصفحات متأخرة . وبينا كان الميناء يئن من آلام الحصار والاحتلال كانت بغداد تنوء بخمس سنين من الفوضوية والتعاسة .

رأينا ان سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) قد حلت على عمر باشا وهو مصادف سرايا خاليا ، وخزانة اكثر خلوا ، وجيوشا قليلة لا يعتمد عليها ، وأملا خائبا كان يعلقه بمساعدة السلطان له ، وجارا ايرانيا يلح فى احداث الاشتباك الحربى . وأصبح الباشا نفسه منحطا فى شخصيته فعاش فى شبه عزلة . ثم رويت القصص فى اعتماده على أسوأ المشاورين وعن اعتراف مبتذل بانواع الجميل . وكان كل يوم يأتى بالتضرعات من البصرة المهددة ، وبانواع الاحاديث عن تعديات الايرانيين فى شهرزور وتدخلهم بخلع هذا البابانى او ذاك عن العرش ، حتى قيل ان كركوك كانت فى خطر ايضا . فى مثل هذه الاحوال - والتحذيرات اللافحة قبل عاصفه ما كان يأمل ان يتغلب عليها - كان عمر قد تقاعس عن انجاد البصرة[1] فاستحق اللوم على ذلك من شط العرب والبوسفور على حد سواء .

---

(١) الحق انه نجح فى ارسال ٢٠٠ انكشارى . ولم تصل القطعات المطلوبة من بكات الاكراد . كما ان قوة سارت بقيادة الكهية وصلت بطريقها للجنوب الى الخزاعل وجليحه فقط . ولا نرى موجبا لما يذكره بارسن بحق عمر باشا وخيبته فى اسعاف البصرة بقوله ان فشله ذاك « كان غير وارد وغير مغتفر » .

وفى ١٧٧٥ م ، - أعنى - بعد معاهدة قينارجى المذلة وبعد ثلاثة اشهر من انتهاء حصار البصرة ، استطاع السلطان ان يوجه نظره نحو الشرق . فقد ادرك الجميع فى استانبول ضرورة تخليص العراق من المماليك ، كما فكروا فى ان ابعاد عمر قد يهدىء الحالة فى كردستان وفى البصرة من دون ان تضرب اية ضربة . فعين مصطفى باشا الاسبيناخجى ، والى الرقة ، لقيادة حملة الى العراق . فكان بصحبته والى شهرزور سليمان الجليلى[1] ووالى ديار بكر اوزون عبدالله باشا « الطويل » . وصدرت بعد ذلك الفرمانات الملكية بتعيين مصطفى لبغداد وتحويل عمر الى ديار بكر .

وصل القواد الثلاثة الى بغداد على أحسن حال فنصبوا معسكراتهم منفصلة بعضها عن بعضها خارج المدينة . ثم سار مصطفى الى بغداد وقدم فرمانين ، فامتثل عمر الامر . فافرغ الخزانة هو وخدمه ، وترك المدينة فخيم فى الجانب الايمن منها[2] . ولم تكن لديه اية قوة ، كما لم يكن مستاء من نقله المشرف هذا . على ان المرجفين لم يتقاعسوا عن اثارة الخوف والطمع فى خلفه . وبينا كان عمر منهمكا بنقل خزائن بيته ، من دون ان يعارضه معارض ، امر الاسبيناخجى بهجوم فجائى على مخيم عمر وهو أعزل . فركب الوالى الخائب (عمر) للفرار ، الا ان حصانه كبا به فى الظلام فوقع وكسرت رقبة فارسه[3] .

فهرب مؤيدو عمر من بغداد ، ثم رجع سليمان الجليلى الى كركوك . وقد اردف الاسبيناخجى استصفاء ثروة عمر بالتضييق على اغنياء البلد . وكان عجم محمد ، قواد عمر ، موضع اعتماد الوالى الحديث ايضا . ومرت مدة لم تبن فيها علائم الاستعداد

---

(١) ابن امين باشا وقد مات فجأة .

(٢) قال ياسين العمرى : « وفيها (١١٨٩) عزل من بغداد عمر باشا فخرج الى البر ونصب خيامه خارج السور » وهذا يدل على انه كان خيم فى الجانب الايسر . « م . ج »

(٣) قال ياسين العمرى : « فأظهروا الفرمان بقتل عمر باشا ووافقهم عليه كتخداه الحاج سليمان الخائن وصاح به : الى اين تهرب والسلطان أمرنا بقتلك ؟ وكان عمر باشا شجاعا فكر على كتخداه وقتله ، فجاء بعض امراء مصطفى باشا الاسبيناخجى وقتل عمر باشا ونهبت خيله وخيامه وقطع رأسه وارسلوه الى الدولة وبقيت جثته على الارض يومين ثم دفنوه فى بغداد ثم دفنوا الحاج سليمان وكان ظلوما » . « م . ج »

للسير الى البصرة • وكتب الى استانبول بان البصرة اصبحت تابعة له ، وقد لاذ الايرانيون بالفرار منها • اما المماليك ، الذين ادركوا نيات الوالى الحديث وعلموا بالتعليمات التى تزودها ، فقد تسللوا تدريجا من بغداد والتفوا حول الكهية السابق عبدالله اغا وقد اخذت تزداد قواته الثائرة يوما بعد يوم حتى استولت على القرى واصبحت تحاصر بغداد تقريبا • فكانت محاولات الاسبيناخجى الضعيفة فى اخماد هذا العصيان غير مجدية • فأخبر السلطان بتمرد عبدالله وتجبره • غير ان الوزراء فى استانبول كانوا ينتظرون اخبارا تختلف كثيرا عن هذه • فبدلا من ان يقوم وكيلهم المنتقى بانقاذ البصرة ومطاردة المماليك اصبح يعيش عيشة لهو وقصف مضاهيا بذلك المماليك انفسهم • فوقع اختيار اولى الامر فى استانبول على والى كوتاهية عبدى باشا ليخلفه وليحقق ما يبتغون • فوصل الى بغداد والفرمان بيده • ولم يبد مصطفى اية مقاومة ، بل هرب الى الموصل ومنها الى ديار بكر حيث كان ينتظره القبوجى الذى اخذ رأسه بيده الى استانبول بعد بضع ساعات •

حكم عبدى باشا مدة اسبوع واحد ، لان عبدالله باشا قد تعاظم امره فاصبح مسيطرا على اواسط العراق جميعها • ولم يعدم انصارا فى استانبول بالرغم عن كونه ثائرا ومملوكا • وكانت البصرة قد سقطت ايضا • فأذعن السلطان للضرورة الماسة من جديد ، واصدر فرمانه بالانعام ببغداد على عبدالله باشا • وما كاد يتولى حكومته التى كانت تنتظرها الايام البيض حتى صدر تعين جديد لشمالى العراق • فقد ادمجت ايالة كركوك وايالة الموصل احداهما فى الاخرى وعين لهما حسن باشا حاكم ماردين وكهية أبى ليلة السابق • فتولى الحكم ووجد الحالة فى شهرزور بانحطاط مؤسف • اذ كان اندحار على مردان فى ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) قد اثر فى الايرانيين فحفزهم للانتقام له بالتعديات العامة فى مناطق البابانيين وغيرها من اقطار الحدود • فقاست درنه وبجلان اهوال هذه التعديات والجور من الايرانيين • ثم اكتسحت شهرزور واعيد محمد باشا بابان ، حليف الايرانيين ، الى منصبه وهددت كركوك ، ثم استولى خانات الحدود على بدرة ومندلى • وفى الحملة التى جردها فى هذا العهد المذكور حسن باشا ، بأمر من السلطان ، اعتمد على الاخوين البابانيين (محمد فى قرەجولان وأحمد فى كوى) بالرغم من انهما كانا قد بدلا تابعيتهما مرارا عديدة قبل ذلك • فاستقرت الآراء على ان يسير الى كرمنشاه بطريق زهاب ، وان يسير محمد من

قره‌جولان على سنه . فدخل الاخير الى ايران وقضى على قوة اردلانية وجعلها تكابد خسائر جسيمة ثم نهب بنه . وفى موقعة ثانية اندحر والى سنه خسروخان مضرجا بالدماء بعد كفاح طويل هرب منه الى جباله واعتصم بها بعد شق الانفس .

كوفئت هذه الانتصارات بتشكرات السلطان وهداياه . واذ ذاك أمن الاتراك جانب محمد باشا . اما اخوه ، المحافظ على تقاليد اسرته ، فقد رجع الى مكانه القديم تحت حماية ايران والتحق بالجيش الحديث الـذى بعثه كريم خان لمواصلة قتال الاتراك وكان يقوده كلب على اللرى . فتقهقر محمد ، وعجل حسن باشـا بطلب النجدة من بغداد . وبذا نصبت القوات الايرانية الداخلة الى شهرزور أحمد على عرش آل بابان . فتمكن من المحافظة على مرتبته باحباط الجهود العظيمة التى بذلها اخوه ، بعدما ساعده الباشا فى كوى والوالى فى كركوك ، فكانت المساعدة من دون جدوى . وبعد ذلك اختار انتصارا له فخاطب فيه حسنا بكتاب متواضع فيه اعتذار وتكفير ، وبذا أمن تصديق الاتراك والايرانيين معا على توليه الباشوية البابانية . اما حسن باشا فبالرغم من جميع حيويته ونياته الحسنة لم يتمكن من انجاز شىء .

واكثر منه خيبة كان عبدالله باشا فى بغداد . فقد فارقه نشاطه الذى كان يتدفق فيه اثناء زمن الثورة بأجمعه عندما تولى الحكم . وكانت سياسته الوحيدة ترسيخ هيمنة المماليك ، كما كانت لذائذه الفريدة ان يباهى بأبهة منصبه وسطوته وان يبتز اموال الموسرين . واضيفت قبائح شهواته الى اعتـلال صحته . وعلى هـذا لم تبعث النجدة الى شهرزور فى سـاعة الحاجة اليها . وانكى من ذلك كله نسيان الواجب الاول الذى القى على عاتقه ، وهو واجب انقاذ البصرة .

وقد وجد غيظ استانبول منفذا له بتعيين سليم سرى احد رجال الحاشية الاماثل الذى كان يلح فى طلبه التعيين لنفسه . فقد عرض سليم نفسه للخدمة فى العراق ، ووعد ان يأتى بمفاتيح البصرة . اما أهالى بغداد ، الذين سئموا حكم الحكام الضعفاء الذين لا يرتجى منهم نفع ، فقد تلقوا نبأ قدوم شخصية وجيهة من الباب العالى بكل سرورهم . الا ان الآمال المعسولة التى علقت على قدومه سرعان ما تلاشت . فقد كان مولعا باللهو ، وبذا اصبح العوبة بيد عجم محمد وبلغت سطوة القواد الايرانى على عهده الذروة . وكان هذا الاخير قد استولى على الباشوات بالتعاقب وفاز بالاتباع ، وتمكن

من جمع ثروة وفيرة عندما كان امينا للصندوق على عهد عبدالله باشا • وعلى هذا كان يطمح اولا لمنصب الكهية (الذى كان بيد اسماعيل آغا أوانئذ) ، ومن بعد ذلك كان يرى نفسه سيد الباشوية نفسها • وقد اشيع منذ مدة خلت انه كان قد كاتب سرا شيراز ، وبالنظر للوعود التى حصلها منه اخذ الوصي على عرش ايران يجهز جيشا يسير به الى بغداد • على ان اسماعيل الكهية عمل ما كان بوسعه ان يعمله لاحضار القوات العراقية ، لكن عبدالله وسليم لم يكونا ليستسيغا الحرب • فبعثا بدلا من ذلك رسولا الى العاصمة الايرانية وهو محمد بك الشاوى • فتوجه الرسول وقوبل بترحيب ودى هناك ، الا ان التخلى عن البصرة كان منوطا بشروط ثقيلة • وقد انكر كريم خان تهديده لبغداد مدعيا بأن جيشه كان قد وجه لتأديب عشائر الحدود المقلقلة • فرجع محمد بك الشاوى الى بغداد مع مندوب ايرانى كان يحمل كتابا الى الباشا • وما وصلا الحدود حتى سمعا بوفاة عبدالله بداء الجبن •

وقد أدى هذا الحادث فى اوائل الشتاء لسنة ١٧٧٧ م (١١٩١ هـ) الى تطور الخداع والدسائس الخفية الى منازعات علنية عنيفة • فانتخب سليم افندى قائم مقام ريثما يصل تعيين جديد من استانبول ، غير ان اوامره لم يعبأ بها • وكان آخر ما عمله عبدالله قبل وفاته عزل اسماعيل آغا عن منصب الكهية وتعيين عجم محمد فى مكانه • وعندئذ تألفت الاحزاب حول الكهية المعزول والكهية الحديث ، ثم تلا ذلك عراك علنى فى الشوارع بين الفريقين • وقد انقسم الانكشاريون الى فريقين ، وتبعت الجيوش المحلية من كان يدفع لها مالا اكثر من الثانى • ثم سعى الفريقان لاجتذاب الرعاع ، كل الى جانبه • وانضم المماليك الى اسماعيل بصورة عامة ، غير ان عجم محمد استطاع ان يفسد عليه كثيرا منهم كما انه ازداد قوة بمعاضدة سليم افندى العلنية له • وبعد صراع دام عدة ايام وأدى لاحوال لا تطاق عين سليم افندى سليمانا الشاوى ليقضى على الفوضوية عنوة ، وليرجع النظام الى نصابه • فتمكن سليمان من ذلك لاحترام الفريقين له • بيد ان الحال سرعان ما انقلب ولم يدم الهدوء • فانحاز سليمان الشاوى نفسه الى اسماعيل آغا ، واستطاع عجم محمد ان يحافظ على التوازن ، فى مقابل هذه الفعلة من سليمان ، بمساعدة أحمد آغا الخليل وهو رئيس عصابة متألفة من العصاة وقطاع الطرق والجنود الاجيرة غير النظامية • وكان مع أحمد الخليل ومع عجم محمد ذوو الاكثرية من اللاوند ايضا • واستطاع اسماعيل من جهة اخرى ان يستفيد من

رجال قبيلة عقيل الخفيفين المتأهبين بتأثير الشاوى ، فاستمرت الحرب الاهلية هذه مدة خمسة اشهر كان الجميع ينتظرون خلالها من ينتخبه السلطان لهم • وكان يسعى للباشوية الشاغرة فى هذا العهد الفريقان المتنازعان وحسن باشا فى كركوك • وكانت فى غضون ذلك الشوارع مستحكمة والاطلاقات تتطاير والاصطدام العنيف يحدث كل يوم • وكانت فى خارج المدينة من الجانب الايمن مخيمات عقيل ، واجتمع فى الجانب الايسر الشذاذ من اتباع أحمد الخليل • وعلى هذا لم يبق شارع من شوارع المدينة آمنا ، ولم تراع الحرمات ، فانقطع السير فى الطرق • واخيرا وصل الفرمان فى نيسان ١٧٧٨ م (١١٩٢ هـ) بتعيين حسن باشا ، فخمدت العواصف واستعد اسماعيل آغا والشاوى لاستقبال الحاكم المخول • واذ كان حسن باشا متأخرا فى الوصول بسبب نزاع الاخوين البابانيين حكم ذلك النبيل العربى فى مكانه ببغداد •

دخل حسن باشا دخولا رسميا الى بغداد فى اليوم الرابع من ايار ١٧٧٨ م • ففتحت الدكاكين وانتعشت الاسواق من كسادها وتبودلت الزيارات • وعرض أحمد الخليل طاعته فعين لوظيفة شرفية • اما عجم محمد فقد انحنى خاضعا فى اول الامر ، ثم أهين فى القلعة وقد بقى معتصما فيها بثورة علنية • وبعد اسبوع واحد فر ليلا من حصن القلعة ولحق بقوته فى الخارج ، ثم تبعه أحمد الخليل ، الخائن من جديد ، الذى منحه لقب الباشا •

وقدر لحسن ان يحكم سنتين من الحكم المضطرب التعس • فقد كانت نفقات ديوانه الزاهر وحرسه الخاص تستدعي الجور فى فرض الرسوم على اليهود والنصارى وكانت المدينة هادئة ، الا ان الريف فى الخارج كان يعج بالفوضوية المستفحلة • فلم تكن قوات عجم محمد وحليفه العاصية لتستأصل شأفتها • وعند تولى حسن ، كان اول عمل عمله تجنيد العبيد اتباع الشاوى ، وتوحيد انكشاريه الخواص مع اللاوند ، واغراء اتباع العدو بالانفضاض عنه • على ان أحمد الخليل قهر رتلين من جنود الباشا عند اول اشتباكه معهم • وعندئذ ارسل بخبر الى أحمد باشا بابان ـ وكان لا يزال ثابتا على حكم قره جولان بالرغم من جميع محاولات أخيه وباشا سوران فى كوى لعزله ـ يأمره بأن يسرع فى النجدة الى بغداد • فسار أحمد امتثالا لذلك ، لكنه مات قبل ان يصل بغداد • فخلفه بمهمته محمود اخوه الاصغر وقاد جيش البابانيين للالتحاق

بعثمان الكهية • فتمكن حسن باشا من القضاء على ألف من الرعاع العاصين واسر بضع مئات غيرهم بقوة المدد هذه • فلم يبق لعجم محمد واتباعه شأن يذكر ، ولم يصبح من المزاحمين للباشوية • الا انه واتباعه تمادوا فى قطع الطرق والاخلال بالامن ، مرة بالقرب من سور بغداد واخرى فى جبال لرستان • اما سليم افندى الذى سئم الشغب والفتنة فقد ترك البلاد الى استانبول حيث كان الموت ينتظره •

هكذا انقضى صيف عام ١٧٧٨ م وشتاؤه • وقد كان مركز حسن باشا يزيد تقلقلا يوما بعد آخر • فلم يرجع النظام الى نصابه فىاواسط العراق • كما ان القوة التى كان يستند اليها كان امرها مشكوكا فيه • وبان الخصوم فى افق العداواة • فنشأ حزب حديث والتف حول اسماعيل آغا الكهية السابق • وفى آذار ١٧٧٩ م بعث حسن نعمان آغا ليحكم البصرة وقد تخلى عنها الايرانيون فجأة • واضطر فى تشرين الاول ان يترك بغداد بالنظر لشدة المظاهرات المقامة عليه • ثم فر الى الموصل وفيها اخبر بتحويله الى ديار بكر التى توفى فيها •

وكان السلطان قد عـزم ـ رافضا عرائض اسماعيل واحتجاجات حسن ـ على اعادة توحيد الايالات الثلاث ، شهرزور وبغداد والبصرة ، الى حكم قوى مؤثر لا بد ان يقبل وهو حكم بطل البصرة الذى كان أوانئذ قد سرح من الاسر • وبينا كان مماليك بغداد قد جعلوا اسماعيل قائم مقام فيها طلب السلطان من سليمان الجليلى ـ المرسل ثانية الى الجنوب عند الازمات ـ ان يتسلم المدينة ويكون محافظا فيها • واستبدل بالباشا الموصلى اسماعيل ، الشاوى النبيل وجعل قائم مقام • وباتت جميع الطبقات ، وهى بين متهيج وفرح ومتحمس للقتـال ، ينتظرون حاكمهم الحديث • وكانت الغريزة الصادقة تؤذن بأن عهدا طويلا على وشك ان يبدأ •

الفصل الثامن

سليمان الكبير

حصار البصرة[1] واحتلالها

لم يكن بين المماليك المعتقين ، الذين تذكرهم عهود طفولتهم بحاشية حسن باشا وحصار بغداد العظيم الذى كانوا فى وقته صغارا ، بحيث لم يستطيعوا المشاركة فيه ، أمثل فى منظره الجميل وظرفه الاجتماعى وأدبه الجم من سليمان آغا . وقد تأيدت فى عهد أبى ليلة مواهبه التى كان يتوسمها فيه الجميع . فنال الحظوة والترفيع فى عهد الباشوات المتعاقبين من بنى جنسه ، حتى عين فى ١٧٦٥ م (١١٧٩ هـ) لاعظم منصب فى الباشوية (عدا منصب الكهية) وهو متسلمية البصرة . ثم نقل بعد ذلك بثلاث سنين وأعيد فى سنة ١٧٧١ م (١١٨٥ هـ) فكانت عودته بشرى للبصريين الذين كابدوا من عسف المتسلمين بعده ، عبدالرحمن والحاج سليمان ويوسف ، شيئا كثيرا .

بقيت الاحوال هادئة فى الميناء بصورة عامة منذ ان أخمد أبو ليلة الثورة فصارت حابطة فى سنة ١٧٥١ م (١٦٥ هـ) . وقد كان السكان والتجار الاجانب قانعين بالامن فى داخل المدينة بعد ان كان فقدان الامن فى الطرق البرية أجمع وشيوع القرصنة فى الشط معدودين من الامور الطبيعية . على ان التذمر من الجباية القاسية والعدل المهان واخذ الهدايا كرها كلها كانت لا يخلو من ذكرها كتاب عن ذلك العصر . وكذلك كانت حتى هـذه الاحوال ، وان قلت ازعاجا فى عهد بعض الباشـوات دون غيرهم ، عرضة للاستئناف فى ديوان بغـداد . ثم اصبحت التجارة رابحة سنة بعد أخرى . فكان للوكيل الافرنسى ـ وهو قس فى بادىء الامر وعلمانى فيما بعد ـ محل ثابت فى البصرة من بعـد ١٧٥٥ م (١١٦٩ هـ) . ورحل البرتغاليون عنهـا نهائيا . ثم انتقل الهولانديون الى جزيرة خرق سـنة ١٧٥٢ م . كما ان عـددا من الايطاليين كانوا يترددون الى الميناء ويقضون مآربهم التجارية ، وصار بوسع الارمنى واليهودى ان

---

(١) المراجع : اوليفييه (ج ٤ ص ٣٤٣) ، يوسف امين (ص ٤٥٠) ، بارسن (ص ١٥٤ ـ ٦٢) ، كيير (ص ٢٢٢) ، ايرون (ص ٣٧٩) . والمراجع العراقية لبقية العهد .

يعامل هناك الفارسي والهندي . واشتغل العرب اليمانيون بجلب القهوة من اليمن والرجوع الى بلادهم مستبضعين تمرا . وكانت شركة الهند الشرقية تستجلب من الخارج اللوازم المعدنية والاقمشة الصوفية فتستبدل بها الحرير الايراني والنقود . وقد قوي شأن ممثلها ، فرفع من رتبة مقيم الى رتبة وكيل في ١٧٦٣ م ، وعين قنصلا لدولته فأصبحت له صبغة قنصلية ايضا . فكان هذا حادثا يذكر بالنسبة لما حصل عليه الوكيل الافرنسي من قبل . على ان الدرجة التي حصل عليها الوكيل الانكليزي لم تكن من بابة الطمع السياسي ، بل كان ذلك تعزيزا لمركزه في مؤازرة رئيس المعمل والدفع لجور الاغوات ، ومزاحمة منه للاطماع الافرنسية هناك . وقد تلا ذلك تعيين وكيل آخر ، بالدرجة نفسها وللمقصد عينه ، في بغداد بصورة شبه دائمة . وقد ولي هذا المنصب سنة ١٧٥٥ م رجل ارمني ، ثم اشغله بعد عشر سنين شخص انكليزي .

وكان رواج الحركة التجارية في البصرة واستقرار الامور فيها من جملة الاسباب المؤدية لتوتر العلاقات بين الباشا في بغداد والوصي في ايران . ولو كانت هذه هي الاسباب الوحيدة لكان من الممكن ان يقتنع بها كريم خان . لان قليلا من الرخاء بقي بعد حدوث الطاعون المروع في ١٧٧٣ م (١١٨٧) . فقد كانت بقية هذا الوباء ، حسب وصف وكيل الشركة عند عودته في تشرين الاول من بومبي وكان قد التجأ اليها مع معمله في نيسان ، حامية قليلة العدد وأبنية معطلة ، وجرائم متزايدة ، وركود في التجارة ، وقليل من السكان الضعاف الذين تخطاهم المرض .

وما خفت وطأة الطاعون وزال شره حتى اخذ خطر الاحتلال ينمو ويتجسم . فقد شاعت الاخبار بتوقع هجوم ايراني على البصرة ، ولم يعدل الوكيل عن رأيه في افراغ خزائنه على وجه السرعة الا بوعود المتسلم وبراعته في الاقناع . وتمادى بنو كعب ، الذين لم تك سفنهم مفيدة للفريقين ، في تبيان خيانتهم المفعمة بالتذبذب . فبعد ان وعدوا الاتراك بالعدول عن محالفة الايرانيين والتخلي عنهم عادوا فأسروا سفينة تركية ، فأنقذتها منهم سفينة بريطانية . ثم استعادوا رجالهم من البصرة متهددين . فانقضت بمثل هذا الجو الملبد بالمخاوف سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) .

وفي منتصف الشتاء ، غزت بعض عصابات بني كعب البصرة ، فدل ذلك بصورة واضحة على ضعف البلدة . وعند حلول السنة الجديدة تجددت اشاعات الخطر الداهم ،

فبدىء بعقد اجتماعات يومية يجتمع فيها سليمان آغا والقبطان واشراف البلد والوكيل تداركا لما قد يقع من الحوادث . وقد كان فى الحامية أوائذ خمسة عشر ألف مقاتل ، الا ان الجنود الاجيرة الجديدة وقوة القبائل لم تكن تبلغ عشر هـذا المقدار . وكان معظم المدافع غير قابل للاستعمال ، وكان السور متداعيا والاستخبارات مقتصرة على المخبرين الاعتياديين . ولم تكن احتجاجات الانكليزى لتسمع حتى انقلبت المخاوف الى اخطار محدقة ، وعندئذ هب المتسلم لاعداد العدة بكل شدة ونفخ روح الدفاع . فجمعت الذخيرة من المؤن والعتاد واحضرت للحاجة ، ثم رمم السور ووزعت الواجبات . وقد كتب شاهد عيان اجنبى انه « لم يكن المتسلم شجاعا جدا فحسب بل كان فعالا ومنفذا . فقد كان طول يومه ممتطيا صهوة جواده وعاملا على الاستعداد للطوارىء . فكان مشغولا فى مراقبة ترميم السور وعربات المدافع وفى نصب المدفعية ... » . وكان الجميع يلومون الباشا فى بغداد على تأخره فى ارسال النجدة .

وفى السادس عشر من آذار وصل الى شط العرب ، بالقرب من مصب نهر السويب ، العدو الذى طالما توقع وصوله البصريون . فتخلت قوات المنتفك ، وكانت قد جعلت على الضفة اليمنى من النهر فى جنوب القرنة لمقاومة العدو ومنعه من العبور ، عن واجبها الذى نيط بها وتراجعت من غير انتظام . وتقدم الايرانيون بذلك من دون ان يلقوا مقاومة الى الضفة الغربية . وقد وصلت فى الوقت الى السلطات التركية والانكليزية كتب من صادق خان ، شقيق الوصى الايرانى ، طالبا فيها ايفاد مندوبين اليه للبحث عن فرض دية مناسبة ، فلم يجب بشىء . وبعد اسبوع وصل وفد من الخان يخبر بوجوب دفع مبلغ من المال قدره لكان من الروبيات فى مقابل سلامة البصرة . فلم يرد اليه ثانية اى جواب كان . وفى خلال هذه المدة وصلت الى الجيش الايرانى سفن من اسطول بنى كعب على الشط فالتحقت به ، وبذلك اتاحت له التسهيلات التى كان بأمس الحاجة اليها . وللوقوف فى طريقها وصدها جمع الباشا عددا من الزوارق الكبيرة ، وربط بعضهـا ببعض بالسلاسل ، وحصرها فى صدر نهر العشار . ثم ازدادت ثقة المدافعين التى ارسخها هذا الصنع فى نفوسهم عند وصول قوة مؤلفة من مائتى انكشارى ارسلوا من بغداد وعند اخبار النجدة لهم بخبر نجدة ثانية مرسلة بعدها فى الطريق . هذا عدا رجوع قسم من شيوخ المنتفك للانجاد كالشيخ ثامر ، وقد ابقى فى البصرة ، والشيخ عبدالله وقد اضطلع بحماية الزبير .

وفى السادس عشر من نيسان جعل الايرانيون معسكرهم على بعد ثلاثة اميال من شمال العشار ، وانبثت دورياتهم حول المدينـة • وهاجموا بعد ثلاثة ايام القسم الشمالى من البصرة فى ليلة حالكة الظلام ، وقد حاولوا ولكن بلا نجاح البتة تسلق السور مدة ساعتين • وابلى البصريون (وخاصة المنتفكين اتبـاع ثامر) بلاء حسنا فى الذب عن المدينة ، خاصة وكانوا يسمعون هلاهل[1] نسائهم وصرخاتهن داعيـات لهم بالتشجيع • وضبط القبطان بكل قواه صدر النهر ، فخاب الهجوم ، وما طلع النهار حتى شوهدت رؤوس الايرانيين معلقة على ابواب السور • وقد كان رجال البلد على الاطلاق مشاركين فى الدفاع ، وكانت المدفعية مؤلفة من الارمنى والزنجى والانكشارى والعربى على حد سـواء • حتى ان بعض الرهبان الكرمليين كانوا فى ضمن قوات سليمان آغا هذه • على ان روح الدفاع والعنصر الفعال فيه كان المتسلم الذى لم يركن الى الراحة طول مدة الدفاع •

غير ان الهجوم الليلى كبد الحامية شيئين • فقد فرت القبائل المنتفكية من الزبير ، وانسحب الوكيل البريطانى مع حاشيته مبديا بذلك أقل ما يمكن من الرفعة وسمو النفس[2] • وكان عملهم ذاك مخجلا وغير لائق ، لانهم زاغوا عن خطة الحياد التى كان يجب عليهم اتباعها بحق • فبمجرد ظهور الجيش الايرانى سارت سفينة بريطانية الى الشمال فاتصلت بصادق خان • هذا مع العلم بان الوكيل ورجاله كانوا بصحبة المتسلم من قبل على الدوام ، يركبون معه فيطوفون حول السور ، ويتداولون واياه ، ولا يألون جهدا فى التحذير او المشورة • كما ان موظفى الشركة حاولوا من دون جدوى منع الاسطول الكعبى من الانضمام الى الايرانيين ، كما كانوا قد ابدوا المساعدة الجلى فى انشاء الحاجز الذى وضع فى صدر العشار ، ثم طاردوا الاسطول الايرانى الصاعد من بوشهر الى شط العرب فى اليوم الذى سبق ليلة الهجوم • وبعد ظهور الشركة بهذا المظهر واتخاذها هذا الموقف الجلى اصبح اتصال الانكليز الذين كانوا فى السفينة الانكليزية التى اتصلت سرا بالايرانيين يعد نهاية مؤسفة[3] • وقد تعرضوا فى

---

(١) الهلاهل جمع هلهلة وهى مصدر هلهل الصوت اى ردده ترديدا ورجعه ترجيعا •

(٢) لقد اخطأ اوليفيه بذكره ان جلاء البريطانيين كان قبل الحصار • وقد بقى وكيل الشركة الافرنسية ، مع بعض الطليان الذين كانوا بحمايته ، فى البصرة حتى النهاية •

(٣) بارسنز (ص ١٨٦) • ان تصرف الوكيل ، المستر مور ، فى هذا الموقف كان ، بلاشك ، عرضة للانتقاد بوجه عام •

توجههم[1] الى شمال شط العرب الى قصف مدفعي شديد من سفن الايرانيين .

لم يهيىء ارتداد اسطول الشركة للايرانيين السيطرة التامة على النهر . فقد حالت مجموعة السفن التي وضعت في الشط دون المواصلة بين شمال الشط وجنوبه ، وكان للقبطان عدد من السفن التي كانت قادرة على مشاغلة سفن الاسطول الكعبي بمقدار عددها هي . وكان لدى الانكليز في بوشهر قوة[2] لا يستهان بها عندما كانوا يفاوضون كريم خان . وبعد اربعة اشهر حصل اتفاق بين المتسلم وامام عمان . اذ كان كريم قد طلب قبل سنة معاونة الاتراك له على الامام المذكور ، فلم يمنوه بما اراد . ولاجل ان يظهر امام عمان امتنانه من ذلك سارع في مساعدتهم ووعد بدفع الجراية لهم . فامسكت سفنه الاجيرة عنان الشط وضبطته طول صيف ١٧٧٥ م (١١٨٩ هـ) ، فتسنى بذلك امداد البصرة بالتجهيزات .

هذا ما يوضح بعض الايضاح المقاومة الطويلة التي كان بوسع المدينة ان تبديها . والحق ان حصار العدو لها لم يكن كاملا قط . كما ان طريقة الدفاع الشائعة ، المتضمنة كسر السدود واحاطة الماء على البلد ، لم تستخدم الا في نيسان ١٧٧٥ م . وقد مكنت مؤازرة جماعات من المنتفك وبني خالد ، في خارج المدينة ، القوافل من الوصول الى المدينة المحاصرة بالرغم عن تحالف المهاجمين مع الخزاعل واستفادتهم منها فوائد في مقابل ذلك . على ان الضيق داخل المدينة كان آخذا بالاشتداد ، ولم يقف سليمان آغا بوجه الحصار طويلا ويثبت امام العدو حتى نهاية شتاء ١٧٥٥ م الا بشق الانفس . وما بكر الربيع حتى كانت الطبقات الفقيرة على آخر دركات اليأس . فقد باعوا كل ما يملكون للحصول على قوتهم ، ولم يكن هناك اي عمل يشتغلون به ويتقاضون اجوره . فيأس الجميع من أمل المساعدة التي كانوا يتوقعونها من بغداد . وبقي صادق خان ، مرابطا ينتظر الاستسلام بكل صبره[3] ولما تلحق مدفعيته بالسور الا قليلا من الضرر .

وفي منتصف نيسان ١٧٧٦ م لم يبق في قوس الصبر منزع . فقد استهلكت الذخائر والمؤن ونفذت الحيوية كلها في داخل المدينة المحصورة . ولذا كان يبدو لهم

(١) كان الارمني المجازف ، جوزيف امين ، يقود السفينة « سكسيس » (بارسنز ص ٤٥١) .

(٢) كان بين سفن الاسطول في بوشهر السفينة « سي هورس » التي كان فيها نلسون ضابط صف بحريا . ويظهر من هذا انه كان زار البصرة مرة .

(٣) ان اوليفييه (ص ٣٤٧) يلوم صادقا عن تأجيل الهجوم الذي اعتمد به على مشورة المنجم . وكان يدير مدفعيته اناس اوربيون .

ان المقاومة اصبحت من غير جدوى ، كما انها كانت مؤدية لهلاك المئات من نفوس الجائعين . وقيل ان الآغا تسلم كتابا من بغداد يشار عليه فيه بان يستسلم لعدوه ، فتلاه على اعيان البلد المجتمعين ثم اضطر ان يرمى آخر قوس من كنانته . فأوفد الى مخيم الخان من يبحث معه فى شروط الاستسلام . فدخل بنتيجة ذلك الايرانيون بكل انتظام الى البصرة يقودهم على نقى وعلى محمد خان فى صباح اليوم الثانى . ولم يسمع باى عنف ولا فوضوية عند الدخول ، الا ان بعض الحوادث الطفيفة[1] قد وقعت حقيقة . وبعد اسبوع كامل دخل أخو الوصى الى البصرة دخولا رسميا . فوضعت فى البلد حامية مؤلفة من ستة آلاف جندى ، ثم ارسل بالمتسلم مع جماعة من اعيان البلد مأسورين باعتقال جميل الى شيراز .

كانت الدلائل الاولى تدل على اعتدال الحكم الجديد . فرجعت الشركة الى معملها . غير ان الايام السود كانت لا تزال فى طى الزمن ، لأن الايرانيين لم يكتفوا بالفتح الذى تم على يدهم كما انهم لم يكونوا مستعدين لترك اساليبهم الخاصة بهم . فان جمعهم لمبلغ عظيم من المال على سبيل الغرامة قد جاء بالنتائج المتوقعة ، فقد التزم الاغنياء بجمع المال مع انه لم يدفع ذلك المال فى الحقيقة الا الفقراء . فعم الجور وسوء الاستعمال وتعاظما ، وكثر الناس الذين كانوا يعتدون الوكيل حاميا لهم . وبذلك توسيت الاعمال المحزنة التى قامت بها الشركة من قبل لجر المغنم لها . اما صادق خان فقد احتفظ بالحاكمية واظهر من التساهل والروحية الطيبة ما يليق بأخ للوصى مثله . غير ان الحكم كان بيد محمد خان الشرس الذى لا ينفع فى الغالب خلال غيبات صادق الطويلة عن الحكم .

وقد عانى سكان البصرة اوانئذ تفشى الطاعون المروع ، والخدمة العسكرية الصارمة ، واهوال المجاعة ، واحتلال الجند الاجنبى للبيوت . ولو لم يكونوا منحطى القوى وخائرى العزائم لحدثت ثورة عامة تقضى على الحكم الايرانى . وعلى هذا لم يبق فى نفوس اهل البصرة الا بصيص أمل كان معلقا بالقبائل المجاورة . لان الحاكم الايرانى لم يكن بحوزته سوى المدينة نفسها وعدة من البساتين المجاورة . وكان المتفكيون فى هذه الاثناء الزمنية بالمرصاد لضعف او وهن يستغلونه فى الايرانيين . اما الخزاعل فقد كانوا يجلون فرمانات الخان ولا يخضعون لها قلبيا . ولم يتأثر البو

---

(١) وهذا يعنى عدم اعتبار ما يذكره كتاب « مطالع السعود » وكتاب « دوحة الوزراء » عن الفظائع المرتكبة على الطريقة المألوفة .

محمد ولا بنو لام بحصار البصرة او باحتلالها • وقد انسحب بنو خالد الى واحاتهم ممعنين نحو الجنوب •

وقد حافظت الزبير على حرية متقلقلة لبضعة اشهر • وفي اوائل ١٧٧٨ م (١١٩٢ هـ) سئم على محمد من حوادث الخطف السهلة ومن السرقات المتكاثرة التي كانت تجرى فيها ، فشن على البلدة اجمع غارة هوجاء خلوا من الرحمة • وحدث خلال المذبحة السهلة التي جرت في سكان البلد العزل عن الدفاع ان قتل جماعة من اتباع الشيخ المنتفكي • وقد تعزى لهذا الحادث كراهية المنتفكين الشديدة للايرانيين (مع حزازات اخرى غير مثبتة) • ويشير بعض المصادر الى موقعة قوبل فيها السخاء القبيلي بخيانة فظيعة • وقد أخذ الشيخ ثامر ، بغضا للايرانيين وكراهية لهم لا ولاء للعثمانيين، يدبر الخطط لتحرير البصرة • فكان الاصطدام الاخير بينهم بلغ مبلغا لا يستهان به • وقد توغل الايرانيون عدة اميال في بلاد المنتفك • فكانت قوة على محمد متألفة من ستة آلاف فارس ، ومن مقدار ذلك من المشـاة مع ثمانيـة عشر زورقا نهريا تحمل المدافع • وقد ترك محمد حسين خان محافظا في البصرة مع ألفي بندقية • واعتصم الشيخ في الفضيلة وهي من العرجة على عدة اميال • وقد دبر المنتفكيون حيلة تراجعوا فيها عن العدو فكانوا يعقبونهم بصورة متمادية حتى دخلوا في الفخ وهم لا يعلمون • فأصبح الايرانيون في فسحة من الارض المنبسطة قد اكتنف جانبيها عاقول[1] لنهر الفرات والجانب الثالث هور منيع غير مخترق • اما الجهة الرابعـة التي دخل منهـا الايرانيون معقبين عدوهـم المنهزم فقـد كمن فيهـا قسم من قوات ثامر ، وما انتهى الايرانيون من تعقيبهم الا وقد وجدوا انفسهم في ارض مرزغة تجافى عنها العرب • وما نزلوا بهذه التهلكة حتى ردوا على اعقابهم ، فوجدوا الجهات باجمعها موصدة دونهم • فهلك مئات منهم عندما حاولوا الفرار سباحة ، وقتلت مئات اخرى كان بينها على محمد نفسه • واستمرت المذبحة فيهم حتى أفنوا عن آخرهم ، ولم ينجح من الجيش بأجمعه سوى ثلاثة نفر فروا راجعين الى البصرة • وقد استغرق تنظيف ميدان المعركة بعد ذلك عدة اسابيع • وظلت عظام القتلى ، وكانوا كثيرا ، تشير الى هذه الموقعة الرهيبة مدة جيل واحـد •

---

(١) العاقول منعطف الوادى والنهر •

عندئذ عززت حامية البصرة عاجلا من شيراز ، ولكنها لم تعزز الى الحد الذى كانت عليه من قبل • وفتح صادق خان باب المفاوضة مع المنتفكيين من جديد ، ودعاهم الى الاذعان بشرف للنير الايرانى • فرفضت معروضاته وكان فى ضمنها جمل دينية فى مصلحة الشيعة • وقد كان ثامر يخبر بالتمام عن شؤون البصرة وقد قل سكانها حتى اصبحت كأنها قرية كبيرة لا غير • فخمدت فيها الحياة التجارية ، فكان ذلك مما أدى لسد معمل الشركة الانكليزية • وكانت اشاعات النجدة من بغداد والصلح المعقود مع ايران من منابع الامل الوحيدة • وفى ايلول ١٧٧٦ م (١١٩٠ ه) وصلت اخبار مفيدة بان مبالغ جسيمة وصلت بغداد لتدبير حرب مع ايران • وفى الربيع التالى كان الجميع يتوقعون وصول جيش منقذ من الشمال فى كل يوم • وبعد سنة قيل ان وفدا وصل الى شيراز • وعلى هذه الحال تطاول احتلال الايرانيين للبصرة فبلغت مدته اربع سنوات كان خلالها الاحتلال مكلفا للوصى كلفا عظيمة وغير مشرف ، ومهينا للاتراك ان لم يك مهددا لهم ، ومشؤوما على سكان البصرة •

وفى اوائل ١٧٧٩ م (١١٩٣ ه) عاد صادق خان من زيارة أخيه فى شيراز ، فشرع فى بناء حصن منيع واقع على الضفة اليسرى من الشط مقابل العشار • ولم يك هذا الا ظلا لحادث منتظر • وقد شيد هذا الحصن لاجل اخفاء انسحابه ان قضى أخوه نحبه ، وكان ينازع الموت فى شيراز ، ووجبت عودته هو نفسه بجميع قواته الى ايران • وفى منتصف آذار وافته الانباء التى كان يتوقعها • فبان شبح النزاع على العرش متمثلا امامه وبذلك لم يقو صادق خان على التأخر فى البصرة • فدعى اعيان البلد واعتمد عليهم فى تسليم حكومة البلد الوقتية اليهم ، ثم وعدهم بتسريح سليمان آغا وكان قد أخذ اسيرا الى شيراز - كما مر ذكره - • فقبل البصريون المرعوبون الحال الجديد من دون اضطراب فى وقت كان الايرانيون فيه يجلون عن البر والنهر من دون ان يلقوا نظرة الى وراء ، وغير ملوين على شىء •

تبوء الباشا الكبير : الرجل والزمن [١]

كان سليمان آغا قد قضى اربع سنوات في ايران . وكان خلال تلك المدة على اتصال مستمر مع البصرة بواسطة اصدقائه والخوجة يعقوب الصراف اليهودي الذي لم يكن يستغني عنه وأحمد آغا خادمه الخاص المترفع . وقد جعلت له في شيراز نباهته وحكمته اصدقاء كثيرين ، وقد تآلف على الاخص مع زكي خان ، أخي كريم لاحد والديه ، فاليه يرجع الفضل في عودة سليمان (لا الى صادق) الى حكومة البصرة . اما صادق خان ، احد المدعين الصرحاء بعرش ايران ، فقد تخلى عنه اتباعه وفر ينشد النجاة .

توجه الآغا مع زملائه الاسرى راجعا الى الحويزة حيث وقف متأملا بما يخبيء له القدر . اذ كان عدوه الشيخ ثامر مستوليا على المدينة ، وكانت بغداد قد بعثت من قبل نعمان آغا متسلما بالرغم من طلبات البصرة الملح فيها بتعيين أغاهم المحارب القديم الذي بعث اليه بالكتب المؤكدة بتوجهه اليهم . فطلب من نعمان تسليم الحكومة له ، غير انه لم يكن بوسعه ان يتقدم لتسلمها ما دامت قوات المنتفك مسيطرة على البصرة . فرفض المتسلم ذلك . وانحلت العقدة بموت ثامر في حرب بين القبيلة وبوقوع الشيخة من بعده الى ثويني العبدالله صديق سليمان (اوانئذ) . فطلب الى الآغا ان يدخل المدينة . ووصل في الوقت عينه الفرمان بتعيينه للايالة جميعها برتبة ميرميران . وفي الاسابيع القلائل التي بقي فيها عادت الحياة الى الطرق والاسواق في البلد وقد خيم فيها الفقر . على ان فكره كان متجها الى ناحية اخرى . فقد أصبح يشعر بانه الرجل الاول في العراق ، ولم يضع اية فرصة كانت في افهام السلطان بذلك . وكان ساعده

---

(١) ان المدة الواقعة بين ١٧٨٠ م (١١٩٤ هـ) و١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) والفترة التي حلت بعهدها وانتهت بسنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) موفاة الحق في البحث . وأهم مواردها « دوحة الوزراء » ثم « مطالع السعود » ثم كتابات ثابت افندي . ويتعرض كتاب « مرآة الزوراء » لهذه المدة عرضا . ويشتمل « غاية المرام » على ناحية خاصة من تاريخ هذا الزمن . ويلخص جودة باشا ما هو مذكور في دوحة الوزراء . وأهم الرحالين الذين كتبوا عن هذه الفترة سيستيني (١٧٨١) وفرانكلن (١٧٨٧) وهاول (١٧٨٨) واوليفييه (١٧٩٦) و جاكسن (١٧٩٧) وميرزا ابو طالب (١٨٠٢) . ولا يعتمد على ما كتبه ريج عن البابانيين .

القوى فى مشروعه هذا الوكيل البريطانى المستر لاتوش[1] المحبوب . فعاضد الوكيل مرشحه لانه كان صديقه ودائنه فى الوقت نفسه ، زيادة على انه كان وسيطه الخاص فى تحويل المبالغ العظيمة الى استانبول . ولذا لم يكن بوسع البادشاه ان يصم أذنيه عن هـذه التوسلات ، وقد تذكر تتابع الخيبة التى منيت بها حكومة بغـداد ، فأذعن للضرورة الماسة بتعيين مملوك آخر . فأنعمت الوزارة مع حكم الولايات الثلاث على المرشح السخى الذى تمكن من استرجاعها وحده .

وقد ترك سليمان آغا لمتسلمية البصرة القبطان ، ثم توجه الى بغداد فى ربيـع ١٨٩٠ م بقوة جسيمة من المنتفكين يقودها ثوينى وقطعة من جيش الزبير . فخف اسماعيل آغا جنوبا الى عرجة ليرحب به . فقابله سليمان ، هناك وفى الحال ، وازاله بقطع رأسه . ثم قتل ثلاثة من « امناء الصندوق » كانوا فى حاشية اسماعيل آغا ، وعومل الموظفون الصغار بالحسنى . وتوجه بعد ذلك الى كربلاء فزار فيها الضريح المقدس وصرف ثوينى الى موطنه . وقد استقبله سليمان الشاوى فى الحلة استقبالا رسميا ، واقيمت فى جسر المسعودى مأدبة رسمية ، حضرها جميع الاعيان والوجهاء ورجال الدين ، ابتهاجا بقدوم الباشا الحديث . وبعد ان خيم خارج بغداد مدة يومين سار توا لقتال عجم محمد واتباعه من العصاة مخترقا بذلك بغداد . فعبر ديالى وفاز بعد ذلك بظفر مبين ، فقد تشتت شمل المتمردين وقتل أحمد الخليل ، ثم فر الايرانى الممقوت الى لرستان . ولم يتسلم الباشا المملوك عاصمته رسميا الا فى تموز ١٧٨٠ م بحين هدأت مملكته .

ولا يعد سليمان باشا الكبير فى عداد ابطال التاريخ ، فلم يكن فاتحا ولا مقننا ، كما لم يقرن اسمه بأى حادث عالمى خطير ، ولا بحكم امبراطورية عظيمة . وكان يتحلى بصفات معجبة ، لكنها لم تكن من الصفات التى يندر وجودها فى الرجال . ولم يتفوق على مستوى العصر والبلاد ثقافة وتهذيبا . ومع ذلك كله فان لقبه لم يكن فى غير محله . فلم يتسن لباشا آخر فى بغداد ، مدة ثلاثة قرون ونصف ، ان لا يلقب

---

(١) ان الدور الذى قامت به الديبلوماسية البريطانية فى تحصيل هذا المنصب لسليمان باشا كان شيئا معروفا بالتمام فى ذلك الزمن . بريجز « الوهابية » (ص ١٨٧) ، ميسيتينى (١٦١) ، اروين (٣٣٩) .

الا بكلمة « الكبير » . والذى يقنع اكثر من المبالغات الشرقية فى الاطراء والمديح ما كتبه احد الانكليز[1] وكان متصلا به فى عدة مناسبات خلال سنين عديدة :

« ... ومن المحتمل ان سليمان كان أحسن نموذج وجد لباشا تركى . فقد ولد مملوكا ، فكان على جانب عظيم من جمال الرجال ـ وكان فى قوامه ووجهه من المعانى المؤثرة والمنظر الخلاب للالباب ما يبعث فى انفس الهيبة ـ ولاسيما عندما كان يلبس اللباس التركى المألوف . وكان بارعا بجميع الحركات العسكرية والرياضية براعة المتخصصين . كما انه كان مخلصا فى عمله متحمسا فى القيام بواجباته الدينية بالرغم من تساهله اكثر ما يمكن تركيا ان يتساهل به على من يدفعه ايمانه الى عدهم كفارا . كما انه كان متقنا فى اموره مقتصدا فى نفقته الخاصة بحيث كان يتهم بالبخل . اما ديوانه فقد كان زاهرا ، وكان بيته وما فيه كأنه بيت أعظم السلاطين . وقد نال فى اوائل ايام سيرته تقديرات كثيرة ومساعدات جمة من الانكليز ، فظل معترفا بها حتى آخر لحظة من حياته » .

ويذكر الكاتب نفسه الامثلة الطريفة على ظرفه وخفة روحه . وقد وصفه احدهم[2] بانه « رجل ظريف ، ذو سيماء مبهجة مفرحة ، ويعد شجاعا حقا » . وكتب عنه كاتب نقاده[3] وصل فى سنى حكمه الاخيرة ، فوصف حكومته التى تقاس بكل وضوح بحكومات من سبقه فى الحكم قائلا[4] :

« انه كان يتعهد الطبقات الفقيرة من الشعب بالرعاية ويلاحظ الموظفين الكبار لئلا يرتكبوا بينهم ما لا يتفق والعدالة او ما يعد من الاعمال الجائرة . ولم يصبر على القلاقل التى كانت تسببها القبائل فى الملاحة على النهرين . وقد كان يشجع التجارة ويحميها بجميع الوسائل .... اما شجاعته فيقدرها الجميع حق قدرها ، وكانت معرفته بشتى الفنون الحربية مما يزيد فى قدره كثيرا . وقد حبب نفسه للناس بالسلم الذى وطده والامن الذى مهده ، حتى اصبحت لحكومته هيبة كبيرة . وقد أظهر فى جميع الاحوال

---

(١) هارفورد جونز ص (١٩٠ ـ ١٩١) .

(٢) سيستينى (ص ١٦٣) . (٣) اوليفييه (ج ٤ ص ٣٥٠ ـ ٥٢) . (٤) ترجم عن النص الافرنسى المدرج فى الكتاب (المترجم) .

والعهود شتى ضروب الجسارة والنشاط • وكنت تراه معنيا باستمرار بكل صغيرة وكبيرة من امور الادارة ، سامعا بنفسه شكايات البائسين فيعطيهم حقهم ويحكم لهم بالعدل ٠٠٠»

وبدخوله الى بغداد يبدأ العصر الذهبى لحكومة المماليك فى العراق • فقد كانت ظاهرة وقوع السلطة المطلقة بايدى المماليك المعتقين المجلوبين من الخارج تزداد وضوحا وتقرب من الحقيقة طوال مدة تزيد على ثلاثين سنة • ثم قدر لحكم العراق ان يقع لمدة خمسين سنة اخرى بيد الباشوات المنتمين لهذا الدم الاجنبى وحدهم والسلطان فى حال يضطره على السكوت على ذلك • وليس فى التاريخ ما يشير الى ظهور اى خصم كان على طول العهد الطويل الذى حكم فيه سليمان باشا • اما المنازعات التى تلت وفاته فقد كانت فى الغالب منازعات بين المماليك المتخاصمين • ولم تسنح الفرصة لزوال آخر الحكام المماليك من بغداد الا بمصادفة انتعاش العالم اثر وقوع الثورة الافرنسية ، وسريان الروح الغربية فى الاتراك الى حد ما ، ووجود سلطان مصلح ، وتدنى الحالة فى العراق بسبب ضربات القدر الخارقة له •

اما مصر المماليك ، فقد حكم فيها الجراكسة قبل زوال ملكهم نهائيا زهاء قرن واحد وليس للراية التركية عليهم الا ظلها وللحاكم التركى الذى يبعث كل سنة من استانبول الا اسمه • واما العراق فقد كان الحاكم المملوك فيه هو الباشا العثمانى بنفسه ، الذى يعين ويصادقه على تعينه البادشاه كل سنة • وعلى هذا فقد كان يحكم باسم السلطان وان كانت فائـدة السلطان من حكمـه ضئيلة ، وكان بين موظفيه وقواتـه اتراك من استانبول • على ان الحكومة المركزية لم تنقطع عن محاولتها لتعيين الحكام من الخارج الا عند تبوء سليمان الكبير • فكان ظهور أبى ليله وتعالى شأنه شيئا مقحما عليها ، وقد صمد للجهود التى كانت تبذل فى تنحيته حتى تغلب عليها • فلم ينح عمر باشا لانه كان رئيسا للمماليك • لان المشاكل الخاصة التى تطبع الحكم فى العراق ، ووجود المماليك الاقوياء ، واشتغال الحكومة المركزية بنضال طويل عنيف ختم بالخسران فى اوربة ، كل اولئك ادى فى الاخير الى استتباب حكم السلالة المحلية الى ان بدل كل شىء ظهور قوات جديدة فى الخارج والداخل •

ومن الاهمية بمكان ان تعرف العلاقات الشاذة التى كانت حينئذ بين حكومات العراق المتعاقبة والامبراطورية • فقد كانت أعم ظاهرة فى هذا الدور من ادوار الانحطاط

العثمانى العصيان التام . فيذكر التاريخ التركى ان نفوذ السلطان « كان لا يعترف به الا بعد لاى ، ولو اسميا ، فى كثير من أحسن ولايات الامبراطورية التى يدعى السلطان نفسه بتابعيتها له » . ثم يستأنف التاريخ التركى وصف بلاد العرب الوهابية ومصر المماليك بمثل ما يلى :

« وفى سورية ما كان الدروز ومتاولة لبنان والبلاد الجبلية من فلسطين الا قبائل مستقلة لا سلطة لاى حكومة عليها . وكذلك كانت الحال فى البلاد التى فى شمال اليونان . اما سكان الجبل الاسود والهرسك ومولدافيا ووالاسيا فانهم كانوا قد رجعوا لحوزة النفوذ التركى ، الا ان ذلك لم يكن الا شيئا ظاهرا لانهم فى الحقيقة كانوا خاضعين للنفوذ الروسى ..... هـــذا وكثيرا ما كان الباشوات فى مختلف انحاء الامبراطورية يشقون عصا الطاعة ويتمردون على السلطان فيحاربون جيوشه . ومن هؤلاء أحمد باشا الجزار الذى اعتصم فى عكا فأبى دفع الاتاوة للسلطان وقتل رسول السلطان اليه . وعلى هذا المنوال نهج باشوات طرابزون واخالزيك . وقام فى ودين بصوان اوغلو الشهير وناوأ السلطان وقواته بضع سنوات كأنه خصم اجنبى مستقل . وهذا قليل من كثير من حوادث العصيان والتمرد العديدة التى عرفت فى هذا العهد[١] » .

ومن بين اوجه الانشقاق والثورة المؤلمة العديدة كانت الحالة فى العراق اكثرها استدعاء للانتباه . فلم ينفك الباشوات المماليك فى العراق يظهرون تعلقهم بالسلطان ، وكانت تؤيد ذلك المراسيم العامة العديدة . فكان اسم السلطان يذكر فى الدعاء والصلاة ، وعلى النقود وتقديم التقارير باستمرار ، والارسال بالهدايا احيانا ، ثم الارسال بالاتاوى فى بعض الاحايين . وعلى هذا فقد كانت الجيوش السلطانية تمشى جنبا الى جنب مع جنود الباشا المملوك فى تأديب العصاة وحفظ الامن . وكثيرا ما كان الباشوات المماليك يرجحون على غيرهم ممن كان يشترى الحكم والنفوذ فى استانبول . وكان هم هؤلاء المماليك حماية البـلاد من الايرانيين والوهابيين ، وتحاشى الحرب مع الجيران بقدر المستطاع ، ثم تجنب شق عصا الطاعة على الدولة . ولم يكونوا ليقصروا على الارسال بالمال لتسيير الحروب التى كانت تشنها الدولة فى مختلف الاوقات والاماكن . غير انهم مهما كانوا يظهرون من الحب والحماسة لدولتهم وللامبراطورية التى كانوا تبعا لها

---

(١) كريسى (ص ٤٤٧ – ٤٨) .

فقد كان كل ذلك فى سبيل توطيد مراكزهم واجتذاب القلوب الى انفسهم لانهم كانوا دخلاء • فان اكثرهم كانوا قد ولدوا نصارى ، كما لم يكن اى احد منهم تركيا • وكانت سلطتهم تستند الى اخوة عنصرية تجمع أهل البلد الواحد فى بلاد غريبة كانوا يبقون فيها عبيدا لو لم يتسن لهم حكمها • وفى نصف القرن التالى كانت سلطة الباشا المملوك ، المستندة الى المؤسستين الملكية والعسكرية الوحيدتين فى البلاد ، سلطة الملك المستقل • فأصبحت سلالة نصف وراثية ، غير تركية ولم تساعدها فى ايصالها لهذا الحد الحكومة التركية ، متأصلة الجذور الى حد بقى السلطان معه مدة خمسين سنة لا يعد العراق الا جارا محترما • وهكذا كان يظهر الحال لمن كان مقيما فى استانبول[1] • على ان الفرمان شبه المقدس كان يتنافس عليه المماليك المتخاصمون بصورة جدية بقدر ما كان يبديه السلطان من عدم الاهتمام فى الانعام به على هؤلاء الاجانب الحقيرى المولد المغتصبين الذين لم يرهم قط • وكان هذا العجز الفعلى الذى كان يبدو من السلطان فى الهيمنة على ممتلكاته مقبولا عنده مع امتعاض منه كان يزداد شيئا فشيئا كلما انتشرت روحية الاصلاح فى اوربة ومرت الحقبة تلو الاخرى من الزمن من غير ان تستعاد خلالها بغداد الى الحظيرة • ومع هذا فان الانحراف لم يكن تاما ولم يشعر احد بدوامه ، كما لم ينفك ملطفا بكل اعتبار خارجى • لان كثيرا من الولايات الاقرب من العراق قد ذهبت لابعد مما ذهب اليه هو من الانشقاق المخطر وعدم الموالاة العدائى •

القبائل والاتباع ١٧٨٠ — ١٨٠٢ م

كان سليمان باشا قد نيف على الستين من عمره عندما تقلد زمام الحاكمية فى بغداد • وكان امامه حينذاك عهد من الحكم يناهز الاثنين والعشرين عاما • ولم يبد فيه الوهن الذى يقعد الا عندما قارب عهده الانتهاء • ومع هذا فان من يحكم فى بلاد تمتد من منطقة الاكراد المليين فيما وراء ماردين شمالا الى نهر كارون فى الجنوب ، تلك البلاد التى اضعفها الطاعون الفتاك اخيرا والحروب الداخلية ودخول الجيوش الاجنبية ، المشحونة على الدوام بانواع الانقسام والاضطراب لابد له ان ينهى مدة حكمه فيها وقد أعياه التعب ونهكته الحوادث الجسام بالرغم من مدى قوته وبأسه • وقد قدر للحاكم الشيخ ان يشهد اغتصاب الحكم وفعل الدسائس المخطرة فى البصرة ،

(١) ايتون (ص ٢٧٠) •

وان يكون له حليف بمقام العدو فى شهرزور . وان يجد الاتحاد العشائرى العظيم فى الفرات الاوسط قد تعاظمت قوته التى لم تكن بجانبه . وان يرى اشتداد الخصومات فى الموصل وحاجة ذلك الى الردع ، والهياجات فى ماردين وضرورة تهدئتها . هذا وان الحوادث فى سنجار او بنى كعب وفى العمادية او العتبات المقدسة كلها كانت تشغل الحاكم الشيخ ومشاوريه وتتعبهم حتى فى وقت كانت فيه حالة الاعداء الحديثين فى بلاد العرب تنذر بالخطر . كما قدر له ان يرى رجال حاشيته يصيرون ثوارا ، وان يشهد سفك الدماء بأم رأسه . وعلى هذا فان الجهود المتواصلة كانت شيئا ضروريا للاحتفاظ بأقل احترام للباشا او للخليفة . على ان الامن كان مستتبا فى كثير من اصقاع العراق . كما كانت التجارة برواج اعتيادى ، وكانت الحياة فى داخل المدينة مؤنسة هادئة لا غبار عليها . وكانت فى حامية بغداد قوة كبيرة مخلصة . وعلى هذا كانت الواردات ، المستوفاة من غير عنف ، كافية لاحتياجات البلاد وللارسال بالمبالغ الكثيرة الى استانبول لتعزيز جيوش السلطان فى مصر . والحقيقة هى ان هذا الدور الذى نحن بصدده قامت به باشوية عظيمة بطول امدها وبثروتها واعتدالها فى الحكم ، غير انها ، لو نظر اليها عن كثب ، كانت مشوهة بأمراض العصر والبلاد « المستوطنة » .

وقد رحب المماليك وسائر السكان على سواء بالعهد الجديد الذى يدعو الى التفاؤل . الا ان التباعد بقى موجودا بين الطبقتين . فلم يكن مرضيا عند وجهاء بغداد القدماء ان يشاهدوا ان الاغوات الكرج يستأثرون بالمناصب الكبيرة والمزارع المغلة . وما كان يدعوهم للسكوت والقناعة والرضا بالحال الا تفضيلهم وجود حاكم حازم على حاكم متحيف جائر يبعث من استانبول . ولذا تلاشت الفوضوية من الشوارع بفضل الحزم والشدة ، فعاد التجار من ايران او خرجوا من مخابئهم . ثم انتعشت بغداد وسرت فيها روح جديدة . على ان الريف المحيط بالمدينة لم تسرب فيه الحياة بسرعة . وكان للفوز الذى احرزه الباشا فى منتصف صيف ١٧٨٠ م فى استحواذه على الموقف وقع كبير تلاشت امامه كل مقاومة قوية . بيد ان الجرائم لم تستأصل مرة واحدة ، بل قضى عليها بالتدريج . وكانت مشكلة الباشا المباشرة عدم وجود ما يكفى من القوة المخلصة . فان الانكشاريين المتفككى السيرة الذين لا يعرف ولاؤهم كان خطرهم اكثر من نفعهم ، كما ان سريات المماليك كانت قليلة ومبعثرة . ومع ذلك فكان جل اعتماده يجب ان يكون عليهم . فبادر بكل سرعة لجمع اول رعيل منهم ،

فجمع - من الداخل ومن الخارج - ألف مملوك واخذ يدربهم تدريبا متعبا . ثم عين للانكشاريين ضباطا اختارهم بنفسه . وخاطر من بعد ذلك بتوزيعهم على مراكز الفرات الاوسط والخالص بدلا من ابقائهم متجمعين في بغداد في وقت بقى فيه مركزه مهددا لعدم اتمام تدريب المماليك بعد . واعدم عددا من رؤساء الانكشاريين بقسوة علنية لارتكابهم جرائم صغيرة ، كما كافأ المخلصين المفيدين بكل بذله وسخائه . واقصى قسما منهم الى خارج العراق فالتحقوا بوحدات دمشق والحجاز .

وحضر اكبر رؤساء القبائل في العراق الاوسط لتقديم الطاعة بنفسهم في خريف ١٧٨٠ م . فاعتيق قسم منهم بتعينهم في وظائف شرفية ، وكان الوسيط بينهم وبين الباشا الحاج سليمان - شيخ العبيد رئيس الاسرة الشاوية - المعروف مشاورا وديبلوماسا . ولم يدون من تاريخ قبائل الفرات الاعلى وديالى ودجلة الوسطى مما يختص بهذه السنين الا النزر اليسير . فقد ظلت هذه القبائل هادئة من غير ان تحتاج الحكومة لتجريد الحملات عليها مدة طويلة من الزمن مما اضطر تجار البصرة ان يستريحوا (كما يذكر الوكيل) الى اتخاذ طريق دجلة على ما كان يطوقهم من التأخر والكلف ، لانه كان اكثر امانا . ولم تضطر الحكومة لتأديب قبيلة زبيد الا في ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ)وذلك حين دعت الحاجة لارسال قسم من الجيش بقيادة الكهية لتأديبهم جزاء قطعهم الطريق البرية والنهرية وتأخرهم في دفع الضرائب . ثم سار الجيش لتأديب قبيلة ربيعة في السنة نفسها . وفي سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) عزل شيخ بني لام فكان لعزله تأثير سيء من دجلة الى لرستان ادى لاشتعال نار الفتنة . وقد كتب الوكيل البريطاني عن هذا الحادث ان « الشيخ المعزول هاجم الشيخ الحديث الذي عينه الباشا وزجت البلاد في احضان اضطراب شامل من الكوت الى جصان فما حول الحويزة .... وفي عدة مناسبات عاملت الحكومة عرب شمر بكل قسوة ... » . ويدل ذكر شمر على ان حادثا قبليا ذا بال كان يجري اوانئذ ، وهو هجرة شمر من غرب الفرات الى شرقيه بتأثير ضغط عنزة عليها . فقد انتشرت نواقل هؤلاء في انحاء السهل الواسع الواقع الى شمالي المنطقة التي بين الدجيل والدليم فسنجار وما وراءها ، وعبر فرع منهم وهم شمر طوقة نهر دجلة فاحتل ضفته اليسرى من ديالى الى ما يقرب من الكوت . وكان لهذه الحركة تأثير عظيم سرى فعله الى ديرات مئات من القبائل التي استبدل

قسم منها بمكانه مكان غيره • ومن جملة ما حدث بتأثير ذلك انتقال العبيد وعبورهم دجلة من الجزيرة الى الحويجة متخطين بذلك جبل حمرين •

اما الفرات الاوسط فقد كانت تبعث اليه ارتال الجيش واحد بعد آخر ، فى كل سنة تقريبا ، لتأديب الخزاعل • وكانت عدة شهور تقضى فى التأديب تدل على ان محاولة توطيد دعائم الامن فى هذه المنطقة كانت بلا فائدة • لان شيخ الخزاعل حمد الحمود أبى الخضوع اباءا باتا وامتنع من الانقياد لكل نظام او تحديد • ولم يعبأ بما كان يراه من الاستعدادات الحربية ولا بوصول الانذار النهائى اليه الملزم له بالخضوع • فاضطر سليمان الى ان يقود جيشه بنفسه ، والتقى بالخزاعل فانتصر عليهم انتصارا باهرا • فالتجأ الشيخ حمد الى كسر السدود والسكور وغمر الاراضى بالمياه ، فكان تأثير ذلك فى العدو غير قليل • الا ان الباشا قابل هذا العمل ببراعة • فقد سارع فى سد الكسرات الشمالية وبذا قطع تدفق الماء الفائض ، فنزل مستواه ومن ثم امكن تقدم الجيش • وعندئذ هرب حمد الى غربى الفرات • فأمكن جمع الضرائب المتبقية من تلك القبائل واستيفاء الغرامة المفروضة عليهم جزاءا للعصيان الاخير • ثم اعلن العفو ورجع السلم الى نصابه فى تلك الديرة • وتكرر مثل هذا الحادث العصيانى التأديبى فى منطقة شبيهة بتلك هى منطقة الشامية ، وكان ذلك فى ١٧٨٢ م (١١٩٧ هـ) و١٧٨٤ • فترك بسبب فقدان الامن طريق الفرات النهرى هذا • وكذلك تورط الخزاعل فى اضطرابات المنتفك الحادثة فى عام ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) • وبعد خمس سنوات بدأت من جديد سلسلة الحركات التأديبية المتعبة ، واستمرت الى ما بعد ابتداء القرن الجديد •

كان هؤلاء اسوأ المكدرين لصفو العراق الاوسط ، لكنهم لم يكونوا الوحيدين من نوعهم • فان العداوات التى امتدت حركاتها مدة طويلة مع العبيد ، وكانت بسببها حتى ضواحى بغداد مهددة غير آمنة مدة سنوات خمس ، كانت تدل على كون سلطة الباشا محدودة • وكان منشأ هذه العداوات فى هذه المرة تصادم الشخصيات لا الاسباب الاعتيادية التى كانت تسبب اضطراب القبائل • فقد ذكرنا سابقا أحمد آغا خادم سليمان الخاص • وقد تطورت سيرة هذا الخادم فارتقى من موضع القيام بأحقر الواجبات الى ان اصبح معتمد سيده وخله الوفى ، وغدت وظيفته وظيفة المهردار

(حامل الاختام) المهمة • ولذا اصبح بطل المماليك (الذى وقف يذود عنهم فى السنين المقبلة) والشخصية البارزة التى كتب لها ان تكون الشخصية الثانية بعد الباشا خلال مدة تناهز اثنتى عشرة سنة • وقد نال فى ١٧٨٥ م (١٢٠٠ هـ) شرف تعيينه برتبة مير ميران فى منصب الكهية ، وهو ذو الوجه الجذاب للقلوب والقامة المشوقة ، المهيب ، الاديب ، المترف ، المؤثر فى جميع الناس بحنوه واعتداله • فكان لتعيين هذا الحقير المترقى وقع سيىء فى نفوس المرشحين من الاشراف وذوى الايام المشهودة ، وخاصة الحاج سليمان الشاوى • وقد كان بين هذا العبد المعتق والعربى الارستقراطى من الحقد المر ما نشأ من قبل وتأصل • فكان كل منهما يسمع الباشا ما يريد ، الا ان الحاج كان اكثر منعة وقوة وكان أحمد اكثر تحببا • فملأ أحمد عند ترفيعه اذنى سيده بقصص عن خيانة الشاوى ومخابراته ومخامراته فى هذا الباب وعن اطماعه الخطيرة • ولما اقتنع سليمان باشا بكل هذا أمر بمصادرته على كل املاكه ، وأمره بترك بغداد • ففر الى قبيلته فأعلنت لاجله الثورة فى الحال ، فأرسل أحمد فى اوائل ١٧٨٦ م قوة لقمع الثوار • فتراجعوا امامه من منازل العبيد الى تكريت ، ومن تكريت الى الخابور • وما رجع الكهية حتى عاد الحاج سليمان • ثم زاد فى الطين بلة حدوث بعض العوارض الطبيعية المؤلمة • فقد كانت زيادة ماء الانهر فى ربيع ١٧٨٦م (١٢٠١هـ) قليلة جدا ، كما لم تهطل الامطار فخاب الزرع والحصار فى كل مكان • فارتفعت الاسعار وبلغت حد احداث المجاعة ، فبادر الباشا بتوزيع حبوبه المدخرة • ثم التجأ الكثير من الناس الى الارياف ، ومات ناس اكثر منهم جوعا ومرضا ، فخيم البؤس واصبح خطرا على الحكومة • وتجمهر الناس فى بغداد واخذوا يشتمون الباشا لكونه سبب المجاعة • وانتشر العنف فى جو اليأس والخرافة المهيأ ، حتى اضطر الباشا فى الاخير لتوقيف رؤساء الجموع وتفريق المتجمهرين بقوة الجيش • فاعيد النظام الى نصابه على هذه الشاكلة حتى ازالت الطبيعة سبب الكارثة •

وظل الشاوى يعيث فيما بين الخابور وضواحى بغداد فسادا • وقد انضم الى جيشه القبلى كل متشرد او هارب كانت تلفظه القرى والمدن • فأصبحت الطرق والبساتين حول بغداد غير آمنة • وارسل الكهية من جديد للقضاء على خصمه غير انه باء بالخسران المبين • ثم ضغط العبيد ومن يتبعهم بالتضييق على بغداد بعد ان سكروا بخمرة الظفر ، حتى استدعت الحال تنظيم امور التحصن • وكان التجار والموظفون

فى الموصل والبصرة يترقبون اخبار الثورة بكل اهتمام • وفى هذا الظرف الزمانى العصيب اذهل الجميع خبر شاع عن تعيين الحاج الثائر فى منصب البكلربكى للولايات الثلاث • فصدق الاشاعة الحاج سليمان نفسه ، وطلب تدخل وكيل الشركة فى الامر • الا ان الحكاية كانت غير حقيقية ، وبقيت الفوضوية مستفحلة والامن مفقودا لحد لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الكاظمية والكرخ معه الا بواسطة عقيل والا بشق الانفس • واخيرا انفرط عقد الاتباع عن الشاوى الذى بات يخشى التصادم مع جيوش الباشا ، ففر هاربا الى الشيخ ثوينى فى سوق الشيوخ •

كان شيخ المنتفك العظيم هذا قد تمكن من ابقاء عشيرته موالية هادئة مدة اعوام ستة • كما انه ساعد متسلم البصرة مساعدة جمة فى الحركات التى دبرتها الحكومة على بنى كعب فى ١٧٨٤ م • على انه كان قد اختبر فى تلك الحملة مقدار ضعف الاتراك ومقدار اخلاص اتباعه له •فحان للشاقول ان ينحرف ، وبانت البصرة فى الاذهان ملوحة بخيراتها للقبائل العطشى الى المال وقد عيل صبرها • واخذ الشاوى الثائر يشارك فى مجالس القبائل المتداولة لهذه الشؤون • فكان اول المنضمين للمنتفكين حمد شيخ الخزاعل • وعلى هذا تقدمت قواته الى الزبير وفيها قبض على ابراهيم بك ، وقد كان متسلما فيها منذ ١٧٨٥ ، مع حاشيته دون انذار ولا مراسيم وبقى معتقلا اعتقالا ضيق عليه فيه • وارسل ثوينى فى اليوم التالى قسما من خيالة المنتفك ، فدخلت البصرة واستولت على السراى ثم فرقت الحامية وشتتت شملها • ومع ذلك كله بقى البلد سالما من الاضطراب الى ان دخل ثوينى مع خمسة آلاف من رجاله فى اليوم الثالث • فعادت حكومة البصرة حكومة عربية قبلية • ثم اعتقل رؤساء الدوائر الحكومية وضباط الاسطول وصودرت املاكهم واموالهم ، كما فرضت على سكان البصرة غرامة قدرها ستة آلاف تومان •

وبينا كان الشيخ معدا سيفه للكفاح كان قلمه مشغولا ايضا • فقد سهل عليه ان يحصل من سكان البصرة وهم مذعورون عريضة ، ممضاة بالامضاءات الكثيرة ، يطلبون فيها اعتراف السلطان بحاكمية ثوينى عليهم • فأرسل بها الى استانبول بعد ان قدمها تقديما قويا ومتواضعا فيه معا • وفى الوقت عينه غادر بقواته المدينة وخيم على الفرات منتظرا الجيش المنتقم الذى كان يتوقع قدومه من بغداد • وبقى اخوه نائبا عنه فى البصرة •

اما سليمان فقد بعث على حسب العادة الى اكراده فى درنه وبجلان ومنطقة البابانيين • ثم استعار جماعات الانكشاريين من الجليلى ، وكتب الى شيخ بنى كعب يناشده المعونة • وانحاز اليه حمود الثامر خصم ثوينى • فدخل الجيش ديرة الخزاعل ، ونزل فى اواخر تشرين الاول ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) الى ام العباس فى بلاد المنتفك وفيها وقعت موقعة حامية دامية انكسر فيها ثوينى وقواته ورجعوا هاربين من مراكزهم متفرقين ، فاسترجعت البصرة من غير معارضة • وقد عين حمود الثامر شيخا للمنتفك ومصطفى آغا متسلما فى البصرة • وجمع الباشا من المدينة غرامة جسيمة ، ثم ضاعف الرسوم الكمركية للمدة الباقية من السنة • وبعد ان ترك فى البصرة حامية من اللاوند غير النظاميين عاد الى اواسط العراق[1] • وبعد مرور عدة اشهر بعث الحاج سليمان الشاوى يطلب الصلح فحظى بالعفو على شرط عدم اقامته فى بغداد •

على ان اضطرابات البصرة لم تكن لتنتهى اذ ذاك • فبعد ان هدأت الحال فيها مدة سنة واحدة اكتشفت فيها مؤامرة مخطرة دخل فيها اكبر الضباط فى العراق الجنوبى وحكام شهرزور • فانالمتسلم الكردى الحديث فى البصرة ، المنساق على وجه الاحتمال ببعض الشعور العنصرى زيادة على الطمع ، خدع حاميته المؤلفة من جنود اللاوند وكتب الى عثمان باشا بابان لتدبير ثورة تضرم نارها فى وقت واحد ويستهدف بها استقلالهما كليهما ، كذلك اجتذب ضباط البصرة الى جانبه بالرشوة والهدايا • ثم بعث على الثائر ثوينى وكتب فى الوقت نفسه الى بغداد بأن لا قبل لحمود الثامر بالمشيخة ومن الواجب اعادة الشيخ السابق الى مشيخته • غير ان سليمان باشا كان قد اطلع على كل شىء • فصادقه حقيقة على اعادة ثوينى ، الا انه نقل فى نفس الوقت قائد خيالة

---

(١) قال ياسين العمرى فى حوادث سنة ١٢٠٢ : « سار بالعساكر الى بغداد الوزير سليمان باشا الى جهة البصرة وحاصر عرب المنتفك وفيهم الحاج سليمان بك (الشاوى) وعملوا مصافا فقتل من العرب نحو الف نفس وقتل من العسكر نحو خمسمائة نفس وهرب الحاج سليمان والامير ثوينى وتبعهم الامير خالد آغا ونهبت الخيام والاموال ، وجعل فى البصرة واليا نعمان افندى الدفتردار وعاد الى بغداد واستولى على املاك الحاج سليمان بك ثم ارسل الحاج سليمان بك يعتذر الى الوزير من تقصيره فعفا عنه واعاد عليه املاكه ثم قدم الامير ثوينى وطلب الامان فعفا عنه وأمنه وتركه فى بغداد مكرما ثم قدم الامير خالد آغا فعفا عنه وقبل عذره واستخدمه وقربه •

البصرة الى بغداد وبعث محمدا الشاوى الى البصرة يحمل تحذيرا عاما للمتسلم ورجاء خاصا الى القبطان باشا . وكان مفاد الرجاء ان يخلع المتسلم بضربة فجائية . على ان القبطان مصطفى الحجازى أساء تدبير الامر ، فكلفه ذلك عقوبة قطع رأسه . فتطايرت الانباء الى بغداد ، وبات الكل ينتظرون حملة تأديبية .

وبقى ديوان بغداد جاهلا بمكيدة شهرزور حتى اماطت اوراق مصادرة اللثام عن طمع الباشا البابانى فى ولاية بغداد نفسها . فما كان اسهل على الكردى ان يزحف نازلا على بغداد العزلاء لو سار سليمان مع جيشه الى البصرة ! عندئذ سارع سليمان فى توجيه كتاب فيه وعود مغرية الى العاصمة البابانية . فقد طلب ابنته بكثير من اللطف والبشاشة لتزويجها بأخى الكهية . وبهذه الوسيلة عزل البابانى عن قواته وعن تأثير حليفه فى البصرة . ثم تحركت فى شباط ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) قوات بغداد ، فكانت الحملة غير ماحقة . فما وصل الجيش الى البصرة حتى انهارت المعارضة . وفر مصطفى بسفينة الى الكويت[١] وقصد ثوينى البادية[٢] . فأعيد حمود الى مشيخة المنتفك ، وعين

---

(١) اما عاقبة مصطفى الفار الى الكويت فقد ذكرها ياسين العمرى فى حوادث سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢ م) قال : « وفيها قدم الموصل مصطفى آغا متسلم البصرة سابقا وكان قد عصى فى البصرة فأرسل والى بغداد يأمر قبودان باشا مصطفى بقتل العاصى « مصطفى آغا » فبلغه ذلك ، فاستدعى مصطفى باشا وقتله صبرا وهرب الى مسكت « مسقط » ثم الى الروم واتصل بخدمة ابراهيم باشا والى ارفهولما قدم والى بغداد الى نواحى ارفه الى حرب تمر باشا هرب مصطفى آغا واتصل بوالى المعدن يوسف باشا فتشفع فيه عند مخدومه فعفا عنه فقدم الى الموصل فأرسل كتخداه والى بغداد خفيه يأمر بقتله فقتلوه فبلغ ذلك الوزير سليمان باشا فشتم كتخداه على ما فعل » « م. ج »

(٢) التجأ ثوينى الى الكويت ولم يكن بوسع سليمان تعقيبه الى هناك ، ورحل بعد ذلك الى الدرعية عاصمة الوهابيين . واعفى من بعد ذلك فى ١٧٩٢ م (١٢١٧ هـ) « سنة المراحم » فعاش خمس سنوات فى بغداد . (المؤلف)

ومن اخبار ثوينى ما ورد فى حوادث سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) من الدر المكنون ونصه « وفيها انعم والى بغداد الوزير سليمان باشا على امير المنتفك ثوينى واطلقه وولاه امارة عشيرته واعطاه خمسين الف قرش ومائة ناقة ومائة فرس ومائة خلعة وكان مقيما ببغداد مكرما فما خرج من بغداد حتى انفق الجميع لكرمه وسخائه » .

وقال : « وفيها سار بالعرب الامير ثوينى بأمر والى بغداد الى حرب الوهابى فانتصر وغنم من عرب الوهابى نحو مائة الف رأس غنم وأرسل الى بغداد يستمد عسكرا فبعث له عرب العقيل وعساكر العراق مع احد اتباعه أحمد آغا ابن العراقى فسار بهم واجتمع بالامير ثوينى » .

« م. ج »

أغا مملوك آخر ـ عيسى الماردينى ـ لحكومة البصرة • ولم يذكر عنه ولا عمن جاء بعده شيء مهم • وبقيت الاحوال بحالة اعتيادية فى البصرة لما تبقى من عهده الطويل • وادى ضعف العلائق فى ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) مع قبيلة كعب الى تشييد قلاع نهرية ، وازدياد القرصنة ، واصطدام غير حاسم بين الاسطول التركى والاسطول القبائلى • وبعد مرور سبع سنوات كادت مطاليب السيد سلطان ، حاكم مسقط ، التى لم يعبأ احد بها وكان يقصد بها تسوية امور قديمة ، تؤدى الى هجوم القوات العمانية على البصرة • فطلب الى الوكيل البريطانى التوسط ، الا ان الفريقين توصلا من غير مساعدته الى حل ما فانفرجت الازمة • وحافظ حمود الثامر ـ بطل الاساطير القبلية لشذوذ شخصيته ـ على رآسة المنتفك ست سنوات • اما عهد ثوينى (المعاد فى ١٧٩٦ م (١٢١٢ هـ)) الاخير فيعود البحث عنه لصفحات متأخرة •

وعلى مسيرة اسابيع كثيرة من شط العرب البلاد الجبلية التى للبابانيين الذين كانوا قد اتفقوا مع حاكم البصرة على الثورة • وفيما عدا هذه الحادثة لم يكن بين البصرة وشهرزور شيء من العلاقات الوثيقة • على ان علاقة شهرزور ببغداد كانت على اوثق ما يكون فى هذه العهد • فقد كان الشبان من نبلاء الاكراد يعشون فى بغداد عيشا اعتياديا وكانوا يجدون فيها ما يوسع شقة الخلافات بينهم ويزيد فى اشتدادها • وكانت ثروتهم وكثرة اتباعهم مما يجعل الوالى ووزراءه ينظرون اليهم على الدوام • فكان هؤلاء يشتركون بالدس مع رجال الحكومة فى بغداد وكان يسعى كل منهم بهذه الواسطة فى الحصول على حظوة له او لاحد اقربائه فى الجبل • وعلى هذا كان البابانى فى ديرته لا يشعر بالاطمئنان ما لم يكن له فى بغداد او فى كرمنشاه ولد ذو حظوة عظيمة • وكانت قوات شهرزور ذات أهمية كبيرة بالنسبة لحاكم العراق الذى كان لا يأتمن الانكشاريين ولما يتم تدريب مماليكه الحديثين بعد • ولا غرو فى ذلك فقد كانوا اقوياء ، يعدون بالآلاف ، كما كانوا رهن اشارته فى الطاعة يدعوهم متى شاء لقمع ثورة او لمطاردة ثائر • وكانوا على جانب عظيم من العدة والخبرة بأمور الحملات ، خاصة بعد ان تضلعوا من الطعام والشراب ، وكانوا يركبون أحسن الخيل ويقودهم رئيس بيت مالك • اما المدينة ذاتها فقد كان لباس البكات الاكراد الحريرى وزينته المزركشة وعدتهم الباذخة مما يزين قصر الباشا فيها • على ان نزاعاتهم الداخلية

وتدخل القوات الاجنبية فى شؤونهم ، من جهة اخرى ، كان مما يجعل تابعيتهم مخطرة ومذبذبة •

وقد وصلنا من قبل بتاريخ امبراطوريتهم (البابانيين) الى البحث عن حكم محمود باشا غير الثابت وكونه قد ورث اخاه محمدا فى ١٧٧٨ م (١١٩٢ هـ) وجاء بالقوات لمساعدة حسن باشا خارج بغداد • وفي العهد الجديد هذا كانت حظوة ابن أخيه ابراهيم تفوق حظوته هو ، وقد عرف بطرده عن الحكم بسبب الدسائس التى كان يحوكها فعجلت بانتهاء حكمه • فقد كان حاكم كركوك عثمان بك كهية حسن باشا الاسبق وصديق البابانيين القديم • وكان سميه عثمان بك بابان (ابن محمود) اتصل به ليقوما معا بعصيان وثورة ، فوافقه على ذلك وصادقه على الخطة محمود نفسه • فاعلنا العصيان ومشى اليهما بيوك سليمان « الكبير » فوصل كركوك وفيها انضم اليه جيش من الموصل • ثم انحاز الى جانبه الخصوم والطامحون ، فاختار حسن بك بن سليمان باشا من بينهم ليخلف عمه • فتولى حسن العرش اياما قلائل حتى اعرب محمود عن خضوعه وقبل الشروط المفروضة عليه فأعيد الى مكانه • ومع ان كوى كانت قد انعم بها على محمود بك سوران فانها كانت على هذا العهد من توابع الامبراطورية البابانية التى لم تعرقل توسعها ، على حساب جارتها رواندوز ، الفتن الداخلية •

الا ان الشروط التى كان قد انقاد اليها محمود سرعان ما رميت عرض الحائط ، وهوجمت كوى • فجردت حملة ثانية من بغداد انتهت بتجديد الخضوع والتفاهم • وفى ١٧٨٣ م (١١٩٨ هـ) عاد الكردى المذبذب وحنث باتفاقه فاكا عن عنقه نير الولاء ، ثم نهب جيرانه • فمشى اليه سليمان باشا بنفسه من بغداد وجمع جيشه فى طريقه ، والتحق به من كوى ابراهيم باشا • فتخلى عن محمود كثير من اتباعه ، ثم طرد من مراكز دفاعه فلقى حتفا غير ممجد فى ايران • غير ان ابنه عثمان حظى بالعفو فى بغداد ، وتولى ابن أخيه ابراهيم حكومة البابانيين •

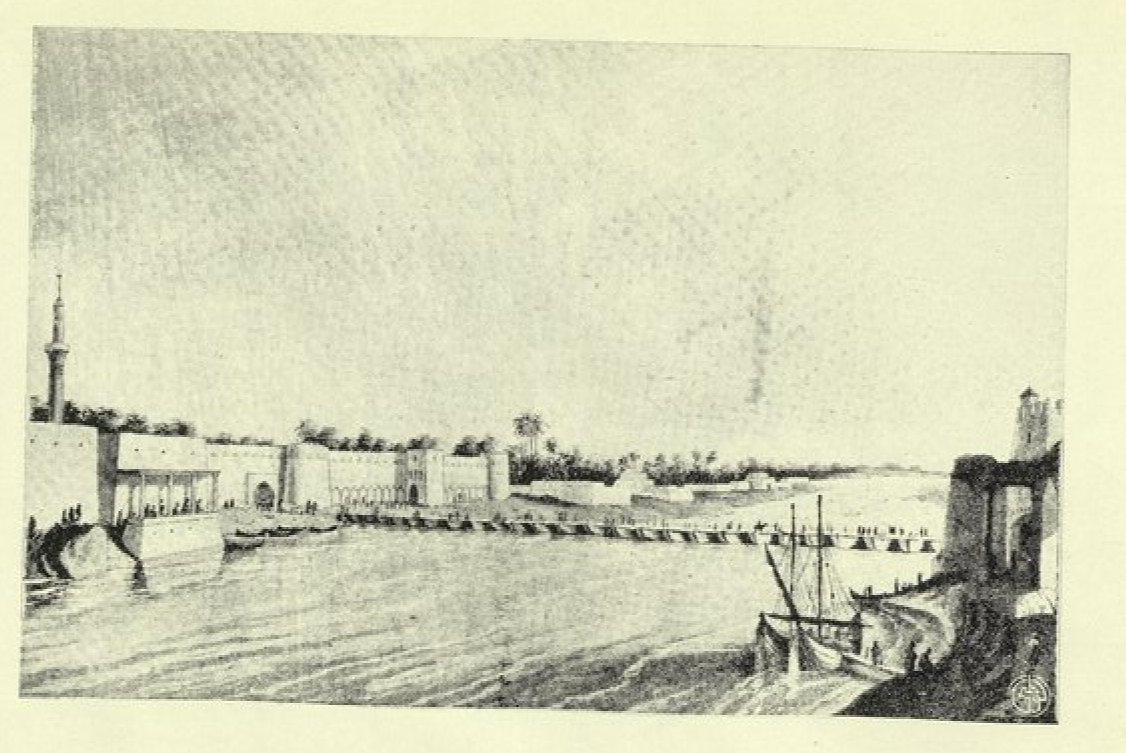
وأحسن ما يذكر به ابراهيم باشا اتمامه انشاء بلدة السليمانية التى كان قد بدأ بها من قبل محمود باشا فى ١٧٨١ م (١١٩٦ هـ) ، وسميت بهذا الاسم تمجيدا وتخليدا لاسم الباشا الكبير فى بغداد • وقد عزز ادارة مملكته واضاف الى امبراطورية السليمانية اراض واسعة تابعة لمناطق زوهاب وقصر شيرين وخانقين • وقبل ان يطول به الامد خسر تأييد الرأى العام له بتفضيله سكنى الدن ، وظهر له — كالمعتاد — خصم حديث •

وقد طلبت معونته فى جنوبى العراق سنة ١٧٨٧م (١٢٠٢هـ) فكان بطيئا فى تلبية الطلب ، فعزل وحل فى مكانه عثمان فأبلى بلاء حسنا فى موقعة ام العباس . الا ان هـذا لم ينشب ان اصبح من المغضوب عليهم لمشاركته فى ثورة البصرة فى ١٧٨٨ م ، ولم يعش طويلا بل مات فى السجن . على ان الارجوحة فى السليمانية مضت على عادتها . فقد عاد ابراهيم وحفظ مركزه الجديد سنة واحدة ، وتلاه لسنة اخرى عبدالرحمن باشا أخو عثمان . ثم فر عبدالرحمن الى ايران عند علم بموت أخيه ، الا ان علاقته الوثيقة المتصلة بالكهية القوى قد ضمنت له الامان والترفيع . ولو لم يثبت عبدالرحمن صلابته وتفوقه على اطماع خصومه الثابتة لكانت خطورة حاله تزداد حرجا ولكانت مهمته فى الحكم اصبحت شاقة تماما . فقد كان متحليا بجميع سجايا الحاكم القوى الناجح . ومع ذلك كله فقد انقطع عن الحكم ثلاث مرات فى المدة التى بين ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) و١٨١١ م (١٢٢٦ هـ) بتدخل من احد اقربائه . ورزئت مدة حكمه الثانية بتفشى الطاعون وروعت بحدوث الزلزال . وفى ١٧٩٢ م (١٢٠٧ هـ) استخدم الباشا قواته فى تعقيب الشاوى الثائر . وفى ١٧٩٤ م غزت هذه القوات جبل سنجار ووصلت الى ما يقرب من اورفة . وفى ١٧٩٩ م (١٢١٤ هـ) شارك ثلاثمائة من خيالة البابانيين فى غزو اليزيديين . وبعد هذا كله وجدت توسلات ابراهيم اذنا صاغية فى بغداد . فوجد عبدالرحمن نفسه مخلوعا وفى مكانه ابن عمه ، وقد عوض عن ذلك بكوى وحرير[١] . وفى اوائل ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) استدعته حكومته الاخيرة ونفى مع أخيه سليم الى الحلة .

ولا نرى بنا حاجة لان نذكر الا الشىء القليل عن الولايات الكردية الجنوبية والوسطى غير هذه . فقد وقعت اخيرا كوى سنجق فى حوزة البابانيين ، ولو ظل حكامها السورانيون يحكمون فيها احيانا بفضل الباشا فى بغداد . وكثيرا ما كان الحكم فى هـذه الولايات بمقام خطـوة تمهيدية يتخذها البابانى المسيطر للاستيلاء على حكومة

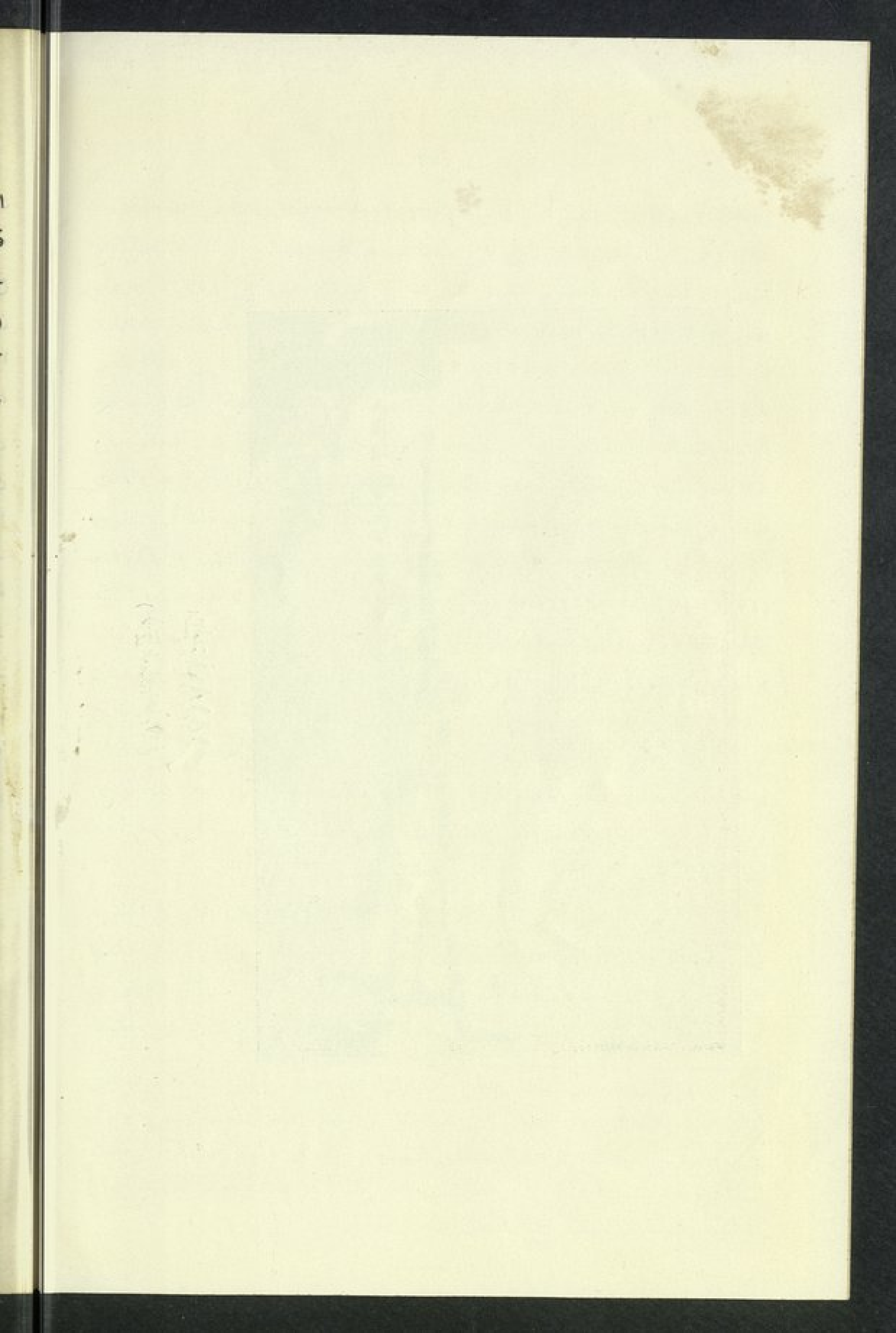
---

(١) ان سرعة تبدل الحكام والامراء البابانيين كانت شيئا طبيعيا بالنسبة للاحوال التى كانت تحيط بالموقف . لان التعيين كان يصيب كل من يظهر ببأسه وشجاعته وشهرته ، ولو فى مدة يسيرة . وكانت تؤثر ايضا الدسائس الايرانية ، زيادة على وجود كهية قوى فى بغداد تضارع قوته قوة الباشا نفسه . لكن الذى كان ظاهرا للعيان هو سياسة بغداد القاضية باطماع الاماثل من البابانيين لضبطهم واتقاء شرهم .



الحلة فى ١٨١٨م

(تقابل الصفحة ٢٢٢)



السليمانية الكبيرة . وقد حافظت رواندوز على منزلتها ، ولكن بتقلص ممتلكاتها ، فيما وراء الفتحة التى تعد خط دفاعها وحاجزها الكمركى . وانتهت فى العمادية مدة حكم بهرام باشا الطويلة بموته فى ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) . الا ان ابنه اسماعيل الذى ورثه حكم فى مكانه مدة عهد كامل ، ولم يتهدد مركزه الا مرتين اولاهما عند اول تسنمه الحكم واخرى عام ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) . وقد اثار موته اطماع الخصوم العديدين وجلهم من اسرة الباحدينان ، وهم اولاده وابناء اخيه . فانتهت الحرب الاهلية المستعرة بين الاقارب بارسال مراد بك الذى بعثه الحاكم البابانى تنفيذا لاوامر بغداد . اما دويلات العمادية - عقرة ودهوك وزاخو - فقد قسمت بين رؤساء الاسرة البهدينانية الذين اعترفوا بسلطة البك الاكبر عليهم . وكانت فى هذا الحين جزيرة ابن عمر تتمتع بأيام عز ورخاء فاقلقت فى عام ١٧٨٢ م (١١٩٧ هـ) بنشوب خصام عنيف . وقد تمكنت قبل هذا بسنة من حفظ كيانها ورد تعديات حاكم بتليس[١] .

ولم يحدث فى كركوك والبلدان المتعلقة بها فى التابعية ما يصح ان يسمى تاريخا . ولم تظل ايالة شهرزور ، التى كانت الند الاكبر لبغداد ، اغنى توابعها واكثرها تقديرا . فوقعت كفرى فى حكم بغداد مباشرة ، وغدت دويلات الاكراد الجبلية من ديالى الى الزاب الاكبر تتعاطى فى امورها مع المتسلم فى كركوك اقل مما كانت تتعاطاه مع سيده المملوك . ويصح القول نفسه ، وذلك غريب ، على الموصل ايضا . تلك المدينة التى لم تفقد منزلتها الايالية ، وكان ينعم بها السلطان نفسه ابدا على مرشح لا تقل درجة رتبته عن رتبة مير ميران ، وكان ديوانها يضاهى ديوان الباشا الكبير . ومع كل ذلك فان المناطق المحيطة بالموصل من كل جهة اصبحت تنظر فى امور التأديب او المكافأة الحسنة الى بغداد اكثر ما تنظر الى الموصل . على ان قسما من هؤلاء ربما كان يتخذ موقف غير المهتم بالجهتين ، الا ان الجميع ، ومنهم الجليلى نفسه ، كانوا يعتدون بغداد مرجعا أعلى لهم .

ولقد حافظت اسرة عبدالجليل على منزلتها الخاصة بها مدة طويلة . فلم يجرؤ الا باشوات قليلون ، من غير هذه الاسرة ، على تولى حكومة الموصل . وقد بلغ عدد الحكام الذين حكموا الموصل فى المدة التى بين وفاة الحاج حسين وايام بيوك سليمان

(١) اوليفييه (ج ٤ ص ٢٥١) ، سيستينى (ص ١٢٨) .

« الكبير » عشرين حاكما ، كان منهم ثلاثة عشر حاكما من الجليليين • ولا تبحث الحوادث المتكدسة عن هذه الاسرة فى تاريخ العراق العام وانما تبحث كلها فى التاريخ المحلى • فلم تعبأ الا قليلا بما كان يجرى خارج سور الموصل كحصول هذا الابن او ابن الاخ ذاك من ابناء الحاج حسين على فرمان قصير الامد او ما اشبه ذلك • على ان الجليليين قد قاموا ، اكثر من مماليك بغداد ، بدور مهم فى شؤون تركية العامة • فكثيرا ما كانوا يترددون الى استانبول • وقضى أمين باشا ، الذى تولى حاكمية الموصل سبع مرات ، سبعة اعوام فى سجن روسى ، كما توفى ابن عمه فتاح اثناء قيامه بواجب خاص فى سورية ، وتولى سليمان كثيرا من المناصب العالية فى الامبراطورية • وعلى هذا ليس من المستغرب ان يتكرر تعيينهم للباشويات فى الموصل وغيرها لان ذلك كان تقديرا لاعمالهم الباهـرة فى الخارج ، ولخدمتهم الجلى فى العاصمة ، او لمجرد حظوتهم عند الملوك فى بغداد • ومن اكثر ما يذكر من المنازعات التى ولدتهـا الاحقاد الاخوية فى مدينتهم كانت تلك التى اعقبت وفاة فتـاح فى ١٧٧١ م (١١٨٥ هـ) ، ثم العراك العنيف فى الشوارع بين اتباع عبدالباقى واتباع سليمان (الذى كان محافظا فى بغداد مرة) فى ١٧٨٤ م (١١٩٩ هـ) • فحسم النزاع الاخير فى ديوان بغداد ، فكان ذلك فى مصلحة عبدالباقى الذى بتر أمد حكمه ، ولا يزال قصيرا ، بعد سـنة من توليه وذلك بوفاته اثناء قيامه بحركات على اليزيديين فى سنجار • ومن بعد ذلك ادت سنوات اربع هادئة الى حلول العهد السلمى الطويل الذى حكم خلاله محمد باشا الجليلى ، ذلك العهد الذى كان يثنى عليه فيه رعاياه ثناءا حسنا ويشيد بذكره الناس حتى المسافرون الاوربيون[1] • فكانت مدة حكمه ثمانى عشرة سنة •

وكان ادخال ماردين فى ضمن باشوية بغداد منذ قرون ثلاثة قد جاء بمشاكل الجزيرة الشمالية • فقد كان هذا الصقع يجمع بين الاكراد الجبليين والبدو العرب ، بينما كان التركمان النازلون هناك يفلحون الارض بين العنصرين المذكورين • وكان

---

(١) اوليفييه (ج ٤ ص ٢٦٦) وميرزا ابو طالب (ص ٢٨٩) (المؤلف) • ان الذى ذكره ابو طالب هو ان الناس كانوا يحترمون محمد باشا الجليلى كثيرا وكان متكبرا جدا بحيث لا يكلم احدا من نواب باشويته مشافهة » • (راجع رحلة مرزا أبى طالب ، الترجمة الفرنسية ص ٣٧٤ ـ ٥ ، طبعة باريس) • « م • ج »

الاكراد فى مثل هذه الاصقاع التى تختلط فيها العناصر هم المسيطرون • وكان هؤلاء – مع عدم وجود الدم الكردى الخالص فى عروقهم وعدم انضوائهم الى وحدة سياسية واحدة – يعرفون انفسهم انهم هم فرع المليين من العنصر الكردى ، وكان بوسع جميعهم ان يلتفوا حول زعيم من الطراز اللائق بهم • والحق انهم كانوا محتاجين لهذا وحده ليؤلف من اللصوص جيشا خطيرا ويقلب الاضطرابات الى خطر مهدد • وقد ظهر مثل هذا الزعيم فى اوائل العشرة التاسعة من القرن الثامن عشر ، وهو تيمور باشا الكردى الشريف المولد الذى كان يشغل منصبا كبيرا فى استانبول ، ثم هرب من العاصمة الى الاصقاع الوسيعة لاقاربه المليين على اثر سقوطه من المنصب بصورة فجائية •

« وقد دعا الى خيمته هناك العصاة وقطاع الطرق من كل جهة • حتى كون من حوله قوة كثيرة العدد متكونة من مادة تناسب اغراضه • ولم يكن غيره اكثر ليقا بالحياة التى كتب له ان يحياها عاصيا مستقلا ، وقد نجح فى الحال فى ان يعترف به سيدا لهذه الممتلكات وان يخيف حتى باشوات ديار بكر وحلب الثابتين »[1] •

فأصبح وجوده خطرا مخصوصا على مواصلات الموصل • وفشلت جهود الجيش الاولى فى القضاء عليه • وعلى هذا طلب السلطان الى سليمان الكبير نفسه ان يزيل هذا الازعاج ، فسار شمالا الى الموصل فى اوائل ١٧٩١ (١٢٠٦ هـ) • وجمع هناك ثلاثين ألف فارس ثم توجه الى ماردين • فلم يكن فى وسع تيمور ان يقف امام مثل هذا الجيش • فانحلت قواته ، وفر هو نفسه ، ثم ادب سليمان المليين بشدة • ولم يتملص ويوضة ماردين نفسه عما كان يحوم حوله من الريب ، فغرم وعزل • وقد شنق اثنان من اجل اتباع تيمور فى ماردين ، ثم عين اخوه ابراهيم رئيسا أعلى للمليين •

ولا تشجع هذه المراجع التاريخية العقيمة ولا تساعد العناية بهذا المجال على البحث بالتفصيل فى شؤون ماردين • فقد كان الويوضة اى المتسلم يأتى فى الدرجة الثالثة ضمن باشوية بغداد التى كانت تحكم هذه الولاية الثانوية مباشرة[2] • وكان عنف المنازعات الحزبية والشخصية فوق ما كان موجودا منها فى الموصل نفسها • فقد عزل

---

(١) بكينغهام « بين النهرين » (ج ١ ص ٢٩٣) •

(٢) وهذا ما كان يسبب استغراب المسافرين الذين كانوا يجدونها قريبة كثيرا من ديار بكر •

المتسلم فى ١٧٩٤ م (١٢٠٩ ﻫ) قسرا ، ولم يسلم خلفه من مثل هذا ايضا • وأدى الشغب الحاصل فى ١٧٩٦ م الى فرار رئيس حملة البنادق ثم الى الارسال برأسه الى بغداد • وطرد بعد ذلك الويوضة نفسه ، فعين فى مكانه احد مرشحى الجمهور الصاخب • وخير لنا ان نتصور اى التأييدات والاختلافات القبلية ، واى الحجج فى الموصل وبغداد والموازنة بين التركى والمملوك فى شأن المليين ، واى قتال فى شوارع ماردين ، واى خصومات ودسائس واجتماعات ورشوات وحوادث قتل كانت تقوم بدورها فى السياسة الغامضة العنيفة المشوشة لهذه الزاوية المتطرفة من الباشوية • وقد سور المدينة سليمان باشا[1] • واعاد تيمور باشا الى بلاده وجعله واليا على اورفة فى ١٨٠٠ م (١٢١٥ ﻫ) •

الوهابيون

واذا انتهى مؤرخ العراق من بحثه فى الاضطرابات والفتن غير المنقطعة فى الفرات والجزيرة وكردستان ، والتفت لناحية اخرى يجد عدوا جديدا للباشوية ، ذلك العدو الثابت فى مبدئه على كل ما عنده من تنقل ، المهدد مع كل ما يستحوذ عليه من فقر ، ولا يقل خطره على الاراضى المسكونة فى غربى العراق فى هذا اليوم عن خطره عند اول ساعة من ظهوره • فقد حدث فى الجزيرة العربية ، التى كانت قد انجبت

---

(١) قال ياسين العمرى فى حوادث سنة ١٢١٥ ﻫ (١٨٠٠ م) ما صورته :

« وفيها أرسل والى بغداد الوزير سليمان باشا الى الدولة يطلب الوزارة الى تمر باشا الملى • فأجابوه بالقبول وقدم البشير الى بغداد فى رمضان ثم قدم القابجى (البواب) بالفرمان والخلعة فى شوال ولبس تمر باشا الخلعة وصار وزيرا وولى مدينة ارفه • ثم ان الوزير سليمان باشا أعطى تمر باشا خيلا وبغالا وجمالا وخياما واموالا فاستخدم العساكر وخرج من بغداد وقدم الموصل منتصف ذى القعدة وخرج الى استقباله الوزير محمد باشا وأرسل معه اربعمائة تفنكجى بأمر والى بغداد فأقام تمر باشا سبعة ايام ورحل ونزل على جبل سنجار (موئل اليزيدية) وحاصرهم وطلب منهم « اموال القافلة » فاعطوه ثمانين بغلا وفرسا وحمارا وبعض المال » •

اما القافلة المذكورة فيقال فى ذكرها : « وفيها قدمت قافلة من ديار بكر ونزلوا بالجربارات (كذا) وخرج عليهم قطاع الطريق ونهبوا القافلة وراح لهم ستون حمل كتان سوى القماش » •

النبى (ص) وبعث مئة من الهجرات البعيدة المدى ، انفجار دينى آخر تفجر من واحات نجد ٠

فقد كان فى السنوات الاول من عهد أحمد باشا تلميذ فى كليات بغداد الدينية ، يدعى محمد بن عبدالوهاب ، اتيح له ان يجلب الاخطار العظيمة على هذه البلاد التى اقام فيها ٠ وكان قبل ان نجده فى دور الكتب وخزائنها الباردة المطلة على دجلة قد درس فى مكة ودمشق والبصرة ٠ وكان خلال جولاته التجارية قد شاهد مدن كثير من البشر وتأمل الاسلام من عدة نواح ٠ فكان واجبه فى الحياة « الاحياء » ، اى الرجوع فى صفاء التعاليم الاسلامية الى منبعها ومحاربة الترف والاحتيال ، والذنوب الشائنة ٠ وعند تركه بغداد ذهب للحج فاقام فى المدينة مدة من الزمن ٠ ولما توفى أبوه عبدالوهاب من بعد ذلك اوقف سنى حياته الاخيرة للدعوة الى عقيدته المتضمنة لليسر والعودة الى جوهر الدين ، وذلك فى قريته « عوينة » بنجد ٠ وعندما اضطر الى الفرار منها التجأ الى أمير مجاور له فى الدرعية وهو محمد بن سعود ٠ فاستقام عنده واستولى على لبه سنة بعد اخرى فكان من ذلك ان اتحدت قواهما الدينية والدنياوية ، فولد ذلك وحدة وروحا فى هذه الدويلة الصغيرة التى نشرت عقيدتها بالفتح ٠ ومات الامير فى ١٧٦٥ م (١١٧٩ هـ) تاركا مملكته الناهضة لابنه (من بنت المصلح) عبدالعزيز بن سعود ٠ وما حلت سنة ١٧٧٥ م (١١٨٩ هـ) حتى كان ابن سعود هذا ذا قوة عظيمة فى الجزيرة ٠

فأصبحت منذ ذلك الحين تعرف امبراطورية ابن سعود النجدية بالعقيدة الوهابية ٠ وقد وسع معتنقو هذا المذهب الايقونى الضيق ، الغلاظ المرتدون ، دويلتهم بمحاربة المسلمين الذين فسدت عقائدهم من جيرانهم ٠ وكانت كل غزوة لها فتوى دينية ٠ وكان ازدراؤهم الفائر للمرتدين المترفين المحيطين بنجد من كل جهة قد حداهم لا على استعمال العنف الشديد فحسب بل على ارتكاب افعال خيل معها للكثير من الناس انهم يقصدون بها مهاجمة الدين الاسلامى نفسه ٠ وفى الحقيقة ان أخشن رعاياهم او اوحشهم من القبائل والمقاتلين كانت لا تعرف من القرآن والسنة الا النزر اليسير ٠ وكان تهيجهم عن تعاليم ايمانهم المحرفة يزيد كثيرا على سخطهم على اليهود او النصارى ٠ وكانوا يضمرون للخليفة وكل شيء تركى استهانة لا تحتمل ٠

وكانت اول حروب الوهابيين الخارجية مع بنى خالد فى الاحساء ٠ وهناك لم

يصادفهم كثير من النجاح . الا ان غزواتهم الدينية توسعت في جميع الجهات . وقد اصبح العراق قبل ١٧٩٠ م (١٢٠٥ هـ) يحس بوجود جار حديث غير مستقر ، لان جماعات متعصبة وسمت ابلها بشارات بارزة وهي تحمل رقاعا دينية غريبة غزت غزوها المألوف واحتلت مراعى الضفير والمنتفك والشامية . ثم عرفت ماهية هذا الخطر ببطء . فقد اضاف هذا العدو الحديث الذي ظهر في حدود العراق الى خداع قوات البادية المألوف ما يستفز السلطات في العراق . ولا غرو في ذلك فان الملالي الوهابيين قد ينتشرون في خيم الضيوف عند العشائر الفراتية فيخطبون فيها ـ مشعلين نار السخط الكامن على الباشا والسلطان ومستعملين الخرافة والمال ـ وبذا قد يكونون سببا مهما لنزع قبيلة بعد اخرى من آخر بقايا النفوذ العثماني عليها . وبقي مدى انتشار هذه الحمى في العراق أمرا مشكوكا فيه مدة طويلة . فان قبائل الحدود ، التي كانت قد نهكتها الغزوات ، كانت عرضة للاذعان الى الخوف او الحجة بقدر ما كان يؤمل منها من وقوفها مناضلة بجانب الولاية التي تكون القبائل نفسها قسما مهما منها . وقد زاد خضوع الجزيرة لسلاح الوهابيين واستمالتهم . غير ان العقيدة الجديدة لم تلق الا رواجا قليلا في العراق . فقد قوبلت الجيوش الوهابية ، المزعومة للنور والانقاذ ، كأنها جيوش المرتدين واللصوص . لان قبائل العراق ، السنية والشيعية ، لا يمكنها ان تستسيغ تبديل العقيدة مهددة بالنار وغزو الماشية .

وكان الشيخ ثويني اول عراقي صد العدوان ، وذلك عندما اعيد في الايام الاخيرة الى موطنه ومنصبه[1] في ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ) . فقد كانت القبائل التي تنتجع الكلأ والقرى غير المحصنة في جنوبي غربي العراق معرضة منذ عشر سنوات للغزوات السريعة القاسية . وكان هؤلاء يدافعون العدو عن انفسهم بشتى الطرق من الهزيمة او السلاح او تبديل العقيدة من غير ان تظهر امارات النجدة من الحكومة . وقد ساءت الاحوال في ١٧٩٢ ـ ٩٥ م لان الوهابيين تمكنوا من اخضاع بني خالد . وسمع العالم الاسلامي باجمعه بالخطر الجديد الذي بات يهدد الحجاج في طريقهم الى الحج . وبادر شريف مكة بشرح التهلكة للسلطان . وكان اولو الشأن في الباب العالي يطلبون بصورة متكررة من تابعهم المملوك في بغداد ، في ١٧٩٥ ـ ٩٧م ، ان يحمي الامبراطورية

---

(١) ذكرنا في حاشية سابقة التعليق ان ذلك كان سنة ١٢١١ هـ (١٢٩١ م) . « م . ج »

ويعاقب الوهابيين . غير ان الباشا كان قد بلغ من الكبر عتيا وغدا فاترا وقد اودعت اكثر شؤونه في ايدي موظفيه ، فارتبكت احواله وكثرت نفقاته من غير ان يهتم بحدوده في البادية[١] .

وبعد ان وصل ثويني الى موطنه قضى ثلاثة اشهر في جمع القطعات القبائلية في جهرة ، وفي جمع الرصاص والبارود ، وارسال اسطول يحمل الذخائر الى القطيف . وقد رافق الاسطول ناس من عرب عقيل بغداد وما يزيد على كتيبةواحدة من الجنود الاجيرة اذ ذاك . ثم تقاطرت الارتال من الكويت والبحرين والزبير . وفي خلال هذا كان عبدالعزيز بن سعود قد خيم مع جيوشه في الطرف بالاحساء . فجرت الحركات بين الفريقين بتؤدة . ولم يعارض تقدم ثويني الى الاحساء اى معارض ، على صعوبة المسير في ارض لا ماء فيها . وكان وصوله الى اسوار الدرك في بلاد بني خالد شيئا ينذر بالسوء للقواد النجديين الذين خيل اليهم ان امبراطوريتهم في الاحساء قد تنقلب عليهم . وكان التقدم الاخير الى الشبيك ، فوصل اليها الجيش في مساء اليوم الاول من تموز ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ) . وهناك قتل ثويني ، وكان قاتله عبدا زنجيا . ولما كان الجيش لا رابط له ولا نظام سوى شخصية الشيخ ثويني نفسه فقد تفرق في الحال شذر مذر ، وانقسم الى خمسين قطعة من القطعات كانت كل قطعة منها تواقة للرجوع الى الوطن سالمة . فانتهى على هذا المنوال آخر عمل قام به شيخ المنتفك العظيم[٢]

---

(١) يذكر برهارد ان اسباب خمول سليمان باشا في هذا الشأن هي « انه كان لا يملك المبلغ الكافي للحملات كما ان سلطته كانت ضعيفة في مملكته » . الا ان القسم الاول من هذه الجملة يفنده بريجز (ص ١٧) ، والقسم الثاني صحيح عدا الحملات التأديبية التي جردت في كل جهة . اما الاسباب الحقيقية فهي ان الخطر لم يتجسم في ذهن اولى الامر ببغداد كما كان متجسما في النجف والسماوة الا مؤخرا . هذا عدا ان الباشا كان في دور شيخوخته (المؤلف) .

قال مصطفى جواد : ومما يؤيد قول المؤلف في شيخوخة الوزير سليمان الكبير وعجزه عن مباشرة الامور ، ويؤكده ، انه أرسل في سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م) الى الدولة في اصطنبول يستعفي من الحكم لضعفه عنه ولكبره ، ورجا ان يكون مكانه كتخداه أحمد باشا ، فلم يقبل منه ذلك ولا أجيب اليه ، ذكر ذلك ياسين العمري في الدر المكنون وسوف يشير اليه مؤلف هـذا التاريخ الجليل في بحث « نهاية الباشا الكبير » .

(٢) ان ما يذكره مؤلف « مرآة الزوراء » هو ان الشيخ ثويني توغل في حملته هذه في نجد حتى حاصر الدرعية ، الا ان هذه الرواية لا يمكن قبولها .

وأحسنه بالخيانة والهزيمة المروعة ، واول ضربة مقابلة حاول العراق انزالها بالوهابيين.

مرت سنة واسابيع قلائل اكثر منها قبل ان يهب باشا العراق وقد استفزه اندحار قبائله هذا واستحثه سلطانه للاستعداد لضربة مقابلة[1] . فكان الكهيه الجديد على باشا طول صيف سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) منشغلا بجمع الحملة جمعا خارقا . فكانت تشتمل على خمسة آلاف انكشارى ، وعدد من الجنود الاجيرة غير النظامية ، ومدفعية وافرة ولكن غير مؤثرة ، وقطعات من قبائل عقيل والعبيد وشمر وغيرهم . ورافق الكهية محمد بك الشاوى مشاورا فى شؤون البادية . فوصلت هذه الجيوش الى البصرة[2] فى اليوم الثانى من كانون الاول . وهناك أضيفت الى الجيش قطعات من قبائل الضفير والمنتفك وبنى خالد ، وبذا بلغ عدد القوات العشائرية ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل. وبعد ان ترك الزبير وجه على باشا سيره نحو جهرة . وقد نقلت الذخائر بواسطة « المهيلات » البحرية . كما ان عشرة آلاف بعير كانت روايا تحمل الماء مع سائر الحاجات ، الا ان هذا العدد كان يتناقص بسرعة . وكانت مشقات السير تستدعى وقفات كثيرة مدة ايام عديدة . واخيرا وصل الجيش للهدف[3] الاول وهو قلعة الهفوف وقلعة المبرز . وكانت المدفعية التى جاء بها الباشا مما يصلح لمراكز الدفاع المبنية من الرهص ، الا ان الهجوم الذى شنه لم يكن محكما ولا جديا . وعلى هذا كان كل يوم يقضيه الجيش فى المعسكر يتضمن نصبا ومشاق مضاعفة . وكان ضياع الابل كانذار للجيش بفقدانها أجمع . وقد نفدت قوة الحملة قبل ان تتوصل للغاية التى كانت تقصدها ، فضج الجيش جميعه

---

(١) يمكن الاهتداء لتفصيلات اخبار هذه الحملة فيما كتبه برهارد وبريجز وفى كتابى « دوحة الوزراء » و « عنوان المجد » .

(٢) قال ياسين العمرى فى حوادث سنة ١٢١٣ هـ المذكورة ما نصه :

« فيها أرسل والى بغداد الوزير سليمان باشا كتخداه الكبير والشهم الخطير على باشا بالعساكر فكانوا نحو عشرين الف فارس وسار بهم الى البصرة وجمع العشائر والقبائل فكانوا الوفا وسار بهم الى مدينة الاحساء وحاصرها وملكها وحاربه عبدالعزيز المعروف بالوهابى فانتصر على باشا وانكسر عسكر الوهابى وقتل منهم خلق كثير وعاد على باشا منصورا ثم بعد عودة على باشا قدم الوهابى وملك الاحساء وقتل من أهلها جماعة وبث فيها اعتقاداته الفاسدة » انتهى كلام العمرى . « م. ج »

(٣) يلوم برهارد ومؤلف دوحة الوزراء على باشا لعدم جعله هدف الجيش الاول الدرعية .

ونادى الكثير منهم بالرجوع . واصبح ذلك شيئا ضروريا حقا عندما وردت انباء تؤذن ان ابنا لابن سعود كان قد قطع طريق المسير من شمال الهفوف وكان يرمى الملح فى الآبار هناك . واذ ذاك بدأ على باشا بالرجوع من حيث أتى وقد اتلف كثيرا من متاعه الثقيل . فتراجعت امامه قوات ابن سعود وكانت تخشى مدفعيته . فاضافت الى خسران الجيش وتعاسته عاصفة هبت فى الشيبك وكان قتل فيها ثوينى من قبل . وفى وتج كان معسكرا الفريقين يقابل بعضهما بعضا ، واستمر ذلك مدة ايام ثلاثة كان يتطلع خلالها الفريق نحو الثانى . فأرسلت الرسل بينهم وتكررت حركتهم ذهابا وايابا ، فكانت مطاليب على باشا اخلاء الاحساء ، ومعاملة الحجاج العراقيين بالحسنى ، وارجاع المدافع التى استولى عليها الوهابيون ، ثم الغرامة . فلم يقف سعود ، سيد ديبلوماسية البادية المتصل سرا بعشائر الجيش العراقى ، أباه على هذه الشروط الا بصورة غامضة . وعادت القوات التركية الى البصرة موفورة ، وبذلك انتهت الحملة من غير ان تنجز شيئا . ثم وصلت الى بغداد فى تموز ١٧٩٩ م (١٢١٤ هـ) . ولم يبق سوى اقامة المراسيم لتصديق الشروط المذكورة للصلح فزين من اجلها سراى بغداد وزخرفت جدرانه . ولاجل التأثير فى وكيل ابن سعود ، وكان قدم بغداد لامضاء عقد الصلح ، بذلت جهود كبيرة لالباس القصر وشخص الباشا جميع ما يدل على الجلال والثروة . وبينا كان جميع الحرس والجند مصطفين لاستقبال السفير العربى ، وهم سكوت عليهم الحلل المزركشة والالبسة المزينة ، ظهر العربى بمظهر بدوى ذى اسمال يمشى بخطا سريعة . وما وصل الى حيث كان يجلس الباشا حتى ترك الباشوات ، الذين حضروا للاحتفاء به ، جانبا وجلس القرفصاء بين يدى سليمان . ثم قدم له وريقة وسخة ، وأخذ يخطب بلهجته النجدية العربية بخطاب[1] جاف مهين .

على ان صلحا كهذا يكتنفه التعصب العدائى من جهة والتحدى لعرف البادية من الجهتين لا يمكن ان يؤمل دوامه . فقد هاجم الوهابيون بعد سنة حجاج الخزاعل بالقرب من نجد ، وفى فرصة للوهابين اخرى هوجم الحجاج الايرانيون ونهبوا فى الموضع بعينه . وفى صيف سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) ارسل عبدالعزيز الشاوى بمهمة سياسية الى نجد ، الا انه رجع مخبرا بعدم وجود رغبة فى الصلح فى نفوس النجديين . وما

---

(١) بريجز « الوهابيون » (ص ٢٣ — ٢٧) .

كاد يخبر بظهور القوات الوهابية قرب شفاثه حتى سارع الكهية وخيم بالقرب من كربلا . فاشتبك محمد الشاوى ورئيس شمر فارس الجربا مع العدو بمعركة توقفت اخيرا بعطش الفريقين .

على ان الفاجعة الكبرى كانت على قاب قوسين او أدنى ، تلك الفاجعة التى دلت على منتهى القسوة والهمجية والطمع الاشعبى ، واستعملت باسم الدين . فقد حدث فى اوائل ١٨٠١ م ان تفشى الطاعون فى بغداد ، فاضطر الباشا وحاشيته للالتجاء الى الخالص حيث ابتعد عن منطقة المرض . وما استتب حاله هناك حتى فوجىء بنبأ من المنتفك علم به ان الجيوش الوهابية تحركت للغزو المختص بالربيع . فأرسل الكهية الى الهندية ، الا انه ما كاد يغادر بغداد حتى وافت اخبار هجوم الوهابيين على كربلا ونهبهم اياها ، وهى أقدس[1] المدن الشيعية واغناها .

انتشر خبر اقتراب الوهابيين من كربلا فى عشية اليوم الثانى من نيسان عندما كان معظم سكان البلدة فى النجف يقومون بالزيارة . فسارع من بقى فى المدينة لاغلاق الابواب . غير ان الوهابيين وقد قدروا بستمائة هجان واربعمائة فارس نزلوا فنصبوا خيامهم ، وقسموا قوتهم الى ثلاثة اقسام . ومن ظل احد الخانات هاجموا أقرب باب من ابواب البلد ، فتمكنوا من فتحه عسفا ودخلوا . فدهش السكان[2] واصبحوا يفرون على غير هدى بل كيفما شاء خوفهم . اما الوهابيون الخشن فقد شقوا طريقهم الى الاضرحة المقدسة واخذوا يخربونها . فاقتلعت القضب المعدنية والسياج ثم المرايا الجسيمة . ونهبت النفائس والحاجات الثمينة من هدايا الباشوات والامراء وملوك الفرس ، وكذلك سلبت زخارف الجدران وقلع ذهب السقوف وأخذت الشمعدانات والسجاد الفاخر والمعلقات الثمينة والابواب المرصعة وجميع ما وجد من هذا الضرب وقد سحبت

---

(١) قول المؤلف « أقدس المدن الشيعية » فيه نظر لان البلد الاقدس هو النجف الاشرف — كما هو معلوم — « م. ج » .

(٢) ان مرزا ابو طالب (ص ٣٦٢) يلوم فى هذا الحادث عمر آغا حاكم البلدة ، وهو سنى متعصب لم يعمل شيئا لحماية البلدة ، وقد قتله اخيرا سليمان باشا . (المؤلف) . وقد قال المرزا المذكور ان الناس يتهمون عمر آغا وكان من الخرافيين بمكاتبة الوهابيين ومواطاتهم على فعلهم ، ولكن الثابت هو انه هرب الى قرية قريبة من كربلا اول ما علم بالخطر ، فلم يدافع قط » . (ص ٤٠١ — ٢) من الرحلة . « م. ج »

جميعها ونقلت الى الخارج . وقتل زيادة على هذه الافاعيل قراب خمسين شخصا بالقرب من الضريح ، وخمسائة ايضا خارج الضريح فى الصحن . اما البلدة نفسها فقد عاث الغزاة المتوحشون فيها فسادا وتخريبا ، وقتلوا من دون رحمة جميع من صادفوه كما سرقوا كل دار . ولم يرحموا الشيخ ولا الطفل ، ولم يحترموا النساء ولا الرجال فلم يسلم الكل من وحشيتهم ولا من أسرهم[1] . ولقد قدر بعضهم عدد القتلى بألف نسمة ، وقدر الآخرون خمسة اضعاف ذلك .

ولم يجد وصول الكهية الى كربلا نفعا . فقد جمع جيشه فى كربلا والحلة والكفل ونقل خزائن النجف الاشرف الى بغداد ، ثم حصن كربلا نفسها بسور خاص . وعلى هذا لم يقم باى انتقام للفعلة الشنيعة الاخيرة التى قام بها العدو الذى لا يدرك . وقد كان ذلك الحادث الاليم للباشا الشيخ فى عمره هذا صدمة مميتة . وانتشر الرعب والفزع فى جميع انحاء تركية وايران . وبذلك رجع وحوش نجد الكواسر الى موطنهم ثقالا على ابلهم التى حملت تحميلا ثقيلا نفائس لا تثمن .

نهاية الباشا الكبير

لم يبق من اخبار باشوية سليمان الطويلة ما يستحق الذكر الا حادث طريف واحد . فقد ذكر من قبل ما كان من امر أحمد خادم الباشا الخاص وناموسه « موضع اسراره » مدة ثلاثين عاما . كما ذكر ان تفضيله وتقدمه قد أديا لثورة سليمان الشاوى ، وان نشاطه فى منصب الكهية قد استعمل فى قيادة الحملات مدة سنوات عشر ، وان تدبيره الاقتصادى واخلاصه الشديد كانا يحملان جميع اعباء الدولة فى وقت كان سيده قد طعن فى السن وكثر عجزه . وقد كان يؤثر الخدمة فى بغداد حتى تنقاد الباشوية فى يوم من الايام له بفضل الصبر ، ولذلك السبب رفض منصبا كبيرا فى استانبول . وقد ظل ، وهو الجذاب للالباب المعروف عند الجميع ، الرجل الثانى فى

---

(١) ذكر الميرزا أبو طالب فى رحلته (ص ٣٩٩ من الترجمة الفرنسية) « انه لقى بكربلا عمته المسماة « كربلاى بكم » ونسوة من حاشيتها وكان الوهابيون قد سلبوهن كل ما كن يملكن فأعانهن أبو طالب بكل ما استطاع من المعونة » ثم ذكر انهم قتلوا خمسة آلاف انسان وجرحوا عشرة آلاف . « م. ج »

البادشاه • وقد أثارت الضربات المهينة التى أنزلها الوهابيون سخط العالم الاسلامى على الباشا •

ولم يبق من حياة الباشا غير المرحلة الاخيرة • فقد شفى من مرضه المنذر بالموت فى ١٧٩٦ م بعد ان ابتهل له اليهود والنصارى والمسلمون الى ربهم على سواء • غير ان حيويته المعجبة التى استفرغت كلها مدة ثمانين حولا لابد ان تأخذ بالوهن والتضاؤل بمرور الزمن • وفى اوائل ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) أصبح عليلا لا قوة له ابدا • ولم يتداول ارباب الدولة فى تعيين من سيخلفه لا فى استانبول ولا فى بغداد • فقد كان اولاد الباشا اذ ذاك صبية صغارا ، وكانت خديجة احدى بناته : زوجة على باشا الكهية ، وكانت قد زوجت ابنة اخرى سليم آغا الذى صار متسلم البصرة فيما بعد • وكانت البنتان الاخريان قد خطبتا لداود افندى ولناصيف أغا رئيس الحجاب • وهؤلاء جميعا هم الذين يجب ان يعدوا مرشحين لان يخلفوه • كما ان رؤساء الاسرة الشاوية ، ومتسلم البصرة ومتسلم ماردين ، والدفتردار وآغا الانكشاريين ربما كانوا جميعا يفكرون تفكيرا خطيرا فى هذا الشأن • على مثل هذا كان الجميع يترقبون بعاطفة وطمع حياة الباشا العظيم الآخذة بالانطفاء • وكان جميع هؤلاء من صنف المماليك عدا الشاوية العرب والآغا الانكشارى • وما حل شهر آب حتى كان سليمان فى الموتى • وكانت آخر الضربات ، التى ركس بعدها ، انزعاجه من الطاعون الذى كان قد أخرجه من بغداد والرعب الذى أصابه من فاجعة كربلاء • وكانت وفاته قبل ظهر اليوم السابع من شهر آب لسنة ١٨٠٢ م[١] •

---

(١) يلخص كتاب دوحة الوزراء اعمال سليمان باشا بما يلى : كان قد أصلح سليمان باشا سور بغداد وحصن جانب الكرخ ، فبنى له السور وحفر له الخندق • وأضاف قسما من الابنية الى السراى • وكذلك بنى المدرسة السليمانية « بجميع مرافقها » وأصلح بناء جامع القبلانية والفضل والخلفاء وعين فيها المدرسين • وطلى قبة أبى حنيفة بالذهب ، وبنى سوق وخان السراجين • ثم انه أعاد بناء دلى عباس وشرمان (ربما كانت شهربان) ، وبنى او اصلح سور مندلى والحلة والبصرة ، وشاد جسر التارين ودار الاسلحة فى الكوت (؟) والبصرة وجصان • وكذلك حصن الزبير وماردين واسكى موصل • ثم انه بنى الخانات فى الاسكندرية وكربلا • ومن الاعمال الاخرى التى اشرف عليها حفر الهندية من جنوبى المسيب وذلك لسقى النجف •

الفصل التاسع

المماليك الاواخر

ثلاثة عهود قصيرة

ما كاد بيوك سليمان يلفظ نفسه الاخير حتى انفجر[1] شغب عنيف تفكر فيه المدبرون له طويلا . وقد انسحب اضعف المرشحين لتولى الحكم وسايروا احوالهم عند اقتراب الازمة ، ولم يبق من المتنازعين الا على باشا الكهية وأحمد آغا رئيس الانكشاريين[2] وسليم آغا وحدهم . فكان أحمد قد دعا قبل وفاة الباشا بايام قلائل المقيم البريطانى الى مجلسه وطلب منه كتابا الى السفير فى استانبول . وبادر الآن (وربما كان ذلك قبل الوفاة بساعة) بجمع من استطاع جمعهم من الرعاع والسوقة واستولى على القلعة ، فتحصن بها وأخذ يضرب السراى . وتحققت فى هذا الاثناء وفاة الباشا ، فتولى المنصب على[3] باشا قائما مقامه . وقد لعب ناصيف دورا ثانيا ، حيث كان يتصل

---

(١) اتبعت فى هذا رواية بريجز (ص ٢٠٤) لانه كان شاهد عيان محايدا وفضلت على دوحة الوزراء . ويتفق الاثنان بشىء من الرواية .

(٢) بريجز (ص ٢٠٥) كان أمل الباب العالى فى الحصول على كنوز الباشا الشيخ أحمد آغـا .

(٣) ان لياسين العمرى ـ وهو متعصب لعلى باشا ـ خبرا متفردا فى جنسه ، خاصا بتولى على باشا فقد قال فى حوادث سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ما هذا نصه :

« وفيها سابع ربيع الآخر يوم الجمعة وقيل يوم السبت توفى الوزير الكبير والشهم الخطير سليمان باشا ، ملك بغداد نحو خمس وعشرين سنة ، وكان له سعادة واقبال فلم تكسر له راية . وكان قبل مماته أحضر جميع الامراء واشار عليهم بان يتولى بغداد كتخداه على باشا ، فحلفوا له ثم توفى ودفن فى المعظم وتسلم البلد باشارة الوزير والمرحوم القاضى والمفتى والامراء آصف زمانه حاتم اوانه رشيد اقرانه على باشا كتخداه الوزير المرحوم وصهره الضيغم المعلوم . . . » .

العراق رتبة لمدة سنين ، والرجل الاول تقريبا من حيث القوة والسطوة . على ان ذلك قد ولد له الاعداء . فان أصله الحقير ، والتقريع المؤذى فى كلامه ، وحقده الذى يغلى ، وثروته[١] العظيمة قد أدت كلها لتجمع قوى الحسد والسخط عليه . والحقيقة هى ان هذه كلها لم تكن لتؤثر فى سلامته الدائمة وتقدمه المستمر . الا ان اطماعه التى لا تعرف الصبر قد أودت بالاهداف التى كانت ترمى اليها .

وفى ١٧٩٣ م (١٢٠٨ ﻫ) كان الباشا قد قدم استقالته الى الباب العالى فى مصلحة أحمد[٢] ، فرفض ذلك . غير ان الكهية لم ينقطع عن تبيان محاسن الانعزال والتقاعد ، وعن أخذ السلطة بيده . وما حل عام ١٧٩٥ م حتى كانت الاحزاب تتخذ تدابير عملية عليه . على ان الشائعات عما كان يطمع فيه لم يكن ليصدقها الباشا لو أوصلت اليه ، وكان سليمان على عكس ذلك ينوى ان يفعل له فعلا مشرفا آخر وهو ان يزوجه بابنته خديجة خانم . فأجل أحمد قبول هذا الطلب لاسباب شخصية[٣] ، فانبرت الخانم لان تستعمل كل ما عندها من التأثير للايقاع فيه منتخبة لنفسها خاطبا جديدا وهو على آغا الذى كان امينا للصندوق حينئذ وصار قائدا لحملة الاحساء غير الناجحة فيما بعد . وفى هذه البرهة أصيب الباشا ، وقد بلغ الى الثمانين من عمره ، بمرض خطير . فانتهكته الحمى وأخارت قواه وقادته الى شفا الموت مع سعى الاطباء الايرانيين والمنجمين . وكذلك لم يجده هواء كردستان البارد نفعا . فتداركه حذق طبيب افرنسى (كان مقيما فى بغداد مدة طويلة) واعاد له اعتدال مزاج قليلا . ولم يحدث ما يدل على قرب حدوث كارثة تصيب علاقة الكهية بالباشا . وعلى ذلك انقضى نيسان ١٧٩٦ م (١٢١١ ﻫ) .

غير ان خطط على آغا ، وقد اصبح زعيم الراغبين فى تنحية أحمد عن منصبه ، قد نضجت . فقد تمكن المتآمرون من جلب مرافقى سليمان باشا الخاصين به الى جانبهم . وانتقيت فرصة للقيام بقتله ، وهى صبيحة احد الايام التى كان يجلس فيها الباشا فى مجلسه العام . وما حان صباح اليوم الموعود حتى خرج الباشا على جارى عادته من

---

(١) اوليفيه (ج ٤ ص ٢٦٢) ، جاكسون (ص ٩٧) .

(٢) غاية المرام (سنة ١٢٥٨) . ويقول اوليفيه (ص ٣٥٥) ان أحمد ضغط على الباشا الشيخ بالاستقالة فرفض .

(٣) كان سلوكه ذلك مبنيا على ان زوجته الحالية كانت جميلة ، وربما كانت هى قد استنكرت ذلك ايضا .

منزله الى ديوانه ، فدخله وجلس في محله المعتاد . وما كاد الكهية وقد جاء بعده يعتلي السلم حتى أغمد فيه عشرون خنجرا مرة واحدة . فرميت جثته المثخنة بالجراح المميتة الى اسفل وبقيت ساعات عديدة معروضة للمتفرجين من الناس . اما سليمان فقد ذعر من الحادث ونهض من مكانه وهرب مسرعا الى غرفته الخاصة . وهناك استدعى في الحال مشاوريه محمد الشاوي وعبدالله اليهودي الصراف . فصدر بعد ذلك أمر لآغا الانكشاريين في بغداد بان يركب في الشوارع معلنا القتل المحق للكهية الخائن . ولا نعلم أكان الفعل هذا مقترنا من الاصل برضا الباشا ، فربما كان قد تحقق بخيانة خادمه واطماعه ، أم كان أمره بمثل هذا البيان ناشئا عن خوفه وفزعه مما رآه[1] . وما حل مساء ذلك اليوم حتى أقيمت حفلة زفاف علي آغا الى خديجة خانم ، وتلا ذلك ترفيعه الى رتبة ميرميران ونصب في وظيفة الكهية بسرعة . اما ثروة أحمد المكتنزة فقد أضيفت الى ثروة سيده الباشا ، الا انها لم تؤاسه ولم تعوضه عن فقد وزيره المحبوب المقـدر[2] .

وتدل الحملات الاعتيادية التي سيقت في السنين الاخيرة من عهد الباشا على قبائل الزبيد والخزاعل وعفك على احوال غريبـة غير آمنـة . كما تدل الواردات والهدايا الثمينة المرسل بها الى استانبول على ان الباشا كان لا يزال مواليا ولو قلت قيمته بنظر

---

(١) يظهر لنا ان سليمان باشا كان على علم بالامر فقد ذكر ياسين العمري في حوادث سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) ما هذه صورته :

« وفيها اواخر شعبان خرج الى الصيد والى بغداد الوزير سليمان باشا واقام في البر بين بغداد وكركوك الى اواخر شوال ثم عاد الى بغداد وغضب على كتخداه أحمد باشا بن الخربنده فقتله اواخر شوال ، قيل انه اراد الغدر في مولاه ، فلما حضر بين يديه نظر اليه وهما كما قيل :

وللغدر عين لا تزال عبوسة وعين الرضا مكحولة تتبسم

فأشار الى احد امرائه ــ وقد اعتمد على شجاعته وفروسيته ــ الامير المكرم علي باشا : فضربه بالسيف على رأسه ، جرحه جرحا بالغا ثم ضربه اخرى ، فرق بينه وبين جثته ، ثم ضربه ثالثا على خاصرته ، قده نصفين ، ثم اجتمعت باقي الامراء وضربوه وقد مات من اول ضربة والقوه في حوش الصراي واستولى الوزير على امواله ومماليكه ثم جعل الوزير سليمان باشا كتخداه الامير المذكور والشهم المنصور آصف زمانه علي باشا ، ثم صادر الوزير سليمان باشا عبدالله بك أخو (كذا) كهية أحمد باشا وأخذ منه اموالا وأهمله . » م . ج »

(٢) بريجز (ص ١٨٢) .

البادشاه . وقد أثارت الضربات المهينة التي أنزلها الوهابيون سخط العالم الاسلامي على الباشا .

ولم يبق من حياة الباشا غير المرحلة الاخيرة . فقد شفي من مرضه المنذر بالموت في ١٧٩٦ م بعد ان ابتهل له اليهود والنصارى والمسلمون الى ربهم على سواء . غير ان حيويته المعجبة التي استفرغت كلها مدة ثمانين حولا لابد ان تأخذ بالوهن والتضاؤل بمرور الزمن . وفي اوائل ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) أصبح عليلا لا قوة له ابدا . ولم يتداول ارباب الدولة في تعيين من سيخلفه لا في استانبول ولا في بغداد . فقد كان اولاد الباشا اذ ذاك صبية صغارا ، وكانت خديجة احدى بناته : زوجة علي باشا الكهية ، وكانت قد زوجت ابنة اخرى سليم آغا الذي صار متسلم البصرة فيما بعد . وكانت البنتان الاخريان قد خطبتا لداود افندي ولناصيف أغا رئيس الحجاب . وهؤلاء جميعا هم الذين يجب ان يعدوا مرشحين لان يخلفوه . كما ان رؤساء الاسرة الشاوية ، ومتسلم البصرة ومتسلم ماردين ، والدفتردار وآغا الانكشاريين ربما كانوا جميعا يفكرون تفكيرا خطيرا في هذا الشأن . على مثل هذا كان الجميع يترقبون بعاطفة وطمع حياة الباشا العظيم الآخذة بالانطفاء . وكان جميع هؤلاء من صنف المماليك عدا الشاوية العرب والآغا الانكشاري . وما حل شهر آب حتى كان سليمان في الموتى . وكانت آخر الضربات ، التي ركس بعدها ، انزعاجه من الطاعون الذي كان قد أخرجه من بغداد والرعب الذي أصابه من فاجعة كربلا . وكانت وفاته قبل ظهر اليوم السابع من شهر آب لسنة ١٨٠٢ م[1] .

---

(١) يلخص كتاب دوحة الوزراء اعمال سليمان باشا بما يلي : كان قد أصلح سليمان باشا سور بغداد وحصن جانب الكرخ ، فبنى له السور وحفر له الخندق . وأضاف قسما من الابنية الى السراى . وكذلك بنى المدرسة السليمانية « بجميع مرافقها » وأصلح بناء جامع القبلانية والفضل والخلفاء وعين فيها المدرسين . وطلى قبة أبي حنيفة بالذهب ، وبنى سوق وخان السراجين . ثم انه أعاد بناء دلي عباس وشرمان (ربما كانت شهربان) ، وبنى او اصلح سور مندلي والحلة والبصرة ، وشاد جسر النارين ودار الاسلحة في الكوت (؟) والبصرة وجصان . وكذلك حصن الزبير وماردين واسكي موصل . ثم انه بنى الخانات في الاسكندرية وكربلا . ومن الاعمال الاخرى التي اشرف عليها حفر الهندية من جنوبي المسيب وذلك لسقي النجف .

الفصل التاسع

المماليك الاواخر

ثلاثة عهود قصيرة

ما كاد بيوك سليمان يلفظ نفسه الاخير حتى انفجر[1] شغب عنيف تفكر فيه المدبرون له طويلا . وقد انسحب اضعف المرشحين لتولى الحكم وسايروا احوالهم عند اقتراب الازمة ، ولم يبق من المتنازعين الا على باشا الكهية وأحمد آغا رئيس الانكشاريين[2] وسليم آغا وحدهم . فكان أحمد قد دعا قبل وفاة الباشا بايام قلائل المقيم البريطاني الى مجلسه وطلب منه كتابا الى السفير في استانبول . وبادر الآن (وربما كان ذلك قبل الوفاة بساعة) بجمع من استطاع جمعهم من الرعاع والسوقة واستولى على القلعة ، فتحصن بها وأخذ يضرب السراى . وتحققت فى هذا الاثناء وفاة الباشا ، فتولى المنصب على[3] باشا قائما مقامه . وقد لعب ناصيف دورا ثانيا ، حيث كان يتصل

---

(١) اتبعت فى هذا رواية بريجز (ص ٢٠٤) لانه كان شاهد عيان محايدا وفضلت على دوحة الوزراء . ويتفق الاثنان بشيء من الرواية .

(٢) بريجز (ص ٢٠٥) كان أمل الباب العالى فى الحصول على كنوز الباشا الشيخ أحمد آغا .

(٣) ان لياسين العمرى — وهو متعصب لعلى باشا — خبرا متفردا فى جنسه ، خاصا بتولى على باشا فقد قال فى حوادث سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ما هذا نصه :

« وفيها سابع ربيع الآخر يوم الجمعة وقيل يوم السبت توفى الوزير الكبير والشهم الخطير سليمان باشا ، ملك بغداد نحو خمس وعشرين سنة ، وكان له سعادة واقبال فلم تكسر له راية . وكان قبل مماته أحضر جميع الامراء واشار عليهم بان يتولى بغداد كتخداه على باشا ، فحلفوا له ثم توفى ودفن فى المعظم وتسلم البلد باشارة الوزير والمرحوم القاضى والمفتى والامراء آصف زمانه حاتم اوانه رشيد اقرانه على باشا كتخداه الوزير المرحوم وصهره الضيغم المعلوم ... » .

سرا بالقلعة والسراى معا . اما المدينة فقد كان فيها لدوى المدفعية واطلاقها من القلعة تأثير كبير . فاغلقت الحوانيت والمخازن وامتلأت الشوارع بالاهالى المسلحين الخائف اكثرهم ، ثم تألفت الجماعات والاحزاب فانحاز القسم الاغلب منها الى على باشا المرشح المشروع والحاكم الفعلى الحقيقى للمدينة . غير ان أغا الانكشاريين فى القلعة لم يكن بوسع احد اخراجه ولا اقناعه ، وبقيت الحال متقلقلة يوما بعد يوم كما ظلت النتيجة معلقـة .

ولاجل حل العقـدة الحاصلة انسحب فى الاخير على باشـا من قائمقاميته متنازلا للآغا الانكشارى وقبع فى بيته . الا ان أحمد آغا بقى غير مقتنع بحسن النية فى هذا الانسحاب ، وكان محقا فى ذلك . فقد عبر على باشا فى ظلام الليل الى جانب الكرخ وحث الاهلين وعشائر العقيل وجماعات من الانكشاريين المنشقين وقادهم ، فهاجـم بهم الرصافة فى الزوارق والسفن بعد ان قطع الجسر . وبعد مقاومة قليلة ازداد عددهم بمئات ، فتمكنوا من الاستيلاء على السراى والميدان . غير ان الآغا الانكشارى ما فتىء حافظا للقلعة ، ثم ان مسعاه فى هذه المرة قد أحبط . فقد دبر له على باشا ، الذى كان بيديه الاصفر الرنان ، المكائد فانفض اتباعه عنه خلال ساعات معدودة . ثم لاذ أحمد آغا بالفرار واختبأ فى احدى دور بغداد . فخلفه سعدالله آغا فى قيادة الانكشاريين الذين عادوا الى السكينة ، وأعيد الامن والنظام الى كل مكان . وبعد ذلك جىء بأحمد فقتله الحرس المماليك ، وشنق اربعة عشر من اتباعه من بعده . ثم عهدت حكومة تكريت الى سليم آغا . وقد لخص شاهد عيان[1] هذه الحوادث بما يلى :

« دام العراك وانتشرت الفوضوية فى المدينة مدة تتراوح بين الاسبوعين والثلاثة اسابيع . وكان استهلاك البارود والقذائف (الكرات) والقوان فاحشا . غير ان جميع القتلى والجرحى من الجميع لم يتجاوز عددهم خمسة اشخاص . على ان هذا العدد قد ازداد كثيرا بعد ان استتب الامر لعلى باشا ونصب المشنقة فكانت ضحاياها كثيرة » .

ونظمت بعد هـذا عريضة وقعها البغداديون قاطبـة فبعثوا بها الى السلطان طالبين بها مصادقتهم على تعيين على باشا . ثم أرسل الى استانبول بمبلغ يساوى ستين ألف باون للغرض نفسه مع شىء قليل من لوازم سليمان باشا الثمينة . واستولى على باشا

---

(١) بريجز (ص ٢٠٩) .

والمماليك على بقية ما خلفه سليمان باشا . وبعد مضى اربعة اشهر صدرت ارادة ملكية بترفيع الباشا الى رتبة وزير ، وعهدت اليه حكومة الباشا العظيم بأجمعها .

وتكون مدة الجيل[1] الكامل المتقضية بين تبوء على باشا الحكم ونهاية حكم المماليك فى العراق من باشويات على باشا نفسه واربعة آخرين من بعده . على ان نهاية هؤلاء جميعها لم تكن نهاية هادئة . وكانت المدة التى حكم فيها على باشا ، البالغة خمس سنوات ، اطول مدة حكم بها مملوك من المماليك الاواخر عدا مدة داود باشا الذى كان آخر مملوك حكم العراق . وكان العراق خلال المدة المذكورة يشابه سائر ولايات الامبراطورية باستقلاله الذاتى وسوء استعمالاته وبحكم المستبدين المحليين الذين لم يوحدوا حتى حكومة الولاية . وكانت مقدرات العراق ، طوال هذه المدة ، فى استانبول تلعب بها القوى المختلفة والشخصيات المتعددة التى كانت تتزاحم من أجل الحصول عليه . على ان ما تمتاز به هذه المدة من الوجهة التاريخية امور عديدة أهمها شخصيات بغداد ودسائسها ، وعصيان القبائل المستمر كالعادة ، وتهديدات نجد الاخيرة ، وسياسة الاكراد التى كانت آخذة بالتورط شيئا فشيئا مع الجيران الايرانيين . وسوف يبحث عن هذه الاوجه التاريخية بالتعاقب .

فاول[2] عمل قام به على باشا كان سيره لتأديب اكراد البلباس الذين سار لتأديبهم

---

(١) المراجع حتى ١٨٣٠ : دوحة الوزراء (الى ١٨٢٥ فقط) ثم كتابا سليمان بك مع كتاب ياسين العمرى ومطالع السعود . ويقف غاية المرام ببحثه فى ١٨٠٣ م ويقف غرائب الاثر فى ١٨١١ م (١٢٢٦ هـ) . وأهم السياح هم دوبرى (١٨٠٧) وبكينغهام (١٨١٦) وهيد (١٨١٧) وبورتر (١٨١٨) وريج (١٨١١ - ٢٠) وويلستد (١٨٣٠ - ٣١) . ويذكر كتاب شانيزاده التركى شيئا من المصادر ايضا .

(٢) ان اول الاعمال التى قام بها على باشا هو ما ذكره ياسين العمرى بعد ذكره وفاة سليمان باشا من سنة ١٢١٧ قال : « ثم ظهر فساد بعض عرب العراق فأمر ولى النعم رب الشيم صاحب السيف والقلم على باشا بالمسير الى تلك الفرقة الباغية فساروا اليهم ونزلوا عليهم واذلوا كبيرهم ونهبوا شريرهم وعادوا الى بغداد منصورين » ولكن هذا الابهام من ياسين العمرى لم يترك للخبر قيمة تاريخية .

ثم قال : « وفيها أرسل والى بغداد الوزير على باشا الى الموصل يأمر محمد باشا ليأمر سليم بك واخوته ومن معهم من البابان يحاربوا اولاد حسن بن محمد الذياب (رئيس عرب الشمامك من طى) فركب سليم واخوته وساروا الى حمام على فوجدوا الارض بلقع وقد هربوا فى البر ثم استولى على اغنامهم سليم بك وهى اربعة آلاف رأس غنم وعاد منصورا » . « م . ج »

حسن باشا قبل قرن • فأجرى فى هـذه الحملة ابراهيم باشا بابان الهجوم بحسب خططه • ولحق على باشا بقوانه التابعة فى اربيل • فأذعن البلباسيون من غير مقاومة منهم كثيرة ، ودفعوا غرامة كبيرة من حيواناتهم • ثم عبر على باشا من هناك الى الموصل فوجد ان مدة حكم محمد باشا الجليلى الطويلة كانت توشك ان تنتهى • وعزز هناك قواته بجيوش الباشوية هذه فسار للقضاء على لصوص جبل سنجار فأدت اساليب الحصار والضغط المتوالى الى طرد اليزيديين من كهوفهم ولاضطرارهم الى الاستسلام بشروط قاسية • وكذلك ضربت قبائل الجزيرة التى كان من السهل الوصول اليها وأدبت • ومات فى هذه الحملة ابراهيم باشا بابان فخلفه عبدالرحمن ، وكان فضل تسريحه من الحلة والعفو عنه بعدئذ راجعا للفوضوية التى سبقت تسنم على باشا كرسى الحاكمية فى بغداد • وزحف الجيش من سنجار الى تلعفر وفيها حكم على محمد بك الشاوى وعلى أخيه بالاعدام وعلى ابن عمهما الاصغر بالسجن • وكان سبب اعدام محمود باشا ، وهو اعظم عربى بين رعايا الباشوية ، الحسد والخوف ، ثم ذكرى الخيانة التى اتهم بها فى الحملة التى سيقت على نجد عام ١٧٩٩ م (١٢١٤ هـ) واسندت اليه فيها تهمة مخابرته العدو ومخامرته لهم • ففر ابنه جاسم الى العبيد • فتلا ذلك قتال بين العبيد والاكراد الملليين ، اتباع تيمور باشا ، الذين ربما قاموا بعملهم هذا سعيا فى ارضاء حكومة بغداد وذلك ليقبضوا على المنهزم • فخاب تيمور فى مسعاه هذا كما خاب بعده رتل من جيش على باشا جهز للغرض نفسه • وفى غضون هذا العهد حدثت فتنة فى بغداد اضطرت على باشا الى الرجوع • وقبيل وصوله اليها كانت وطأة الطاعون فيها قد خفت بعد ان فتك الوباء بالناس فتكا ذريعا •

اما حوادث الباشوية الاخرى فقد كانت تتعلق اما بالوهابيين واما بالاكراد الذين خصصت للبحث عن كل منهم جملة من الصفحات المستقلة • ومما يذكر هنا ان عددا من الاغوات الاماثل (ومنهم داود افندى) لم يكن فى وسعهم ان يجدوا مكانا مريحا فى

ديوان على باشا الوبيل ، فتركوه الى البصرة وغيرها[1] . وأدى الارتياب بتآمر خالد آغا الكهية مع البابانيين الى عزله واعدامه ، فخلفه فى المنصب سليمان بك ابن اخت على باشا . اما الحملات العشائرية فأهميتها قليلة . وقد حالت دون القيام بمحاولة اخرى للقبض على جاسم الشاوى فى ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) حادثة خطيرة فجائية حدثت فى كردستان . الا ان قبيلة هيجت على اخرى ، فطارد فارس الجربا مع رجاله من شمر العبيد والغرير وحمدان وأدبهم بشدة عند عبورهم الفرات . وحاولت الحكومة فى ١٨٠٥ م اخضاع العبيد من جديد . وفى اوائل ربيع سنة ١٨٠٦ م قاد الكهية الشاب قوة وسار بها الى بنى لام ثم الى ديار ربيعة والمقاصيص . وفيما عدا هذه كانت سائر بلاد العراق هادئة بحسب مقاييس الهدوء لذلك الزمن . غير ان هذه الحال لم تبق الا قليلا ، فقد كان موت الباشا الفجائى القاسى ناشئا عن احقاد ذاتية . اذ كان مداد بك ، الاباظى الاصل مثل على باشا (وكان ابن رجل قوقاسى خدمه على فى صباه) ، قد وصل الى بغداد قبل ثلاث سنوات . وقد سنحت الفرصة التى كان يترقبها منذ مجيئه ، وهى انه ظفر بعلى وهو يصلى فانقض عليه مع خدامه بالخناجر وقتلوه فى الحال . وبعد ان فروا الى الخارج اخذوا يلتجئون من مكان لآخر طلبا للمؤازرة او التخفى . وقد خدعوا جند الكهية وهربوا تحت جنح الظلام الى الجانب الايمن من المدينة . ولم يحاول استغلال الحادث لنفسه ولا لمصلحة القتلة الا ناصيف آغا . غير انه لم يرد عليه احد ، وبعد ساعات قليلة جىء بجثتهم وجثته وعرضت فى رأس الجسر .

ولم يكن أمر تعيين خلف للباشا فى هذه المرة شيئا عسيرا . فكانت ، بعد على الجرىء المتعصب الشديد غير المحبوب ، شخصية ابن أخته سليمان باشا الجذابة مما يرحب بها الجميع . وكان سليمان باشا ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، مندفعا غير متساهل ولا خال من الطمع ولكنه كان ذا صفحة بيضاء وفكر مثقف ونيات حسنة وتفكير فى الامور العامة[2] . وكان له كل الحق فى تولى الباشوية لكونه كهية الباشا وسليل بيته زيادة على كونه سيد بغداد الحقيقى . فبقى وكيلا عن الحاكم مدة مديدة

---

(١) قال ياسين العمرى : « وقبض على باشا على اولاد صبغة الله افندي الحيدرى (العلامة الماورانى البغدادى الشافعى المتوفى سنة ١١٨٧) ونفاهم الى البصرة ، وكان على ما قيل ان الوزير (كذا) يعرف الغدر ظاهرا من عيونهم (كذا بهذا السخف من التعليل العليل) » . « م. ج »

(٢) ريج (ص ٢٥) .

حتى عين الباب العالى ، بكل عقم ، يوسف باشا (وهو صدر أعظم سابق) للوظيفة الشاقة التى لم يكن فى وسعه القيام باعبائها • وبعد تأخر طويل وصل الفرمان بتعيين سليمان - المعروف بالصغير - وذلك فى اواخر ربيع سنة ١٨٠٨ م (١٢٢٣ هـ) •

وفى خلال عهده الممتد ثلاث سنوات كانت سوية الامن فوق المعدل بوجه عام • ومع ان البصرة والموصل كانتا ممزقتين بأنواع الشغب ، فان الحملات العشائرية كانت قليلة ولم يقلق بغداد اى عنف وفتنة • وقد خصص صيف ١٨٠٨ م بحملة كردية واخرى وهابية • وفى ١٨٠٩ م (١٢٢٤ هـ) استدعت الحال تجريد حملة اكثر مشقة ، فسارت يقودها الباشا الشاب الى اقصى حدود ولايته وذلك لقتال القبائل فى ايالة اورفة • فكان نجاحه فيها امرا يكتنفه الشك ، وقبل انتهاء الحركات الحربية اضطر الباشا للذهاب من رأس العين الى ماردين على اثر حادث مستعجل دعاه لذلك • فأعادت مساعدات تيمور باشا والشيخ فارس وغيرهما من الاتباع ، التى جاءت فى الوقت المناسب ، المياه الى مجاريها ، ولكن مع تعد وخيم العاقبة فى داخل ايالة ديار بكر[1] • وعندما عاد سليمان من ماردين الى الموصل وجد فيها حربا أهلية قد تعاظم اوارها •

فقد ترك محمد باشا الجليلى حكومته لابنه محمود بعد ان حكم مدة ثمانى عشرة سنة توفى فى نهايتها • غير ان معارضة عنيفة قد بدأت بزعامة اسعد بك بن الحاج حسين باشا القديم • ومن نزاعات هذين الشخصين وقع الحكم لقريبهما نعمان باشا ، الرجل الضعيف فى صحته الجائر فى حكمه • فكان هذا ممكنا احتماله ، الا ان تعيين أحمد افندى فيما بعد وهو مجرد كاتب « سكرتير » لنعمان لا غير قد اثار عاصفة من احتجاجات الجليليين • وقد حاول سليمان بلا جدوى ان يقف الى جنب مرشحه • وكانت مقاومة الجليليين العنيفة بزعامة اسعد قد تعدت حدود مدينة الموصل ، فزجت الموصل وما حولها من البلدان فى أتون من الفوضوية التى كانت تلائم كثيرا من ابناء الاسرة • فكان لابد من ارسال نجدة من بغداد الى أحمد الهارب - وكان لا يزال الوالى الاسمى - وقد دبر قوة لا يستهان بها فضرب بها بشدة لاسترجاع حقوقه • لكنه ما قارب الظفر حتى قتل ، فأمسك الجليليون من جديد زمام الامر وانفرجت الازمة بالانقياد للضرورة • فأصبح محمود باشا واليا ، وتلاه فى الولاية ثمانية حكام

---

(١) كان هذا التجاوز للحدود يعد سببا من اسباب سقوط سليمان الصغير بصورة عاجلة •

آخرون من نفس الاسرة .

اما البصرة فقد كان فيها سليم آغا (صهر سليمان الكبير) متسلما فى ربيع سنة ١٨١٠ م (١٢٢٥ هـ) . فكان كثيرا ما يخالج نفسه الطمع فى الباشوية فاستفزته من اجل ذلك انباء وصول وفد سلطانى الى بغداد للتفكير فى حينونة الوقت لتحقيق الامانى . الا ان اوامر بغداد قد وصلت اليه تقضى بالتخلى عن المنصب . ولما كان معتمدا على قوة المنتفكين معتدا بنفسه أبى الاذعان لاوامر بغداد . وكان سيده فى بغداد قد اوعز للمنتفكين انفسهم بالسير اليه لاخضاعه وتنفيذ اوامر عزله ، فما كان منهم الا ان لبوا نداء الباشا فساروا لما امرهم به . وبينما كان هؤلاء يسيرون سيرا بطيئا من الشمال ، والاتراك يتقدمون عن طريق دجلة الى البصرة اغلق سليم ابواب البلد وجمع امتعته واشياءه فى سفينة صغيرة . ولما ايقن ان حلفاءه الذين كان جل اعتماده عليهم هم اعداء له فى الحقيقة ترك البصرة مبحرا الى بوشهر . وبذا انتهى أمر العصيان ، ودخل البصرة أحمد بك ، اخو سليمان الصغير بالرضاعة ، وصار متسلما فيها .

وعلى هذا عم نوع من السلم فى طرفى الباشوية . غير انه لم يقدر للحاكم الحالى ان يتمتع طويلا بهذا السلم . فقد تسنم عرش آل عثمان سلطان قوى حديث . فعلم بالتعدى على ديار بكر الذى كان منذرا بالسوء كما فهم بكلمة واحدة مقدار وارداته من العراق . ولم يكن فى الحقيقة من الممكن له ازال ضربة قاضية حينذاك ، وانما ارسل ممثلا ذا رتبة عالية وهو « رئيس افندى » حالة محمد سعيد[1] الى بغداد . فقابل الباشا الصغير وطلب اليه احد امرين : اما دفع الواردات بصورة منتظمة واما التخلى عن المنصب . ثم رجع صفر اليدين الى الموصل وفيها اهتم لجمع قوة كبيرة لا تغلب . فخف الى ممثل السلطان وتلبية ندائه محمود باشا الجليلى وعبدالرحمن ، رئيس البابانيين المعاصر ، وكثير من كبار الشيوخ مع قسم من المماليك المعزولين والمغضوب عليهم . فأعلن لهم خلع سليمان الصغير . ثم سارت نحو الجنوب قوة قوامها خمسة عشر ألف مقاتل ، فكان اشتباك واحد كافيا للحصول على الأمر المروم . فوقعت المعركة بعد ظهر اليوم الخامس من تشرين الاول ١٨١٠ م وانتهت بغروبه . وكانت النتيجة ان تخلت عن سليمان معظم قوته فاندحر اندحارا تاما ، ثم فر وحده

---

(١) وزير الخارجية . راجع عن سيرته تاريخ جودة (ج ١٠ ص ٥) .

فعبر ديالى الى الجنوب وهناك قتلته قبائل شمر طوقة[1] .

ونشأت فى الحال قضية تعيين خلف له . فوجب ان تكون الكلمة الاخيرة فى هذا الشأن عند حالة افندى الذى كان حاملا معه فرمانا خلوا من الاسم ومخولا كتابة اسم من يريد تعيينه فيه . بيد ان اعظم قوة مباشرة كانت بيد البابانى الذى جاءت به الى بغداد اطماعه وولاؤه كمنصب للملوك[2] . فقد كان هو الذى قتل الاغوات الذين كانت تحوم حولهم الريب ، وهو الذى سعى بترفيع عبدالله آغا التوتونجى[3] الى الباشوية بعد اقناع حالة افندى . فصودق على تعيين التوتونجى باشا للايالات الثلاث ، وقرىء الفرمان وتسلم الباشا وظيفته ، فرجع حالة افندى مملوء اليدين الى استانبول .

كان عبدالله آغا ذا شخصية شاذة . فقد كان مملوكا[4] اشتراه سليمان الكبير فى البصرة ، وكان على عهد سيده قد اتفق مع على آغا على قتل أحمد . ثم تقلد وظائف عديدة ما عدا حاكمية البصرة وحاكمية ماردين . وكان المقيم البريطانى يساعده فى ان يخلف سيده الباشا الكبير . وقد اقصاه على باشا الى البصرة وفيها بقى حتى امر باعدامه سليمان الصغير . الا ان سليم آغا ، احد اقاربه وزميله ، ساعده على الفرار الى كردستان وهناك بقى حتى مجىء حالة افندى الى الموصل . اما طاهر آغا ، رفيقه فى جميع هذه الاخطار ، فقد أصبح الصديق الثقة للباشا والكهية فيما بعد . وقد كان لعبدالله جلد فى العمل وفكر متوقد وثقافة تؤهله للتحدث مع الاوربيين . وكذلك كان حرا فى الديانة ، وجذابا للقلوب ، وكثير السؤال فى حديثه ، ومقتدرا فى الادب كاقتداره فى شؤون الدولة . وكان قد حصل على سمعة حسنة نادرة فى وظائفه التى تولاها سابقا . فكثرت الواردات فى ايامه من غير عسف وعم الضبط بغير عنف . وكان ايضا سخيا من دون تبذير ، وعادلا فى الحكم ، وسهلا وصول الجميع اليه . غير ان

---

(١) ان ما كتبه ريج يكاد يطابق المراجع الشرقية .

(٢) ان المدونات التى تراعى جانب البابانيين تنص على ان حالة افندى عرض على عبدالرحمن الحاكمية فرفضها . وتقول مراجع اخرى انه طلبها فرفض طلبه . والمرجح ان الرواية الثانية هى الصحيحة لان تعيين البابانى لو كان قد تم لكان يعد خيبة تامة وعملا خطرا ، ولكان قابله السلطان محمود نفسه بالرفض .

(٣) لا تعرف اسباب تسميته بهذا الاسم .

(٤) يقول هارفرد جونز ان عبدالله آغا من الاسر الكبيرة المحترمة فى بغداد .

مزاياه هذه لم تفده الا قليل فوائد فى الحكم • فقد تمادى حزب سعيد ـ ابن سليمان البالغ اذ ذاك من العمر ١٨ عاما ـ والحلقات الصغيرة الاخرى ، التى تقف كل منها فى جانب احد الاغوات ، فى المعارضة والمماطلة ، فكانت تدل الاستبدالات العديدة بين كبار الموظفين على وجود عدم استقرار فى السراى بسبب الحسد الكامن •

اما علاقاته المربوطة بعبدالرحمن باشا ، الذى صيرته الثورة قويا مخطرا ، فقد ركت وساءت • والحقيقة هى ان الحملة التى سيقت على البابانى فى اوائل ١٨١٢ م (١٢٢٧ هـ) كانت أهم حملاته • فعززت انتصاراته فى كفرى موقفه كثيرا • وكانت هذه فى نفس الوقت ظفرا للدفتردار داود افندى الذى سيذكر عنه الشىء الكثير • وبعد موقعة كفرى تقدم التوتونجى الى كركوك والموصل لتأديب سكان البلدان غير الموالين ممن عاضد البابانيين ، ولتطهير الدولة من أسوأ الموظفين ، ولعقاب العشائر فى طريقه • وقد تمكن سعدالله باشا الجليلى فى الموصل ان يقلب غضب زميله القديم عليه رضا ، بمأدبة ملكية فاخرة • ورجع عبدالله الى بغداد فى خريف ١٨١٢ م •

وقد قضى الشتاء فى الاستعداد لحملة كردية اخرى • ثم صرف عناية الباشا عن ذلك خبر سىء يفيد ان سعيد باشا ظهر فى المنتفك فاستقبله استقبالا حسنا حمود الثامر الذى حاول عبدالله باشا عزله دون ان ينجح • فاشتغل الديبلوماسيون بين بغداد وسوق الشيوخ • وقد صرح حمود بانه لا يقصد اى سوء وغاية ما عمل هو ايواء « ابن افندينا القديم » • وقد اشار الكثيرون على الباشا بعدم الاقدام على عمل تكون عاقبته حمل المماليك على ان يختاروا بين ابن سيدهم القديم وخادمه من قبل • غير ان الكهية طاهر آغا أصر على الحرب التى كانت فى الحقيقة أمرا لا يمكن تأجيله • وفى كانون الثانى ١٨١٣ م سارت قوات بغداد الى بلاد المنتفك • اما حمود والقسم الاعظم من قبيلته ، واتباع سعيد الخاصون به ، وجمهرة المخاطرين والعصاة المتمردون الذين كانوا قد لجأوا فى اوقات مختلفة الى الاهوار فقد تجمعوا فى مكان على عدة اميال من البصرة • فكان عددهم قليلا بالنسبة للقوة التى سارت اليهم • الا ان عددا كبيرا من جند العدو خامروا وانضموا اليه فتوسعت قوته توسعا كبيرا • وفى التعرضات الاولى جرح برغش ابن حمود جرحا بليغا • وربما كان الحظ قد ساعد الباشا فيما قصده ، الا ان فرار الجند من جيشه زرافات قد حال دون ذلك • فقد تخلى عن الباشا حرسه من المماليك وحلفاؤه من القبائل على سواء ، وانضموا الى سعيد وحاميه العظيم الخشن •

وقد ترك عبدالله مع طاهر وبعض الاتباع وحدهم فباتوا فى حال الملتجئين • فأرسل حمود ، وهو المنتصر بغير دماء ، أخاه ليعرض عليهم سلامتهم ، فلم يجدوا بدا من الاذعان • فسلموا وارسلوا أسرى الى السوق وفيه كانت حياتهم معلقة على حياة برغش الذى كان يكافح لحياته ويقاسى آلام جروحه • واخيرا مات فانتهى بذلك أجل الباشا وحاشيته • فقد شنقوا جميعا ودفنوا ، ثم نبشت قبورهم وأخرجت جثثهم من جديد فقطعت اربا اربا • وبذلك مات حاكم كانت صفاته نادرة المثال وكان مستقبله زاهر المآل موتة حقارة وذلة بعد ان اصابه فشل مروع وخيبة ممضة • وما كان ذلك الا ليفسح فى المجال لآخر بعده يقل عنه قدرا مئة مرة •

الوهابيون ١٨٠٢م (١٢١٧هـ) — ١٨١٠م (١٢٢٥هـ)

ان غضضنا الطرف برهة عن شواغل السياسة وعنفها فى العاصمة فيجب علينا ان ننظر نظرة الى الاوجه الاخيرة من الخطر الوهابى • فقد بقيت الغزوات تشن كل سنة على القرى والمسيمين[1] فى غرب الفرات ، وتعدت فى بعض الاحيان فعبرت الفرات الى الشامية فبلاد الزبيد • غير ان اسوار الرهص أخذت تحمى القرى ، كما أخذت الحاميات المعززة تحمى البلدان الكبيرة • وتعود المسيمون سوق قطعانهم بخفة والابتعاد بها عن مواطن الخطر عند دنوه ، والالتجاء الى أقرب آغا ومن يتبعه من اللاوند • فلذلك لم يزد عدد المنتقلين الى الوهابية من العراقيين •

وقد اعتقد ناس ان قتل عبدالعزيز بن السعود الشيخ الهرم فى ١٨٠٣ م (١٢١٨ هـ) كان بتحريض من باشا بغداد •على ان القاتل كان « ملا » افغانيا وكان يقيم ببغداد ، وقد قتله انتقاما لابنائه المذبوحين فى موقعة كربلا • وكان الغزو الوهابى للنجف فى الايام الاخيرة من تلك السنة بقوة أشد من القوى الاعتيادية ، غير ان قبة على بن أبى طالب بقيت ثابتة داخل سورها المنيع • فخف على باشا بتعبئة جيوشه — الراجعة حديثا من سنجار — واستعان بالقبائل التى كانت مستعدة اكثر منه لمقاومة القوة • وكان فارس ، شيخ شمر ، حليفا ومشاورا • فتقدمت القوة التركية الى الحلة ثم اجتازتها ، الا ان الغزاة هربوا فاختفوا عن الانظار • وفى ربيع ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) — حين يبدأ موسم الرعى فتأخذ قبائل الشامية فى الانتشار فى البادية — دهم الوهابيون القبائل هذه وعاثوا

(١) المسيمون جمع « المسيم » اسم فاعل من « أسام الماشية يسيمها » ، اى أخرجها الى المرعى قال تعالى « فيه تسيمون » •

فى المراعى فسادا من غير ان يردعهم رادع حتى أشرفوا على سور البصرة ، ثم قضوا على مقاومة المنتفكيين الذين وقفوا فى طريقهم وقبضوا على افراد الاسرة السعدونية . على انهم لم يكونوا كفاة للتغلب على دفاع المدينة حتى فى بلدة الزبير التى استطاعوا عزلها وتجويع أهلها ، ولم يتقدموا اكثر من ذلك الى ان وقع حادث استوجب تسليم البلدة اليهم . فقد كان حصن من حصون السور ، المزدحم فيه سكان البلدة اوانئذ ، يستعمل اذ ذاك مخزنا للبارود ، فحدث انفجار فيه أدى ليس لتدمير الحصن وحده بل الحامية باجمعها تقريبا . وتلا انسحاب النجديين العام ظهور حمود الثامر مع النجدات المنتفكية التى جاء بها ، فانضمت الى قوات المتسلم ابراهيم آغا . وتلقى على باشا فى هذه الاثناء الزمانية أمرا من السلطان بتدبير هجوم مقابل ، فجمع فى اواخر ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) قواته فى الحلة . ثم تقدم جيشه الرئيس فقارب قاعدة العدو . وتوغل رتل صغير منه فى داخل منطقة العدو ، غير ان العطش اضطره الى الرجوع[1] فرجع ومعه من الغنائم اربعمائة جمل . وبقيت قوات ابن سعود بالقرب من حدود العراق . وقد عززت حامية البصرة .

وفى ربيع سنة ١٨٠٦ م شن الوهابيون غارتهم السنوية مما يقابل نجدا الشمالى . كما كانت جماعاتهم الغازية متمادية فى غزو قرى الحدود من الطف ولكن من غير ان تنال نجاحا فى ذلك . وكان سكان البلدان من الزبير الى السماوة مع حلفائهم من القبائل يصدون هجاتهم مستسهلين ذلك . وقد اوشكوا ينجحون فى غارتهم المفاجئة على النجف لولا ان عاجلهم النجفيون من السور فكسروهم شر كسرة . ثم هددت الزبير مرة ثانية ، وانتشر الهلع فى البصرة نفسها . غير ان السهول المغمورة بالمياه عرقلت سير الابل فلم يجد الوهابيون ، الذين انهكهم الركوب مدة اسابيع وكانوا يحملون كثيرا من الجرحى معهم ، فى حصارهم . ولما علم بنو كعب والمنتفكيون خورهم وضعفهم هب الفرسان منهم لطردهم بعد ان انزلوا فيهم خسرانا ، ثم استنقذوا القرى التى كانوا قد احتلوها .

وفى آخر سنة من عهد على باشا وافت انباء الهجوم السنوى الوهابى المعتاد . فسار الباشا وعسكر فى الحلة ، الا ان الغزاة لم يصلوا فى هذه المرة . وتعاظم خطر هـذا التهديد فى السنة التالية على عهد سليمان الصغير (كوجوك سليمان) . فقد وردت اخبار

---

(١) كان قائدهم أحمد افندى سكرتيرا (وباشا المستقبل) بالموصل .

تنبىء بظهور قوة عظيمة من الوهابيين حوالى كربلا • فسببت هذه الاخبار ، المبالغ بها ، هلعا ورعبا فى بغداد نفسها فتسلح اصحاب الدكاكين والتجار باجمعهم • الا ان الوهابيين لم يعبروا الفرات ، وكانت الحقيقة ان قسما منهم استولوا على شفاثة وغزوا القرى والمرزات « حقول الرز » الى الحلة فى عبر قناة الهندية الصغيرة ورجعوا بمجرد وصول الباشا الى الحلة • على ان هذا لم يكن آخر التعديات الوهابية ، وانما أخذت جهودهم فى هذه الناحية تتضاءل بالتدريج فقل الخوف منهم • وبقى رعاة الفرات وغنامته لا يشعرون بالامن والطمأنينة الى ان هجم المصريون[1] على الوهابيين فخضدوا شوكتهم • وفى ١٨١٠ م (١٢٢٥ هـ) وصلت عصابة وهابية سالبة ، يقودها عبدالله بن سعود ، الى ما يقرب من بغداد • وكان الوكلاء الوهابيون يجبون « الخوة » من الرعايا العراقيين فى مستنقعات كربلا عدة سنين خلت من هذا العهد • وقد تطورت الحال فاصبحت تكتنفها العداوات غير المستقرة ، والغزوات غير المشروعة ، والفزع المتكرر ، والمحالفات وتبدلات العقيدة على حدود يستحيل الاتفاق عليها • وأصبحت نجد جارا صعب المراس لا يرتاح اليه العراق ، كما كان خوفه من هذا الجار يختلف باختلاف الحاكم عليه • ومن سنة ١٨١٠ م أخذ الامراء الوهابيون يسمحون بالتدريج بمرور القوافل الواردة من المناطق التركية الى واحات نجد ، كما سمحوا باستعمال العملة التركية • ولما كانت شراسة الوهابيين فى البادية وعدم تساهلهم لم تقل وطأتهما (ولم تقل حتى الآن) بقى ينبوع الخوف والخطر على الفرات هذا شيئا ثابتا ، وان الحوادث التى وقعت من هـذا القبيل فى القرن العشرين لتؤيد ، ومصداقها منير ، ما وقع على عهد المماليك •

شهرزور فى ١٨٠٢م - ١٨١٣م

كان قد وصف من قبل الدور الذى كان قام به عبدالرحمن بابان بكونه ناصبا للولاة فى بغداد • وقد كتب لابنه من بعده ان يعيد الدور نفسه بعد بضع سنوات • وان هذه القدرة على نصب الحكام وعزلهم فى ولاية تركية عظيمة من ميزات الحكومة

---

(١) استرجع الحجاز من الوهابيين على عهد على باشا فى ١٨١٢ - ١٣ م • وفى اوائل ١٨١٥ م كسرهم محمد على فى واقعة « بيسة » المشهورة • واستولى فى السنة نفسها طوسون على القصيم ، وانتهت حركات جيش محمد على فى نجد بعد حملة شاقة باستسلام عبدالله بن سعود •

البابانية التى تسترعى انتباهنا • على ان امورا اخرى من هذا الضرب يجب ان تستدعى انتباهنا ايضا وهى تأثير دسائسهم المستمـرة ونزاعهم الدائـم فى العلاقات بين ايران والعراق ، وفى طمس الحدود التى لم تكن مدة القرن الواحد بعد هذا كافية لتعينها بالضبط •

فقد بقى البابانى الموالى - الذى رجع لحكومته ثانية فى ١٨٠٢ - يساعد سيده فى بغداد باخلاص مدة من الزمن • فقضت قواته على الاضطرابات فى العمادية ، وخدمت مع الحاميات التركية فى الفرات • غير ان طاعته هذه لم تستمر • فقد قتل فى ١٨٠٥ م (١٢٢٠ ﻫ) بكل شراسة زميله وخصمه فى كوى محمود باشا - الذى كان شاركه فى تأديب الشاوى الثائر - وأثبت من بعد ذلك بعدد من حوادث قطع الطرق والمظالم ان ولاءه لبغداد قد انتهى أمره • فعهدت مهمة خلعه الى على باشا الجليلى فكسر الكردى الثائر فى آلتون كوبرى قواته الموصلية والمساعدة شر كسرة • وقد نهب عبدالرحمن البلدة ، وبعد ان تأمل جثث عشرين من القواد الاتراك انسحب لتحصين موقع له فى الدربند استعدادا لمقاتلة الجيش الذى لابد ان يسير اليه من بغداد • وقد وصل الجيش حقا ، لكنه خاب فى الصمود له ولم ينقذ حياته الا الفرار العاجل وحيدا الى سنه • ثم تفرق اتباعه وأعطى عرشه الى خالد احد اقربائه •

ولم يكن الايرانيون قد تركوا ادعاءهم بشهرزور كما لم يكونوا صادفين عن العطف على البابابين • ولما أخبر الشاه من سنه بالامر أقطع عبدالرحمن مقاطعة ما وكتب الى الباشا فى بغداد يرجو منه اعادته الى منصبه • فلم يكن الجواب عن هذا وعن طلب ثان ذا فائدة • وانتشرت اشاعة فى بغداد تؤذن بان جيوشا ايرانية كانت اذ ذاك محتشدة على الحدود وهى مستعدة لاحتلال الولاية وفرض ارادتها على العراق بصورة عامة • فعزم على باشا على ان يكون السابق الى الميدان • فترك بغداد فى اواسط صيف ١٨٠٦ م (١٢٢١ ﻫ) والتقى بحلفائه الاكراد فى شهربان • ثم عبر الحدود وتقدم نحو كرمنشاه بالرغم من تحذير ضباطه الذين ابانوا له ان الاستيلاء على ايران يجب ان يكون بمصادقة من السلطان • ولم تصل اوامر السلطان الجازمة بالكف عن هذه الحملة الا بعد ان نهبت عدة قرى • اما الشاه فقد أمر ابنه الاكبر محمد على مرزا حاكم كرمنشاه بحراسة الحدود ، وطلب الى والى اردلان مؤازرة البابانى الملتجىء • فترك على باشا الحملة بعد ان ابقى الكهية (سليمان الصغير) لمساعدة خالد • الا ان الكهية دخل اردلان بجنة

هائلة فاشتبك جيشه التعب مع الجيش الايرانى واسر هو • بينما اخترق محمد على مرزا الحدود فيما فوق خانقين ، وتوغل مسافة بضعة اميال فى داخل ايالة بغداد ، ودخل فى الوقت نفسه عبدالرحمن الى السليمانية مع الجيش الايرانى •

وكان اسناد باشوية بغداد الى سليمان علامة لتمادى الزعيم البابانى المتمرد فى ارتكاب الشناعات الاخرى • فقد هاجم كوى ، وقاد غزوة الى الخالص عن طريق كفرى ، فأعلن عزله من جديد • وقاد سليمان الصغير فى اوائل صيف ١٨٠٨ م جيشه من جديد لتأديب عبدالرحمن ففشل فى الثبات مرة ثانية فى الدربند ، وفر هاربا فالتجأ الى ايران ثانية • وقد نصب سليمان باشا فى السليمانية ، فى حين ان حرد خالد فى كركوك اول الامر ثم عبر الحدود الى ايران مع ستمائة من اتباعه وهناك انضم الى عبدالرحمن • فلم يفسح ارتداد مثل هذا فى المجال لباشا بغداد بشىء سوى التسليم بالواقع ، فسمح بعودة عبدالرحمن وعوض سليمان مقاطعات فى مكان آخر • وفى هذه المرحلة ، التى كان فيها لعبدالرحمن السلطة العليا فى شهرزور ، وقعت وفادة حالة افندى وما كان من أمر المساعدات التى لا تثمن التى قدمها له البابانى • ونحن على يقين من ان امارات الاخلاص والولاء ، التى ظهرت على الامير الكردى الذى كان قبل عدة سنين خلت تارة متمردا وتارة مستقلا وطورا محالفا صريحا للجيوش الايرانية على السلطان ، كانت صريحة وصحيحة •

وقد كلفه الغرور ، وثقته المفرطة بصداقته لرجال تركية ، حلفه مع الايرانيين • اما سياسة الحدود - والنزاع فى سوج بولاق والخصومة فى زوهاب - فان والى اردلان وجد ان التوتونجى فى بغداد اكثر فائدة له فيها من البابانى فى السليمانية • وكان عناد البابانى سببا فى اشتداد البغضاء بينه وبين سنه فى الوقت الذى كانت فيه علاقاته الجيدة المتصلة ببغداد وشبكة الانبتات • وبذا أضاع معونة الفريقين ، وكانا كلاهما راغبين فى نصب خالد واحلاله محله • واخيرا ، انتهت الحركات والدسائس بنصب خالد فى السليمانية وعبدالرحمن فى كوى • وما رجعت القوات الايرانية حتى أزيل ما قامت به ، فدخل عبدالرحمن الى السليمانية من جديد ، وأخذ يزدرى حكومة العراق فيغزو قرى اربيل وكركوك • وفى شتاء سنة ١٨١١ م أعلن فى بغداد عزله من جديد ، ثم التقى فى حزيران ١٨١٢ بجيش قوى كان يقوده عبدالله باشا فى كفرى • فكان الظفر فى بداية اليوم حليف ذلك الكردى الذى هاجمت خيالته المدافع وتمكنت

من ازاحة العدو عن الخط الامامى • غير ان المماليك الذين كان يقودهم داود افندى الدفتردار بكل بسالة كروا بهجوم مقابل فاكتسحوا كل ما كان فى طريقهم • ففر عبدالرحمن على فرسه من حومة الوغى وبنى المتصرون منارة من رؤوس الاكراد • فكان لهذا الفوز وقع عظيم وفرح فى بغداد • واخيرا ، استبان ان الباشوية فرضت حقوقها على الاكـراد العنيدين غير النافعين ، وصار بامكانها ان تتمتع بثروة اوديتهم الباردة الخصبة •

وبينا كان خالد يحاول مرة ثالثة تنظيم ولايته أخذ عبدالرحمن يتوسل من جديد الى الايرانيين • ومع انهم لم يكن له فى انفسهم اى عطف كان ، فقد رحبوا بفرصة جديدة يؤيدون بواسطتها مطالبتهم بشهرزور • فطلب محمد على مرزا الى بغداد ان ترجع الهارب الى مقره والا تكن الحرب جزاءا للسكوت عن اجابة الطلب • وكان معنى عودته خسران الثمار التى جنتها الحكومة العراقية فى موقعة كفرى الشهيرة • ولم يبق بد من مقاومة اعادته قسرا • وكان الميرزا قد اخترق الحدود بقوة مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل ، وبينا كان الباشا متهيئا لسلوك الطريق أعرض عن ترك بغداد بسبب فرار سعيد بك الى المنتفك • وبذلك أعيد بسهولة عبدالرحمن لحكم السليمانية وكوى وحرير • وبعد سنة قضاها بالسلم مات سنة ١٨١٣ م (١٢٢٨ - ٩ هـ) فخلفه ابنه محمود •

سعيد باشا

سمع قاضى بغداد بنتيجة الحملة على المنتفك فأعلن الباشوية لسعيد وكتب الى استانبول لتصادق على ذلك بحسب العادة • ودخل سعيد باشا الى بغداد دخولا رسميا ، يصحبه حمود الثامر ، فى السادس عشر من ايار ١٨١٣ م ، ووصل فرمانه فى اواخر حزيران • وكان سعيد حينئذ فى الثانية والعشرين من عمره ، ولم يك قد اضطلع بالمهام العامة بعد • غير ان ما كان يأمله الجميع هو ان شخصيته المحبوبة واخلاقه الدمثة ربما كانت تنم عن قابليات تليق بسمعة أبيه • واعتلى منصب الكهية الدفتردار الاديب داود افندى • فكانت علاقتـه الموصولة بابن سيده القديم علاقة زوج الاخت وعلاقة المعتمد ، والمرشد ، والوزير الاكبر • ومع انه لم يشغل وظيفة الكهية الا زمنا قصيرا ، فانه حفظ رتبة الدفتردارية لنفسه ، وأدار فى ١٨١٣ و١٨١٤ امـور سـلسلة من

الحملات العشائرية فى دجلة والفرات . فاعاد لرآسة الزبيد شاف الله الشلال ، ومر بالخزاعل ، ثم أزال الحصار القبائلى عن كربلا فى موسم الزيارات . وفى حملته على قبائل عفك فى ١٨١٤ م (١٢٣٠ هـ) حصلت له سطوته وضبطه للجيوش النادر المثال على الغاية التى سار من أجلها من دون ان يضرب ضربة ما . وفى ١٨١٥ م أدب الخزاعل بصرامة . وبعد سنة قضى على التحالفات القبائلية الكبيرة فى العراق الغربى . وقد استنجد شيخ الخزاعل المعزول بشمر والزبيد طالبا اليهم المعونة ، فرد الباشا ذلك بطلب المساعدة من المنتفك والضفير والعبيد . ومع ان جانب الحكومة كان هو المنتصر فى هذه الحملة وغيرها فقد كانت القلاقل وحوادث التمرد آخذة فى الازدياد . فتطور النزاع العريق فى القدم بين حزبى مدينة النجف - الزغرت والشمرد - وانقلب الى عراك علنى . وأخذ سكان البلدان يطردون الحكام الذين كان يرسلهم سعيد . وحدثت اضطرابات خطيرة فى كركوك فاستقامت عدة شهور .

وكانت الحال فى بغداد تتطور آخذة شكل ثورة من الطراز المعروف فى التاريخ الشرقى . ولم يكن مشاورو الباشا ، فى غياب داود افندى وبعد سقوطه ، غير أم مجنونة ، وصديق لا قيمة له ، ورجل مضحك . وكان قد سبب له توزيعه للوظائف فى اول الامر استياء من كثير من الذين كانوا يميلون اليه ، وزاد فى الطين بلة اسرافه المفرط . على ان حب الناس له لم يتبدد فورا . فقد ازدهرت التجارة وكانت الاختلاسات نادرة . وكانت اهواؤه للشهوات غير مصحوبة بطبع العاتى المستبد . وعلى هذا كان اعتداله بالذات السبب الرئيس فى سقوطه . وقد حوفظ على الحالة الملكية المترفة فى الديوان . ولاجل المحافظة عليها ، ولدفع نفقات الحرس من المماليك كانت تؤخذ القروض من أناس من الشعب فتسدد ديونهم بكل التدقيق بحوالات على واردات الكمارك . غير ان الاختلال الآخذ فى التفشى فى ثروة البلاد وقوتها وامنها الداخلى كان ظاهرا للعيان . وقد انحطت ادارة الامن والنظام فى بغداد الى حالة مؤسفة . فكثر الشجار العنيف بين العقيل ، وتفشت سرقات العصابات من اللصوص من غير ان يقتص لها . وكان الوجوه من الناس بين محرضين على هذه الارتكابات ومستفيدين الفوائد من الاسلاب .

وكان داود افندى يومئذ الرجل الثانى فى الباشوية . فقد بدأ بالخدمة وزيرا مخلصا فعالا ، غير ان اسباب تنفير الباشا عليه كانت تعمل عملها . فكان حسد الخصوم يثير فى الحاكم المخنث المخاوف بوضع قصص المؤمرات لقتله . ووضعت فكرة مقابلة

الشر بالشر على بساط البحث ، وسرعان ما وصل حديث ذلك الى سمع داود • فتوسعت شقة الخلاف بالحماقة الممزوجة بالخرف التى كانت متصفة بها نبى خانم أم الباشا وكان منضما اليهـا خليل باشا وصفيه حمادى آغا • على ان داود من جهته لم يقصر فى الاتصال بصديق له فى استانبول وهو حالة افندى • فنقلت اليه اوفى التفصيلات من اخبار انحطاط الحالة فى العراق ، ورويت له الحوادث ـ وكان قسم منها من نسج الخيال ـ التى كانت تظهر سعيدا باكثر الالوان كدرة • فعزمت الدوائر العليا ، ان لم نقل اعلاها ، فى العاصمة على جعل داود مكان سعيد •

وكانت الحال المؤدية لذلك سوء تدبير الباشا الشاب فى قضية البابانيين • فكان سلفه فى الباشوية قد ترك محمودا فى السليمانية ، وسليمان باشا (الابن الاكبر لابراهيم) فى كوى • وقد بقيا على هـذه الحال مدة سنتين هادئتين • على ان مدعين عظيمين بالعرش البابانى كانا يترددان الى بغداد • فحصل احدهما ، وهو خالد المحارب القديم ، على حكومة اربيل اولا ، وعلى حكومة كوى بعدها • ففر سليمان باشا حسب المعتاد الى المرزا فى كرمنشاه • وفى ١٨١٦ م (١٢٣٢ هـ) عين سعيد من دون روية المقرب الآخر له عبدالله باشا أخا عبدالرحمن حاكما للسليمانية • فاستجار محمود بايران ، واستعد سعيد لتأييد مرشحه وتمكينه بالسلاح • ووصل فى هذا الوقت مندوب من استانبول ندب لكشف حالة الحدود وتقديم تقريره بمشـكلتها من حيث وجهها العـام • فاقام مدة ما ادرك خلالها ضعف سعيد ، ومقدار تدخل الايرانيين ، وسوء الادارة الشائن فى العراق • وبعد اسابيع قليلة تبين ان سعيدا قد عزل •

بقى عبدالله باشا بابان فى كركوك • وترك من بغداد جماعة من الاغوات المتقدمين سفينة الباشوية المشرفة على الغرق وتجمعوا فى كرمنشاه • ثم انحاز عدد من الرجال الاماثل الى جانب داود افندى (الذى كان خارج وظيفة الدفتردارية) وبينوا ارجحيته للمنصب الاعلى لمن كان مستعدا لسماع ذلك • ولما ترك بغداد فى ايلول ١٨١٦ م[١] تبعه كثير من الموظفين الكبار السـابقين والحالين الى السليمانية على طريق زنكباد ، وهناك لقى من محمود باشا بابان ترحيب تملق وهتف به حاكما مقبلا للعراق • وكان

---

(١) الموافق ١٢ شوال ١٢٣١ للهجرة (دوحة الوزراء) « المؤلف » وقد تقدم ان سنة ١٨١٦ الميلادية توافق سنة ١٢٣٢ هـ • واولها ٢١ تشرين الثانى يوم الخميس • « م • ج »

محمود باشا مستعدا لاعلان انشقاقه النهائى على ايران اذا تأكد بأنه سيخدم باشا فى بغداد مستأهلا للاخلاص • ولذلك حدث تجمهر عام للمنفين والناقمين • وقد صحب هذه الجماعة المهاجرة من كرمنشاه سليمان باشا (الذى كان اخيرا فى كوى) • وارسل من السليمانية بعريضة داود الرسمية الى استانبول لتعينه لباشوية العراق • وبعد اربعين يوما تحرك الى كركوك وخيم فى قرية على مسافة ميلين منها • وكان قد اصدر امر التعيينات للوظائف المختلفة ، فأعطى كل آغا حصته من الغنيمة •

وقد تلا عزل السلطان لسعيد ترشيح لم يكن يتوقعه الا القليل من الناس • فقد أنعم بالايالات الثلاث على أحمد بك ـ أخى سليمان الصغير بالرضاعة ومتسلم البصرة اخيرا ـ وكان داود قد رفعه لمنصب الكهية • الا ان الامر هذا قد ألغى بعد ايام قلائل ، على ان الالغاء لم ينفذ حتى وصلت منه نسخة الى كركوك • وقد ترك أحمد فى الحال مخيم داود فدخل كركوك وابرز اوراق اعتماده فقبلته اكثرية السكان والحامية ممن هتفوا لداود من قبل • فطلب اليهم داود ، قلقا مستريبا ، الوفاء بوعدهم الاول والثبات على موالاتهم له • فكان جواب ذلك هجوم أحمد على مخيمه • وتمايل اشراف كركوك بينهما لا يعلمون الى اى الفريقين ينحازون ، فلم ينحازوا الى اى جهة كانت • وظل داود على حال احر من الجمر متوقعا مصيره ومترقبا وصول الـ « قبوجى » من استانبول فى كل لحظة • وبعد ان قاسى كرب وضعه المقلق وصل الحجاب السلطانيون يحملون رق تعيينه بيك البيكات « بكلربكى » لبغداد والبصرة وشهرزور ، ودخلوا المخيم فى قرية طوقماقلو فى تشرين الثانى • وبعد اسبوعين تقدم الباشا الحديث نحو بغداد بطريق طوز وكفرى •

وبقى سعيد ، السىء الطالع ، يتخبط فى لجج الحيرة بعد فرار زوج اخته من بغداد • فقد بدل الموظفين فى كل وظيفة ثم استبدلهم ثانية محاولا بذلك ارضاء الجميع وقاصدا الحكم براحة ولو مدة قصيرة • وبعث الرسل المستعجلين الى حمود الثامر • فأسرع فى تلبية الطلب وجاء بقوة متفككية ، وكذلك قدم عبدالله باشا من كركوك ، وبعده خالد باشا من كوى ، وبعض القطعات • فكونت هذه مع جموع اللاوند فى المقر العام ، والحامية الانكشارية ، والعقيل ، والمشاة من التفنكجيين والبرطلين والقلباقلين جيشا يستطيع الوقوف فى وجه داود واكراده الذين اشرفت جموعهم على



سوق في الموصل

سنة ١٨١٦ م



موكب الباشا خارجاً من جامع السراي

(تقابل الصفحة ٢٥٤)

سور بغداد . على ان ما كان يفزع سعيدا اكثر من كل شيء أشد الاعداء : المجاعة والفقر . فقد ارتفعت اسعار الطعام والمأكولات بسرعة . وكان من الضرورى اطعام القوات العربية والكردية التى خفت للانجاد . غير ان الخزانة كانت قد اصبحت فارغة منذ مدة . وتمادت الجيوش النظامية والاجيرة فى المطالبة بالرواتب الحالية والسالفة المتأخر دفعها . ثم كان قلق القبائل يزيد فى كل يوم يمضى على غيبتهم عن مواطنهم .

غير ان النجاح الاول كان لهم[1] . فوقع الاشتباك الاول فى اليوم السابع من كانون الثانى لسنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ) . وكانت مقدمة جيش داود متجمعة من غير خيام فى مدى رمى مدافع القلعة . ففاجأهم خمسمائة فارس متفكى وادهشوهم قاطبة ففرقوهم . فكاد ان يهلك داود نفسه ، وتراجعت قوته الى مكان ابعد من ذاك بغية الانتعاش والاستراحة وجمع الشمل . فوجد سعيد بسبب غروره لنفسه مسوغا لصرف القوات التى لا قبل له بابقائها ، فرخص لقوته المتفكية فى الانصراف . ولذلك رجع حمود منتشيا نشوة الظافر . اما بغداد ، ففى ايام الفرج هذه[2]

« سادت فيها الطمأنينة بصورة غير اعتيادية حقا . ثم فتحت ابواب المدينة بعد ان بنيت فتحاتها » .... « وكان الشيوخ عامة غير عارفين للطريق التى يسلكونها .... فآنسوا فى انفسهم قناعة كافية يميلون بها الى نشدان الآمال المعسولة المعلقة على سعيد الشاب . ولم ينتهز الباشا نفسه فرصة النجاح الحاصل لشيء ... وفى الحقيقة لم يبق ما يذكره بتلك المعارك الدموية التى وقعت قبل اسبوع تحت السور سوى الاشاعات غير الاكيدة بالخطر المهدد ، وعزل جماعة من الموظفين ثم تعيين غيرهم ، والهمسات التحذيرية بين حين وآخر من تعاظم قوة داود واقتراب رجوعه » .

وقد عظم صوت هذه الهمسات وكثر وضوحها . فأخذ عدد من الرجال الكبار يتسللون بهدوء من المدينة ، ولاقت دعوة سعيد فى جمع الجنود الاجيرة مقاومة . ولم يكن وكلاء داود خاملين ، فان كتائب المماليك سبق لها ان فسدت نياتهم بعض الفساد ، واخذ كثير منهم يفرون جماعة فجماعة . وبدأت ثورة علنية فى محلة باب الشيخ الذائعة الصيت . وبقى سعيد فى ضعف حال لا يستطيع معه التصميم على شيء . فلم

---

(١) هود (١٧٤) . ثم ان كتاب « دوحة الوزراء » الذى يطنب فى مدح داود دائما يتجاهل هذه الواقعة .

(٢) لدينا عن هذه الواقعة رواية هود وهو شاهد عيان .

تكن جهوده منظمة ، ولا ثابتة ولا جدية فى التغلب على العصيان والجرائم • وقد ملأ الازقة الضيقة المظلمة فى بغداد النزاع غير المجدى ، وغير المنظم ، الذى استمر خمسة ايام كانت مفعمة بدوى المدافع وفرقعة البنادق ، وبأهازيج الحرب العقيلية ، واناشيد الانكشاريين (كلبندات[1]) ، وانين الشهداء المجدلين فى هذا النضال الذى لا أمل فيه • فانتهت تلك الفترة باقتراب جيش داود المتكاثر الرصين وشوهد من اعالى السور • وعندئذ انسحب سعيد مع بضع مئات من العقيل الى القلعة •

فدخل داود دخولا رسميا فى العشرين من شباط بعد ان دعاه لذلك وجوه المدينة واشرافها • فردد اسمه فى الاسواق ، وتلى فرمانه فى السراى • واخذ يدعو من فى القلعة الى الاستسلام فى كل يوم ويقوى مركزه فى المدينة ، فأعيد نظام مشوه وملئت الوظائف كلها ، ثم دخل جيشه الرئيس الى المدينة • ولعلاقات سعيد الرحمية بزوج أخته ، ولموقفه السلمى فقد هدأ شىء من روعه • وأمر اتباعه من العقيل[2] بترك القلعة •

« وفى ليلة الانسحاب نفسها ••• أبرز آغا الانكشاريين الحديث بسكوت ختم توليه السلطة فى ابواب القلعة •••• فعرف مقصد ذلك ، وانسحب الحرس •••• وعندما طلب الدخول من باب القيطون « المخدع الخاص » ، الذى كان الشاب السيء الطالع قد انسحب اليه ، كانت الام القلقة (المتشائمة بالسوء) واقفة تمنع الداخلين وهى وجلة • على ان الساعة المقتربة وحضور السيد[3] المنتقم قد سبق انذراهما لها بالصدق المميت • وبينا كانت الام تعانق ابنها وتفديه بنزع مضطرب وهى تصرخ متضرعة طالبة للرحمة •••• انزلت ضربة قدوم حرب « بلطة » بالفريسة ، فبقى بيد الام الثكلى الجسد وحده مجردا عن الرأس[4] » •

---

(١) قال ياسين العمرى فى حصار طهمازنادرشاه للموصل سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣ م) : « ذكر لى كثير ممن كان فى حصار الموصل ان أهل الموصل كانوا يقرأون فى الليل على السور شيئا باللسان التركى ويسمى كلبند كما هو عادة الينكجرية فاذا تم ، صاح كل من حضر باجمعهم « الله الله » . وحكى من كان فى عسكر طهماز ان العساكر اذا سمعوا ذلك وقع فى قلوبهم الرعب » والشىء بالشىء يذكر . « م. ج »

(٢) ان تحيز صاحب « دوحة الوزراء » الحزبى حداه على ان اتهم سعيدا بالتحريض على ثورة مقابلة فى هذه المرحلة .

(٣) السيد عليوى . (٤) هود (ص ١٦٩ ـ ٧٠) .

المملوك الاخير

ليس بين الشخصيات التى ورد ذكرها فى هذه الصفحات شخصية يصعب الحكم عليها مثل شخصية داود • فقد ولد فى تفليس سنة ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) ، وجىء به الى بغداد عام ١٧٨٠ م ، فبيع اول مرة ثم بيع ثانية واعتنق الاسلام ، حتى انتهى به الامر الى دار سليمان الكبير • وسرعان ما بانت مواهبه الادبية الى جانب مهارته فى استعمال السلاح التى كانت عنده من قبل ، كما اظهر اقتدارا فى ممارسة امور الدولة الرسمية • فقد صار فى بادىء الامر كاتبا خاصا – فانه كان يجيد الكتابة بالعربية والايرانية والتركية جميعا – ثم جعل امينا للمفاتيح ، وحامل الاختام من بعد ذلك • وقد اثار زواجه بابنة سليمان الحسد والريبة فى نفس على باشا ، ذلك الذى كان داود فى ايامه ملا مجدا يسكن عند عتبة الشيخ عبدالقادر الكيلانى • ثم صار دفتردارا فى عهد عبدالله التوتونجى ، وكهية ثم دفتردارا فى عهد سعيد ، وقد ذكر شىء من سيرته بعد ذلك المنصب قبل هذا •

وكان عند توليه الحكم قد بلغ الخمسين من عمره • وكان بشوشا فى سلوكه غير متصنع فى معاملاته ، كما كانت ظرافته تستعبد أشد مناوئيه وتجذبهم اليه • اما مظهره فقد كان مظهر الرجل الجميل الملتحى ذى الطول المعتدل الذى تجلله الحشمة والوقار ، وتبين على وجهه امارات الدعة والذكاء • وكان ديوانه اعرق الدواوين التى عرفتها بغداد واكثرها سموا وازدهارا • غير انه كان يظهر الجبن والتردد فى مناسبات خطيرة ، وفى مناسبات اخرى كانت تستفحل فيه البسالة • ومن الغريب انه كان يؤيد التقدم العلمى والثقافة العقلية بيد ويثنى عنهما ايد اخرى • وكان كرمه مصحوبا بجشع مسنون • ولم ينجه ذكاؤه ، الذى لا ريب فيه ، من اذم انواع الحماقات واكثر الاحكام خطأ • ولم يكن وفيا فى معاملاته للاشخاص ولا مستقرا على حال • وكان فيه مس من السجايا العالية وشرر من الشخصية الفردة ، وهو الامر الذى رفعه من دركة المملوكية الحقيرة الى درجة الباشوية ، مع انه بقى اقرانه (الذين يشبهونه فى الطراز) يتسكعون فى عالم الملالى المتقشفين • ومع تقدمه عليهم فقد بقى فيه الشىء الكثير من احوالهم • ومع هذا فانه ، وان لم يكن عظيما بالمعنى الحقيقى ، كان ذا شخصية

بارزة باكثر مما يحتويه الحكم من مظهر فخم وسلطان متسع • ولو قدر لحكام اقوى منه واعقل ان يلاقوا شتى الاحوال التى مرت عليه ، بعد ابقائه خمسة عشر عاما فى عز وثروة ، فقذفت به خارج بغداد وهو حقير لا يملك شروى نقير ، لتقهقروا عنها خائبين •

وكان توليه الباشوية معروفا بالاعتدال العظيم وبأطيب الآمال التى علقت عليه • فقد عفا عن ثوار كركوك والاسرة البابانية ، واستطاع اتباع سعيد ان ينقذوا انفسهم بدفع غرامات باهظة • غير ان خطة الاعتدال المستدام ، لم تكن لتأتلف مع الزمن وما يتطلبه فى شتى الحالات • فان « القبوجى » الذى جاء بالفرمان لم يكن من المناسب ان يرجع صفر اليدين ، وكانت الخزانة فارغة ، وجمع الضرائب موقوفا ، والجنود بمختلف صنوفهم لم تدفع لهم رواتبهم منذ مدة • وكان انزال العقاب على جماعة من موظفى الباشوية السابقين من مقتضيات توطيد الامن ، كما كان تأديب آخرين غيرهم مما تسوغه روح الانتقام ، وكان الضغط على فريق آخر منهم يعد من قبيل الاكراه[1] • ولم يكن بوسعه ان يعد نفسه لمهام الحكومة ما لم تتطهر العاصمة من الناس المخطرين ، وما لم يدخل الخزينة شىء من المال ، فيدفع للجنود رواتبهم ، ويعترف بالباشا فى كل ارض وصقع •

وتعرف مدة نصف القرن التى امتدت خلالها باشوية داود بخلوها من الحوادث المهمة • فالاضطرابات الداخلية لم تخرج عن الطراز المألوف • والعلاقات بايران كانت شيئا ذميما الا انها لم تكن فى وضع حاسم • وكانت ادارته ـ التى ينتقدها الاوربيون المطلعون بتسديد ـ تتمتع بنفوذ كاف لضمان الطاعة التى لم يتوصل لضمانها من كان أحسن منه من الحكام ، وبطمأنينة ظلت تذكر بعده مدة طويلة • وقد خصص خريف عام ١٨١٧ م (١٢٣٣ هـ) وشتاؤه لحملات على القبائل قصيرة فعالة ، وكانت هذه اول الحملات الكبيرة التى اضطلع بها الكهية المقتدر غير الهياب محمد آغا • وسواء كانت

---

(١) كان يعتقد فى بغداد على هذا العهد ان السجن والتعذيب كانا من الامور الشائعة فى اول ادوار هذا الحكم • وقد سمع كيبل فى سنة ١٨٢٤ م (١٢٤٠ هـ) بان ١٥٠٠ شخص كانوا قد اعدموا • ويذكر غروفز ان صالح بك « كان الرجل الوحيد من الاقارب الذى سمح داود بعدم اعدامهم » ، وهذه مبالغات عظيمة • غير ان « دوحة الوزراء » يجعل ضحايا هذا العهد البشرية اثنين فقط •

هذه الحملات على بنى تميم او شمر او البوموسى او بنى عمير او الغرير ، وسواء كان الكهية نفسه يقودها او اى ضابط أقل منه رتبة فانها كانت تكلل نتيجتها بالظفر من دون ان تراق فيها الدماء • وكان يتلو نهب مواشى القبيلة حسب العادة فى كل من هذه الحملات تبديل الشيخ واخلاد القبيلة الى السكينة بضعة اشهر • وفى حملات ١٨١٨ م الاولى غرم الدليم بمقدار البقايا التى استحقت عليهم من قبل ، واخضعت عشائر شمر الجربا بالكلية ، ثم جردت قبيلة اليسار ، قرب الحلة ، عن حيواناتها • وقضت على شمر طوقة ضربة سريعة من بغداد • وفى اواخر السنة نفسها نشأ وضع حرج بفرار صادق - اكبر ابناء بويوك سليمان الاحياء - الى قبائل زبيد ، كما سبق ان كان جاسم الشاوى ملتجئا الى الخزاعل • فانضمت قوات الاثنين بعضها الى بعض كما انضم اليهم ناس من الناقمين الساخطين • وكان من الطبيعى ان يخشى داود ، الذى كان مشغولا بشؤون البابانيين ، تكرر حوادث ١٨١٣ م فى عهده هذا فتؤدى لدخول ابن من ابناء الباشا الكبير الى بغداد على اكتاف القبائل • فعزل شاف الله ، شيخ زبيد ، وعرض على صادق معروضات ودية • وبعد اسابيع قليلة أرسل رتلا لمطاردة العصاة فتشتت قواتهم والتجأوا طالبين النجاة الى قبائل[1] أبعد من الاول • وفى حملات اخرى لسنة ١٨١٨ م كسر الصقور ، فرع من عنزة فى غرب المسيب ، الآغا المرسل لقتالهم شر كسرة • واحرزت حملة ثانية سيقت على شيخ ثائر من شمر انتصارا سهلا وظفرت بغنائم وافرة • ونجحت حملة ثالثة سيقت لقتال قبائل البادية فيما يجاور النجف • وحدث عكس هذا فى مكان آخر فى تشرين الاول ١٨١٨ م ، اذ تفوقت على ارتال منتخبة من المماليك الحرس قوة قبيلية اقل منهم شأنا ، فقتل كثير منهم واسر ثلاثمائة • فاقتضى ذلك حشد قوة كبيرة بقيادة الكهية فى الحال •

ولا تعرف نتائج الحملة التى سيقت بعد ذلك التحشيد معرفة واضحة ، الا ان الحركات (التى يصفها بايضاح كاتب[2] انكليزى زار محمد آغا فى معسكره) التى جرت تقدم لنا نماذج من « القسوة الغريبة والجور الغليظ الذى كان ينزله الاتراك على القبائل[3] » • على ان الكهية لم يبلغ مقصوده بقوة السلاح ولا بالتسوية الصلحية

---

(١) وقد عفى عن صادق بك فيما بعد •

(٢) بورتر • (٣) ريج •

الحكيمة ، وانما نجح فى اقتناص عشرة من الشيوخ الثائرين بأعظم الخيانة فبعثهم فى اسر حقير الى بغداد • ولم تجد نفعا ، حتى هذه الضربة فى تهدئة الفرات الاوسط ، فان رجال البادية الذين هاجهم انتهاك حرمة الشرف والعفة اخذوا يشنون غاراتهم على طول منطقة الفرات الاوسط وفى غيره • وكانت ناجحة غارات الكهية المقابلة التى قامت بها عشائره الصديقة • وقد انتقلت ساحة الحرب من حسكة الى عفك ومن هناك فى اتجاه دجلة الى البغيلة ثم رجعت الى أهوار الشامية • واخيرا فترت المقاومة ، وجمعت الغرامات الجسيمة فعاد محمد آغا الى ترحيب واستحسان فى بغداد •

وكانت أهم حملات ١٨١٩ م على الدليم الذين فرق قسم كبير منهم عند عبورهم الفرات فارين من الجيش الذى جفلهم قدومه على حين غرة • وقد نوقشت الحساب قبائل اخرى مثل زوبع والجميلة والبوعيسى • وفى النهاية اقتضى الامر سير الجيش الى شفاثة • فجمعت بقايا الضرائب من كل مكان ، وانعم بالخلع على المستحقين • على انه بقى ، من جهة اخرى ، شىء كثير من عملية التهدئة بين القبائل والمدن مما لم توفق له الحملة • وقد افزع سكان الحدود فى منطقة مندلى ثائر شهير يدعى السيد صالح • اما الشمال فان اللصوص المزمنين المتأصلين فى سنجار منه قد انتشرت جماعاتهم فى الطرق المؤدية الى الموصل وماردين ، وكانت كل جماعة منهم متألفة من عدة مئات ، فكان من بين المسلوبين فوارس التتر[1] الذين ينقلون البريد ، واضطر المسافرون الاوربيون للعدول عن سلوك هذه الطريق • ولم يكن بوسع باشا الموصل ، الذى كان غير آمن[2] هو نفسه ، ان يعيد النظام الى نصابه • وكانت الجرائم وحوادث الارهاب مستفحلة فى البصرة • فدخلت المدينة فى حزيران ١٨٢٠ م (١٢٣٦ هـ) ثلة قوية من النجديين ، وهاجمت السراى وكادت ان تستولى عليه ، ثم انزلت الرعب فى القلوب وارتكبت جريمة القتل فى الاسواق •

الغزوات من كرمنشاه

تعد حادثة استيلاء امير كرمنشاه على العراق محور الحوادث الواقعة ايام باشوية داود • وقد قدر ان يتلو هذه الحادثة استيلاء ثان مثله شدة ، وان تعقبه حرب أهلية

---

(١) الططر اى الغرانق والفيج •

(٢) تولى أحمد باشا الجليلى فى ١٨١٣ م بعد سعدالله باشا فأعاد بناء السور • وقد نقل فى ١٨١٧ م ثم أعيد فى ١٨١٩ ، وكان حسن باشا هو الحاكم فى غيبته •

مخطرة • وهذا ما يدعو الى تأمل العلاقات الايرانية العراقية العامة قبل بضع سنوات ، والسياسة التى انتهجها البابانيون منذ تولى داود الحكم •

فلم تك ايران ، خلال العشرين سنة المضطربة من النضال التى ابدلت فيها السلالة القاجارية من سلالة الزند المالكة ، متفرغة للاهتمام بشؤون العراق • وفى الحقيقة ان آغا محمد ، الخصى الشيطان الذى اسس السلالة القاجارية ، كان يرمق العراق بعيون مستطلعة نحو العتبات المقدسة ، لكنه لم يكن بوسعه ان يحرك ساكنا للاستيلاء عليها • كما ان فتح على شاه ، الذى خلفه فى ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) واستقام مدة تولى حكم العراق فيها عدة باشوات ، كان معروفا بميله اكثر من سلفه للاستفادة من اسباب الحرب الكامنة التى تتولد كل سنة فى كردستان • فكانت الاعصاب تزداد توترا فى العراق كلما كان الناس يسمعون بعظمة البلاط الايرانى واستقبال الديبلوماسيين الاوربيين فيه • وكان الاعتداء الوهابى يلاحظ بكل اهتمام من طهران ومن استنبول على سواء • وقد رددت ايران بأجمعها صدى نهب كربلا وضريح الامام الحسين • ولم يك تأثير هذا الاعتداء الدينى أشد فى غير ايران ، كما لم تكن فرصة اخرى للتدخل فى شؤون العراق سانحة مثل هذه الفرصة • واحسن ما كان يدل على مقدار تعفف الشاه قبوله اكياس الدراهم الثقيلة المرسل بها اليه من بغداد ، لان الطمع وجمع المال كانا من طباعه •

انفرجت هذه الازمة ، الا ان الحادث الذى كان اكثر اهمية بنتائجه للعراق هو تعيين محمد على مرزا لكرمنشاه فى ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) • وسرعان ما اصبحت ولايته تضم قسما عظيما من ايران بالنظر لمقدرته وطموحه وشراسته ، وكانت قطعاته تدرب على الطريقة الاوربية • وقد استقصت صفحات متقدمة من الكتاب جهوده المتواصلة بالسيف والقلم فى جعل الولاية البابانيـة من الممتلكات الايرانيـة • وفى ايام سعيد الضعيف كان أمر الاستيلاء الايرانى على العراق بأجمعه موضع البحث الصريح • ومن المحتمل ان المرزا كان قد أمسك عن ذلك حرصا على امتناع أبيه من تعكير صفو السلم ، وانقيادا لضغط الديبلوماسيين الاجانب[1] فى طهران ، وطمعا بالمبالغ الجسيمة

---

(١) ان السفير البريطانى فى ايران هو الذى أقنع الشـاه باحترام حـدود ١٦٣٩ م (١٠٤٩ هـ) •

التى كان يرسل بها الى كرمنشاه لاسكاته[1] . الا ان كل واحد من هذه الموانع لم يبق طويلا ، لان الاسرة البابانية فتحت الباب على مصراعيه من جديد للامير الايرانى .

وقد ركت العلاقات السياسية التى كانت تربط بين داود باشا ومحمود بابان وانقلبت من صداقة مقسم عليها الى انشقاق علنى . واخذ حديث حسد داود ودسائسه على الوحدة البابانية يدور على الالسن فى السليمانية ، كما كان الجميع فى بغداد يلومون محمودا على انقلابه ومخامرته بالمراسلة لكرمنشاه وسخريته بمشورة داود الابوية . وحلت سنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ) فلم يظهر اى مخرج من النزاع سوى شهر السلاح . فدفع محمودا تقدم القوات من بغداد نحوه وخيانة اقاربه انفسهم له لمراسلة المرزا . فعبر الحدود عشرة آلاف ايرانى لعضده ، ثم غزا غيرهم من الايرانيين مندلى وبدرة وجصان . فبعث داود فى الحال الكهية لصد الغازين فى مندلى وغيرها فصدهم ، كما بعث لمقاتلة معظم الجيش عبدالله باشا ، عم محمود ، فوصل الى كركوك ووجد جميع الاودية الشرقية قد اصبحت فى حوزة الايرانيين . الا ان القتال الجدى العنيف قد اجل من جديد ، لان المرزا طلب اعادة محمود فلم ير داود ، وقد طلب النجدة من استانبول ، بدا من قبول ذلك . فرجعت القوات الايرانية الى بلادها .

غير ان هذا التدبير قد ازال سببا واحدا من مائة من اسباب الحرب . فقد تنازع آخرون من المدعين بالزعامة البابانية - الذين كانوا فى شبه انعزال فى كركوك يومئذ - مع الاغوات المحليين وهربوا حسب المعتاد الى كرمنشاه . وقد وجد ان موظفين كبارا فى بغداد كانت لهم اليد الطولى فى الامر واطماع يبغون تحقيقها ، ومن جملتهم الكهية نفسه . ثم اجتمع فى ديوان محمد على بكرمنشاه الناقمون واللاجئون . وفيما عدا ذلك كانت تركية وايران قد اشرفتا على الحرب يومذاك لاسباب غير هذه . فان باشا ارضروم قد آوى قبيلتين رحالتين تدعى ايران برعويتهما لها . وكان حاكم اذربايجان ، الذى كانت القبيلتان فى حكمه ، عباس مرزا ، وارث الشاه ، الذى استفزه زيادة على ذلك رسول روسى الى السير الى الفتح . فوجد محمد على مرزا فى التجاء الامراء البابانيين اليه سببا من اسباب الحرب يشابه ما سبق من الاسباب . وكان عنده

(١) راجع بورتر (ج ٢ ص ٢٠٢) . ان اصراره على ان الباشا كان يدفع اتاوة خاصة لكرمنشاه لا يمكن ان يصدق .

كعلاوة على ذلك من الاسباب سوء معاملة الاتراك للزوار الايرانيين فى العراق . فنال فى هذه المرة من والده ، بعد ان زاره مستشيرا ، سماحا مطلقا بما يعمل . فبعث اولا الملتجئين البابانيين ليقوموا بمهمة التعرض . فعبروا من زوهاب ونهبوا خانقين صارخين « الى بغداد » ، غير انهم عيقوا عن تقدمهم بزحف الجيش للقائهم .

وقد خف داود فأعلم سيده بالخطر المحدق به ، فوصل رسوله بعد ان وصلت انباء ظفر عباس ميرزا فى الشمال مباشرة . فأجاب السلطان باعلان الحرب . واصبح من الضرورى ان تعزز بغداد ، وان يهيأ الجيش ، وان تحتل ايران باسرع ما يمكن مع استفراغ ما فى الاستطاعة فى الامعان . وأمر على الفور بارسال نجدة تتألف من خمسة آلاف البانى « هايته » فوصل قسم منهم الى بغداد . وفى غضون ذلك صودق على بقاء محمود فى الحكومة البابانيــة فى حين انه انعم المرزا بنفس الجائزة على عم محمود عبدالله باشا . وبعد ان اضاف داود « الهايتة » الى قواته بعث بالقوة كلها مع اربعين مدفعا بقيادة الكهية محمد آغا الى زنكباد ، فوصل فى ايلول ١٨٢١م (١٢٣٧هـ) . وبعد انتظار مدة اربعين يوما تحرك الكهية على طريق كركوك الى مضيق بازيان لانه علم ان عبدالله سبق منه ان دخل شهرزور مع خمسة آلاف ايرانى . فحرك الجيشان ، كل فى وجهته ، الى السليمانية . وقد حلت العقدة الحاصلة من الحال هذا بطريقة يشك فيها الناس حتى المطلعون المعاصرون . فقد ضعفت القوة المعنوية للجيش بحلول شتاء كردستان القاسى وبتفشى المرض . وكانت التجهيزات قليلة ، كما كان تماديها فى القلة يهدد وضع الجيش يوما بعد يوم . فهجم محمد آغا فكسره العدو كسرا كليا ، وترك هو نفسه جيشه مشتتا فانضم الى صفوف العدو . وكان هجومه فى نظر الكثيرين من بابة المكر والخدعة فخيانته كانت شيئا واضحا . الا ان كثيرين من غير هؤلاء كانوا يرون فيه قائدا باسلا ساقه خوفه بعد الكارثة الى الالتجاء الى صفوف العدو . اما قواته الممزقة فقد رجعت الى كركوك فعقبهم - بعد نصب عبدالله فى السليمانية - اليها الجيش الايرانى . غير ان فلاحى كركوك التركمان لم يرقهم ان يخضعوا لحاكم ايرانى ، فاعدم عدد منهم لرفضهم الطاعة . ولم تشأ القلعة ان تستسلم ، كما ان الامير لم يكن بوسعه ان يبقى منتظرا نتيجة الحصار[١] . وبعد ان مر بطاووق الى كفرى احتل خط

---

(١) سوث غيت (ج ٢ ص ٢٠٩) .

البلدان التى هناك ، عادا محمد آغا ، الكهية الهارب ، امام الجميع باشا المستقبل . ثم وقف الجيش فى الخالص .

وكان داود باشا قد حصن العاصمة وملأ مخازنها استعدادا للدفاع بالتحصن ثم جيش جماعات المتطوعين ، وتهيأ الحرس الخاص لامر أشق من واجباتهم فى القصر . كما طلبت المعونة من استانبول . وبقيت المدينة هادئة حتى وافت الانباء مفيدة بوصول الايرانيين الى هبهب ، وهى على مسيرة يوم واحد تقريبا من بغداد . وعندئذ هرب مئات الناس من بغداد الى الحلة[1] ، وارتفعت الاسعار ، واصبح التحصن والامتناع ضربة لازم . وعلى هذا كانت نتيجة الحال مشكوكا فى حقيقتها . فقد كانت خزينة داود ملأى بالمال ، ومخازنه ممتلئة بالذخائر والطعام ، ورجاله كافين للدفاع ، كما لم يكن يخشى هو الخيانة من الداخل . ولكن كانت القوات المهاجمة كافية لحصار طويل متواصل على ان كفايتها لم تكن مليئة بحصار مدينة ذات سور عظيم . ثم ان اختبار الوضع الموصوف لم يجر . فقد تفشت الهيضة الحادة (الكوليرا) فى الجيش الايرانى واخذت تفتك به ، ومن المحتمل انها كانت قد تفشت فى بغداد ايضا . ووقع الامير نفسه فريسة للمرض الوبيل . وظل جيشه عدة اسابيع مستريحا بالقرب من بعقوبة وواضعا مفرزة من الجيش فى خان بنى سعد وهى من بغداد على مسافة خمسة عشر ميلا . وكانت جماعات الجيش التى ترعى الحيوانات تجول فى كل مكان من تلك الاصقاع ، وقد اشتبكت واحدة منها مع صفوك الفارس ، شيخ شمر المعين فى المشيخة حديثا ، فعوملت بشدة وقسوة . ولم يجر اى هجوم من بغداد الى الخارج .

ان مرض المرزا ورغبته فى تجنب حملة طويلة لا تعرف نهايتها حملاه على مفاتحة العدو بعقد الصلح . فأرسل عالما شيعيا للمفاوضة . فأجابه داود باشا بارسال اثنين لا يقلان وقارا عن العالم الشيعى . وسرعان ما اتفق الفريقان على تسوية المشاكل . وكان الاتفاق على ان تعطى السليمانية عبدالله باشا ، وان يعوض عما نهب فى الخالص ، وان تخلى الاراضى التركية على الفور . فعاد الجيش الايرانى ، وعبر الحدود ، ثم سار راجعا الى كرمنشاه . وقد مات محمد على مرزا فى كرنت . فكان رجوع الجيش هذا فرجا لبغداد ما فوقه من فرج ، وكانت وفاة المرزا فرجا أعظم . ثم عاد سكان

---

(١) والفلوجة .

المدينة الذين التجأوا الى الحلة والفلوجة قبل حصار الايرانيين . وتوجهت مفرزات من الجيش لتأديب القبائل التى كانت قد ساعدت الايرانيين بالادلاء او الذخائر ، ولاعادة النظام الى نصابه . وسارت حملة الى القبائل المحيطة بالدجيل . ثم افنيت الحامية الايرانية التى تركت فى خانقين عن آخرها . واذيع منشور اعفاء القرى ، التى افقرها العدو ، من خراج سنة واحدة .

بيد ان حالة الحرب بقيت بين السلطان والشاه . فكان عباس مرزا مقيما على استيلائه على الاراضى العثمانية فى شمالى كردستان ، واخبر بوصول الشاه نفسه الى همذان يقود جيشا جرارا . اما الجانب التركى ، فان ولاة ديار بكر والموصل وبغداد فيه قد اخبروا بالقيام بهجوم مقابل . وكان من بين اوامر السلطان امر خاص بالقبض على محمد آغا وقتله وطأ بالاقدام . وامتثالا لذلك نظم جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل فى بغداد بقيادة الكهية ، الحاج طالب[1] ، وسار ذلك الجيش مع خيله ومدافعه بطريق خراسان الى الحدود .

وكان قد خلف محمد على مرزا ابنه حسين الذى كان يحفزه الانتقام والطمع الى أمل الاستيلاء على العراق بحركات واسعة . ولم يكد الحاج طالب يصل زوهاب حتى كان القائد الايرانى ، وكان قد جمع جيشا مؤلفا من اربعين الف مقاتل ، قد اخترق الحدود من عدة نقاط . وقتلت قواته خمسمائة تركى ، وعندما تحرك الى قزلرباط اجبر الكهية على التنحى عن طريقه . ثم قرر الانسحاب مؤتمر للضباط الاتراك ، الا ان القبائل فى الوقت نفسه اخذت تضايق الايرانيين المتقدمين فى منطقة الخالص ومنطقة شهربان . فقد قطعت القبائل دوريتهم ونفائضهم المستطلعة واحرقت كل الحاصلات الزراعية التى فى طريقهم . وحدث ان وقعت قوة من شمر مؤلفة من ثمانمائة مقاتل بقيادة صفوك فى شرك القوات الايرانية ، فاشتبكت معهم بالقتال وتمكنت من دحر قوة ايرانية كبيرة . فكانت تلك براعة حذت حذوها القطعات العشائرية الاخرى . وتفشت فى هذه المرة ايضا الهيضة الحادة (الكوليرا) بين الجند الايرانى .

---

(١) والد سليمان بك المؤرخ . وقد كان من مماليك بويوك سليمان المعتقين . (المؤلف) . وسليمان بك هو والد حكمة بك وخالد بك والمرحومين محمود شوكة باشا ومراد بك المعروفين فى بغداد . والحاج طالب مدفون فى جامع يقع خلف بناية متصرفية بغداد الحالية . (المترجم)

فقفلوا راجعين ، ونهبوا ما وجدوه في طريقهم • ثم اخترقوا الحدود الى بلادهم ، وبذا انصرم أمر الاستيلاء الثاني وخاب الفأل فيه •

وفي غضون ذلك كانت وفاة محمد علي مرزا قد اعادت الخصومة المتعبة بين افراد الاسرة البابانية • فقد استعاد محمود باشا السليمانية لنفسه بحملة باسلة وموقعة باهظة ، ثم طردته عنها الجنود الايرانية والاردلانية • وحافظ عبدالله ، وقد كان مرضيا عنه في بغداد وكرمنشاه معا يومذاك ، على العرش حتى رجع اليه محمود بعد ان نبذ التابعية التركية وتمسك بالتابعية الايرانية ، وكان رجوعه بموافقة الفريقين • وقد سبب ارسال أحمد بك ، أخي داود ، لتولي دويلة السليمانية بنفسه التجاء محمود بسرعة الى ايران ، وسير جيش بغداد الى كركوك • ولا يعجبن متتبع هذه الدسائس المعروفة بانعدام الولاء الثابت ، والمبدأ القويم ، وبفقدان الغاية الشريفة التي لا تعرف الا مصلحة الذات اذا عرف ان عبدالله باشا كان بصحبة هذا الجيش الواصل الى كركوك ، وهو المرشح الايراني للعرش مرة بعد اخرى • ولم يسد السلم الا عندما اتفقت القوتان على نصب محمود في السليمانية وعبدالله في كوي • وكانت معاهدة ارضروم الاولى ، الموقعة في الثامن عشر من تموز ١٨٢٣ م (١٢٣٩ ه) ، من الوثائق المهمة ، الا انها لم تكن تؤذن بالتسوية النهائية الا قليلا • وقد صودق بها على حدود مراد الرابع القديمة (التي حاولت تكرار تحديدها القوات المسلحة لكلا الفريقين طوال قرنين) ولكن كل مجال وكل سبب للقلق من اجلها بقي كما كان من قبل •

ولم يبق الا النزر اليسير مما يجب ذكره عن اخبار باشوية داود • فقد حدثت ثورة خطرة عقيمة فأعقبها اتخاذ التدابير الاعتيادية المتضمنة لتأديبات القبائل وسياستها ، وحلول بضع سنوات من الحكم المألوف في العراق خلال عهد طويل •

وأحدث ظهور محمد آغا - الكهية المتمرد في حملة شهرزور - على رأس ثورة قوية في الفرات الاوسط فزعا بينا في بغداد • ولا غرو فقد كان عبدالله آغا في ١٧٧٨ م (١١٩٢ ه) قد حصل على الباشوية بثورة مقصودة وبعضد المماليك له ، وها هو محمد يثور في ١٨٢٤ م وهو ذو شخصية اقوى وقائد أمثل بين المماليك ، فلذلك اصبح ثائرا اعظم • وقد تكاثر اتباعه بسرعة ، فخف اليه المجازفون والعصاة والقبائل المستعدة على دوام لنزع النير الحالي عنها • وكانت القوة الروحية في البلاد يومذاك

منحطة بسبب الغزوات الايرانية ، وكانت بغداد مغتاظة من الضرائب الجديدة التي أخذ بجمعها داود . ثم استبدل بالحاج طالب في منصب الكهية أحمد الضعيف المجنون، وهو أخو الباشا . وكان جيش الثوار في غضون ذلك الوقت يتكاثر في الحلة ، واقسمت الايمان الغليظة في العتبات المقدسة على التحالف ، وبات الهجوم على بغداد على قاب قوسين او ادنى منه . وبعد ذلك كسرت القوات من غير صعوبة رتلين ضعيفين ارسلا من بغداد لقتالها . غير ان هذا التوفيق لم ينتج فائدة ما ، لان عزما جديدا ظهر في ديوان بغداد . فقد عاد الحاج طالب لمنصب الكهية وخول السلطة المطلقة ليقوم بتبديلات شاملة في موظفي سيده المذكور . واستطاع ان يحشد قوة ، واستعمل الباشا مواهبه في الديبلوماسية . فجذب المماليك القدماء المعتزلين الى الخدمة من جديد بعد ان عفي عن ذنبهم ووعدوا بالمواعيد الخلابة . ثم فت في عضد القبائل العاصية وذلك بتقدم القبائل المعادية لها لمساعدة الحكومة . وعندما سار الحاج طالب الى الحلة التقى بجيش مؤلف من خمسة آلاف مقاتل . الا انه استعمل سلاح دعايته فكان ذلك ماضيا في العدو ، فان انفضاض الكثير من قوات محمد آغا عنه وتراخي القوة التي كانت تجمع الباقين منهم قد اوديا به فاصبح الاغا هاربا مقهورا .

وقد اعقب انهيار هذه الثورة القيام ببعض الاصلاحات في حالة القبائل . وكانت قطعات زبيد وشمر في عون الباشا فطاردت اهل السوء ، كما كانت قواته انفسها يقودها ضابط ماهر وهو سليمان آغا الميرآخور « رئيس الخيلية » . وقد سيقت اعظم الحملات الى العراق الجنوبي ، ونظمت حركة موحدة لاعادة سلطة الحكومة في المنتفك حيث كان حمود الثامر الشيخ الاعمى ممتنعا منذ سنين من دفع المال للحكومة ومن احترام سيده الباشا . فرحب بالخصوم من مرشحي السعدونيين في ديوان بغداد ، ثم رافقوا المير آخور المتوجه الى ديرة المنتفكين . فاستنجد حمود ببني كعب ، وارسل الوكلاء لتجنيد قوة مساعدة من عربستان ، كما بعث رسولا الى امام مسقط السيد سعيد . فانضمت الى قوته عناصر كثيرة . فقاد قوته ابناه ، فيصل ومجيد ، حتى اشرفا على سور البصرة التي اخذت تقاسي اهوال الحصار . ولم يكن ضغط اسطول مسقط من الماء اقل خطرا على البصرة ، حتى رشا متسلمها اصحاب الاسطول بالمال . وقد تعمد الميرآخور التباطوء في سيره الى البصرة ، لان المبناء كان بوسعه ان يدافع عن نفسه عدوا ليس عنده مدافع ، والوقت خير كفيل بحل جيش حمود وتشتيته . فكان حدسه بذلك مع

الصواب • فقد أدرك الاتباع ، ثم القبائل المحالفة ، ثم الابنان الخطأ فى الهجوم على البصرة واعتقدوه حقا كما اعتقدوا من قبل عندما ضغطوا على البصرة بضعة ايام • وأخذ قسم بعد آخر من القبائل يلتف حول عجيل الشاب السعدونى اللامع الذى كان قد انعم عليه بحكم المنتفك • وبعد ان وزع عجيل العطايا وعقد الوعود امتلك ناصية الحال، فهرب حمود وعاد المير آخور الى بغداد • وعادت المياه الى مجاريها فى البصرة وقبائلها ، ولم يعكر صفوها الا النزاعات العنيفة الواقعة فى الزبير • وكانت دويلة الحويزة آخذة فى الانحطاط ، غير انها كانت لا تزال على قوتها • وبقيت علاقة بنى كعب بالبصرة غير محددة ، وظلت الحدود بين البصرة وششتر مشكوكا فيها فى مدى مسافة واسعة • وان معاهدة أرضروم لم تحل مشاكل هذه الحدود التى زاد النزاع عليها من بعد تمصير المحمرة على مصب كارون فى ١٨١٢ م (١٢٢٧ هـ) • وقد كان مؤسسها ، وهو من قبيلة المحيسن ، تابعا لبنى كعب • الا ان ابنه الحاج جابرا ذهب الى أمر ابعد من التخلص من هذه التابعية ، فغدت المحمرة فى ١٨٣٠ م (١٢٤٦ هـ) خصما لبنى كعب بدل ان تكون عونا لهم •

ولم تعرف أخريات سنى داود باشا (عدا ظواهر للتقدم العلمى التى سيبحث فيها فى صفحات متأخرة) بشىء ذى أهمية فى جميع انحاء الباشوية • فقد كان الآغا يتلو الآخر فى البصرة وماردين وكركوك • وبقى شيوخ القبائل البارزين محافظين على مناصبهم — عجيل فى المنتفك وذرب فى الخزاعل ووادى الشاف الله فى زبيد • اما عند الملين فان ايوب بك كان قد خلف تيمورا والده • كما جاء صفوك بعد فارس فى شمر الجربا • ثم اضاع صفوك منزلته ، وكان ذا حظوة عالية عند الباشا لاعماله الباهرة فى قتال الايرانيين ، وأصبح اشد اعداء الباشا • ولم تدم تسوية الامور التى اجريت فى المملكة البابانية سنة ١٨٢٣ م (١٢٣٩ هـ) • فقد تلاها اول وجه من اوجه النضال الطويل بين الاخوين محمود باشا وسليمان باشا • وظلت حامية ايرانية فى السليمانية حتى توفى فتح على شاه فى ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ) • وفى الحقيقة كانت المملكة البابانية آخذة فى الانحطاط منذ مدة • وكانت على هذا العهد تهيمن عليها ايران هيمنة لم تفقها فيها تركية باى زمان كان • وقد سببت حالة النزاع بين الاخوين الاضطراب والفوضوية والفقر ، فأكمل الطاعون من بعد ذلك خراب المملكة • وكانت جارتها رواندوز فى تقدم مستمر على عهد الباشا • وقد تلافى الموصل جليلى جليليا آخر فى الحكم من غير حوادث اضافية سوى الفتن والعنف الذى اصبح مألوفا فى المدينة منذ مدة طويلة ، وسوى المجاعة المهلكة الحادثة فى ١٨٢٧ م (١٢٤٣ هـ) •

الفصل العاشر

نهاية عهد

نظرة اخيرة الى عراق المماليك

ظل العراق يتذكر داود باشا بعد قرن واحد بثقافته وتدينه الاسلامى ، وبحرسه المماليك وجيشه الاهلى ، وبكرمه وسخائه ، ثم باستقلاله الصريح عن استانبول • وليس بوسعنا ان نحكم فى ثقافته بشيء الا ان الروايات تنقل الشيء الكثير عن صمت الملالى والاساتذة فى حضرته • واما ديانته فيمكننا ان نستعير وصف المؤرخين له بانه كان « متدينا بدون تكلف » ومن دون ان يؤثر ذلك فى اخلاقه تقريبا • وكان هذا الملك ـ الفيلسوف الشرقى يتصف بجميع الصفات الخلابة مع شيء من الرأفة • واذا ما انتقلنا الى حاشيته نجد فى ساحة السراى الحرس الانكشاريين واقفين فى مراكزهم وعشرات المباشرين من المماليك ببذلاتهم اللامعة • وتظهر فى باب البهو ثلاثة من اذناب الخيل الدالة على الوزارة مع الهلال والنجمة الامبراطوريين • ولم يكن يعوز الديوان فى الداخل شيء من الجلال الزاهى • فان اثاث الغرف المرفقية ، وقاعة الاستقبال الملكية ، وتفصيلات المراسيم والتشريفات ، وما يحمله كل من رجال الحاشية وكل مباشر كلها كانت تبهر الزوار الاوربيين بكون « المقام ••• مقام امير ملكى تماما »[1] • وكان الزائرون من اصحاب الرأى والمشاهدون النقاد يعجبون مما يرونه من امارات الثروة الطائلة ، والثقافة المتناسبة ، والترف المتناهى الذى قيل انه يفوق ما كان منه فى بلاط السلطان •

وكان أمثل موظفى الباشوية ـ عدا مناصب حكام البصرة وكركوك وماردين ـ الكهية ، الذى يوازى الصدر الاعظم فى استانبول ، وعدة من « المصاحبين » (مشاورون او من رجال الحاشية) الذين كان بينهم « باب العرب »[2] ، واعضاء الديوان الاعتياديين وهم : الدفتردار ، وسكرتير الديوان ، ورئيس الحجاب ، ورئيس التشريفات ، ورئيس الاصطبل الملكى ، ورئيس القواسين ، وامين القسم الخاص • وكان بين اغوات

---

(١) بورتر (ج ٢ ص ٢٤٩) • (٢) هود (ص ١٧٢) ، اوجر ـ ايلوى (ص ٢٣٥) •

« المابين » ، الذين كانوا يعدون مجد البلاط بعددهم وتجهيزاتهم ، خدام الباشا الخاصون ولكل منهم عنوان العمل الذى يقوم به . فهم للالبسة ، والقهوة ، والحلويات ، وعدة الخيل ، والسجاد ، وماء الغسل ، وماء الشرب ، والنارجيلة ، والعلم . وكان اذا ركب الباشا للخروج يصحبه العشرات من هؤلاء الاغوات يقودهم امين الصندوق وحامل السيف ورئيس المراقبين . وكان من السهل عليهم الانتقال الى قوات الباشوية العسكرية ، لان رجال الحاشية المماليك اصبحوا ، منذ ايام أبى ليلة ، من صفوة الجنود[1] . فقد اكثر منهم سليمان الكبير ودربهم فكون منهم قوة عسكرية . وجاء داود فهيأ لهم المعلمين الاجانب والاسلحة الحديثة . ولا تزال الاحاديث المنقولة تذكر اخبار كتائب ثلاث من المماليك سميت كل منها باسم احد ابناء الباشا ، وكانت عدة كل منها ألف مقاتل . وتشير تلك الروايات فى مناسبات عدة الى القوات العسكرية الاخرى وهى : الجنود المستأجرة من اللاوند والعقيل ، ومشاة التفنكجية والبرطليين النظاميين ، والانكشاريون والمدفعيون « الطوبجية » الذين ما زالت عليهم المسحة الامبراطورية ، والرعاع العشائريون ، وقطعات الامراء الاكراد ، والقليل ممن بقى من فرسان الاقطاع .

وكانت واردات الباشوية تجبى بوسائل تختلف فى اصلها وقدمها ، فقسم منها بقى مطبقا بحسب نظام الاقطاع وقسم آخر ابتدعه حديثا آخر الباشوات . وكانت وارداته الكمركية ، المتبدلة بحسب اهوائه ، منبعا للكسب يقل بمضايقته للتجارة وحركة السفر عن الاتاوى التى كان يفرضها كل شيخ او كل مختار قرية على قارعة الطريق . وكانت مزارع السنجق او القناة او الجداول العشائرية تأتى الى الخزينة بكسر من المال الذى كان يعصر من الدافعين الحقيقيين الذين كانوا يكابدون الشدة اكثر من غيرهم لضعفهم وسهولة استغلالهم . وكانت ضريبة الجزية على « الرأس » المضروبة على اليهود والنصارى يجمعها ، بكثير من سوء الاستعمال ، اكثر المتزايدين من الملتزمين . وكان للباشوية مبالغ اخرى تجمع بتزايد من ضرائب المرور (ترانسيت) على البضائع ، ومن الانحصارات الحكومية لبعض الحرف وانواع التجارة الشائعة ، ومن تصريف النقود الخاطىء والعملة

---

(١) قابل بين ما كتبه نيبهر (ص ٢٥٦) عند بحثه فى ١٧٦٥ م بما كتبه ثابت عند البحث فى الدور الاخير : يذكر الاول وجود ٨٠٠ ايچ اغالرى ، ويذكر الثانى ١٨٠٠ منهم . وكان عدد الاغوات الخارجيين (الكهية والموظفون وملحقهم) فى ١٧٦٥ م ٢٠٠ ، وفى ١٨٣٠ م الفا وسبعمائة .

المزيفة • وقد عرف ان النهب العلني الصريح كان يسوق الوجوه من السكان الى استانبول نفسها طلبا للتعويض او الترضية ، ولم يخل ذلك من فائدة لهم • وكانت تقوم بواجبات الشرطة فى امهات البلدان مراكز الانكشاريين وحجاب الباشا وموظفوه • وكان القاضى المبعوث كل سنة الى بغداد ، مع زملائه الذين هم أقل منه درجة فى الاماكن الاخرى ، يقومون ببسط العدل بين الناس • وكانت حوائج العيشة رخيصة ، والشرع صارما ، وكل شيء مباعا[1] •

اما الحكومة بوجه عام ، فان صورة صادقة عنها ترينا بايضاح عصيان القبائل المزمن الذى كان من واجب الحكومة معالجته كل سنة — وعصابات اللصوص التى لما تقهر ، وسلب المسافرين المستدام — وضرب الضرائب على الاقلية الذين كان من الممكن تحصيل الضريبة منهم ، والضعف البارز تجاه التحرش بالبقية من السكان • وما برحت القرى والاراضى تباع ليحكمها هذا المملوك المقرب او ذاك او اى من رجال الحاشية الذين يستفاد منهم فوائد • وبقى الاغوات يشاغبون ويعربدون ، وظل الجنود متمادين فى الاغتصاب والنهب • وكان الديوان العالى يؤوى كثيرا من المشاورين المجانين ، الجهلة ، المتعصبين • وقد اضيف الى الاخطار ، الناشئة عن قلة ادراك معنى الحكومة والنظام الحكومى المرثى له ، نقاط الضعف المحزنة التى كانت متجمعة فى الحاكم الحالى • غير ان الصورة الحقيقية يجب ان تدل على اكثر من هذا • فالحرب الاهلية كانت نتيجة كل ذلك • فكانت القوات الكافية تجند لتأديب البدوى الذى لا يعبأ بشيء ولان تعرض فى العاصمة • وكان فى اثناء تشجيع الباشا المستمر على بث الاختلاف بين كل قبيلة مضمون السياسة الرامية الى تفسخ القبائل وتفكيكها • كما كان فى استمرار الباشا على منح الاراضى او الانعام بها شعور بالحاجة لامتلاك اثبت للاراضى ممزوج بالسخاء المحض الذى كان مشتهرا به • وان كان كثيرون من الناس قد كابدوا ما كابدوا باسمه ، فان قسما غير قليل منهم قد اغتبط بالعطايا والهبات التى كان يتسلمها من يده هو نفسه • وقد أسست على عهده عدة مدارس ومطبعة • وزينت بغداد بجوامع جديدة وسوق ثلاثى الطوق يحمى فى الوقت الحاضر اكثر اسواق بغداد مشغولية • وبنى بعض الناس كثيرا من دور السكنى الجميلة على طراز ذاك العصر ، فكان ذلك أزهى واثبت ما بنى فى ذلك العهد •

---

(١) اباع فلان الشيء اى عرضه للبيع فالشيء مباع •

هكذا كان عراق العشرة الثالثة من القرن التاسع عشر بوجه عام ، وهكذا كان حاكمه ، وبذخ ديوانه ، وسوء الحكم فيه خارج العاصمة . ولم يبق من مصايره فى اثناء حكم المماليك الطويل ما يستحق التدوين سوى الكارثة التى ازالتهم من الوجود حتى الابد . ويظهر ان تبدلات عديدة كثيرة ، مما ذكرته هذه الصفحات ، لم تتبع فى وقوعها قاعدة ما او لم تحدث بموجب سبب سوى الهوى والصدفة ، كما لم يكن ذلك بحسب تطور معلوم او مبدأ معروف . اما ما يختص بسقوط دولة المماليك فان الامر فيه على عكس ذلك . فالحقيقة هى ان الكوارث الطبيعية النازلة ساعدت على انهيار تلك الدولة فقطعت انفاسها وخلصتها من نزع الموت . وفيما عدا ذلك فان الاحوال والاسباب والوسائط التى قطعت عليها استمرارها فى الحكم الى خلال القرن التاسع عشر كانت كلها تعمل عملها منذ مدة . وقد جاء سقوط داود باشا وجميع سلالته ونظام حكمه بفجأة روائية ، لكن هذا السقوط كان شيئا مأمولا طول جيل كامل من قبل ١٨٣٠ . فان مجرى التاريخ العام غدا يتطلب زوال الوضع الشاذ ، وان التبدلات العظيمة التى طرأت على الحكومة التركية نفسها قد جعلت ذلك الطلب واضحا ملحا فيه . وكذلك بات حكم المماليك ، من حيث تعامله مع القوات الاوربية ، وليس فيه من الحداثة العصرية الا اليسير . وكان لزاما على هذا الحكم ان ينتهى بشخص حاكمه ، فحدث ذلك تحقيقا .

تبدل الازمان

كانت علاقات العراق بدول اوربة الغربية قد ازدادت تقربا واتساعا منذ اواخر القرن الثامن عشر . وبين يدينا الآن مذكرات ثلاثين من السياح ، وما هذه الا قسم قليل من مذكرات السياح الكثيرين الذين زاروا العراق من اوربة والهند . فقد كان فى سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) عدة من الكرمليين الافرنسيين وصيرفى يونانى وتاجر بندقى احيانا يضيفون وكلاء شركة الهند الشرقية الصغار الذين كانوا يمرون من هناك بين حين وآخر . وكان فرسان التاتار « الططر » يحملون الى استانبول بريد القناصل الاوربين وبريد الباشا . وكان بريد الجمال الذى للشركة يتردد بين بغداد وحلب على طريق الصحراء بصورة منتظمة . وكانت وسائل النقل النهرية المنشغلة تنقل اقمشة الاطلس والقطيفة الواردة من فرنسة ، والاقمشة الانكليزية ، والبضائع المعدنية الالمانية. وكانت هذه تنقل كذلك الزجاج الوارد من فينة وبوهيميا ، والسكر الوارد من اميركا .

ثم ان المؤسسات الدينية الفرنسية والطليانية اصبحت لها منازل دائمة ، وكان اسقف بابل احيانا يشغل كرسيه الاسقفي ووظيفة القنصل الافرنسي معا . وكان الموظفون القنصليون الافرنسيون في بغداد والبصرة اول القناصل ظهورا ، لكنهم لم يلاقوا العاقبة التي تليق بأمتهم في المدينتين . فكان انتقاء الوكلاء في بعض الاحيان انتقاء سيئا ، ولذا لم يكن في وسع هؤلاء ان يحافظوا على المصالح الافرنسية كثيرا . فكانوا ، الى تقلقل مركزهم وعدم حصولهم على النفقات الكافية ، ليس لهم المهارة اللازمة للتعامل مع الحكومة المحلية . وقد مرت من العراق في ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) بعثة سياسية افرنسية[١] ، وبعد عامين اعتقل ممثلوهم في العراق وصودرت اوراقهم واحتلت منازلهم . وبعد الافراج عنهم بقيت اعمالهم حقيرة ان لم نقل لا شأن لها . ولم يهتم الباشا نفسه بادعاء وكيلهم بارجحيته الرسمية على الديبلوماسيين البريطانيين . غير ان مدرب جيش داود المنتخب كان افرنسيا ، وكذلك كان طبيب سليمان الكبير . وكان لقنصلهم في البصرة بعض الاتصال بوجوه المدينة والقبائل . ومع ذلك كله كان نفوذ وكلاء الشركة البريطانية ونجاحهم مبعث حنق الافرنسيين الممزوج بالحسد[٢] .

اما منزلة الشركة البريطانية فقد عظمت عما كانت عليه في ١٧٨٠ م (١١٩٤ - ٥ هـ) . فقد ظفرت بعطف سليمان باشا نفسه وعرفانه للجميل لانها ساعدته في الارتقاء لمنصبه . ورد لها الدين بعشرين سنة من العطف الشامل وباستعمال خدماته لها بصراحة . وفي ١٧٨٢ م طلب بواسطتها من بومبي « طلبية » من السلاح والعتاد ، وفي سنتي ١٧٩٨ م و ١٧٩٩ م طلب كمية اخرى من العتاد مع مدربين اوربيين من الهند . وفي ١٨٠٢ م وقفت شحنة مشابهة لذلك في ايوان كسرى في الوقت الذي كان النزاع للباشوية قد بلغ اقصى حده . وكان تدبر المقيم البريطاني وترويه قد نفع الباشا غير مرة . فقد استرحم الباشا ، عندما شاع تعين الشاوي للباشوية في ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) ، منه ان يسرع بمراسلة السفير البريطاني في استانبول ليتوسط في الامر . وكان توسط المستر مانيستي في « وكالة البصرة » في ١٧٩٨ م هو الذي صفى الحساب مع سلطان مسقط . ولم تبد حكومة المماليك رأيا ما حول ازدياد نفوذ المقيم المستمر العلني بين القبائل وسكان المدن حتى في اشد ايام الاختلاف الذي كان يحصل بين المقيم

---

(١) وبهذه المناسبة كتب اوليفييه كتابه « الرحلة » الذي رجعنا اليه ،

(٢) فونتانييه (ج ١ ص ١٧١) ، سوف بو (ص ٨٨) .

والسلطة المحلية . وقد حدث فى ١٧٩٣ م (١٢٠٨ هـ) نزاع شديد بين يهود البصرة والمتسلم فأدى اشتداد ذلك لانتقال المقيمية البريطانية الى الكويت وبقائها هناك مدة سنتين.

وكانت بغداد قد اصبحت مركزا دائما لوكيل وطني للشركة في ١٧٨٣ م ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا كان يزورها بصورة مستمرة المقيم الموجود فى البصرة . وفى ١٧٩٨ م - وكان ذلك شيئا منتظرا من جهة واستعدادا للدسائس النابوليونية في الشرق الاوسط من جهة اخرى - عين مقيم بريطانى دائم فيها ايضا ، وقد اعطى جميع السلطات القنصلية فى ١٨٠٢ م . واصبحت بغداد منذ ذلك الحين فصاعدا اهم مركز للنفوذ البريطاني ، ذلك النفوذ الذى اخذ يتحول تدريجيا بماهيته ومقدار تأثيره . على انه لم يحدث ما نستدل منه على استغلال هذا النفوذ او توسيعه بشدة . فان الخدمات العظيمة التى يمكن ان تؤديها حكومة عاقلة تقدمية الى العراق لابد ان تصيب خيراتها المسافر البريطاني والمواطن العراقي على سواء . غير ان هذه التطورات كانت بعيدة عن الواقع وليس هناك ما يجيزها . ومع ذلك كله فان التزايد فى السطوة البريطانية حتى زمن داود باشا وبعده كان شيئا بارزا تماما . فغدا الباشوات يحسبون الحساب للهند ويعدونها جارة عظيمة يبادلونها الرسائل البلاطية والاحتجاجات احيانا ، واستمر طلب الذخائر الحربية منها . وكانت زيارات الجنرال مالكولم (وكان يتردد بين ايران وبومبى) الرسمية الى العراق مما يرى الجميع أبهة « ايلجى » انكليزى وثروته . وكانت مؤسستا المقيمية فى بغداد والبصرة - ومنها الابنية الواسعة ، وفيها الحاشية اللامعة ، والخدم المزركشون ، والاصطبلات ، وآلات النقل النهرية ، والحرس الخاص (سيبوى) - من مؤسسات الامم ذات الحظوة الخاصة . ومع اعلان الحرب بين تركية وانكلترا فى اوربة من ١٨٠٧ م الى ١٨٠٩ م بقى الممثلون البريطانيون فى العراق مكرمين دون ان يمسوا بسوء ، وظل الباشا يراسل كلكتا بود واحترام . وكان يزداد شأن « الباليوز » وتعظم أهميته شيئا فشيئا منذ اول اتصال صميم حصل بين هارفورد جونز وبيوك سليمان . وكان تعيين كلوديوس جيمس ريج مقيما بريطانيا فى ١٨٠٨ من أهم الاحجار الاساسية السياسية . فقد استطاع فى مدة ثلاث عشرة سنة ، وهو الموهوب له جميع مواهب الوراثة والمزاج والمزايا الفاضلة ، ان يضيف الشىء الكثير الى كرامة مقيميته . تلك المقيمية التى اصبحت احسن مجلس اجتماعى محلى ، وملتقى اكبر الموظفين والاشراف ،

وبيتا مفتوحا للضيوف ، وبيتا للبحث التنقيبي الاثري • وقد استطاع ريج ان يحافظ على منزلته ونفسه خلال الايام الاخيرة العاصفة من ايام سليمان الصغير ، وان يتمتع بالحظوة العالية عند عبدالله باشا ، وان يهنىء داود بتوليه الحاكمية •

وكانت علاقته بداود باشا علاقة ود صميم في اول الامر • غير انها تبدلت بعد ذلك بحكم وجود شخصية انكليزية قوية ، كثيرة الشك ، غير هيابة مع طاغية شرقي احاط به مشاورون جهال متعصبون • فكان داود ووزراؤه لا يمكنهم اخفاء غيظهم عند ما كان يوجه لهم الانتقاد بصورة مستمرة لغمطهم الحقوق الاوربية ، وتلاعبهم بأسعار العملة ، وعرقلتهم الظاهرة للتجارة الاوربية • حتى ان الباشا لم يتورع في ١٨٢٠ م (١٢٣٦ هـ) عن التصريح بأن « لا توجد حقوق اوربية في بغداد » واردف هذا الحكم الذي لا يقبله العقل ـ المخالف للمنطق والتاريخ ، ولاوامر السلطان ـ بمضاعفة الرسوم الكمركية على البضائع البريطانية ، وبكل بيان سمج معرقل • فعزم ريج على ترك بغداد الى بومبي ، فمنع الباشا ذلك • وكانت الحركات التالية فريدة في تاريخ الديبلوماسية • فقد قاوم ريج الاعتقال بحرسه الهنود وبخدام المقيمية وجماعة من زواره ومعارفه • فأحاطت بالبناية المشاة والهجانة والمدفعية فجابهتهم افواه البنادق وتدابير التحصن ، غير ان الجبن انقذ الباشا من موقفه السخيف الذي سيق اليه بدافع الطمع والطيش • وقد توقف ضباطه وموظفوه عن عمل شيء بالنظر للاحترام الذي يكنونه للباليوز ولحراجة الموقف ، حينما كان عدد من المحلات في بغداد مستعدة للقيام بوجه الحاكم المكروه • فأعاد الجند ، الا ان ريج بقي اسيرا • ولم يسمح له داود بالسفر الى الهند (مايس ١٨٢١) الا بعد ان وجه حاكم بومبي خطابات شديدة اللهجة الى بغداد واستانبول • فأعيدت المياه الى مجاريها وتحسنت العلاقات بين الباشا والمقيم الحديث • فلم ترد الى تلك الدركة بعد هذا •

وتبرهن لنا وقائع الديبلوماسية البريطانية في عراق المماليك ، بوجهة نظر حديثة ، على ان حكومة السلالة التي اسسها حسن باشا في ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) ، التي انحطت معنويا لا ماديا في عهد داود ، قد اصبحت غير مؤتلفة مع مجرى الاحوال التاريخية بصورة مزعجة ، وعلى هذا اصبحت محكوما عليها بالزوال • كما ان امة اوربية استطاعت طوال قرنين ان تشيد صرح تجارتها وان تتبوأ مركزا اجتماعيا وسياسيا

جديرة به بعد طويل صبر واناة اصبح لا يمكنها ان ترى منزلتها هـذه تمس بسوء بمجرد كلمة هوائية تصدر من حكومة بغداد المتأخرة التى تشرى بالمال • هذا زيادة على ان شخصية المقيم فى بغداد كانت نسبيا ابرز من شخصية السفير فى استانبول • فاذا أهين او مس بسوء فلابد ان يصل خبر ذلك الى السفير فى استانبول ، وعندئذ تعلم به حكومة استانبول نفسها • ولا غرو فان الباشوات المماليك عندما سمحوا للمقيم البريطانى ان يصبح الرجل الثانى فى العراق قد اظهروا شيئا من الاعتراف بوسائل التقدم ، وبعض الميل للانقياد للصلاح ، وشيئا من قلة التعصب ، وقليلا من الصداقة والمجاملة • الا انهم كانوا قد سمحوا بذلك ان يدخلوا بين ظهرانيهم نظما لا يمكنهم ان يستسيغوها ، ووجها من التجدد لا يأتلف البتة مع اساليبهم • كما سمحوا فى الوقت نفسه لمنتقديهم الذين كانوا يرقبونهم عن كثب ان يبعثوا تقاريرهم عن الوضع الى العاصمة • وعلى هذا لم يسمع السلطان سوى ان الحكومة فى بغداد التى خابت فى حماية المملكة من الوهابيين ، وفشلت فى توطيد دعائم السلم مع ايران ، قد اصبحت واسطة لسوء التفاهم مع الدول الاوربية ايضا •

على مثل هذا يحلل سبب من الاسباب التى دعت الحكومة المركزية ترغب مع رحابة صدر فى تبديل حكم السلالة العراقية بحكمها بالذات ، وذلك ما كانت عاجزة عن تحقيقه منذ قرن واحد • ثم ان تركية التى اخذت على عاتقها تحقيق هذه الامنية اخيرا لم تكن تركية التى كانت قد عينت القيصريه‌لى ، وحولت عمر ، وتوخت السلم بتعيين بيوك سليمان • بل كانت امبراطورية استعيد نشاطها فغدت لا تحتمل انشقاق مماليك العراق عنها فضلا عن مساوئهم الاخرى •

ولقد اعتبر الكثيرون معاهدة قينارجى ضربة قاضية على العظمة العثمانية • غير انه حتى فى ذلك العصر لم تكن روح التفاؤل بالاصلاح ميتة فى الامبراطورية الكسيرة المتأخرة ، الفاقدة للشعور الى حد كبير • والحق هو ان الاصلاحات العسكرية والبحرية التى قام بها الاميرال غازى حسن باشا لم يظهر من حسناتها الا النزر اليسير ، الا انها كانت تدل على اتجاه الاصلاحات المقبلة وعلى احجام الرأى العام التركى عن قبولها معا • وفى ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) تسنم السلطان سليم الثالث العرش فكان بمزاجه وتدريبه وميوله من المصلحين • فقطع فى مدة عشرين عاما من عهده مرحلة طويلة من

طريقه المؤدى الى تحطيم الوضع التاريخى الشاذ الذى كانت بموجبه البلاد مضطربة ، خائرة القوى ، ومتقهقرة عن المحافظة على مركزها • وبدأ بعد تبوئه العرش بثلاث سنين بسلسلة من الاصلاحات الاساسية • فأمر بوجوب ايقاف سوء الاستعمال فى امور الاقطـاع ، على ان تدخل الاراضى الاقطاعيـة بالتدريج فى ضمن الاملاك الاميرية • وحددت مدة الحكم لحكام الولايات بثلاث سنوات فقط • ثم تقدم[1] بالغاء جمع الضرائب بالضمان « الالتزام » واستئصال سوء الاستعمال الجائر الذى كان يجرى بواسطته • وأسست المدارس ، وشجعت الطبـاعة ، وترجمت الكتب من اللغـات الاجنبية الى التركية ، وارسلت البعثات الى العواصم الاوربية • على ان هذا البرنامج الاصلاحى الطموحى طبق قسم منه فى بعض المناطق من الامبراطورية فقط ، وليس عندنا ما يدعو الى التردد فى اعتقاد ان هذه الاصلاحات لم يفكر احد فى تطبيقها فى العراق • وقد مشى السلطان سليم فى الاصلاح العسكرى مشيا بطيئا ، الا ان بطاء ذلك كان يعد سرعة كبيرة بالنسبة لمقاييس ذلك الزمان • فسمح بتشكيل كتيبة نموذجية واحدة على الاصول الحديثة ، غير ان اشارة واحدة لمح بها الى الديوان بتطبيق الاسـاليب الحديثة على الانكشاريين ايضا ولدت الفتنة فى الحال • وعلى هذا فان بذرة الجيش الجديد لم يبذرها الا حماسة السلطان نفسه فى تربة كانت غنية بالمزايا العسكرية الفائقة المختصة بالعنصر التركى ، الا انها كانت ملأى بالجذور العميقة والادغال السامة للانكشاريين المعربدين الوقحين المسيىء الاستعمال ، وللعلماء الرجعيين المبهمين الذين كان بنظرهم تدريب الاوربيين للجيش ومدافعهم من احابيل الكفار • فكان الحاج بكتاش برأيهم خيرا من سوارو او نابوليون • وكانت القصة المستمرة لشغب الانكشاريين وجورهم فى كل جزء من اجـزاء الامبراطورية تعرب عن جسامة سـوء الاستعمال الذى كان يومذاك ، وعن صعوبة اجراء الاصلاح • وفى ١٨٠٧ م (١٢٢٢ هـ) خلع سليما الاوباش الذين خاب فى استئصال شأفتهم وادخال التجدد عليهم • ثم انتعش الاصلاح ودبت فيه حياة جديدة بتسنم الامير الشاب ، ذى الصلابة والمبدأ ، محمود الثانى • غير ان الرجعية عادت فانتصرت ثانية ، فاضطر السلطان الشاب ان يعلن بعجز ومرارة ايقاف الاصلاحات التى كانت اقرب ما يكون الى قلبه ، بينما كانت خيانات الانكشاريين المفضوحة قد صودقت

---

(١) تقدم السلطان بكذا اى أمر به .

وبوركت . وظلت سرايا الانكشارين القديمة ، التى كان يؤازرها رجال الدين والرأى العام الرجعى ، لنصف جيل آخر ضعيفة عاجزة . وقد ظهر عجزها الشائن وعدم كفايتها فى عشر موقعات جرت مع اليونانيين والمصريين ، وفى قراب عشرين حادثة من حوادث العصيان والتمرد ، فضحى هؤلاء فى ذلك بكل شىء فى سبيل منافعهم الخاصة من دون خجل .

ولم يتجرأ السلطان محمود على اصدار امر من ديوانه يجزم فيه ان تخضع نسبة معينة من كل سرية للتدريب الحديث الا فى عام ١٨٢٦ م (١٢٤٢ ﻫ) . وقد تلا ذلك هياج بحسب العادة ، الا ان النتيجة كانت شيئا جديدا . فقد أعدم الانكشاريون عن آخرهم فى استانبول ، وعدم آلاف كثيرة منهم ايضا فى مختلف المدن التركية الاخرى . وبذا تشتتت سراياهم التى كان لها الذكر الذائع مدى دهر طويل واضمحل القاصى والدانى منها ، ثم شطب اسمها واندثرت نظمها . وبعد ذلك أمر بتأليف جيش حديث على الطراز الجديد .

وكان ليوم خلاص الامبراطورية العظيم هذا ، الذى يعزى النجاح فيه لمزايا رجل واحد ، نتائج مباشرة فى العراق سنأتى على ذكرها . وليس من اختصاص هذا التاريخ البحث فى الفشل الجزئى الذى منيت به الامبراطورية فى حصد فوائد هذا اليوم المستحصدة ـ بنتيجة التعدى الروسى المتزايد قبل ان يصل الجيش التركى الحديث الى اوج قوته ـ ولا فى المشاكل التى لم يثبت تجاهها « النظام » الجديد الكفاية اللازمة فى اوربة وآسية وافريقية . الا ان الاصلاحات الاساسية الاخرى التى قام بها محمود الثانى دلت على روحية تركية الجديدة التى اصبح مماليك العراق نقمة عليها . فبينا كان داود باشا فى بغداد ينعم بمعظم الاراضى العراقية على مقربيه وذوى الحظوة عنده ويوقفها عليهم كان السلطان يشتغل فى وضع القسم الاكبر من الاوقاف الدينية تحت الاشراف الحكومى . فرجعت ارادة سلطانية واحدة الى نفوذ الحكومة جميع الهبات الاقطاعية (المساء استعمالها منذ مدة طويلة) التى اعطيت خلال قرون عدة . اما حاكم العراق فكان يهب كل يوم امتيازات جديدة على غير قاعدة . وكانت سياسته الاستغلالية الضعيفة تجاه شيوخ القبائل والامراء الاكراد بعيدة كل البعد عن عزم سيده الاسمى فى اخضاع جميع « بيكات الوديان » الحقيرين العاسفين الذين ربما

اشبههم الباشا المملوك نفسه بمقياس اوسع • وكانت فى استانبول تبذل الجهود ــ وهى جهود لم تثمر تماما حتى فى القرن التالى ــ للقضاء على سوء استعمال الجباية والاستيفاء والجور الحكومى ، اما فى العراق فقد كان الهوى ، الذى يسيطر عليه التعصب والجشع ، الحكم الوحيد فى جمع الضرائب وتسييرها •

وفى الحقيقة ان حكام العراق لم يستخبروا بشىء عن هذه التبدلات العظيمة المحدثة فى الامبراطورية • فلم يزر استانبول الا قليل من الاغوات ، كما ان من كان يعرف منهم جغرافية الامبراطورية قسم قليل • وان ما كانوا يعرفونه حق المعرفة هو بعد العاصمة وعجز السلطان ، المبرهن عليه ، فى تنفيذ رغباته فى العراق • ثم ان الباشا ، لقصر نظره ، وثقافته القديمة ، ومشاوريه الجهال غير الحكيمين ، لم يكن يعلم ، او لم يتمكن من العلم ، بمدى الاصلاحات التى ادخلت فى تركية ولا بشخصية سيدها الحديدية[1] • ومع هذا فان الباشوات المماليك ، كما مر بنا ، كانوا يبدون ترحيبا جزئيا ، او ينقلبون ، بدعاة التقدم فى بلادهم من الاوربيين ، ولم يرفض آخرهم بالكلية قسما من الاصلاحات التى أشير عليه بادخالها • وقد تبدلت نوعية الانكشاريين فى العراق كثيرا خلال القرن الماضى • فقد كان ضباطهم الذين يردون من استانبول يقلون شيئا فشيئا حتى انقطعوا تماما • فتوقف ورود قوائم المجندين من الخارج ، فعوض النقص الحاصل من ذلك بالتجنيد محليا • ومن المحتمل ان آخر ظهور ظهروه وعليهم شىء من الصبغة الامبراطورية كان فى النزاعات على الحاكمية الحادثة فى ١٨٠٢ م • ومنذ ذلك الحين فصاعدا لم يكن الانكشاريون الا جنودا يجندون محليا ، وتدفع لهم ارزاقهم من الخزينة المحلية ، وبذلك كانوا يشابهون البرطلية والتفنكجية فى جميع الامور الاساسية ، برغم بقاء جمل واصطلاحات متأصلة بينهم ، مع شىء من الاختلاف فى اللباس والواجب الذى يقومون به • اما فى الجهات الاخرى من تركية فقد كان جورهم وشغبهم آخذا فى الازدياد عندما اقتربت نهايتهم ، مع انه قل جورهم وشغبهم فى العراق عندما عظم شأن القوات المحلية وطغت عليهم • ومما هو جدير بالذكر ان

---

(١) ان المقايسة واضحة بين شخصية الباشا وشخصية البادشاه • فقد كان الباشا دمثا متعلما بشوشا جذابا ، الا انه كان ضعيفا جبانا ومستولى عليه • وكان البادشاه من جهة اخرى بعيد النظر متينا ذا عزم مضحيا بالراحة والهدوء فى سبيل الاصلاح • ولم يساعده الا قليل من الناس بل لم يساعده احد مطلقا فى مساورة مساوىء الامبراطورية الجسيمة •

الباشا نفسه كان فى منتصف القرن الثامن عشر لا يجرؤ على البقاء دون ان يثبت اسمه فى سرية الانكشاريين ، لان الانخراط فى سلكهم كان ضرورة اجتماعية لا تتطلب بعض الواجبات فحسب بل هى من مقتضيات المحافظة على النفس ايضا . اما فى عهد الباشوات الاواخر من المماليك فقد توقفت تلك الضرورة وتوقف معها احتكار الامتياز الناشىء عن الانخراط فى ذلك المسلك برغم بقاء العضوية التى لا تستدعى القيام بالاعمال الحربية .

وقد طلب السلطان محمود بعد قضائه على انكشاريى استانبول توا اتخاذ الاجراءات نفسها من حكام الولايات اجمع . وقد وصل الامر بذلك الى بغداد فى آخر صيف ١٨٢٦م (١٢٣٢هـ) . فأخفاه الباشا مؤملا حلول فرصة يجدد فيها ولاءه وطاعته للسلطان ويحسن علاقاته به ، ثم يقضى على القوة الوحيدة الموجودة فى الباشوية دون ان تكون تابعة له بالكلية . وقد جلبت القوات من المراكز الخارجية الى بغداد فى يوم معين كان السراى فيه مكتظا بخيرة جند المماليك . وكانت بطاريتان من المدفعية مسلطتان على ساحته . وقد اصطف وسطه المماليك الذين كانت ثمانى عشرة سرية منهم فى بغداد حينذاك . فكان ذلك اجتماعا فريدا فى بابته اشرأبت فيه الاعناق وخمدت النفوس انتظارا لاعلان النبأ الجديد . وقد قوبلت الارادة الملكية ، بعدما قرئت بصوت عال ، بتعجب لا يصدق به . فطلب الباشا والدموع ملء عينيه حزنا على مصير الانكشاريين - حصن الاسلام الحصين منذ القدم - من الجميع ان ينخرطوا فى صفوف القوات التى كان يراد تأليفها حديثا . فبادر كل جندى فى السريات من غير عنف ولا ضغينة ، ولا تغيير القواد الى نزع « القالباق » واستبداله بلباس الرأس الجديد ، ثم أثبت اسمه فى كتيبة « النظامية » ، وسمع بعد ذلك دوى الاطلاق من المدافع ، المعدة لغرض آخر اذا استدعته الحال ، ايذانا بالفرح . وقد عرضت المشاهد نفسها ، الشبيهة بخلوها من سفك الدماء وبعدها عن الطريقة التى جرت عليها فى استانبول ، فى الحلة والبصرة وفى سائر الاماكن الاخرى . فانتهى كل شيء ولم يبق غير تجهيز الجيش الحديث بالمعدات . وعهد أمر تدريبه الى المسيو ديفو ، وهو ضابط افرنسى[1] كان بخدمة محمد على مرزا فى كرمنشاه . وقدمت المشورة من جانب المقيم البريطانى الميجر تايلور الذى كان بعهدة ابنه تأليف كتيبة من الخيالة على الطراز[2] نفسه فى سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦ هـ) .

---

(١) هارت (ص ١٧٥ ، الحاشية) . (٢) يقول فونتانييه (ص ١٩٢) ان تايلور حاول بكل سخافة احباط مسعى ديفو ليأتى بكتيبة نموذجية من الهنود .

وكان الباشا قد طلب من بومبى منذ ١٨٢٤ م طبيبا بريطانيا وتجهيزات لالف جندى . الا ان هذه ، المقصودة لتجهيز الحرس المماليك ، قد رفضت تلبية الطلب لها . وبعد المباشرة « للنظام الجديد » طلب المساعدة بمقياس اوسع ، فقد طلب ضباطا ومدرسين وصناعا وثلاث سفن مسلحة كبيرة وكميات كبيرة من الذخائر الحربية . فرفض طلبه ثانية ، وربما كان الرفض ناشئا عن اعتقاد ان مثل هـذه قد تساعد لاغراض الثورة والعصيان . غير ان النظام الجديد قد نمى وتوسع ، فكانت عدة آلاف من الجند فى التدريب والسلاح فى ١٨٣٠ م وكانوا يقبضون رواتبهم بانتظام ، وقويت عزائمهم بنجاحهم فى الحرب القبائلية . وكان يمشى الى جنب هذا التجنيد تأسيس المعامل المقتضية لصنع ألبستهم واللوازم العسكرية الاخرى .

ويقول مبشر انكليزى[1] كان فى بغداد فى الشهر الذى حدث فيه هذا التبدل ان « كل شيء كان يدل على تغلغل النفوذ الاوربى .... ولم يكن هذا الاتجاه فى استعمال الاساليب الاوربية وادخال التحسينات بارزا فى الشؤون العسكرية فحسب بل فى امور اخرى اكثر أهمية منها . فقد كانت رغبة الباشا عظيمة فى ادخال الملاحة البخارية فى هذين النهرين الجميلين .... وانى اشعر فى الحقيقة بان البارى سبحانه وتعالى قد أدخل انقلابات عظيمة فى قلب هذه الامة » .

ويدل هذا الرأى على كثير من الحقيقة . فقد فتحت المعامل ، وجيء بميكانيكى من جنيف ، وبستانى من اليونان . وكثر التحدث عن مواصلات اسرع من القديمة بين اوربة والهند على طريق الفرات ، وبدأ جماعة من الموظفين البريطانيين ـ اورمزبى وايليوت ـ يمسحون الانهر . وبات فى حيز الامكان نقض الانتقادات الموجهة على عهد المماليك الاخير الواصفة له بالجمود والرجعية . فقد شاهد الكل علامات التقدم المادى والاسلحة الحديثة والامل لتحسن المواصلات وتزايد السياسيين الاوربيين . فلم يكن باب التقدم موصدا بالكلية ، كما لم يكن مفتوحا على مصراعيه ايضا بل كان يفتح ويسد

---

(١) المستر ا. ن. غروفز . وقد كتب مذكرات يومية واضحة جدا ، ويعتمد عليها فى حدود الامور التى يبحث عنها .

تبعا للاهواء . وكانت الرغبة فى المظاهر لا فى روح التقدم . ولم تخط كل هـذه الاصلاحات خطوة واحدة فى الطريق المؤدية لتكوين حكومة صالحة[١] .

عمل الله وعمل الانسان

حل عام ١٨٣٠ م فكان داود باشا بشخصه وبيته وسلالته وجميع نظامه قد كتب عليه الزوال لاسباب كنا قد وفيناها حقها من البحث بشيء من الاسهاب . فقد أصبح استقلال بغداد الطويل لا يطاق ولا يأتلف مع الاحترام الذاتى للامبراطورية الام . فكان داود باشا يومئذ منفصلا عن سيده فى استانبول ، فلم ينفذ له امرا غير احلال الجيش النظامى فى محل الانكشاريين فى الاخير . وبقى محتفظا بحرسه المماليك الذين كانوا طوع اشارته فى الطاعة ، وهم أشد خطرا على سيده السلطان من الانكشاريين . ثم ان جميع مساوىء الحكم وكثيرا من سوء الاستعمال ، مما كان السلطان مشغولا فى القضاء عليه ، كان يرى مزدهرا فى العراق ومتعاظما فى الشأن يوما بعد يوم . وكانت اوهام الباشا غالبا ما تضايق ديبلوسيى الدول القوية . فبات عهد المماليك سخيفا احيانا ، ومهينا بعضا ، وخطرا فى بعض الاحايين . وقد امتنع باشا بغداد - وهى أغنى الولايات بعد مصر - من مساعدة سيده السلطان مساعدة كان به امس الحاجة اليها وذلك عندما كان فى حرب ميؤوس فيها مع الروس ، فزاد ذلك فى الطين بلة ولم يعد السلطان يحتمل ذلك الوضع . فعزم على ارجاع العراق الى حظيرة الامبراطورية التى كانت داخلة فى دور الاصلاح . فكانت اول خطوة خطاها لتنفيذ عزمه ارسال رسول ماهر يطلب من الباشا المملوك فى بغداد التخلى عن الحكم . وقد انتدب لهذه المهمة السياسى المعروف صادق افندى . فأرسل حقيقة ، الا ان مهمته الظاهرية كانت جمع التبرعات من بغداد وغيرها للجيش الحديث . وبذلك رفع سفر صادق افندى من استانبول الستار عن آخر دور قام بتمثيله المماليك فى العراق .

كانت مواكب القبوجيين الواردة كل سنة من استانبول وهى تحمل الفرمان والخلعة شيئا مألوفا . الا ان الغريزة فى هذه المرة قد انذرت داود بان هذا الموكب الجديد

---

(١) ان ما وصف به ستوكلر (ص ٤٤) داود باشا انه « مجدد ناجح على الطريقة التركية » وما ذكره فى « مقاومته الطويلة للباب العالى » قد يكون مسوغا لمخاوف حكومة بومبى عندما رفضت ان تبيعه السلاح .

اكثر خطورة من المواكب المألوفة فأعد عدته وحضر مبالغ جسيمة من المال ، كان قد جمعها على مدى السنين بجشعه ، ليبتاع بها سلامته عند اقتضاء الحال لها . وارسل الى طوزخرماتو فى استقبال صادق افندى عربة ذات افراس اربعة مع موظف كبير يحمل هدايا الترحيب . على ان الرسول كان قد وضع خطته التى يسير بموجبها فى هـذا الشأن . وبينا كانت اخبار سفك داود للدماء ، التى رواها له الجليلى فى الموصل ، طرية فى مسمعه قابل مستقبليه بجفاء وخشونة . وعندما وصل الى ضواحى الاعظمية أبى التوقف لزيارة الامام الاعظم (خلافا للعادة) قبل ان يدخل المدينة . فدخل بغداد ومشى بين صفوف حرس الباشا متجها نحو المحل المعد لنزوله من دون ان يعبأ بمظاهر الاستقبال ولا بزيارة داود ، وقد كان ينتظره فى السراى بكل أبهة . فازدادت الوجوه الفزعة فى بغداد خوفا ووجلا .

وكانت زيارته الاولى للقصر فى صباح اليوم الثانى . غير ان داود تعمد النهوض متأخرا من نومه مجازاة لخشونة ضيفه . فتبودلت التحيات الرسمية وقدمت القهوة والحلويات ، ولم تصدر اية كلمة فى الحديث عن غايات الرسول ووفادته . وحدثت فى اليوم التالى زيارة اخرى ، الا انها كانت رسمية وجافة كالاولى . وفى الزيارة الثالثة أبان صادق جلية الامر وفاه بما جاء من أجله . فأعلن عزل الباشا وطلب منه تسليم الحكومة فى الحال رافضا اى تأخير وطلب للتفاهم . واذ ذاك حل محل احتجاج الباشا واعتراضه التهديد والوعيد . واصبح لابد من حدوث حادث جلل قبل سفر صادق . فرجع القبوجى مذعورا حذرا الى مخدعه ، وبعث فى طلب سليمان آغا المير آخور وطلب اليه ان يطيع أمر البادشاه ويذبح الباشا العاصى الوقح بعد ان وعده ان يكافاه بالباشوية . فاستمهله المير آخور حتى حين وخف راجعا لسيده فى السراى . فانزعج داود للامر واهتم ، وبعث فى طلب محمد مصرف[1] واسحق الصراف اليهودى لاستشارتهما . فاتفق الجميع بعد ساعة ، وزنت خلالها المخاوف واحدة باخرى وقويست المحاذير ، على قتل رسول السلطان الرسمى من غير عجلة ولا ارتباك . وفى مساء اليوم التاسع عشر من تشرين الاول ١٨٣٠ م (١٢٣٦ هـ) احتشدت بعد الصلوة سريات

---

(١) قال احد الآلوسيين فى المخطوط المرقوم بـ ٢٥٩٦ من خزانة الاوقاف ببغداد : « سنة ١٢٤٦ جاء صادق افندى من امراء الدولة الى بغداد فقتله المصرف محمد افندى بأمر داود باشا » . « م . ج » .

النظاميين بكل سكون حول مخدع الرسول . ثم ملئت بكل هدوء جميع الغرف بمن يعتمد عليهم من المماليك ، وانتخب الخدم المسرعون ، ثم عهد بمهمة القتل الى خالد آغا ورمضان آغا حاجب الباشا . فدخلا من غير مراسيم على الرسول المحكوم عليه فقابلهما بذعر شديد . وبعد ان نطق بسؤال غير مفهوم قضيا معه مهمتهما ونطقا باوامرهما قصيرة يسيرة . ولم تجده نفعا توسلاته فى مفاوضة اخرى لداود ولا وعوده الخلابة ولا استعطافاته . فقد ضغطت على حنجرته يدا خالد الضخمتان فخنق بعقدة حمالة السيف .

وفى هذه الاثناء كان الباشا قد تنكر وخرج يحوطه حرسه الخاص لينتظر بالقرب من باب المعظم الاخبار السارة بنجاح الخطة . وعند علمه بما تم دخل غرفة الموت بنفسه فتحقق خروج الحياة من جثة الرسول ، ثم أمر بدفنها . وكانت تبدو عليه امارات التأثر التى لم تكن تخلو من اخلاص . وقد اظهرت هذه الجريمة الشنعاء من شخصيته الضعيفة عزما غير مألوف ، كما أيقن بان المستقبل اصبح رهيبا لا محالة . كيف لا وقد كان قبوجى آخر ينتظر نتيجة وصول صادق ، فى الموصل ، وكان آخر ينتظر فى ديار بكر ايضا . وفى غضون ذلك انتشر النبأ فى بغداد بسرعة . فخشى قسم من الناس ان يستسلم الباشا الى الشاه حفظا لسلامته . وظن آخرون ان قواته حسب الظاهر كافية للوقوف فى وجه ما سيرسله السلطان البعيد المشغول من قوة . وفكر قسم آخر فى ان استانبول ، بعد قرن مفعم بامثال هذه الحوادث ، سوف تتغاضى عن هفوات المماليك هذه. اما الباشا فقد كتب الى استانبول بوفاة القبوجى على اثر اصابته بالهيضة محاولا بذلك فى الوقت عينه تمويه الامر على الرأى العام فى بغداد . غير ان الحقيقة كانت واضحة للعيان . فأخذت الاسعار ترتفع لان الجميع صاروا يكتالون ويختزنون حيطة لما قد يحدث من الاضطرابات التى اذا وقعت فلن تكون هينة ولا بطيئة .

ولقد اضافت هذه الحادثة الخسيسة الى الاسباب العامة الداعية للقضاء على انشقاق المماليك عن امبراطورية السلطان اسبابا داعية اخرى . فان السلطان ، وقد قوبلت سلطته فى افريقية بنجاح محمد على غير المحتمل ، لم يعد فى وسعه ان يبقى ثائرا ثانيا مثله . فكان يعرف جيدا كيف يعتبر كتب داود الرقيقة ويستنتج الوضع منها . ولم يبق امامه غير اختيار خلف له . فعرضت ولاية بغداد فى بادىء الامر على يوسف باشا ، وهو رجل مجازف من الروم ايلى كانت بعهدته ايالة حلب . لكن طلباته من المال والجند

لان يقوم بالمهمة حالت دون تعينه • وكان المرشح الثاني الحاج محمد على رضا باشا[١] ، الذى شاور من عرف العراق من اصحابه فى العاصمة ، فقدم نفسه للخدمة مشترطا ان يعطى ستة آلاف كيس فقط مع لواء من الجند • وكان هذا من الوزراء الحديثين ذوى التاريخ المجيد • وعندئذ رفع لدرجة صار يحكم فيها مجموع ايالات العراق وحلب عدا الموصل • وبعد ان حشد قواته فى حلب فى كانون الثانى من سنة ١٨٣١ م (١٢٤٧ هـ) تركها فى اوائل شباط مع تسعة مدافع وقطعة صغيرة من الجيش النظامى الحديث فى حلب ، وكتيبتين من خيالة الاقطاعيين ، وعدد كبير من غير النظاميين الذين كثروا بعد ذلك بانضمام الشمريين من اتباع صفوك اليهم • وكان خلال سيره يرسل بالكتب بصورة مستمرة من معسكره الى الفئات المتبرمة فى العراق بايدى الكثيرين ممن ترك جيش المماليك • وتوفق فى الموصل ببذله الاموال وكرمه ان يجتذب قلوب الجميع اليه • وقد عين حاكمها قاسم باشا العمرى قائدا ثانيا بعده • وبينا كان الجميع متأهبين للتقدم نحو الجنوب وافتهم انباء من العراق الجنوبى فاوقفت سير هذا المنتقم ، الذى بات واجبه منوطا بيد اقوى من ايدى البشر •

فكانت قد وصلت الى بغداد منذ تموز ١٨٣٠ م اشاعات عن تفشى الطاعون فى تبريز • وبعد شهرين تحقق تأثيره المروع وسرى شره الى كركوك وقد حدثت فيها عدة اصابات طاعونية • وفى الحين الذى كانت فيه بغداد مذعورة لقتل القبوجى تواردت اليها شتى الانباء عن تقدم الطاعون نحوها • فقد جاوز كركوك واخذ يعبث فتكا بالسليمانية • وعلى هذا احضر طبيب المقيمية الانكليزية فى بغداد تعليمات كاملة لتنفيذ الحجر الصحى ، وذلك بعد ان طلب اليه ذلك الوالى بنفسه • غير ان التأثيرات الرجعية التى أفتت بان كل عمل يتخذ للحيطة يعد ضربا من الزندقة حالت دون تنفيذ اتخاذ معظم الاحتياطات ، وأذن للقوافل الواردة من الاصقاع التى حل فيها الطاعون من ايران وكردستان فى ان تدخل بغداد بكل حرية • وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر شباط علم الجميع بان السلطان اعلن اعتبار داود باشا ثائرا[٢] • ووافى نبأ فى اليوم الرابع

(١) نجح مرة فى قمع اضطرابات فى عينتاب عندما كان متسلما فى تلك الجهات • وهو من اللاظ الذين يمتون للجراكسة بصلة ويقطنون فى الساحل الجنوبى الشرقى من البحر الاسود •

(٢) يذكر كتاب « مرآة الزوراء » ان مؤامرة لم تنفذ كانت قد دبرت بين مماليك بغداد لقتل داود وطلب العفو من السلطان •

والعشرين يفيد ان على باشا عادر حلب قاصدا الى بغداد ، وبعد مضى شهر وقعت اول اصابة طاعونية • وكان اول[1] حدوث الاصابات فى البيوت القذرة من محلات اليهود • وفى اوائل نيسان حاول الكثيرون الفرار من المدينة ، ولكن الى اين ؟ فقد استولت القبائل على الطرق كافة ، وكانت السفن النهرية قليلة يضاف ذلك الى ازدحامها وتسرب الطاعون اليها • وقد بلغت الاصابات أشدها منذ اليوم الرابع من نيسان ، فبات الناس يموتون بمعدل مائة وخمسين فى اليوم الواحد • وبادر النصارى[2] والاوربيون القليلون اذ ذاك فى بغداد لتحصين مساكنهم والحجر عليها منعا للاختلاط بكل ما لهم من شدة • اما الباشا واهل بيته فقد حاولوا الفرار من وجه الطاعون ، غير انهم لم يستطيعوا ترك ثروتهم المكدسة ولا حملها معهم • ثم اختل النظام باجمعه وانتشر اللصوص فلم يردعهم رادع • وبعد ذلك وافت انباء تقدم العدو واقترابه من المدينة يوما بعد يوم • واضطر المقيم الى الانتقال الى البصرة على النهر •

وتجمع اخبار هذه الكارثة كلها على تفشى الطاعون المبيد • وتبدلت الحال بين الناس من عدم المبالاة الى الذهول والذعر ، ومن الكآبة الصاخبة الى صمت الموت والقنوط • ومات على هذا المنوال حتى اليوم العاشر من نيسان سبعة آلاف من الناس خلال خمسة عشر يوما • ثم هلك فى اليوم الحادى عشر ألف ومائتان ، ومنذ هذا اليوم الى اليوم السابع والعشرين كان عدد المائتين فى كل يوم بين ألف وخمسمائة الى ثلاثة آلاف •

---

(١) قال مصطفى جواد : ورد فى تعليقات لاحد الآلوسيين على المخطوط المرقوم « ٢٥٩٦ » من خزانة الاوقاف ببغداد ما نصه: «سنة ١٢٤٦ جاء الطاعون الى بغداد ووقع الطعن فى العشرة الاخيرة من رمضان ثم كثر فى خمس من شوال والناس بين مصدق ومكذب واول ما وقع فى روافض الصدرية ثم اليهود وفر الناس وزادت دجلة زيادة لم يسمع بمثلها وكسرت السداد واحاط الماء والبلاء بالناس وهدم من الجانبين نحو خمسة آلاف دار بل اكثر ومات فى اليوم عشرة آلاف نفس واكثر وعجزوا عن الدفن فجافت الطرق والبيوت ، والناس كيوم القيامة وبعد ان هان الامر فى الجملة ألقيت الموتى فى دجلة ، يجرون من ارجلهم • وكثير منهم تنفصل رجله ، وذهبت الاموال هدما وسرقا فانا لله وانا اليه راجعون » •

(٢) يؤكد ذلك ويلستيد وسليمان بك • كما ان المستر غروفز اتخذ التدابير نفسها ، ومع ذلك افقده الطاعون زوجته (ص ١٤٠) •

ولم يشف مريض واحد من كل عشرين مصابا . وكان الطعام لا يوجد الا فى الندرة ، ولم يشتغل السقاؤون ، فركدت حياة المدينة باسرها ولم يفكر احد فى غير الموت والموتى . وعلى هذا توقفت اعمال الحكومة جمعاء ، لان الموت هاجم الموظفين وافراد الجيش وخدم الديوان فقضى عليهم كقضائه على سائر الناس . فأصبح الباشا الحائر وليس من احد يأخذ باوامره . وكان قد طلب ان يأتوا اليه بالسفن فلم تحضر سفينة واحدة . وخابت مساعى الاحياء فى دفن الموتى امام سيل الموت الجارف حتى ظل الاموات متكدسة اشلاؤهم فى الشوارع والازقة ، وهام الاطفال والعجزة على وجوههم من غير هدى وهم جائعون لا قبل لهم بشىء . وقد كثرت الجرائم والسرقات فى هذا العهد الرهيب حتى قضى الموت على الجانى والبرىء معا .

واذ ذاك ظهر للعيان خطر جديد ومنبع فزع حديث فى الحادى والعشرين من نيسان . فقد أخذت دجلة فى الزيادة ، فتعالى مستوى مائها كثيرا عن المعتاد . واحاطت المياه ببغداد ، فمنعت الوف الناس من الفرار وحالت دون ورود الطعام الى المدينة من الخارج . وبقى فيضان الماء يزداد بوصة فبوصة فبلغ الى اعالى السداد وكانت مهملة وامتلأت السراديب ولم يبق بين بغداد والغرق سوى قدم واحد من السدة المتداعية . وفى ليلة اليوم السادس والعشرين انهار قسم من المسناة الواقعة فى الجهة الشمالية من المدينة وقسم من القلعة ، ففاض الماء وتساقط على أثر ذلك من الدور الفان فى ظرف بضع ساعات . فاستحال السراى وسبعة آلاف من الدور ، فى ضمن اربع وعشرين ساعة ، انقاضا متراكمة دفن فيها فى رمس مشترك المرضى والاموات والقليل من الاحياء الباقين . وشوهدت خيل الباشا الاصائل هائمة فى الازقة ، واصبحت اهراؤه الوسيعة الملأى بالطعام مفتوحة على مصاريعها . وبعد يومين أخذ الماء فى الانخفاض وقل مقياسه فى اليوم الثلاثين من الشهر بمقدار ياردة واحدة . وفى نهاية الاسبوع الاول من مايس زال خطر الطاعون والماء معا . ومع احتشاد من بقى من سكان المدينة فى عدة من المحلات اليابسة ، وما فى ذلك من تسهيل لفتك الطاعون بهم ، قلت وطأة الطاعون نفسه فتجدد بذلك أمل ان بغداد لن تضمحل عن آخرها كيفما كان الامر . على ان الكثير من السكان بقوا فى عداد المرضى ولم يزل ثقيلا عليهم عبء الجثث ، الملقاة فى الازقة تلعب بها الكلاب فى اوحال ماء الفيضان . ولم ينته أجل المآسى المحزنة التى لم يكن مثيل لها فى هذه المدينة الا بعد ان انقضى ثلثا الشهر الجديد .

ثم رفعت جثث الموتى شيئا فشيئا ، فدفن قسم منها والقى القسم الآخر فى النهر ، وجمعت الحيوانات الشاردة ، وأبيع شيء من الطعام ، ثم تعالت اصوات المؤذنين من الجوامع الباقية . وقد خرب قسم كبير من المدينة بهذه الكارثة العظيمه بحيث لم يعد فى الامكان اصلاحه . وبقى القسم الآخر واقفا آوى اليه بقايا السكان المرعوبين وبضع مئات غيرهم ممن رجع الى المدينة من الخارج . ودب دبيب المواصلات قليلا فى الاسواق المهدم اكثرها المسروقة كلها . الا ان كثيرا من المهن قد انقرض مع من مات من القليلين البارعين فيها .

سقوط بغداد

أجال الباشا بصره فى بغداد الغريقة فارسل عليها نظرة تعسة يا لها من نظرة . فلم يك احد أشقى منه يومئذ ، فقد توالت عليه المصائب من كل حدب وصوب . وبقى فى خدمته اربعة من الصعاليك البشعين الشاحبى اللون بدلا من عشرات الاغوات الزهر من المماليك الكرج . ولم يبق من كتائبه الشهيرة الا بضع عشرات من افرادها ، واصبح القصر المنيف وقد خرب نصفه وتهدم . اما الخزانة فكانت لا تزال ملأى ولكن لغير غرض . وانفصمت عرا الولاء والطاعة او وهنت لحد كبير . وعلى هذا فقد غدا داود فى اواخر ايام الطاعون ضعيفا من المرض ، وحيدا فى غرف قصره وحجره المطلية بالذهب وفى خدمته امرأة عجوز وهو ينوء من ضعفه بحمل مسؤوليات المستقبل الذى كان يتراءى له شبحه . وكيف لا يكون كذلك وقد خاب أمله وحبطت مساعيه فى الدفاع عن بغداد ، فضلا عن الاهوال التى توالت عليها . وكان عند اول تخوفه من نزول العقاب به قبل تفشى الطاعون قد بعث بقوة قبائلية تحتل خط الفرات فى دير الزور ، وارسل قسما من جيشه النظامى الى ماردين . ولما ايقن اخيرا بان ذلك لم يعد بكثير نفع عليه لاعتماده الباطل عدل عن تراتيبه السابقة وبعث يوسف آغا مع كتائب الجيش النظامى لتعزيز كركوك . فدمر الطاعون القسم الاغلب منها وأخرج سكان المدينة من بقى منها . وفى اوائل ايام مرضه بعث المير آخور لجمع الجنود الاجيرة من الخالص ، الا ان الموت عاجل ضابطه المحارب هذا وتفرق شمل الجنود الاجيرة . وبعد ذلك ترك بغداد كل من محمد مصرف ومحمد باشا بابان فى الوقت الذى كانت فيه تحاصرها من جهتين لها قوات صفوك الخفيفة ومقدمة جيش على رضا التى توجهت

من الموصل بقيادة قاسم باشا • وكان غرضها من ذلك جمع فلول كتائب يوسف باشا وتجنيد جنود أجيرة غيرها ببذل المال لهم • بيد انهما ما وصلا الخالص حتى علما باضمحلال يوسف وقرب وصول صفوك ، وعندئذ اتجها جنوبا وشرقا الى بلاد شمر طوقة فوقعا فريستين لاطماع القبائل هناك وشراستها • وبذا انزلت ضربة قاضية اخرى على الباشا المملوك الذى لم يبق منه الا هيكله الهزيل يحمل يوميا بضع ساعات من فراشه الى الديوان فيقصده فيه جماعة من الزائرين ممن تدفعهم عادتهم او رغبتهم الى الاستطلاع للحضور لديه •

وكانت الاخبار التالية التى جيء بها تفيد وصول قاسم باشا الى الكاظمية مع سليمان غنام العقيلى (الذى رافق على رضا من استانبول) والشيخ صفوك • وهناك قرىء الفرمان بعزل داود بصوت عال ، وركع الجميع لاوامر البادشاه ، ثم ارسل عشرون وكيلا الى بغداد • فحدث بنتيجة ذلك اول هياج قام به رعاع من محلة باب الشيخ ، فانهم ساروا الى السراى واحرقوا بابا من ابوابه ثم فروا عندما ثارت اول طلقة من بندقية عبد الباشا الرابض • اما الباشا فلم يظهر بجنبه احد من الاتباع ولا صديق من الاصدقاء • ولما أناخ الليل بكلكله ركب الباشا وبجانبه عبده الحبشى الوحيد ، الذى استعان به عند الركوب ، وترك قصره فالتجأ الى بيت صديق له • على ان جميع الجهات فى البلد كانت قد عزمت على الاستسلام للقوة الجديدة • فقام وفد من الاشراف والعلماء ممن يعلم بمكان اختبائه وقادوه الى دار[1] صالح بك ، ثم اخذوا عليه عهدا وثيقا بتسليم الباشا الى على رضا عند اللزوم • وبعد ذلك دخل المدينة قاسم باشا ، فاستقبله اولئك الوفد الذين وضعوا داود فى الاسر انفسهم وشيعوه الى السراى • فبان للجميع ان كل شيء قد انتهى من غير عناء • وبذلك امسك القائد الموفد زمام الحكم ، ولم يبق لسيده الذى بعث به الا ان يتقدم من الموصل نحو الجنوب ، ليجد باستقباله الجميع •

غير ان العنف الخالى من الحكمة الذى ابداه قاسم (المقبل على السكر كما قيل) وسوء سلوك أحلافه الشمريين والعقيل سرعان ما استفز هم البغداديين ، ولم يكن فيهم شيء ثابت سوى ترددهم ، فقاموا بوجه الجائرين • وقد أشيع يومئذ ان قاسم باشا كان ينوى الاحتيال على رئيسه ليحكم بغداد هو بنفسه ، ولاجل ان يوفق للقيام بذلك كان

---

(١) وهى الدار التى اصبحت اخيرا دار المقيم البريطانى •

عليه ان يزيل الاتراك والمماليك عن طريقه ويعتمد على العرب وحدهم • وعندما قرىء فرمان عزل داود باشا على الجميع طلب قاسم تنفيذ ذلك فى الحال • غير ان مجلسه الشورى ـ المؤلف من الضباط واشراف البلد ـ اصروا على تأجيل تنفيذ ذلك • واصبح الوضع يتطلب من القليل من الضباط والجيش ممن سلم من الطاعون ان يجازفوا بحياتهم فى تنحية قاسم • فخفوا للاجتماع فى دار صالح بك ، وجرى نقاش بينهم فكان نقاش محافظة على النفس لا نقاش سياسة ، وتقرر وجوب ازالة قاسم •

وفى صباح اليوم الثالث عشر من حزيران ذهب قاسم لمجلسه وانتظر احضار داود • فعاد من بعثوا لاحضاره خائبين ، وكذلك سمعت جلبة وضوضاء فى الخارج • فكان ذلك ان قوة من المماليك والعقيل والاهالى قد احاطت بالبناية واصبح الحاكم الجديد اسيرا فى حوزتها • وعندما حاول اتباعه فى الداخل ومريدوه فى الخارج الدفاع عنه والهجوم على المتجمهرين توسعت اعمال الفوضوية وكثر اطلاق النار • فسحبت المدافع من القلعة ، وسطا المتجمهرون على القنابل والذخيرة الموجودة فى مخزن الاسلحة • اما فى الداخل فقد ارتدع الكثيرون عن حركتهم وتركوا ما كانوا يسعون اليه على دون هدى • وبعد ظهر اليوم استسلم قاسم[1] وويوضة ماردين • اما سليمان غنام الذى بقى مسيطرا على جناح من السراى حتى مغيب الشمس فقد سرق عند حلول الظلام جميع ما تمكن من حمله ، ثم أضرم النار فى القاعة الكبرى وفر هاربا والسيف بيده مارا بالازقة والشوارع الخالية • فتسربت النار التى أضرمها من غرفة الى اخرى ومن حجرة الى اخرى حتى تهدم القسم الاعظم مما بقى عامرا من السراى • وقد احترقت بهذه النار خزائن الباشا التى لم تكن لتثمن وادوات بيته وفى ضمنها الاحجار الكريمة والاعلاق النفيسة والجواهر والذهب والسجاد النادر وانواع الحرير والاقمشة المجلوبة من مختلف البلاد • وقد تلفت بهذا اللهيب ، الذى اضرمه اليأس فى التعاسة المؤلمة ، عشرات النفائس المتجلى فيها الفن الشرقى • ووقع ما بقى منها بيد اول الهاجمين على الغنائم من العقيل ورعاع بغداد •

---

(١) لم يذكر سليمان بك مصير قاسم باشا بعد الاستسلام • وقد سمع غروفز بانه قتل ، وسمع فريزر (١٦٩) بانه القى فى البئر • اما تقويم الموصل فيذكر ان داود باشا اعدمه « المؤلف » قلت قال احد الآلوسيين فى احد المخطوطات المذكورة سابقا «٢٥٩٦» من الاوقاف » ما نصه : « ١٢٤٧ قتل قاسم باشا والى الموصل قتله أهل بغداد ايام الفساد » • « م • ج »

على ان هذه القلاقل قد وحدت جميع الاحزاب . واصبح الرأى العام بأجمعه في جانب داود ، ولاسيما وان نهب السراى وحرقه كان جريمة سوف يحاسب على رضا من اجلها الجميع على سواء . وكان من المصلحة لهم يومئذ ان يقفوا بجانب حاكم في وسعه ان يحفظهم . فأجبر صالح على قبول منصب قائم مقام ببغداد ، فتقلده وهو العوبة بيد داود وكان ترشيحه فضلا عن تعيينه يعد تحديا للسلطان . ثم بعث[1] بالرسائل الى استانبول ، وقد طلب وجوه بغداد فيها انهم مستعدون لتزيد الضرائب وجمعها كل سنة من غير تمهل ، كما انهم مستعدون لتلافى نفقات حملة على رضا باشا على شرط ان يوافق السلطان على تعيين صالح او داود للعراق موحدا بأجمعه . ثم كتبوا الى على رضا انه سوف يلاقى فى تقدمه ابوابا موصدة ومقاومة شديدة ، واقترحوا عليه ان ينتظر مثلهم اوامر سيده وسيد الجميع .

اما على باشا فكان قد غادر الموصل مذ وافته انباء قاسم وما كان من أمر دخوله بغداد . وقد وجده رسول البغداديين معسكرا على الزاب الكبير ، ومن هناك أمر بالتقدم في الحال . فوصل الى بغداد فى بداية شهر تموز بعد ان جد فى السير ، وخيم فى الاعظمية ثم اعد مدافعه لحصار المدينة . فرد عليه الاهالى ببضع جولات مما دل على رغبتهم في المقاومة . وفى خلال الاسابيع العشرة الاولى كان كل يوم منها مفعما بالشائعات عن الدسائس المحبوكة داخلا وخارجا ، وبقصص الجرائم العنيفة الحادثة فى كل محلة من محلات بغداد ، وبما كان يحدث من سفك الدماء على ابواب السور وما وراءه . وقد فضل على باشا ، بدافع اخلاقه وخططه ، الصبر الاكيد غير المجد على الهجوم الذى لابد ان يكلفه ذهاب الارواح وتحمل المرارة . وكان جميع ما فى حوزة المدافعين من القوة خمسمائة من الجند النظامى الحديث اى الحرس المماليك وبقدر ذلك من عرب العقيل . وكان عند على باشا فى الخارج كتيبتان من الخيالة ، واثنتان من المشاة ، واثنا عشر الفا من غير النظاميين . فسخر بحرية تامة سلاح اساليبه الرحيمة ووعوده الخلابة مع اى منقلب يلتجيء الى جيشه . ثم تزلف للقبائل واغاها ، وكذلك انعم بالاراضى بتبذير واسراف . ولم يبق من ريب فى النتيجة الاخيرة . واذ ذاك كانت آمال المدافعين متعلقة بقدوم الحلفاء من العرب ، او بورود جواب سار من

---

(١) يقول ثابت ان ذلك كان « بواسطة تايلور القنصل البريطانى » .

استانبول ، او بوصول شائعات تنبىء بضعف العدو . وقد ظهرت انقساماتهم واضمحلت قوتهم الروحية فى الصدامات العنيفة فى الشوارع ، وبانشاء الاستحكامات الحربية والمتاريس بين محلة واخرى ، وبتأليف عصابات الرعاع والاوباش . وكان الضبط فى الخارج أحسن بقليل . وقد هاجم العرب المنضمون الى قوة على باشا ضاحية الكرخ من غير ايعاز رسمى فصدوا ، وانقلبت سرية من الالبانيين عليه طمعا فى رواتب اعظم من التى لهم ، ثم فرقت عرب سليمان غنام ، الذين كانوا مسيطرين على طريق الحلة ، قوة ما فازاحتهم عن هذا المدخل واستولت على خيام العقيليين وامتعتهم[1] . وبعد ان تشجع المدافعون بهذا النجاح حاولوا شن هجوم للخارج الا ان الارض الوعرة المغمورة بالمياه حالت دون ذلك . وكانت نتيجة هجوم غير منتظم شن على معسكر على باشا فى الاعظمية ضياع طابيتين من طوابى المعسكر حتى الجأت الهاجمين على الفرار قوة صغيرة من الخيالة . ثم قوبلت بالاستحسان فى اول الامر خطة[2] أوسع واكثر طموحا ، الا انها تركت لانها كانت غير حكيمة ولا ناضجة . وواصل الفريقان القصف بالمدفعية البعيدة المدى من دون جدوى .

ومع ان هذه الهجمات التى شنت الى الخارج قد صادفت شيئا من النفع الاوانى فى توحيد الصفوف وتقوية القوة الروحية فقد كان لزاما فى الوضع ان يرجع الى أصله فى ضعف الامل . اذ لم يتمكن صالح الشهوانى الضعيف الارادة ، حتى فى زمن الشدة هذا ، ان يترك ملذاته فيمسك بيده عنان القيادة . وكان داود باشا مريضا لا يزوره احد ، كما كانت الاموال قريب نفادها ، واستحالت قلة الطعام الى مجاعة مميتة . ولم يكن على باشا أحسن حظا ، فقد كان حائرا لنفاد المال عنده ذلك المال الذى عليه ان يدفع منه لقواته التى اوشك الصيف ان ينصرم عنها فيدهمها الشتاء ببرده وامطاره . وفى الوقت الذى كان يتجاهل فيه مظاهر النقمة والسخط لم يتأخر عن الاستيلاء على سائر اقسام الباشوية عدا العاصمة . فاستقبل ممثله فى البصرة ، وكانت مجمع الملتجئين من بغداد ،

(١) من الواضح ان العقيليين ــ وهم المذبذبون فى اخلاقهم والاجيرون بمهنتهم ــ كانوا منقسمين على الدوام . فكان قسم منهم يتبع سليمان غنام ، وقسم آخر ينتصر لداود ، وكثيرون غير هؤلاء اضاعوا انفسهم بين العصابات التى كانت تفزع المدينة .

(٢) رسمها المسيو ديفو الذى بقى حيا بعد الطاعون .

وكان انتشـار الطاعون ومهاجمات عرب الزبير وما جاورهـا قد جعل من الضروري انسحاب المتسلم وعودته بعد اسابيع قضاها في التحصن[1] على اكتاف بني كعب . ثم احتل الحلة مملوك منقلب ، كما ان الخالص وبقاع ديالى سبق ان استولى عليها من قبل . ولم يدخر المماليك المنقلبون الموجودون في معسكر علي رضا وسعا في اقناع من كان في داخل السور بقبول الباشا الحديث . وقد اقنع كثير حتى حجاب داود الخاصون بان مهمة علي باشا هي رجع عظمة المماليك الى نفوذ جديد لهم . وعلى هذا اخذ الجيش المهاجم يزداد كل يوم بهرب كثير من رجال القوة المحصورة في الداخل اليه متأثرين بتأثيرات الخوف والامل والجوع والحسد والتهديد والوعيد .

وما حل ايلول حتى كانت النتيجة في اليد ، فقد اصبحت الحالة في بغداد لا تطاق. فكانت المنهوبات تعرض علنا للبيع من دون خوف ولا خجل . وقل الطعام ، ولم يصبح في متناول اليد ، كما لم ير احد اللحم بعينيه بتاتا . ونضبت الخزائن ، فنزلت جواهر الباشا نفسه للبيع بـ « المزاد » .وقد ساق الجوع والدسائس وكل تعاسة اخرى الاهالي الى حيث ينفد الصبر . وفي اليوم الثاني عشر عزم كثيرون منهم على الانتظار لمدة خمسة ايام اخرى حين يصل الشيخ عجيل (وكان قارب بغداد حقيقة فصد عنها) فيصانع العدو برأس داود وصالح ويصالحه . اما علي رضا فقد وصلته ، واليأس يساوره لنفاد ماله ، رسالة من استانبول في هذه اللحظة تأمره بالعدول عن حملته (ان كانت لم تنته بعد) والرجوع الى استانبول بأحسن ما يمكن[2] . فعزم حينئذ ، وهو غير مقتنع باطاعة هذا الامر ، (لان سمعة بغداد وحدها ووقع ذلك في نفس الجند هي التي كانت تحفظ الوحدة بينهم) على ان يصل الى نتيجة ما قهرا .

وبعد ساعات معدودة من ذلك كان رسوله يطرق باب المعظم معلنا وصوله لمن كان في الداخل . فطلب منهم ارسال ممثلين عنهم ليلتقوا بممثليه خارج السور . وفي المؤتمر المنعقد في بستان قريب من الموضع الح ممثله على وفد بغداد بان ينتخبوا في

---

(١) غروفز (ص ١٧٤ ، ٢١٣ ، ٢٣٢) ، ستوكلر (ص ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٧ -٦٨) : كان متسلم داود باشا على البصرة عزيز آغا الذي استعاد مكانته اخيرا بشق النفس . وقد أقنع باعلان الولاء لعلي رضا . (مرآة الزوراء) .

(٢) هذا ما ذكره « ثابت » ، الا ان مثل هذه التعليمات تظهر بعيدة عن خطة السلطان المعروفة وعن حقيقة الوضع . غير ان سليمان يعتمد عليه كثيرا .

الحال احد امرين ، هما : العفو العام والقصاص الشديد • فرجع ممثلو صالح بك وعقدوا معه اجتماعا سريا حضر فيه داود ، وقضى الجميع بذلك ليلة مفعمة بالتردد المؤلم وعدم التصميم على شيء ولم يتوصلوا لحل ما للمشكلة • وعلى هذا لم يبق للانقاذ من الموقف الا الخيانة لتعمل في ما خابت فيه الفطنة وفشل الحذر • وقد سبق ان سببت مكايد الخونة والمتقلبين في داخل السور انشقاق الكثيرين على جانب الطبقة القديمة • وعندما علم هؤلاء ان الوضع بات لا يتحمل اى تأخير تجمعوا في مدة عدة ساعات فكونوا حزبا مستعدا للقيام بكل ما من شأنه انقاذ انفسهم • وفي ليلة الرابع عشر من ايلول المقلقلة دهموا مزالج باب الظلمات وبذا كان بحوزتهم ما يسمح للجند الامبراطوري بالدخول • ثم تبودلت الرسائل قبل الفجر ، وبعد ذلك في الحال دخلت سرايا جيش على بغداد من غير مقاومة • وبذا انتقلت المدينة من يد لاخرى بدون عناء •

وبقى على باشا في معسكره خارج المدينة • ونهض داود من هجوعه المضطرب ، فأخبره قبل بزوغ الفجر رئيس العقيل بسقوط المدينة مناشدا اياه النجاة بالفرار الى المنتفك • ففكر داود طويلا ، ثم اجابه بان ضعفه يحول دون الفرار ، ولابد من تنفيذ مشيئة الله • وبعد ان صلى صلاة الصبح ركب ، وهو خائف وجل ، الى القلعة بعد ان مر باقصر الطرق وكان يقصد الالتجاء الى الغرف التي سيق منها سعيد الى حتفه قبل اربع عشرة سنة • وعندما منع الدخول اليها دخل بيتا[1] قريبا وجلس بصمت ووقار وحيدا ينتظر ما سيحل به خلال ساعة واحدة • وفي وضح الصباح اهتدى ضباط على باشا الى مقره فدخلوا عليه بتواضع واحترام ، وأخذوه معهم لخارج المدينة حيث نصبت خيمة خلفه • فنهض على باشا من مكانه ، عندما كان الركب بعيدا ، ثم قابل داود وهو أسير حقير باحترام لم يقابل بمثله مملوك من قبل ولو كان في أوج ابهته وعظمته • فجلس الباشيان احدهما الى الآخر يحتسيان اكواب القهوة ، كما هو مألوف في اجتماع تتجلى فيه امارات الاحترام والصداقة ، وهما يتساءلان اسئلة اعتيادية • ثم ارسل الامان الى صالح بك وعين درويش آغا الملقب بـ « قائم المقام » مكانه في المدينة ، ثم نادى المنادون في جهات المدينة بالامان العام • واطلقت من بعد ذلك الحرية الكافية لمن اراد

---

(١) يقول « ثابت » ان البيت كان بيت جواد بك احد خدامه القدماء • ويقول مؤلف « مرآة الزوراء » انه كان بيت ابنه نوح •

زيارة داود باشا فى المعسكر ، حيث كانت حريته غير مقيدة[1] .

وبينا كانت الطمأنينة والتجارة تعود ساعة بعد ساعة فى الشوارع ويأمل الجميع حدوث تبدلات عظيمة كانت تتخذ الترتيبات اللازمة لارسال داود الى اوربة . وكان كتاب على باشا الذى اخبر فيه بنجاحه فى الفتح يتضمن استرحاما بالعفو عن المملوك بحسب ما كان يسير عليه من خطة . واعطيت الاوامر لمن ذهب لايصاله بقتله فى الحال ان حاول نجاة او فرارا . ولا تزال تروى القصص عن وقائع السفرة وعن الاستقبال المشكوك فيه فى استانبول . والحق ان داود كان قد عادى ملكا شديد العقاب عداء مرا . ومن المحتمل ان العفو عنه كان سببه توصيات على رضا به ، او لاجل ان يستفاد منه فوائد فى المفاوضة لحكومة مصر[2] . ويغلب على الظن ان خلاصه كان من أجل مزاياه العجيبة ، وشخصيته الزهراء ، وتضلعه من القانون والشريعة[3] . ولم تكن كل هذه المؤهلات لتغنيه فتيلا فى تركية قبل خمسين سنة . واذ ذاك ارسل منفيا نفيا شريفا فى بروسة مصحبا عائلته ومعتاشا ببقايا ملكه الخاص . وبعد انتصار المصريين المفجع فى قونية فى تشرين الاول من عام ١٨٣٢ م عزم اولو الامر على الانتفاع به عودا على بدء . ثم صار واليا على بلاد البوسنة ، ومن بعد ذلك صار رئيسا لمجلس الدولة فى استانبول . وفى ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) عين لولاية انقرة لكنه استدعى منها الى منفاه القديم فى بروسة لما كان يحوم حوله من الريب . وفى ١٨٤٥ م (١٢٦١ - ٢) تمكن من ان ينال لنفسه العطف الخاص من السلطان عبدالمجيد ، ففاز بمنصب يناسب مؤهلاته وهو منصب « حامى العتبة المقدسـة » فى المدينـة . وهنا جلبت له مواهبه الكلامية والسيمائيـة وماضيه الرومانتيكى اعتبارا لم يكن اقل من الاعتبار الذى كان يتمتع به فى عرشه القديم فى العراق الا قليلا . ومات فى ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ) . وهكذا قضى نحبه بعد ان عاش محترما شارحا للاسلام بلسانه وتدينه ، وبعد ان كان نصرانيا

---

(١) يذكر صاحب « مرآة الزوراء » ان المماليك المرتدين الذين كانوا بصحبة على رضا (وهم رستم وسعدون وابو بكر) حثوه على قتل اسيره ، الا ان عليا فضل ان يتركه حيا ليرى فيه سلطانه رأيه .

(٢) وهذا ما يؤكده سليمان فى « مرآة الزوراء » .

(٣) يذكر ستوكلر (ص ٥١) كثيرا من اخبار « توزيع الذهب بكثرة » ، الا اننا نرجح انه لم يكن يملك هذا المقدار منه ولو ملك ذلك المقدار ما تمكن من شراء السلطان محمود .

فى صباه عندما غادر تفليس الى بغداد قبل سبعين سنة ، وقد فاز فى وطنه الجديد وديانته الجديدة بحريته اولا ثم بالوظيفة ومن بعد ذلك بعرش الولاية مدة نصف قرن . وقد استبدل فى بضعة اسابيع بالقوة وبالابهة المرض والاستجداء والخوف من الموت . ثم عفى عنه فرفع محله ، بخلاف جميع ما كان يتوقع ، وتقلد المناصب العالية فى الامبراطورية عشرين سنة زيادة على ما مضى ، ومات مذكورا بكل حسنة ومحمدة فى المكان الذى توفى فيه النبى (ص) .

على رضا

كتب شاهد عيان[1] حضر فى يوم سقوط بغداد فقال ان « الخوف بأجمعه قد ازيل عن جمهور الاهالى ، فاصبح الجميع من اناس وحيوانات مسرورين برجوع الخير » . وقد هبطت الاسعار مائة ضعف وفتحت المخازن والمنائر والحوانيت للبيع بعد ان كانت مغلقة عدة اسابيع ، ثم وقفت الجرائم عند حدها فى الحال . فنظفت الشوارع وامتلأت من جديد ودخلت القوافل وبسطت الاسواق .

وبقى على رضا فى المعسكر خارج السور حتى تحرك للسفر داود باشا بسلام ، فزاره هناك جميع وجوه بغداد فبش لكل منهم بأدبه المعهود . وقد وعد المماليك بعشرات التعيينات والوظائف والاراضى . ثم دخل بغداد فكان دخوله لا يعوزه شىء من المهابة والوقار على ما كان يعوزه من زهو وجلال . وفى اليوم الثالث ، بحسب العادة ، دعى الجميع لسماع قراءة الفرمان بصورة رسمية . وكانت الدار التى جرت فيها الحفلة ـ لان السراى كان خربة محرقة ـ مكتظة بخيرة الجند . وقد وقف فى الساحة من بقى حيا من المماليك الذين لم يفر منهم خارج المدينة الا نفر قليل ممن اوجسوا خيفة على انفسهم . وكان صالح بك منحرف المزاج فلم يتمكن من الحضور . فقرىء الفرمان وعاد الباشا الى حجرة فى الداخل ، فكان ذلك بمثابة اشارة انقض بموجبها جماعة من الالبانيين على الاغوات المماليك وقتلوا القسم الاعظم منهم ببنادقهم الخفيفة[2] ، ثم ذبحوا البقية عن آخرهم . واما الذين اعتقلوا منهم فقتلوا فى مكان

---

(١) غروفز .

(٢) قال المحشى على المخطوط المذكور « ١٢٤٧ قتل الكولات الكرج وقام المفتى عبدالغنى افندى جميل زاده على الوزير فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٤٧ » . « م . ج »

آخر من المدينة • ووقع صالح من ظهر حصانه فقتل امام الدار[1] التى كان قد حكم فيها بغداد عدة اسابيع مضطربة • ومن بعد ذلك قرئت الاوامر الرسمية الصادرة من استانبول التى تسوغ هـذه الافعال الوحشية مع ما كان فيها من حكمة ، وطلب كل مملوك داخل المدينة وخارجها • حتى ان المماليك المنقلبين الذين كانوا قد رافقوا الباشا الى بغداد ـ كالجواسيس ، والوكلاء الذين ساعدوه فى الحصار ، وكانوا يتمتعون بكثير من عطفه ـ قضى عليهم اجمعين فوسدوا التراب • ووجد نفر قليل منهم ، يعد على الاصابع ، ملجأ آمنا مدة طويلة فى البقاع النائية من الباشوية املا منهم لان يفوزوا بعفو متأخر • ثم وزعت امتعة الاغوات المقتولين ، وبيع قسم منها فدخلت قيمتها واردا للخزانة الحكومية •

وكان فرمان على رضا ينص على حكم « بغداد وحلب وديار بكر والموصل » ، وهى مجموعة من الولايات لم يسبق ان انعم بحكومتها معا على حاكم واحد فى وقت واحد • على ان الحقيقة كانت فى انه لم يحكم اكثر من العراق نفسه ، وبذا استعيد لقب الخليفة[2] القديم • وفى خلال عدة ايام من دخوله بغداد قرىء فرمان تعيينه فى كل مدينة من مدن العراق • فقبل النظام الجديد واخذت ماكنته فى الاشتغال • وكان العفو عن سلفه فى الحكم ، والبسة الباشا الجديدة مع رجال حاشيته ، ووجود الاوربيين محيطين به ، وعدم التشدد فى العادات الاجتماعية الاسلامية المتوقع ، كل هذه كانت تؤذن بحلول عهـد جديد • وجددت بعناية خاصة امتيازات شركة الهـند الشرقية القديمـة •

وبذا انتهى امد الانشقاق الطويل • ورجعت ولايات العراق التى انفصلت لمدة طويلة الى حضن امها الامبراطورية العثمانية بعدما ادركها الاصلاح والتقـدم بوجه عـام • فتلاشت سلالة المماليك الى الابد • وفى الساعة التى حمل بها داود باشا الى الخارج ، ودفن فيها خدامه وحرسه اصبح العراق ولاية من ولايات تركية الحديثة •

---

(١) يختلف كلام فريزر (ج ١ ، ص ٢٦٦) عن هذه فى التفصيلات •

(٢) كان يلقب بهذا اللقب ، بصورة غير رسمية وواهية حكام بغداد ، وكان يطلق عليهم محليا فقط ومن دون تأثير فى منزلة السلطان • وكذلك كان فى عهد على رضا ، لكن المؤرخين دونوا اللقب له بصورة خاصة •

الفصل الحادي عشر

من المماليك الى مدحت باشا

العلاقات الامبراطورية والاجنبية

وفي اكمال التاريخ ، الذي وصلنا به الآن الى ١٨٣١ م (١٢٤٧ هـ) ، الى نهاية القرن التاسع عشر ليس من الممكن ان نبحث فيه بالمقياس الذى اتبعناه حتى الآن . وانما سوف نخصص فصلين من الكتاب بالبحث فيهما في السبعين السنة الباقية[1] . وقد اضطرت المؤلف لهذا اعتبارات قهارة . فقد نضبت عنده المراجع الشرقية المدونة ، ولاجل ان يجد شيئا منها يجب عليه ان ينقب في السجلات والجرائد التركية التى لا سبيل له للوصول اليها البتة . كما ان الحوادث الديبلوماسية غير مدونة . اما مذكرات السياح فمتيسرة ، لكنها ان وصفت شيئا فلا تدل به على ما يوجه التاريخ . وان كان مؤرخ هذا الدور يجد نفسه ضيق الحدود بمراجعه واسانيده بسبب ما بينا فانه يشعر لزاما بشيء من الارتياح متى علم بان هذا الدور شهد استبدال الطربوش بالعمامة ، وتبديل اللحى المسرحة باللحى المحددة نصف المحلوقة ، والحكم الاقطاعي الذى لا قاعدة له بنوع من السفسطائية المتفسخة ، وبزوال كثير من الامور التى كان عدم كونها مألوفة يجعلها جذابة براقة ، وبظهور الشيء الكثير من البشاعة الرثة .

وسيدون هذا الفصل الميزات الرئيسة التى تميز هذا الدور المنحصر بين تولى علي رضا باشا الحكم في ١٨٣١ م وتعيين مدحت باشا في ١٨٦٩ م (١٢٨٦ هـ) . وسيبحث اولا في حال الولايات العراقية في الامبراطورية التركية وفي علاقاتها الخارجية ، وسيلي ذلك بحث في الانقلابات الدستورية والادارية الحاصلة في داخلها . ومن بعد ذلك سينحصر البحث في المجهودات المبذولة لقمع الدسائس العدائية ، وفي معالجة الوضع القبائلي . وسيقتصر البحث في الاخير على تطور طرق المواصلات الحديثة (بواسطة الاجانب) .

---

(١) لقد امتنع المؤلف عن الاقتباس من المراجع في هذا الشأن لانه لم ير من المراجع المهمة له الا النزر اليسير . وان القسم الاعظم من مادته هذه غير مدون خاصة .

ظلت ايالات العراق بعد ١٨٣١ م جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية التركية م
ولا تثير لنا هـذه الحقبة من الزمن أهميـة الارتداد الواسع النطاق ، والحروب
الاجنبية ، والحكام الطامعين . وظل باشوات العراق يبعثون الى استانبول مسانهة المبالغ
الطائلة دون ان تكون لهم رغبة في ذلك . وكان جميع الموظفين العسكريين والملكيين
مستندين الى القوة الامبراطورية ولم يكن منهم من يتجرأ على مقاومة رغبات رؤسائهم .
على ان جميع المناصب ما زالت ممكنا الحصول عليها بالطرق القديمة التي قد تتضمن
الشراء بالمال او المحسوبية . كما ان كثيرا من هذه المناصب كانت لا يمكن تفريقها
عن حكوميات الاقطاع القديمة . ومع ذلك كله لم يكن من الممكن حفظ منصب من
المناصب بمضادة رغبات السلطان . بل كان الامر بالعكس فكان مقدار « المركزية » التي
فرضها محمود الثاني ، وبقيت نافذة من ١٨٣٤ م الى ١٨٦٩ م ، قد طورت فيما بعد
لانها كانت على جانب عظيم من التطرف . ولما كانت هذه المركزية اسمية في الولايات
النائية غالبا فقد كانت شيئا مثاليا غير عملي عند التطبيق .

واذا نظرنا الى العراق من حيث السياسة العالمية نجد انه كان له نصيب من الالتفات
الذي كان يوليه سياسو اوربة تركية بوجه عام . فقد كان واقعا على الطريق المقترح
الى الهند ، كما كان فيه وكيل ديبلوماسي بريطاني مهم . ومن العوامل الخارجية التي
كانت تدفع بالعراق الى حظيرة العالم الحديث اللجان الدولية التي ألفت لحسم قضايا
الحدود العراقية ـ الايرانية ، وهيأة التفتيش المتألفة من كبار الموظفين المرسلة من
العاصمة ، وتوسع التجارة الخارجية ، والتفكير في الملاحة النهرية ، وشيوع المواصلات
التلغرافية ، والتنقيب الاثري . ولو درست علاقاته الخارجية عن كثب لتبين انها كانت
ضئيلة مع الخليج ، وكانت مع الجزيرة العربية لا تخرج عن الاقلاق الناشيء من القبائل
على الحدود واضطرابها المألوف . اما ايران فقد كانت هـذه العلاقات بها كمراحل
متعاقبة من الريبة وسوء الظن .

وكانت الخصومات البابانية في الحدود الكردية مثارة للاصطدام الدائم مع الشاه
حتى حان سقوط ذلك البيت في ١٨٥٠ م (١٢٦٧ هـ) . وكانت غارات السلب والنهب
التي تشنها القبائل البدوية التي كانت تخترق الحدود مرارا وتكرارا ، وخياناتها للعهود
والمواثيق المعقودة معهـا كلها منبعا مستداما للاحتجاجات والانكارات . فكانت قبائل

الجاف والبشدر تجول فى مراعى الجهتين من الحدود ، كما كان الهماوند يغزون ويسلبون من كركوك الى همذان • اما جنوبى العراق فان تعلق الايرانيين القريب بالعتبات المقدسة التى تغلى بالشغب والعنف فيه كان يورطهم فى العقوبات التى كانت توجه على الثوار والعصاة الواجدين مأوى عندهم ، كما ان معاملة الزوار من الايرانيين كانت موضوع التذمرات المرة من باشوات ذلك اليوم الجائرين • ولم يحظ التجار الايرانيون الا بالنزر اليسير من عطف الحكام الذين كانوا يعدونهم من الرافضة والمنبوذين • كما كان الشاه نفسه كثيرا ما يشك فى حماية الامراء الايرانيين فى بغداد ويرتاب من امرهم • وفى مثل هذه الاحوال كان من المنتظر ان لا يتفق الطرفان على نقاط الاختلاف الا بمقاساة كثير من الصعوبة • وقد هاجم على رضا فى ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هـ)[1] المحمرة التى كان قد اسسها تابع من رجال القبائل مشكوك فى أمره ، كانت تدعى بتابعيته الدولتان • واعقب ذلك مطالبات ايرانية كثيرة بالتعويض ، ثم احتل البلد شيخ من شيوخ المحيسن بعد ان اعتمد على معاضدة الايرانيين ولم يك خاضعا لقبيلة كعب ولا البصرة • وتمادى الشاه والسلطان فى ادعائهما ، كل من جانبه ، بالمحمرة وبقيا غير متفقين على خط من خطوط الحدود • وقد ابقت الوضع دقيقا حوادث التعديات المستدامة ، وحماية الملتجئين ، وخدمة القبائل للوقت • وكانت نتيجة ذلك كله معاهدة ارضروم الثانية المعقودة فى ١٨٤٧ م (١٢٦٤ هـ) • وقد خصصت المحمرة فى الشروط بالايرانيين ، وكانت الشروط تبحث بوجه عام فى قبائل الحدود ، وشؤون الزوار ، وامور الملاحة • وبدأت بالعمل فى ١٨٥٠ م « لجنة حدود » مؤلفة من اربعة اعضاء : بريطانى وروسى وتركى وايرانى ، وكان بدء عملهم من المحمرة • غير ان اعمالها انتقضت بادعاءات درويش محمد وتهكماته ونتج ذلك « بقاء الامر على حاله » بصورة غامضة • على ان الموظفين البريطانيين استمروا فى القيام بأعمال المسح وتدقيق النظر على طول الحدود ، وبقى اعداد الخرائط سائرا على هوادته بتباطؤ فى موسكو • وبقيت الحال على هذا المنوال حتى نشبت حرب القرم فزادت تركية على الريبة المتقابلة بين الفريقين ضغثا على أبالة بالنظر لتخوفها من محالفة

---

(١) ان دويلة الحويزة التى بقيت وهى ضعيفة فى هذا العهد انزلت بها الضربة القاضية عندما بدل نهر الكرخا مجراه فى ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) فأدى ذلك لبقاء البلدة من دون نهر فى يوم واحد •

الايرانيين للروس . وعندما أنجز عمل الخرائط الانكليزية الروسية أقر اتفاق عقد « بقاء القديم على قدمه » ثانية . غير ان هذا التعبير المناسب بقى يضم بين طياته احوالا رخوة من غير أمل مستفحلا فيها تجوال القبائل البدوية انتجاعا للكلأ ، دون ان تعبأ بالحدود ، والتجاء العصاة لكلتا الجهتين . وبذلك تبين ان الوصول الى حسم للمعضلة باتفاق الفريقين وبموجب أسس ثابتة كان بعيد الادراك كل البعد .

اما فى داخل العراق فان انتقال البلاد من حالة القرون الوسطى الى حالة دولية حديثة قد زاد فى اتصاله وتعاونه مع الممثلين الاجانب . فقد كانت المشاريع البريطانية من جهة تقوم بخدمات جليلة للعراق من دون ان تطلب شيئا فى مقابل ذلك سوى تأمين توسع التجارة البريطانية . وكان حكام العراق المتعصبون من جهة اخرى مستائين من وجود هؤلاء الاجانب ، وامتيازاتهم ، وصداقتهم للقبائل لكنهم لم يفوا على منع كل ذلك . فان كبيرهم « المقيم » كان بوسعه ان يحطم كل شخص بكلمة واحدة تصدر منه الى استانبول ، وهو على حق ولو تأثر منه الباشوات ، ونزيه بحيث يخجلهم ، ومتيقظ فى غير مصلحتهم . وبينما كان القنصل ـ التاجر فى القرن الثامن عشر غير قادر على طلب شىء سوى دوام « الامتيازات » وتركه حرا دون تعرض له اصبح « مقيم »[1] القرن التاسع عشر وهو المتكلم نيابة عن شركات البواخر ، وجماعات انشاء التلغراف ، والاثريين ، ومؤسسات الهبات الخيرية[2] . ولم تفتأ بعض استنجادات القبائل بالحماية البريطانية تزعج الباشا أشد الازعاج . ولم يكن ليغيب عن بال الجميع فى العراق من الشيوخ والافندية وقسم من الموظفين البريطانيين ان مستقبل بريطانيا العظمى فى العراق سائر الى الاهمية لا محالة وربما ليصبح شيئا أعظم .

ظاهرات الاصلاح

لم تتطرق هذه العلاقات الخارجية بشىء الى التجدد الانتقالى المكون أهم ميزات هذه الحقبة الزمنية التى تسرب خلالها هذا التجدد الى العراق بصورة متقلبة ، ونصف جدية ، وخالية من التذمر .

---

(١) وكان من بين المقيمين رجال ندار مثل السر راولنسون (١٨٣٤ ـ ٥٥) والسر ا. ب. كيمبول (١٨٥٥ ـ ٦٨) والكولونيل هربرت (١٨٦٨ ـ ٧٤) .

(٢) وخاصة « ارث أوده » وهو مبالغ جسيمة خلفها الملك اوده الشيعى ، وكان توزيع المبالغ هذه بين مجتهدى كربلا والنجف من اكثر واجبات المقيم دقة . واستمرت على تلك الحال حتى الحرب العامة .

فتدل التقسيمات الادارية الحاصلة في هذه السنين على ميل عام ، غير ثابت ، نحو التوصل الى « نظام الولاية » الذي قدر لمدحت باشا تطبيقه بعد هذا . وقد تقلصت في الحال قيادة على رضا الواسعة النطاق واصبحت تشمل العراق وحده . وبقيت كركوك متصلة بها وربما كان يود السلطان فصلها عن بغداد[1] . وفي ١٨٣٥ م (١٢٥١ هـ) فصلت ماردين عن العراق وضمت الى ديار بكر . ثم الحقت الدويلات الكردية بالموصل وكركوك كلما كانت تقع في حوزة النفوذ التركي بالتدريج . وغدت الموصل في ١٨٥٠ م (١٢٦٧ هـ) سنجقا تابعا لبغداد في الوقت الذي اصبحت فيه البصرة ، في السنة نفسها ، ايالة مستقلة . وبعد اثنتي عشرة سنة قل شأن البصرة فجأة فاصبحت متصرفية ، ثم عادت فارتفع شأنها ثانية في ١٨٧٥ م (١٢٩٢ هـ) .

وما تاريخ الادارة نفسها الا سجل للتطبيق الجزئي للقوانين العديدة ، الحرة نوعا ما ، التي كانت تسنها الحكومة المركزية المعاصرة . فقد بقيت الاصلاحات المتطرفة (الاسمية في كثير من الاحايين) التي جاء بها السلطان محمود الثاني نافذة الفعل حتى وفاته في ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) . وفي تلك السنة اعلن السلطان الحديث ، عبدالمجيد ، في « خط شريف كولخانه » الشهير التنظيمات الاساسية للحكومة المدنية وعاهد نفسه على اتباعها . وكانت هذه ـ المعروفة في تركية بالـ « تنظيمات » ـ دستور الحكام في الولايات ، وقد اكدها ثانية فيما بعد ، مع شيء من الاضافات ، في الـ « خط همايون » لسنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) . الا ان هذه الاصلاحات ، التي احلت في الحقيقة الرأي الغربي في الحكومة محل الرأي التركي ، لم تتسرب الى العراق الا ببطء ولم تنتج هناك نتاجا يتفق وعظم شأن المبادىء التي دعت لاجرائها . هذا وقد سبق ، من مدة ، ان اعيد تنظيم الامور العسكرية ، لكن ذلك بقي مدة طويلة غير كامل . فقد بقيت تجهيزات الجند الجديد ، المختلفة والجسيمة ، لعدة سنين خلت موضع تفكهة السياح ، كما مسخ اصول تدريبهم حتى تلاشى تقريبا منذ نقله من باريس حتى وصل الى العراق . وان التجنيد الالزامي ، الذي طبق من غير رحمة ولكن بصرامة أوانية في الموصل في ١٨٣٥ م ، لم يحاول تطبيقه في جنوبي العراق قبل ١٨٧٠ م (١٢٨٧ هـ) . وبقي جيش « الهايتة » البائد غير النظامي ، المستمر في ظل النظام الجديد ، مصدرا للنقمة التي حاول

---

(١) هذا ما يرتأيه صاحب « مرآة الزوراء » .

الجميع من غير جدوى التخلص منها بالـ « تنظيمات » • ولم تظهر ظاهرات الاصلاح في بغداد ، ولا في الموصل ، حتى حل عهد نجيب باشا في ١٨٤٢ م (١٢٥٨ هـ) • واصبح واضحا ، اذن ، ان كل سوء استعمال كانت تأتي به الفوضوية وفقدان الامن ، دون ان تتوفر لقمعها القوة الكافية بالكلية ، وكل عبث كان يقوم به سكان اضمحلوا بما كان يفرضه عليهم الجباة العاسفون من الضرائب غير المعقولة ، مما لا يستند الى اى اساس اقتصادى كان يتلائم بسهولة مع الحكومة التى دخل عليها الاصلاح • وفى الحين الذى نجد فيه ان بعض الارتكابات المالية وسوء التصرف قد تلاشت ، وان المناصب التاريخية ـ ومنها منصب الكهية نفسه ـ قد اصبحت ملغاة او باطلة الاستعمال نجد ان العهد الجديد لم يأت بما يعد تقدما كبيرا بالنسبة للعهد السابق اذا كنا نعد ان التقدم او النجاح الحكومى يقاس بمقدار حرية الرعايا ورفاهيتهم • ذلك لان مستوى الامن بقى منخفضا ، كما بقى العدل نادرا ، والجباية فظيعة ، والحكم خاليا من الفطنة • على ان بعض التقدم قد حصل حقيقة فى عدة من النواحى • فقد وضعت القواعد مهما كانت بعيدة ، فكثر تعيين الرجال للمناصب العالية ممن عندهم شيء من الثقافة العقلية الحديثة • وزاد الاتجاه نحو العناية بالاختصاص فى مختلف الوظائف • فظهر للوجود ، فى الحقيقة ، هيكل حكومة منصفة تنتظر حاكما يمكن ان ينفخ فى هذا الهيكل الحياة بما عنده من قابلية ونيات حسنة • وقد حصل التقدم ايضا فى تحديد السلطات المحلية ، ذلك التحديد الذى حرم الحكومة من أخص اسلحتها العتيدة ، التى تحتاج اليها احيانا ، فى العراق نصف المتوحش •

واظهرت الحقبة نفسها فى العراق مختلف ظاهرات حكومة الولاية التى كانت الولايات الاخرى قد تعودتها • فقد ظهرت فيها طبقة الموظفين النظاميين ـ الافندية ـ الذين حلوا محل الباشوات القدماء الجائرين وكأن الولايات قد وجدت من أجلهم • وقد كان هؤلاء لا يملكون من الثقافة العقلية سوى القراءة والكتابة ، وكانوا وجعيين لكنهم متأدبون بكثير من الآداب الاجتماعية ، ويلبسون مجموعة مضحكة من اللباس الاوربى ، ومدققين مضبوطين الا انهم يغرقون فى المجاملات فى اللغة الرسمية ، وهم بعيدون بالكلية عن روح الخدمة العامة ، ولا يعرفون الناس ولا يتعاملون معهم الا بمقاييس طبقتهم ، وكذلك كانوا يحتقرون القبائل والفلاحين ، ويتكلمون التركية دوما ولو كانوا بين العرب ، واخيرا كانوا متفسخين بالكلية وفى الامكان شراؤهم بالمال • على

مثل هذا كانت حالة الخدام العامين الذين كانت الواجبات الحكومية منوطة بهم وحدهم . وقد جاء معهم كثير من المسميات التى كان يهزأ بها غلادستون ، ومن القوانين الساذجة غير المدونة التى قوبلت باشاء الحسن فى اوربة وبالاستبشار فى بغداد ، وعرفت المجالس والاختام والسجلات والطرق التى كان يمكن ان يستخدم بموجبها عدد من الموظفين الذين لا يدفع لهم راتب ، ويؤجل بحسبها الرد لاى طلب الى اجل غير مسمى .

ومع جميع هذه الخيبة فى الاصلاحات ، وهذه العيوب التى كان لها فى هذا العصر مرتع خصب فانه قد عرف بالتقدم الحقيقى الذى حصل فى جهات اخرى . فقد لاقت خطة السلطان محمود فى القضاء على البيكات المستقلين « دره بيك » نجاحا لايستهان به . واقتطفت فى الموصل وفى كردستان نتائج مهمة ، كما قضى فى عدة من البلدان العراقية الاخرى على الاوضاع الشاذة . غير انه قد ثبت ان القيام بهذا الواجب بين القبائل كان امرا شاقا ، ولم تحدث معالجة الوضع غير اعضال المرض واشتداده .

شخصيات هذه الحقبة

بقى على رضا باشا رأسا للحكومة فى بغداد وملحقاتها البصرة وكركوك مدة احدى عشرة سنة . وقد ابدى خلال اشتغاله فى هذه المدة شيئا من حرية الفكر . وكان كرمه مضرب الامثال ، كما كانت سماجته مختفيا قسم كبير منها وراء اعتداله . وكان يتلائم مع دعاة التقدم من الاجانب ، لانه كان خلوا من التعصب والاندفاع بالكلية . يضاف الى ذلك انه كان ذو اخلاق سامية . وله رغبة فى عمل الخير الحقيقى ، زيادة على ميوله الادبية والعلمية . على انه كان حاكما فشيلا حقا ، فقد كانت خطته الوحيدة فى حكم القبائل ان يحرك قبيلة على اخرى . وكان كسله وسمنه المفرط يمنعانه عن اجهاد نفسه فى العمل ، فأصبح بذلك مضطرا للخضوع الى اسوأ المشاورين . ولم يك قادرا على ضبط المدن ولا القبائل ، ولا قواته الخاصة غير النظامية . وقد عرفت اول سنة حكم فيها بغداد بعصيان عبدالغنى المفتى . وحدث فى ١٨٣٣ عصيان عبدالعزيز متسلم البصرة السابق فلم ينتج شيئا . ويدلنا تفشى الطاعون مرات عديدة خلال مدة حكمه على ان حكومته لم تتعلم من هذه التجارب كيفية مكافحة هذا المرض الوبيل بالحجر الصحى . اما فى الامور المالية فقد وجد على عهده العسف فى الجباية وفراغ الخزانة فى صعيد واحد . وعلى هذا يمكن القول ان على رضا باشا لم يفز بالذكر الحسن الا

بنجاحه فى خلع داود باشا ، وبسخائه فى منح الاراضى . وقد تزوج فى بغداد ، ثم نقل الى سورية فى سنة ١٨٤٢ م (١٢٥٨ هـ) .

واعظم منه شأنا وشخصية محمود باشا الملقب « أينجه بيرقدار »[١] ، الضابط المجازف الذى كان ينتمى الى القوة غير النظامية . وكان قد عينه فى باشوية كركوك على باشا نفسه . فلقد حكم هذا الرجل القاسى فى الموصل منذ ١٨٣٥ م ، فكان همه الوحيد هناك تحطيم الدويلات الكردية الصغيرة ، وهو عمل خطير سنأتى على تفصيله فى غير هذا المكان . وتمكن من توطيد الامن فى الموصل وفى الطرق المحيطة بها ، ثم نفذ الخدمة العسكرية بالرغم من المعارضة الهائلة التى لقيها فى ذلك . وقد فتح شوارع جديدة ، وشيد مخزنا للاسلحة وثكنة ومستشفى ، كما حقق السلم والعدالة ، بطرق قاسية ، بين اناس لم يكونوا يعرفون شيئا عن « التنظيمات » بعد . وقد توفى فى ١٨٤٣ م فنفه موته عن الكثيرين ، وخسرته ولايته . اما اخلافه فى الحكم فيجد القارىء الشىء الكثير من اخبارهم فى ما كتبه لايارد .

ووقعت ولاية بغداد فى ١٨٤٢ م الى نجيب باشا ، وهو من اسرة كبيرة فى استانبول ومن المقربين الى السلطان . وكان لهذا الباشا ذكاء وشجاعة وحيوية خارقة . غير ان روحه القومية انقلبت الى كره راعب للاجانب عنه . ولاجل ان يحصل على المال ، لنفسه فى الغالب ، عاد لاستعمال طرق الجباية الخالية عن بعد النظر تماما المبيدة للناس . وكانت غطرسته تغيض القبائل مع انه كانت قواته عاجزة عن تهدئة القلاقل التى كان يسببها هو بنفسه بين ظهرانيها . ولم يحل عنفه دون أخذه الرشوة ، ولا تدبره دون تعصبه الذميم . وتستغرق اقسام اخرى من هذا الفصل البحث عن أهم الحوادث الواقعة على عهده . وقد تبعه ، بعد باشويتين[٢] قصيرتى الامد لا شأن لهما ، اول تعيين جرى لنامق باشا فى ١٨٥٢ م (١٢٦٩ هـ) .

وبعد سنة تولى الحكم رجل لا يزال ذكره مشرفا وهو محمد رشيد باشا الملقب بـ « كوزلكى » اى « صاحب النظارات » . وقد كتب لهذا ان يموت فى بغداد بعد مضى خمس سنوات تقضت بالحكم النزيه الصارم الحر . ولم يشاركه احد فى المجهودات

---

(١) اى « حامل العلم » النحيف .

(٢) عبدالكريم نادر « عبدى » فى ١٨٥٠ ، و وجيهى فى ١٨٥١ .

الحقيقية التى بذلها خلال مدة حكمه لحل المشاكل ، كما لم تكن المعضلات التى لقيها فحلها لتحل بوقت قصير كوقته ولا بموارد شحيحة مثل موارده . واستبان فى ايامه ان الحكومة الحديثة التى ادخلت عليها الاصلاحات كان من الممكن ان تطبق بصورة معقولة فتنجح فى العراق . وقد كان يلح على موظفيه فى ان يعملوا بنزاهة ، وحاول مكافحة التفسخ العام المستحوذ على كل شىء ، ثم كثرت فى ايامه الواردات لانه حال دون الاكثار من النهب والاختلاس ، وحقق موردا دائما للتصدير بنقل الحبوب الى الحجاز . وكذلك شق الترع العديدة للاسقاء والتروية . غير انه ضويق كثيرا من استانبول لوجدان المال الكثير والارسال به للحكومة المركزية التى كانت مشغولة بحرب القرم . اما خلفه عمر باشا الملقب بـ « سردار اكرم » فقد خلف لنفسه ذكر الجندى الصالح الصارم فى مصلحة الحكومة على الطراز القديم . وقد مصرت مدينة العمارة فى زمانه . ولم يشتهر الباشوان[1] التاليان لهما بشىء . ثم رجع نامق باشا ثانية فى ١٨٦١ م (١٢٧٨ هـ) فحكم مدة سبع سنوات . وكان نامق ذا صرامة كصرامة نجيب وضيق التفكير مثله ايضا. وقد اظهر ثباتا فائقا فى خطة تفكيك القبائل بالرغم من فقدان الوسائط اللازمة للقيام بتنفيذ هذه الخطة الواسعة . وعلى هذا فان الاضطراب المؤلم ، الواصل لحد الفوضوية ، الذى ولدته حملاته قد أدى الى خراب البلاد والاساءة الى القوى من بين القبائل . وكان ضابطه المشهور شبلى باشا رئيس عصابة قديما . على ان نامقا يذكر اليوم لا بافعاله الدالة على الخرق ولا بخيباته وفشله المتكرر بل بتشييده الابنية العديدة التى بدأ بها فى بغداد فاكملها مدحت باشا من بعده . وكثيرا ما تروى القصص عن اموره المالية المضبوطة التى تمكن بها من تحويل المبالغ الجسيمة الى السلطان عبدالعزيز فى استانبول ليدر بانفاقها على قصوره المشيدة . وحكم بعده عدة شهور تقى‌الدين ، وهو حاكم كركوك السابق . ثم تبع هذا مدحت باشا فدخل بغداد فى آخر يوم من شهر نيسان لسنة ١٧٦٩ م (١٢٨٦ هـ) .

لقد اتخذ هذا التاريخ خطة امتنع فيها عن الثناء الحسن على انتشار الحكم التركى لاوسع ما يمكن . فان كان خلع البيكات الاكراد عن عروشهم التى كانوا فيها مدة طويلة ، وهم بين مستقل او تابع ، يعد تقدما يستبشر به فانما ذلك هو تقدم من وجهة

---

(١) مصطفى نورى ١٨٥٩ ، واحمد توفيق ١٨٦٠ .

النظر التركية فقط . ذلك لان حكم الافندية الحديثين مع جيشهم « الهايته » و « ضابطيتهم » لا يمكن ان يعد تحسنا عن ذى قبل فى نظر الفلاح او الراعى ، او من حيث نفوذ البهدينان والبدرخان . على انه لم يكن فى وسع اية حكومة امبراطورية ان تتحمل ، بعد الدروس التلقينية التى القاها السلطان محمود ، وجود الامراء الوراثيين فى ضمن حدودها وهم بوضع نصف عدائى ونصف مهين . وبالرغم من ان الحقيقة هى ان الاتراك كانوا غير قادرين على حكم السلالات الموصلية والكردية وانهم كانوا مشغولين بقضايا كثيرة اخرى غير قضاياهم فانهم لا يمكن ان يلاموا على ما فعلوه بهم . وان السهولة التى انهارت بها تلك السلالات تدل على اضمحلال حكامها الاقدمين .

وفى اللحظة التى كان السلطان ينظر نظرته الى العراق فى الجنوب والشرق كانت الاسرة الجليلية قد كتب عليها الزوال . فقد سبق ان وهن حكم هـذه الاسرة للموصل بمعارضة العناصر الاخرى لها . وقد وجد على رضا فى ١٨٣١ باشا عمريا يحكم الموصل اعقبه آخر من أهل حلب . فكان يحيى ، آخر الجليليين[1] ، قد أخذ الباشوية قسرا فى ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) ، ثم اضاعها بالقوة فى ١٨٣٤ م ، فكانت هذه النزاعات الدموية تدل بتأكيد على ان تبدلا كائنة ما كانت صفته ظل ممكنا وهينا . وعين الاينجه بيرقدار فى ١٨٣٥ م ، فاصبحت الموصل فى يوم واحد ولاية اعتيادية . وانخرط بذلك الجليليون الانف[2] فى عداد ملاكى الاراضى من الاشراف .

وكان ظهور رشيد باشا ، الصدر الاعظم ووالى سيواس الاسبق ، فى دياربكر وهو يقود جيشا فى ١٨٣٥ م منذرا بسقوط كثير من العروش الكردية . فقد قمع الاضطراب فى ماردين المشاغبة ، وفصل تلك المنطقة فصلا دائما عن الموصل فالحقها بدياربكر ، ثم قبض على صفوك العظيم وبعث به الى استانبول . وبعد ان أدب تلعفر سار عبر دجلة متوجها الى هدف اعظم . وقد آزر حملته البيرقدار من الموصل وعلى رضا من بغداد فارسلا له ارتالا من الجيش فى وقت واحد .

وكانت دويلة رواندوز الصغيرة قد انتقلت فى حدود عام ١٨١٠ م (١٢٢٥ هـ) من يد اوغوز بك الى مصطفى بك وهذا ، بعد ان حارب البابانيين حربا غير منقطعة ، تزوج منهم زواج حلف ثم انصرف الى توحيد مملكته فوحدها وحكمها بحكمة . واخذ

---

(١) اعنى آخر من حكم منهم ، لان كثيرا ممن ينتمون للاسرة لا يزالون فى الموصل .
(٢) الانف جمع « الانوف » .

الحكومة محمد بك ـ اى مير محمد ـ من يدى والده الواهنتين قبل وفاته • ومات مصطفى فى ١٨٢٦ م ، وتبعه محمد (المعروف بـ « كور » اى الاعمى لاصابته بعلة فى احدى عينيه) ، وقتل عميه فى الحال • وقد ظهرت مزايا « البك الاعمى » فى سلسلة غير منقطعة من الفتوحات • فقد اخضع الشيروان الاقوياء وقبائل البرادوست فى الشمال، وقلل من نفوذ السورجى ، ثم طرد الحاكم البابانى من حرير ، واخذ اربيل وآلتون كوبرى ، ونصب اقاربه فى هذه الاماكن • واقتطعت رانية وكوى من البابانيين ، واصبح الزاب الاسفل هو الحد • وقد اضطر على رضا الى الاعتراف بهذه السلطة الجديدة ، فرفعه الى مرتبة الباشا • وفى اوائل ١٨٣٣ م سار محمد الى عقره ، واخذها بعد ان حاصرها ، ثم طرد حاكمها اسماعيل باشا • وبعد ان خلع من العمادية[1] سعيد باشا بسهولة نصب فى حكومة الاصقاع البهدينانية أخاه واسمه رسول • واصبحت دهوك وزاخو من توابع امبراطوريته فاقام فيهما الضبط غير الخاطىء بقسوته العادلة ، ولم يكن مثل هذا الضبط معروفا قط فى مثل هذه الاصقاع • وكان الكل يقايس هذه الحالة بالفوضوية والارتباك اللتين كانتا سائدتين فى العراق • وبعد ذلك غزا فى جبل سنجار ، وضرب قرى قريبة من الموصل ، واحتل جزيرة ابن عمر ، وافزع البدرخانيين فى حسنكيف ، وكذلك هددت نصيبين وماردين نفسها • غير ان هذا كان حده الذى وقف عنده • فان ظهور رشيد ، المنتقى لقمعه او القضاء عليه ، اوقف تهديداته فى الحال ، وارخى العرى التى كانت تربط بين اجزاء امبراطوريته المشفية على الفناء ، وسر اعداءه وخصومه • فتراجع الكردى الاعمى الى عاصمته ، وقد كان مخيفا دائما اكثر مما كان محبوبا • ثم خانه كثير من اتباعه بحيث لم يستطع الاستفادة من التنافس المبنى على الحسد الذى نشأ بين رشيد وعلى رضا ، واستسلم فى الاخير بعد ان اعطى اوثق العهود بان يعامل بالحسنى • فارسل الى استانبول وتوقع الكثيرون انه سيعود منها تابعا تركيا ، الا انه غاب بدلا من ذلك بصورة سرية وذهب ضحية للحذر التركى والخيانة التركية معا •

وبذلك رجع الموظفون الاتراك ثانية الى اربيل وآلتون كوبرى • وانتعشت برهة ما العمادية ، الا ان البابانيين لم يستعيدوا عزتهم • وبقيت رواندوز يحكم فيها أخو

---

(١) زاره الدكتور روس الذى كان فى مقيمية بغداد حينئذ (فريزر ج ١ ص ٦٨) •

الباشا الاعمى ، وحل فى الجزيرة متسلم محل البك . وفى ١٨٣٧ م (١٢٥٣ هـ) سحق جند جاء من خارج العراق ، يقودهم حافظ باشا ، اليزيديين فى سنجار ثانية ، وتولى فى ١٨٣٨ م الاينجه بيرقدار اتمام العمل غير الكامل فى كردستان . فالحقت ، فى الاخير ، العمادية بعد ان حوصرت ، ثم تبعتها عقره ودهوك . وعلى هذا اصبح الحكام الاكراد واسراتهم من المحالين على المعاش غير الضارين فى الموصل وبغداد . فظهر عندئذ الموظفون الاتراك والهايته فى القرى الكردية ، وكان ظهورهم فى بادىء الامر فى ايام آخر الحكام المحليين واخيرا حلوا محلهم . وكان الوضع الجديد هذا متقلقلا ، اسميا ، ولم يكن فعالا بين القبائل وفى الجبال النائية الا بلأى وصعوبة . فقضى على اغلب ما كان يلم شعث الامة الكردية على كل حال .

وظل الآخرون بضع سنوات اخرى . ففى امبراطورية المليين القبائلية المركبة (التى اورثها تيمور ايوب) صمد تيماوى بك ، حفيد المؤسس ، للضربات التى انزلها رشـيد باشـا فى القضاء على ابيه فى ١٨٣٤ ، ثم اسـتعاد عزته عندما ضعف الاتراك بانتصارات المصريين فى سورية . وكذلك بقى ابنه محمود بالرغم من عداوات والى ديار بكر الموجهة عليه ، وترك لوارثه الشهير ابراهيم باشا اتحادا قبائليا قويا فى اوائل ايام السلطان عبدالحميد . وفى جنوبى الزاب الصغير قاوم البابانيون حتى سنة ١٨٥٠ م. وقد مر بنا فى مكان غير هذا ما كان من أمر النزاع المبيد الذى كان مستعرا بين ابناء عبدالرحمن باشا . فقد استعاد سليمان الحكم فى الاسابيع الاخيرة من عهد داود باشا . وفى ١٨٢٣ م طردته القوات الايرانية ، الا انه عاد فظهر ثانية وحكم سبع سنوات اخرى فى اودية شهرزور التى اجتمع عليها الطاعون ، ثم الضعف والفوضوية اللذان اعقبا النزاعات العائلية ، ونهوض رواندوز ثم سقوطها فأوهن فيها القوى واخلاها من السكان. وبقيت حامية ايرانية فى السليمانية حتى سنة ١٨٣٤ م . ومن ثم فرض على المملكة البابانية عندما استعادت سطوتها (ولم تكن نافذة الفعل الا فى عاصمتها) ان تجند عدة من السرايا على الطراز الحديث . وقد تمادى اولو الامر فى هذه المحاولة المتأخرة المهمة فى تكوين جيش عصرى حديث حتى فى ايام احمد باشا الذى انقطع امد حكمه لسنة[1] واحدة فى ١٨٤٠ م بعودة عمه محمود باشا . فأثار الجيش الايرانى الذى اعاد

---

(١) لسنة واحدة اى بعد سنة واحدة .

هذا المحارب القديم ، عاصفة ديبلوماسية باستيلائه على اراض كانت تعد عثمانية . وقد قيل ان الشاه نفسه اوعز بذلك فى الوقت الذى كان يطمع فيه فى اكثر من كردستان . وعند انسحاب الايرانيين تولى الحكومة البابانية ثانية احمد نفسه . وفى ١٨٤٢ م (١٢٥٨ هـ) أدت التدابير ،المشكوك فى امرها ، التى اتخذها فى نزاعات الحدود الى تنحيته وأخذه الى بغداد . وقد رتب ان يخلفه قادر باشا ، حفيد مؤسس السليمانية ، الا ان عبدالله ، أخا احمد ، نازعه هذه التولية . ثم ان استيلاء ايرانيا كان يقصد به اعادة محمود قد فشل بمعارضة عبدالله ايضا ، ولذلك بقى عبدالله هو الحاكم حتى عاد أخوه احمد عندما استبدل باشا بغداد باشا آخر . وكان نجيب باشا يأمل القضاء على هـــذه السلالة بتشجيع الاختلافات والنزاع بين افرادها . فنجح فى ذلك ، وفضل عبدالله ثانية على أخيه فاعطى السليمانية مع رتبة قائم مقام . وكان البابانيون يدفعون الاتاوة الى بغداد وكذلك كانت الاجناد الاتراك فى السليمانية قبل عدة سنوات ، وفى هـذا الحين ايضا اكثرت نسبتها وزيد عدد الجند فى الحاميات الامبراطورية . فدنت النهاية بحلول عام ١٨٥٠ م عندما حل اسماعيل باشا ، القائد التركى ، محل آخر البابانيين . وبذلك غاب عن كردستان البيت الذى حكم بسطوة وشهرة ، مدة قرن ونصف ، اصقاعا منها مترامية الاطراف . فخلى المجال للتعليمات المدونة فى الورق ، وللموظفين الجبناء الذين يباعون ويشرون بالمال ، وللاستغلالية الواهنة ، واللغة التركية الغريبة .

اما فى غير كردستان فقد كان الاتراك فى الوقت نفسه يظهرون العزم فى الحكم . ولقد كافح على رضا فى بغداد نفسها لطرد العقيل من الضاحية الغربية التى تغلغلوا فيها وصاروا سكانا وسادة ، وذلك فى ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) . وفى ١٨٤٧ م (١٢٦٣ هـ) طهر نجيب باشا محلة باب الشيخ من العناصر الخبيثة التى طالما أبدت مقاومتها للحكومة . وفى ١٨٤٣ م وقعت حادثة العقاب الشديد الذى انزل فى كربلا . ولو تطلعنا ببحثنا الى كربلا فى هذا العهد لرأينا انها كانت منذ عدة سنوات ، وقد صار نصف سكانها من الايرانيين ، ملجأ للهاربين الجناة من ماردين الى المحمرة ، وبذلك كانت بعيدة عن حكم الحكومة التركية تقريبا . فلم يتسن لداود باشا ولا لعلى رضا الدخول اليها . وآلت فى ١٨٤٢ م حكومتها الداخلية الى رؤساء العصابات من « اليرماز »[١] الذين كان يخضع

---

(١) تعنى كلمة « ياره ماز » بالتركية السفهاء الذين لا يصلحون لشىء . وكان هؤلاء هم الهاربون والمجرمون والعصاة الذين وجدوا فى كربلا ملجأ لهم . وكان عددهم عدة مئات يقودهم رؤساء بارعون .

لسوء تصرفهم العالم المجتهد والحاكم على حد سواء • وقد الزم نجيب باشا فى ١٨٤٢ م البلدة بقبول الحامية التركية وبقائها فيها ، فرفضت وتبع ذلك الرفض الحركات العسكرية • فدوفع عن البلدة بكل حماسة ، واعقب العراك فى البساتين المجاورة حصار منتظم كانت نتيجته ان دخل الجند الاتراك البلدة ، فارتكبوا فيها شناعات كثيرة سرعان ما بولغ فيها ، ففزع من ذلك الايرانيون والديلوماسيون فى استانبول • ولم تكن الحالة فى النجف بأحسن منها • فان فريقيها المتخاصمين ، وهما فريقا الزكرت والشمرت ، لم يعبأا بالباشا ولا بالسلطان ، وكان كل شيء فى المدينة يجرى بموجب فتاوى المجتهدين النافذة وبرغبات الرؤساء • وقد أدى نزاع اعتيادى فى البلد ، فى ١٨٥٢ م (١٢٦٩ ﻫ) ، الى ثورة • فخفت القوة التركية ، وبعد عراك شديد فى الشوارع دام يوما واحدا تمكن الاتراك من انزال العقاب بالبلدة وكان كالذى أنزل بكربلا من قبل ، ولكنه اقل شراسة • وقد وقع مثل هذا الحادث فى ١٨٥٤ م عندما بعث نامق باشا ضابطا من قبله فدخل البلدة قسرا بالرغم من قوة الفريقين الموحدة •

سياسة القبائل ١٨٣٨م (١٢٥٤ﻫ) — ١٨٦٩م (١٢٨٦ﻫ)

سيعلم قارىء هذه الصفحات علما يقينا ، بدلا من ان يظن ، ان حل الدويلات الكردية والضربات القاسية التى ضربت لاصلاح حال العتبات المقدسة كانت شيئا كافيا لادخال هذه الاماكن فى جهاز الحكم التركى المنظم • على ان سطوة السلطان امتدت الى أبعد مما كانت عليه بنتيجة الحركات التى كانت جارية خلال الثلاثين السنة هذه ، وان معارضتها ، ان كانت لا تزال موجودة بجميع عناصرها ، اصبحت اقل فعالية وانتظاما منذ زوال البيكات المستقلين وعصابات اليرماز •

وكانت سياسة القبائل فى هذه الحقبة شبيهة بالسياسة التى اتخذت مع غيرهم من حيث الغاية • فان مشكلة القبائل كانت من أخص المشاكل التى يصادفها حكام هذه البلاد • وان ماهية هذه المشكلة العويصة كانت معروفة بايضاح منذ مدة • وليس عندنا ما نضيف هنا الى ما بيناه حتى الآن فى احوال القبائل وحالتها • فما زالت هذه القبائل (فى جنوبى العراق عامة) تحث وتستفز من جانب المجتهدين على الاتراك ، وتعارض فى مصالحها فى الاساس اية حكومة منظمة ، وهى لا تطلب شيئا من الحكومة التى تضغط عليها فى جمع الضرائب دوما وابدا ، مفضلة العرف العشائرى على اية محكمة او عدالة ، وهى سلفية بالكلية ، وجائعة بحيث لا تفوتها فرصة تسنح لها للحصول على مغنم ،

ومتوحشة عديمة الاخلاق الفاضلة بحيث لا تحافظ على ما يعقد معها من معاقدات ، ولا تعبأ بالتوافق ولا الاتفاق على شيء ، ورجالها ما زالوا سادة فى الطرق والانهر والريف اجمع الا المناطق الضيقة ، ويرجعون دون ان يصيبهم كثير تبدل بعد العقوبات العديدة . وكان بقاؤهم على مثل هذه الحال وهذا المقياس لا يناسب وجود اية حكومة تستحق ان يكون لها اسم تحت الشمس كما كان يراها بحق باشوات هذه السنين . وعلى هذا فالمعضلة على جانب عظيم من الصعوبة ، وان ثلاثة قرون من الحكم السيء قد زادت فى استعصائها ، واصبح حلها من اصعب الامور على الاتراك من بين جميع الامم الحاكمة .

ومن المحتمل ان عدة طرق لحل هذه المشكلة كانت قدتكونت فى الاذهان . الا ان العقلية التركية ما كانت تعد رجال القبائل الا وحوشا كواسر يعارضون الحكومة قصدا للاذى والتشعيث . والحق هو ان منازل هذه القبائل كانت عبارة عن مجتمعات ساذجة لا يزالون يعيشون فيها عيشة (بعيدة عن كل ما تستوجبه الحكومة من امور) لا يمكنهم ان يتصوروا غيرها ، ولم يتقدم احد لينير السبيل لهم نحو عيشة اخرى . وبذا فقد ارتطموا ، وهم مدفوعون بدافع تفكيرهم القبلى ، الوف المرات فى هذا الشيء الاجنبى عنهم الذى يقال له الحكومة . ومع هذا لم تتصد لهم اية حكومة فتناشدهم بقولها : « كفوا عن عيشتكم هذه ، وعيشوا على الطريقة الحسنى التى سنجعلها موفورة لكم » . فالحل الحقيقى لمشكلة العشائر الازلية الذى كان يجب ان يتبع فى تفكيك القبائل هو ان يهيأ لهم حياة اخرى غير حياتهم حياة يكون فى امكانهم قبولها وتفضيلها ، لا ان تنزل بهم ضربات موجعة بين حين وآخر . وكان الجواب الحقيقى عن اللغز الذى كان يقف امامه نجيب باشا ونامق باشا بحيرة هو : « وطنوا قبائلكم فى الارض ، وساعدوهم على اسقائها بشق الترع ، وأمنوهم على تملكها ، واجمعوا منهم الضرائب الخفيفة بعدالة ، ولا تسمحوا بوقوع تعد على من توطن منهم ، ثم كافئوا بسخاء وعاقبوا بروح اصلاحية » .

على ان طريقة الحل هـذه لم تتخذ . بل جاهد باشوات ذلك الزمن ـ وهم المتعصبون لقوميتهم ، غير المتساهلين ـ فى سحق الحياة الموجودة فى القبائل بثقل السلاح . فنبذوا الطرائق حتى الطريقة الاستغلالية القديمة ، وولوا شطرهم نحو قلب الوحوش المتمردة الى « مواطنين » طائعين بكل عنف وشدة من غير ان يبينوا لهم

كيف يعيشون عيشة اخرى غير عيشتهم ، ولا ان يعلموهم الطرق التى تقنعهم بوجوب الطاعة . فبقى رؤساؤهم يرون بأمات رؤوسهم غدر الحكام الاتراك وضعفهم تارة ثم قسوتهم تارة اخرى . وظلوا يشاهدون المعاملة الجائرة التى يلقاها المتوطنون منهم الذين ينهبهم كل جاب من الجباة ويتغضب عليهم كل من يصل اليهم من « الضابطية » . كما رأوا الاستخفاف بهم مع غطرسة الاتراك وازدرائهم المهين . وقد رأوا ذلك كله فتملصوا من الخطر الذى جاء يسلب حريتهم فيقدم لهم بدلا منها أهوال الحكومة . وعلى هذا فان سياسة تفكيك القبائل والقضاء عليها بصورة هادمة كان يجب ان يصيبها الفشل على كل حال ، وقد فشلت فى هذه الحقبة من الزمن لاسباب خاصة واخرى عامة . لان محاولة تنفيذها كانت قد جرت باستخدام قوات اقل بكثير من القوات التى كان يستحقه هذا العمل الجسيم الخطير ، ومن دون ان توضع لها خطة ثابتة ، او ان يكون لها تدبير منظم . وكانت النتيجة ان زجت الاصقاع العشائرية من العراق فى أتون مشتعل من القلاقل ، وفى احضان اسوأ ما يتذكره الناس من الفوضوية ، ودفع الفلاحون المتوطنون الى البادية من جديد ، وانزلت البلاد الى اسفل دركات الضعف والتعاسة فى الوقت الذى ظهرت فيه انواع المواصلات الحديثة .

وكان على رضا راضيا عن استمرار الطرق القديمة هذه فى حكم القبائل . فكان يستبدل احيانا بشيخ المنتفك ، او يجد خصما لصفوك ، او يستخدم الشيخ وادى معتمدا وجامعا للضرائب . وكان سوء تدبيره لامور القبائل قد عرض بغداد لحالات حصار وتحصن اكثر من مرة . فغدت قبائل عنزة وشمر والزبيد تجول حوالى السور وتطيف به وهى مشمئزة من تقلب الباشا ومتشوقة للحصول على كل ما يأتى به ضعفه اليهم . وقد رجع صفوك ، وكان قبض عليه رشيد باشا وارسل به الى استانبول فى ١٨٣٦ م (١٢٥٢ هـ) ، فنشر نفوذه على العراق من ماردين الى بغداد . وبقى كذلك حتى حل عام ١٨٤٧ م (١٢٦٤ هـ) فأمر نجيب باشا بقتله (بمكيدة) بعد قتل خصمه نجرس . وكان نجيب باشا اول داعية لسياسة تفكيك القبائل بصورة تدميرية وبالقوة . وقد اشتهرت باشويته بالحملات العشائرية[١] المتوالية . ففى ١٨٤٣ م كان هدفه فى

---

(١) ومما حدث فى عهد باشويته ايضا مذابح التياريين المسيحيين ، المشهورة فى منطقة العمادية ، التى قام بها بكر خان (من اسرة جزيرة ابن عمر الحاكمة) ونور الله الشديد التعصب . وكان ذلك فى ١٨٤٣ م . وقد تكرر وقوع مثل هذه الحوادث ــ التى احتج عليها السر

التأديب الخزاعل وشمر ، وفى ١٨٤٤ م الخزاعل وعنزة . وفى ١٨٤٥ م قصد كردستان ، وقمع اضطرابا فى النجف ، وأدب العبيد . واضطرب فى تلك السنة بدو الحدود الفراتية ، وكذلك كانت عفك والمنتفك غير هادئة . ووقعت القلاقل فى الجزيرة بعد قتل صفوك فى ١٨٣٧ م . وقام بنو لام فى ١٨٤٩ م منكرين تعيين شيخ منتفكى لجمع الضرائب من منطقتهم ، وهو تدبير على جانب عظيم من الجهل المطبق . وكانت شمر تغزو حول مدينة بغداد . ثم ثارت قبائل الهندية ، وكان وادى شيخ زبيد مسلطا عليهم يومئذ ، بسبب جبايته الخالية من الرحمة وابتزازه للاموال . وقد سبب قمع هذه الثورة عداوة مرة بين نجيب وزميله العسكرى الذى حل مكانه ، اخيرا ، فوفق بين جمهرة قبائل الهندية . وانتهى عهد نجيب تجلله الكآبة وتستفحل فيه الفوضوية القبائلية الخالية من الامل فى العـراق من اوله الى آخره . فلم تنتج سياسته ، المطبقة بمنتهى الشدة ، شيئا .

وقد استمرت هذه الاحوال وهذه العلاقات التى لا أمل فيها . وجرت فى عهد عبدى باشا حركات واسعة النطاق فى الفرات فذبحت القبائل ، فى جملة تجاوزاتها ، حامية الكفل باجمعها . ثم قوبل نامق باشا ، فى باشويته الاولى ، بثورة عامة بين قبائل الفرات بقيادة وادى . على ان هدوءا نسبيا ساد فى ايام الكوزلكى فدل على مدى تأثير عدم التساهل الاعمى المفعم بالغطرسة مما كان يبديه كل من نجيب ونامق وعلى مقدار اللوم الذى يوجه اليهما على الاضطرابات التى اشتد سعيرها خلال ايام حكمهما . وربما كان فى سياسة الكوزلكى الملحة فى تنظيف الاقنية والترع شىء من السياسة الحكيمة الرامية الى توسيع الاصقاع المستوطنة ، وتزيـد الواردات بسبب توسـع الاراضى المزروعة ، واصلاح حالة القبائل تدريجيا بتوجيهها الى عيشة جديدة يعيشونها بدلا من معيشتهم البعيدة عن حماية القوانين الذميمة . وحدثت فى عهد « سردار اكرم » ثورات اخرى فى قبائل الهندية والشامية ، وغزوات اخرى من جانب عنزة ، وتأديبات صارمة

ستراتفورد كانينك فى استانبول - بشىء من الاعتدال فى ١٨٩٦ م . وكان ينافسهم فى هذه ، اذ ذاك ، الشيخ عبدالقادر فى السليمانية .

للهماوند[١] .

وفي باشوية نامق باشا الثانية كانت الضرائب على القبائل تزاد[٢] باستمرار ، وينقم عليها نقمة دائمة ، وتجبى بعنف وعسف وقوة . واقتص من بنى لام لمقاومتهم المستكنة . وقد أدت سنتان من الحرب فى المنتفك ـ غايتها احلال قائم مقام[٣] محل شيخ المشايخ ـ بعد انتشار التعاسة والفوضوية ، لتبديل سعدونى بآخر اى بتبديل فهد بمنصور . غير ان جميع مشايخ المنتفك اتفقوا ، بالرغم من تفرقهم وتناحرهم فى سبيل المشيخة والوظائف الحكومية ، على مقاومة الايدى التركية التى كانت تعمل على ابتزاز امتيازاتهم القديمة ونقلها للاتراك . وقد اعقبت الحرب المنتفكية الطويلة حركات وجهت على الخزاعل فكانت عقيمة لا نتيجة لها . وتمادى الهماوند فى غزوهم باكثر من جسارتهم المعتادة فلاقوا صفحا غير مألوف .

المواصلات الجديدة

كانت ملاحة الانهر العراقية تقتصر على الوسائط التى تأصلت فى القدم قبل ان يشهدها هيرودوتس . فالاكلاك المسيرة بالجلود المنفوخة فى الزابين واعالى دجلة ، والشخاتير الخشبية المبسوطة المنتشرة ما بين بيرەجك والفلوجة ، والقفف المزفتة الموجودة فى كل شريعة وفرضة (مرسى) ، والمشاحيف القصبية او الخشبية المستعملة فى الاهوار ، والسفن الشراعية التى تجر بالحبال فى دجلة الجنوبيه وشط العرب ، و « مهيلات » الفاو العظيمة ذات حمولة المائة الطن ـ كانت تؤلف كلها جميع وسائل النقل النهرية الموجودة فى العراق يومذاك . وكادت هذه الوسائط تظل سائدة فيما اتخذت له لولم تتهيأ الفرص المناسبة والاختراعات الحديثة فتتضافر جهودها على ادخال الوسائط الحديثة فى النقل . ولقد كانت السفن البخارية شيئا جديدا ظهر فى العالم ، وكانت بريطانيا العظمى تواقة الى وجدان طريق اسرع تصل به الى ممتلكاتها النائية فى الهند .

---

(١) وربما كان هؤلاء ، وهم اشهر قبائل اللصوص فى كردستان الجنوبية ، من الجاف فى الاصل . وقد ظهروا فى منطقة بازيان (بعد ان كانوا مقيمين فى ايران من قبل) فى حدود ١٨٣٠ م . (٢) وخاصة فى المنتفك . (٣) وفى الوقت نفسه ضمت أراض سعدونية واسعة الى الحى والقرنة .

وقد بانت طلائع المواصلات الحديثة ـ المساحون ـ اول مرة فى العراق فى ايام داود باشا . فكان مساحان من مساحى الاسطول الهندى يعملان فى العراق فى سنة ١٨٣٠ م . واستطاع الكابتن جيزنى ، فى اواخر ايام هذه السنة ، ان ينزل فى الفرات من القائم الى الفلوجة . ومن بعد ذلك اشتغل المساحون الثلاثة معا بمسح الانهر ، فكانوا معجبين بقابليتها للملاحة . وقد صرح الكابتن جيزنى المذكور ، وقد شجعه وليم الرابع ، امام « لجنة الملاحة البخارية » فى مجلس العموم فى سنة ١٨٣٤ م بتصريحات مهمة ، فأدى ذلك لتجهيز حملة على رأسها الكابتن نفسه ، وانفقت عليها الحكومة وشركة الهند الشرقية معا . وصادف فى الوقت نفسه ان زالت حكومة المماليك من بغداد ، واخذ على رضا فى ١٨٣٣ م يفكر هل يمكن اجراء السفن البخارية فى انهره . وقد تسلم فى اوائل ايام ١٨٣٥ الفرمان الصادر ـ بأسلوب تأففى ـ بالسماح لبعثة جيزنى بالعمل .

وبدأت رحلة الباخرتين « دجلة » و « الفرات » من بيره‌جك فى نيسان ١٨٣٦م ، وبعد شهر من ذلك قضى على « دجلة » اعصار عاصف . وبقيت « الفرات » ، فقامت برحلة تستدعى العنايه التامة فى التدقيق فى احوالها مما كتبه الكتاب[1] عنها . فقد طلب فلاحو الحديثة الى الرواد فيها ان يبقوا فى بغداد مرة ثانية ويرفعوا علم ملاحتهم هناك ، وقوبلوا فى الحلة كما يقابل الكفار ، وقابلهم الخزاعل الهمجة فى مستنقعات اللملوم بشراسة وخيانة وحيل . ووقعت الباخرة فى سوق الشيوخ بالفخ الذى نصبه القنصل الافرنسى لاحباط مساعى الحملة وخططها ، وذلك باستعمال الحواجز المتخذة من جذوع النخل . ثم تبودلت فى القرنة الرسوم الحكومية مع زورق مسلح . اما فى البصرة فقد فتش الباخرة القبطان باشا . وبقيت « الفرات » بعد ذلك تمخر عباب المياه العراقية مدة خمس سنوات اخرى .

وفى ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) افرغت فى البصرة حمولة تحتوى على آلات واجزاء اربع بواخر . وظل اسطول صغير يدور فى المياه العراقية لمدة سنة اخرى من دون ان يعاق بالرغم من عدم وصول فرمان الترخيص ، ثم وصل ذلك اخيرا فى سنة ١٨٤١ م . وسمح من بعد ذلك للمستر لنج بتشغيل باخرتين . وفى ١٨٤٢ م اخذت ثلاث بواخر الى الهند وبقيت باخرة « نيتو كريس » وحدها راسية بالقرب من المقيمية

---

(١) جيزنى ، اينزوورث ، هيلفر .

البريطانية حتى ابدلت اخيرا بباخرة اخرى اسمها « المذنب » (كوميت) • وكانت خلال الفترة هذه اعمال المسح ورسم الخرائط على قدم وساق حتى احضرت ادق الخرائط واحسنها بهمة لنج ، وفيلكس جونز وسيلبى وكولينغوود وبيوشر ، وظلت تستعمل هذه الخرائط حتى سنة ١٩١٤ م • ولا يخفى ان هذه الخدمة للبلاد ليست بالشىء اليسير •

وقد ترك خط الفرات ، باعتباره طريقا لبريد الهند ، عندما ظهر ، وبعد ما اصاب « دجلة » من كارثة وبعد وقوع حوادث اخرى ، ان النهر غير صالح للسفرات السريعة المنظمة • وعلى هذا فان اعمال الحكومة البريطانية بعد ١٨٤٢ م كانت تنحصر فى امور المسح فقط ، وقد اخذت الحكومة التركية مكانها فى الامور الاخرى • وادرك رشيد باشا الكوزلكي بسرعة اهمية السفن البخارية العظيمة ومنافعها • وفى ١٨٥٥ م (١٢٧٢ هـ) دعا جماعة من التجار لاجتماع عرض فيه عليهم تأليف شركة للملاحة يكون نصف رأس مالها من الحكومة والنصف الآخر يشترك فيه التجار • وبعد ذلك ارسل بـ « طلبية » الى انتويرب لصنع باخرتين ، وهما « بغداد » و « البصرة » • فوصلت الاولى وشدت فى العراق قبيل وفاة الكوزلكي ، ثم وصلت الثانية بعد ذلك • وبالرغم من اهتمام الاهلين الجزئى بهاتين الباخرتين رفض الواليان التاليان استعمالهما لنقل بضائع التجار[1] وأسس فى ١٨٦٧ م (١٢٨٤ هـ) نامق باشا هذه المصلحة باسم « الادارة العمانية ـ العثمانية » ، ووضعها بعهدة « مدير الامور الطبية » ، ثم شيد لها معملا للتعمير والاصلاح • ولم يقصد بذلك احتكار هذه الامور ، لان شركة لنج التى اصبح لها اسم مشرف فى المياه العراقية بمساعى اسرة لنج[2] المشكورة كانت تمكنت فى ١٨٦١ م من نيل فرمان يبيحها اجراء باخرة « مدينة لندن » • وقد اصدر هذا الفرمان برغم معارضة نامق باشا القوية لذلك • وقد حصلت المعارضة نفسها فى سنة ١٨٦٤ م عندما جىء بالباخرة الجديدة « دجلة » • غير ان الباشا لم يكن له من الحول والطول ما يمنع به هذا النوع من الاستيلاء على العراق بواسطة المراكب الحديثة ، خاصة وهى تفوق مراكبه بكثير وتؤدى لحرمان الادارة العمانية ـ العثمانية جنى الارباح • وقد استبدل

---

(١) من المحتمل ان مشغولية الباخرتين فى امور عسكرية تتعلق بتجهيز الحملات على بعض القبائل فى ١٨٥٦ ـ ١٨٦١ حال دون الاستفادة منهما فى الشحن من البضائع •

(٢) خدم الملازم لنج فى العراق مدة سنين عديدة ، فأضاع خلالها اخا فى كارثة « دجلة » وآخر مات مريضا •

بفشل مساعيه معارضته المحلية على قدر الامكان والاكثار من بواخره ، وبذا وصلت اليه فى ١٨٦٧ م البواخر « الموصل » و « الفرات » و « الرصافة » . على ان ادارة هذه البواخر قد اعترضتها كثير من المصاعب منذ الايام الاوائل ، وذلك من حيث عدم اتقان امور الاصلاح والايقاد لوجود موظفين مستفسدين فى ادارتها وبحارة لا يدفع لهم اولو الادارة الاجور بانتظام ، وبقيت تلك المشاكل من دون ان تتغلب عليها الجهود . هذا مع انه كانت باخرتا شركة لنج على احسن حال وهما تدران الارباح على الشركة[1] .

واذا ما عدنا الى المواصلات البرية فاننا سوف نعجب عندما نجد فقدان الوسائط النقلية ذات العجلات من العراق مدة طويلة من الزمن . فان انبساط الاراضى الممتدة والضرورة الاقتصادية كانتا تستدعيان شيوع هذه الوسائط كما هو الحال فى البلاد المماثلة . الا ان درس احوال العراق عن كثب يسوغ عدم شيوع الوسائط المذكورة . فان الجمود الروحى العام ، والتخوف من العواقب الاجتماعية للتجديد ، ورؤوس الاموال القليلة المتوفرة لدى اصحاب الافكار المحدودة من الناس ، كلها كانت اسبابا قوية تجيز تلك الحال . على انه توجد اسباب اخرى خاصة لها حصتها فى تسويغ الوضع . فمن الطبيعى ان تنقل الاموال الى جهات معينة فى البلدان المختلفة ، غير ان هذه البلدان لم يكن فيها من الشوارع الواسعة ما يسمح بسير العربات . حتى ان بغداد نفسها بقيت حتى الزمن الاخير ليس فيها غير شارع واحد يمكن العجلات ان تسير فيه . وعلى هذا اصبح التاجر الذى تقف عربة الحمل على مسافة طويلة من باب خانه يفضل تسخير الحمير الموجودة دوما والحمال الكردى فى نقل بضاعته . اما فى الطرق العامة خارج المدينة فان الموانع للنقل اشياء اخرى . ففى القسم الشمالى من العراق وفى اطراف الاصقاع الكردية كان يمكن العجلات ان تسير على تربة ذات حصباء صلبة انى اتجهت . وينقطع وجود الحصى والحجر من جنوبى هيت وسامرا ، وهنا لا يمكن تمييز الطرق عن اراضى البادية ولا عن حقول الزرع الا بتكاثر الوحل الغبار فيها . ولذلك لا يمكن تهيأة الطرق الصالحة للسير الا بالعناية الدائمة . وان ما لا يحصى من السواقى والترع

---

(١) ومن نتائج سير هذه البواخر النهرية تعاظم شأن العمارة والكوت ، والتأثير التربوى المحسوس فى القبائل النهرية ، وتجريد السواحل النهرية من الصفصاف والطرفاء « الطرفة » اللذين يسبب تكاثرهما تأثيرا سيئا فى مجرى الانهر .

القاطعة للطرق دائما ومن دون انتظام تمنع من سير العربات غير انهـا تسمح بسير حيوانات النقل • هذا زيادة على ندرة وجود المواد التى تشيد منها القناطر ، ثم انه ليس فى وسع احد غير الحكومة الصارمة ان يتمكن من اجبار الزراع على نصب القناطر ، ومنعهم من اغراق الطريق العامة بين حين وآخر ، وعن تجاهلهم امر الطريق واقدامهم على حراثته مع الارض المعدة للزرع • وان حلت جميع مشاكل البلدة والريف فى خارجها ، فى هذا الشأن ، فان المسافرين لا يفتأون يشعرون بان « العربانة » الواسعة الملائمة لا تزال طعمة جيدة للعصاة وقطاع الطرق •

واول اقتراح للنظر فى طرق احسن ونقليات اسهل جاء من الخارج ، فلم يثمر شيئا • ففى سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) سافر افرنسى ، يدعى الكونت دى بيرثرى ، من الشام الى بغداد ، وكانت نيته منصرفة الى فتح هذا الطريق لتسيير العربات فيه • اما عن شيوخ البادية الذين يمكن ان يحولوا دون سلامة الطريق فقد ارتأى باديء ذى بدء انه من السهل ان تشرى حماية الطريق منهم بالمال • ووجد فى بغداد ان التجار مستعدون لتأسيس الشركة وتمويلها ، غير ان نامق باشا ، وكان لا يزال متأثرا تأثرا مرا من وجود البواخر الاجنبية فى دجلة ، لم ترقه الفكرة الجديدة التى ينتزع بها الاجانب من يده الطريق البرية ايضا • وعلى هذا فقد منع المساهمة فى المشروع ، وحذر الكونت من التعرض لشؤون القبائل •

وكانت فى اوربة ، فى غضون ذلك ، مشـاريع اعظـم واغرب فى قيد البحث والمداولة • فقد فكر فى ١٧٤٢ م (١١٥٥ هـ) صاحب معمل ايرلندى فى ان يمد سكة حديد من كاليه الى استانبول ثم الى كلكتا وبكين ، فكان ذلك مشروع « سكة حديد الاطلس » لويليام بين • وفى ١٨٤٣ م (١٢٥٩ هـ) عرض الكسندر كامبل مشروع سكة حديد « انكلترا ـ فالهند » على ان يمتد على طريق وادى الفرات ، وهو المشروع الذى عرض من بعد ذلك على شـركة الهنـد الشرقية ، فأحضر ما يقتضى ورسمت الخرائط • وفى ١٨٤٩ م عرض جون رايت مشروعا آخر لانشاء خط يمر بوادى الفرات • ومات سنة ١٨٥١ م فى استانبول الدكتور ج• ب• طومسن شهيد الحماسة فى هذا الشأن • وبعد ثلاث سنوات جمع و• ب• آندرو ، الداعى لانشاء طريق مثل هذا الى الهند خلال سنين عديدة ، جماعة معروفة من العلماء والمغامرين ـ لنج وجيزنى

ومكنيل وغيرهم ـ وكونوا شركة لانشاء سكة حديد من البحر الابيض المتوسط الى الخليج • وكانوا يرون ان تمر السكة بسلوقية وانطاكية وحلب و « قلعة جعبر » وهيت وبغداد ومن هناك الى القرنة فالبصرة • وقد رضيت هذه الجماعة ان تمد اولاً خط سلوقية ـ فالفرات فقط (وطوله ثمانون ميلا) ومن هناك يطرق نهر الفرات بالبواخر • وقد ضربوا فى تحقيق مشروعهم هذا على وتر الخوف من تسرب النفوذ الروسى الى الشرق ، والثروة العظيمة الكامنة فى العراق ، واستفادة تركية والهند ، والتوسع المنتظر فى التجارة مع الشرق الاقصى ، وسهولة انجاز المشروع من الوجهة الهندسية ، وتوفر المواد الانشائية فى سورية • وقد فاز هذا المشروع بالتأييدات الرسمية ، وبضمنها تأيد بالمرستون والسر ستراتفورد كانينغ ، كما ان الحكومة التركية كانت مستعدة لقبوله • وبعد جهود خمس عشرة سنة تبين عدم امكان جمع المال اللازم لذلك ، فترك المشروع كله • اما المشاريع المحلية فقد ظلت ميتة لا حراك لها • وقد هدأت حركة المشاريع الاوربية فى هذا الشأن ، لمدة ما ، بسبب افتتاح قنال السويس فى ١٨٦٩ م (١٢٨٦ هـ)•

ولم يكن وجود لمصالح البريد فى العراق طوال هذه الحقبة ، غير ان الملاحة البخارية اعقبها فى الحال ظهور التلغراف • وكان هذا اختراعا حديثا معرضا للعطب ، ويحتاج الى شيء كثير من الخطوط والنقليات لادامته بصورة اقتصادية • ومن أجل هذين السببين كان فى وسع العراق ان يظل فى غنى عن التلغراف طول القرن التاسع عشر ، لكن البلاد التى هى جزء من كل عظيم وموصل ارضى كتب لها ان تستفيد فوائد ، من ميزاتها المعروفة ، لا تستحقها الا قليلا • فكانت تركية قد خرجت من حرب القرم غانمة ، صائرة من القوى الاوربية التى يعبأ بها ، كما اصبحت دولة ذات سيادة مضمونة• وقد علمتها تجارب الحرب انها تحتاج الى مواصلات احسن فى ضمن امبراطوريتها ، وكانت انكلترا ، بعد « العصيان » ، ترحب بكل مشروع يكون من ورائه اتصال لها اسرع بالشرق • وقد سبق ان رسمت الخطط لمد الحبل السلكى « القابلو[1] » فى قعر البحر من الهند الى البصرة ، ومن هناك فى قعر دجلة الى بغداد • وتقدمت شركة

---

(١) كابل هو تعريب « حبل العربية » « م• ج » •

الهند الشرقية فى ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) الى الحكومة التركية بمشروع مد خط ارضى من سورية الى الخليج . وقد رفضت استانبول ايداع الاموال الضرورية لدى الشركة ، بجعلها تأمينات لادامة الخط ، تلك المبالغ التى لا يمكن الشركة (ومن ورائها شركة الاتصال التلغرافى الهندية الاوربية) ان تشتغل من دون ايداعها ، هذا زيادة على ان منح امتياز اجنبى هو فى حد ذاته شىء غير مستساغ . على ان الحكومة التركية والبريطانية اتفقتا فى ١٨٥٧ م على قيام المهندسين البريطانيين بمد الخطوط على ان يكون المشروع تركيا صرفا ، وفى صيف ١٨٦١ م تحقق الاتصال على طريق البر بين استانبول وبغداد .

وتبع ذلك البحث فى ربط بغداد بالخليج ، فسمح نامق باشا بان يمسح المقيم نفسه طريق الفرات مسحا شخصيا . فعين طريق ما ، وبدأ العمل فى اواخر ١٨٦٣ م ، وبدىء ، فى الوقت نفسه ، بمد خط بغداد - فخانقين . وما حل الخريف التالى حتى كان هـذا الخط الاخير فى قيد الاستعمال ، وبعد عدة شهور اخرى بدىء باستعمال خط الفرات . واصبحت خطوط التلغراف العراقية متصلة بخطوط تركية وايران (فى خانقين) والخليج والهند (بالفاو) . ومددت الخطوط من بعد ذلك بالتعاقب الى كربلا فالنجف ، والى الكوت والعمارة فبدرة ومندلى على طريق دجلة ، ثم اتصلت على طريق كارون بالخطوط الايرانية فى الاهواز . وما حلت نهاية القرن حتى فتحت الدوائر فى جميع البلدان المهمة . وبالرغم من كثير من التقصير - كحدوث الخلل فى الاجهزة ، وعدم تدريب مراقبى الخطوط ، والعرقلة المستمرة من جانب الجهال والعابثين ، ووجود الموظفين الذين لا يعرفون فائدة لكتم الاسرار - كان الجهاز التلغرافى يشتغل بانتظام . وبذا فقد اصبح ما كان يعد غريبا شيئا لابد من وجوده . وبات ضبط القبائل بالطريقة المثلى ممكنا لان جمع القوات بسرعة اصبح سهلا ، وذلك بالرغم من ان هذه الخطوط اصبحت اهدافا سهلة الاصابة على نقمة القبائل وعبثها .

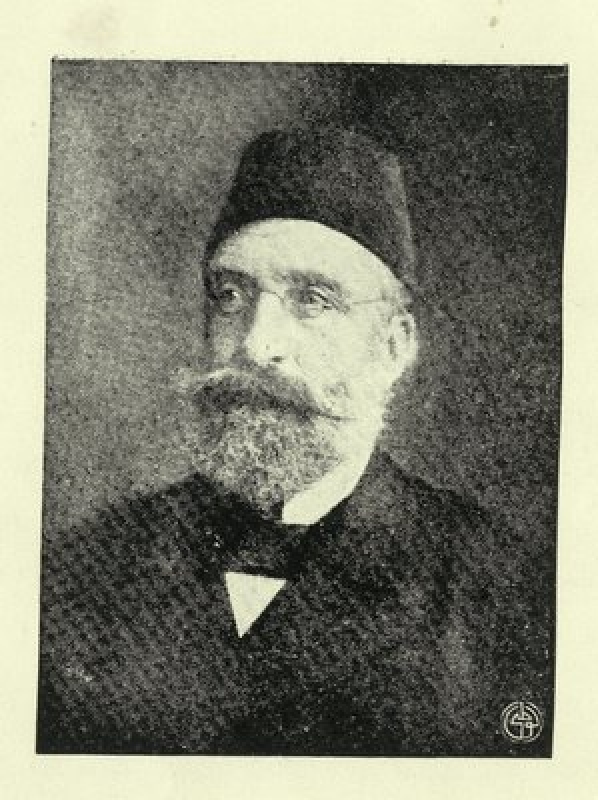
الفصل الثاني عشر

أواخر القرن التاسع عشر

مدحت باشا

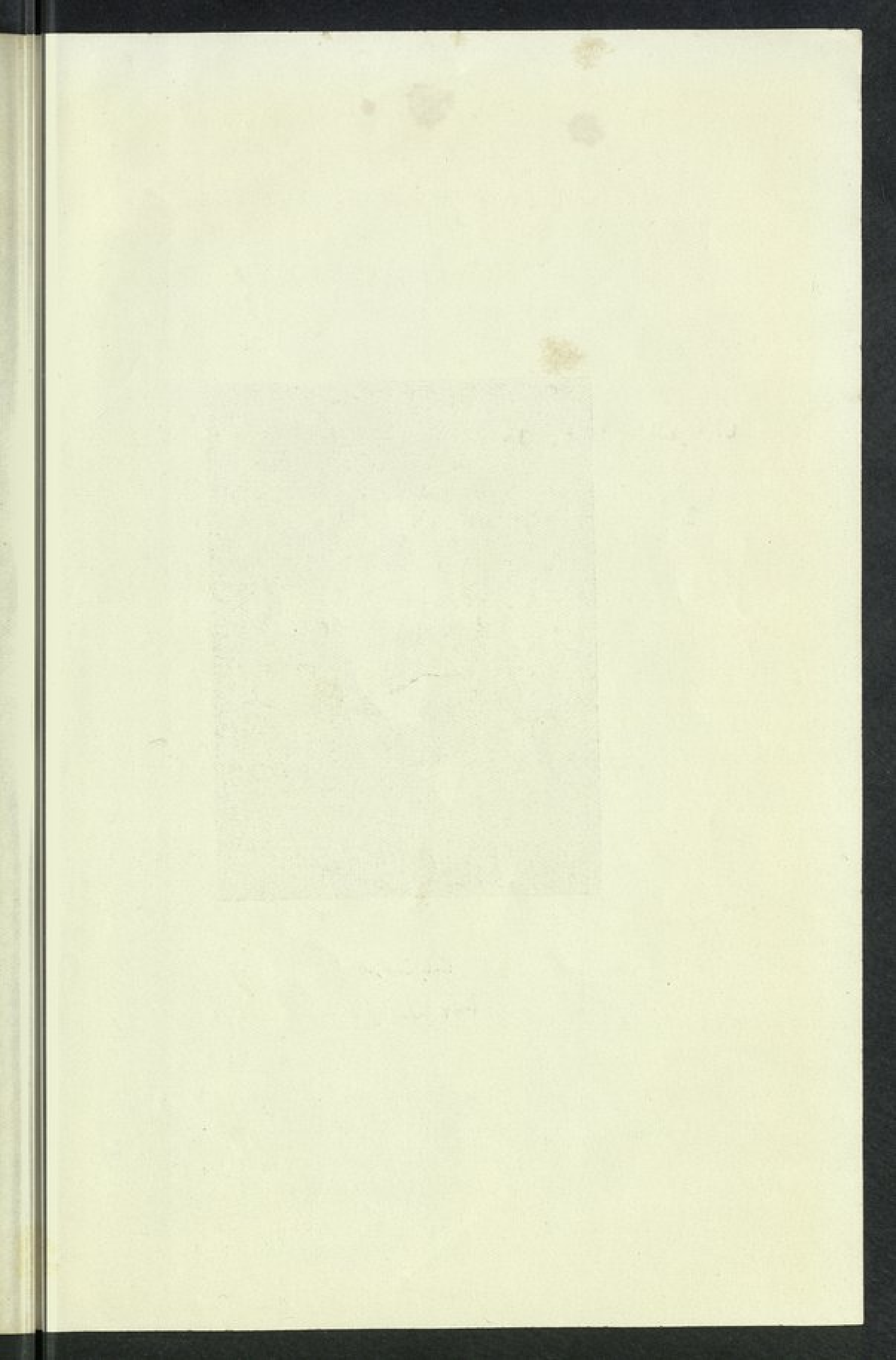
دخل مدحت باشا بغداد واليا فيها فى اليوم الثلاثين من نيسان ١٨٦٩ م (١٢٨٦ هـ) . وقد دلت سيرته فى السابق ، كما حققت اعماله فيما بعد ، على انه جيء به من اوربة الى هذه الولاية النائية للاصلاح والتجديد .

ولد فى استانبول سنة ١٨٢٢ م (١٢٣٨ هـ) ونشأ ، فكانت تربيته ودراسته التى تخللتها التنقلات ، التى كانت تصيب أباه وهو موظف صغير ، دراسة اعتيادية فى المدارس المحلية . وكان قد انخرط فى شبابه فى سلك الكتبة الصغار ، وخدم فى دمشق واستانبول وقونية . وتدرج من ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ) الى ١٨٥١ مرتقيا فى سلم الوظائف وحصل على اصدقاء من اصحاب السلطة . وقد ارسل سنة ١٨٥٢ للكشف عن سوء استعمال حصل فى ولاية دمشق وولاية حلب العربيتين فنجح فى المهمة خير نجاح . وكان نجاحه فيها بمقام تجربة وتدريب لعمله المقبل فى بغداد . وقد تقلد منذ ١٦٥٣ الى ١٨٥٨ وظائف فى البلقان وبروسة ، ثم فى الولايتين : ودين وسالسترية المضطربتين وسمح له فى السنة الاخيرة من هذه المدة ان يتجول فى عواصم اوربة فاستغرق التجوال ستة اشهر . وقد قضى القسم الاعظم من السنوات العشر التالية فى البلقان ، وكانت السنوات الاربع الاخيرة منها فى المنصب المهم الشاق وهو منصب والى ولاية الدانوب المؤلفة اخيرا . فكانت ادارته بها ادارة نزيهة تقدمية متساهلة ، ولذلك اصبحت على عهده تلك الولاية تعد « ولاية نموذجية » . وكان تطبيقه لنظام « الولاية » وملحقاتها ، وتأسيس البنوك الزراعية ، واجراء البواخر النهرية ، وتشييد المستشفيات ، وتشغيل الصناعات الحكومية تؤذن مبدئيا باصلاحات هذا الباشا المماثلة فى العراق . وبعد ان قضى شهورا قلائل يعمل فى المركز باستانبول عين ، فى ١٨٦٩ ، واليا فى بغداد خلفا لتقى‌الدين باشا . وكان اذ ذاك فى اوج قوته ونشاطه ، حيث كانت لحيته السوداء الكبيرة لم يتطرق اليها الشيب بعد . ولم تخل اعماله العديدة التى اضطلع بها خلال



مدحت باشا

(تقابل الصفحة ٣٢٢)



سنى حكمه فى العراق ، وله السلطة المطلقة ملكيا وعسكريا ، من آثار العجلة والاغلاط الاقتصادية الناشئة عن جهل بعض الامور او تناسيها . لانه كان فى بعض الاحيان كثير الثقة ، حتى الافراط ، بكل ما يسمى تجديدا ، كما انه كان يفضل فى احيان اخرى الامور الخلابة على الامور المعقولة . فقد سمح فى طريقة تسجيل الاراضى التى جاء بها بتحريك الماكنة الرسميـة التى لابد ان تنتج ما لا يحصى من الاغلاط فضلا عن الغموض والتفسخ . وكتب لمشاريعه فى اصلاح الانهر ان تبوء بالفشل المروع وذلك لعدم اعتمادها على الدراسة التمهيدية الواجبة . وقد انجزت اساطيله النهرية أقل مما كان يأمله منها بكثير ، ولم تشتغل كراءات « كراكات » شط العرب مطلقا ، كما لم تستقم البواخر الذاهبة الى البحر طويلا . ولم تظهر للوجود قط مشاريع سكك الحديد التى كان يفكر فيها ، ثم ان المكاين الصناعية التى طلبها من اوربة لم تصل اليه . ولم يكن قادرا على تحقيق مشروع كان عزيزا عليه وهو بيع خزائن النجف وانفاق مبالغها على الاشغال العامة . فخاب تماما فى القضاء على التفسخ . ولم تعش بعده اصلاحاته البلدية الا بصورة ضئيلة . وقد ترك تهديمه لسور بغداد اكواما عظيمة من الانقاض ومدينة محرومة الدفاع . وكان يأمل ان يدفع من ثمن الآجر المستخرج من انقاض السور ما يستحقه جنده من الاجور ، ولم يسلم « طاق كسرى » ذى الجلال من عمل كهذا . فبمثل هذه البراهين يمكن ان تهاجم اعمال مدحت باشا .

على ان نظره للامور ، وفعاليته الوطنية ، واستقامته المطلقة كلها قد انجزت اعمالا اعظم من الاعمال التى تمكنت ثقافته الناقصة من تشويهها . فقد اكمل ما بدأ بتشييده نامق باشا من الابنية العامة واضاف اليها شيئا كثيرا . فان اصدار جريدة ، وتأسيس المعامل العسكرية ، وبناء مستشفى ودار للعجزة وميتمة وعدة مدارس ، ومد خط « للتراموى » الى الكاظمية كانت كلها ، مع الروح التجددية التى دلت عليها ، قد نورت بغداد وبعثت حياة التجدد فيها . ولقد طبقت الاصلاحات ، العسكرية والمدنية ، فى بغداد اول مرة على عهد مدحت باشا بعد ان كانت مطبقة مدة طويلة من الزمن فى ولايات اخرى . وفرض الخدمة العسكرية ، ثم أسس البلديات والمجالس الادارية ، وطبق نظام « الولاية » الجديد بحذافيره . وكان تمصير البلدتين الناصرية والرمادى من صنع يديه .

وكان العراق التركي في سنيه الاخيرة بلادا متأخرة سيئة الحكومة بحيث ان ما يعزى لمدحت باشا من التأثير الحسن العظيم فيه يقيم ثناءا مشكوكا فيه . على ان ثناءا مثل هذا لا يعد في غير محله ، وعلى الذين يضنون بهذا الثناء ان يتأملوا الفرق في العلاقات بين الحكومة والقبائل قبل باشويته وبعدها ، والامن النسبي في الطرق ، وانتشار التعليم الابتدائي ، وتوسع الفكرة الاقليمية . واعظم الخدمات التي قام بها هي وضع خطة حكيمة لتوزيع الاراضي على القبائل لاجل ان يعيد الاراضي الواسعة في العراق الى الاستيطان مستفيدا ، في الوقت نفسه ، من الخطة في تمدين القبائل مما سيأتي بحثه بعد هذا . ويرجع الفضل في هذه الخطوة الاكيدة التي خطاها في مضمار التوطين ونشر الامن ، في الربع الاخير من القرن ، لهذه الخطة وللروحية الرسمية التي صحبتها . وعلى هذا فان كثيرا من العيوب العديدة التي ظهرت في الحكومة بعد مدحت باشا لم ينتجها تطبيق هذه الاساليب بل نسيانها . ولم تك حاكمية مدحت باشا في العراق الا شيئا طارئا على سيرته[1] ، غير ان اسمه ، الشهير باقترانه باسم العراق في القرن التاسع عشر ، لا يزال دائرا على الافواه في المدن وبين القبائل ، فهم يذكرونه دائما من حيث كونه مبتدعا مهذبا .

وترك مدحت باشا منصبه في بغداد في اوائل **١٨٧٢** بعدما باع ساعته - كما يقال - ليدفع نفقات سفره الى العاصمة .

ولا يسمح المجال في هذا الكتاب باكثر من التنويه بشخصيات هذا الزمن الاخرى . فالموصل والبصرة ، بكون كل منهما سنجقا او ولاية ، لم يظهر فيهما اي حاكم بارز ، كما لم يكن موظفوهما الكبار يعدون من الطبقة العليا في تدريبهم ولا اصلهم ولا روحيتهم . وقد كان معظمهم من الاتراك ، ولم يعدم وجود العرب (واكثرهم من سورية) بينهم ، وكان في وسع الاكراد ان يبلغوا المناصب العالية وخاصة في المناطق الشمالية . وكان من النادر للعراقي ان يصل الى اعلى من منصب المتصرف ، ولو ان

(١) فقد اصبح صدرا اعظم في ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) على عهد السلطان عبدالعزيز ، وتقلد هذا المنصب ثانية في عهد عبدالحميد في ١٨٧٦ . وقاد خلال هذه المدة حزب « الترقي والحرية » وكذلك كان مسؤولا عن الدستور العقيم . وقد قضى عليه تصادم نظرياته بنظريات عبدالحميد ، فقد اقصي الى الطائف قرب مكة وقتل هناك في ١٨٨٣ م (١٣٠٠ هـ) بعد ان نقل الى حاكمية سورية وحاكمية ازمير بحال يشبه النفي .

الدرجات المنخفضة من الطبقة البوروقراطية كانت تتألف منهم • وقد عرفت كركوك (ولسانها التركية) بكونها مشتلا تهيأ فيه طبقة الموظفين • وفي خلال هذا العهد كانت الاسر المعروفة في كل بلدة لها المكانة الثابتة في المجتمع ، وهي تحمل عادة لقبا تركيا او تتلقب باسم المكان الذي نشأت منه ، وكان أبناء هذه الاسر ، من غير استثناء لاحد منهم ، يسرون بالانخراط في سلك الموظفين وقابلياتهم ضعيفة في الغالب • ولم يك أحد من خلفاء مدحت باشا ، ممن يشملهم تاريخنا هذا ، يمكنه ان يعد من الطبقة الاولى[1] • فكان رديف باشا (١٨٧٤) نظاميا صارما ، وعبدالرحمن باشا (١٨٧٥ - ٧٩) اصوليا شديدا متعصبا ، وكان عاكف باشا البانيا محبوبا لكنه في غاية من التفسخ الروحي ، كما كان قادري باشا (١٨٧٨) عالميا مشككا • وقد جاء تقي الدين باشا ، سلف مدحت باشا ، الى بغداد مرة ثانية فحكم ست سنوات (١٨٨٠ - ٨٦) • وقد خلف مصطفى عاصم باشا (١٨٨٧) اخبارا لجولاته الفعالة في الخارج ، ونزاعاته العنيفة للسيد سلمان افندي النقيب • وكان سري باشا الكريتي الاديب شغوفا بتزيين عاصمته وتزويقها • وكان الحاج حسن (١٨٩٢) ، وهو تركي من استانبول ، ذا قوة جسمية فائقة ومتدينا على الطراز القديم • اما عطاء الله افندي (١٨٩٦) ، وهو قاض سابق ، فقد كان مدققا في القانون طاعنا في السن • وانتهى القرن بنامق باشا الصغير المعروف بزهده المتطرف • ولم ينشأ من بين هؤلاء جميعا ، على اختلاف طرزهم وعنصرياتهم ، من تعدى منصبه هذا بشهرته فخلد لنفسه اسما في التاريخ • ولا مجال هنا لذكر الشخصيات الاخرى المماثلة بشهرتها في عراق ذاك الوقت من الملاكين والعلماء والتجار والقادة ، ولا يزال كثير منهم في قيد الحياة ، وقد تعرف بقسم غير قليل منهم مؤلف هذا الكتاب •

التوسع في الجزيرة العربية

شهدت السنون الاخيرة من القرن التاسع عشر محاولات تستحق الذكر قامت بها تركية للتوسع في الجزيرة العربية • ولم يوعز بهذا التوسع احد ، وانما جد فيه مدحت باشا من العراق اول مرة • وكان يرمي بذلك الى ضم جميع الامارات العربية المستقلة في نجد وسواحل الخليج الى الامبراطورية العثمانية • وكان استقلال الامارات الساحلية قد دام من دون معارض منذ القرن السادس عشر عندما كانت الاساطيل

(١) عدا ناظم باشا (١٩١١ - ١٢) •

التركية تدعي بالاحساء[1] والكويت والبحرين بعد ان كانت تشن غزوات فجائية يومية على السواحل ، وحين فتحت الجيوش المصرية ، لا التركية ، نجدا ثم رجعت . وان كان الرجوع الى التاريخ يميط اللثام عن قليل من العذر لهـذا التوسع ففي التاريخ أسباب اخرى تسوغه ايضا . فالانتعاش الداخلي ، الذي كان مدحت يناضل في سبيله ، يصحبه في العادة جور واعتداء في الخارج . وكان سكان ولايات الخليج سنيين ، ولذا فقد كانوا من الرعايا الاصليين للخليفة . وقد لاح ان الدولة الوهابية سائرة نحو الدمار في النهاية لان انقساما بينا ظهر فيها . فوصلت الى الباشا في العراق معروضات عديدة من هذا الامير الملتجيء او ذاك ، ولا غرو فان المألوف في سياسة العرب ان يلتجيء الشخص الى أي جهة كانت للحصول على مقصده . كما ان وضع البريطانيين في الخليج - ذلك الذي احرزوه بالاعمال المدنية الشريفة المتضمنة لاعمال رسم الخرائط وقمع القرصنة - كان يجب ان ينازع ايضا . واخيرا فان السبب الجوهري الاصيل للتوسع كان جوع الاتراك الدائم غير المنقطع الى الارض والتملك ، الرامي على دوام فيه الى الاستيلاء على ممتلكات مورطة غير مفيدة ، والراغب ابدا في ضم الرعايا المعادين والرمال القاحلة . وكانت حقيقة الحال في العقد السـابع من القرن نفسه ان بلاد البحرين ، الممزقة بالحرب الاهلية فيهـا ، كان يدعي الاتراك بكونها عثمانية وهي ما زالت تابعة حتى الايام الاخيرة لامير الوهابيين في الوقت الذي كانت فيه السفن البريطانية مجدة في اعمالها البذرقية[2] « البوليسية » بازاء سواحلها . كما ان بلاد الاحساء والقطر كانت تكون جزءا منحلا مختلا من ممتلكات الوهابيين . وبقيت واحات نجد موطن قوتهم ومركزها الاصلي . غير ان مطالبة الاتراك بجميع هذه الممتلكات بقيت غير منقطعة . وقد انتهى عهد فيصل بن تركي الهاديء الطويل في نجد في سنة ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) ، ومن بعد ذلك بدأت منازعات ابنيه ، عبدالله وسعود ، من اجل الامارة الوهابية . وكان الاول ينظر الى الترك في المساعدة ، وعلى هذا ارسل وكيلا عنه الى بغداد سنة ١٨٦٦ م وسنة ١٨٧٠ م ، استنجد بمدحت باشا بعد نجاح أخيه في الثورة عارضا التابعية ودفع الاتاوة بشرط ان يعاد الى منصبه . وقد مر وكيله بطريق الكويت اذ كان الشيخ عبدالله

(١) كانت الاحساء (اسميا) تابعة للبصرة في ايام حسين باشا .

(٢) البذرقية منسوبة الى « البذرقة » وهي حياطة القوافل البرية او البحرية ونقض المسالك لها ، يقال « بذرق الامير القافلة يبذرقها بذرقة » .

بن صباح فيها يرى ، حتى عدة سنين خلت ، من مصلحته ان يتصل اتصالا وثيقا بالبصرة .

وقليل من الاتراك من كان يستطيع ان يمسك نفسه عن قبول ولاية او مقاطعة تقدم اليه ، وكان حرص مدحت باشا في هذا المضمار يفوق حد المخيلة والنشاط . وعلى هذا فقد عزم على قبول معروضات عبدالله بن فيصل ، وعلى ان يلحق بولايته المملكة الوهابية ، ان امكنه ذلك ، بحجة اعادة النظام الى نصابه في ممتلكات السلطان النائية . فبعث بواسطة نقالات شط العرب البالية ، قوة قوامها عدة آلاف رجل يقودها نافذ باشا . فنزلت في رأس التنورة في أيار سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) ، واحتلت القطيف بسهولة . وقد ادعى نافذ بأن غايته هي ان يسبغ نعماء الحكم التركي على سكان الاحساء ، وان يعيد عبدالله الى مكانه برتبة « قائم مقام نجد » . فعين الحكام في قرى الاحساء واحتلت القطر بحامية وضعت في دوله . وظل الحكم التركي اسابيع معدودة محمودا بالنسبة لقسوة الوهابيين وشدتهم من قبل ، وعندما حضر عبدالله بن فيصل المعسكر التركي تحقق ان عودته لمكانه كان امرا بعيدا عما كانوا يضمرونه له ، فهرب ولم يخلف بعده الا شيئا قليلا من الندم في الاحساء .

على ان القوة العسكرية التي بقيت هناك سرعان ما زال انطباعها الحسن عن هذه المنطقة بالحبرة والمران ، فبدأ افرادها يشعرون بان احتلالها هذا يزداد مشقة وعناء كل يوم . وقد قل عددهم من جراء الحمى والامراض ورداءة التجهيزات . ولذلك ترك مدحت باشا بنفسه بغداد ، في اواخر ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) ، للتفتيش فكان بمعيته الامداد والذخيرة الكافية . فاستقبل بحفاوة في الكويت فعين شيخها قائم مقام وسحب جند حامية الاحساء وقد استولى على افرادها المرض فاستبدل بهم رجال أقوياء ، ثم أعلن انضمام المنطقة الى ممتلكات السلطان من دون قيد ولا شرط (منكرا بذلك ادعاء الوهابيين بها) ، وعين نافذ باشا « متصرف نجد » . غير انه لم يجر اى تقدم نحو الواحات الداخلية ، كما لم يتعرض لما يختص بالمصالح البريطانية في البحرين . لكن الاتراك ، في هذا الوقت وفي اوقات اخرى حتى نهاية هذه الحقبة ، كانوا يدعون بدخول الجزيرة هذه في نطاق تابعيتهم ، فكان ذلك ادعاءا لم يتحقق ولم يسمح به .

وقد بقيت ترتيبات مدحت باشا حتى سنة ١٨٧٤ م ، الا انه علم فيما بعد بأن حكم

سنجق الاحساء حكما مباشرا كانت ادامته باهظة التكاليف . ففوض ناصر باشا ، متصرف البصرة المنتفكي ، بادخال نظام رخيص الكلف في الادارة[1] . فزار الاحساء واستعاد اكثر الحامية التركية ، ثم عين الشيخ براكا ، شيخ بني خالد ، متصرفا فيها . فكان نصيب هذا العمل التقهقري الخيبة والفشل في عدة اسابيع . فقد قامت حركة وهابية معارضة فطردت الشيخ براكا وتهددت الجنود التركية القليلة التي كانت هناك . فاضطر ناصر باشا ان يعود الى دخول الاحساء في اواخر ١٨٧٤ ، فيعيد النظام الى نصابه بشدة ، ورجع تاركا ابنه متصرفا فيها . وقد حكم بعد هذا عدد من الموظفين الآخرين ، فاستقام الحكم التركي حتى سنة ١٩٠٠ م[2] فكان حكما منحطا شرها جامدا مكروها عند عدم تجاهله . فلم تكثر علاقات هذا السنجق ، في اي وقت من الاوقات ، بالعراق مع كونه تابعا له اسميا ، ولذلك ليس لنا شأن بالبحث عنه في هذا التاريخ . ولم يلفت نظر العالم الى شؤونه الا بالقرصنة المزمنة التي كانت شائعة ازاء سواحله حتى قضت عليها السفن البريطانية برغم احتجاج الامير التابع اسميا الذي لم يكن في وسعه ان يتحرك لعمل شيء .

وبقيت امارة الكويت ميالة للاتراك بصورة جلية خلال عهد عبدالله بن صباح ، وتمادى خلفه في السياسة نفسها حتى قتل في ١٨٩٦ م (١٣١٤ هـ) واصبح قاتله الشيخ مبارك قائم مقام فيها . على ان سطوة الاتراك في الكويت كانت تقدرها تقديرا مختلفا السلطات العربية والتركية والاوربية والهندية . فلم يعترف البريطانيون في اي وقت من الاوقات بالحقوق التركية التامة فيها ، مع انهم رفضوا هم انفسهم غير مرة طلبات الشيخ لحمايتهم . على ان اشاعة سرت في عام ١٨٩٨ م مفادها ان الروس ينوون تحقيق مشروع سكة حديد ، فبدلت الوضع وتم في الاشهر الاخيرة من القرن عقد اتفاق رسمي بين الشيخ والحكومة الهندية الزم فيه الشيخ برفض جميع الامتيازات الاجنبية المطلوبة اليه والتي تطلب . وعندما جرت مباحثات اخرى بشأن انشاء سكة حديد اصبحت منزلة مدينة الكويت على جانب عظيم من الاهمية ، لكن هذه القضية والمباحثات يعود البحث عنها للبحث عن القرن العشرين . اما مع نجد الاوسط فلم يكن لحكام

---

(١) ومما لاشك فيه ان هذه الوقائع أدت لتكوين ولاية من البصرة مستقلة (١٨٧٥) .

(٢) وبعد ذلك كان السيد طالب (البصرة) متصرفا فيه لمدة سنتين اولهما ١٩٠٢ م .

العراق اية علاقة تقريبا خلال السنين المتبقية من هـذه الحقبة • وقد بقيت حروب الاسرة السعودية الداخلية مستمرة ، كما ظل النضال بين انبراطوريتي حائل والرياض المتخاصمتين مشبوب الاوار • ولم يخل الحال من تضرع هـذا الجانب او ذاك الى بغداد ، وكل يعدها بالخضوع والولاء للسلطان[١] •

ومن المناسب هنا ذكر العلاقات الايرانية وغيرها من العلاقات الاجنبية قبل ان نعود للبحث عن الشؤون الداخلية • فلم تقل مشاكل الحدود ، المعروفة حتى الآن بكثير من المؤتمرات والمعاهدات المعقودة منذ ١٨٢٣ م ، بزيارة ناصر الدين شاه الرسمية لعتبات العراق المقدسة في ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) ، تلك الزيارة التي نتجت التصادم لا الود ولا الوئام • فان « الخريطة الاصلية » التي احضرت بعناية الرسامين البريطانيين والروسيين الذين انجزوا رسمها بعد اشتغال عشرين سـنة لم يكن في وسعها تقديم علاج ما ، لان اللجنة التركية كانت تدعي بخط يقع باجمعه خارج المنطقة المنازع عليها بحسب ما ادرج في الخارطة • وعلى هذه الشاكلة استمر النزاع ، بشتى درجات الحدة او الخشونة ، حتى حلت نهاية الحقبة التي نبحث عنها • وقد كان النزاع على اشده في بنجوين ومنطقة زوهاب في جنوبي كردستان ، وفي اهوار عربستان النهرية • وعرف هذا النزاع ، في الجهة الشمالية ، بالتعديات المستمرة من كلا الجانبين على المنطقة المنازع عليها ، وبالتبرم الفوري الذي كان يقدمه الجانب المقابل • وكان النزاع على الجزر الطينية في شط العرب يحتدم بالحماسة نفسها • ولقد ظهر ان القلعة المنشأة في الفاو (وقد بدىء بناؤها في ١٨٨٦ م فلم يتم قط) مما يخل بمعاهدة ارضروم الثانية التي حرم بموجبها تحصين الشط • وكانت اكثر لعبات الاتراك غيظا تجري بواسطة مخافر الشرطة ، ومحطات الحجر الصحي ، والجباية المغيظة لرسوم الكمرك التي كانت تضرب على السفن المتجهة الى كارون • هذا زيادة على نقاط التصادم التركي ـ الايراني الاعتيادية التي كانت دائمة الوجود ، ولم تكن تخرج عن الجور في العتبات الشيعية ، وسلب قوافل الزوار ، وحماية القبائل العاصية ، واقامة الامراء الايرانيين المشكوك في امرهم في بغداد •

---

(١) لقد احتلت القوات التركية التي كان يقودها فيضي باشا القصيم في ١٩٠٥ م ، فقسمت البلاد الى وحدات اسمية على الطراز التركي ، ثم انسحبت .

وكان يمثل بريطانيا العظمى فى العراق ممثل[1] جليل المقام فى بغداد ، و « مساعد وكيل سياسى » (وصار قنصلا منذ ١٨٩٨) فى البصرة ، ونائب قنصل (ليس مستمرا) فى الموصل . ولم ينقص النفوذ الذى كان يتمتع به هؤلاء الموظفون ، كما لم يقل السخط عليهم من الموظفين المحليين الكثيرى الشك والريبة . فان التلغراف ، وامتيازات « المقيمية » ، وحقوق الملاحة فى دجلة ، ودوائر البريد الهندية كانت كلها اسبابا للمعاكسة ووضع العراقيل . غير ان الدلائل باجمعها تدل على ان موقف الوكلاء البريطانيين فى هذه الامور كان موقفا صحيحا بحسب الواقع ومعروفا بالصبر وطول الاناة . ولم تكن منزلتهم الخاصة لتمس بسوء (المحصلة بثلاثة قرون) ، مهما بلغت من الوضوح عند القبائل وفى المدن . وكانت ترفض طلبات عديدة من الرعايا الاتراك للحماية البريطانية ، كما ان فرصا كثيرة للحصول على السلطة والنفوذ ولتشويش الادارة التركية كان يضرب عنها صفحا .

وكان قنصل افرنسى يمثل حكومته الجمهورية في بغداد ، وفى البصرة احيانا . كما ان روسية والولايات المتحدة والمانيا ابقت كل منها وكيلها فى بغداد ، ولم يك فى سير هؤلاء خلال وجودهم ما يستحق ان ننوه به فى هذا التاريخ . واكثر الاتصالات حيوية مع سكان العراق كانت اتصالات البعثات الاثرية الموجودة يومذاك . وكثيرا ما كانت وظيفة القنصل ووظيفة المنقب الاثرى لدولة ما تتحدان فى شخص واحد .

الخطة الجديدة فى اسكان القبائل

وافى هذا العصر بخطة جديدة في شؤون البلاد الداخلية وتطور سريع ، فرأى السائحون والمقيمون فى هذه البلاد فى سنة ١٩٠٠ م تحسنا ظاهرا فى التحضر والامن منذ العهد البادىء سنة ١٨٦٥ م . واجمع كثير على ان الاساليب التى اتخذت فنجحت فى هذا العهد كانت من صنع يدى مدحت باشا .

ونتجت خيبة اسلافه في وضع خطة للحكم ، وسياسة الرعية بالقوة والرأفة خراب البلاد فأصبحت ارضها بلقعا وماؤها ضائعا . وكان من الضرورى لاضعاف نفوذ القبائل

---

(١) كان يعرف باسم « وكيل سياسى » فى ١٨٧٠ م ، وباسم « مقيم » اخيرا . ولم تشيد « المقيمية » الجديدة الا فى عام ١٩٠٥ م .

العظيمة ونشر الامن فى طرق المواصلات وتوسيع الزراعة ان يحرم الشيوخ النفوذ المطلق على قبائلهم ، وان يكون ضلعهم مع الحكومة من تلقاء انفسهم . فاستهدف الحكام ذلك بمجيء مدحت باشا . على ان شيئا من التطور فى هذه الناحية سبق ان حصل بالتدريج فى عهد الكوزلكى وسردار اكرم ونامق فبدأ قسم من القبائل بالتوطن خيمة بعد خيمة . وجاء مدحت باشا فعجل هذه الحركة بالوسائط الحديثة التى تتطلب عناية خاصة ، وكانت اعماله لا تخرج عن كونها بداية العلاج لمعضلة التوطين بوجهة نظر جديدة : وهى وجهة نظر الارض نفسها .

كانت الاراضى فى العراق تتعاورها ادعاءآت بالملكية كثيرة . لان المقاطعات كانت توهب هبة مطلقة من جانب داود باشا وعلى رضا ، فظل احفاد اصحاب وحدات التيمار الاقطاعية متمسكين بالوثائق والعقود التى خولتهم منزلتهم الاقطاعية وسوغت لهم حفظها ، وكان بيع الاراضى الحكومية وشراؤها جارى العادة منذ اجيال من غير علم الحكومة او اعترافها . وكان مجرد تملك القرويين والشيوخ ، الذين تنتشر عشائرهم فى اراض واسعة ، لهذه الاراضى مدة طويلة على هذه الطريقة مدعاة للادعـاء بالملكيـة الصرف « ملك » . وقد سبب انكار الحكومة لهذه الادعاءات والحقوق احوالا غير طبيعية يعود وبالها على مسألة الاسكان نفسها . وقد تأخر ادخال التحسينات الممكنة على الاراضى لان حقوق المتصرفين فيها لم تكن ثابتة ولا مقررة ، وادركت القبائل بهذا ان مجرد توطنهم مكانا ثابتا يعرضهم لعقوبات الحكومة واستيفاء الضرائب منهم بسهولة . وبالجملة فان تلك الحيـاة الجديدة ، التى كان يجب ان تتوفـر للقبائل لاجل يعيشوا بموجبهـا ويتركوا من اجلها حياة البداوة والرعى المعروفة ، لم يستطع احد تهيأتها لهم . وجل ما كان يمكن ان يقدم لهم من طريقة العيش هو ان يبدأوا بفلاحة الارض فقط من دون اى مشوق آخر . على ان توطنهم وفلاحتهم لم يكونا ميسرين لهم ايضا ، لان نصيب القرويين من هذه الفلاحة ونفسية القبائل ونظمها كانت تكفى لتنفيرهم عن عيشة التوطن وابقائهم على البداوة .

وكانت طريقة مدحت باشا تتضمن بيع اراض صغيرة او واسعة من اراضى الحكومة باقساط قليلة سهلة الدفع على حاملى الفرمانات المشكوك فيها ، ولاصحاب مثل هـذه الامتيازات القدماء على ان تبقى لهم حرية التصرف التامة (لا الملكية الصرف) ، وكذلك

للقرويين الذين كروا نهرا من الانهر او غرسوا بستانا ، ولشيوخ القبائل كمقدار يسع القبيلة كلها • وفتحت دوائر التمليك (الطابو) فملئت السجلات واعطيت سندات التملك ثم دفعت الاقساط الاولى • ويمكن ان يقال ان معظم الاراضى فى العراق هى « ميرى طابو » اى اراض حكومية مضمون اشغالها او التصرف فيها (قبالة تعهدات مهمة) لاصحاب « اللزمة » •

فعقدت على هذا أعلى الآمال التى لم تكن فى غير محلها بالكلية • لان الشيخ الذى كان بالامس محور القوات المعادية للحكومة اصبح فاقدا لما كان يملكه من وسائل الارهاب ، ولان النظام القبيلى نفسه ضعف فى محيطه الجديد : محيط التوطن والاقامة ، كما ان المصالح العديدة وعلاقات هذه الحياة الجديدة غدت طاغية على مظهر الحياة القبيلية البائد • وبما ان الشيوخ قد اصبحوا رؤساء المجتمعات الزراعية بعد التوطن فقد سهل الاتصال بهم لانهم ظلوا مضطرين للاقامة فى مكان ثابت ، وكذلك غدا عقابهم ممكنا لان الماء الذى يسقون زروعهم به هو بيد الحكومة ، كما أمكن استيفاء الضرائب منهم لان حاصلاتهم لا يمكن ان تهرب ولا ان تصرف بسهولة ويسر • هذا واصبحوا معتمدين ، كملاكى الاراضى ، على الحكومة ليستمدوا منها سلطتهم ، وقوتهم على أخذ حصتهم من الزرع • ومن اجل ذلك كله غدا من المنتظر ان تزداد قوة الرجال وتكثر الواردات •

الا ان هذه الطريقة لم تنجح نجاحا تاما ، فقد كانت عرضة لصعوبتين عظيمتين : اولاهما جهل موظفى الطابو وقابليتهم للارتشاء مما يدل على ان ماكنة الطابو لم تكن قائمة بواجبها على الوجه المطلوب ، وثانيتهما عدم اهتمام الرأى العام بالاستفادة من الوضع الجديد • ولقد ادرك كثير من الناس الغاية الواضحة من تفكيك القبائل واسكانها ، وارتاب آخرون بالخير الذى يصدر عن « سراى » الحكومة • وقنع غيرهم بما كانوا عليه من العزلة وعدم اقتضاء ذلك قبول اى تبدل فى الوضع • كما ان خوف العشائر الظاهر من التجنيد ابعدهم عن قبول تبعات التوطن الذى تنشأ منه – حسب تفكيرهم – مساوىء اخرى كالكد والتعب وسهولة الوصول اليهم والاعتماد على ماء السقى وغير ذلك ، وبعد كل اولئك وجوب دفع مبالغ من المال • لهذا خاف معظم رؤساء القبائل من الوضع الجديد فابتعدوا عنه • وكانت النتيجة ان استغل الوضع نفر من سكان المدن المقربين عند

موظفى الطابو فى بعض الاحوال ، وتقبل الآخرون شراء الارض فاكتسبوا حقوقها ولكن فى مكان يبعد عن العشيرة ، ودفع غيرهم القسط الاول ثم امتنعوا عن دفع الباقى . وعلى هذا فان كانت الغاية من اعمال الطابو تثبيت التملك القبلى للاراضى الزراعية الذى يجب ان يجعل الشيوخ ملاكين فان تلك الغاية قد احبط اغلبها بتردد الشيوخ هم انفسهم .

ومع ذلك كله فقد آتت تلك المحاولة ثمرا يانعا فى بعض الاماكن . فان شيخ بنى كعب او المحيسن الذى يملك البساتين الواسعة على ضفاف شط العرب اصبح وبساتينه رهائن ثمينة تستغلها الحكومة عند الحاجة . وكون السادة (انصاف العشائريين) فى انحاء الشامية الموحشة نواة للسكنى والتوطن . واصبح شيخ عنزة ، ابن هذال العظيم ، مالكا للبساتين فى سقى الفرات الاعلى . واستقر فرحان رئيس قبائل شمر الجربا فى اراضيه بالشرقاط . كما ان كثيرا من الاغوات على الحدود الكردية قد اسجل لهم بقسم من الاراضى باسمائهم . على ان اعظم اعمال نظام الطابو شأنا ، والضربة القاضية عليه فى الوقت نفسه ، كانت مسألة تملك آل السعدون فى المنتفك . فقد بادروا - ورأسهم ناصر باشا الموظف العثمانى يومئذ - الى شراء الحقوق فى مقاطعات واراض غامضة الحدود فى منازل القبائل . فاصبح افراد عشائر المنتفك ، الذين طال تحملهم لامرائهم ، فلاحين عندهم ، وقد رأوا سادتهم مؤخرا يحملون الالقاب العثمانية ويتقلدون الوظائف فى الوقت الذى كانوا هم فيه مذعنين لا لدفع الضرائب فحسب بل لدفع حصة من حاصلهم لساداتهم اصحاب الارض . ومهما يكن من شيء فان الحكم لا يدوم لاحد ، وربما كان نجم آل السعدون قد بدأ بالافول : فان تملكهم هذا ، باشراف العثمانيين المصحوب بالجشع والنزاع القائم بينهم هم انفسهم ، قد ادى الى اضمحلالهم . وكان تبدل الوضع هذا شيئا فجائيا لسكان الاهوار . فعندما كانت اراضى المنتفك الوسيعة ينعم بها انعاما رسميا على هذا السعدونى او ذاك اخذت تبدأ معها النزاعات بين الملتزم والمالك ، لان ايام شيخ المشايخ المجيدة كانت قد انتهت . على ان السعدونيين استمروا على العيش فى مقاطعاتهم متقلقلين يقودون قسما من القبائل ويحارب بعضهم بعضا . وبقيت منطقة المنتفك موصدة الابواب بوجه الحكومة ، ولم تدفع للحكومة من الضرائب الا النزر اليسير . غير انه مع ذلك كله قد بذرت بذور الاسكان هناك ، وتفرق السعدونيون واخرجوا من بعض الاماكن .

وتدل احوال القبيلة نفسها على النواحى الاخرى من الخطة الجديدة وعلى المصاير التى آلت اليها . فكان ناصر باشا ، أخو منصور ، قد ساوم بمشيخته فى ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ) أعلى مساومة . فقد صار فى عهد مدحت باشا الآلة ، المصطفاة الراضية ، المسخرة لتطبيع المنتفك[1] . ثم أسس مدينة الناصرية ، وقبل منصبا حكوميا عاليا . الا ان هذا التفريط فى عشيرته قد ترك اثرا سيئا فيها كانت نتيجته وبالا عليها . فان منصورا ثم ابنه سعدونا من بعده قادا الجبهة المعارضة للتجديد ، وكان ناصر وابنه فالح مرشحى الحكومة لتنفيذ الروح العثمانية وسياستها هناك . فزخرت المدة التى بين ١٨٨٠ م و ١٩٠٠ م بالنزاع المستمر بين الجبهتين ، ذلك النزاع الذى اندمج فيه الطمع الشخصى والبغضاء بنتائج الخطة الجديدة الواضحة . اما الحكومة فقد تمايلت بين المقاومة القليلة على « الطراز القديم » والخطة الحازمة فى ابقاء رجلها المسخر فى الحكم . وتصرمت السنون بعد السنين والحرب القبلية قائمة على قدم وساق ، وكانت قوات الدولة تتدخل احيانا من حصونها فى الخميسية او خارجها . وكان الظاهر يومئذ ان الحكومة المدنية لا يسعها البتة ان تسير هناك ، على ان الاسكان وتشتت القبائل كان سائرا بحالة شبه ظاهرة برغم ان اليوم الذى يخلد فيه فلاحو المنتفك الى السكينة ودفع الضرائب كان لا يزال بعيدا . وبذلك تبددت المخاوف منذ مدة مديدة من وجود جيش منتفكى متحد .

ونشأ مثل هذا الوضع فى قبيلة شمر ، اذ حصل رد فعل مماثل على الشيخ الذى شرع فى تنفيذ السياسة العثمانية فى عشيرته . فان فرحان بن صفوك أصبح باشا رفيعا كناصر فوجب عليه ان يكون واسطة لاسكان البدو التابعين له ، وزار استانبول فغاظ قبيلته بتخلقه بالعادات التركية وتزوجه بازواج مدنيات ، وباقامته لاجل الزراعة والفلاحة على دجلة بكل خضوع . وكانت النتيجة ان انشق نصف القبيلة عنه برآسة فارس الداعى للمحافظة على حياة البادية والحرية ، واستمرت العداوة من أجل اشياء خاصة : فإن توطن فرحان واشتغاله بالفلاحة لم يكن مهما بقدر ما صنع فى تحطيم عادات البدو وتقربه من الحكومة وتثقيف ابنائه بالثقافة التركية ، وكان ذلك أهم بكثير من انتصاراته فى الحروب القبلية . اما العشائر الاخرى فقد اصبحت عندها تربية الابل من بابة

(١) كان فى ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) المتصرف فى لوائه ، وفى ١٨٧٤ ارسل الى الاحساء لاخماد الثورة . وفى ١٨٧٥ عين واليا على البصرة ، وأخذ من ذلك المنصب الى استانبول .

حفظ مظاهر الاحترام للشيوخ بدلا من ان تكون واسطة العيش للجميع كما كانت من قبل • فضربت الدليم خيامها بين عانه والفلوجة ، واقامت قبائل زبيد على دجلة وحوالى الحلة ، وضربت شمر طوقة خيامها من ديالى الى الكوت تقريبا • وفى الحقيقة ان خارطة القبائل اخذت شكلها الذى هى عليه الآن منذ ذلك الحين ، وبات رسم خطوط الحدود عليها يعمل بكل تدقيق ، واصبح العراق فى ١٩٠٠ م بلاد القبائل التى بدأت تضيع ميزاتها القديمة بسرعة وغدا من الصعب عليها ان ترجع الى طراز المعيشة السابق • فباتت علاقاتها محلية اكثر منها قبلية ، ومعتمدة على الامن والنظام اكثر من اعتمادها على شىء آخر ، ومحتفظة برغم ذلك كله بعددها المادية ولغتها وجهلها وسهولة تحريكها فى غير مصلحتها وتذمرها من الحكومة وجميع اعمالها •

وكانت ناحيتا السياسة القبلية الموصوفتان حتى الآن ـ اسكان العشائر فى ارض واحدة ، وبث الروح العثمانية فيهم ـ مهدمتين للروح القبلية • وبقيت ناحية اخرى ، يرجع عهدها الى سنة ١٨٨٥ ، تختلف فى اتجاهها اختلافا بينا ، وقد كانت من سياسة السلطان نفسه لا من سياسة باشوات العراق • ولما كانت مقصودة لتطبق على الاكراد فقط ، فقد كانت غايتها ضمان اتصال القبائل الكردية القريب بالخليفة لا توطينها وذلك بالخدمة الاجيرة من دون ترك الحياة القبلية • وكانت تلك تأليف قوة تدعى « الحميدية » مؤلفة من الخيالة الاكراد المقدمين من كل رئيس قبيلة ، وقد بقيت فى الوجود حتى ازالت ثورة ١٩٠٨ السلطان الذى ألفها • واستفادت الحكومة بعض الفوائد من هذه القوة المستأجرة المتألفة من الاكراد الاقوياء ، الا ان شغب الحميدية وفوضويتها المستمرة وعدم الاطمئنان الدائم الى اخلاص رجالها وكون الاستفادة الحربية منهم محدودة زيادة على التقهقر الحاصل فى تكوينها كل اولئك من الامور التى تجعل هذا الوجه من الخطة الاصلاحية مثارا للانتقاد والحكم عليها كلها بالخيبة • ولم يتعد تأثيرها حواشى الحدود الشمالية من العراق • وكان ابراهيم باشا الملى ـ من نسل تيمور باشا الذى عاش فى ايام سليمان الكبير ـ من جملة من جندوا فى ضمن هذه القوة •

ان الحروب القبائلية فى هذه السنين تلوح ضئيلة بالقياس الى السنين السابقة التى بحثنا فيها حتى الآن • فقد ساق مدحت باشا حملة شهيرة على الدغارة ، وتمادت شمر فى القلاقل كل سنة ، وخاصة بعد شنق عبدالكريم وظهور فارس بعده لقيادة المعارضة

المضادة لفرحان • وكان بنو لام يتقاتلون بينهم فى سنة ١٧٨٩ م ، كما ان جيرانهم البو محمد قطعوا طرق المواصلات فى دجلة[1] سنة ١٨٨٠ م • وحدث فى السنة نفسها هياج على المسيحيين فى بلاد الهكارى بتحريض الشيخ عبدالله ، كما ازدادت قوة الشيخ سعيد في السليمانية واستفحل أمره وبقي يلعب على الطرفين • فكان يحالف الحكومة تارة ، وينتقض تارة اخرى متفقا مع الهماوند • وتمادى فى التخريب والفساد ، وثارت ثائرة الهماوند فبقيت الطرق الواقعة شرقى كركوك فى حكمهم ، ولم يجد نفعا ترحيل قسم منهم الى مكان آخر[2] • فازداد فسادهم ازديادا قضوا به على الحكومة فى السليمانية فى بعض الاحيان • وفى سنة ١٨٨٦ حدثت معارك غزيرة الدماء بين شمر والدليم وبين قبلیتى الفتلة وبنى حسن فى الاهوار سنة ١٨٩٣ م • وفى هذه السنة الاخيرة عاقب كاظم[3] باشا صيهودا من مشايخ البو محمد ، كما نفى ايضا حسن الخيون شيخ بنى اسد بعد ان اخرج من الهور عنوة • وفى امكاننا ان نضيف الى هذه الحوادث عشرات اخرى غيرها تتضمن تأديبات عديدة للقبائل • فقد كان من المعتاد فى بعض الاماكن ان ترسل الحكومة فى كل بضع سنين قوة خاصة لجمع بقايا الضرائب • وكان بعض هذه القبائل لم تصل اليها سياسة الاسكان ، ومع ذلك كله بدأت معارضة القبائل المنظمة للحكومة تقل كثيرا عما كانت عليه من قبل • فتغلغل النفوذ التركى اكثر ، واذا الطربوش يشاهد فى كل قرية • وصار فى الامكان عقاب العصاة واحدا بعد واحد فى غير خيبة ولا فشل تقريبا ، وحل محل الحرب القبائلية الموجهة على الباشا من قبل تمرد جماعة من العصاة فى مكان دون آخر • وبهذا اصبح الاضطراب والعبث بالامن الذى لا يزال يخيف اخافة ظاهرية لا يستند الى اساس متين •

كما انه صار فى الامكان بسهولة وبحزم اكثر علاج التمرد والعصيان اللذين كانا مستفحلين قبل هذا • لان القوات العثمانية التى رجعت من الحرب الروسية سنة ١٨٧٨ م وزعت على انحاء الامبراطورية وغدا فى الامكان اقامة المعسكرات فى الخميسية

(١) ومن تعدياتهم الاخرى انهم هاجموا باخرة شركة لنج « خليفة » •

(٢) رحلوا الى شبه جزيرة سينا فى ١٨٨٢ م ، الا انهم رجعوا لوطنهم قسرا بالحرب والسلب •

(٣) اخو زوجة السلطان عبدالحميد ، وقد ابعد الى بغداد لاسباب سياسية فكان فيها قائدا للخيالة •

ظهور التلغراف واستعماله اكثر قدرة القوات الحكومية على الحركات اليها وتأديبها .
وساعدت الزوارق البخارية فى قمع حركات القبائل فى دجلة الجنوبية . أضف الى
ذلك ان مراكز الشرطة التى أسست على طول الطرق خاصة بين الرمادى ودير الزور ،
وبين الخالص وكركوك ، وجنوبا بين بغداد والحلة والعتبات المقدسة قد جعلت الاسفار
فيها سالمة من الخطر على شيوع السلاح وكونه ظاهرا للعيان فى كل مكان . ويضاف
الى هذا ان نفوذ الحكومة بين عدة من القبائل قد زاد بتأثير اعمال الرى التى كان على
الحكومة ان تعالج تنظيمها وتوزيعها بالعدل لعمران البلاد . فقد استمر الفرات كل سنة
يفيض اكثره فى فرع الهندية[1] تاركا مجراه القديم الذى يمر بالحلة . وما حلت سنة
١٨٨٥ م حتى كاد يجف نهر الحلة فقلقت العشائر الذين اقاموا على شطوطه من امد
قريب قلقا شديدا فجلب المهندسون الافرنسيون[2] لاصلاح الحالة ، وانتهوا من عملهم
فى ١٨٩١ م . وهذا خير مثال للاعمال العمرانية الحيوية للقبائل المتوطنة . وهذه
الاعمال كما لا يخفى لا يمكن ان تنجزها الا قوة عظيمة تفوق قوة القبائل وهى
الحكومة ، ويدل هذا الوضع دلالة واضحة على مبلغ اعتماد القبائل على الحكومة .

حكومة العراق فى نهاية القرن التاسع عشر

لقد ساهم العراق لحد ما فى الشؤون الدولية التى كانت تركية منغمسة فيها . فانه
أعد الاموال لبذخ عبدالعزيز المبيد ، وقبل فرمانات خلفه الغبى مراد الخامس ، كما

---

(١) ان شط الهندية (المسمى باسم الهندى آصف الدولة الذى حفره لايصال الماء الى
النجف) بدأ يجرى الماء فيه جيدا منذ ١٨٠٠ م ، وفى ١٨٣٠ م اصبح من الضرورى توجيه قسم
من ماء الفرات الى فرع الحلة الذى بدأ يقل ماؤه ، فحاول على رضا باشا ونجيب باشا من أجل
ذلك انشاء سدة له . وتمكن عبدى باشا من سد الفرات وبناء ناظم قوى له من الآجر . وقد
تهدم ذلك الناظم سنة ١٨٥٤ م . ثم بنى عمر باشا سدا عظيما من التراب والحطب فلم يبق
الا قليلا . وكان تعميره موضع عناية خلفائه باستمرار . وما حلت سنة ١٨٨٠ م حتى اصبح فرع
الهندية مجرى الفرات تقريبا .

(٢) كانت محاولة شونديرفر بناء سدة محكمة عرضها ياردتان مع فتحة فى وسطها . وقد
تصدعت السدة المذكورة فى ١٩٠٣ م وبقيت الحالة سيئة فى شط الحلة الى ان اكمل ولكوكس
انشاء سدة الهندية فى ١٩١٣ م .

رحب بعبدالحميد الثانى الشديد البأس الذى كان فى نصبه سنة ١٨٧٦ م أمل للجميع . وقد سببت الحرب الروسية الناشبة فى ١٨٧٧ - ٧٨ م فراغ الحاميات العراقية وزادت فى عبء الفقر المنتشر فيه . وكان للدعاية السنية الفعالة التى كان يبثها عبدالحميد فى البلدان والعشائر الكردية تأثيرها البين فى الولايات العراقية التى قدرت لعبة الحاذق بالامور الكثرى محافظة ورجعية[1] . وفى السنين الاخيرة من القرن سرت اشاعات ضعيفة فى دواوين بغداد بحركة جديدة ترمى الى « الاتحاد والترقى » ، كما تسربت افكار ، تختلف عنها وتقل عنها شدة ، غايتها استقلال العرب . ولا نرى حاجة لذكر اكثر من هذا عن اخبار منزلة العراق الامبراطورية . فالولايات العراقية ، التى هى من اكثر الولايات بعدا وتأخرا ، كان فيها جميع مظاهر العهد « الحميدى » ، ولم تكن لتأسف على بعدها عن البوسفور فيما يختص بالامور الاخرى .

ويقع البحث المسهب فيه عن تشكيلات الدوائر الحكومية المختلفة خارج نطاق هذا التاريخ ، ويمكن الحصول على معلومات وافية فيها من السجلات الرسمية . ونحن معنيون هنا بالاشارة ، بصورة موجزة ، الى التبدلات المهمة فقط الحادثة خلال العهد الاخير هذا ، وبالحكم على كفاية الماكنة التركية بشكلها هذا من وجه عام .

ولقد كان اول عمل من اعمال مدحت باشا ان اعلن تطبيق نظام « الولاية » فى العراق ، ذلك النظام الذى سبق ان وضعه هو وطبقه فى الدانوب . وبهذه الواسطة أدخلت التراتيب الادارية التى بقيت فلم يمسها الا قليل من التبدل ، حتى عام ١٩١٤ م . ففى كل بلدة او قرية ، مصنفة بحسب أهمية منطقتها ، كان المتصرف او قائم المقام او مدير السنجق او القضاء او الناحية . وفى كل من هذه التشكيلات كان ملاك الموظفين الذين يقومون بواجبات معينة ، وفى كل منها مجلس منتخب يساعد رئيس الوحدة الادارية بصلاحيات مبهمة . ولا تزال الاسماء والمصطلحات الحكومية ، التى كانت معروفة فى العهد الاخير من العراق التركى ، متداولة حتى الآن .

فبقيت البصرة سنجقا ملحقا ببغداد حتى كونت منها فى ١٨٧٥ م ولاية من جديد . وسبق ان كان الاتراك يعدون نجدا قائم مقامية ملحقة بالبصرة ، وصارت الاحساء

---

(١) ان الاحترام الذى لا يزال يكنه سكان المدن فى العراق لعبدالحميد شىء معروف تماما .

سنجقا فى ١٨٧١ م ، وفى السنين التالية لذلك صار من المناسب للحكومة التركية ان تنعم بمناصبها الادارية على مختلف امراء الخليج . وعادت البصرة سنجقا فى ١٨٨٠م ، ثم أعيد تشكيل الولاية فيها فى ١٨٨٤ م . وقل شأن الموصل فأنزلت لدرجة المتصرفية عام ١٨٥٠ م ، وصارت فى سنة ١٨٧٩ م ولاية من جديد لها سنجقان : كركوك والسليمانية[١] .

وكان الامن العام مستتبا بقوات الجيش النظامية والاحتياطية ، وبالاسطول فى البصرة ، وبقوة « الجاندرمة » . وكانت قوات الجاندرمة ، والضابطية منظمة افواجا وسرايا ، لكنها فى الحقيقة كانت متوزعة فى مراكز صغيرة منفصلة عديدة ، ولم تكن سوى قوات منحطة لا نظام لها يدير امورها ضباط أميون[٢] متفسخو السيرة واناس حثالات غير مجهزين ولا تدفع اليهم رواتبهم بانتظام . ولم يكن هؤلاء ، فى الحقيقة ، سوى مراسلين وجباة ضرائب وخدام للموظفين الكبار الاقربين . ولم يكن فى وسع

---

(١) وعلى هذا اصبح العراق التركى بشكله الاخير يومئذ يحده سنجق دير الزور الذى لا يتبع اية ولاية ، وولاية ديار بكر التى كان لها سنجق المركز وسنجقا ارغنة وماردين ، وايران . وكان يتألف من ولايات ثلاث هى : ولاية الموصل التى كانت تضم ثلاثة سناجق وهى سنجق المركز وتتبعه اقضية دهوك وزاخو والعمادية وسنجار وعقرة ، وسنجق كركوك وتتبعه اقضية اربيل ورانية ورواندوز وكوى سنجق وكفرى ، وسنجق السليمانية وتتبعه اقضية بازيان وحلبجه وشهروز ومركه . وولاية بغداد التى كانت تضم سنجق المركز واقضيته عانة والرمادى وسامرا والكاظمين والعزيزية والكوت وخانقين وبعقوبة ومندلى وبدرة ، وسنجق الديوانيه وتتبع له اقضية الحلة والسماوة والشامية ، وسنجق كربلا واقضيته الهندية والنجف وقضاء الرزازة الصحراوى . وولاية البصرة التى كانت تضم سنجق العمارة واقضيته دويريج والزبير وقلعة صالح ، وسنجق البصرة نفسها واقضيته الفاو والقرنة والكويت ، وسنجق المنتفك واقضيته مركز الناصرية والشطرة وسوق الشيوخ والحى . وكان سنجق الاحساء يضم ثلاثة اقضية وهى الهفوف والقطر والقطيف. مع انه كان سنجق القصيم الخيالى فى وسط الجزيرة العربية يضم ، على الورق فقط ، قضائى بريده والرياض . وقد تشكل سنجق القصيم هذا بشكله المذكور منذ ١٩٠٥ م .

(٢) واصبحت الامية اكثر انتشارا عند انتهاء القرن . غير ان قوة الجاندرمة الموصوفة آنفا قد اصلح من شأنها كثيرا سنة ١٩٠٠ م . ولم تتألف قوة شرطة البادية الا بعد سنة ١٩٠٠ م باشارة من فان ديرغولتز (غوليج باشا) .

افراد الجاندرمة ان يقوموا بواجبات الشرطة على الوجه المطلوب فى الطرق العامة ولا فى الاسواق • وجل ما كانوا يتفوقون به على الناس شيء من النظام والسلاح ، وشيء من القيادة والتدريب بغير اختصاص • وعلى هـذا فقد كانوا ضعفاء لا قدرة لهم لمطاردة اللصوص العشائريين ، وسهلى الارتشاء فى المدن • على انه كان بينهم كثير من الرجال المقتدرين الاجلاد •

ولا يحتاج اسطول شط العرب الى الوصف • فقد كان منذ اول عهده قبل عشرات خلت من السنين قوة حقيرة متفككة لا قيمة لها الا باطلاق المدافع للتحية وبنقل قوى الجيش بكل مجازفة • على ان الحقيقة هى ان الجيش التركى لا يمكن ان يوفى حقه بهذا الوصف ، بيد ان وصفه المسهب فيه لا يدخل فى تاريخ العراق هـذا • وقد عـدل « النظام الجديد » الذى جاء به محمود الثانى بعد الحروب الروسية لسنة ١٨٥٤ م ، ثم نقح ثانية بموجب الجهاز القارى ذى المناطق فى سنة ١٨٨٥ م • واصبح العراق بموجب هذه التراتيب يكون منطقة « الجيش السادس » الذى يقدم وقت السلم فيلقا واحدا ، وهو الفيلق السادس ، ويقدم وقت الحرب ثلاثة فيالق ، بصورة نظرية ، وهى السادس والثانى عشر والثامن عشر • وكانت طريقة التجنيد هى طريقة التجنيد الاجبارى فى المدن والقرى مع كثير من الاستثناءات ، وترمى « القرعة » بين اللائقين لخدمة العلم • اما الاماكن العشائرية فتدفع فيها « البدلات » ، على ان كل شخص مكلف الخدمة كان فى وسعه ان يدفع بدلا عن الخدمة فيعفى منها • وكانت تشكيلات الجيش المؤلف من « النظام » (الجيش النظـامى) ، و « الرديف » اى الاحتيـاط الاول ، و « المستحفظ » اى الاحتياط الثانى متقنة وملائمة للحال بوجه عام • وكانت الاركان والتأسيسات والتعليمات التعبوية بوجه عام على نمط الجيش الحديث • وكانت الوحدات ومقراتها كل منها فى المكان المعين لها • وكانت هذه النقاط الحسنة ، مضافا اليها السجايا العسـكرية العاليـة للجند الاكراد والتركمان ربما تدل على وجـود جيش كامل الكفاية ، على ان الواقع كان يدل على غير ذلك • فان التدريبات المتقنة المتكررة لم تجد نفعا ، كما انها لم تحل دون هبوط مستوى الوحدات العسكرية الى الدرج الاسفل من الكفاية ، واحيانا الى دركة الاضمحلال • وكانت الجنود حتى الجيوش النظامية منها تكلف واجبات عسكرية ، كما ان الاحتياطيين كثيرا ما كانوا يقاومون بالقوة « السوق العسكرى » للحرب ، فى حين كانوا يعدون فيه تحقيق حلم القيادة العليا وأملها المرتجى •

اما التجهيزات فلم تكن متناسقة ، اذ كانت الاسلحة مجموعة من جميع الطروز[١] ، وكانت الالبسة خلقا ومختلفة ، كما كان التدريب غير كاف لجميع الرتب والدرجات . وكان تأخر دفع الاجور من الامور الاعتيادية ، فكان من يحصل عليها كمن يحصل على معروف نادر الحصول . هذا الى ان دفعها كان عرضة لانواع الانتقاص والاختلاس وللاغتصاب والمشاغبة على دوام . وكان ابرز ما فيه فى الاول والآخر الانحطاط الشائن فى مستوى كل شىء فيه ، فلم يكن هناك اى جيش آخر يسمح بان يكون المهندس التركى او الطبيب او المدفعى فيه بهذه الدرجة من الانحطاط[٢] . على ان هذا الجيش الذى كانت خيوله دبرة الامطاء[٣] ، وانفقدت فيه الحالة الصحية ، والذى كان يستعمل البنادق الصدئة والمدافع من الطرز البائد ، وكانت تشد عدد خيله بالخيوط والحبال ، نقول ان هـــذا الجيش بالرغم من ذلك كله لم يحرم القيام ببعض الحركات الموفقة . لكنها كانت تدل بايضاح ، على كل حال ، على معالم الخيبة المتأصلة فى الحكم التركى كمثل : التدنى فى المستوى شيئا فشيئا فى كل ميل يبعد عن استانبول ـ والفقر (المسبب عن الادارة العمياء الفاسدة) الذى شدد فى المساوىء المنتوجة عنه ـ والقناعة الشرقية بالاحوال الحاضرة ، والجهل الذى يطغى على كل شىء . ولم يكن هناك شىء من الصداقة بين الضابط وجنوده سوى ما هو كعلاقة الخادم بمولاه . اما بين القبائل وسكان القرى فان الخوف من التجنيد كان مما يؤخر قضية الاسكان ويفزع الكثيرين من الالتفات للامور العامـــة .

وليس هناك من الحاجة ما يدعو لذكر شىء فى العدل فى البلاد سوى انه كان توفيقا بين السذاجة الاسلامية و « قانون نابوليون » . وكان ، وهو المشوه عند التطبيق (الا أقله) ، المبرقش فى مجراه ، البطىء لحد الاياس ، يسير بقوانين هى سقيمة التقنين عندما تكون قديمة ، وسيئة الوضع اذا كانت حديثة ، واحيانا غير ممكنة التطبيق بصورة

---

(١) الطروز جمع طرز .

(٢) ان هذه الملاحظات تنطبق على العراق فى ١٨٧٠ ـ ١٩٠٠ م ، لا على العراق حتى السنين الاخيرة قبل الحرب العامة ، وعلى جميع الجيوش التركية فى العهود الاولى غير المذكورة . فقد كان الجيش السادس باعتراف الجميع أحط الجيوش نظاما .

(٣) الامطاء جمع مطا وهو الظهر .

ضمنية فى هذه الولاية او تلك . وان شمول التفسخ ، وانتهاك حرمة العدالة الذى لا يخرج عن نطاق النفوذ او المال من الامور التى يعترف بها الجميع تقريبا . وكان يؤخذ المجرم او المديون من المحكمة الى سجن يجلب له فيه اقاربه الطعام (فيشاركه فيه السجان بكل مودة) ، وكانت الملابس المختصة بالمساجين والانظمة والتمارين من الامور غير المعروفة ، كما كانت جميع الامور التى تحدد من الحرية المطلقة ينظر اليها بأسف الجمهور الذى نادرا ما يمقت الجريمة او الدين . وليس هناك حاجة للتأكيد ان كل موظف فى السجن من الحاكم الى الحارس كان يبيع الامتيازات والخدمات حتى اطلاق الحرية .

ولنترك العدل والامن جانبا ونتجه بالبحث فى البلديات والمصلحات العامة . فان حال البلديات يقدم لنا وجها طريفا جدا من اوجه الحياة العامة فى آسية التركية[1] . فالرئيس والمجلس المنتخب فى كل بلدة ، الذى يجتمع بانتظام لتسيير مهام الحراسة والحماية وتنظيف الشوارع وتجهيز الماء والضياء احيانا واصلاحات الجسور والاشراف على الابنية وما اشبه ذلك ، كان له نصف استقلال بالنسبة للحاكم المحلى وكبرياء بلدى مبهج . وفى الحقيقة ان البلديات فى كثير من الاحايين كانت لا تقوم بشىء سوى دفع الرواتب والاجور للموظفين والمستخدمين ، والاحتفاء بالموظفين المقيمين او الزائرين بين حين وآخر ، وعلى هذا فكانت مستوياتها منحطة واعمالها لا تضم معظم ما تتطلبه السلطات البلدية فى اوربة ، ومع ذلك كله كان فى وسع المرء ان يرى من النزاهة فى العمل والرغبة فى الخدمة عند البلديات اكثر مما كان يراه فى الادارة المركزية . واكثر هذه الهيئات كانت من صنع مدحت باشا ، وظهرت البقية للوجود واحدة بعد اخرى . وعند حلول عام ١٩٠٠ م كانت كل قرية مهمة لها مثل هذه الهيئة ، وكان فى بغداد ثلاث بلديات . ومن المصالح العامة التى تكلف بها الحكومة كانت دائرة النافعة (الاشغال

---

(١) لاشك للباحث فى تاريخ الاسلام ان نظام البلديات مبنى على نظام « الحسبة » فى الدول الاسلامية التى قوامها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان أمر الحسبة موكولا الى القضاة والى من يكلونها اليه من نوابهم واصحابهم ، فالمحتسب كان يقوم مقام رئيس البلدية اليوم ولكن نظام الحسبة ارقى وانقى وارعى لمصالح الشعب . « م. ج »

العامة) قليلة الفعالية فى العراق[1] . وكانت المصالح الصحية من اختصاص البلديات فى البلدان ، وكانت مفقودة فى غيرها . وكانت محطات الحجر الصحى - الموضوعة فى الفاو والبصرة ، وفى خانقين والعتبات المقدسة ، وفى بعض المراكز الاخرى فى طريق الزوار - تجمع بين عدم الكفاية عدما شائنا وخبث المقصد ، وكانت تستخدم باستسهال سلاحا مزعجا على الاجانب ، على ان كل فرد كان فى وسعه ان يشترى السماح التام بدراهم معدودة . وكان فى بغداد مستشفى عامة ، ولم يكن فى غيرها (خلال هذه المدة) اى مستشفى . ويجب ان يذكر ، فى معرض الكلام على المصالح الصحية والطبية هذه ، ان اتحاد النظافة التى لا وزن لها والقذارة المزعجة ، المألوف فى الشرق ، كانت القذارة هذه أبرز ما فيه[2] . ولم تكن هناك مصلحة للسيطرة . وكان من المعارف شىء قليل ، الا ان هذا القليل كان كثيرا جدا بالنسبة للعدم . وقد عظم شأن المعارف بسرعة بعد الدافع التقدمى العظيم الذى جاء به مدحت باشا . ومن المحتمل ان نسبة المتعلمين كانت فى سنة ١٨٥٠ م بمقدار نصف فى المائة من سكان المدن ، فاصبحت النسبة بمقدار ٥ - ١٠ بالمائة فى سنة ١٩٠٠ م . (وكان التعليم فى القبائل ولا يزال منحصرا فى افراد من الناس) . وكانت فى المدن الكبيرة مدارس للنصارى واليهود ، وكانت مدارس الاتحاد « الاليانس » الاسرائيلية ، من بين هذه ، تعلم بأحسن انواع التعليم . وكانت فى كل جامع مدرسة هى أحسن بقليل من مدارس الملالى ، ولكنها بعيدة كل البعد عن المدارس الحديثة من حيث مواضيع الدرس والاساليب المتبعة . على ان نسبة المتعلمين كانت عالية بين غير المسلمين من الرعايا . وكانت للحكومة مدرسة ابتدائية فى مركز كل قضاء عدا المدارس العسكرية التى كانت . وقد أسست مدرسة ثانوية للبنين فى بغداد سنة ١٨٧٠ م ، ثم أسست مدرسة ابتدائية للبنات فى ١٨٩٨ م . وفى وسعنا ان نتغاضى هنا عن جهل مديرى المدارس المطبق وعن سوء خلقهم احيانا . اما التدريس نفسه فابرز ظواهره استخدام اللغة التركية فيه ، فكانت لهذا نتيجتان : اولاهما ان مادة الدرس كانت غير مفهومة فى الغالب ، وثانيتهما ان الشبان العراقيين نشأوا وهم غير قادرين على

---

(١) ان الاشغال العامة القليلة جدا كان يقوم بها الجيش ودائرة الاراضى السنية والبلديات . اما سدة الهندية (التى شيدها شونديرفر فى ١٨٩١) فكان تشييدها شيئا شاذا .

(٢) تفشت الهيضة الحادة فى عام ١٨٧١ م ، و١٨٨٩ م ، و ١٨٩٤ م ، و ١٨٩٩ م . وتفشى الطاعون فى ١٨٧٧ م ، و ١٨٨١ م ، و ١٨٨٢ م .

الكتابة بأيسر العربية . ولا يمكن ان تنكر الفائدة السياسية من أمر تحويل العرب بهذا تحويلا نصفيا الى اتراك ، كما ان ذلك أجل الشعور بالقومية العربية لدرجة عالية ، وضمن تمييز المتعلمين بواسطة طبقة الموظفين ، فكان ذلك شيئا قاضيا من وجهة التربية . وبقى علينا ان نذكر شيئا عن دائرتين هما : دائرة الطابو (تسجيل الاراضى) التى أسسها مدحت باشا بآمال معسولة فكانت ضرورية له فى تحقيق خطته الرامية الى اسكان العشائر ، ودائرة الاوقاف (الهبات الدينية) . فكان يعوز دائرة الطابو كثير من الامور الجوهرية المؤدية الى نجاحها ، فلم تك هذه الدائرة تملك الخرائط ، ولم يكن لها مساحون ، ولا موظفون مثقفون نزهاء . ومن أجل هذا ضاعت الدقة بين الغموض والارتشاء ، تلك التى كان يكون من المستحسن ، بسبب ضياعها ، عدم وجود سجلات لحقوق الاراضى . فكانت تعطى ناسا سندات التملك لاراض يملكها الغير ، او اراض يشك فى موقعها الحقيقى ، او ليس لها حدود معلومة . فأدت هذه الحالة ، التى نصفها بضع كلمات ، الى صعوبات جسيمة نشأت عنها . اما الاوقاف ، ذات التأثير العظيم بما لها من مصالح دينية - اجتماعية قوية ، فقد نجحت لحد ما فى قيمومتها على الهبات الدينية فانقذتها ، على الاقل ، من سوء الاستعمال الدنيوى ، لكنها لم تتوفق فى محاولة المحافظة على واردات الوقف الزائدة دون الارسال بها فى كل سنة الى استانبول ، فى الوقت الذى كانت فيه املاك الوقف منحطة بصورة عامة ، والجوامع مستهدمة مسترمة ، وموظفوها من رجال الدين يتضورون جوعا . ولم تكن دائرة الاوقاف ، بكونها ملاكا كبيرا للاراضى ، أحسن حالا من أسوأ البخلاء الرسميين والمعرقلين ، كما كانت عدوا اشد للتقدم الذى يقف حجر عثرة فى طريق سوء استعمالها نفسها .

وقد ذكر شىء عن المواصلات فى الفصل السابق ، وعلم من ذلك ان تراتيب البريد لم تكن موجودة[١] خلال القرن الكامل الذى تلا عهد المماليك . ثم فتحت فى ١٨٦٨ م دوائر بريد بريطانية - هندية فى بغداد والبصرة بموافقة تقى الدين باشا . وبقيت هذه الدوائر تشتغل بانتظام من غير اعتراض رسمى عليها عشر سنوات كان خلالها البريد

---

(١) ويقصد بهذا البريد الحكومى لخدمة المجتمع . فبريد الجمال الذى لشركة الهند الشرقية كان منذ مدة ، ولم يتوقف حتى حوالى ١٨٥٥ م . كما كان الباشوات خلال قرون يتصلون باستانبول ويتصلون بعضهم ببعضهم بواسطة الخيالة الططر .

ينقل بانتظام الى المدن الراكبة على الانهر والى العتبات المقدسة مدة ما . غير ان تركية شاركت فى ١٨٧٨ م فى « مؤتمر باريس » ودفعت قيمة مشاركتها فى « الاتفاقية البريدية » . ومنذ هذا الحين فصاعدا كان موقف تركية ازاء دوائر البريد البريطانية معروفا بالوقائع الديبلوماسية فى استانبول ، وبحملة محلية لايقاف اعمالها فى العراق . وقد فتحت دوائر البريد التركية بالتدريج ، فظهرت للوجود مصلحة غير كاملة فكانت بالرغم من عدم الاعتماد عليها وعن سوء الاستعمال فيها كافية ، بوجه عام ، لحاجات العراق اليسيرة . وكانت زوارق البريد ، وصناديقه فى الشوارع ، وموزعو الدوائر البريدية الهندية عرضة للعراقيل بين حين وآخر . ثم مدت خطوط التلغراف الى جميع البلدان الكبيرة فأصبح العراق ، فى هذه الناحية ، من المناطق المفتوحة فى العالم . على ان انعدام الاعتماد وضياع الاسرار لم يقلا .

اما فى الانهار فان الملاحة البخارية اصابتها مجهودات مدحت باشا التى لا تعرف الراحة . فقد وجد ان اسطول الادارة العمانية ـ العثمانية منحط فاقد للكفاية . وكانت أخريات بواخره وهى الباخرة « توفيق » والباخرة « رصافة » (اللتان طلبهما نامق باشا) قد وصلتا فى ١٨٦٩ م . فأدخل الباشا على الادارة اصلاحات كثيرة ، وعين مديرا اكثر اهلية ، واوعز بشق قناة كنعان القديمة ووصلها بالصقلاوية لتكون موصلا مائيا بين النهرين . وندبت باخرة لاعمال المسح فى الفرات ، ثم طلبت كراءة « كراكة » . وعندما حلت الشهور الاخيرة من عهده كان اسطوله المؤلف من زوارق بخارية صغيرة يصل الى البصرة بالتدريج . غير ان نفاد المخصصات المالية ، وتحويل دولته له ، وعدم ليق الزوارق نفسها ، كل اولئك أدت لتلف الارسالية بأجمعها . فقد بقيت الزوارق ولم تركب مكاينها فأتلفها الصدأ فى معامل البصرة . ولذلك كان ما أنجز من هذه الاعمال يرجع فضله الى مدحت باشا . وقد صعد فى اواخر ايامه فى العراق الى اعالى الفرات حتى وصل الى مسكنة بعد ان مر بسلام من الصقلاوية . وهذا يشير الى أوج ما وصلت اليه المشاريع النهرية فى العراق التركى ، اذ لم يحاول احد عمل شيء من هذا الضرب بعد هذا . ومنعت شركة لنج من توسيع اسطولها ، وكان الترك مشغولين بالكلية بجعل بواخرهم صالحة للسير فى الماء . وقد اغرقت فى ١٨٧٦ م « دجلة » فاستبدلت بها « بلوص لنج » ، وفى ١٨٨٣ م منعت السلطات ببغداد الشركة فجأة عن تسيير اية باخرة بسبب اضافة الباخرة « مجيدية » الى اسطول الشركة مؤخرا . فاحتجت الشركة منكرة

ذلك أشد الاحتجاج لدى المقيم البريطانى ، الا ان تقى‌الدين كان أشد من الحجر الصلد تجاه ذلك . لان العناد الطبيعى المضافة اليه بعض المصالح الشخصية فى بغداد وأمل الربح الوافر من البواخر التركية كان سببا فى كل ذلك . وقد اخذت الازمة اخيرا طورا سياسيا مهما بين العاصمتين فاستؤنف سير بواخر الشركة . وكانت حالة البواخر العمانية ، بعد مرور عشرين سنة على عهد مدحت باشا ، بحالة يرثى لها . فلم يجدد من السفن شيء ، فاصبحت واحدة منها انقاضا نخرة ثم غرقت الثانية واحترقت ثالثة ، وبقيت البواخر الاربع الاخرى مهملة حتى أشرفت على التلف[1] .

اما المواصلات البرية فقد كانت حالتها اكثر تقدما . فانه أثمر مشروع « الترامواى » الذى جاء به مدحت باشا لا مشروع سكة الحديد . وبدأت عدة عربات تقطع بعض الطرق الرئيسية ، ثم أنشىء خط ترامواى بين الكوفة والنجف فى نهاية القرن . وفيما عدا هذه كان البغل والحصان ، والحمار والجمل من وسائل النقل العامة . ولم يك مشروع سكة الحديد (الاجنبى المنشأ) ميتا ، ففى ١٨٧٨ م ، اى بعد الخيبة فى محاولات آندور بعدة سنوات ، ألفت جماعة اخرى مشروع « وادى دجلة » . وكان يمر طريق هذا المشروع من ديار بكر الى الموصل فالكويت ، غير ان تدعيم الحكومة البريطانية لهذا المشروع لم يتحقق فترك أمره . وفى ١٨٩٨ م دهشت السلطات البريطانية عندما تسربت اليها اشاعات امتيازات روسية نيلت فى استانبول ، وهى مد خط من آسية الصغرى الى الكويت . الا ان النتيجة المحلية الوحيدة لذلك كانت توثق العلاقات البريطانية المعقودة مع الشيخ مبارك فى الكويت وازدياد موقف السيادة التركية حرجا هناك . وقد تبين ان الالمان ، لا الروسيين ، كانوا يفكرون فى شن مثل هذا الهجوم[2] .

---

(١) وقد اشترت اسطول الادارة العمانية ـ العثمانية فى ١٩٠٤ دائرة « السنية » وسميت « الحميدية » . واخذت البواخر تسير بالحسنى وبربح اكثر حتى سقوط عبدالحميد ، وانتكست الى حالتها القديمة التى وجدتها فيها الحرب العامة .

(٢) كانت المانيا فى ١٨٨٥ م قد اتمت مد سكك حديد البلقان ، فمهد ذلك اتصالا مباشرا باستانبول . وحصلت فى ١٨٨٨ م من تركية امتياز خط حيدر باشا ـ ازميت ، وفى ١٨٨٩ م تأسست شركة « سكة حديد الاناضول » برأس مال المانى ، فكمل خط آنقرة فى ١٨٩٣ م ثم كمل خط اسكيشهر وقونية فى ١٨٩٦ م ، ثم اخذ امتياز (ولكن لم يشرع فيه) بخط آنقرة ـ قيصرية ـ سيواس ـ ديار بكر ـ فبغداد . وفى سنة ١٩٠٠ م كانت منزلة المانيا فى السكك الحديدية التركية شيئا ممتازا وليس امرا فنيا فقط . وفى ١٨٩٩ م صودق على امتياز قونية ـ الخليج فزارت الكويت هيئة المانية . فكان حديث السكك الحديدية فى العراق فى ١٩٠٣ م موضوعا حساسا ، ووصلت فى ١٩١٢ م اول شحنة من مواد انشاء الخط ، وفى ١٩١٤ كان خط بغداد ـ سامرا كاملا .

وبقى علينا ان نذكر شيئا عن الدوائر الحكومية التى تنتج الواردات • فقد كان يمثل دوائر الكمرك ، فى جميع الاماكن التى على الحدود النهرية والبرية ، انحس الموظفين الموجودين فى دوائر الدولة واكثرهم فسادا وتفسخا • فكانت ضريبة الاستجلاب الاعتيادية المقدرة بثمانية فى المائة وضريبة الاصدار المقدرة بواحد فى المائة يغض النظر عنها او تخفف بحسب السخاء الذى يبديه الشاحن او رئيس القافلة لموظف الكمرك • والا فتصيب البخيل فى هذا الشأن متاعب التأخير والحجر الصحى والتقدير المفرط • على ان هذا كان منبعا مهما من منابع الواردات ، اما المنبع الثانى فكان الضريبة على المواشى والحيوانات « الكودة » ، وهو مورد دثر مناسب للحال فيما عدا المناطق الوعرة ، والمورد الثالث هو ضريبة الاملاك التى كان موظفوها ـ المشتغلون فى شتى الاحوال المحلية ، ومختلف المشاكل العملية ، الذين تقل عندهم الاستقامة ـ موجودون فى كل مقر او مركز للحكومة صغر او كبر • وكانت طرق الاستيفاء كثيرة منها : تقدير الحاصلات ، وتعداد الاشجار وعد وسائل ضخ الماء ، وفلاحة المقاطعات ، والمساومة على مبالغ مقطوعة • وفى الاصقاع الوسيعة غير الممسوحة وغير المحكومة الا جزئيا كانت الحكومة مضطرة للاعتماد فيها على موظفين لا يؤتمنون بالكلية ، فتستوفى ما يمكن استيفاؤه من هناك وتعوض ما تفقده بهذه الطريقة بما تستوفيه من السكان ، الذين يمكنها الوصول اليهم ، بتقديرات مجحفة مبيدة • وكانت الحسابات دقيقة متقنة ، فكانت البقايا غير المدفوعة تنقل باتقان من سنة لاخرى حتى تشطب بالعفو او تستوفى بحملة عسكرية • وكان يرى فى مضمار استيفاء الواردات بأجمعه (وهو الشغل المهم لعدد لا يحصون من الموظفين) عناية الحكومة بالدريهمات المستوفاة عاجلا وعدم عنايتها بجمع الدنانير آجلا ، وفقدان الثقة المستفحل بين الحكام والمحكومين ، والجهل المطبق بأساليب الحكم الذى تفرض بموجبه الضرائب على كل شىء من غير ان تساعد جهة من الجهات • وكانت هذه الاخطاء الاساسية أقل وضوحا فى المؤسسات ذات الادارة الخاصة ، كدائرة « السنية » ، وهى الدائرة التى تدير امور اراضى السلطان الخاصة ، و « دائرة الديون العمومية » التى تستوفى واردات صيد الاسماك واستهلاك المشروبات الروحية وبيع الملح وبيع بطاقات حصص « الدين العثمانى العالمى » ، وادائرة الحصر[1] (الريجى) التى تتولى

---

(١) والاسم الكامل هو شركة « حصر المصالح المشتركة بتبغ الامبراطورية العثمانية » ، وهى شركة ذات حصص مشتركة تحتكر تهيئة التبغ وبيعه فى تركية .

حصر بيع التبغ . وقد أنشأت دائرة السنية في العراق في السنين الاخيرة من القرن ، فكانت تدير امور المقاطعات الوسيعة المنتخبة التي تملكها السلطان من الدولة بالتدريج بشرائها ، الحقيقي او الاسمي ، او بنقل ملكيتها له بطريقةاستبداديه . ومع ان هذه المقاطعات كانت تدار امورها من غير منافسة وكونها تصرف اليها العنايات الخاصة ويحافظ عليها (على حساب الدولة) كانت ادارتها في النتيجة متفوقة بكثير على ادارة الاراضي الحكومية . فان ابنيتها الحسنى ، ومجاريها المكراة ، وموظفيها المنتخبين الذي يعاملون بالحسنى ، وواردداتها الوفيرة كانت تدل بعض الدلالة على اي المتجهات كان يمكن ان يتجه اليها تحسين ادارة امور الاراضي بكمالها ، وبأية سهولة كان يمكن اجراء ذلك .

تأمل وحكم

هكذا كانت أحوال الوجه الاخير[1] من اوجه الحكم التركي في العراق . وقد اقتفى اثر هذا الحكم منذ ان فتح السلاطين العثمانيون العراق اول مرة واخذوه من يد ايران القوية في عهد الصفويين الاوائل ، وفي خلال قرن واحد من الحكم التركي الذي يحكم عليه من النتائج التي نتجتها حوادثه غير المدونة ، ومن تلك العهود التي تفشت فيها الخيانة واستفحل العنف وحلت سيطرة الايرانيين امدا قصيرا الى اليوم

---

(١) يقع البحث في القرن العشرين خارج بحثنا في هذا الكتاب . وقد عرف هذا القرن في العراق بوجه عام ببعض دوافع التقدم الناشئة عن اعلان دستور ١٩٠٨ م . فلم يكن في وسع عدد من الانظمة الجديدة التي ادخلت حينئذ ان تحسن من شخصيات طبقة الموظفين . فان زوال شخصية عبدالحميد وماكنة الدعاية التي كان يسيرها كان لها النتائج السيئة في ارخاء عرا الولاء لعرشه . وكانت النتائج المباشرة لاعلان الدستور انتقال ملكية اراضي السلطان الى الدولة ، وتمادي الانحطاط في بواخر الشركة الحميدية ، وتشتت شمل الكتائب الحميدية ، وادخال الجاندرمة المحسنة وشرطة البلدان . فبدأ مفعول اصلاحات ليمان فون ساندرز العسكرية . وبديء بخط سكة حديد سامرا ـ بغداد في ١٩١٢ م فأنجز العمل فيه في ١٩١٤ م . وكانت لجنة حدود ايرانية اخرى تمسح الحدود في ١٩١٣ ـ ١٤ . واحتلت نجد ثم اخليت . وتقدم أمر اسكان القبائل باطراد ، عدا ما حدث من جفاف نهر الحلة من ١٩٠٣ م الى ١٩١٣ م فأخر سير هذه الحركة ، وقد أصلحت الحال فيه بعدئذ سدة الهندية . وتمادى شأن السعدونيين في الضعف والانحطاط ، كما تزايد انقسام الشمريين ، فكانت قضية اسكانهم شيئا فاشلا . وما برحت شؤون النقل والتحميل تهددها القبائل النازلة على الانهر والاهوار ، كما استمر الهماوند في ضحكهم على الحكومة في بازيان . وكانت اشهر شخصية في هذه السنين شخصية ناظم باشا والي الولايات الثلاث في ١٩١١ م عدة اشهر .

التاريخى المشهود الذى استعيد فيه العراق منهم ، ومن هناك خلال ستين سنة من الحكم الخامل الى حقبة طويلة نيفت على القرن الواحد كان العراق خلالها منشقا عن الامبراطورية تحت حكم حكام محليين صمدوا لصد الهجمات الخارجية العظيمة وتمكنوا من انشاء بلاط مستقل لهم تقريبا • وتلت سقوط هؤلاء مدة سبعين سنة اخرى كان العراق فى اثنائها ايالة اعتيادية من ايالات الامبراطورية التى تنتظر من الفوائد ما ينعم به عليها السلطان •

وليس عندنا من جديد نذكره عن الادارة التركية فى العراق او فى غيره من ممتلكات السلطان • فقد كانت نظرتنا التاريخية التى نظرناها الى العراق فى ١٩٠٠ - بعد اربعة قرون تقريبا من اول فتح تركى قامت به تركية وهى فى اوج قوتها وسطوتها - ترينا بايضاح كاف ما كابدته هذه البلاد الاسلامية الوسيعة الغنية وما ربحته • وفى الحقيقة ان تلك النظرة قد بينت انعدام التقدم ، فى هذه البلاد منذ عهد سليمان القانونى، فى الفكر او الروح ، وفى الثروة المالية والاساليب الحديثة • وانتهى القرن التاسع عشر والبلاد ما تزال متفسخة وفى حالة الوحشية والجهل وعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فلم تكن ، والحالة هذه ، لتختلف فى زمنها هذا كثيرا عما كانت عليه عند اول حلول القرن السادس عشر • كما ان حالتها المادية لم تكن بأحسن مما ذكرنا من حالاتها الاخرى • فقد بقيت مواردها ابكارا لم تلامس بالرغم مما كان يدل عليها تأريخها طول الاجيال الماضية وما كان يدل عليه وجه الارض فيها • وفى الوقت الذى ينتهى فيه الدور ، المبحوث عن تأريخه ، نجد ان واجب الحكومة الاساسى فى توجيه القبائل والمدن الى التقدم قد بدىء فيه بعد لاى • كما انها خابت تماما فى اوضح واجباتها التى كانت تحتم عليها ضمان حرية الرعية والمحافظة على حقوقها ، وكانت خيبتها فى هذه الناحية اكثر من خيبة اية حكومة من حكومات العصر التى كانت تسمى متمدنة • فقد خابت بالرغم من الاجيال الطويلة التى حكمت فيها العراق ، فمرت الامبراطورية خلالها بأدوار الرخاء والضنك ، وبالرغم من التقدم العظيم الذى كان يسرع خطاه فى الوقت نفسه فى اوربة والهند ، وبالرغم من المكافأة المادية التى كان يؤمل الحصول عليها بعد النجاح•

على ان الحكم القاسى على ما كان يعد جريمة مؤدية للاهمال المروع ، وعلى الرجعية الجموح الظاهرة يمكن ان يلطف تلطيفا ما ببعض الاعذار • فلم تصل اية امة

اسلامية فى التاريخ الحديث الى مصاف الامم فى الدرجة الاولى • واثبت العقل السلفى الذى فسرت بموجبه عقائد الديانة العظيمة انه غير مؤتلف مع روح التقدم كما يعرف معرفة اعتيادية • ولا غرو فان الجو الشرقى يظهر انه مفعم بالخمول ، وبفقدان الدافع الى التقدم مما يجب ان لا يغيب عن بال النقاد الذين يتصدون للبحث عن دولة من دول الشرق • فان تركية والعراق هما من البلاد الشرقية الاسـلامية ـ وليس ذلك ذنبا لهما ـ ، وان من يحكم عليهما بانصاف يجب ان يعتبر ، الى اقصى حد ، الفرق العظيم فى التقاليد والمظاهر والغاية التى ترمى اليها هاتان الكلمتان • وسيجد من اراد الحكم على وضع البلاد ، اذا تقرب اليها ، ان اللوم فى الاختلاف الفكرى المميت وفى النفور الشديد بين الاتراك ورعاياهم من الكرد والعرب لا يقع على الحكام وحدهم • لان هؤلاء الرعايا لم يبتعدوا عن الاخلاص والطاعة للاتراك لانهم اتراك ، وانما كان ذلك ابتعادا عن اية حكومة كانت تصطدم نظمها ونظمهم الخاصة وحريتهم المطلقة التى كانوا يحيون بموجبها طوال القرون السابقة • فان كل حكومة شيعية مثلا كانت تلاقى حتما بعداوات كردستان وشمالى العراق وكثير من اواسط العراق • كما ان كل حكومة سنية كانت لابد ان تلاقى معارضة المجتهدين فى كربلا والنجف وذلك علاوة على معارضة القبائل الشيعية • وكان فى امكان كل حكومة ، وان كانت عادلة وشريفة ، ان تجد بسط المعدلة لم يكن مفيدا فى كل مكان ، وانه كان يقاوم كلما كان خفيف الوطأة ومرشدا للطريق السـوى ، كما كان فى وسعها ان تجد ان الضغط على اناس (وهو الضرورى لحرية الجميع) واجب من الواجبـات التى يلتجأ اليها دائما ويسخط عليها دوما • والخلاصة ان مشاكل الحكم فى العراق كانت شاقة على كل من يقع هذا الواجب على عاتقه كما وجدها غير الاتراك ايضا ، وسوف يجدها الحكام كذلك فى المستقبل •

ان بعد هذه الولايات عن قلب تركية قد ينتج لها عواقب خاصة • فقد عرض ذلك العراق للكوارث التى صبتها عليه امبراطورية الشاه ووقع فريسة لها مرة من قبل ، بعدما قاومها مقاومة نبيلة • وربما كان فى الضغط الدائم ، الذى كان يوجهه جار مخطر كهذا على بلاد بعيدة مثل هذا البعد عن المساعدة الامبراطورية ، بعض العذر للاتراك مما يسوغ العناية القليلة التى كانوا يولونها الاحوال الداخلية فى هذه البلاد • ويعزى لهذا البعد ، بدرجة كبيرة ، استقلال الباشوات المماليك مدة طويلة من الزمن ، تلك المدة

التى لم تكن الحكومة العثمانية تلام فيها الا قليلا على المجهود القليل الذى بذلته خلالها لمساندة الولاية المنفصلة ، وعلى تقصيرها فى تعهدها والحدب عليها . وعلى هذا فقد اصبح العراق ، من جديد ، لا تركيا ولا مغريا للاتراك . ولم يجذب الى نفسه ، فى القرون الاولى من الحكم ، الا القليل من الاتراك النازحين لينزلوا فيه ويستغلوا اراضيه بالضمان « الالتزام » ، كما ظل فى القرون المتأخرة يحكمه الموظفون الاتراك الذين يعدون فى الدرجة الثانية لانه لم يرغب احد فى الخدمة عن طيبة خاطر فى بلاد تبعد هذا البعد عن وطنه . ولذلك لم يصل الى العراق من استانبول سوى الموظفين المنحطين الا من شذ وند ، ولكن لم يتفوق الموظفون المحليون على مثل هؤلاء . وعلى هذا كانت الخدمات الحكومية فى هذه الولاية ، بشتى فروعها ، بعيدة عمن كان قريبا من العاصمة .

واخيرا نقول لا يمكننا الحكم على اخطاء الحكم التركى فى العراق من دون الاشارة الى احداث الامبراطورية المركزية . فان انشغال اولى الامر فى المقر الاعظم بالدفاع عن الامبراطورية كان يلهى العاصمة عن ان تصرف العناية الكافية للممتلكات النائية ، ثم ان حاجة الحكومة المركزية الدائمة للمال والرجال كانت تستنزف هذه الممتلكات . ولذلك كانت الامبراطورية وهى فى دور الانحطاط ، ومهددة من مسافة قريبة بالانقراض معذورة فى كثير من تقصيرها . وبالرغم من ذلك كله ، كان الجيل الاخير من الحكم العثمانى فى العراق قد ظهرت فيه علامات التحسن بالنسبة للقرون السابقة ، وبذلك كان يؤمل منه شىء من التقدم الذى يأتلف مع الخلق التركى .

على ان جميع هذه الاعذار الملطفة لا يمكنها ان تحجب عن العين ان العثمانيين بعد ان فتحوا ممتلكات الدولة الكلدانية والآثورية التى اشتهرت خصوبتها فى التاريخ ، مرة وثانية ، وبعد ان تمسكوا بها مدة قرون اربعة باسم السلطان تركوها ، ولا تزال متأخرة جاهلة ، وظلت فقيرة غير مستثمرة ، تعمها الفوضوية وهى ساخطة على حكامها ، ولم توجه الى اى طريق من طرق التقدم . ولم يجد السياح فى اى ولاية تركية ، غير الولايات العراقية ، بلادا تكثر فيها القابليات الكامنة التى ظلت مهملة ، كما انهم لم يجدوا فى غيرها سوء الحكم وهو آسن لا يتبدل .

وان الاتراك ، الذين وهب لهم المزايا العسكرية البارزة والسجايا الاجتماعية الجذابة ، كانوا يلعنون كحكام بالمفهومة الحكومية التى تركها سموهم وانحطاطهم غير

متبدلة . وان الجمل والاسماء المستعارة من اوربة قد حجبت ، بدلا من ان تعدل ، مبدأهم الحكومي الدال على ان حكم الرعايا يجب ان يستهدف مجد الحاكم ومنفعته ليس الا . وبات يحكم بموجب هذا السلطان ، او الباشوات المستقلون ، او طبقة الموظفين القليلة ، او العسكريون المجازفون في بعض الاحيان ، وبذا ظل الملايين من الرعايا جائعين خائفين . وفوق جميع الاسباب الوقتية او المحلية ، كان سوء الحكم الطويل الامد في العراق ، الذي درسناه حتى الآن ، مسببا عن فقدان النية في الحكم الصالح . ولم يعترف الاتراك في اعمالهم - بالرغم من اعترافهم كتابيا - بأن العدل هو الذي يجب ان يستهدفه القضاة ، وان الواردات ما هي الا واسطة لاسعاد من يدفعها ، وان ضمان حقوق الضعفاء واكثرية السكان هو الغاية التي يجب ان تستهدفها الحكومة .

الملحق الاول

مراجع الكتاب

استخرج هذا التاريخ من المؤلفات المخطوطة المطبوعة التى كتبها المؤلفون العرب والاتراك ، ومن مدونات السياح الاوربيين وغيرهم ، ومن مختلف التواريخ والرسالات التى تبحث عن العراق وحده او عن جارتيه العظيمتين ، ومن سجلات شركة الهند الشرقية ، ومن التحقيقات المحلية التى قام بها المؤلف • وليس فى المراجع المذكورة مرجع تسيطر رواياته على الحوادث قط • فان كتابات السياح متقطعة ولا تدل الا على انطباعات عابرة ، وتغرق معظم المراجع الاخرى بتفصيل خاص بدلا من ان تؤلف قاعدة صحيحة فى التاريخ • وقد بحث المؤرخون حتى المؤلفون الشرقيون عن ادوار محدودة ولا يمكن الاعتماد عليها الا بعد التوفيق بين مختلفها ، وهم لا يخرجون عن كونهم اما مؤرخين رسميين لتركية (لا يطرقون بحث العراق الا اذا كان يعانى حصارا او ثورة تهم الامبراطورية) واما كتابا عراقيين ينحصر همهم فى الكتابة فى تاريخ ولايتهم • والمراجع فى كثير من الاحيان غير معروفة فى اوربة ، وفى احيان اخرى تكون منسية او لم يرجع لها من قبل بكونها مادة تاريخية ، وفى غيرها من الاحيان لا يمكن لاحد ان يحصل عليها الا المستشرقون •

وتقسم المراجع فى هذا الملحق الى مجموعات مختلفة كما يلى :ـ

١ ـ تواريخ قديمة (شرقية) تبحث عن العراق فى هذه القرون •

٢ ـ تقييدات السياح •

٣ ـ سجلات شركة الهند الشرقية •

٤ ـ التواريخ العامة للبلاد المجاورة للعراق •

٥ ـ رسالات مختلفة فى العراق والبلاد المجاورة له ايضا •

٦ ـ تحقيقات محلية •

التواريخ الباحثة عن العراق فى هذه الحقبة او فى قسم منها

كلشن خلفاء : وقد كتب بالتركية فى سنة ١١٠٠ للهجرة كتبه مرتضى افندى نظمى زاده • ويشمل البحث عن المدة التى تبدأ بتأسيس بغداد وتنتهى فى سنة ١١٣٠

الهجرية (١٧١٧ - ١٨) . وقد طبع فى استانبول فى آب ١٧٣٠ . على ان النسخ المطبوعة اندر من النسخ المخطوطة ، فمنها اربع فى دار كتب المتحفة البريطانية . وهذا المرجع مفيد جدا للبحث عن المدة التى من ١٦٣٨ حتى ١٧١٧ .

حديقة الوزراء : وهو تاريخ مخطوط بالعربية فى تاريخ حسن باشا واحمد باشا كتبه الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ عبدالله السويدى . ولم ير المؤلف نسخة منه ، وانما استعمل نسخة كتبها سليمان افندى الدخيل على نسخة وجدها فى خزانة كتب حكمةالله بن عصمةالله افندى فى استانبول .

دوحة الوزراء : وهـــذا مع كتاب «كلشن خلفاء » أهم المصادر المذكورة على الاطلاق ، ومؤلفه هو رسول حاوى افندى الكركوكى . ونسخه المخطوطة نادرة ، كما ان نسخه المطبوعة اندر . وهو مكتوب بتركية منمقة ، وقد طبعه بأمر من داود باشا فى بغداد سنة ١٢٤٦ الهجرية (١٨٣٠) مرزا محمد باقر التفليسى . والكاتب رزين (لكنه متحيز) بذكر الحوادث التى شهدها . ويبحث عن المدة التى بين ١٧١٨ و ١٨٢١ . وقد استعار المؤلف للمراجعة من حمدى بك بابان نسخة مطبوعة واخرى خطية من شكرى افندى الفضلى .

مطالع السعود : كتبه بالعربية امين بن حسن الحلوانى المدينى ، وقد طبع على الحجر فى بومبى سنة ١٣٠٣ الهجرية (١٨٨٥) . وهو اختصار لكتاب غير مطبوع كتبه الشيخ عثمان بن سند البصرى . ويبدأ الكتاب الاصلى بسنة ١١٨٨ الهجرية (١٧٧٤) ، وهى سنة ولادة داود باشا ، ويقف فى ١٢٤٢ الهجرية (١٨٢٦) ، ثم يتابع كتابته امين بن حسن الى ١٨٣١ .

زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر : وهو بحث مختصر بالعربيـة عن الحوادث الاخيرة فى ايام حسين باشا فى البصرة (١٦٤٥ - ٦٥) ، وقد كتبه الشيخ فتحالله بن علوان الكعبى . كان يوجد مخطوطا وقد استعمل المؤلف النسخة المخطوطة ، الا انه طبع فى بغداد فى ١٩٢٤ .

حروب الايرانيين : كتبه سليمان بك بن الحاج طالب كهية . ولا يوجد منه الا نسخة خطية بالتركية لا يعرف المؤلف غيرها ، وقد استعارها من حمدى بك بابان .

وكتب حوالى ١٨٨٠ م فى بغداد ، وهو يشمل ببحثه المدة التى بين ١٧٢١ م و١٧٤٦ م . وقد اعتمد الكاتب على الكتاب الرسميين الاتراك وعلى دوحة الوزراء وعلى جهانكشاى نادرى ومؤلفه المرزا مهدى وعلى معلومات خاصة . وقيمة الكتاب قائمة بمعلومات المؤلف الخاصة ولو كانت لا تعد من الصنف الاول .

بغداد كوله‌من حكومتنك تشكيليله انقراضنه دائر رساله: وهو كتيب مطبوع بالتركية فى استانبول سنة ١٨٧٥ م كتب عليه ان مؤلفه « ثابت » الا انه فى الحقيقة قد كتبه سليمان بك بن الحاج طالب كهيه وقد فضل ان يضع عليه اسما مستعارا ، ويشمل المدة بين ١٧٤٩ و١٨٣٦ . وتوجد منه ثلاث او اربع نسخ فى بغداد وتوجد ايضا نسخة او اكثر فى مصر وربما يوجد منه فى استانبول . وهذا مرجع يعتمد عليه بالرغم من احتوائه على التحيز الطبيعى لاسرة المؤلف ، فان الحاج طالب كان كهية داود باشا وهو من المماليك المعتقين .

مرآة الزوراء : للمؤلف المذكور نفسه ولا توجد منه الا نسخة خطية غير كاملة. وهذا يشمل ، عدا المدة التى يشملها الكتاب السابق ، البحث عن السنين السبع الاولى من عهد على رضا باشا . ويقال ان النسخة الكاملة فقدت عند نفى المؤلف . والنسخة التى وجدها مؤلف هذا الكتاب هى مفسخة غير كاملة ، وهى لحمدى بك بابان ويظهر انها نسخت بعدة ايد ، ويعتمد عليها كثيرا .

غاية المرام : وهذا كتاب مخطوط ألفه ياسين العمرى[1] بن خيرالله العمرى الخطيب الموصلى . وفى هذا الكتاب معلومات جغرافية ونسبية وسيرية كثيرة عدا ما فيه من تاريخ بغداد الذى يعد البحث عن مدة الخمسين سنة الاخيرة (المنتهية فى ١٨٠٥ م) (١٢٢٠ هـ) منه مبتكرا ومهما .

---

(١) قال مصطفى جواد : ولياسين العمرى كتاب آخر فى الموضوع اسمه « الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون » ابتدأ به التاريخ من السنة الاولى للهجرة المباركة وانهاه بسنة ١٢١٨ . وقد نقلنا عنه اشياء ، ومنه نسخة بدار الكتب الوطنية بباريس رقمها « ٤٩٤٩ عربيات » قال فى اولها : « وقد رفعته الى حضرة الوزير الكبير الشهم الخطير ... حضرة افندينا المعظم على باشا ... » وفيه الغث والسمين وفى تاريخ العصور الاولى كثير من الغثاثة .
وله كتب تراجم اخرى لا محل لذكرها هنا .

غرائب الاثر: كتاب مخطوط للمؤلف المذكور نفسه ، مكتوب بالعربية ، يكرر فيه البحث عما كتب فى كتابه الاول بطريقة مختلفة ، لكنه يضيف اليها بحثا مفصلا شافيا عن ١٨٠٥ - ١٨١١ م . وبهذا الكتاب تنتهى قائمة أهم المراجع . اما المراجع التالية فهى اقل أهمية منها بكثير :

زبدة التواريخ: لمؤلفه عبدالواحد بن الشيخ عبدالله باش اعيان . والكتاب لا يزال مخطوطا بست عشرة مجلدة عربيـة وهو فى خزانة كتب الشيخ احمـد باش اعيان . ويشمـل الكتاب البحث عن الخلافات جميعهـا وكذلك تاريخ البصرة الاخير . وفيه امعانات طويلة فى التاريخ التركى العام وتاريخ الحجاز .

تقويم ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥ الهجرية: وهو مكتوب بالتركية كتبه حسن توفيق افندى «مكتوبجى» الولاية . واحسن ما دون فيه حصار نادر شاه للموصل فى ١٧٤٣ م، وكذلك عهد الاينجه بيرقدار (١٨٣٥ - ٤٣) . وفيه قائمة كاملة باسماء باشوات الموصل منذ سنة ١٠٠٠ الهجرية .

تاريخ الموصل: لمؤلفه سليمان الصائغ وقد طبع فى مصر فى ١٩٢٤ م . ولم يضف هذا شيئا الى ما هو مدون فى الكتاب قبله . والحقيقة ان الكتابين يستقيان بكل امانة من كتاب عربى لم ير مؤلف هذا الكتاب نسخته الاصلية يسمى « منهل الاولياء » لمحمد امين افندى العمرى .

تقويم ولاية البصرة لسنة ١٣٢٢ الهجرية (١٩٠٤): كتب بالتركية وفيه قائمة لولاة بغداد مع مدد حكمهم بالضبط منذ ١٦٣٩ .

خلاصة تاريخ العراق: للاب انستاس (طبع البصرة ١٩١٩) يبحث عن المدة التى يبحث فيها هذا الكتاب بصفحات قليلة .

كتابات السياح

نذكر فيما يلى السياح الذين قصدوا العراق وما كتبوه مرتبا بحسب السنين التى زاروا فيها البلاد :

١٥٥٣ م سيدى على ريس - رحلات وتطوحات الاميرال التركى سيدى على ريس (لندن ، لوزاك ، ١٨٩٩) . ترجمه من التركية فامبرى . واسم الكتاب الاصلى

« مرآة الممالك » ، وقد نشرته مكتبة الاقدام باستانبول فى ١٣١٣ الهجرية . وكانت رحلته من حلب ـ فالموصل ـ فبغداد ـ فالفرات ـ فالبصرة ـ فهرمز .

١٥٥٣ ـ ٥٤ آنون ـ لا يعرف عنوان الكتاب ـ كتاب مخطوط فى ١٥٥٣ . وهذا سائح برتغالى كانت رحلته من سورية ـ فالعراق ـ فالبصرة .

١٥٥٥ انطونيو تينريرو ـ كتب بالبرتغالية فى وصف هرمز ـ فالخليج ـ فايران وقد طبع فى لشبونة سنة ١٨٢٩ م .

١٥٦٣ سيزار فردريجى ـ « رحلات » ، وهذا تاجر بندقى كتب رحلاته بالايطالية فى ذكر حلب ـ فالعراق ـ فالبصرة .

١٥٧٥ الدكتور ليونارد راوولف ـ مجموعة رحلات وسياحات مؤنسة (١٢ مجلدا) ـ كتبها جون رى (لندن ١٦٩٣ م) . وهذا طبيب المانى وتاجر كتب بالالمانية وصف حلب ـ فالفلوجة ـ فبغداد ـ فكركوك ـ فالموصل ـ فالاناضول .

١٥٧٩ غاصبارو بالبى ـ وهو جوهرى بندقى كتب بالايطاليـة فى وصف حلب ـ فالفلوجة ـ فبغداد ـ فالبصرة .

١٥٨١ جون نيوبرى ـ وهو تاجر لندنى كتب فى سورية ـ فبغداد ـ فهرمز .

١٥٨٩ السر أنطونى شيرلى ـ نشر الكتاب بعنوان « الاخوة الثلاثة » ، وهم السر انتونى والسر روبرت والسر شيرلى . وهذا متطوح انكليزى عرف مؤخرا فى بلاط ايران . كان طريق سفرته : حلب ـ فالفرات ـ فبغداد ـ فقزوين .

١٦٠٤ بيدرو تيكسيرا ـ وهو سائح برتغالى كانت رحلته وصفا للخليج ـ فالبصرة ـ فالمدن المقدسة ـ فبغداد ـ فعانة .

١٦١٥ بيترو ديلافال ـ (باريس ، ١٦٦٣ ، ٤ مجلدات) وهو ارستقراطى رومانى . والجزء الاول والثانى فقط يبحثان عن العـراق ، والكتاب طريف جـدا .

١٦٢٥ الحاج خليفة ـ « جها نامة » (استانبول ١٢٤٥ للهجرة) وهو مؤلف وسائح تركى ، جاء للعراق مع خسرو باشا ، والكتاب طريف ملذ .

١٦٢٩ ر . ب . فيليب ـ « رحلة الشـرق » (ليـون ١٦٥٢) . من الكرمليين الافرنسيين ، وطريقه من حلب ـ فالفرات ـ فبغداد ـ فايران .

١٦٣٨ م • د • ثيفنو – « قصة رحلة في سواحل البحر الابيض » (باريس ١٦٦٥)• ان الصفحة ٥٦٩ فيها وصف شاهد عيان للاستيلاء على بغداد •

١٦٣٨ ج • ب • تافيرنييه – « الرحلات الست » في تركية وآسية (نقله الى الانكليزية ج • ب • لندن ١٦٨٧) والمؤلف نبيل افرنسي •

١٦٥٥ رحلات اوليا جلبي – (استانبول ١٣١٤) ، والمؤلف سائح تركي من رجال الحاشية • وهو يكتب في وصف ايران – فكردستان – فبغداد – فالبصرة •

١٦٦٣ الاب مانويل غودينهو – وهو يسوعي « جزويتي » برتغـالي كتب في ذكر البصرة – فبغداد – فعانة •

١٦٩٥ سور سيور دوفال – وهو رجل افرنسي كتب في صفة سورية – فعانة – فبغداد – فمندلي – فايران • (النسخة الخطية موجودة عند يعقوب أفندي سركيس ، بغـداد) •

١٧٢٠ دوري أفندي – « دوري أفندي سفارتنامه‌سي » وهو كتاب تركي مطبوع على الحجر غير مؤرخ . وقـد ترجمـه الى الافرنسـية المسيو بتي دلاكروا (باريس ١٨٢٠) • ودوري هو سفير تركي استسفر الى ايران في ١٧٢٠ ، وقد مر بالعراق •

١٧٢٦ « كشط الرداء وغسل الران في زيارة العراق » كتبه مصطفى بن كمال الدين بن علي الصدقي •

١٧٣٣ ج • نيكوديم – « رسالة الى المسيو دلاماركيز دفيلنوف » وهو الطبيب الافرنسي لطوبال عثمان ، وفيه وصف مسهب فيه لواقعة حزيران ١٩ ، ١٧٣٣ م •

١٧٣٦ عبدالكريم – « رحلة من الهنـد الى مكة » ترجمه الى الافرنسية لانكليه ، باريس ١٨٢٥ • والى الانكليـزية ف • كولدوين ، لنـدن ١٧٩٣ • كتب بالفارسية ، والكاتب من أهالي كشمير ومن مقربي نادرشاه • وكتب في وصف ايران – فبغداد – فالعتبات المقدسة – فكركوك – فالموصل •

١٧٣٦ م • أوتر – « رحلة في تركية وايران » (باريس ١٧٤٣) • والمؤلف طبيب ومختص بالآثار العاديات ، كتب في وصف سورية والجزيرة •

١٧٥٨ الدكتور ى. ايفز - « رحلة من ايران الى انكلترا » (لندن ١٧٧٣) ، وهو جراح الشركة . كتب فى البصرة - فالفرات - فبغداد - فكركوك - فالموصل - فماردين ، وهو طريف جدا .

١٧٦٥ س . نيبهر - « رحلة فى بلاد العرب وما جاورها » (امستردام ١٧٧٦) ، وهو عالم دانيماركى . وهذه ترجمة افرنسية للكتاب الباحث عن وصف البصرة - فالفرات - فبغداد - فكركوك - فالموصل - فماردين . وهو كتاب تاريخى أساسى .

١٧٦٨ جوزيف امين - « حياته وتطوحاته » (اعاد طبعه ايمى ابكار ، كلكتا ١٩١٨) ، طبع اولا فى لندن فى ١٧٩٢ . والمؤلف ارمنى متطوح . ولد فى همذان سنة ١٧٢٦ ، وشهد الحروب الايرانية فى ١٧٦٨ ، وكتب فى ذكر ارمينية - فبغداد - فالحلة - فالبصرة . وكتب فى ١٧٧٤ فى البصرة - فبغداد - فالبصرة .

١٧٧٤ ا . بارسنز - « رحلات فى آسية وافريقية » (لندن ١٨٠٨) . وهو قنصل فى الاسكندرونه ، كتب فى حلب - فبغداد - فالحلة - فحسكة - فالبصرة (حصار ١٧٧٥) .

١٧٨١ سيستينى - « رحلة من القسطنطينية الى البصرة » فى ١٧٨١ (باريس) . وهو عالم ايطالى كتب واصفا ديار بكر - فالموصل - فالبصرة . وكتب فى ١٧٨٢ فى البصرة - فالفرات - فبغداد - فكركوك - فالموصل .

١٧٩١ ج . ا . اوليفيه - « رحلات فى الامبراطورية العثمانية ومصر وايران » (باريس) - . وهو وكيل رسمى افرنسى كتب فى صفة ماردين - فالموصل - فكركوك - فبغداد - فالفرات - فالبصرة .

١٨٠٢ مرزا أبو طالب خان - « رحلاته فى آسية واوربة وافريقية » فى ١٧٩٩ - ١٨٠٣ (لندن ١٨١٠) . وهو رجل هندى كتب النسخة الاصلية باللغة الفارسية . وكتب فى وصف ماردين - فالموصل - فكركوك - فبغداد - فالعتبات المقدسة - فالبصرة . وفيه اغلاط سخيفة[1] .

---

(١) لم يذكر المؤلف شيئا من تلك الاغلاط ، ومع تلك الاغلاط نرى انه من خيرة السياح الذين يؤثرون الحقائق على المداجاة والمحاباة والموافقة . « م . ج »

١٨٠٧ محمد رافع - « سفارتنامه » (وهو سجل سفارته الى ايران فى سنة ١٢٢٢ للهجرة) استانبول ١٣٣٠ . وهو يستطرق الى البحث عن تاريخ عبدالرحمن باشا بابان .

١٨١٦ ج . س . بكينغهام - « رحلات فى آثور وميدية وايران » (لندن ١٨٣٠) .

١٨١٦ ج . س . بكينغهام - « رحلات فى بلاد ما بين النهرين » (لندن ١٨٢٧) الجزء الاول فى ديار بكر - فماردين ، الجزء الثانى فى الموصل - فكركوك - فبغداد - فبابل - فبغداد .

١٨١٧ و. هود - « رحلة فى الخليج الفارسى » (لندن ١٨١٩) ، كتب فى ذكر البصرة - فالفرات - فالغراف - فبغداد - فالموصل .

١٨٢٠ س. ج. ريج - « قصة مقيم فى كردستان » (لندن ١٨٣٦) . وهو المقيم البريطانى فى بغداد سنة ١٨٠٨ - ٢١ . وهذه قصة نزوله ضيفا على محمود باشا بابان فى السليمانية سنة ١٨٢٠ .

١٨٣٠ - ٣١ ج . ر . ويلستيد - « رحلات فى مدينة الخلفاء » (لندن ١٨٤٠) وهو من المتتمين للاسطول الهندى ، وكتب فى صفة البصرة - فالفرات - فبغداد - فالفلوجة - فحلب ، وهذا مهم ولاسيما فى أخبار طاعون ١٨٣١ .

١٨٣١ ج . ه . ستوكلر - « خمسة عشر شهرا من زيارة لخوزستان وايران » (لندن ١٨٣٢) . وهو صحفى وما كتبه مهم فى موضوع البصرة فقط .

١٨٣١ - ٣٦ ف . ر . جيزنى - « حملة مسح النهرين دجلة والفرات » (لندن ١٨٥٠) ، « قصة حملة الفرات » (لندن ١٨٦٨) .

١٨٣٤ - ٣٧ الدكتور ج . روس - « رحلة من بغداد الى أطلال اوبيس والجدار الميدى فى ١٨٣٤ » وهى تقييدات لرحلة من بغداد الى أطلال الحضر ، والكاتب هو طبيب المقيمية ، وفى كتابته معلومات فى أحوال القبائل .

١٨٣٤ ج. ب. فريزر « رحلات فى كردستان وما بين النهرين » (لندن ١٨٤٠) . وهو رجل مهنته الكتابة ، وقد كتب بهذا يصف اردلان - فشهرزور - فكفرى

- فبغداد - فالفرات - فايران من جديد . وكتب ايضا « مذكرة في الاحوال الحالية في باشوية بغداد » ، وكتبت هذه المذكرة لتقدم للحكومة البريطانية .

١٨٣٥ - ٣٦ ف . فونتانييه - « رحلة الى الهند والى الخليج الفارسى » (باريس ١٨٤٤). والكاتب قنصل افرنسى في البصرة كتب يصف البصرة - فبغداد - فالمحمرة . وفي هذا معلومات كثيرة لكنها غير منظمة متحامل فيها على الانكليز بشدة .

١٨٣٦ مدام هيلفر - « رحلات الدكتور والمدام هيلفر » ترجمها للانكليزية ج . ستورج لندن ١٨٧٨ . وهذان ألمانيان صحبا حملة جيزني .

١٨٣٦ الماجور راولنسن - « تقييدات لسفرة من زهاب في سفوح الزاغروز وعلى طول جبال خوزستان » . وهذه مهمة في وصف زهاب ولرستان والبختياريين .

١٨٣٧ ه . ب . لنج - « تقييدات في وصف قسم من دجلة بين بغداد وسامرا » . وهي مذكرات مساحية .

١٨٤٠ ى . ل . متفورد - « سفرة برية من انكلترا الى سيلان قبل اربعين سنة » (لندن ١٨٨٤) وفيه كتابة في ذكر الجزيرة - فماردين - فالموصل - فبغداد - فالحلة - فخانقين - فايران .

١٨٤٩ - ٥٠ و . ك . لوفتس - « رحلات وتنقيبات في بلاد الكلدان وسوسه » (لندن ١٨٥٧) . وهذا عضو من اعضاء اللجنة لتحديد الحدود سنة ١٨٤٩ . والكتابة في وصف الموصل - فبغداد - فالفرات الاوسط - فالبصرة - فعربستان .

١٨٧٨ الليدى آن بلنت « قبائل الفرات البدوية » (لندن ١٨٧٩) ، ثم « زيارة لنجد » (لندن ١٨٨١) . وهذا بحث عن شؤون بادية الشام ، وملاحظات دقيقة .

١٨٩٩ - ١٩٠٦ السر م . سايكس - « سفرة في ولايات خمس تركيه » (لندن ١٩٠٠) وهو في الفرات الاعلى والموصل وكردستان الوسطى . ثم « ارث الخلفاء الاخير » (لندن ١٩١٥) وهو في الجزيرة الشمالية والموصل وكردستان.

١٩٠٨ - ٩ ى . ب سون - « سفرة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان » ، (لندن ١٩١٢) .

١٩٠٩ المس بيل - من مراد الى مراد « اموراث الى اموراث » (لندن ١٩١١) ، وهو كتاب آثاري ووصفي .

١٩١٠ د . فريزر - « ايران وتركية في ثورة » (ادينبرغ ١٩١٠) .

١٩١٣ — ١٤ ج . ى . هبرد - « من الخليج الى ارارات » (ادنبرغ ١٩١٦) .

سجلات شركة الهند الشرقية

ان مجموعات الاخبار التي رجعنا اليها في هذا الكتاب هي : « الخلاصة » وفيها معلومات تختص بعلاقات شركة الهند الشرقية الاولى بالبلاد العربية الخاضعة لتركية . وهذه جمعت من دون ان يذكر عليها اى اسم وطبعت في ١٨٧٤ في « مطبعة دائرة الشؤون الخارجية » في كلكتا . وهذه تحتوى على فهرست للاعلام وعلى الخلاصة نفسها (ص ١ - ١٣٧) وعلى ملحقات خمسة . والمعلومات الحقيقية المطابقة للواقع التي يمكن ان تستخرج من مراسلات المقيمين والوكلاء في البصرة (واخيرا في بغداد) هي قليلة ، لكنها كثيرة التنوير والصحة .

ثم ان بعض الرسائل المدرجة في « خلاصة في الشؤون العربية والتركية » لكاتبها الهندي ج ١٠ . سالدانها (سيملا ١٩٠٦) مهمة في هذا الشأن .

التواريخ العامة للبلاد المجاورة

وهذه تكون موردا من موارد تاريخنا هذا على جانب كبير من الاهمية . فقد كان العراق منفصلا عن ايران وتركية بحدود غير دقيقة ومرتبطا بهما بالتعامل الدائم ، كما ان تركية التي نعدها هنا « بلادا مجاورة » لم تكن جارا فحسب بل كانت كلا كبيرا ليس العراق الا جزءا منه .

تواريخ تركية - ليس في هذه التواريخ ما يمكن ان يستند اليه تاريخنا هذا ، بوجه عام ، الا شيئا يسيرا ، نستثني من ذلك ما كتبه المؤرخون الرسميون الاتراك . ومن مثل هؤلاء ممن رجعنا اليهم نعيما (١٥٩٢ - ١٦٢٩) ، وراشد (١٦٦٠ - ١٧٢١) وما كتبه جلبي زاده مصطفى عاصم افندي تكملة له (١٧٢٢ - ٢٨) ، وصبحي (١٧٣٠ -٤٣) ، وعزى (١٧٤٤ - ٥٠) ، وواصف (١٧٥٠ - ٧٤) ، وشانيزاده (١٨٠٥ - ٢٠) .

والحوادث في هذه المراجع مسرودة بحسب ترتيب الوقائع وهي مفهرسة بصورة جيدة • والمؤرخون الاتراك الاصليون الآخرون الذين رجعنا اليهم هم السلطان سليمان نفسه ، وفردي وبشاوي وجلال زاده ، وذلك لتاريخ المدة نفسها • وكذلك رجعنا الى نوري وقره جلبي وعبدالعزيز فيما يختص بحملات السلطان مراد •

ان هـــذه المراجع (ومراجع اخرى غيرهـا لم يتوصل اليهـا المؤلف) تؤلف موردا عظيم الفائدة لتاريخ المدد التي كان يزج فيها العراق في حالة تضطر المؤرخين الى تدوين وقائعه • اما عن الحقب الاعتيادية وما فيها من علاقات بين مختلف الولايات واستانبول فان هذه المراجع لا قيمة لها ، وهي نادرا ما تذكر شيئا عن العراق في مثل هذه الاحوال • ومن المؤرخين الاتراك المتأخرين جودت باشا (استانبول ، ست مجلدات ، ١٣٠٢ للهجرة) ، وهو مهم فيما يختص بتاريخ ١٧٥٠ ـ ١٨٢٥ لانه استند الى مراجع اصلية قديمة لا يمكن التوصل اليها ، كما كان عنده شيء من الروح التاريخية الحديثة اكثر من الرواة القديمين •

اما مؤرخو تركية من الاوربيين الذين هم كثيرون فان اغلب كتاباتهم عن العراق لا تحتوي الا على اتفه الاخبار واكثرهـا تشويشا • فدراســة كتب نولز وريكو وكاتامير وعدة من الآخرين غيرهم ، فيما يختص بشؤون العراق ، لا يمكن ان يستخرج منها الا صفحة او بعضها • الا ان الملخصين المتأخرين لتاريخ الشؤون العثمانية مثل كريسي وخليل غانم ودلاجونكيير ولامارتين ولين بول وايفرسلي في امكانهم ان يجعلوا القاريء الاعتيادي لمؤلفاتهم يضع الشؤون العراقية في صلب التاريخ التركي • كما ان كتاب الرسالات في السنين القلائل الاخيرة مثل غيبونز وميلر وليبير يعطون من المعلومات عن المراجع ما يثير في المستطلع البحث والتنقيب • بيد انه يمكننا ان نقول بوجه عام ان دارس التاريخ العراقي يجب ان لا يرجع الى التواريخ الغربية لتركية • وليرجع الى الفون هامر وحده ـ والى جوركا بدرجة ادنى ـ بصورة دائمة للحصول على مجمل يشتمل على مراجع عظيمة الاهمية ، عن احوال العراق وشؤونه التاريخية ، من الصعب التوصل اليها من دون مراجعة هذا الجامع المدهش • وقد رجعنا ايضا الى الطبعة الافرنسية لكتاب ج• ج• هيلرت (باريس ١٨٤١ ، ١٨ مجلد) •

تواريخ ايران ـ ان التواريخ التي رجع اليها في هذا الشأن هي كتاب « تاريخ

ايران » لمؤلفه السر جون مالكولم (١٨٢٩) وكتاب ر. غ. واتسن (١٨٨٦) وكتاب السر بيرسى سايكس (الطبعة الثانية ١٩٢١) .

وسوف تذكر اشارات الى رسالات هانوى وبريجز وكروسينسكى ودوراند فى فصل المراجع التالية من هذا الملحق .

تواريخ بلاد العرب - ان التاريخ العام الوحيد الذى رجع اليه فى هذا الكتاب من اجل بلاد العرب هو كتاب د. غ. هوكارث (اوكسفورد ١٩٢٢) . وسوف يذكر عن أهم الرسالات فى تاريخ العرب فى المراجع التالية من الملحق هذا .

رسائل تختص بتاريخ العراق والبلاد المجاورة له

من الضرورى ان تذكر هنا المراجع التى رجعنا اليها فى هذا التاريخ فقط ، لان المراجع التى تختص بالموضوع بوجه عام والتى لها علاقة به كثيرة بحيث لا يمكن سردها . وسوف تذكر فيما يلى مرتبة بحسب البلاد التى تبحث عنها او الموضوع الذى لها علاقة به ، وبترتيب الزمن الذى كتبت فيه تقريبا .

العراق

« الحوادث السريانية المختصة بحصار الايرانيين للموصل » وهذه طبعة افرنسية وترجمة قام بها المسيو هـ. بينيون لنسخة سريانية خطية وجدت فى كنيسة تل قوش (ربما القوش) بالقرب من الموصل . وهى مكتوبة فى سنة ١٧٤٦ .

« قصة حصار نادر شاه للموصل » وهى نسخة خطية تركية (ذات رقم ٧٨٦٧ ومدرجة فى ص ٢٤٩ من الفهرس) من مجموعة المخطوطات التركية الموجودة فى المتحفة البريطانية ويظهر ان مؤلفها من رجال الحاج حسين الجليلى ، فقد اهديت اليه الرسالة .

« الفرات ودجلة » للمسيو انفيل (الجغرافى الاول للملك) باريس ١٧٧٩ وهذه جغرافية صرف وليس مبنية على تدقيق نظر شخصى .

« وصف باشوية بغداد » وهى رسالة خلو من اسم المؤلف (الا ان المفهوم من اشارات المؤلفين الآخرين انها منسوبة الى المسيو ج. ب روسو) باريس ١٨٠٩ وهى

وان كانت غير مرضية فانها تحتوي على عدة نقاط لم تبق محفوظة في غيرها . وكان كاتبها قنصلا لفرنسة في البصرة في حدود ١٧٨٠ ، وفي بغداد في ١٧٩٦ - ٩٨ .

« بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان » لمؤلفه محمود بن عثمان الرحبي . وهذه الرسالة في اربعة اجزاء يبحث الجزء الرابع منها عن تاريخ سليمان باشا في البصرة . وهي مخطوطة مرقمة ٣٨٥ ومذكورة في (ص ١٤٧) من فهرس الكتب الشرقية المطبوع في (١٨٤٦) .

« الدرر[١] الفاخرة في اخبار العرب الاواخر » لكاتبها محمد بسام التميني (قد تكون التميمي) ، وفيها بحث عن قبائل العراق الحديثة جمع للمستر ريج في سنة ١٨١٨ . وهذه مخطوطة مرقمة برقم ٣٤٢ في المجموعة السابقة .

« تقييدات في ذكر المحمرة وعرب كعب » لكاتبها الكولونيل هـ.س. راولينسن . وهي مطبوعة في مذكرات الجمعية الجغرافية الملكية في الهند ١٨٥٥ - ٥٧ .

« تقييدات في طريق وادي الفرات الى الهند » لندن ١٨٥٧ كتبها و.ب. اندرو .

« عنوان المجد في احوال بغداد والبصرة ونجد » لمؤلفه السيد ابراهيم فصيح (الحيدري) : وهي قصة وصفية جغرافية تاريخية احصائية نسبية في ذكر البصرة وبغداد ونجد . وهي مخطوطة عربية اكملت كتابتها في سنة ١٢٥٦ للهجرة (١٨٣٦ م) . وأهميتها ، غير العظيمة ، في ذكرها انساب العوائل العراقية الشهيرة .

« ولاية بغداد » للمسيو شيها (القاهرة ١٩٠٠) وهو ما كتبه ايطالي اقام طويلا في العراق ، وفيه فصل تاريخي . وأهم ما فيه ما يذكر عن منتصف القرن التاسع عشر واواخره .

« تاريخ بغداد في العصر الحديث » للمسيو كليمان هوار (باريس ، لورو ، ١٩٠١) . وهو تلخيص للكتب الثلاثة الشهيرة التي أشرنا اليها اعلاه وهي كتاب كلشن خلفا ومطالع السعود وكتاب ثابت . ويستوعب بحثه المدة التي من ١٢٥٨ م الى ١٨٣١ م .

« سيرة مدحت باشا » لمؤلفه علي حيدر مدحت (لندن ١٩٠٣) .

---

(١) نظام السجع يقتضي ان الاسم هو « الدر الفاخر في اخبار العرب الاواخر » . م. ج.

بلاد العرب

توجد فى « قائمة المخطوطات العربية » للمستر ى. غ. براونى من جامعة كمبرج اشارة الى « رسائل مختلفة » (برقم ٥٠١ ص ٣٤٣) تبحث فى « الاصطدام بين الاتراك والوهابيين بالقرب من بغداد فى ايلول ١٨٠٩ » .

« تقييدات فى اخبار الوهابيين » للمسيو ج. ب. روسو ، وهو كتاب وصفى مهم.

« تاريخ الوهابيين » للمسيو ل. ا. كورانسيز (باريس ١٨١٠) .

« مذكرات عن البدو والوهابيين » للمستر ج. ج. بورخارت (لندن ١٨٣١) .

« تاريخ مختصر للوهابيين » للسر هـ. ج بريجز ، وهو المجلد الثانى من كتابه « وقائع بعثة صاحب الجلالة الى البلاط الايرانى » (لندن ١٨٣٤) .

« رحلات فى الجزيرة العربية » للمستر س. م. دوتى وهذا كتاب خالد مشهور يبحث عن احوال بلاد العرب (كمبرج ١٨٨٨) .

« عنوان المجد فى تاريخ نجد » لمؤلفه عثمان بن عبدالله ومنقحه محمد بن عبدالعزيز المانع النجدى وسليمان الدخيل ، وهو مطبوع فى مطبعة الشابندر ببغداد سنة ١٣٢٧ للهجرة (١٩٠٩ م) .

ايران

« تاريخ عالم آراى عباسى » لمؤلفه اسكندر بك تركمان (من طبع طهران بالحجر سنة ١٣١٤ للهجرة) ، وهو مهم فى بحثه عن تاريخ الشاه عباس وعلاقته الموصولة ببغداد .

« تاريخ ثورة ايران » للاب كروسنسكى (ترجمه الاب دى سيركو ، لندن ، بجزئين ، ١٧٢٨) ، وهو من المراجع الجيدة فى استيلاء الافغان ونتائجه .

« جهان كشاى نادرى » للمرزا مهدى خان سكرتير نادر شاه الاول ، وهو تاريخ كامل لحملات هذا الفاتح على العراق . وقد لخصه وليم جونز فى كتابه « سيرة نادر شاه ملك ايران » (لندن ١٧٧٣) .

« سلالة القاجاريين » للمستر هـ ج. بريجز (لندن ١٨٣٤) .

« نادر شاه » للمستر هـ م. دوراند (لندن ١٩٠٨) .

كردستان :

« الشرفنامه » ، وتوجد منها عدة طبعات شرقية وكثير من النسخ المخطوطة .

الخليج الفارسي :

ان المراجع التالية تبحث في شؤون الاوربيين في الخليج :

ترجمة ج. ستيفن (لندن ، ٣ ج ، ١٨٩٤) لما كتبه مانويل فارياكسي سوسا ، وهذا يصل بتاريخ البرتغاليين الى ١٦٤٠ .

« البرتغاليون في الهند » (لندن ، ٢ ج ، ١٨٩٤) للمستر دنفر ، « تعاظم السطوة البرتغالية في الهند » للمستر وايتوى (لندن ١٨٩٩) ، « البرتغاليون في بلاد العرب الشرقية » للمستر س. ب مايلز ، « البرتغاليون والترك في المحيط الهندي في القرن السادس عشر » (مجلة الجمعية الآسيوية الوسطى الملكية ، كانون الثاني ١٩٢١) ، « شروح الفونسو دالبوكرك » (جمعية هالكيوت في لندن ١٨٧٥ ، ٤ مجلدات) للمستر و. غ. برج ، « رحلات تكسيرا » ، « بحث جديد عن الهند الشرقية وايران » ١٦٧٢ - ١٦٨١ (لندن ١٦٨٨) للدكتور فراير ، « رحلات بعض السنين في آسية وافريقية » (لندن ١٦٣٨) للسر ت. هربرت ، « سفارة السر توماس رو » (لندن ١٨٩٩) ، « تاريخ الاسطول الهندي » (لندن ، ٢ مجلد ، ١٨٧٧) للمستر س. ر. لو ، « المعامل الانكليزية في الهند » (لندن ، ٢ مجلد ، ١٩٠٦) ، « وقائع شركة الهند الشرقية » (لندن ، ٣ مجلد ، ١٨١٠) للمستر ج. بروس .

التحقيقات المحلية

من المستحيل ان يكون المرء مدققا في هذا المورد من موارد التاريخ . وان المؤلف ليشعر بنفسه بانه استفاد في معلوماته في احوال العراق وجغرافيته فوائد خلال اشتغاله مدة تزيد على ثماني سنوات في اشغال سياسية وادارية في العراق . وهو مدين ، في محادثاته التي لا عد لها عن التاريخ القبائلي والاجتماعي والمالي ، لكثير من اصدقائه العراقيين . وفي كثير من المعلومات المذكورة في الكتاب تعضد المؤلف شهادة من هم من نسل القبيلة او الاسرة المقصودة بالبحث ، وذلك مرجع غير خال من الخطر ، الا انه فريد في بابه ولا يمكن احلال شيء محله .

الملحق الثاني

نسب بعض الاسر



اسرة حسن باشا

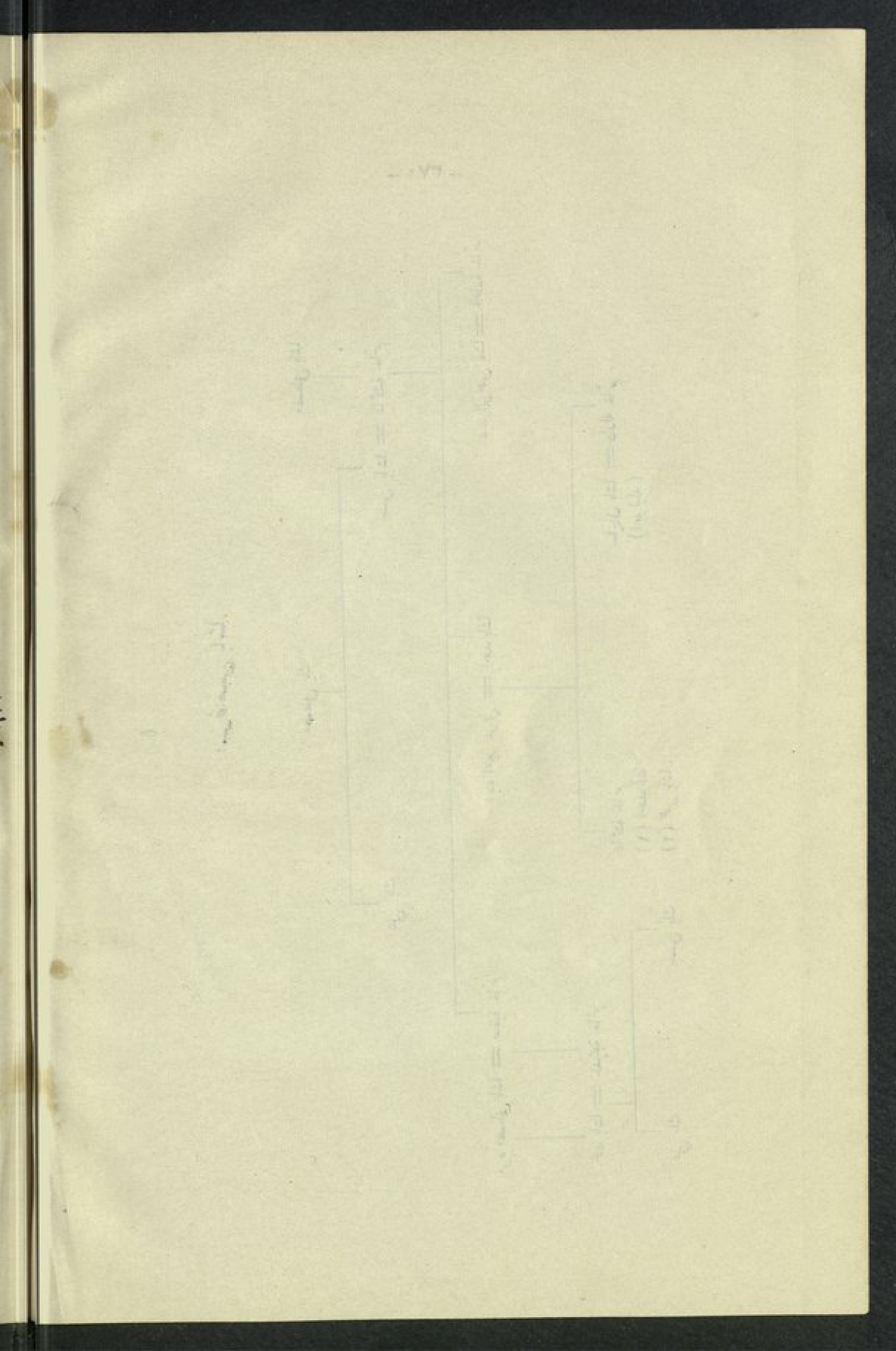
مصطفى بك — مصطفى باشا

علي بك — حسن باشا = عائشة خانم

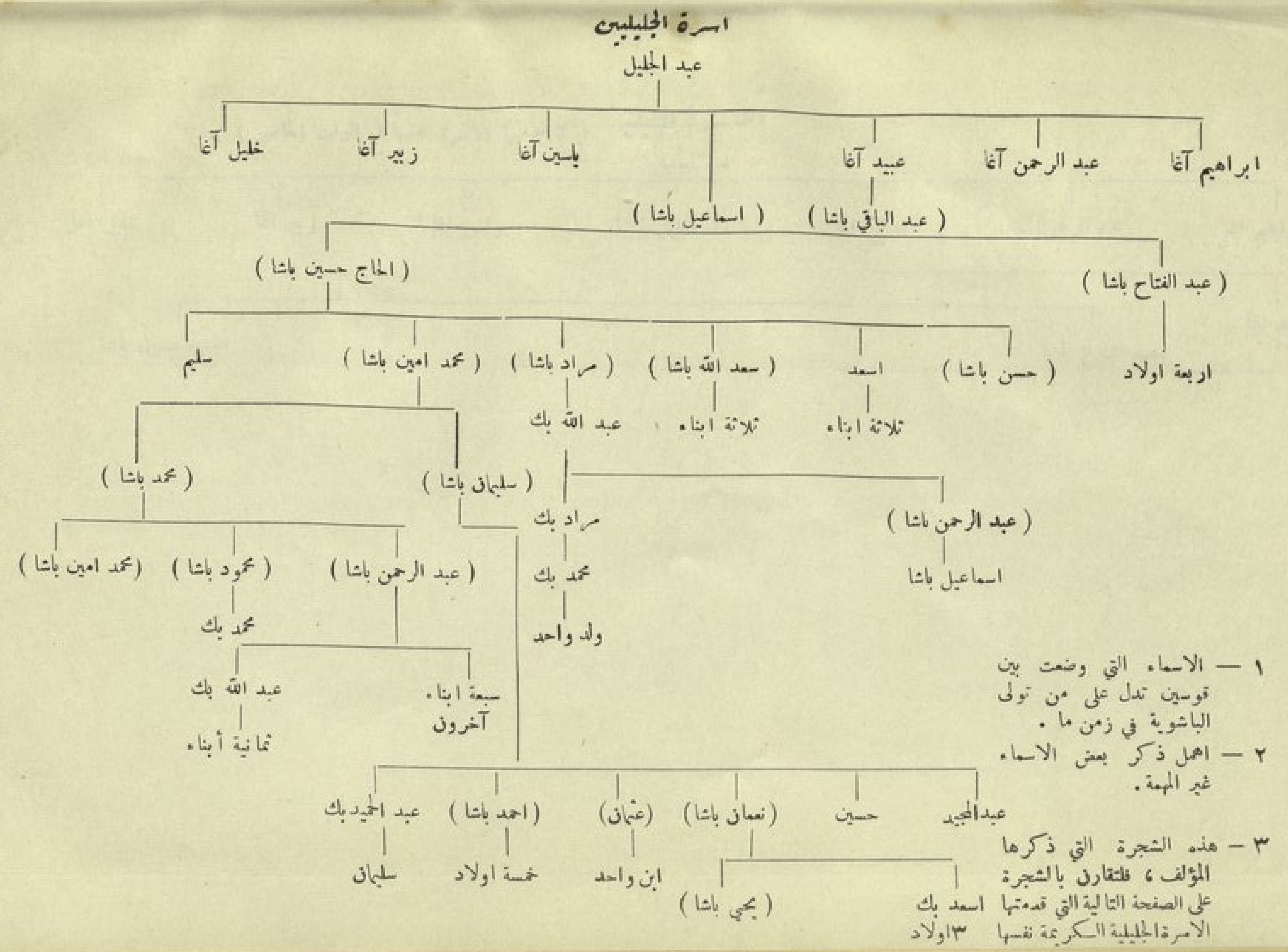
قره مصطفى باشا = صفية خانم — ابنة امير عربي = احمد باشا — عبد الرحمن باشا = فطمة خانم

محمد باشا = خديجة خانم — عائشة خانم (١) احمد آغا (٢) عمر باشا — سليمان باشا = عادلة خانم (ابوليله)

علي بك — حسن بك



اسرة الجليليين



١ — الاسماء التي وضعت بين قوسين تدل على من تولى الباشوية في زمن ما .

٢ — اهمل ذكر بعض الاسماء غير المهمة .

٣ — هذه الشجرة التي ذكرها المؤلف ، فلتقارن بالشجرة على الصفحة التالية التي قدمتها الاسرة الجليلية الكريمة نفسها

الاسرة الجابلية (كما قدمتها الاسرة نفسها في الوقت الحاضر)

عبد الجليل

ابراهيم اغا — عبد الرحمن اغا — صالح اغا — اسماعيل باشا — يونس اغا — زبير اغا — خليل اغا

صالح اغا: عبيد اغا — عبد الباقي باشا

اسماعيل باشا: عبد الفتاح باشا (اربعة اولاد) — الحاج حسين باشا

الحاج حسين باشا: مراد باشا — حسن باشا — اسعد بك (ثلاثة اولاد) — سعدالله باشا (ثلاثة اولاد) — الغازي محمد امين باشا — سليم بك

مراد باشا: عبدالله بك

الغازي محمد امين باشا: سليمان باشا — محمد باشا

عبدالله بك: مراد بك — عبد الرحمن باشا (ولدان)

مراد بك: محمد بك

محمد بك: اربعة اولاد — عبدالرحيم بك — عبدالله بك (اربعة سليمان بك)

عبدالرحيم بك: محمود بك (اربعة اولاد) — نشأة بك — بهجة بك (ولدان) — صفوة بك

سليمان باشا: عبد الحميد بك (سليمان بك) — حسن بك — نعمان باشا — الحاج عثمان بك — احمد باشا (خمسة اولاد) — عبدالحميد بك

نعمان باشا: اسعد بك (ثلاثة اولاد) — يحيى باشا

الحاج عثمان بك: محمد امين باشا — محمدسعيد بك

محمد امين باشا: ايوب بك — خليل بك

ايوب بك: الحاج امين بك — احمد بك

الحاج امين بك: عبدالرحمن بك — عبدالله بك — محمد بك — محمود بك — نعمان بك

احمد بك: عثمان بك — عبد الملك بك

محمدسعيد بك: صديق بك

صديق بك: سعيد بك — اسماعيل بك

سعيد بك: طاهر بك (محمد بك)

اسماعيل بك: محمدصديق بك — قيدار بك — ولدان

محمد باشا: محمود باشا — محمدامين بك

محمود باشا: عبدالرحمن باشا — محمد بك

عبدالرحمن باشا: سبعة اولاد — عبدالله بك — يونس بك

عبدالله بك: خمسة اولاد — توفيق بك — امين بك — عزيز بك — سليمان بك

توفيق بك: محمود بك (ولدان) — امين بك: سعيد بك — عزيز بك: ولدان

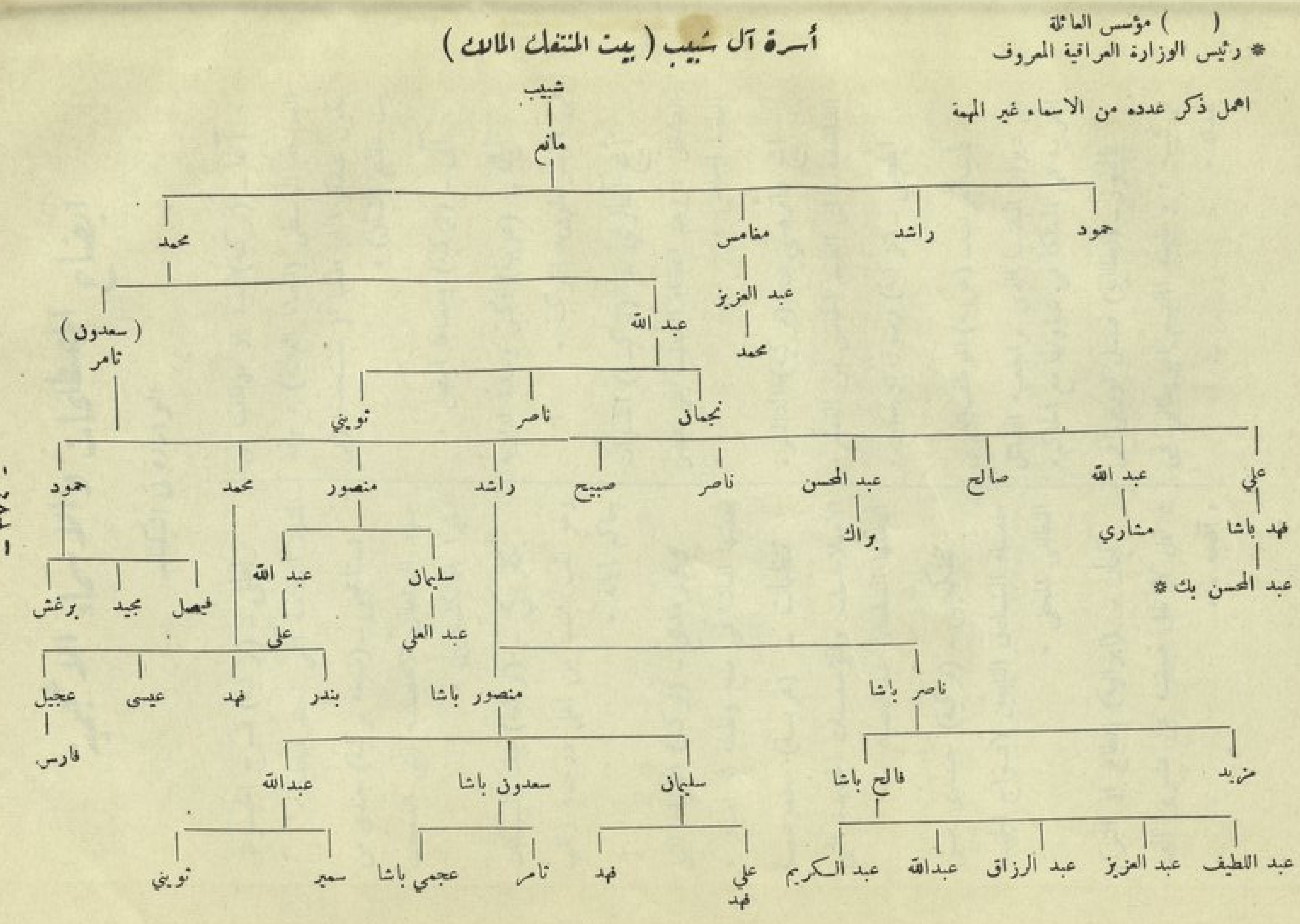
ملاحظة: ١ — حذفت بعض الاسماء غير المهمة .

٢ — تحوي اعضاء الاسرة حتى سنة ١٣٦٠ هـ

اسرة البابانيين

سليمان بك (الجيل الثاني او الثالث من احمد الفقيه)

- بكر بك
  - خالد باشا
    - سليمان باشا
      - محمود باشا
      - حسن بك
      - علي خان
    - محمد باشا
      - سليمان باشا
      - عبدالله باشا
      - عبد الرحمن باشا
        - حسين بك
        - يوسف بك
        - عثمان بك
        - عزيز بك
        - محمود باشا
        - سليمان باشا
          - عبد الله باشا
          - محمد باشا
            - حمدي بك
          - احمد باشا
            - خالد بك
      - سليم باشا
      - عثمان باشا
        - محمد باشا
    - محمود باشا
    - احمد باشا
      - خالد باشا
        - محمد باشا
          - حسين بك
            - حمدي باشا
            - اولاد آخرون
            - مصطفى ذهني باشا
      - عبد العزيز بك
      - ابراهيم باشا
        - سليمان باشا
          - قادر باشا
            - مجيد باشا
              - جميل بك
  - سليم باشا
- خانه بك
  - علي باشا
  - محمد باشا


أسرة آل شبيب (بيت المنتفك المالك)
(   ) مؤسس العائلة
* رئيس الوزارة العراقية المعروف
اهمل ذكر عدده من الاسماء غير المهمة
شبيب
مانع
حمود
راشد
مغامس
محمد
عبد العزيز
محمد
عبد الله
(سعدون)
ثامر
ثجمان
ناصر
ثويني
علي
فهد باشا
عبد المحسن بك *
عبد الله
مشاري
صالح
عبد المحسن
براك
ناصر
صبيح
راشد
منصور
محمد
حمود
فيصل
مجيد
برغش
سليمان
عبد العلي
عبد الله
على
بندر
فهد
عيسى
عجيل
فارس
ناصر باشا
مزيد
فالح باشا
عبد اللطيف
عبد العزيز
عبد الرزاق
عبدالله
عبد الكريم
منصور باشا
سليمان
علي
فهد
فهد
سعدون باشا
ثامر
عجمي باشا
عبدالله
سمير
ثويني

تماري - صاحب التيمار الملزم بالخدمة العسكرية في أمرة السنجق بكي .

جبيه جي - (تركية) جندي من الجنود القديمة (الامبراطوريه) المختصة بالاسلحة وبعهدتها المدفعية ومخازن الاسلحة .

خلعه - (عربية) بزة الشرف .

دره بكي - (تركية) صفة للحكام (العشائريين بعضا) المستقلين في مناطق داخلة اسميا ضمن ولاية من الولايات التركية .

دفتردار - (تركية) رئيس موظفي الواردات والخزينة في الولاية .

ديرة - (عربية) منطقة مخصصة برعي الحيوانات لقبيلة من القبائل .

رئيس افندي - (عربية تركية) مختصرة من « رئيس الكتاب » ، وهو الوزير العثماني المختص بالشؤون الخارجية (تحت الصدر الاعظم) حتى القرن التاسع عشر .

زعامة - (عربية) وحدة اقطاعية قيمتها من عشرين الف « آقجه » فما فوق .

زعيم - صاحب الزعامة .

سباهي - (ايرانية) جندي خيال (١) يقدمه الاقطاعيون لخدمة موقتة ، (٢) جندي من الجيوش الخيالة النظامية الامبراطورية .

سراغليو - تحويل اوربي لكلمة سراي .

سردار - (تركية) القائد العام .

سرعسكر - (ايرانية عربية) القائد العام .

سقاء - (عربية) نوع من الجند مختص بالماء .

سنجق - (تركية) بمعنى علم ، وهي منطقة يحكمها سنجق بكي بمقام وحدة اقطاعية ، واصبحت بعد ذلك تعني وحدة ادارية تابعة للايالة ويحكمها متصرف .

السنيور الكبير - لقب اوربي للسلطان .

صكبان - (ايرانية) تعني اصلا مراقب كلاب صيد السلطان ، واصبحت بعد ذلك تعني صنفا من الجنود المندمجة بالانكشارية ، وفي الاخير اصبحت تعني جندا نظاميا منحطا .

صوباشي - (تركية) كانت يعنى بها فى الاصل موظف لتوزيع الماء وجمع الواردات ، واصبحت تعنى اخيرا ملازم الجند الذى يقوم باعمال الشرطة فى المدن .

طوبجي - (عربية) كانت تعنى فى الاصل جنديا من الجنود غير المحاربة المرتبطة بالجيبهجية ، واخيرا كانت تطلق على الجند الخفيف المجند محليا .

فرمان - (ايرانية) ارادة ملكية تصدر من السلطان بتعيين او باعطاء شيء .

قائمقام - (عربية) تعنى نائب الحاكم ، (١) وبصورة عامة نائبا عن الادارى فى كل وظيفة (٢) والمعنى الخاص انه حاكم قضاء .

قالباق - (تركية) لباس الرأس المصنوع من جلد الحيوان الذى يلبسه الانكشاريون وهو بحجم كبير ، كما يلبسه الجنود الآخرون ولكن بحجم اصغر .

قالباقلي - فوج الجنود النظامية المحلية الذين يلبسون القالباق فى رؤوسهم .

قبطان باشا - (من الايطالية) امير البحر الاعلى .

قبوجي - (تركية) « البواب » ومعنى ذلك حاجب السلطان او رسوله فى مهمة .

قبوقولي - (تركية) « خادم الباب » ، وهذه قوة امبراطورية تعار للخدمة فى الولايات .

قزلرآغاسي - (تركية) امين القسم الخاص (النساء) فى قصر السلطان ، رئيس الخصيان .

قضاء - (عربية) وحدة ادارية بين السنجق (او اللواء) والناحية .

كهية - (تركية) تحريف كلمة كتخدا الايرانية . وتعنى بوجه عام الامين والموظف الكبير . ثم اصبحت تعنى الوزير الاول (لكل شيء) فى حكومة الولاية التي يحكم فيها باشا من الباشوات .

كولة - وجمعها كولهمن (تركية) مملوك ، عبد معتق (من اصل جركسى) .

كونللي - (تركية) نوع خاص من جند الخيالة الخفيفة .

كيديكلي - (تركية) صاحب الملك او الدرجة بطريقة اقطاعية خاصة ، وبصورة

عامـة تعنى تابعا من اتبـاع السلطان او موظفا من موظفيه .

لاوند - (تركية) جند نصف نظامى يجند محليا . وهو فى العراق مكون فى الغالب من الاكراد واللريين .

لواء - (عربية) وحدة ادارية يحكمها متصرف ، او وحدة من وحدات الجيش .

متسلم - (عربية) نائب الحاكم فى سنجق او فى ايالة عندما تكون عـدة أيالات تابعة لباشا واحد .

متصرف - (عربية) حاكـم لـواء او سنجق .

محافظ - (عربيـة) الضابط الـذى يقود الحامية فى القلعة .

مصاحب - (عربيـة) مـن رجـال الحاشية .

مهردار - (تركية) حامل ختم الباشا .

مير آخور - (ايرانية) رئيس الخيلية .

ميرميران - (ايرانيـة) درجـة من درجات الباشوات تقع تحت درجة الوزير وبيك البيكات .

نظامية - او نظام (عربية) الترتيبات الجديدة التـى ادخلهـا السلطان محمود الثانى وخاصة فى الناحية العسكرية من الحكومة . واخيرا اصبحت تطلق على القوات النظاميـة لتفريقهـا عن قـوات الاحتياط .

والي - (عربية) الحاكم العـام فى الولاية .

ولاية - (عربية) آخر شـكل من اشكال الايالة .

ويوضة - (سلافية) بمعنى حاكـم ، اصطلاح شـائع فى الولايات الاوربيـة وفى ماردين ، وهو يوازى درجـــة متسلم .

هايتة - (تركية) قوة الجاندرمة غير النظامية او جنود محلية يستخدمهـا عادة الحاكم المحلى ويدفع لها الاجور ، وهم غالبا من العرق الالبانى .

يرماز - (تركية) سفيـه لا يصلح لشىء .

الفهرست

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

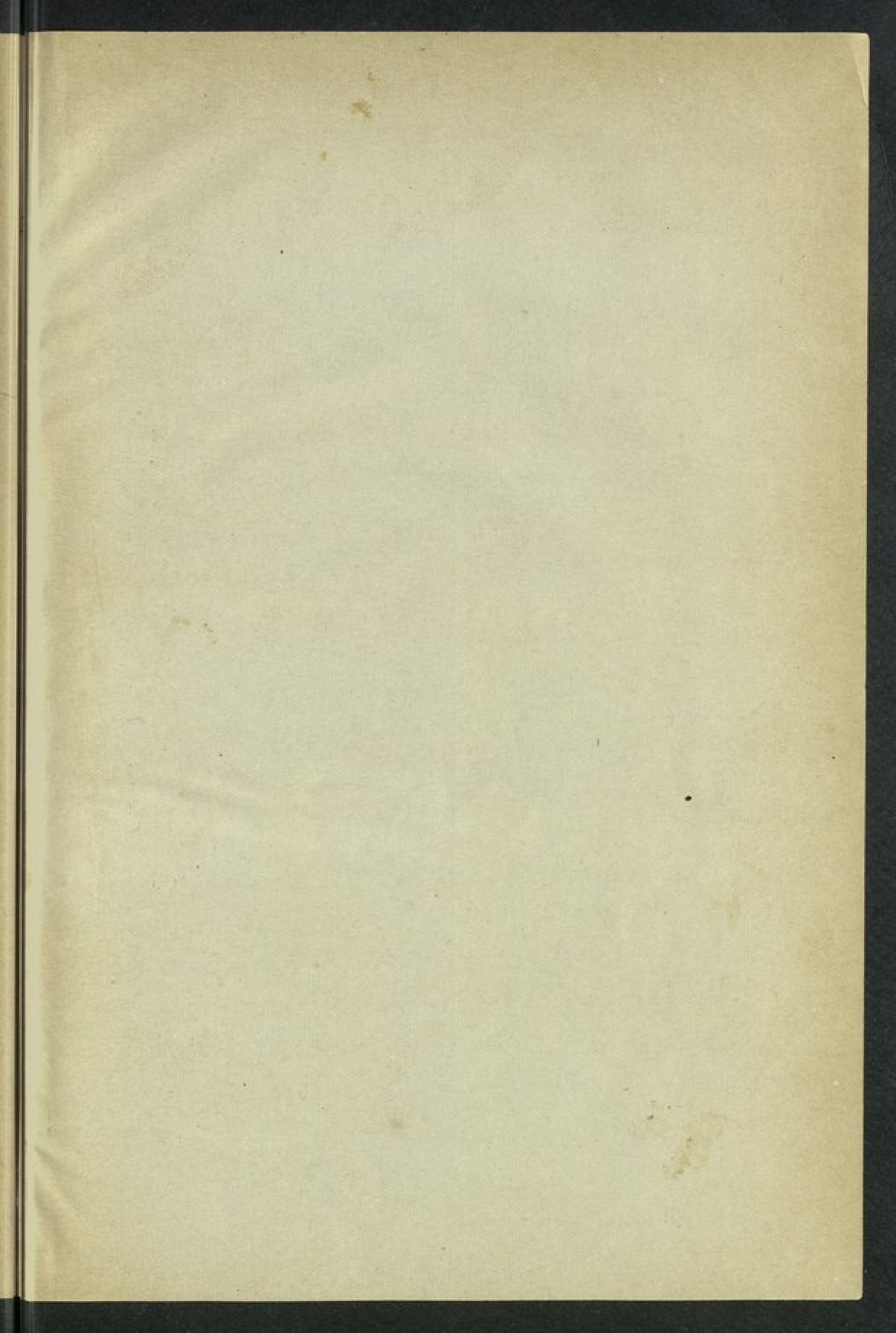
(ط)

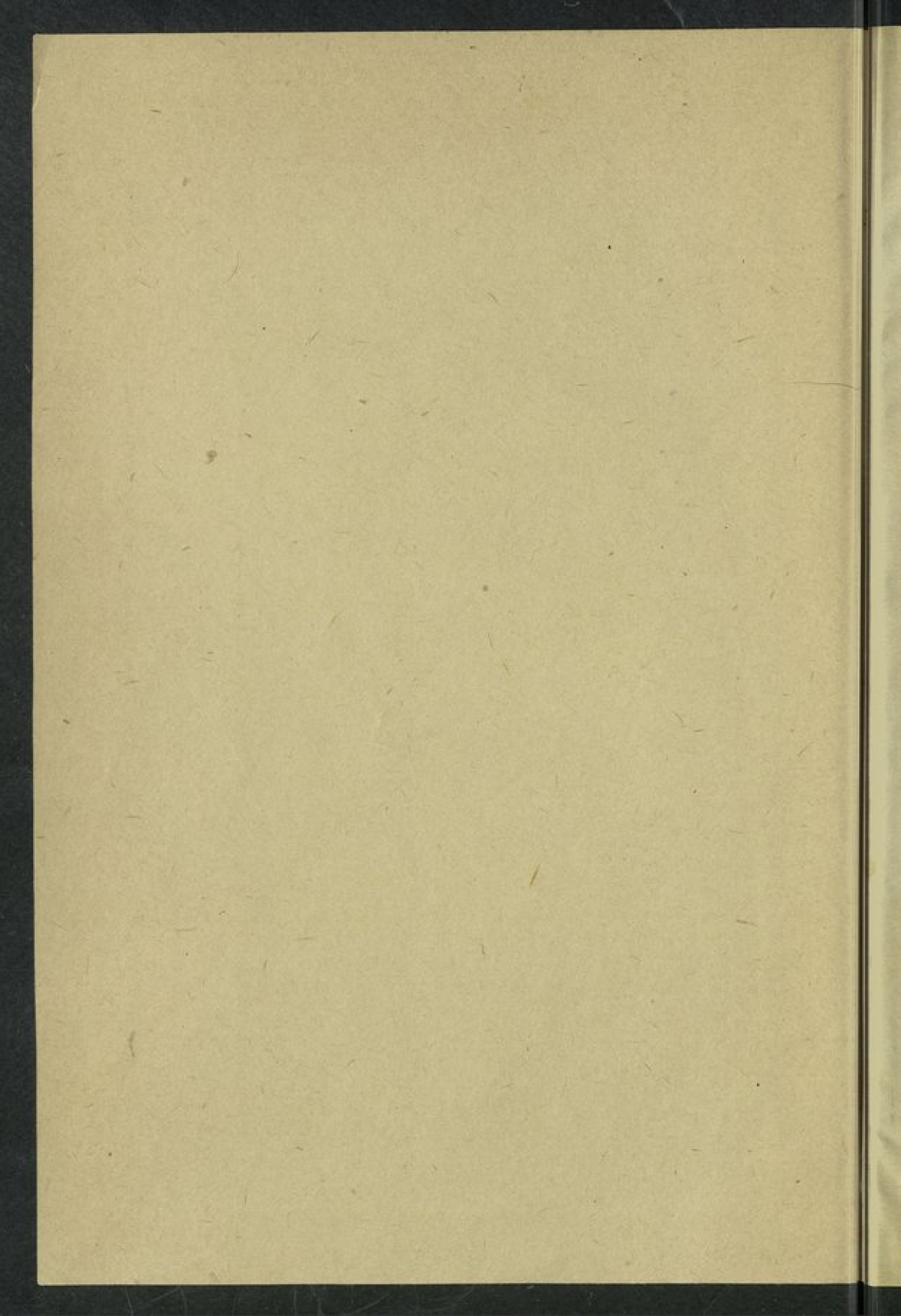
(ل)

(ن)

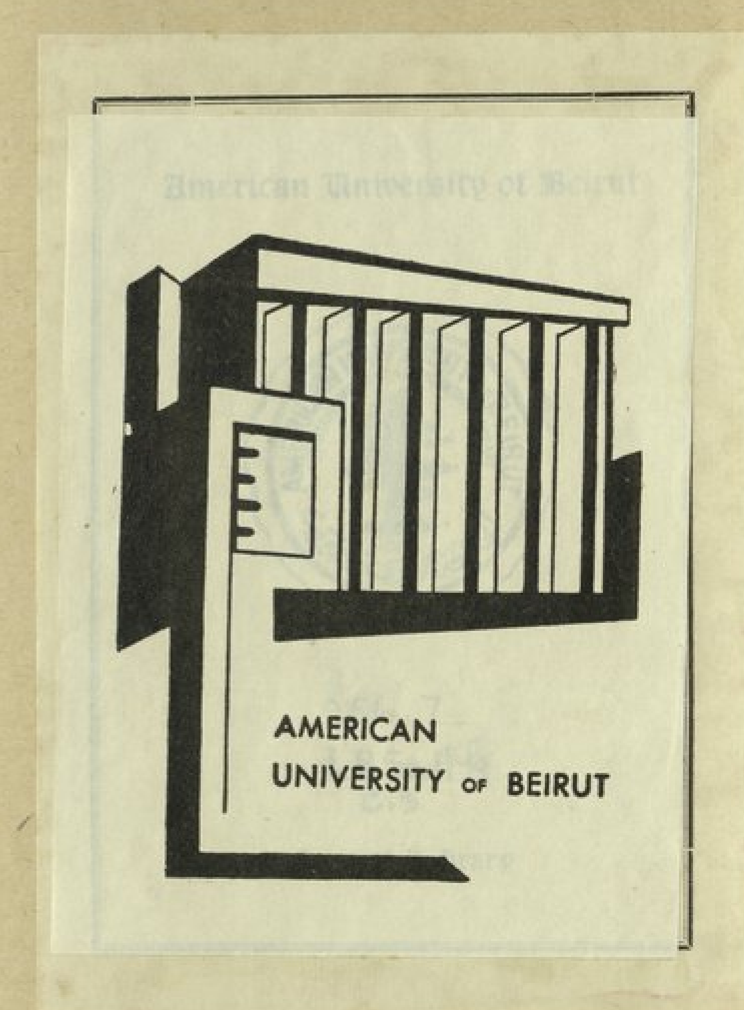
(هـ)

(ي)








AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

